

الأدب في العصر الفاطمي
الكتابة والكتاب



دكتور
محمد زغلول سلام

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه
٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون /فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣

بسـم الله الرحمـن الرحيـم

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

البحث فى تاريخ آداب مصر والمنطقة العربية المحيطة والتى اتصلت بها اتصالاً مباشراً عبر التاريخ منذ أقدم العصور وطوال العصور العربية والإسلامية منذ الفتح وحتى الآن مفيد لا للمعرفة وحدها ، وكشف النقاب عن آداب مصر العربية والإسلامية وحسب ، بل للتعرف على عناصر الأصالة فى مجتمعنا ، ومكوناته البشرية والفكرية والحضارية ، إذ أن كثيراً من عناصر هذه الأصالة فى الشخصية المصرية إنما تمدّ بجذورها إلى تلك الآفاق البعيدة .

ومعروف أن تاريخ كل أمة من الأمم تاريخ موصول ماضيه بحاضره ، وأن بذور القيم الاجتماعية ، والعقدية ، والثقافية بذرت فى الماضى على أرض هذه الأمة لتنبت على مدى الأيام والأزمنة نباتها وتثمر ثمارها ، يمدها روافد من هنا وهناك فتتخذ صفة ، أو لوناً ، أو طابعا بعينه لايغير من أصالتها ، ولايمحو طبيعتها التى استنبتتها أرضها ، وغذاها ترابها .

ولما كانت الهوية العربية هذه الأيام ، والهوية المصرية بصفة خاصة قد تعرضت لكثير من العواصف العاتية نتيجة لحركات ، وانفعالات زلزلت من كيان المجتمع وهزت جوانبه هزاً عنيفاً حتى كاد المراقبون يتوهمون أنها قد عصفت بأصوله واقتلعت جذوره ، فأصبح مجتمعنا بلا هوية ، وصارت التيارات تتجاذبه إلى اليسار حينا وإلى اليمين حينا ، إلى الشرق ساعة وإلى الغرب ساعة ، ظانين أنه قد فقد جذوره التى تمسكه إلى الأرض .

والجيل الجديد من مثقفينا وقد باعدت بينه وثقافته العربية الإسلامية الجادة عوامل عدة ، منها مرحلة التشكيك فى الهوية الإسلامية حيناً والهوية العربية حينا ، والهوية المصرية أحياناً . لم يعد يتعرف طريقاً يهديه إلى ذاته من هو ، وعلى أى أرض تقف به قدمه ؟!.

بل إن بعضا من مثقفينا ــ واعين أو غير واعين ــ سلكوا طريقاً يكرسون فيه هذا الضياع وأعملوا أقلامهم لبث الشتات ، وهدم الذات جريا وراء مايسمى بالوحدة

فى العربية ، أو الأممية الدولية ، أو الأممية الإسلامية .

ولا أنكر أقلاماً وطنية مخلصة ظلت تمسك بهويتها المصرية ذات الأبعاد الثلاثة المصرية والعربية والإسلامية ، أى أن تتمسك بأن تظل اخوية مصرية ذات صفات مكتسبة عبر التاريخ .

وفى مجال الفكر والأدب حاول رجال مؤمنون بوطنهم أن يبرزوا ملامح هذه الشخصية المصرية فى الفكر والأدب العربى ، وبحثوا جادين مخلصين متفانين منكرين لذواتهم أن يوصلوا هذا الاتجاه مما منحوه من فكرهم وجهدهم ولا أنسى أن أشير من رواد هذا الاتجاه إلى الأستاذ أمين الخولى ، والدكتور محمد كامل حسين والزميل الدكتور حسين نصار ، والدكتور عبد اللطيف حمزه .

فقد دأب هؤلاء الرواد الأجلاء على بعث الروح المصرية فى الأدب العربى ، والكشف عن أصولها فى تاريخ الأدب ، وإلقاء الضوء على جهود مصر والمصريين فى العطاء العربى والإسلامى بعد أن تناساها الناس عامدين أو غافلين .

ولاشك أن عودة الروح المصرية إلى أبناء مصر عبر العصور ومن خلال أحياء هذا التراث المصرى الأصيل فى الأدب العربى دَعْمٌ للذاتية المصرية ، ومحاولة لبناء الشخصية المصرية المعاصرة ، وجمع لشتاتها الممزّق بين الهويات لتلتئم فى وحدة واحدةٍ متماسكة هى « مصر » .

ونحس بالجهد الذى تبذله القيادة السياسية فى مصر لإعادة هذه الشخصية فيما ترفعه من شعارات « مصر أولاً » ، « مصر حبنا » ، « صنع فى مصر » ، « الصحوة » . وما إلى ذلك مما يدل على أن فلسفة أو « أيديولوجية » جديدة تتركز فيها إعادة الروح إلى مصر والمصرية قد أخذت طريقها إلى الوجود مرة أخرى على الساحة .

وليس معنى عودة هذه الأيديولوجية فصل مصر عن وطنها العربى بالضرورة بل إن عودة هذه الأيديولوجية تقوية للدور المصرى فى الوطن العربى فهو شحذ للشخصية المصرية لتحسن العطاء ، وليعود للجسد قوته التى تمكنه من أن يحمى ، ويسيد ، بعد أن أزهقته الأيدولوجيات وأضلته الشعارات الزائفة ، حتى حلّت جسده ولم يعد قادراً على العطاء لا لنفسه ولا لغيره .

ولا حاجة إلى أن نعيد التذكير بأن مصر القوية كانت دائماً درعاً لنفسها ولمن حولها ، وكانت نبعاً ثراً ، يكفل الحياة لهذه الأرض بما يمدها به من غذاء الحياة .

عاشت مصر إذاً مرحلة طويلة من تاريخها المعاصر منكرة لذاتها ، وامتد هذا الإنكار للذات إلى جوانب الفكر والأدب . وكان الدرس الأدبي فى معاهدنا وجامعاتنا قاصراً على العصور العربية إبان اكتمال الدولة العربية ووحدتها أيام حكم دولة الراشدين بالمدينة والأمويين بدمشق والعباسيين ببغداد .

ولم يتطرق الدرس إلا نادرا لعصر الدويلات بعد القرن الثالث الهجرى ، أى بعد تقسيم الدولة العباسية إلى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة أو إمارات لاتخضع للدولة فى بغداد ، إلا خضوعاً شكلياً يتمثل فى الخطبة ، ودفع جزء من الخراج .

وهكذا نشأت الدولة الأموية فى الأندلس والدويلات فى المشرق والمغرب ، والإمارات فى مصر والشام والحجاز وفارس .

وتأثر الأدب والفكر العربى والإسلامى فى أنحاء الدولة العربية الإسلامية بالتراث العربى الإسلامى مكونة تلونه من البيئة ، وتوجهه وجهات معينة ، أو تترك به آثاراً تميز كل بلد عن غيره . ومن هنا بدأت ملامح إقليمية تبرز للدارسين لآداب العصور المتأخرة فى الدولة العربية الاسلامية . أو فى عصر عرف بعصر الدول والإمارات ، أو عصر الدول المتتابعة .

ففى أقصى الشرق ظهرت القومية الفارسية بوضوح وأطلت الثقافة الفارسية والحضارة الفارسية ، بل واللغة الفارسية لتصبغ الفكر الإسلامى والحضارة العربية الإسلامية بصبغها الخاص والمميز ، وإن كان هذا الصبغ لم يغب عن حضارة الإسلام منذ فتح العرب لفارس وإن وقف فى وجهه الأمويون ، ولكنه عاد من جديد ليفرض وجوده فى عهد العباسيين حتى برز صبغا فارسياً صارخاً استعاد فيه جماعة من المفكرين والأدباء الفرس مجد حضارتهم القديمة بإعادة لغتهم إلى الوجود لغة للفكر والأدب . ونبغ شعراء أمثال رودكى والفردوسى ونظامى السمرقندي، وسنائى ، وحافظ الشيرازى وغيرهم .

كما ظهرت فى أقصى المغرب فى دولة الأمويين بالأندلس ملامح أدب عربى جديد اصطلح فى تاريخ الأدب العربى على أنه أدب الأندلس ، وكان له صبغ خاص ،

ظهرت علاماته ، فى ألوان من الأدب لم تكن معروفة فى المشرق العربى كالموشح وإن كانت ملامح هذا الأثر غير واضحة وضوح الأثر الفارسى لاحتفاظ العرب فى الأندلس بأصالتهم العربية ، وإن تأثروا بالبيئة الأندلسية والمحيط الحضارى لشبهِ جزيرة الأندلس وأهلها من الفرنجة اللاتين الذين ينتمون إلى شعوب الشمال فى أوروبا والشواطىء الشمالية للبحر المتوسط . كذلك كان الحال فى بلاد المغرب وشمال أفريقيا .

وأظهرت الدراسات الأدبية ماعرف بأدب المغرب والأندلس ، ودرّس بالجامعات ودور العلم العربية وغير العربية تحت هذا الاسم ، وحاول الباحثون فى مجال ذلك الأدب البحث عن خصائص وملامح تميزه عن أدب المشرق ، وربما كانت محاولات المحدثين امتداداً لمحاولات أدباء المغرب والأندلس أنفسهم لإثبات ذاتهم خلال عصور التاريخ العربى والإسلامى فى مواجهة غلبة المشرق ، وعلى اعتبار أن العلم العربى الإسلامى علم وافد من المشرق إلى المغرب ، فيصبح العلم عند المغاربة والأندلسيين علماً تابعاً ، وكذلك أدبهم أدب مقلد ، ومن هنا كانت قيلة المشارقة عند ورود كتاب « العقد الفريد إليهم » : بضاعتنا ردت إلينا .

ولكن الأندلسيين والمغاربة مع ذلك لم يرتضوا لأنفسهم ولا لأدبهم أن يكون بضاعة مزجاة ، أو تقليداً للمشرق ، ولا أن يكتفوا بمقامهم فى الظل ، ويكون الأمر كله للمشرق . وكانت هذه عقدة المغاربة والأندلسيين فى تاريخ العرب والمسلمين: الشعور بالنقص حيال الشرق ومحاولة مغالبة هذا الشعور بشتى الطرق فألفوا من الكتب ماينتصرون به لعلمهم وأدبهم ، وكان كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام ، وكان كتاب « المطرب » لابن دحية ، وكتاب نفح الطيب للمقرى وغيرها من الكتب التى حاولت أن تبرز للأندلسيين والمغاربة دوراً مميزاً ، وملامح خاصة فى ركب الحضارة العربية الإسلامية .

ومصر وسط هذين التيارين المشرق والمغربى الأندلسى وقفت بين بين ، فقد اعتبرها المغاربة من المشرق ، بينما اعتبرها المشارقة باب المغرب ، وعلى هذا الاعتبار كانت نظرة صاحب اليتيمة الثعالبى فى دراسته لآداب أقاليم الوطن العربى والإسلامى فى عصره فى القرن الرابع وأوائل الخامس ، وسار على دربه من اتبع منهجه فى دراسة أدب الأقاليم كالباخرزى صاحب دمية القصر ، وعماد الدين الأصبهانى صاحب الخريدة .

وابن سعيد صاحب المغرب .

على أن المصريين لم يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيلاً للمشرق الإسلامى حينا وطليعة للمغرب حينا ، ففعلوا مافعل المغاربة والأندلسيون بإثبات ذاتهم المصرية وسط التيارين الكبيرين .

وبدأت هذه الذات المصرية تطل من خلال التاريخ الأدبى منذ بدأت تستقل كإمارة لها كيانها الذاتى كغيرها من الأمارات العربية والإسلامية التى استقلت عن الدولة العربية ، وكان ذلك منذ عصر الطولونيين فى النصف الثانى من القرن الثالث .

فقد حاول أحمد بن طولون وخلفاؤه أن يجعلوا من مصر إمارة لها كيانها المادى والفكرى ولها طابعها الخاص بين بلدان الخلافة الإسلامية ، وساعد على هذا بالضرورة ماضى مصر الحضارى وإمكاناتها المادية والبشرية ، وطبيعة أرضها المتميزة بالنيل والشعب الذى يسكن على ضفتيه .

ومنذ عصر الطولونيين شعر المصريون بكيانهم الذاتى ، وإن لم يكن هذا الشعور خافياً أو ضائعا فى العصور السابقة ، بل إن دورهم كان فى الأحداث معروفاً طوال القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح الإسلامى . إلا أن هذا الدور بدأ يتأكد ويأخذ طريقة إلى الوجود منذ عصر الطولونين ، واستمر يتشكل وينمو شيئاً فشيئا فى عهد الإخشيديين حتى جاء عصر الفاطميين ، فكانت مصر مهيأة لأن تأخذ مكانتها وتقف بارزة بمكانها بين أخواتها فى المشرق والمغرب وازدادت هذه المكانة رسوخاً ، فى عصر الفاطميين ، بعد أن جعلوا من القاهرة عاصمة لمصر وقاعدة للخلافة الفاطمية التى ضمت كثيراً من البلاد العربية والإسلامية فى المغرب والمشرق ، بل وناجزت الخلافة العباسية فى بغداد وكادت أن تأخذ منها راية القيادة ، بل إن الخطبة للخليفة الفاطمى أقيمت بعض الوقت فى بغداد على يد أحد الدعاة على ماسنبينه فى موضعه .

أخذت مصر إذا فى عصر الفاطميين وضعاً قيادياً فى العالم العربى والإسلامى ناهضت به العراق وفارس ، وظلت المناجزة بين العباسيين فى بغداد ومن يدعمهم من دول الفرس والديلم الترك وعرب الشام والجزيرة وبين الفاطميين فى مصر ومن يدعمهم من المغاربة وعرب الحجاز واليمن .

وفى ظل هذا الكيان السياسى للدولة الفاطمية أو الأمبراطورية الفاطمية كانت مصر موضع الثقل السياسى والثقافى والحضارى لهذه الإمبراطورية وبنت لنفسها على مدى سنوات هذه الدولة التى قاربت قرنين ونصف من الزمان شخصية سياسية وحضارية وثقافية مميزة . حتى إن خلفاء الفاطميين قد عرفوا مع رجالهم فى كتب التاريخ والتراث لهذه المرحلة باسم المصريين .

حاولت فى الفكر وميادين الثقافتين الدينية الإسلامية والعربية أن أبين سماتها ومهما قيل عن المذهب الفاطمى الإسماعيلى وعن الدعوة الفاطمية الاسماعيلية من أن أصولها مستمدة من المشرق أو المغرب ، فإن هذه الدعوة تمكنت ، وآتت ثمارها واستحصدت فى مصر بما أقامه خلفاء الدولة من دعائم لهذه الدعوة تمثلت فى دور الكتب ، ودور العلم ، والدعاة والعلماء . ولاشك أنهم عثروا فى مصر على ضالتهم من الرجال الذين ثبتوا أركان الدولة على اختلاف مللهم وعقائدهم ، إلا أنهم كانوا مصريين ،كاليهودى يعقوب بن كلس ، ومنشًا والنصارى من أمثال عيسى بن نسطورس .

ولاشك أن المصريين على اختلاف نحلهم من مسلمين ونصارى ويهود قد شاركوا فى بناء الطابع المصرى للفكر والثقافة الاسلامية فى هذه المرحلة ، فضلاً عما أضافة المغاربة كعنصر بارز بتلاحمهم مع الدولة وتلاحم المصريين معهم أرضاً وثقافة .

وطبيعى أن الشخصية المصرية فى هذه المرحلة من الحضارة العربية الإسلامية قد أفادت من جهود كثيرة سابقة فى الفكر العربى والإسلامى ، دخلت البوتقة المصرية ، فأنجزت لوناً جديداً أثرى تيار ذلك الفكر وأضاف إليه إضافات كثيرة ، كما أضاف الأدب بعطائه الكثير للأدب العربى وأمده بتيار لاينكر كانت له أثاره البعيدة فى الأدب المصرى بعد ذلك ، والأدب العربى عامة فى مشرق العالم العربى والإسلامى ومغربه .

وظلت آثار هذا كله طوال عصور الأيوبيين والمماليك .

وحاول بعض الباحثين ممن كلفوا بإظهار دور وعطاء مصر فى الفكر والأدب أن يضعوا أيديهم على مفاتيح كنوز هذا الدور وكانت اجتهادات من سبق إلى دراسة الأدب العربى المصرى فى العصر الفاطمى باعتباره جزءاً من عصور الأدب المصرى أو إفراد هذا الدور بدراسة خاصة .

وكان للدكتور عبد اللطيف حمزة ، والدكتور محمد كامل حسين والدكتور حسين نصار وغيرهم دور كبير فى كشف ملامح كثيرة للأدب المصرى عن طريق دراساتهم القيمة . وما أنجزوه من نشر لجوانب من كتب التراث فى هذه المرحلة .

مثل كتب الدعوة والمجالس الفاطمية التى اختص بها الدكتور محمد كامل حسين ، وأخبار مصر للمسبّحى الجزء الأدبى ، وأخبار مصر والقاهرة من المغرب لابن سعيد والجزء الخاص بمصر من كتاب المغرب ، وكتاب خريدة القصر للعماد الأصبهانى .

كما نشرت بعض دواوين شعراء العصر كديوان تميم بن المعز ، وديوان الشريف العقيلى، وديوان ظافر الحداد ، وديوان ابن وكيع التنيسى .

وخص بالحديث عن أدب الفاطميين بعض هؤلاء العلماء الأفاضل ، وكان فى مقدمتهم الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه القيم « أدب مصر الفاطمية » ، وكتاب الدكتور حسين نصار عن ابن وكيع التنيسى ، وظافر الحداد ، وكتاب « مصر الشاعرة الفاطمية » للأستاذ محمد عبد الغنى حسن .

وقد أفدت فى هذه الدراسة من كل هذه الجهود وغيرها ، وأضفت إليها رؤية جديدة مما أتيح لى الاطلاع عليه من كتب جديدة كانت مختفية فى زوايا النسيان وكشف عنها المحققون مثل كتاب الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت القيروانى ، والمجالس المؤيدية ، وعيون الأخبار فى أخبار الدولة الفاطمية ، والأفضليات لعلى بن منجب الصيرفى ، والجزء الخاص بالأدب فى كتاب المسبحى عن تاريخ مصر ، وكتاب محاسن مصر والقاهرة .. إلى غير ذلك من المصادر والمنشورات النادرة التى لم تكن متاحة للباحثين السابقين .

ولم تكن الزيادة فى مصادر المعرفة بالعصر الفاطمى والتراث الأدبى فيه وحدها التى حفزتنى على الكتابة فى أدب العصر ، بل هناك أسباب أخرى ، منها أن رؤيتى للأدب من خلال النصوص وحدها لاتعطى هذا الأدب قيمته الحقيقية ، بل إن وضع الأدب فى بيئته وعصره ، واكتشاف خفايا العلاقة بين تلك البيئة والأدب شىء هام لتذوقه والتعرف على أسراره . بل واتخاذه صورة تعكس لنا طبائع الناس وحياتهم فى ظروفها بين النعيم والبؤس ، فى حالات جدهم أو لهوهم ، مآسيهم ونكباتهم ، وفترات سعادتهم وبلهنيتهم .

كذلك يكشف لنا أدب العصر بدراسته متصلاً بظروف الحياة والبيئة مدى علاقة إنسان العصر بأرضه ، ووطنه ، وتمثله لعناصر ذلك الوطن ومظاهر شخصيته ومكوناته التى تفرقه عن غيره من الأوطان .

وللشعب المصرى الذى أبدع هذا الأدب ملامحه ، كما أنه بتلك الملامح عكس ذاتيته على ذلك الأدب أو ذلك اللون من الأدب العربى الذى ظهر فى مصر فى ذلك الوقت ، كذلك تفاعل المصرى مع غيره من أدباء الوطن العربى والإسلامى الذين وفدوا إليه أو ارتحل هو إليهم .

وتهتم هذه الدراسة بإظهار هذا كله فى أدب العصر ، ولاتكتفى بتناول جانب دون آخر ، بل تتناول جميع تلك الجوانب فتضعها معاً فى تلاحم وتفاعل .

وقد تفجأنا فى عرضنا لعصور الحياة والأدب بعض المظاهر التى لانعتادها اليوم أو لانسيغها ، وكانت شائعة مستساغة فى وقتها ، كذلك قد تصدمنا بعض صور السلوك أو العادات والتقاليد التى كانت لها انعكاساتها الواضحة على الأدب ، ولانستحى من إيرادها إعمالاً لمبدأ عفة الكلمة ، أو حرجاً من مخالفة لبعض القيم التى تحكمنا والأخلاقيات التى درجنا على رعايتها .

ولو أنا حكمنا مقاييس عصرنا فى هذه الأمور ، وحجبنا مالا نرضى عنه أو نحيناه عن دائرة اهتمامنا ، ولم نعرضه كما كان ، نكون قد قصرنا فى واجب الأمانة فى الدرس ، ولم نوف الموضوع حقه ،ولم نستكمل كل جوانبه ، فيعود قاصراً غير مكتمل الصورة ، مشوهاً ، أو مسخاً ليس مطابقا للواقع الذى نلمسه من خلال المصادر المتاحة . فنزيد بذلك قصوراً على قصور ، نزيد قصوراً من عندنا على قصور التاريخ وعبث الأيام بمصادر ذلك التراث التى لانكاد نتمكن من الإطالة الواضحة خلاله على العصر وأدبه .

وقد نال العبث مصادر هذا العصر حتى عادت الرؤية فيه غير واضحة وعاد الغموض يجلله لولا ماتتكشف عنه الأيام من حين إلى حين ، ومايبذله الباحثون والدارسون من الجهد فى الإمساك بمصباح ديوجين للاهتداء به فى تلك الدجنة الحالكة التى اشتبهت فيها الأشياء ، واختلط الظلام بالنور ، وتضاربت الأحكام .

ولعلنا فى نهاية هذا البحث نستطيع أن نبدد بعض هذا الظلام ، وأن نزيل اللبس فيه

فإذا بلغنا مطلبنا هذا نكون قد بلغنا قصْداً نضيء به نبراساً لمن يأتي بعدنا للسير على هداه حتى يواصل المسيرة ويبلغ بهمته غاية أبعد من قصدنا .

الباب الأول
الحالة السياسية

الحالة السياسية

قام الفاطميون بدعوتهم فى أخريات القرن الثالث الهجرى ، وبدأت سرية ثم أعلنت فى شمال أفريقيا بعد وثوقهم من قوتهم ، وتمت لهم السيطرة على أفريقيا من برقة إلى المحيط الأطلسى بأقصى المغرب ، واتجهت بعد ذلك أنظارهم إلى المشرق ، فزحفوا إلى مصر واستولوا عليها بعد أن حاولوا ذلك مراراً حتى تم لهم اتخاذها قاعدة لملكهم بعد فتحها على يد قائدهم المظفر جوهر الصقلى ، ونزوح المعز لدين الله إلى القاهرة عاصمة ملكه التى بناها قائده .

وكانت القاهرة قاعدة الدولة الفاطمية ومركز نشاطها السياسى والعسكرى والفكرى ، ومنها توجهت جهودهم السياسية ، وانطلقت جيوشهم وأساطيلهم للسيطرة على الشام وجزر البحر المتوسط ، ومقاومة الدولة العباسية والملتفين حولها من أمراء المشرق وزعماء القبائل العربية فى الجزيرة وبلاد الشام وبادية العرب ، ومنها حاولوا السيطرة فكرياً وعقدياً على العالم الإسلامى عن طريق تأهيل الدعاة فى مدارسهم وبخاصة فى دار العلم أو دار الحكمة ودفعهم إلى مختلف بلاد الإسلام شرقاً وغرباً ، جنوباً وشمالاً ليبثوا العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويمهدوا بهذه الدعوة الدينية للسيطرة السياسية .

وكان لموقع مصر والقاهرة الأثر البالغ فى تدعيم أركان الدعوة الفاطمية ، وشد أزر الدولة ، لمالها من ثقل حضارى ووضع جغرافى ومميز بتوسطها العالم الإسلامى ووقوعها فى مفترق الطرق بين المشرق والمغرب ، والشمال والجنوب .

كذلك لما لمصر من أرض خيّرة ، بفضل النيل ، وماأنعم به عليها من خيرات بفضل الله ، يفيض ، فيغدق النعمة ، وينبسط العَيش ، ويلقى الناس بالفرحة، فبه يغاثون ، ويزرعون ويحصدون .

واستطاع الفاطميون باقتدار أن يستغلوا موقع مصر وإمكاناتها الحضارية والبشرية والطبيعية فى تدعيم دولتهم ، وبناء حضارة إسلامية زاهرة متميزة بهذا الفكر الفاطمى

الشيعى الأصول تمتد على بساط من الأرض يكاد يلتهم ماكانت تسيطر عليه الدولة العباسية من المغرب والمشرق حتى دقت عليها أبواب بغداد نفسها ، فخطب لأئمتهم حيناً على منابرها ، ولو مد الله من عمر هذه الدولة وهيأ لها جماعة من كبار الخلفاء الذين أتيحوا لها فى بداية عهدها كالمعز والعزيز والحاكم لكان الشأن غير ماانتهى إليه الحال، ولتغير وجه العالم الإسلامى .

ولكن لحكمة يعلمها الله ظل الصراع بين عنصرى الدعوة الإسلامية أهل السنة والشيعة فى حدود التوازن ، فلم يكتب الغلبة لأحدهما على حساب الآخر حتى جاءت موجة الصليبيين من الغرب لتقلم أظفار الفاطميين وتضعف من قوتهم فى الشام بعد الصراع المتكرر بينهم والروم والبيزنطيين الذى لعبوا دوراً فى تمهيد الأرض للغزوة الصليبية بالشام .

ومهما يكن الموقف من الفاطميين ودولتهم بين مؤيد ومعارض ومنتصر لهم ، فقد لعبوا فى تاريخ مصر والعرب والإسلام دوراً هاماً ظل مايقرب من قرنين من الزمان تركوا فيه آثاراً لاتمحى وظلت بقية فى الحياة والعقائد ، وفى الفكر والأدب وإن حاول معارضوهم تشويه هذا الدور ، ومحو آثاره ، واجتهدوا فى ذلك على ما سنبينه فيما يأتى من سطور وصفحات .

بدأت الدعوة الفاطمية إذا فى أخريات القرن الثالث ، وقد آذنت وسائل التفكك وعوامل الضعف بتقليص سلطان العباسيين والاقتلاع من دولتهم فى المشرق والمغرب ، وبدأت الدويلات والإمارات تنفصل انفصالاً تاماً أو جزئياً عن مركز الدولة بالعراق . وتتابعت الثورات فى أنحاء كثيرة بالجزيرة العربية بساحل الخليج وجنوب العراق وبادية الشام ، وفى أصقاع الشام ومصر واليمن ، وشمال أفريقيا .

وتعددت الدعوات السياسية والدينية ، واستغل الشيعة ضعف الدولة ونفذوا ماكانوا يخططون له من وراثة الخلافة على اعتبار أحقيتهم من العباسيين الذين أقاموا ملكهم على أساس الانتصار لهم والانتقام لقتل الحسين والعلويين واضطهادهم على أيدى الأمويين ، ثم احتازوا الملك والسلطان لأنفسهم ولم يكتفوا بذلك ، بل تعقبوا العلويين ، وحاربوهم وَنَكَّلُوا بهم كما نكل الأمويون بهم بل أشد .

وثارت إذا جماعات وطوائف كثيرة لها تراث لدى العباسيين ، أو تدفعهم أطماع فى الملك ، تشكلت فى التاريخ الاسلامى بأشكال متعددة فمرة فى شكل ثورة الزنج

بالبصرة ، أو دعوة القرامطة بالبحرين وبادية الشام ، أو دعوة الفاطميين بشمال أفريقيا ومصر .

وكانت الدعوة الفاطمية أخطرها جميعاً على الدولة العباسية وأشدها تهديداً وقد احتازت معظم بلاد العالم الإسلامى فى وسطه ومغربه .

قال المقريزى : « فإنهم كانت اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة وملكوا من بني العباسى بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين ، واليمن وخطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبة . » [1].

وتحدثت كتب التاريخ عن بدء الدعوة الفاطمية سرية فى الشام ، ثم ظهر عبيد الله المهدى مؤسس دولتهم ، وجد المعزّ لدين الله على قول معظم المؤرخين وإن خالفهم بعض منهم قائلين إن جد المعز وأول أئمتهم العلنيين هو القائم ، ويشكك بعضهم فى بنوة القائم لعبيد الله المهدى .

ودون الدخول فى تفصيلات هذا الخلاف ولا فى مناقشة أنسابهم وصحة دعوتهم وادعائهم الانتساب إلى على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء بنت النبى ﷺ واتخاذهم من هذا النسب شرعية الدعوة والإمامة ، والخلافة التى سلبت من جدهم على بن أبى طالب ظلما ـــ على قولهم . دون الدخول فى تفصيلات هذا كله نجد أن عبيد الله المهدى هرب من الشام خشية افتضاح أمره إلى مصر حيث اختفى زمناً عن عيون العباسيين واتخذ طريقه إلى المغرب حيث وجد مجالاً لدعوته .

ويبدو أنه تمكن من ضم بعض قبائل البربر من شمال أفريقيا كقبيلة كتّامة وصنهاجة ، فأصبحوا مؤمنين بدعوته ، ونصروه بسيوفهم وعددهم ومكنوا له من أفريقيا فى غفلة من الدولة العباسية وضعفها عن أن تمد يدها فى قوة لتقضى عليهم حتى استشرى أمرهم وكونوا دولة ، وأقام عبيد الله مدينة المهدية بتونس وجعلها قاعدة له .

وأعقب المهدى [2] القائم بأمر الله [3] ، والمنصور [4] بنصر الله ، ثم المعز لدين الله .

---

(١) الخطط ٣٤٩/١ .

(٢) توفى بالمهدية سنة ٣٢٢ هـ ، كانت مدة خلافته اثنى عشر عاماً وستة أشهر .

(٣) توفى سنة ٣٣٤ هـ

(٤) توفى سنة ٣٤١ هـ ومدة خلافة ثمانى سنوات

ونلاحظ أن خلفاءهم اتخذوا لأنفسهم ألقابا كما فعل العباسيون ، كلها تنبىء عن القيام بأمر الدين ونصره ، أو بتأييد من الله وقوته : فالمهدى ، والقائم بأمر الله ، والمنصور والمعز لدين الله ، والعزيز بالله ، والحاكم بأمر الله ، و ... إلخ .
وكلها تنبىء كذلك عن شرعية الإمامة لدى كلّ منهم ، وأنها جاءت بالوصية من الإمام القائم ، أو بوحى وتوفيق من الله . وليست خلافة بيعة من المسلمين أو جماعتهم وأولى الرأى والمشورة فيهم .

وهذا السند الدينى للإمام الخليفة يجعله حاكما مطلقاً ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فأمره مطاع ، وحكمه لايراجع لأنه وحىٌ أو شبيه به . وكما أن الخليفة أو الإمام الفاطمى يملك زمام السلطة الزمنية ، وحكمه فيها لايرد ، كذلك هو يملك زمام السلطة الدينية وحكمه فيها لايرد ، وله حق التفسير والتوجيه للنصوص الدينية مباشرة أو عن طريق الدعاة الّذين يفضى إليهم بسرّه فيعلنوه للناس فى مجالس الدعوة .

وإذا ماقارنّا بين ثلاث الدول الكبرى التى تعاصرت فى هذه المنطقة ، وهى دولتان اسلاميتان وأخرى مسيحية : العباسية ، والفاطمية ، والبيزنطية . نجدها جميعاً تقوم على أساس دينى ، وإن تفاوتت فيما بينها فى الشكل والسند أو الدستور الذى تقوم عليه . فالدولة العباسية اسلامية خلافية ، ليس للخليفة من حق إلهى ، وهو يحكم بالبيعة من المسلمين ، ولهم حق الاعتراض عليه ، وليس شرطاً أن يتوارث الخلفاء منصب الخلافة وإن خالف التطبيق الحكم فكان العباسيون يتوارثون الخلافة كما فعل الأمويون ، وإن من بين ماعتمدوا عليه سوى البيعة انتماءهم إلى بيت النبوة ، واعتبروا الخلافة إرثاً ، كغيرها ، وجادلوا أبناء علي وفاطمة فى أحقية العم العباس على الإبنة فاطمة فى الميراث .

فالخلافة العباسية وإن كان سندها الشرعى البيعة من المسلمين إلا أنها جعلت من حق الوراثة سنداً ثانياً لانتمائهم إلى بيت النبوة . وهم لايقولون بعصمة الخليفة ولابحقه الإلهى ، ولا بالوصية .

أما الخلافة الفاطمية فهى إمامة دينية ، الخليفة فيها هو الإمام المعصوم الذى نال الخلافة بالوصاية . ولاحق للناس فى خلافه أو معارضته ، كما أنه لا حق لهم فى اختياره أو فى بيعته ، فهو موصى إليه بالإمامة على الناس والقيام بأمر دينهم ودنياهم ، وهم مجبرون على الطاعة له والائتمار بأمره . وكل خارج عليه خارج على دينه وماأمر به من

طاعة الإمام ، فهو حكم استبدادى يستند إلى قوة الدين .

وأما قياصرة بيزنطة فكان يتمثل فيهم كذلك السلطتان الدينية والدنيوية منذ قسطنطين وكان القيصر يمثل السلطة الدينية الكبرى أو العليا فهو البطريرك الأكبر وله حق تولية بطاركة الكنيسة وحكام البلاد وأمرائها سواء بسواء .[1]

ومهما يكن من أمر الخلافة الفاطمية وخلفائها ، فإنا نتوقف عند أول من قام منهم بمصر وهو المعز لدين الله الفاطمى ، ولعله أقوى هؤلاء جميعاً ، والمؤسس لدولتهم الكبرى فى المغرب والمشرق .

والمعز لدين الله هو أبو تميم معدّ . تولى الخلافة بعد والده المنصور بنصر الله أو الظاهر اسماعيل سنة ٣٤١ هـ وعمره آنذاك نحو أربع وعشرين سنة .

وشخصية المعز متعددة الجوانب فهو رجل دولة من الطراز الأول داهية ذكى متعدد المواهب ، يعرف كيف يجتذب إليه الرجال ، ويطوى عقول الرعية وينال رضاهم وطاعتهم ، فيتألفهم بالعفو عمن أذنب أحيانا ، وباغداق الصلات وبذل المال أحيانا ، وثالثة قد يغريهم بالمناصب ، أو المنح الغامرة من الدور واللباس ، والمأكل والشراب .

وهو فى الوقت نفسه قوى حازم شجاع لايتوانى عن اتخاذ القرار الحاسم فى الوقت المناسب ، ولايتردد فى مواجهة الشدة وقطع رءوس الفتنة بقوة وعزم .

ومما يروى عن دهائه مانقله المقريزى . قال إن المعز لما كان بعض الأيام استدعى فى يوم شات عدة من شيوخ كتامة ، فدخلوا عليه فى مجلس قد فرش باللبود ، وحوله كساء ، وعليه جبةٌ ، وحوله أبوابٌ مفتحةٌ تفضى إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب ، فقال : ياإخواننا أصبحت الآن فى مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأم الأمراء — وإنها الآن بحيث تسمع كلامى — أترى أخواننا يظنّون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل

---

(١) قد يرى بعض الباحثين أن الدين المسيحى كان يعترف بانفصال السلطتين الدينية والزمنية على أساس ماللقيصر لقيصر ومالله لله . والتاريخ يثبت أن ذلك لم يكن مطبقا تماما فى الدولة الرومانية الشرقية ، وأن اخذت به أوروبا المسيحية فى العصر الوسطى وظلت سلطة البابا وكرادلة الكنيسة بعيدة على سلطان الملوك . وإن خضع هؤلاء الآخرون لسلطة البابوات والكرادلة أحيانا .

ونشرب ، ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمُّور [1] والمسك والخمر والغناء كما يفعل أرباب الدنيا . ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضرتكم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم ، وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا بما لابدّ لى منه من دنياكم ، وبما خصنى الله به من إمامتكم . [2].

وقال : وإنى مشغول بكتب ترد إلىّ من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ، وإنى لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويعمّر بلادكم ويذل أعداءكم ، ويقمع أعداءكم فافعلوا ياشيوخ فى خلواتكم ماأفعله ، ولاتظهروا التكبر والتجبّر ، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم ، وتحننُّوا إلى من وراءكم ممن لا يصل إلىّ كتحننُّى عليكم ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير وينتشر العدل . وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر منهنّ : والرغبة فيهنّ فينتقض عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف غرائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة .

ومع أن هذه الفقرة تصور المعز خليفة زاهداً ، إلا أنه فى الحقيقية لم يعزف عن مظاهر الملك ، وأبهة السلطان ، بل لعله بالغ فيها ، ليكسب الهيبة فى النفوس . وربما تشبه ببعض ملوك الفرنجة والعرب فى اتخاذ التاج . فقد أورد العلامة حسن حسنى عبد الوهاب فى بعض أوراقه أنه كان من عادة المعز وضع التاج على رأسه ، كما وصفه الشعراء بذلك ومنهم ابن هانىء شاعره المفضل [3].

كذلك كان عالماً أديباً يعرف بعض لغات من يحكم أو يتصل بهم سلطانه ، فقد تعلم البربرية ليخاطب البربر ، واليونانية ، والسودانية إلى جانب اتقانه العربية وآدابها ، وتعمقه فى فقه الدين ، وأسرار القرآن ، والسيرة والتاريخ .

واتخذ لنفسه جماعة من جهابذة الرجال لمعاونته فى الحكم ، والتمكين للدعوة على رأسهم الأستاذ جوذر ، والقاضى نعمان ، والوزير يعقوب بن كلّس .

---

(١) الفنك والسمور أنواع من الفرو الفاخر يتخذه الملوك والأمراء لملابسهم شتاء

(٢) الخطط ١/٣٥٢ .

(٣) راجع الأوراق قسم ٢/ص ٢٠٤ .

وقرب جوذر الأستاذ بعد توليه الخلافة واستقراره بالمنصورية ، واسكنه معه فى قصره بدار البحر . وجاء على لسان جوذر أن المعز قال له عند دعوته للاقامة معه فى قصره : « إنك لن تعدم بقربك منا خيراً تفيده ، ومسرةً تغتبط بها ، وتطيب نفساً بورودها ، ونعمة تستحوزها وتستفيدها ، كما لايعدمُ من قرب من عدوّنا ، وحل من خاصته محلك منا من غضب الله ولعنته عنده أجلّ وأعظم مما يظنه أو يسمو إليه أمله . » .

فقبل الأستاذ الأرض بين يديه ومن حضر ممن خصه بقربه ، وحمدوا الله على ما أولاهم من فضله ، وشكروا ذلك له بماقدروا عليه . » [1].

واستغل المعز ذكاءه ، وعلمه ، ومعرفته باللغة والأدب فى خطابته ، وخطابه للناس من رعيته أو انصاره ، وغيرهم ، واستغل عقائد الدعوة الفاطمية للتمكين لنفسه وإمامته . وساعده على تدعيم هذه الإمامة جماعة ممن أشرنا إليهم ممن تعمقوا أصول الدولة وتمكنوا فيها ، وأحاطوا بأسرار الدعوة الاسماعيلية واستغلوا علمهم بشتى العلوم والمعرفة المتاحة لهم من علم الدين والانساب واللغة والحساب والفلك والطبيعة والرياضة والفلسفة والطب والهندسة ، فاستغلوا هذا كله فى تثبيت دعائم الدعوة وتأويل النصوص الدينية بما يضع فى أيديهم حججاً على أقوالهم .

ومن أشهر أولئك العلماء الدعاة الذين ساندوا المعز وثبوا تعاليمه فى الآفاق، كالأستاذ جوذر ، والقاضى النعمان داعى الدعاة .

وكان المعز نفسه لسناً جدلاً يحاور معارضيه ويدفع عن رأيه بالحجج النقلية والعقلية.

واستطاع المعز بسياسته وبعد همته أن يملك شمال أفريقيا من برقة إلى فاس فالمحيط الأطلنطى فى أقصى المغرب ، وضم إليه بعد ذلك مصر والشام والحجاز واليمن وبعض جزر البحر المتوسط مثل صقلية وكريت أو إقريطش كما كان العرب يسمونها .

وبنى أسطولا كبيرا كان يجوب البحر وينازل الروم فى كثير من المواقع البحرية وينتصر عليهم ، كما نازل بعض أعدائه من الأمويين فى الأندلس .

---

(١) عيون الأخبار ص ٣٥ .

المعز وفتح مصر :

لم يكن فتح المعز لمصر أول محاولة من الفاطميين ، بل سبقتها محاولات فى عهد أسلافه القائم والمنصور ، بلغت فيها جيوشهم الإسكندرية وتجاوزتها إلى مابعدها ولكن العباسيين استطاعوا أن يصدوا تلك المحاولات بإرسال جيوشهم يقودها قادة من أمراء الأتراك . مثل مؤنس الرجل القوى آنذاك .

ولكن المعز عمل جاهداً على تحقيق مالم يتمكن آباؤه من تحقيقه ، فأعد لحملته عدتها ، إذ بعث الدعاة لتمهيد الأرض فى مصر لاستقبال الغزاة ، أو كسر حدة المقاومة ، وساعد على ذلك ضعف الدولة الإخشيدية بعد وفاة كافور .

جمع المعز جيشا كبيراً ، ودعيت القبائل إلى الانضمام تحت لوائه . وبعد أن اكتملت تعبئة القوات ، خرج المعز لعرض القوات وتوديع الجيش الذى عين أخذ خلصائه جوهر الصقلى قائداً عاماً له بعد أن حقق انتصارات كبيرة فى شمال أفريقيا ، ووثق المعز فى كفاءته .

وغادر جوهر القيروان فى شتاء عام ٩٦٩ م فى شهر فبراير على رأس جيش تعداده مائة ألف مقاتل مجهزين بخير العتاد ، وعساده من قبيلة كتامة أشد أنصار الفاطميين . وبصحبتهم ألف جمل وعدد لايحصى من الخيل والتى حملت جميعها قدراً وافراً من المؤن والذخائر .

وزحف الجيش شرقاً إلى الحدود المصرية ، واستسلمت الحاميات بالإسكندرية وغيرها ، ونزل الجيزة ثم عبر إلى الفسطاط فاستولى عليها فى شهر أغسطس من العام نفسه .

وبعد أن تم لجوهر الاستيلاء على الفسطاط ، أقطع جنده أرضاً حولها ، ليستقروا بها ودخل القائد مسجد عمرو بن العاص على صهوة جواده الكميت وعليه مطرف حرير موشىّ بالذهب . وفى أول خطبة بالمسجد دعا خطيب المسجد للامام الخليفة المعز بعد الدعوة للخليفة العباسى . ثم قطعت الدعوة للعباسى بعد ذلك .

وضربت السكة الفاطمية ، وأذن بالأذان الشيعىّ حىّ على خير العلم . وهكذا أصبحت مصر دولة علوية فاطمية اسماعيلية منذ ذلك الحين .

وبنى القائد جوهر القاهرة ، وشيد قصراً لسيده الخليفة المعز ، وبنى الجامع الأزهر ، ثم دعا خليفته المعز للحضور .

وجاء المعز من المنصورية فى جمع حاشد ، حاملاً معه كل مااستطاع من مال ومتاع ، بل قيل انه حمل عظام آبائه فى توابيت لدفنها بجواره فى القاهرة .

وعبر بهذا الموكب المهيب حتى بلغ الاسكندرية وانحدر منها إلى الجيزة فلما بلغها لقيه بها جوهر ، وكان قد عقد له جسراً على النيل ليعبره إلى بر الفسطاط والقاهرة ، فعبره حتى بلغ الفسطاط وكانت قد زينت له ، فطاف بها ولم يشقها بموكبه بل اتجه مباشرة إلى القاهرة عاصمته الجديدة .

وحط الرجال مع جميع أخوته وأولاده وسائر أولاد عبيد الله المهدى ،ومن معه من نساء وتوابيت الآباء وذلك فى سبع خلون من رمضان عام ٣٦٢ هـ ومابلغ ساحة القصر حتى صلى ركعتين فاحتذاه من تبعه . وبات ليلته ثم أصبح فعقد مجلساً للتهنئة وأمر بكتابة منشور إلى سائر مدينة مصر باقرار الدعوة الفاطمية والدعاء بعد النبى والصلاة عليه لعلي ابن أبى طالب .

وقيل إن حملة المعز كلفت أربعة وعشرين مليون دينار آنذاك غير ماحمله المعز معه من ذهب وأموال ومتاع لايقدر ثمنه .

كان عمر المعز عند حضوره ثلاثة وأربعين عاماً . وسار فى مصر سياسة تجمع بين الإغراء بالمال والاصلاح بالحسنى ، والحزم الذى لاتهاون معه وقت الضرورة ، تلك السياسة التى عرفت « بسيف المعز وذهبه » . فمن لايصلحه المال ، أصلحه السيف والعكس صحيح ، فإنه قد يبدأ بالسيف من يرى فيه العناد حتى اذا ملكه اصطفاه بذهبه ومايغدق عليه من المناصب والجاه والمال حتى يصبح ولياً طيِّعا .

وسارت تلك سياسة خلفه من ابنائه وأحفاده .

وهكذا أقام المعز دولة الفاطميين فى مصر وجعل عاصمته القاهرة ،.وجعل أسس هذه الدولة قائمة على قوة الجيش والأسطول ، وقوة الدعوة بالعلم وعقد مجالسه فى دار العلم أو الحكمة ، أو بالنصر لاعداد الدعاة والتمكين للدولة عقيدةً ، إلى جانب التمكين بالسلطان والقوة ، وكانت دعامته الثالثة المال ، وقد عمل على أن تصبح الدولة غنية بما

يوفره من اصلاحات ، ومايعقده من صفقات تجارية مع ماحولها من بلدان .

وشهدت مصر فى عهده بدء ازدهار حضارى ، وعصر رفاهية وترف بلغ غايته فى عصر خليفته العزيز وابنه الحاكم .

وفى شهر ربيع الآخر من عام ٣٦٥ هـ توفى المعز وله من العمر خمس وأربعون سنة وستة أشهر . وكان مقامه بمصر سنتين وتسعة أشهر .

العزيز بالله نزار

ثانى خلفاء الفاطميين بمصر ، وثالث أبناء المعز ، وقد ولاه أبوه العهد بعد وفاة ابنه عبد الله الأوسط متخطيا بذلك ابنه الأكبر تميم وهو الشاعر المعروف ، والذى كنى به المعز فعرف بأبى تميم وتحدثت كتب التاريخ عن الأسباب التى جعلت المعز يعدل بولاية العهد عن ابنه الأكبر تميم إلى ولديه الثانى والثالث بعد وفاة عبد الله .

فمن قائل إن سبب ذلك عدم ثقة المعز بولده تميم لأمور لاحظها عليه ، وأنبأه بها الأستاذ جوذر تدور حول طمع تميم فى الخلافة فى حياة والده ، وأن أموراً دارت بينه وبعض أمراء البيت الفاطمى وأبناء بعض الولاة ، وبخاصة ابن والى المعز على صقلية .

ولم يرد المعز أن يأخذ ابنه بالشدة ، بل كان يعمل على مداراته ويدفع بعض رجاله إلى نصيحته وتقويمه هو ومن معه .

وقيل إنه عدل عن توليته لأنه رأى فيه ميلاً إلى اللهو ، والخلاعة وعدم الالتزام بواجبات ولاية العهد ، من حبه للسماع وقول الشعر والغناء مما قد ينتقص من مروءة وهيبة من يرشح للخلافة ، ويريد المعز لمن يخلفه أن يسير على سياسته ليحفظ للدولة قوتها وللخلافة احترامها بين الناس ، والأعداء يرصدونها فى كل مكان ويتربصون بها ، ويبحثون عن زلات تهدم ركن بنائهم .

ومن قائل إن المعز عدل عن ولاية العهد لتميم لأنه لم ينجب ، ولم يكن له قدرة على الإنجاب ، وخشى أن ينقطع نسله ، فتنقطع بذلك دولتهم .

- ومهما يكن من أمر فإن نزارا تولّى الخلافة بعد موت المعز ، وظل أخوه الأكبر بمنأى عن أعبائها ، وبعث يهنىء أخاه شعراً ويعلن له الولاء والطاعة فى كثير من قصائده . إلا

أن هذا الولاء لم يكن خالصاً فيما يبدو ، بل كان يشوبه من حين إلى آخر فكرة فى الخلافة وأنه كان أحق بها ، وكان هذا الفكر ينغص عليه وقته ، ولا يستطيع كتمانه فتبدر منه بوادر تروج فتصل إلى أسماع أخيه الخليفة .

ولكن العزيز بالله كان يدارى أخاه رغم علمه بهواجسه ، ويحاول تعويضه باغداق المال والعطايا كلما سنحت فرصة حتى يشغل بملاهيه وملاذه بين خاصته من الشعراء والجوارى والغلمان وبين الكاس والمطعم والملاشي فى القصور والبساتين ، فلا يفكر فى الخلافة .

وكان يجامله بين الحين والآخر بالدعوة للقاء أو الذهاب لزيارته بين بساتينه وفى قصوره .

ولكن الأمور مع هذا لم تستقم تماماً فيما يبدو بين الأخوين ، وانتهت بأن أحس الخليفة نزار بشيء ما يدبر له من أخيه ، فأمر بإبعاده خارج مصر حتى يطمئن على نفسه وعرشه ، وبخاصة أن أعوان السوء يتحينون دائما مثل هذه الظروف لدفع الشك فى النفوس للتقرب من صاحب الكرسى أو الطامع فيه على حد سواء عسى أن ينالوا مايطمحون إليه من مكاسب .

ونسمع فى شعر تميم أصداء لهذا كله على ماسنعرضه بعد .

وهكذا تولى نزار خلافة الفاطميين إذا بعد وفاة المعز سنة ٣٦٥ هـ ، وكانت ولادته بالمهدية ، وجاء إلى مصر صحبة أبيه شاباً .

وكان شاباً أسمر طويلاً فارعاً أصهب الشعر عريض المنكبين ، حلو العشرة ليس فظاً ، ولاغليظا ، بل مجاملاً ، متسامحاً عادلاً . حليما وقوراً . كثير العفو ، لايؤثر سفك الدماء .

وكان فارساً ، عارفاً بالخيل ، محباً للأبهة وحياة الرفاهية ، ميالاً لبناء القصور واقتناء الجوهر .. ابتدع نوعاً من العمائم المحلاة بخيوط الذهب وسروجاً معطرة بالعنبر ، واقتنى كثيراً من الطرف يزين بها موائده .

جعل نقش خاتمه : « بنصر العزيز الجبار ينتصر الإمام نزار »

وكانت أيامه بمصر أيام دعة ونعمة .

وشغف العزيز بالصيد ، واقتنى جوارح الطير لذلك ، كما جلب الطيور ونادر الحيوان من السودان لقصوره وبساتينه .

وكانت له إلى جانب هذه الهوايات دراية واسعة بالعلوم والآداب وبقول الشعر ، وكانت له كآبائه مجالس علم ووعظ .

واعتاد دخول مجالسه العزيز والذليل ، والقوى والضعيف ، فذاك يسمع علمه ووعظه ويأخذ ، وهذا يسأل نواله فيعطى فوق مايسأل . وقد يشكو إليه المظلوم من ظلم فيعاقب ظالمه بظلمه .

وأمر بالمجالس التى تعقد فى القصر بأن تُدَوَّن وتقرأ على المؤمنين بالعقيدة الفاطمية .

واستطاع نزار بهذه السياسة الحكيمة ، والعدل ، والانصاف أن يكسب ثقة رعيته من المصريين وغيرهم فى سائر البلاد ، وأن يحصل على مودتهم والاستكانة إلى حكمه ، فأمن الداخل ، وفرغ لملاقاة أعدائه خارج البلاد .

وقرب نزار النصارى واليهود فى مصر ، ولعله رأى فى ذلك سياسة تكسر حدة النزاع الدينى بين الطوائف ، بل إنه تزوج أخت أحد البطاركة ليذيب الفوارق الدينية ، أو يخفف من حدتها وليكسب ود النصارى ومن يساندهم من القوى الأخرى خارج البلاد ، وكان فى حاجة إلى أن يكسب ود بيزنطة ، أو أن يهادنها ، حتى يستطيع أن يبنى الدولة دون الحاجة إلى صدام يضيع ثروتها ويبدد امكاناتها . ولعله استطاع أن يبلغ غايته تلك ، بل وأن يعاهد بيزنطة على حماية المسلمين فى بلاد الروم والبلاد الخاضعة لهم ، وإحقاق حقوقهم عملاً بالمثل .

ولم يكن بعيداً عن أذهان الفاطميين وغيرهم من حكام المسلمين أن بيزنطة وقياصرة الروم كانوا يدعمون النصارى فى بلاد الاسلام ، ويعتبرون أنفسهم حماة للنصرانية فيها .

ولعل فى تقريب نزار للنصارى واليهود من المصريين وغيرهم هدفاً آخر هو الإفادة من خبراتهم الإدارية والمالية لمعرفتهم المتوارثة من قديم بشئون هذه البلاد منذ ماقبل العصر الإسلامى .

ولّى عيسى بن نسطورس كتابته ، واستناب بالشام منشّا اليهودىّ فاعتز بهما النصارى واليهود — كقول المؤرخين [1]— وآذوا المسلمين . فعمد أهل مصر وكتبوا قصة (شكوى) وجعلوها فى يد صورة عملوها من قراطيس (ورق) فيها قولهم « بالذى أعزّ اليهود بمنشّا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتى . » ، وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز والرقعة بيدها ، فلما رآها أمر بأخذها ، فلما قرأ مافيها ورأى الصورة من قراطيس علم ماأريد بذلك ، فقبض عليهما — على منشا و نسطورس — وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار ، ومن اليهود شيئاً كثيرا . ».

واعتمد نزار سياسة خارجية حازمة مع أعدائه فى المشرق والمغرب ، وكانت فى عهده أمور المغرب مستتبة إلى حد ما ويتولاها نائبه فى القيروان باديس بن زيرى الصنهاجى. أما المشرق فقد وقف فيه بصلابة فى وجه أعدائه من القرامطة والأتراك والحمدانيين ومن وراء هؤلاء جميعا العباسيون ، كما نكل ببعض زعماء العرب ورؤساء القبائل من طى وكلاب وغيرها وهادنهم أحيانا ، واحتواهم .

وواجه الروم بالحرب البحرية والبرية ، أو بالمهادنة والمسالمة .

وكانت حملاته بالشام وبعض بلاد الجزيرة العربية قد انتهت بتأكيد نفوذ الدولة الفاطمية على معظم بلاد الشام والجزيرة الفراتية والحجاز واليمن . وقاد فى ختام حياته حملة للزحف على أملاك الدولة العباسية ، وكان يطمع بهمته إلى اسقاطها وإقامة الدعوة الفاطمية فى بغداد .

ولكن العمر لم يمتد بالعزيز نزار طويلاً ، فقد توفى فى بلبيس وهو على رأس جيشه الزاحف إلى الشام سنة ٣٨٦ هـ بعد أن تولى الخلافة واحداً وعشرين عاماً وخمسة أشهر ونصفا ، وكانت سنه عند وفاته اثنتين وأربعين سنة وثمانية أشهر .

الحاكم بأمر الله المنصور بن نزار

وشخصية الحاكم أشهر شخصية تولت الخلافة بعد المعز ، بل لعل شهرته فاقت

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير ٧ ١٧٧

شهرة جده ، لما أحاط بهذه الشخصية وسيرتها من غموض وروماسية جعلها موضوعاً لكثير من الروايات الغريبة التي تبعث على الخيال والشطط فيه .

وأما شخصه فقد روى المؤرخون أنه كان ضخم البناء ذا وجه تشوبه سمرة مختلطة بالبياض ، ذا عينين واسعتين انساناهما يختلط فيهما السواد بالخضرة ، ذا وجه مصرى عربى تتجاذبه ملامح الهيبة والسماحة والزهد والانصراف عن الدنيا بالقسوة والصرامة .

ولد الحاكم لأم مصرية ملكانية نصرانية اسمها « تغريد » ، وكان أخواها بطريركين من بطاركة النصارى .

وكانت أمه تجمع بين الجمال الفائق وقوة الشخصية ، مما بهر الخليفة نزار فاتخذها أم ولد أنجبت له بنتا هى ست الملك ، وابنا هو المنصور الذى سمى بالحاكم بأمر الله .

وحاول بعض المؤرخين نفى ولادة الحاكم لهذه السيدة النصرانية إلا أن الوقائع وثقاة المؤرخين يثبتون أمومتها للحاكم وست الملك .

ولايمنع شيء من صحة هذا النسب ، ولاصحة زواج العزيز نزار من السيدة النصرانية الملكانية « تغريد » لتلد له ست الملك والحاكم .

فإن ظروف الفاطميين فى مصر وسياستهم المتسامحة مع النصارى واليهود وماعرف عن تلقى العزيز العلم على يد بعض الاساتذة من نصارى المصريين قبل تولية الخلافة . كل هذا يدعو إلى القول بأن زواج العزيز لهذه المرأة المصرية النصرانية أمر قائم غير مستغرب .

وشخصية الحاكم بغرابتها ، وتصرفاتها بين الزهادة والانصراف عن الدنيا والرغبة فى سلام الرعية والعطف عليهم ، والتردد بين الأحكام بما يصل إلى درجة التناقض أحيانا بين الأمر بالفعل وعكسه كل هذا يغلب الاحتمال بتأثير أمه النصرانية ، وعقائد النصارى ، وبخاصة أنه اعتاد أن يرتاد فى أثناء ولايته ديرا بجبل المقطم عرف بدير القصير ، وأنه كان يلبس الصوف وخشن الثياب كزهاد النصارى ورهبانهم ، ويركب حماراً أبيض ، ويصر على اتخاذ الحمار مركبا له فى غدواته وروحاته ، ومعلوم تلك الصلة بين الحمار والعائلة المقدسة والمسيح عليه السلام ، وقد احتفظت الصور فى بعض الكنائس ودور العبادة المسيحية بهذا الحمار فى صحبة المسيح وأمه .

كانت شخصية الحاكم إذا كما يروى التاريخ ملامحها وسيرتها متناقضة.الطبائع والسلوك بين القسوة وشدة البطش والميل إلى القتل وسفك الدماء ، وأخذ المذنبين بالقوة على عكس آبائه العزيز والمعز ، وبين الطيبة والزهادة فى حياة الملك وترف الخلافة كأبيه نزار ، والانصراف عن بهرج الحياة ، والخلوة إلى بيعة ينصرف إليها فى المقطم وحده ، لا يشاركه سوى خادم وحماره الأبيض .

كما عرف الحاكم بالعطف على الفقراء ، والتسامح مع عامة الناس وكثيرا ماحاول رفع المعاناة عنهم ، بتعقب اللصوص ، والمغالين من التجار ، وإجزال العطاء .

وهذا إلى تدينه وتزمته أحياناً فى سلوكه الدينى مع رغبته الملحة فى العلم ، وتشجيع العلماء . ولهذا بنى دار العلم المعروفة بدار الحكمة بالقاهرة . ولُنشأ كثيرا من المساجد ومنها مسجد الحاكم المعروف بالمسجد الأنور ، ومساجد أخرى فى أنحاء القاهرة . وتعمير كثير مما هدم أو هجر من المساجد القديمة كجامع عمرو بالفسطاط .

وصفه بعض المؤرخين بالجنون لما أصدر من أوامر وقرارات وأحكام ، وماعرف عنه من صور السلوك التى بدت فى عيون الناس غريبة من خليفة للمسلمين وحاكم له تلك المكانة وله ذلك السلطان الواسع ، ويمكن أن يكون انطباع الناس.لأول وهلة تلك الغرابة والشذوذ ، إلا أنهما ربما انطوت بعد تأنى الفكرة ، وأعمالها على عمق فى الفهم ، وحكمة . أو لعلها تكون صادرة عن عقيدة لدى الحاكم ونظرة خاصة ذاتية لها مبرراتها ودوافعها .

وحمل عليه المؤرخون ، والمعارضون له ولعقيدة الفاطميين ودولتهم كثيرا من التصرفات والأفعال التى قد تصدم العقل ، ولاتتفق وسيرة الرجل العامة وظروف حياته كما قيل عن إحراقه بيع النصارى وكنائسهم ، أو ماقيل عن حرقه للقاهرة التى بناها جده ، وشيد هو نفسه أو أمر بتشييد كثير من عمائرها ، وحرص على جعلها لائقة بعاصمة الخلافة حتى تنافس بغداد عاصمة العباسيين منافسيهم التقليديين .

واتهم الحاكم أحيانا بادعاء الألوهية . وهناك وقائع يرويها المؤرخون تبدد هذا الأدعاء وتكذبه منها ماثبت من أقوال بعض المؤرخين كالمقريزى من أنه أخذ من حاول ذلك أخذاً شديداً ، ويذكر هذا الموقف بما وقفه عبد الله بن سبأ من ادعاء الوهية على بن أبى طالب وفتك الإمام به .

ولانريد أن نخوض في جوانب شخصية الحاكم فنحاول اتهامه أو الدفاع عنه ، فق تولى بعض الباحثين هذا الأمر حتى تعود الصورة المشوهة التى حاول معارضوه رسمها إلى الصورة الصحيحة أو القريبة منها على قدر الاجتهاد .

ولاشك أن الحاكم كان خليفة يملك الذكاء والدهاء والفطنة إلى جانب السياس والحزم ، واتخاذ القرار المناسب ، وإلا تفلتت أجزاء الدولة من بين يديه ، وقد و الحكم صبياً ، وأمكنه الحفاظ على البلاد فى أقسى ظروف واجهتها من ثورات داخلية قا بها العربان فى غربى الدلتا وصعيد مصر ، ومنهم عرب بنى قرة ، أو حروب خارجي وإنتفاضات بالمغرب كتلك الثورة العارمة التى قادها « أبو ركوة » الأموى وتبعه جماء من أهل السنة ممن لم يرتضوا مذهب الشيعة الإسماعيلية ، وعززوا أبا ركوة فى المغرب فهزم جيوش الحاكم مرة أثر مرة حتى هاجم حدود مصر الغربية وتوغل فى البلا واكتسح أمامه الفيوم وبعض مدن الصعيد ، وكادت أن تستند مصر فى يده لولا حز الحاكم ودهاؤه وتماسكه وصبره وشجاعته حتى تمكن من عدوه فهزمه بالصعيد ، وقبض عليه وقتله بعد أن شهر به فى القاهرة .

كذلك واجه انتفاضات بلاد الشام ، وعداوة بنى الجراح من طى ببادية الشام وفلسطين ، كما واجه الحمدانيين ، وبنى مرداس الكلابيين بالجزيزة وحلب ودمشق .

كل هذا فعله الحاكم واستطاع أن ينجو بملكه من تلك العواصف العاتية ، وأن يسلم الخلافة إلى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ بعد أن اختفى هذا الاختفاء الغريب والأسطورى الذى فتح المجال أمام كثير من الظنون ، وكثرت حوله الأهاجيس حتى ظنوه رفع إلى السماء !! فى صحراء المقطم .

قضى الحاكم فى الخلافة خمساً وعشرين سنة واختفى وعمره ست وثلاثون سنة ٤١١ هـ . وتولى ابنه الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على بعد فترة من الزمن تحققوا فيها من عدم عودة أبيه ، وتولت ست الملك شئون الدولة ، وكان عمر الظاهر عند توليه ستة عشر عاماً .

وظلت ست الملك عمة الظاهر وصية عليه حتى سنة ٤١٥ هـ حين توفيت ، وكانت أظهرت من الحكمة فى ادارة شئون الخلافة ماحفظ البلاد ، وانفرد الظاهر بعدها بالسلطة

قال فيه صاحب عيون الأخبار [1] ونشر أمير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله عدله وعرف كل الناس فضله ، وقامت به قواعد الملة ، واستقامت الأمور على ساق ، وأخمد الله ناجم البغى والعدوان ، وانتظمت له الأحوال ، ونال به أهل دعوته الآمال وأكثر عليهم من الأنعام والأفضال ، ودانت جهات المملكة ، ولم يعانده فيها معاند خوف الجزاء والهلكة ، وأيد الله به دينه ، وأظهر حججه وبراهينه . وظهرت دعوته لشيراز وأرض فارس والأهواز .

ولم ينتفع بالخلافة طويلاً فقد مرض بالاستسقاء ، ومات بعد أن انفرد بالحكم اثنا عشرة سنة بعد وفاة عمته . وكانت وفاته سنة ٤٢٦ هـ .

وكان الظاهر مترخصاً فى دينه ، لا كأبيه متزمتاً متعبداً ، قيل عن سيرته فى رعيته إنه كان جميل السيرة حسن السياسية ، منصفا للرعية ، وعن سيرته الخاصة أنه كان منصرفا إلى لذاته من شرب للخمر وسماع للغناء ، كما رغّب الناس فى الشراب واللهو وأغفل شئون الحكم ومتابعة مهامه ، وأوكلها إلى وزيره الجرجرائى . فكان هذا بداية لحكم الوزراء . وتسلطهم على شئون الدولة ، وعزل الخلفاء عنها . وقد استشرى هذا الوضع بعد ذلك فى عهود خلفائه : المستنصر ومن تبعه . وصار حكام مصر الحقيقيين أولئك الوزراء الكبار وتلقبوا بألقاب السلاطين ، وجرى على خلفاء الفاطميين ماجرى على خلفاء بنى العباس من تحكم الخدم والقادة وكبار الوزراء من الأتراك والفرس والعرب .

كذلك كان الحال فى عهد الظاهر حيث ضعف سلطان الخليفة وقلت هيبته ، وتحكم جماعة من الخدم وقادة الجند على مايروى أحد مؤرخى العصر المُسبِّحى عمن يدعى شمس الملك ، وهو سودانى أسود من موالى الخلافة وخدم القصر تدرج بتقربه من السيدة والدة الخليفة حتى حظى بالسلطان وصار متصرفاً فى كثير من الشئون .

وواصل الظاهر سياسة جدة فى التأنق ، والحب للأبهة ، فاستكثر من الخدم والجوارى ، وأحب الغناء ، واحتفظ بالجوارى المغنيات ، وشغف بفخامة اللباس ، فلبس الثياب الموشاة بالذهب ، والعمائم المطرزة به . واتخذ المراكب الفخمة ، من الخيل ، تكسى بأغشية من الوشى . واستكثر من شراء الجوهر .

(١) عيون الأخبار ص ٣١٨ .

ورغم هذه المظاهر من الثراء والأبهة للخليفة وحاشيته من الوزراء والأمراء والخدم ، ونساء القصر ، وماتنعم فيه القصور من كل مايعجب العين ويلذ النفس ، فإن أحوال الناس فى عهد الظاهر قد تقلبت ، وتغيرت بين مسرة وألم ؛ وبين نعيم وشقاء .

فقد منى الناس فى أول سنة لانفراده بالحكم بالضيق فى العيش ، واكتناز بعض ذوى النفوذ للمال على حساب عامة الشعب ، وقيام بعض ذوى النفوس الضعيفة باحتجاز بعض الأموال بالباطل تحت رقابة ذوى النفوذ والسلطة ، مما اقتضى الخليفة إصدار منشور يحذر فيه من ارتكاب تلك المخالفات والجرائم فى حقوق الناس والتستر وراء ذوى القربى من أصحاب النفوذ أو الحظوة بالقصر .[1] .

كذلك حدثت بعض الفتن نتيجة اضطراب الأمن فى عام ٤١٥ هـ .

يقول المقريزى :

« وفى هذه السنة كثر الخوف من الزعّار التى تكبس، حتى إنه لما عمل السماط فى عيد النحر بالقصر كبس العبيد على السماط وهم يصيحون : الجوع !! ونهبوا سائر ماكان عليه .

ونهبت الأرياف وكثر طمع العبيد ونهبهم وجرت أمور من العامة قبيحة ، واجتمع نحو من ألف عبد لنهب البلد من الجوع فنودى بأن من تعرض له أحد من العبيد فليقتله » . وندب جماعة لحفظ البلد ، واستعد الناس ، فكانت نهبات بالساحل ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها إلى أن خندقوا عليهم خنادق ، وعملوا الدروب على الأزقة والشوارع » . قال المقريزى : « وانقضت السنة (٤١٥ هـ) والناس فى أنواع البلاء . » [2] .

وهذا الفساد الذى اشترك فيه بعض خدم القصور والعبيد دعا الظاهر إلى إصدار منشور بالتحذير والأخذ بالشدة على يد كل من تسوّل له نفسه الخروج على النظام من رجال القصر أو خدمه وعبيده يقول فيه :

---

(١) ذكره المسبحى ص ٢٤/٢٣ تحقيق وليم ج ميلورد طبع الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠ ونقله المقريزى فى الاتعاظ ١٣٣/٢

(٢) الخطط ٣٥٥/١

« إلى سائر الحاضرين من أنصار الدولة وجنودها ، وسائر الماثلين فيها من خدم المملكة وعبيدها ينهى جماعتهم عن قبول منتسب إليهم أو متطارح عليهم لا اسم له فى الجرائد المجلدة ، ولا رزق له فى العطايا المقررة ، وإسقاط من هذه سبيله ، ووضع اسمه ، وحذف ذكره ، وإزالة رسمه ، والإضراب عن الخطاب بنسب أحد منهم فى حدٍّ أو حقٍّ أو دم ، إذ كان أمير المؤمنين — لمحله من الإمامة ، ومكانه من الخلافة — يأخذ فى الحق من القوى للضعيف ، ومن الشريف للمشروف ، ولاتأخذه لومة لائم فى إقامة حد الله — جل وعز — على واجبه المحتوم .... حتى تتهذب كل طائفة من الدخلاء والأوغاد ، وتتميَّز كلُّ قبيلة من أهل الريب والفساد ... ولتحقق الجماعة أنه من تجاوز مانصىَّ فى هذا السجل فقد تعرض لغليظ الإنكار ، ووجب عليه مايجب على أهل الإصرار بعد الإعذار والإنذار » [1] .

كذلك فإن إباحة الظاهر للناس التمتع بالملاهى والتحرر بعض الشىء بعد سنوات من الكبت عانوها فى عهد الحاكم جعلهم يتمادون ، ويسرفون ، فيقع منهم القبيح فى الفعل والسلوك ، والاستهتار بالمحرمات ، وعدم مراعاة الشعور العام ، والقيم الإسلامية التى تحكم المجتمع مما دفع بالظاهر إلى إعلان منشور أو سجل آخر بالكف عن تلك الأمور المخلة .

يقول المسبحى إنه فى يوم الجمعة لست خلون من رجب سنة ٤١٤ هـ قرىء فى الأسواق بمصر (الفسطاط) سجلٌّ برفع المناكير وترك التظاهر بشىء منها ، وألا تخرج النساء بعد العصر إلى الطرقات بالقرافة للتنزه ، وأن تنزَّه هذه الأشهر — الحرم — الشراف من المناكير ، وأن لايجتمع الناس كما كانوا يجتمعون بالجيزة ولا بالجزيرة ولا بالقرافة على شىء من المحظورات ، وأن يمنع الغناء ظاهراً أو التشهر بشىء منه إلا الغناء بالقصب (يعنى الأرغول — والمزمار — والشبابة) لاغير ، فإنه مباح . » [2].

وانخفض النيل فى هذه السنة نفسها فعانى الناس من شح الأقوات ، واضطر الظاهر إلى أخذ اصحاب المخابز وتجار الغلال وسائر الأقوات بالشدة حتى يخرجوا مالديهم ، ولايرهقوا الناس بما يتقاضونه من سعر غال .

---

(١) أخبار مصر فى سنتين للمحاسبى ص ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤ .

وانقضت سنوات الظاهر بحلوها ومرها ، وإن غلب عليها بسطة العيش وأعقبه ابنه المستنصر .

المستنصر بالله أبو تميم معدّ بن الظاهر

رآه ناصر خسرو فى احتفال الخليج بدء حكمه ووصفه بأنه شاب صغير حسن الوجه حليق اللحية تولى بعد وفاة أبيه ، وقد وافق اسمه وكنيته ، اسم جده الكبير المعز وكنيته ، ولكن شتان بين الرجلين والعصرين . تولى المستنصر سنة ٤٢٧ هـ وعمره سبع سنين وحكم ستين سنة وأشهراً ، وتعد مدة حكمه أطول ماحكم الفاطميون وكانت سنى حكمه الطويلة هذه كمايقول المقريزى جامعة لغرائب الأحوال والأحداث قال : وكانت خلافته فيها أنباء وقصص شنيعة بديار مصر .

كانت أم المستنصر أمةً سوداء لتاجر يهودى ، ولما ولى ابنها صبياً كانت تتدخل فى شئون الدولة كما كانت تفعل بعض نساء القصر مثل ست الملك ، وأم الظاهر فكانت كذلك أم المستنصر تدس أنفها فى أمور الحكم ، وتتدخل فى أعمال الوزراء وكبار رجال الدولة ، بل وتعمل على تقريب واحد وإبعاد آخر ، وتعيين فلان ، وإقالة علّان .

وشهدت خلافته بداية الضعف فى خلافة الفاطميين ، وضياع هيبة الخلفاء . كما شهدت كثيراً من الكوارث والنكبات التى حلت بالناس والدولة ، فقد أصاب الناس الفقر بعد الغنى ، والبؤس والشقاء بعد البلهنية والنعيم ، فحدثت المجاعات وقصر النيل عن مدّه عدة سنوات : سنة ٤٤٤ هـ ، وسنة ٤٤٦ هـ فنال الناس بؤس شديد ، وحدثت تلك الشدة المعروفة فى التاريخ بالشدة المستنصرية حتى أكل الناس الحيوان من القطط والكلاب ، بل تعدى هذا إلى أكل بعضهم بعضا كما تروى بعض الروايات .

وفى عهده غلب الوزراء على الخلفاء ، وكان من كبار وزراء العصر اليازورى ، وبدر الجمالى ، والأفضل بن بدر الجمالى ، ويقال أنه تعاقب فى عصره أكثر من ثلاثين وزيراً .

وغلب ـــ كما يقول المقريزى ـــ الرعاع على القصر فاضطربت سياسة الخليفة ، وتقلبت به الأحوال ، وتناقضت القرارات ، وتزعزعت أركان الدولة بكثرة التغير فى الوزراء والقادة .

يقول المقريزى فى أحداث سنة ٤٥٣ هـ :

« وفى سنة ثلاث وخمسين كثر صرف الوزراء والقضاه وولايتهم لكثرة مخالطة الرعاع للخليفة ، وتقدم الأراذل بحيث كان يصل إليه فى كل يوم ثمانمائة رقعة فيها المرافعات والسعايات ، فاشتبهت عليه الأمور ، وتناقضت الأحوال ، ووقع الخلاف بين عبيد الدولة ، وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم ، وخربت الأعمال وقل ارتفاقها ، وتغلب الرجال على معظمها مع كثرة النفقات والاستخفاف بالأمور وطغيان الأكابر إلى أن آل الأمر إلى حدوث الشّدة العظمى ، وكان من قدوم أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٦٦ هـ وقيامه بسلطنة مصر .

فلم يزل المستنصر مدة أمير الجيوش ملجماً عن التصرف إلى أن مات سنة ٤٨٧ هـ فأقام العسكر بعده فى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه فباشر الأمور يسيرا ومات المستنصر سنة ٤٨٧ هـ بعد تولى الأفضل » .

وحدثت فى عهده أحداث داخلية جسامٌ غير تلك الشدة العظمى ، هدمت من أركان الدولة وزعزعت استقرارها . منها انتفاضة بنى قرة سنة ٤٤٣ ، وهم من الأعراب ذوى القوة فى غربى البلاد كانوا بالبحيرة وزحفوا إلى الفيوم وصعيد مصر ووصلوا فى ثورتهم على المستنصر إلى بر الجيزة وهددوا القاهرة .

ولقى المستنصر كثيراً من المتاعب الخارجية رغم أن سلطان الدولة فى عهده بلغ بغداد ، ودعى له على المنبر فيها بعد استيلاء البساسيرى على شؤون الخلافة العباسية لكن الأمر لم يدم طويلاً ، فسرعان ماعاود الأتراك الكرة ، وأعادوا العباسىّ إلى كرسيّه .

وبدأت فى عهده موجة الحروب الصليبية ، واستولى الصليبيون فى أخريات عصره على أجزاء من الشام بمعاضدة بيزنطة .

وخلع المغرب ولاءة للدولة ، وأعلن المعز بن باديس استقلاله والدعوة لبنى العباس من جديد ، واحلال مذهب أهل السنة محل مذهب الفاطميين الذى فرضوه على تلك البلاد مدة قوتهم . وقد دعا هذا العمل من بنى صنهاجة حكام القيروان إلى أن يطلق الخليفة بايعاز من الوزير البازورى قبائل بنى هلال وبنى سليم من صعيد مصر ليزحفوا على القيروان انتقاماً من المعز بن باديس . وتم لهذه القبائل الاستيلاء على كثير من ملك

الصنهاجيين وتخريب القيروان . وخلدت تلك الهجرة العربية فى ملحمة « بنى هلال » الشعبية التى تتردد على ألسنة الشعراء الشعبيين فى صعيد مصر .

ويرجع ابن الأثير أسباب ضعف الخلافة فى عهد المستنصر إلى عدة أسباب منها : أن والدة الخليفة فى بدء عهده كانت غالبة على أمره ، وأنها اصطنعت التسترى اليهودى فصار وزيراً لها ، وأصبحت تدسّ لقتل من لايعجبها من الوزراء وتولّى من تريد حتى ولى الوزير اليازورى ، فلم يخضع لها وقتل ثم وزر بعده البابلى .

ونشوب النزاع بين العبيد السودانيين والأتراك من جند الخلافة ، وكانت أم المستنصر تغرى السودانيين من بنى جنسها بالأتراك ، بينما كان المستنصر ينتصر للاتراك على السودانيين !! . وحدثت بين الفريقين معارك طاحنة خربت لها البلاد . وهزم السودان ، وانتصر الأتراك فطالبوا برواتبهم ، وكانت خزانة القصر خاوية ، فاعملوا النهب وسيطروا على القاهرة وماحولها ، وانهزم السودان إلى الصعيد ونهبوه وسيطروا عليه .

كما أن ناصر الدولة الحمدانى جاء إلى مصر ، وشارك فى كثير من الأحداث العظام التى أقضت مضجع الخلافة الفاطمية قبل وصول بدر الجمالى ، بما أعمل من الفساد وارتكب من الآثام ، ومادار بينه وبين غيره من الفئات من قتال .

وهكذا انقضى عهد المستنصر والخلافة الفاطمية فى مصر قد ثلّت عروشها ، وانزوى الخليفة فى قصره لايملك من أمره شيئاً ، بل يملك أمره غيره من الوزراء ، وتسلطن الوزراء ، وامسكوا بأيديهم زمام الحكم كما فعل البويهيون والسلاجقة بخلفاء العباسيين فى بغداد . والتاريخ يعيد نفسه ، وتتكرر الأسباب والمسببات التى تؤدى إلى النتائج نفسها فى ضعف الدول وانكسار شوكتها .

ومات المستنصر ولاحول له ولاقوة سنة ٤٨٧ وكان عمره سبعاً وستين سنة وتولى بعده ابنه المستعلى .

المستعلى

وتولية المستعلى بالله كانت بمؤامرة من الوزير الأفضل ، لأنه كان ابن أخته ، فأقامه بدلاً من نزار الذى كان مستحقاً للخلافة بتوصية أبيه المستنصر .

يروى ابن سعيد خبر وصية المستنصر لنزار ولده دون المستعلى بالله أبو القاسم أحمد فيقول : [1]

« وصل إلى المستنصر الحسن بن صباح القائم بدعوة الاسماعيلية النزارية فى زى تاجر فكلمه فى إقامة الدعوة له فى بلاد العجم ، فأذن له فى ذلك سرًّا . فأظهرها ابن صباح واستولى باسمه على القلاع والبلاد . وقال المستنصر : ومن إمامى بعدك ؟! فقال : ابنى نزار — وهو أكبر أولاده ، فخطب له وقام بدعوته . فلما مات المستنصر عدل الأفضل الوزير عن إقامة الدعوة لنزار وأقامها لأخيه المستعلى وثار نزار بالاسكندرية ، وبايعه أهلها وسموه : « المصطفى لدين الله » فخطب لنفسه ولعن الأفضل ، وتجهز الأفضل له ، فحصره بالإسكندرية ، وجاء به أسيراً إلى المستعلى ، فبنى عليه حائطا فمات .

واحتال ابن صباح فى وصول بعض أولاد نزار إليه ، فوصل وأقام دعوته .

وكان المستعلى قد ولد سنة ٤٧٦ هـ وبويع له بعد موت أبيه على ماذكرنا وله من العمر عشرون سنة وقضى فى الخلافة سبع سنين ، وظل الأفضل خاله وزيراً له ومستولياً على البلاد طوال مدة خلافته . وتوفى سنة ٤٩٥ هـ .

وخلفه ابنه الآمر وكان صبياً فى الخامسة من عمره، ووزيره آنذاك الأفضل المتحكم فى دولته .

وظل الأمر بيد الأفضل حتى قتل سنة ٥١٥ هـ ، فوزر له من بعد المأمون البطائحى فاستولى عليه كذلك وأساء السيرة فقتله الآخر سنة ٥١٩ هـ وقتل معه خمسة إخوة .

وكان من سياسة الأفضل وغيره من وزراء الدولة الذين استبدوا بالأمر منذ عهد المستنصر أن يشغلوا الخلفاء الصغار باللهو والملاذ ، وأن يغرقوهم فى مثل تلك الأمور لتبعدهم عن مهام الملك .

ويصف المقريزى استيلاء الأفضل على المستعلى ابن أخته فيقول : [2]

« وبويع بالخلافة سنة ٤٩٠ هـ يوم مات أبوه وهو طفل ، فأحضره الأفضل ابن أمير

---

(١) النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة تحقيق د . حسين نصار ص ٨٠ .

(٢) الخطط ٢/٢٩٠

الجيوش ، وبايع له [1] ونصبه مكان أبيه ، ونعته بالآمر بأحكام الله ، وركب الأفضل فرساً ، وجعل فى سرجه شيئاً مرتفعا وأركبه عليه لينمو شخص الآمر ، وصار ظهره فى حجر الأفضل ، فلم يزل فى حجره حتى قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة ٥١٥ . » .

فقال المقريزى : « فاستوزر الآمر بعده القائد أبا عبد الله محمد بن فاتك البطائحى ولقبه المأمون ، فقام بأمر دولته إلى أن قبض عليه ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة ٥١٩ هـ . فتفرغ للأمر بنفسه ، ولم يبق له ضد ولا مزاحم ، وبقى بغير وزير ، وأقام صاحبى ديوان أحدهما جعفر بن عبد المنعم ، والآخر سامرىٌّ يقال له يعقوب بن إبراهيم ومعهما مستوف يعرف بابن أبى نجاح كان راهباً ثم تحكم هذا الراهب فى الناس وتمكن من الدواوين ، فابتدأ فى مطالبة النصارى ، وحقق من جهاتهم الأموال وحصلها أولاً فأولا ، ثم أخذ فى مصادرة بقية المباشرين والمعاملين والضمناء والعمال ، وزاد إلى أن عم ضرورة جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة بحيث لم يخل أحدٌ من ضرره ، فلما تفاقم أمره قبض عليه الآمر وضربه بالنعال حتى مات !! ، فجرَّ إلى كرسى الجسر وسمّر على لوح وطرح فى النيل وجذّف حتى خرج إلى البحر المالح » .

وكان الآمر شاباً أسمر شديد السمرة ، ــ لعله لجدته أم أبيه ــ حفظ القرآن صغيراً كعادة غيره من أبناء الخلفاء .

وكان يعشق اللهو والغناء ، ويقول الشعر . ومن شعره :

دع اللوم عنى لست منى بموثق ... فلا بدلى من صدمة المتحنّق
فأسقى جيادى من فرات ودجلة ... واجمع شمل الدين بعد التّفرقِ

ومنه :

أما والّذى حُجّت إلى ركن بيته ... جراثيم ركبان مقلدةٌ شُهبَا
لاقتحمن الحرب حتى يقال لى ... ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم ... فيرضى بنا صحباً ونرضى به صحبا

وأحب الآمر فتاة بدوية ، فشغف بها ، وبنى لها منظرة بجزيرة الروضة سميت

---

(١) لم يكن من عادة الفاطميين عند اقامة الخليفة أخذ البيعة له ، لأن قيام الخليفة الجديد كان بوصية من الخليفة القائم أو السابق ، إذ الخلافة عندهم إمامة بالوصية لا بالبيعة .

« الهودج » وكان يعبر إليها الجسر الممتد على النيل من بر الفسطاط إلى الجزيرة .

وكان يحب النزهة والاستمتاع بالغناء والطرب ، ومركبه للنزهة يوما السبت والثلاثاء من كل أسبوع ، ويركب عشاريه ومن حوله اتباعه فى الخليج حتى قصر اللؤلؤة .

وقام ببعض التغييرات والإصطلاحات الإدارية مخالفاً ماجرت عليه عادة آبائه من الخلفاء ، فبعد أن عزل المأمون البطائحى امتنع عن تولية وزير حتى لايستبد بالأمر وأعاد للخلافة قوتها وامتلك أمور المملكة بنفسه .

قال المقريزى : « وهو الذى جدد رسوم الدولة ، وأعاد إليها بهجتها بعد ماكان الأفضل أبطل ذلك . ونقل الدواوين والأسمطة من القصر بالقاهرة إلى دار الملك بمصر (الفسطاط) . » [1].

« وكان الآمر — كما قال المقريزى — كريماً ، سمحاً إلى الغاية ، محباً للمال والزينة ، وكانت أيامه كلها لهواً وعيشة راضية لكثرة عطائه وعطاء حاشيته بحيث لم يوجد بمصر والقاهرة إذ ذاك من يشكو زمانةَ البتّة إلى أن نكدَّ بالراهب على الناس ، فقبحت سيرته ، وكثر ظلمه واغتصابه للأموال . »

وكثرت المرافعات فى أيامه وأحدثت رسوم لم تكن ،وعمرت بعض الأماكن بالجيزة وتنيس ودمياط .

وكان من رجال دولته المشهورين القاضى الجليس بن نعمة الله بن بشير النابلسى ، كما كان من كتاب انشائه سناء الملك أبو محمد الزبيدى الحسنى ، والشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة ، وتاج الرياسة أبو القاسم على بن منجب الصيرفى ، وابن أبى العرم اليهودى .

وكان نقش خاتمه : « الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين »

رغم أن معظم أيامه كانت رخاء ، إلا أن مصادراته للأموال فى عهد ولاية الراهب كما يقول المقريزى أوقعت الناس فى الخوف والحاجة ، كما أن الغلاء اشتد فى آخر دولته فكان ذلك مما أقلق الناس .

---

(١) الخطط ٢/٢٩١ .

ويتهمه المقريزى رغم مدحه له بالسماحة والأدب بالجرأة على سفك الدماء وارتكاب المحظورات واستحسان القبائح .

وساءت أحوال الدولة الخارجية فى عهده ومنيت بعدة هزائم من الأعداء فقد هاجم الصليبيون بمعاونة الروم البيزنطيين كثيرا من بلاد الشام وثغوره واستولوا على بعض المعاقل والحصون ، فملكت عكا فى شعبان سنة ٤٩٧ هـ وغزة فى رجب سنة ٥٠٢ ، وطرابلس فى ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ ، وبانياس وجبيل وقلعة بنين بعدهما وظلوا يتقدمون ويستولون على البلاد بلداً بعد الآخر حتى سقطت صور سنة ٥١٨ هـ .

وتوجتها الهزائم النكراء التى حلت بالمسلمين بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ٤٩٢ فكانت الطامة الكبرى ، والنقطة السوداء فى تاريخ الفاطميين حتى استعادها الأيوبيون من بعد .

وانتهت حياة الآمر بمقتله على يد النزارية — كما قيل — وهو فى طريقه إلى معشوقته بالجزيرة سنة ٥٢٤ هـ وله من العمر أربع وثلاثون سنة [١].

الحافظ لدين الله : أبو الميمون عبد المجيد : (٥٢٤ — ٥٤٣)

ولم يكن من ولد الخليفة الآمر ، بل كان ابن الأمير أبى القاسم محمد بن الخليفة المستنصر .

« بويع له بولاية العهد فى اليوم الذى مات فيه الآمر — ولم يكن منهم منذ قام المهدى من أبوه غير خليفة الا الحافظ والعاضد » [٢]

قال ابن الأثير[٣]: « ولما قتل الآمر لم يكن له ولد بعده ، فولى بعده ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم ابن المستنصر بالله . ولم يبايع بالخلافة وإنما بويع له لينظر فى الأمر نيابة عن الأمام حتى يكشف عن حمل إن كان للآمر فتكون الخلافة فيه ، ويكون هو نائبا عنه . » .

---

(١) الخطط ٢٩٢/٢ ، والنجوم الزاهرة وحل حضرة القاهرة ص ٨٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ٨٦

(٣) الكامل ٢٥٥/٩

وظل الحافظ نائبا لمدة عامين ، تولى بعدهما الخلافة بصورة رسمية أصلية بعد أن كان يتولاها بالنيابة .

ووزر للحافظ الوزير أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ، فاستبد بالأمر دون الخليفة ، وحجر عليه ، وألزمه بخزانة فى القصر لايدخل عليه أحد إلا من يريده أبو على الوزير . « وبقى الحافظ اسماً لامعنى تحته » على حد قول ابن الأثير .

ونقل ابن الأفضل كل مافى قصر الخلافة إلى داره من الأموال وغيرها ولم يزل الأمر كذلك إلى أن قتل الوزير سنة ٥٢٦ هـ ، فاستقل الحافظ بالأمر وحكم فى دولته وتمكن من ولايته وبلاده .

وظل حال الخلافة الفاطمية فى ضعف ، وقوتها العسكرية فى اضمحلال وأملاكها فى ضمور سواء فى أفريقيا أو الشام والمشرق الإسلامى .

وسبق القول بأن موجة الصليبيين كانت قد بدأت تجتاح الشام فى أخريات القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى.وانتهى الأمر بقيام مملكة بيت المقدّس وإمارات طرابلس وأنطاكية والرها .

كذلك فإن قوة الأتراك السلاجقة ، وهى قوة إسلامية نشأت فى المشرق وحلت محل البويهيين — قد أخذت تتزايد رغم انقسامها إلى ثلاث دول فى العراق وفارس والشام ، وأرمينيا والأناضول .

وبدأت هذه القوة السلجوقية تتحرك فى مواجهة الروم والصليبيين والفاطميين وحدثت مواجهات عديدة بين هذه القوى الثلاث ، تراجعت بعدها قوة الفاطميين وتقلص نفوذهم فى الشام إلى أدنى حد فلم يعد فى أيديهم سوى عسقلان وجزء ضئيل من جنوب فلسطين .

وانشغل خلفاء الفاطميين فى الداخل بالصراعات بين الطوائف والقادة والوزراء .

وكان الوزير ابن الأفضل كغيره من الوزراء المستبدين الذين ساعدوا على اهتزاز صورة الخليفة وضياع هيبته بين الناس ، كما قوضوا من مكانة الخلافة واحترامها بين الرعية .

بل ساعد ابن الأفضل وغيره من أمثاله الوزراءعلى تقويض المذهب الإسماعيلى الذى كانت تقوم عليه دعوة الفاطميين ، ويعتبر المرتكز العقـدى لحكمهم وخلافتهم .

قال ابن الأثير إن أحمد بن الأفضل وزير الحافظ أسقط من الدعاء على المنابر ذكر إسماعيل الذى هو جدهم (الفاطميين) وإليه تنتسب الإسماعيلية وهو ابن جعفر بن محمد الصادق ، وأسقط من الآذان « حى على خير العمل » ، ولم يخطب للحافظ ، وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم وهى :

« السيد الأفضل الأجل سيد ممالك أرباب الدول ، والمحامى عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ، ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره ، والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره ، أمير الله على عباده ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده ، مولى النعم ، ورافع الجور عن الأمم ، ومالك فضيلتى السيف والقلم ، أبو على أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش » .

وغريب أن يدعى رجلٌ لنفسه هذا كله ، مهما كانت مكانته ، أو كانت منزلته فى الدولة ، فما بال رجل يحتل منصب الوزارة غصباً فى دولة تتهاوى أركانها ويتألب عليها الأعداء ويحيطون بها من كل مكان ، وتسقط عنها أملاكها بلدا إثر الآخر ولاتملك ردهم ، ولايطيق هذا الدعى الصمود .. ويكتفى من كل هذا بالكلام دون الفعل ، وكأنه يرضى فى نفسه غروراً يقضه ، وحمقاً دفينا ، مع ضعف عن العمل وقصور فى حماية الثغور ويسمى نفسه بعد هذا شاهنشاها وأميرا للجيوش .

وقد علق ابن الأثير على مااتخذ هذا الوزير لنفسه من ألقاب ودعا الناس إلى الدعاء بها بقوله : « وإنما ذكرت ألقاب أبى على تعجباً منها . ومن حماقة ذلك الرجل ، فإن وزير صاحب مصر وحدها إذا كان هكذا فينبغى أن يكون وزير السلاطين السلجوقية كنظام الملك وغيره يدّعون الربوبية . على أن تربة مصر هكذا تولد ، ألا ترى إلى فرعون يقول أنا ربكم الأعلى !! » .

ويغمز ابن الأثير مصر ، وكأنه يريد أن يقول إنها تصنع المستبدين والفراعين ترفعهم من عامة الناس ، وتضعهم بموضع التقديس ، وتعبدهم عبادة الأصنام فيظنوا أنفسهم آلهة ، وهم من الطين !! .

وتضع الظروف هذا الأرمني الدعي الذى جاء جده من الشام لحماية عرش أسياده ، فإذا به يغصبهم السلطة ، ويتسمى بأمير الجيوش وابنه وحفيده بشاهنشاه ويشاء الله أن يسخر الناس ، والتاريخ من أمراء الجيوش وشاهنشاهات الزمان بأن ساق إليهم جيوشاً عبر البحار لتحتل البلاد ، وتقيم مملكة بيت المقدس ويتراجع هؤلاء أمامهم ولايخذون ، بل يظلون فى تباهيهم وادعاءاتهم ، كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد كما قال شاعر الأندلس :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

وبعد أن قتل الحافظ وزيره المستبد ، شـقِي بابنه ، الذى تدخل فى شئون الخلافة بعد أن بلغ الرجل من الكبر مبلغا ، وظلت أحوال البلاد فى عهده بعد أن حسنت حال الرعية فى سكون ، وإن لم يزد عليها شيء ، وظلت حال الدولة من الضعف وتغلب الأعداء ، لم تستطع استرداد شيء من أملاكها التى فقدتها .

وتولت دولة الحافظ الذى ملك مايقرب من عشرين سنة بلغ منها من العمر سبعاً وسبعين سنة عند وفاته ٥٤٣ هـ أو سنة ٥٤٤ هـ .

الظافر بأمر الله اسماعيل بن الحافظ (٥٤٤ ــ ٥٤٩) وابنه الفائز (فى سنة ٥٥٥)
بويع فى اليوم الذى توفى فيه أبوه ، ووزر له العادل ابن السلّار الكردى ، فقتل وتولى الوزير عباس الصنهاجى ، وتمكن ابنه نصر من الخليفة وولى أبوه الوزارة ، وتقرب هو من الخليفة حتى صار نصر من جلسائه وخدنائه .

واشتهر عباس كما يذكر المؤرخون بالحزم والجلد .
واستطاع عباس وابنه أن يقتلا الخليفة . فسادت الفوضى البلاد ، وظهر وهن الدولة .

وتمكن الصليبيون فى عهد الظافر من الاستيلاء على عسقلان وبعد مقتل الظافر على يد عباس وابنه نصر ، أجلس ابن الخليفة الطفل وله من العمر خمس سنين على سرير الخلافة .

ونهب عباس القصر ، واحتاز كنوزه ، ولم يتم الأمر له ، بل اختلفت عليه الكلمة ،

واستنصر نساء القصر بالملك الصالح طلائع بن رزّيك ، ووجهوا له شعورهن طى الكتب ، وكان واليا على المنيا ، فسار إلى القاهرة ، وفر أمامه عباس بالذخائر التى لا تحصى إلى الشام ، فأسره الأفرنج الصليبيون فى الطريق واستولوا على مامعه وقتلوه .

ودخل طلائع إلى القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر ، وشعور النساء التى أرسلت إليه من القصر معقودة على رءوس الرماح .

وفاوض الصليبين فى اعادة نصر بن عباس إلى القاهرة ويترك لهم مالا حتى أسلموه إليه ، فقتله الصالح وصلبه على باب زويلة .

وسكنت الأحوال بعض الوقت فى عهد الصالح ، بعد أن بطش برءوس الفتنة ، وانزل بكبار رجال الدولة العقاب واستولى على الأموال ، واستبد بالأمر إلى أن قتل .

العاضـد لدين الله (٥٥٥ ــ ٥٦٧ هـ)

وهو آخر الخلفاء الفاطميين ، تولى طفلاً ، وقام بأمره الوزير طلائع ابن رزيك حتى قتل فى أحد دهاليز القصر ، فوزر له ابنه رزيك من بعده ، ولكن العرب تمكنوا منه وقتلوه ، وتولى شاور الوزارة ، ونافسه فيها ضرغام ، وقام الصراع بينهما وتدخل فيه نور الدين محمود بن زنكى وملك بيت المقدس ، حتى انتهى الأمر بحريق الفسطاط . فى تلك الفتنة . وجىء أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين .

وبعد موت العاضد . استولى صلاح الدين على مصر وأقام دولة الأيوبيين . وذلك سنة ٥٦٧ هـ .

رســوم الخلافــة

احتفظ الفاطميون طوال مدة حكمهم فى مصر للخلافة ببهاء رسومها ، وفخامة مظهرها بما اتخذوه من القصور الفارهة ، المجهزة بأفخر الرياش والتى حشدوا لها من الأموال لإضفاء الفخامة ماتحدثت به كتب التاريخ حتى عدت من البهاء والرونق ، كما رسمها خيال المؤلف لقصور ملوك ألف ليلة وليلة .

وذكر المؤرخون بناء الخلفاء كثيرا من القصور ، من أولها مابنى للمعز من القصرين الشرق والغربى ، ثم قصر اللؤلؤة، وقصر الذهب وغيرها من القصور والمناظر التى بنيت على الخليج ، أو على شاطىء النيل أو بحيرة الحبش جنوب الفسطاط ، أو بجزيرة الروضة .

وكان ثراء تلك القصور خرافيا .

ففى قصر الذهب كانت توجد قاعتان ، قاعة الذهب، وقاعة الفضة ، الأولى كانت قاعة العرش أو كرسى الخلافة ، والثانية كانت قاعة المجالس والمقابلات وكسيت جدران القاعة الأولى بالذهب وطعم سرير الخلافة بالأحجار الكريمة ووضع على منصة عالية تتصدر القاعة مذهبه ومحلاة بالوشى .

وقد أحاطت أجمات من النخيل المذهب المثقل بحمله من الجوهر على هيأة الثمر والشجر المثقل بالجوهر كذلك على شكل الزهر والثمار ، كما صنعوا من الحلى والأحجار الكريمة على هيأة الطير الواقفة على غصون الأشجار وبعضها صنع من الذهب المزخرف بالميناء متنوعة الألوان ، تصدر منها أصوات أشبه بالصفير والتغريد .

ونجتزىء من بعض كتب التاريخ مايرسم لنا صورة لتلك القصور . يقول المقريزى : (١)

« علم أنه كان للخلفاء الفاطميين بالقاهرة وظواهرها قصور ومناظر ؛ منها القصر . الكبير الشرقى الذى وضعه القائد جوهر عند ماأناخ فى موضع القاهرة ، ومنها القصر الصغير الغربى ، والقصر اليافعى ، وقصر الذهب ، وقصر الاقبال ، وقصر الظفر ،

(١) ٢/٣٨٣ الخطط

وقصر الشجرة ، وقصر الشوك ، وقصر الزمرد ، وقصر النسيم ، وقصر الحريم ، وهذه كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر الكبير ، ويقال لها القصور الزاهرة ، ويسمى مجموعها القصر

وكان بجوار القصر الغربى الميدان والبستان الكافورى . وكان لهم عدة مناظر ودور سلطانية غير هذه القصور ، منها دار الضيافة ، ودار الوزارة القديمة ، ودار الضرب والمنظرة بالجامع الأزهر ، والمنظرة بجوار الجامع الأقمر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج بظاهر القاهرة ، ومنظرة الغزالة ، ودار الذهب ، ومنظرة المقس ، ومنظرة الدكة .. وقبة الهواء بالمقطم (مكان القلعة الآن) والبساتين الجيوشية ، والبستان الكبير .. ودار الملك بمدينة مصر (الفسطاط) ومنازل العز بها ، ومنظرة الصناعة بالساحل ، ومنظرة بجوار جامع القرافة الكبرى المعروف اليوم بجامع الأولياء .. والمنظرة ببركة الحبش » .

ويصف المقريزى القصر الكبير (الشرقى) فيقول :

« وهذا القصر كان دار الخلافة ، وبه سكن الخلفاء إلى آخر أيامهم .

وكان هذا القصر يشتمل على مواضع منها « قاعة الذهب » . وكان يقال لقاعة الذهب قصر الذهب وبهذه القاعة كانت تجلس الخلفاء فى المركب يوم الاثنين ويوم الخميس ، وبها كان يعمل سماط شهر رمضان وسماط العيدين . وبها كان سرير الملك .

ويكون المجلس المذكور معلقاً فيه ستور الديباج شتاء والدبيقى صيفا ، وفرش الشتاء الصوف مطابقا للديباج ، وفى الصيف الحرير مطابقا للدبيقى مابين طبرى وطبرستانى مذهب معدوم المثل . وفى صور المجلس المرتبة المؤهلة لجلوس الخليفة فى هيئة جليلة على سرير الملك ، فيكون فى وجه الخليفة عليه قبالة وجوه الوقوف بين يديه .

فإذا تهيأ للجلوس استدعى الوزير من القطع إلى باب المجلس المذكور وهو مغلق وعليه سترٌ ، فيقف بحذائه ، وعن يمينه زمام القصر (صاحب القصر المشرف على ادارته) ، وعن يساره زمام بيت المال ، فإذا انتصب الخليفة على المرتبة وضع أمين الملك — أحد الاستاذين المحنكين الخواص — الدّواة مكانها من المرتبة ، وخرج ... فإذا الوزير واقف أمام باب المجلس وحواليه الأمراء المطوّقون أرباب الخدم الجليلة وغيرهم ، وفى خلالهم قراء الحضرة ، فيشير صاحب المجلس إلى الأستاذين ، فيرفع كل منهم جانب الستر فيظهر الخليفة جالساً بمنصبه المذكور ، فتستفتح القرّاء بالقرآن الكريم ، ويسلّم

الوزير بعد دخوله إليه ، فيقبل يديه ورجليه ا ، ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع وهو قائم قدر ساعة زمانية ، ثم يؤمر بأن يجلس على الجانب الأيمن ، وتطرح له مخدة تشريفا ، ويقف الأمراء فى أماكنهم المقررة ؛ فصاحب الباب وأسفهلار العساكر من جانبى الباب يمينا ويساراً ، ويليهم من خارجه لاصقاً بعتبته زمامُ الآمرية والحافظية كذلك ثم يرتبهم على مقاديرهم ، فكل واحد لايتعدى مكانه هكذا إلى آخر الرواق ، وهو الإفريز العالى عن أرض القاعة ، ويعلوه الساباط على عقود القناطر ... » .

وهكذا يترتب الناس فى المجلس هذا كلٌّ حسب مقامه ، ومنزلته فى الدولة ويقف الحاجب بالباب ينادى على من يدخل باسمه ، يقول المقريزى :

« فإذا انتظم ذلك النظام ، واستقر بهم المقام فأول ماثل للخدمة بالسلام قاضى القضاة والشهود المعروفون بالاستخدام فيجيز صاحب الباب القاضى — أى يدخله — دون من معه ، فيسلّم متأدبا ، ويقف قريبا ، ومعنى الأدب فى السلام أنه يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة . ويقول بصوت مسموع : السلام على أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته ، فيتخصص بهذا الكلام دون غيره . من أهل السلام .

ثم يسلم الأشراف الأقارب — من الفاطميين ، والأشراف من الطالبيين يقدمهم نقيبهم .

ويدخل بالسلام من خلع عليه الولايات (أى أمراء الأقاليم) .

وبعد أن تنتهى مراسم المجلس ، وأعماله ، يخرج الناس ، أو يؤمرون بالخروج حتى يكون آخر من يخرج الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله ، ويخرج فيركب إلى داره على عادته .. ثم يرخى الستار ، ويغلق باب المجلس إلى يوم مثله فيكون الحال كما ذكر .. » (1).

وقد تبدو هذا المراسم غريبة فى دولة إسلامية يأمر دينها بالبساطة والتواضع وبخاصة من أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، ومن هنا يظهر لقارىء التاريخ الإسلامى كيف أن حكام المسلمين قد ابتعدوا عن روح الإسلام وبساطته ، ونبذوا سيرة النبى صاحب هذه الدعوة ، وخلفائه الراشدين ، واتجهوا بمراسم السلطنة إلى ماورثوه أو تأثروا به عن

---

(1) الخطط ١/٣٨٦

قياصرة الروم ، وأكاسرة الفرس ، وماكان لهم من الطقوس لإظهار الحاكم بمظهر الهيبة والتقديس الذى يقترب من الإجلال والتعظيم للمعبود لا للفرد العادى من البشر ، وإلا ففيم هذه المقصورة والستر وفيم هذا الإجلال والتعظيم ، وفيم هذا الحرس الشديد ، والأعوان وفيم التحقير والتهوين للرعية، وإلزامهم ، بالركوع والسجود وتقبيل الأرض ، وتقبيل الأيدى والأرجل للخلفاء . وأين هذا كله من المثل الإسلامية ، والدعوة إلى أن لايتكبر المؤمن ولا يتجبر ، فإنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا .

وقد وصف الله سبحانه عباد الرحمن بقوله : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ﴾ .

فأين هذه المثل الإسلامية فى القرآن وسنة الرسول وسيرته وسيرة صحابته مما فعله حكام المسلمين والذين ادعوا الخلافة والإمامة من عباسيين أو فاطميين ، ومن غير العباسيين والفاطميين ممن كانوا أقل قدراً ، وإن حاولوا التقليد ، ومحاكاة الكبار .

ولم تكن رسوم الفاطميين قاصرة على مجالسهم فى القصور ، بل تعدتها إلى مواكبهم فى المناسبات والأعياد ، وحتى الخروج للصلاة ، أو النزهة ، أو الصيد .

وننقل عن المسبحى وصفاً لموكب الخليفة الظاهر فى سنة ٤١٥ هـ بمناسبة استهلال رمضان قال : « واستهل شهر رمضان بيوم الخميس ففيه ركب مولانا — صلوات الله عليه — فى عبيده وعساكره ورجال دولته ، وعليه قميص مزركش ، مذهّب ، ديبقىّ وعمامة مذهبة مثله ، وعلى رأسه مظلة مذهبة يحملها نسيم الصقلبى الملقب ببهاء الدولة ، وخلفه ابن فتوح الكتامى يحمل الرمح على رسم أبيه . وخرج بين يديه الأتراك ، والكتاميون ، والقيصرية والعبيد ، والباطلية ، والديلم ، وسائر الطوائف . وركب سائر رجال دولته — عليه السلام — خلفه مع نسيم الصقلبى ولم يستدع من الشيوخ أحداً لمسايرته ، وسار إلى أن قرب من مسجد تبر . وعاد إلى قصره سالما والحمد لله .. » .

وقال فى موكب خروجه لصلاة الجمعة :

« وفى يوم الجمعة لليلتين خلتا من شهر رمضان ركب مولانا — صلوات الله عليه — إلى صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر . وركب بين يديه سائر شيوخه وخواص دولته ،

وعليه طيلسان شرب مفوّط ، وعلى رأسه عمامة قصب بياض مذهبة ، وعليه ثياب دبيقى بياض ، والمظلة دبيقى مذهبة فى ذهابه ، فلما عاد كان على رأسه مظلة دبيقى بياض مختومة ، مذهبة . وطلع معه المنبر قاضي القضاة أحمد بن محمد بن أبي العوام ، وإبراهيم الصائغ المؤدب المعروف بالجليس ، فأرخيا عليه شخص القبة التى فى أعلا المنبر وهى منشأة بمصمت بياض ، والعنبر يُسجَرُ بين يديه فى المداخن الذهب والفضة والجوهر ، وخطب أحسن خطبة وأتمها وأكملها » .[1]

وكان من رسومهم عند تولى الخليفة أن يشق موكبه العاصمة على فرسه والنبلاء وعلية القوم يسيرون خلفه على أقدامهم حتى باب زويلة ، وباب الفتوح ويمر الخليفة على فرسه الأبيض محاطاً بالخصيان يحملون فى أيديهم المجامر يحرّق فيها العنبر والصبر ، وتتطاير أدخنة الندّ .

وكانت العادة أن يسجد الناس على الأرض لحظة مرور الخليفة ووقوع أعينهم عليه داعين له بالخير .

(١) أخبار فى عامى ٤١٤ ، ٤١٥ هـ .

وزراء الفاطميين

اشتهر فى العصر الفاطمى جماعة من كبار الوزراء كان لهم الشأن الأكبر والأثر الواضح فى تسيير دفة الأمور فى الدولة ، وكانوا فى عصر قوة الخلفاء عصر المعز والعزيز والحاكم والظاهر رجالاً مرموقين معروفين بالمقدرة الادارية والعلمية والكتابية ، فكانوا مستشارين للخلفاء ومشاركين فى توجيه سياسة الدولة ، وإن استبد الخلفاء الأقوياء بهم ، فكانت الكلمة كلمتهم على عكس ماحدث بعد ذلك فى عصر ضعاف الخلفاء منذ عهد المستنصر والمستعلى والآمر والحافظ حتى آخر الدولة عندما استبد الوزراء بالأمر دون الخلفاء . فكانوا أصحاب الحل والعقد ، واتخذوا لأنفسهم ألقاب أمراء الجيوش والشاهنشاه ، والسلاطين ، وحجروا على الخلفاء ، فلم يعد لهم ذكر إلى جانبهم .

فمن وزراء الفئة الأولى يعقوب بن كلس [1].

ولم يلقب بهذا اللقب بادىء الأمر ، لأن هذا اللقب لم يكن مقبولاً عند الفاطميين ، « وكان قاضى القضاة أجل أرباب الوظائف عندهم ، ولم يتخذ خلفاؤهم وزراء إلا فى عهد الخليفة الفاطمى الثانى العزيز بالله ، وهو الوزير ابن كلس الذى كان يهوديا فأسلم (توفى عام ٣٨٠ هـ ـــ ٩٩٠ م) [2].

وكان ابن كلس يعمل فى دولة الإخشيد ، وكان « من أهل ملة موسى ودين اليهودية » وهو من أولاد هارون بن عمران ، ثم أسلم أيام كافور الإخشيدى فحسن إسلامه ، وكان ذا فطنة وذكياً ، وكان له تفنن فى علم التوراة وغيرها من العلوم ، ولما وصل القائد جوهر إلى الديار المصرية تعلق بخدمته ، وارتفع عنده فى درجته لما رأى فيه من الفطنة وعلو الهمة وحسن الأدب والنظر من العلم فى كل باب . ثم هاجر إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله إلى أرض المغرب . ولم يزل يعلو صعداً ، ويزدلف علواً مع أولياء أهل الهدى ، وعاد مع المعز لدين الله حين قدومه إلى مصر فارتفع عنده فى الفضل

---

(١) راجع ترجمته فى الكامل ٤٤٨/٧ والاشارة ص ١٩

(٢) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع لآدم متز ١٥١/٢ ـــ ترجمة د. محمد عبد الهادى [illegible]

والقدر حتى جعل له المعز لدين الله فى الوزارة مع عسلوج ابن الحسن فى بقية أيام المعز لدين الله بعد وفاة الوزير أبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات .

ولما جاء العزيز رفع من قدر ابن كلس واختصه بأمور الدولة وأموالها ، رلقبه بالوزير الأجل . وأمر أن لايخاطبه أحدٌ ولايكاتبه إلا به . »[1].

ويقول صاحب عيون الأخبار : « وكان يعقوب الوزير عند إمامه مقرباً ، مكرماً ، معززاً ، مقدماً وله أخلاق سنية وسيرة صالحة ، وأعمال رضية ، وحسن سياسة وعدل ، ومكارم ظاهرة ، وفضلٌ وعلو همة ، مقتفيا فعله لآثار الأئمة متأدباً بآدابهم ، مجهداً نفسه فى سلوك منهجهم ، واقتفاء آثارهم ، محبا للعلم ، مؤثراً لأهله ، مقدماً لهم فى قوله وفعله . » .

وتعمق ابن كلس فى فقه الفاطمية يقول ابن الصيرفى : « فى سنة سبعين وثلاثمائة أحضر جماعة الفقهاء وأهل الفتيا وأخرج لهم كتاب فقه عمله وقال : هذا عن مولانا العزيز بالله عليه السلام عن آبائه الكرام . وقرأ عليهم رسالته وبعض كتاب الطهارة . وهذا الكتاب يعرف بالرسالة الوزيرية . »

وبلغ من العزيز بالله منزلة رفيعة حتى إنه زاره فى مرضه عائدا فقال له : وددت لو أنك تبتاع فأبتاعك بملكى ، أو تفدى ، فأفديك بولدى ، فهل من حاجة توصى بها يايعقوب ؟ . فبكى وقبل يده ، وقال : أما فيما يخصنى فأنت أرعى لحقى من أن أسترعيك إياه .. ولكنى أنصح لك فيما يتعلق بدولتك . سالم الروم ماسالموك ، وأقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، ولاتبق على مفرج بن دغفل متى اعترضت لك فيه فرصة ومات . فأمر العزيز عليه السلام بأن يدفن فى داره فى قبة بناها وصلى عليه وألحده بيده فى قبره وانصرف حزينا لفقده ، وأمر أن تغلق الدواوين أياماً بعده . »[2].

وتعاقب الوزراء من بعده والقائمون بأعمال الوزارة فى أيام العزيز بالله وابنه الحاكم بأمر الله والظاهر ، ولم يكن شأن الوزير آنئذ بالشأن الخطير ، بل كان عمله تدبير الأمور ، والإشراف على الدواوين ، ولم تكن له الكلمة مع الخليفة وإن حاول بعضهم

---

(١) عيون الأخبار ص ٢٢٩

(٢) الإشارة ص ٢٣ .

الاستبداد مثل برجوان فى بداية عهد الحاكم ، فكانت نهايته القتل وهكذا كانت خاتمة كل من حاول أن تكون له الكلمة إلى جانب الخليفة ، أو لاحظ عليه الخليفة انحرافاً ، أو محاولة لاكتساب المال وجمع الثروة ، فتكون النتيجة العقاب الشديد بالإقالة ، والمصادرة للمال ، والحبس ، وقطع اليد ، والقتل .

وقد نكل الحاكم وقتل كثيرا من وزرائه وكبار رجال دولته

وجاء المستنصر بالله فعظم شأن الوزارة لضعف الخليفة ، وتسلط بعض نساء القصر وخدمة ، وبدأ بعهد المستنصر عهد الوزراء العظام ، وأولهم الوزير اليازورى .

اليازورى : أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن

تولى الوزارة للمستنصر عام ٤٤٢ هـ ولقب بألقاب الوزير الأجل الأوحد المكين سيد الوزراء ، تاج الأصفياء قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، علم المجد ، خالصة أمير المؤمنين .|ولقب كذلك بالناصر للدين غياث المسلمين . ثم عوّض من لقب خالصة أمير المؤمنين بخليل أمير المؤمنين .

قال ابن الصيرفى : ونظر فى الوزارة فنهض ، وكان يبدأ باسمه فى عنوانات الكتب ووفّاهُ ملوك الأطراف فى المكاتبة حقه من الرياسة ماخلا المعز بن باديس الصنهاجى صاحب القيروان ، فإنه قصر به فى الكتابة عما كان يكاتب به من تقدمه من الوزراء . فاستدعى نائبه وعتبه عنده عتباً جميلاً .. وهدد اليازورى المعز بن باديس بذبحه وأخذ بسكين من دواته وقال لنائبه :

« اكتب إلى هذا البربرى الأحمق ، وقل له إن عقلت وأحسنت أدبك ، وإلا جعلنا تأديبك بهذه » .[1]

وكان ماكان من خروج ابن باديس وماتحت حكمه فى أفريقيا عن طاعة المستنصر ، والخطبة للخليفة العباس ، وانتقاض أمر الدعوة الفاطمية ، وعودة الدعوة لأهل السنة ومحاصرة الشيعة الفاطميين ، والتنكيل بهم فى القيروان ، مما حنز المستنصر بتحريض من اليازورى على دفع بعض قبائل العربان من صعيد مصر لعرو شمال أفريقيا وتخريب

---

(١) الإشارة ص ٤٢ .

القيروان ، والاستيلاء على بلاد ابن باديس .

وتصدى اليازورى كذلك لبعض الأحداث الداخلية الخطيرة ، ومنها ثورة قبائل بنى قرة والطلحيين فى شمال غرب مصر وبعض مدن الصعيد .

وكان موقف اليازورى حرجاً بهذه الأحداث ، حتى تم النصر ، فاصدر الخليفة المستنصر أمراً قرىء بمساجد مصر وأسواقها يحتوى على تفخيمه وتكريمه ، » وتهدد المشنعين عليه وتمثل لهم بقول الله تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ويتضمن أبيات ابن دانىء :

إنى لما تهواه ركّابُ ... وللذى تخرجُ شرّابُ
لاتالفاً شيئاً ولوديف لى ... منَ كفّك العلقمُ والصّابُ
ماحطّك الواشون من رتبة ... عندى ولاضرّك مغتابُ
كأنما أثنوا ولم يعلموا ... عليك عندى بالذى عابوا

وبهذا ارتفعت منزلته عند الخليفة ، وتمكن منه ، وازداد به وثوقاً . بعد أن حاول بعض معارضيه انتهاز فرصة تلك الأحداث التى أشرنا إليها والدس له والوقيعة حتى تسقط هيبته ، وتتدنى منزلته عند المستنصر .
وحدثت فى عهد اليازورى الشدة المعروفة

ومن الأحداث الخارجية الهامة فى عهده ، انتفاض البساسيرى فى بغداد على الخليفة العباسى وانحيازه إلى الفاطميين ، وقد كاتب البساسيرى اليازورى بذلك ، فعاضده اليازورى وبعث إليه بالمؤيد فى الدين أبى نصر هبة الله بن موسى داعى الدعاة ، وأصحبه الأموال .

وانتصر البساسيرى بتأييد من مصر على طغرلبك التركى السلجوقى فى وقعة سنجار التى قال فيها ابن حيوس (ت ٤٧٣ هـ) :

عجبت لمدعى الآفاق ملكاً ... وغايته ببغداد الركودُ
ومن مستخلف بالهون يرضى ... يذادُ عن الحياض ولايذودُ

واعجب منهما سيفٌ بمصر تقامُ به يستجاور الحدودُ

يغمز الخليفة العباسى لضعفه وتهاونه ويشيد بالفاطميين وقوتهم ، وهمة أعزائهم .

ومن صفات اليازورى — كما روى ابن الصيرفى — أنه كان لايستبد برأيه ، ولا يأنف من مشاورة أصحابه من ثقاة أصفيائه . وكان كثير الحياء .

ومع ماأنجزه اليازورى فى وزارته ، ومع صفاته ، وما قيل من قربه ، وثقة الخليفة المستنصر به إلا هذا كله لم يشفع له فى خاتمة وزارته فقد بلغ التآمر ضده ، والدس عليه واتهم باستحوذ الأموال وتهريبها إلى الشام ، وبوقائع أخرى منها أنه عوّل على الهرب ، فقبض عليه فى محرم سنة ٤٥٠ هـ وسيّر إلى تنيس فقتل هناك .[١]

وتوالى الوزراء من بعده ، واتخذ المستنصر عدداً لم يكن بينهم من بلغ مكانة اليازورى على الرغم مما اتخذوا لأنفسهم أو أضفى عليهم من الألقاب والصفات حتى انتهى الأمر إلى مايشبه الفوضى لكثرة عزل الوزراء وتولية غيرهم ، وتدخل خدم القصر ونسائه فيمن يعزل أو يولى حتى استدعى بدر الجمالى من الشام .

بدر الجمالى : أمير الجيوش المستنصرى

وكان من مماليك الفاطميين ، أرمنى الأصل ، ربّى فى القصر ، وتدرج فى الخدمة حتى ولّى بعض ولايات بالشام ، وصارت له دمشق وسائر الشام .

واستدعى الجمالى من الشام بعد أن فسدت الأمور فى القاهرة ليعيد النظام ، والهيبة إلى قصر الخلافة .

قال ابن الصيرفى : « وكانت الأحوال يومئذ بالحضرة قد فسدت ، والأمور قد تغيرت وطوائف العساكر قد تبعثرت وتحزّبت ، والفتن بينهم قد اتصلت وتأكدت ، والوزراء يقنعون بالاسم دون الأمر والنهى .

والرخاءُ قد أُيسَ منه ، والصلاح لايطمع فيه ، ولو أنه قد ملكت الريف ، والصعيد بأيدى العبيد ، والطرقاتُ قد انقطعت براً وبحراً إلا بالخفارة الثقيلة والكلفة الكبيرة مع ركوب الغرر وشدة الخطر .

---

(١) الإشارة ص ٤٥

والمارقون ينوى بعضهم لبعض الاحتيال والغدر ، ويضمر كلٌّ منهم لصاحبه الاغتيال والبغى . »

وكان سبب استدعاء المستنصر لبدر الجمالى ماأشرنا إليه من الفوضى التى انتهت باقتتال جند الخلافة بين الأتراك والعبيد والعرب ، وكانت الأحداث بين قائدين من قواد الجند هما « بلدكوز » التركى ، وحسن بن حمدان ، وتمكن فى نهايتها بلدكوز من قتل ابن حمدان والاستيلاء على السلطة والحجر على الخليفة .

قال ابن الصيرفى : « وكان بدر الجمالى يتحسر على مايبلغه من أمرها ــ الخلافة والقاهرة ــ ويتلهف على كونه بعيداً عنها ، وينتظر فرصة ينتهزها فى المهاجرة إليها وحين وصله أمر الخليفة المستنصر بالقبض على بلدكوز التركى وايداعه خزانة البنود ، وانتهى أمره بها . هم بالإسراع إلى القاهرة ليرد إليها النظام فكان دخوله فى شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وأربعمائه (٤٦٦ هـ) .

قال ابن الصيرفى : فخلع عليه ورد النظر إليه ويطلق حينئذ أمر الوزارة . »[١].
وفى هذه العبارة الأخيرة دلالة على تغير هذا المنصب ، فلم يعد الوزير كما كان شأنه من قبل من رجال القلم ، بل حل محله من يقوم بأمور الخلافة جامعاً بين عمل الوزارة وقيادة الجيوش ، بمثابة النائب عن الخليفة والسلطان الذى بيده تصريف أمور الدولة كلها كما فعل البويهيون بالخلفاء العباسيين فى بغداد والسلاجقة من بعدهم .

وعمل بدر الجمالى عقب دخوله القاهرة على استتباب الأمن ، وإعادة أمور الدولة إلى ماكانت عليه ، والضرب على أيدى العصاة والمخربين ، ودحر الثائرين والمارقين الطامعين . وأصلح الأحوال بالباب (أى القصر) وأقام الهيبة ، ورفع منار الدولة ورتب الدواوين والمستخدمين ، وقرر أمر الرجال والأعمال على ماهو مستقر . » .

وبعد أن فرغ من ترتيب أحوال الدولة ، ودواوينها ،وإدارتها توجه إلى إخماد الفتنة والقضاء على رءوسها داخل البلاد وخارجها . فتوجه إلى حرب لواته ، واسترد ماكان من الأعمال بأيديهم ، ثم افتتح بعد ذلك بلاد الصعيد ، وجعل الأعداء بين قتيل وجريح وشريد أو طريد .

---

(١) الإشارة ص ٦١ .

وكان أحد قادة الأتراك وهو اتسز بن أدق الخوارزمى قد هاجم شمال البلاد واستولى على بعض قرى الريف فى شمالى شرق مصر ، فخرج إليه بدر الجمالى وكسره وقتل جميع رجاله .

وأخذ بدر فى تقوية الجيش ، والأسطول ، وأساليب الدفاع عن العاصمة حتى لاتحدث أحد الخارجين نفسه بالاستيلاء عليها ، فأقام سور القاهرة الكبير الذى لاتزال بعض أجزائه إلى الآن ، وقوى أبوابه وبنى أبواباً جديدة . يقول المقريزى : أن السور الثانى للقاهرة بناه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وزاد فيه الزيادات التى فيما بين بابى زويلة وباب الفتوح وزاد عند باب النصر أيضا جميع الرحبة التى تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر .

وبنى بعض المساجد ، وقام بالعمارة والإصلاحات فى القاهرة .

وكان فى شخصيته عزوف النفس ، شديد البطش ، عالى الهمة ، عظيم الهيبة ، مَخوُفَ السطوة .

وتوفى الجمالى سنة ٤٨٨ هـ .

الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٨ هـ)

تولى بعد أن اشتد المرض بوالده ، وكان قد خشى أن يثب على المنصب أحد أتباع والده ، واسمه صافى ويلقب بأمين الدولة .

وبعد توليه وصدور المرسوم بذلك من الخليفة الناصر ، لقب كأبيه بالسيد الأجل الأفضل سيف الإمام جلال الإسلام ، شرف الأنام ناصر الدين ، خليل أمير المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه .

وقصة غلام بدر الجمالى صافى مع ابن سيده الأفضل تصور ماكان يحدث بين رجال القصر والخدم من طموح ، وانتهاز للفرص كى يثبوا إلى مناصب الوزارة بالتآمر ، وجمع الأعوان ، والضحك على الناس والتقرب إليهم بكل قول مفترى .

---

(١) الإشارة ص ٥٨

يقول ابن الصيرفى : « وكان سبب توليه — الأفضل — مع بقاء أبيه وحياته والبدار بذلك من غير انتظار لوفاته أن غلاما له يسمى صافيا ويلقب بأمين الدولة كان استخلصه وقدمه وفخمه وعظمه وذخره لعقبه ، وأسلفه حسن الظن به يئس من عافية مولاه فسوّلت نفسه ، وزين له هواه أن ينتصب فى منصبه ويتولى الأمر من بعده ، وجهل أن سيادة البرايا ، وسياسة الرعايا ، ونفاذ الأمر والحكم ، ونيل السلطان والملك شىء لايدرك بالسعى ، والحرص ، ولايُبلغ بأمانىّ النفس ، وإنما هو أمر يخص الله سبحانه به من يصطفيه ، ويعقده تعالى لمن يراه أهلاً أن يجعله فيه . وأخذ أمين الدولة هذا يعجّل تكفير النعمة بغياً واغتراراً ، ويصرُّ على المعصية عتوًّا واستكباراً ، ويستنجد بمن ربّاه مولاه لخدمة ولده من الرجال ، ويستعين بما أعده له وجمعه من الأموال . وجلس فى داره فاجتمع إليه من خدعه واستهواه واستماله واستغواه . وخيل له أن الإمام المستنصر بالله يختاره على السيد الأجل الأفضل ، ويؤثره ، ويعتمد عليه فى دولته ، ويستوزره . فراسله السيد الأجل الأفضل مستميلا له مستصلحاً ومستهجناً لهذا الفعل مستقبحا ، ومذكراً بماله ولوالده عليه من الحقوق ، ومحذرا سوء عاقبة المروق والعقوق . وهو يتمادى فى التمرد والطغيان ، ويستمر على الظلم والعدوان . وركب إلى باب الذهب فى لمته وجماعته طامعاً فى انتظام حاله وبلوغ إرادته ، فلما لم يصل إلى الإمام المستنصر بالله انكسف باله ، واستحكم يأسه ، وصعقت نفسه ، واختلّ أمره . وركب السيد الأجل الأفضل إلى باب العبد فأبى أمير المؤمنين فى أمره إلا حكم الوفاء ، وكرم الخلفاء ، والسمو به إلى أعلا مراتب الاصطفاء ، فحقق له ماتمناه وودّه ، وأجراه مجرى أبيه ، وستر به مستره . فعند ذلك طلب منه أمين الدولة أن يشمله بعفوه ، وأن يؤمنه على نفسه ، فأسعفه بمطلوبه ، وصفح له عن ذنوبه ، وأبقاه واحداً من أمراء الدولة من غير تعويل عليه فى خدمة » .

وهكذا تولى الأفضل بعد أن حاول ذلك الغلام ربيب والده أن يثب على الوزارة والإمارة فضولاً ، وطمعاً .

وجُمع للأفضل ماكان لأبيه من السيف والطيلسان علامة قيادة الجيوش وقضاء القضاة ، أو أعمال الحرب وأعمال الإدارة ، قيادة الجيوش والوزارة .

وظل الأفضل فى منصبه يولى مكان أبيه بعد وفاته ، ومالبث الخليفة المستنصر أن توفى بعده فى العام نفسه ، فعمل الأفضل على تولية المستعلى ابن المستنصر ، وهو فى الوقت

نفسه أصغر أبنائه ، وابن أخت الأفضل ، وكان يكبره ثلاثة إخوة ، أكبرهم نزار الذى كان حين وفاة أبيه بالإسكندرية فلما علم بما فعله الأفضل رفض الطاعة للمستعلى وكان طفلاً ، وغضب على الأفضل واعتصم ومن ناصره بالإسكندرية . ويبدو أن أمين الدولة المذكور كان مع نزار .

وقامت بين الأفضل ونزار أحداث حاصر الأفضل الإسكندرية بجنوده ، ومالبث أن إستسلم نزار للأفضل فجاء به إلى القاهرة أسيراً ، وسلمه للمستعلى فبنى عليه حائطا ومات نزار مقهوراً .

وأشيع أن المستنصر استخلف نزاراً إبنه الأكبر ، وخالف الأفضل هذا الأمر بتنصيب المستعلى ، وثار أنصار نزار وخرجوا على الطاعة ، ولما غلبوا على أمرهم تفرقوا فى البلاد ورفضوا إمامة المستعلى ، ونادوا بامامة نزار .

ومنذ ذلك الحين انقسم الفاطميون الإسماعيلية إلى فرقتين النزارية وأنصار المستعلى . وظل النزارية يتربصون بالأفضل ، والمستعلى حتى تمكنوا منه فقتلوه .

وأخلف الحسن الصبّاح داعية الإسماعيلية لنزار ، ودعا أتباعه إلى إمامته ، واعتصم بقلعة ألموت ببلاد فارس . وكان لهؤلاء النزارية دور كبير فى السياسة والحرب طوال القرنين الخامس والسادس .

وعلى الرغم من أن الأفضل استطاع أن يضبط الأحوال الداخلية فى الدولة ، وأن يخضع الرعية لحكمه ، ويكون هو الرجل الأقوى فى مصر كلها ومايتبعها من ولايات ، إلا أنه منى بكثير من النكسات فى بلاد الشام ، لضغط الصليبيين الوافدين من البحر والروم ، وأعداء الفاطميين التقليديين من الأتراك السلاجقة ، وعَرب طي بزعامة بنى الجراح ، وعرب كلاب والحمدانيين أو بقاياهم فى شمال الشام .

وحدثت فى عهده نكسة احتلال الصليبيين لبيت المقدس بعد حصار إستمر أربعين يوماً فى يوليو سنة ١٠٩٢م شعبان سنة ٤٩٢ هـ . فقتل الصليبييون من المسلمين بالمسجد عدداً هائلاً من الرجال والنساء ، الكبار والصغار ، البنين والبنات بلغ عددهم داخل المسجد الأقصى ماينيف على سبعين ألفا[1]

(١) الإشارة ص ٦٠

قال ابن الصيرفي[1]: « ومازال الأفضل يجتهد فى جهاد الفرنج (الصليبيين) نيفاً وعشرين سنة إلى أن اغتيل سلخ رمضان من سنة ٥١٥ هـ فمضى شهيداً إلى رحمة الله ورضوانه .... وخرج من الدنيا والعدو باق بالشام مستولٍ على معظم ثغوره وعمله ، متصرف فى سهله وجبله والله عز وجلّ يجعل عزمات المقام الأعظم المأمونى ماضية بجواره ومعفية على آثاره » .

وذكر ابن سعيد أن النزارية قتلوه لاغتصابه الإمامة والخلافة من إمامهم نزار إلى المستعلى ، وقيل أن الآمر وضع عليه من قتله . وكان عمره عند مقتله سبعاً وخمسين سنة ، وكانت ولايته بعد أبيه ثمانيا وعشرين سنة .

وكان الأفضل أديبا يقول الشعر ويقرب الأدباء والشعراء ، وخدم فى قصره كثير من الأدباء والشعراء أمثال ابن الصيرفى ، وأمية إبن أبى الصلت القيروانى ، وظافر الحداد السكندرى ، وقصده ابن مكنسة فلم يحظ عنده ، ووفد إليه عديد من شعراء مصر والشام وسائر بلاد العرب والإسلام فأعطاهم وأجزل لهم العطاء .

وكان الأفضل يعيش فى بحبوحة من العيش ، يضفى على مجالسه مظاهر الثراء ويقتنى من الأموال والجوارى والغلمان مالايُحصى عدداً. وقد صادره الآمر بعد مقتله .

وتولى بعده أحد رجاله وهو المأمون البطائحى ، ثم ابنه الذى استبد بالخليفة حتى قتل ثم ورر أحد رجال كتامه وهو عباس وابنه نصر ، ثم جاء الصالح بن رزيك وهو آخر الوزراء الكبار فى دولة الفاطميين .

طلائع بن رزيك (ت سنة ٥٥٦ هـ)

لقب بأبى الغارات الصالح .

قال عنه المقريزى فى ترجمته[2]: فارس المسلمين نصير الدين ، قيل إنه أرمنى الأصل وانتسب إلى الغساسنة .

كان من الشيعة الأمامية وقدم لأول أمره مع جماعة من فقراء الشيعة لزيارة مشهد على

(١) المصدر نفسه ص ٦١

(٢) الخطط ٢/٢٩٣ وراجع فى ترجمته الوفيات ١/٢٣٨ ، والخريدة ١/١٧٣ شذرات الذهب ٤/١٧٧ ، والنجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة تحقيق حسين نصار ص ٢١٧

رضى الله عنه بالنجف من أرض العراق ، وتنبأ له أحد الشيعة هناك بتولى مصر .
وهكذا وفد إلى مصر واتصل بالفاطميين ، وتولى لهم المناصب ، وترقى فى الخدم حتى ولى أمر منية بنى خصيب بصعيد مصر . فلما قتل نصر بن عباس الصنهاجى الخليفة الظافر على ماذكرنا استجار نساء القصر بالصالح ابن رزيك ، فدخل القاهرة مع جنده وأنصاره ، وفر أمامه عباس وابنه نصر .

وبعد دخوله خلع عليه الوزارة ونعت بالملك الصالح ، فارس المسلمين نصير الدين فباشر البلاد أحسن مباشرة ، واستبد بالأمر لصغر الخليفة الفائز بنصر الله إلى أن مات فأقام من بعده عبد الله بن محمد ولقبه بالعاضد لدين الله ، وبايع له . وكان صغيراً لم يبلغ الحلم . فقويت حرمة طلائع وازداد تمكنه من الدولة ، فثقل على أهل القصر لكثرة تضييقه عليهم واستبداده بالأمر دونهم ، فوقف له رجال بدهاليز القصر وضربوه حتى سقط على الأرض على وجهه ، وحمل جريحاً لايعى إلى داره فمات يوم الأثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ .

وكان شجاعاً كريماً ، فاضلاً ، محباً للأدب وأهله ، جيد الشعر . رجل وقته فضلاً ، وعقلاً ، وسياسة وتدبيراً وكان مهابا فى شكله ، عظيما فى سطوته .

جمع أموالاً عظيمة ، وكان محافظاً على الصلوات ؛ فرائضها ونوافلها ، شديد المغالاة فى التشيع .

صنف كتاباً سماه « الاعتماد فى الرد على أهل العناد » وجمع له الفقهاء فناظرهم عليه ، وهو يتضمن إمامة على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ والكلام على الأحاديث الواردة فى ذلك .

وله ديوان شعر جيد ضمنه عقيدته يقول من أبيات أوردها المقريزى :

يأمة سلكت ضلالاً بينا	حتى استوى إقرارها وجحودها
ملتم إلى أن المعاصى لم تكن	إلا بتقدير الإله وجودها
لو صح ذا كان الإله بزعمكم	منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون إلهنا	ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

قصيدة سماها الجوهرية فى الرد على القدرية . أى المجبرة .

وذكر المقريزى أن مذهبه فى التشيع كان مذهب الإمامية مخالفاً مذهب الفاطميين الإسماعيلية ولهذا فإنه على حد قوله لما ولى الوزارة مال على المستخدمين فى الدولة وعلى الأمراء ، وأظهر مذهب الإمامية ، وهو مخالف لمذهب القوم .

قال : وباع ولايات الأعمال للأمراء بأسعار مقررة ، وجعل مدة كل متول ستة أشهر ، فتضرر الناس من كثرة تردد الولاة على البلاد ، وتعبوا من ذلك .

وكان له مجلس بالليل يحضره أهل العلم يدونون فيه العلم والشعر .

ولم يترك مدةً أيامه غزو الإفرنج وتسيير الجيوش لقتالهم فى البر والبحر ، إلا أنه لم يحصل منهم على طائل ولم يسترد ماأخذوه أيام الأفضل ، وظل بيت المقدس فى أيديهم وظلوا يهددون حدود مصر من الشرق ومن البحر فى الشمال .

وكان يخرج البعوث فى كل سنة مراراً ، وكان يحمل فى كل عام إلى أهل الحرمين مكة والمدينة من الأشراف سائر مايحتاجون إليه من الكسوة وغيرها حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التى يكتب فيها ، والأقلام والمواد وآلات النساء .

وكان مجلسه ملتقى لأهل العلم والأدباء والشعراء ، يفدون إليه من سائر البلاد ، فلايخيب أمل قاصد منهم ، ويغدق العطاء .

وأشتهر فيمن يجلس إليه عدد من شعراء مصر والشام فى أيامه كالمهذب بن الزبير وعمارة اليمنى ، والقاضى الجليس بن الجبَّاب ، وأسامة بن منقذ .

وذكره ابن العماد فى الخريدة[1] فأشاد بفضله وأدبه ، واستحسن شعره . قال : « هو سلطان مصر فى زمان الفائز ، وأول زمان العاضد ، ملك مصر ، واستولى على صاحب القصر ، ونفق فى زمانه النظم والنثر . وقرب الفضلاء واتخذهم جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وفاض إحسانه على جميع الأرجاء . »

مدحه الشعراء ، وجمع مدحه فى كتاب سمى « الدر المنظوم » يحتوى على جملة شعراء مابين شريف وجليس ، وحسيب ، وعالم ، وشاعر قاصد ، وكاتب[2] .

---

(١) خريدة القصر : طبع مصر ١/١٧٥

(٢) النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ص ٢١٨

وانقضى عهد الصالح بن رزيك بحلوه ومره ، بايجابياته وسلبياته ، ولا ضير من ذكر ماله من أياد على الحياة الأدبية والاجتماعية والعمرانية فى مصر على الرغم مما روى إفى سيرته الذاتية من إنحراف عن دعوة الإسماعيلية وتشدد فى التشيع للشيعة الإمامية ، وميل إلى كبت الأعداء ، والرغبة فى الاستحواذ على المال .

وقد عده بعض مؤلفى الشيعة[1] من كبار فقهائهم ، ورجالهم ونساكهم المعدودين ، فضلاً عن علمه وشعره .

وتبع الصالح ابنه رزيك، ولم يكن من الحنكة على قدر ماكان عليه أبوه، فتحرش به شاور وكان من رجال الدولة الأقوياء ، وكان الصالح قد حذره من معاداته ، لكنه لم يتبع مشورته ، فكان أن غلبه شاور على الوزارة ، ثم انتقض عليه ضرغام ، وصارت الحرب سجالاً بين شاور وضرغام فى عصر الخليفة العاضد .

ولم يكن الخليفة يملك من أمره شيئاً ، واستنجد بالأمير نور الدين محمود فى دمشق ، فبعث إليه بأسد الدين شيركوه ، واستنجد الآخر بملك بيت المقدس .

وظلت مصر والقاهرة مسرحاً للصراع بين هذه القوى الثلاثة الفاطميين ، والزنكيين والأيوبيين ، ثم الصليبيين حتى حسمت المعركة لصالح الأيوبيين . واستولى صلاح الدين على السلطة .

جنـد الخلافـة :

كان من عوامل ضعف الدولة الفاطمية استكثار الخلفاء من العبيد السودان والأتراك والصقالبة . يقول صاحب عيون الأخبار[2] :

« وعمل الوزير يعقوب بن يوسف على شراء العبيد الأتراك والسودان ، وأسكنهم خلف دار الوزارة ، ويسمى الموضع الذى أسكنهم فيه حافة الوزارة . وأضاف إليهم كثيرا من العسكرية . وقال : إن تغيّرت كتامة (وهم عصب جند الفاطميين وأعوانهم) فمن ذا الذى يكسر شوكتهم ، ويفلّ حدّهم ؟ .....

(١) عيون الأخبار ص ٢٤١

(٢) محمد هادى الأمينى حامع دواوين طبع المكتبة الأهلية بالنجف ١٩٦٤

فكأن ابن كلّس نصح المعز والعزيز بالاستكثار من السودان والترك والصقالبة ليعادل بهم قوة جند الكتاميين البربر من شمال أفريقيا والذين جاء بهم المعز معه إلى مصر وأسكنهم ظاهر القاهرة بين المقطم والقرافة وسور القاهرة .

وكانت كثرة طوائف الجند واختلاف أجناسهم من أسباب إثارة الشغب والمتاعب أحياناً ، فكثيرا مااقتتل الأتراك والسودان ، أو كثيرا ماثار السودانيون ، وتحرشوا بالتجار فى الأسواق ، بل وهجموا على قصور أسيادهم الفاطميين فى بعض المناسبات والأعياد ، عندما يمدّ السماط للطعام .

يقول المسبحى فى تاريخه[1] فى مناسبة عيد الأضحى سنة ٤١٥ هـ أيام الخليفة الظاهر « ثم دخل مولانا ــ صلوات الله عليه ــ إلى قصره ، ومشى إلى المنحر بصحن القصر مقابل ديوان الخراج . فنحر تسعة أرؤس من النوق ، ثم انصرف ، وحضر أبو الحسن على بن محمد الطريفى ، كاتب قاضى القضاة لتفرقة اللحم على أرباب الرسوم ، فنهبته العسكرية وجرى على الطريفى منهم كل قبيح . ثم استحضر شيوخ الدولة الأقارب والكتاميين وغيره من الضيوف ومن جرى لهم رسمٌ بالحضور إلى السماط ، فلما جلسوا على السماط ولم يحضر مولانا ــ عليه السلام ــ كبس العبيد بالقصر وصاح جميعهم : الجوع ! الجوع ! نحن أحق بأكل السماط ، فضربهم الصقالبة بالعصى ، فلم يبالوا بهم ، وهجموا فدخلوا القصر وتهاقتوا على الطعام ، وضرب بعضهم بعضاً، ونهبوا جميع ماأصلح من الأخباز والأشوية والحلوى ، ونهبوا القصاع والطنافير والزبديّات ، وكان أمراً صعباً ، وأخذوا ثلاثمائة زبدية ، ولم يصدق الحاضرون أنهم تخلصوا منهم ولايخرجون سالمين »

ويبدو أن كل طائفة من خدم القصر كان لهم مقدم كبير من أصحاب المقام عند الخلافة يدافع عنهم إذا ماشغبوا ، أو أثاروا فتنة ، من ذلك ماذكره المسبحى عن الخادم الأسود « معضاد » الذى كان ذا مكانة فى قصر الخلافة وكان العبيد من السودان يحتمون بجاهه .

قال المسبحى :

« ورد الخبر أن الجوالة من العبيد نهب بلداً بالأشمونين بأسره ، والعربُ معهم ،

(١) تاريخ المسبحى تحقيق وليم الورد ص ٢٠٣ طبع هيئة الكتاب سنة ١٩٨٠ .

وأنهم حصلوا من النهب على مال كثير ، وحضر متولى ديوان العرائف ، فشكا ذلك إلى معضاد هذا الخادم الأسود ، وذكر نهب البلد فكان جوابه : متقبّل من عبيد مولانا . فلم يجبه أى هذا المسئول خوفاً من سطوته قال المسبحى : « وكان فى هذا الجواب مافيه من فساد الأحوال وإطماع العبيد فى النهب » .[1]

وكانت الدولة تجرى على هذا الجند من مختلف الطوائف الأرزاق من الرواتب والأموال ، فإذا قصّرت الأحوال ولم تف برواتبهم ولا أقواتهم ثاروا ونهبوا دكاكين التجار ، ومالوا على الضياع فى الريف ، فساقوا أمامهم كل مااستطاعوا من ميرة ودواب .

ولم يكن الجيش الذى يتكون من هذه الفرق المرتزقة والمشتراة من العبيد بالجيش الذى يعتمد عليه أو يصمد فى وجه الأعداء ، إذ أن روح الجهاد ، والرغبة فى الدفاع عن الدين والوطن كانت معدومة لديهم ، وإنما كانوا مأجورين يقاتلون بأجر ، ولأنهم عبيد شراء يفعلون مايأمر به الأسياد .

وهذا ماترى من ضعف جيش الفاطميين بعد أن كثرت فيه عناصر المرتزقة ، وقلت عناصر المغاربة من الكتاميين وغيرهم الذى ساندوا الدولة فى بدء ازدهارها وكسبوا كثيرا من المعارك ربما بسبب اعتقادهم وانتصارهم لدعوة الفاطميين .

حـال الأسـطول :

كان للفاطميين أسطول قوىّ فى البحر المتوسط استطاع أن يحمى شواطىء دولتهم فى شمال أفريقيا ومصر ، وأن يخوض كثيرا من المعارك المظفرة .

وقد أنشأ المعز كما ذكر المؤرخون هذا الأسطول من ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر ، وعندما جاء إلى مصر ، عمل على تقوية دار الصناعة المقس على شاطىء نيل القاهرة أمام الفسطاط ، وكان الأسطول يجهز هناك ، فإذا تم تجهيزه وتحرك لحرب العدو الأفرنجى فى البحر المالح خرج إليه من نيل القاهرة مبحراً شمالاً وكان الخليفة الفاطمى يستعرضه جالساً فى منظرة على النيل . ويقوم الأسطول أمامه بمناورة لإظهار استعداده ،

(١) تاريخ المسبحى ص ٢٠٤

وتمام عدته لملاقاة العدو . فينعم الخليفة على قائد الأسطول ، وقادة الشوانى وبقية الوحدات ثم يأمرهم بالتوجه إلى العدو ، ويدعو لهم بالنصرة ، فينحدر الأسطول إلى دمياط بفرع دمياط ، ثم ينزل إلى البحر .

ويصف المقريزى هذا الاحتفال فيقول :[1]

« ... فإذا تكاملت النفقة وتجهزت المراكب ، وتهيأت للسفر ركب الخليفة والوزير إلى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة . وكان هناك منظرة على شاطىء النيل يجلس فيها الخليفة برسم وداع الأسطول ، ولقائه إذا عاد .

فإذا جلس للوداع جاءت القواد بالمراكب من مصر (الفسطاط) إلى هناك للحركات فى البحر بين يديه ، مزينة بأسلحتها وبعُدَدِها ، ومافيها من المنجنيقات ، فيرمى بها وتنحدر المراكب وتقلع ، وتفعل سائر ماتفعله عند لقاء العدو ، ثم يحضر المقدم والرئيس إلى بين يدى الخليفة ، فيودّعهما ، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة .... ويخرج من دمياط إلى بحر الملح فيكون له فى بلاد العدو صيت عظيم ، ومهابة قوية . »

ولقوّة ماكان للأسطول الفاطمى من فعل فى جزر البحر ، وعند ملاقاة أسطول البيزنطيين الروم والفرنجة الصليبيين صدًّ حملاتهم على شواطىء الشام ومصر .

ولما كان للأسطول الفاطمى من خطر فى البحر على مواصلات الصليبيين البحرية وامداداتهم من أوروبا كان أول ما طلبه الملك مرى أو إمرى ملك بيت المقدس عند حضوره إلى مصر مع حملته فى أخريات عهد الدولة الفاطمية ، وأيام فتنة شاور وضرغام ، كان أول ماطلبه من شاور حرق الأسطول ودار الصناعة فى الفسطاط حتى لاتقوم له قائمة .

---

(١) الخطط ١٩٣/٢

أحوال الدولة فى شمال أفريقيـــا

عرفنا أن نشأة الفاطميين كانت فى تونس من شمال أفريقيا ثم بسطوا نفوذهم بعد ذلك بين ربوع المغرب معتمدين على بعض قبائل البربر والعرب هناك ، تدعمهم دعوتهم ، ويساعدهم على التمكين لأنفسهم ماكان بين القبائل من صراع وتنافس ، واستطاع الفاطميون أن يكسبوا إلى جانبهم قبائل كتامة ، وصنهاجة وغيرها .

وسيطروا على بعض جزر البحر المتوسط كصقلية وكريت ، وكانت لهم حروب مع الفرنجة والروم والأمويين فى الأندلس للسيادة على تلك الجزر . وهاجم أسطولهم ثغر المريّة بالأندلس التابع لدولة الأمويين ، كما اشتبكوا معهم ومع الروم فى حروب برية وبحرية سنة ٣٤٥ هـ .

وتوجه القائد جوهر الصقلى بجيش كثيف بأمر المعز لدين الله إلى المغرب الأقصى لإتمام فتحه ، وتم له النصر سنة ٣٤٧ هـ ، ودان له بذلك المغرب كله حتى البحر الأعظم أو المحيط الأطلنطى .

ولما تمت للمعز السيطرة على المغرب وشمال أفريقيا حتى حدود مصر الغربية ، بعث بجيشه لفتح مصر ، وجاء إلى مصر وجعل قاعدته القاهرة ، وولى على القيروان وأفريقيا نائبا له من صنهاجة .

وكان الفاطميون قد اتخذوهم أعوانا ، وعينوا منهم قادة ، وكان أشهرهم يوسف بن بلكين بن زيرى ، وقد تمكن يوسف هذا من القضاء على أحد الخارجين من قبيلة زناتة وقتله وقضى على ثورته سنة ٣٦٠ هـ .

وكان الفاطميون قد تعاونوا كذلك مع كتامة ، واتخذوا من رجالها سنداً وقوة لجيوشهم وخاصة التى شرقت لفتح مصر والشام .

وظلت صنهاجة ورجالها يلون للفاطميين نيابة عنهم حكم شمال أفريقيا والمغرب حتى عهد المعز بن باديس الذى أعلن انتفاضة على سلطة الخلافة الفاطمية بالقاهرة فى عصر المستنصر بالله ، والدعوة للخليفة العباسى فى بغداد .

يقول ابن الأثير :[1] « فى سنة ٤٣٥ هـ أظهر المعز (بن باديس) ببلاد أفريقية الدعاء للدولة العباسية ، وخطب للإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، ووردت عليه الخلع والتقليد ببلاد أفريقية ، وقطعت خطبة الفاطمية من ذلك الوقت ، وأحرقت أعلامهم ، فغاظ ذلك الوزير اليازورى ، فكان ماكان من تحريض عرب بنى هلال وبنى سليم على غزو أفريقيا وتخريب القيروان . » .

ويروى المؤرخون أسباباً كثيرة لخروج المعز على طاعة المستنصر والدولة الفاطمية فابن الصيرفى يرى أن سبب ذلك عدم احترام المعز للوزير اليازورى فى خطابه له ، مما أغضبه عليه ، فأغلظ له القول ، ومنها أن أهل تلك البلاد فى شمال أفريقيا كانوا لايدينون بالولاء للعقيدة الفاطمية ، فكثير منهم كانوا من السنة المتحمسين لمذهب الإمام مالك ، وقد اضطر هؤلاء إلى عدم الجهر بعدائهم للشيعة تحت ضغط القهر من الأئمة الفاطميين فى أثناء وجودهم بالمهدية والقيروان والمنصورية . فلما خرج المعز إلى مصر ، قلت هيبتهم فى النفوس ، وتحرر أهل البلاد من الكبت ، فعادوا إلى الجهر بعدائهم للشيعة وانتصارهم لمذهب مالك ، وكان على رأس هذه الدعوة إلى عودة المالكية ومعاداة الشيعة فقيه مالكى معروف فى تلك البلاد هو التّفرى .

وقيل إن أهل السنة ثاروا على الشيعة بالقيروان فى أول ولاية المعز بن باديس فقتلوا جماعة من الشيعة ، وقتلوا نساءهم وأولادهم ، وظلت الفتنة بالقيروان بين أهل السنة والشيعة ، ولجأت جماعة من الشيعة إلى الجامع بالمهدية فقتلوا فيه . وكان لايَرى أحدٌ منهم بالقيروان فى الطريق إلا ضرب ضرباً عنيفاً ، وربما قتل وأحرق . واجتمع منهم قدر ألف وخمسمائة رجل تحت قصر المنصورية واستغاثوا بالمعز فأمر بالكف عنهم .

قال صاحب المؤنس :[2] « والمعز هذا هو الذى طَهَّر الله تعالى على يده أفريقية من مذهب الشيعة ــ وإن كان من عمَّالهم ــ يعنى الفاطميين ــ إلا أنه كان يتمذهب بغير مذهبهم . وحمل الناس فى أيامه على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، وقطع ماعداه ، ولما اشتدت سلطته خرج على طاعة بنى عبيد ، وخطب لبنى العباس سنة ٤٣٥ هـ وقطع خطبة المستنصر سنة ٤٤٠ هـ ، وقطع بنودهم وأحرقها .

---

(١) الكامل فى احداث سنة ٤٣٥ هـ ٨/٢٩٥ ــ ٣٠٢

(٢) المؤنس فى أخبار تونس ص ٨٢

وكان انتقام المستنصر الفاطمى من المعز ورجال القيروان متمثلاً فى اطلاق قبائل بنى هلال وبنى سليم وغيرهم من صعيد مصر لغزو أرض المعز وتخريب سلطانه .

قال صاحب المؤنس : « وفى أيام المعز بن باديس والمستنصر بالله جاءت العرب من المشرق وسكنوا بأفريقية . وسبب دخول العرب إلى أفريقية أن المعز بن باديس لما قطع خطبة صاحب مصر وهو المستنصر بالله كان يسبّ بنى عبيد سراً إلى أن صرّح به على المنابر . وكان يكاتب وزير المستنصر (اليازورى) ويستميله ، ويعرض له بالتحريض عليهم[1] وإنما يكتب له تلميحا لا تصريحا ، وكتب إليه قطعة بخط يده ، وتمثل ببيت من الشعر وهو :

وفيك صاحبت قوماً لا خلاق لهم لولاك ماكنت أدرى أنهم خلقوا

فقال الوزير (البازورى) لبعض أصحابه : ألا تعجبون من صبىٍّ بربرىّ مغربى يحسب أن يخدع شيخاً عربياً عراقيا ؟ .

وإنما أراد المعز أن يوقع بين الوزير وخليفته الشرّ .

ولما خلع المعز بن باديس طاعة بنى عبيد ، وجاءته الخلع من بغداد أشار الوزير على المستنصر العبيدى بإرسال العرب ، فأرسل المستنصر إلى عرب الصعيد الذين بمصر وكانوا يسكنون شرق النيل ، وهم بطون من بنى عامر بن صعصعة من بنى هلال ومعهم بطون من بنى سليم من عرب نجد ، وكانوا قد نزحوا إلى مصر فى عصر الفاطميين واستقروا فى الصعيد شرق النيل . »

وهكذا أطلق المستنصر بنى هلال وبنى سليم من الصعيد إلى تونس والقيروان وبرقة ، فأباحها لهم ، وأعانهم على ذلك بمال — وهم بطون رياح وزغبة ، وعدىّ ، وبطون من بنى عامر بن صعصعة ، فلما دخلوا إلى أفريقية عاثوا فيها كيف شاءوا ، وملئت أيديهم من النهب ، فتسامعت بنوعمهم فى مصر بذلك ، فطلبوا من الخليفة اللحاق بمن تقدمهم فمنعهم من ذلك إلا أن يعطوه شيئا من أموالهم ، فأخذ منهم أضعاف ماأعطاه لبنى عمهم وسرّحهم ، ولما وصلوا إلى المغرب كانت لهم وقعاتٌ مع زناتة بإقليم طرابلس ، وكثر ضررهم وأفسدوا البلاد .

---

(١) يخالف صاحب المؤنس فى هذا قول ابن الصيرفى فى الاشارة

ولما قربوا من أفريقية ــ تونس ــ خرج المعز فى جمع من صنهاجة وزناتة ، فاجتمع له عسكر عظيم ، فالتقى معهم ، وكانت بينهم مصاف ، فخذلته زناتة ، وانهزمت صنهاجة حتى لم يبق معه إلا عبيده ، وكان عدد العبيد عشرين ألفاً ، وثبت المعز فى تلك الحروب ثباتا لم يثبته أمير هزم جيشه ، وآخر الحال انهزم ورجع إلى المنصورية ، وأقبل العرب حتى نزلوا بإزاء القيروان ، واقتتلوا بين رقادة والقيروان ، ومات من الفريقين خلق عظيم وكان ذلك حوالى سنة ٤٤١ هـ .

ولما رأى المعز ماحلَّ به ركن إلى الصلح ، ورفع الحرب بين العرب وبينه ، وأباحهم دخول القيروان ليشتروا منها مايحتاجون إليه ، وظن أنهم يرجعون إلى بلادهم ، فلم يغن عنه ذلك ، وملكوا البلاد بأسرها ، واقتسموا براريها ، وأفسدوا حواضرها . وكان الخطبُ جليلاً ، فلما رأى المعز كثرة ضررهم ، وعجز عن دفع أذاهم رحل إلى المهدية ، وبها حشمه ، وكان ولده تميم والياً عليها ، وخرج فى رمضان سنة ٤٤٩ هـ . ونهبت العرب القيروان وكان ذلك سبب خرابها وجلاء أهلها عنها .

ولما وصل إلى المهدية تلقاه ولده تميم ، وترجَّل له ، وقبَّل يده ، وأدخله البلد ، فسلَّم الأمر إلى ولده تميم فى حياته ، فقام بأمور الدولة أحسن قيام وتوفى المعز سنة ٤٥٣ هـ . فكانت أيام ولايته ٤٩ عاماً .

وباضطراب أحوال أفريقيا ضعفت الصلة بينها وبين الخلافة فى مصر حتى انقطعت أسبابها تماماً .

أحوال الشام والمشرق العربى

جاء المعز لدين الله إلى القاهرة وفى خطته أن يغزو الشام ويستولى على ملك العباسيين ولم يزل ذلك حلم الخلفاء الفاطميين حتى انفضت دولتهم .

وفى سنة ٣٦٣ هـ تم استيلاء جيش المعز على دمشق ، ونهب المغاربة البلد واستوحش أهلها منهم ، ووقعت فتنة وحروب بين الجانبين ، ولايستطيع المرء أن يستبعد أحداث التاريخ وماتزرعه فى النفوس من أحاسيس ومشاعر تؤثر على تصرف البشر وتوجهاتهم ولاشك أن الفاطميين العلويين كانوا يحملون لدمشق مشاعر العداء ، لما سطره تاريخها وقد كانت عاصمة الأمويين من أحداث دامية ضد العلويين ، بين على ومعاوية ، وبين أبناء معاوية وخلفائه وأتباع على وخلفائه .

وكذلك كانت دمشق وأهلها ومعظمهم من أهل السنة المتحمسين كانوا لا يحبون الفاطميين ولا يقبلون حكمهم ، من هنا لم يستقر أمر الفاطميين مع دمشق وأهلها ، وكثيرا ماقامت الفتن ، وانتقض أهل دمشق ضد الفاطميين وولاتهم .

وفى تلك السنة ٣٦٣ هـ كثرت الوقائع بين العامة وجند المعز داخل أسوار دمشق وخارجها . قال ابن الأثير :[1] « وألقى المغاربة النار من ناحية باب الفراديس ، وأحرقوا تلك الناحية ، فاحترق من البلد كثير ، وهلك جماعة من الناس ومالا يحُدُّ من الأثاث والرحال والأموال ، وبات الناس على أقبح صورة .»

ولم تستقر الأحوال فى تلك السنة ، بل عادت الفتنة مرة أخرى فى جمادى الأولى . قال ابن الأثير : فقد زحف جيش من العسكر إلى البلد ، وقاتله أهله ، فظفر بهم وهزمهم ، وأحرق من البلد ماكان سلم ، ودام القتال بينهم أياماً كثيرة ، فاضطرب الناس وخافوا ، وخربت المنازل ، وانقطعت المواد ، وانسدت المسالك ، وبطل البيع والشراء ، وقطع الماء عن البلد ، فبطلت القنوات والحمامات ، ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد . »

---

(١) الكامل أحداث تلك السنة ص ٧

وكانت الشام ميداناً للصراع بين كثير من القوى ، بين العباسيين والفاطميين والحمدانيين ، والقرامطة والعرب ، والأتراك ، والروم البيزنطيين ثم الصليبيين من بعدهم .

وكان بعض أطراف هذا النزاع يسيطر على المنطقة كلها أو كثير منها أحيانا وأحيانا أخرى يتقلص نفوذه ، وينحجر ليعود فيمتد وينبسط ، كما أن بعض الأطراف كان حليفاً للآخر زمناً ، أو فترة من الوقت ، ثم يعود لينقض الحلف إذا أتيحت له فرصة الانقضاض ، أو آنس من حليفه ضعفا أو وجد حليفاً آخر من تلك القوى أشدّ وأقوى ، وأقدر على تحقيق المصلحة من الحليف السابق .

كان الحمدانيون ، والقرامطة والفاطميون ، والبويهيون فى بغداد علويين شيعة ، وإن اختلفت إنتماءاتهم بين إمامية ، واثنا عشرية ، وإسماعيلية وروافض ، منهم المغالون ، ومنهم المعتدلون ، مع انتمائهم فى النهاية إلى التشيع لعلى وآله .

وكانت بين هذه الأطراف والقوى العلوية مصالحات ، ومهادنات أحيانا وصراعات ، وحروب دامية ، وعداوات أحيانا أخرى ، كما كان بين الفاطميين والقرامطة ، والقرامطة والبويهيين ، والبويهيين والحمدانيين ، ثم بين الحمدانيين والفاطميين .

ولايغيب عن الذهن أن منشأ الدعوة الفاطمية فى مرحلة الستر أو الاختفاء ، كان بالشام ، فقد أقام مؤسسها فى إحدى القرى هناك ، وظل يدعو سرًّا خشية من بنى العباس خلفاء بغداد .

قال المقريزى :[1] « وإنما كان القوم ــ أعنى بنى على بن أبى طالب تحت ترقب الخوف من بنى العباس لتطلبهم لهم فى كل وقت وقصدهم إياهم دائماً بأنواع العقاب ، فصاروا بين طريد وشريد ، وبين خائف يترقب . ومع ذلك فإن لشيعتهم الكثيرة المنتشرة فى أقطارهم من المحبة لهم والإقبال عليهم مالا مزيد عليه »

وقال : « وتكرر قيام الرجال منهم مرة بعد مرة ، والطلب عليهم من ورائهم ، فلاذوا بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون حتى تسمى محمد بن إسماعيل الإمام جد عبيد الله المهدى بالمكتوم ، أسماه بذلك الشيعة عند اتفاقهم على إخفائه حذرا من المتغلبين عليهم ،

---

(١) الخطط ١/٣٤٩

وكانت الشيعة فرقاً ، فمنهم من كان يذهب إلى أن الإمام من ولد جعفر الصادق هو إسماعيل ابنه ــ وهؤلاء هم « الفاطمية الإسماعيلية » ومنهم من يرى غير ذلك .

وكان هذا الاختفاء من أئمة الفاطميين قبل إعلان عبيد الله المهدى الدعوة فى شمال أفريقيا بعد أن وجد الفرصة وتقوى بقبائل البربر سبباً أعان العباسيين فى حربهم الدعائية ضد الفاطميين ، بادعائهم النسب إلى فاطمة وعلى بن أبى طالب ، وأنهم كاذبون فى ذلك النسب ، بل إن نسبهم فى الحقيقة كما يقولون إلى رجل دعىّ من اليهود بالشام .

وقد نفى المقريزى هذا الاتهام من قبل العباسيين فقال[1] :
« فهذه أقوال إن أنصفت تبين لك أنها موضوعة ، فإن بنى على بن أبى طالب رضى الله عنه قد كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد وجلالة القدر عند الشيعة فى الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسىٌّ أو لابن يهودىّ . فهذا مالايفعله أحد ، ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف ، وإنما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفاء بنى العباسى عندما غَصُّوا بمكان الفاطميين » .

ولم تكن حرب الدعاية بين الفاطميين والعباسيين مقصورة على هذا ، بل كان كل من الفريقين يحاول استقطاب العلماء والشعراء ، والأدباء ، ليكونوا أدوات أعلام لهم وتمكين بين الناس .

ولم تحدث مواجهة عسكرية واضحة بين العباسيين والفاطميين لضعف العباسيين كما قال المقريزى ، بل جل مااستطاعهُ خلفاء بغداد إيفاد بعض القادة من الأتراك لصد غارات الفاطميين على مصر أيام الإخشيديين ، وعلى الشام فى بداية عصر الفاطميين فى مصر والشام .

ويعتبر الصراع بين البويهيين والفاطميين امتدادا للصراع بين العباسيين والفاطميين لأن أولئك كانوا يملكون شئون الخلافة ، وإن قامت بينهم وبين الأتراك من جند الخلافة صراعات . ومهما يكن فإن فى آخر عهد المعز لدين الله قامت فتنة أفتكين التركى بالشام واستمرت حتى أول عام فى حكم العزيز بالله .

وكان أفتكين أحد أتباع معز الدولة بن بويه ، واختلف مع بختيار بن معز الدولة ،

---
(١) الخطط ٣٤٩/١

فخرج من بغداد مع طائفة من أتباعه من جند الأتراك فوصل إلى حمص ، وتوجه إليه والى دمشق من قبل المعز فلم يتمكن منه ، وعاد إلى دمشق ، فتبعه أفتكين إلى دمشق ، وقابله أهلها بالترحاب لضيقهم بجند المعز من المغاربة ، وكراهيتهم لحكمهم لمخالفتهم فى الاعتقاد وظلمهم . فدخل أفتكين دمشق وقطع خطبة الطائع العباسى فى شعبان سنة ٣٦٤ هـ .

قال ابن الأثير عن أفتكين : وأبان عن شجاعة وقوة نفس وحسن تدبير فأذعن أهل دمشق له ، وكاتب المعز بمصر يداريه ويظهر له الانقياد ، وبعث إليه المعز ليحضر إليه ليخلع عليه ، فامتنع أفتكين خشيةً .

وجهز المعز جيشاً إلى دمشق ، ولكن الموت عاجله ، فتولى المهمة ابنه العزيز من بعده وظل أفتكين يتوسع بضم أجزاء من الشام ، حتى بعث إليه العزيز بالله جوهر الصقلى على رأس جيش كبير ، وظلت الحرب بين الجانبين سجالاً ، وتقوى أفتكين ببعض أهل الشام والقرامطة ، والتقى مع جوهر بالرملة من أرض فلسطين ، فانسحب جوهر إلى عسقلان ، فتابعه أفتكين ومن معه وحاصروه فى عسقلان ، ولقى جوهر وعسكر الفاطميين متاعب شديدة فى الحصار حتى دعا جوهر أفتكين إلى لقائه . قال ابن الأثير : فالتقيا ، واتفقا على أن يفك الحصار عن جوهر وجيشه ويسمح له بالعودة إلى مصر .

وعاود العزيز الكرة بالخروج مرة أخرى لملاقاة أفتكين والقرامطة بالرملة سنة ٣٦٧ هـ وفى هذه الحملة هزم أفتكين ومن معه من القرامطة ، ووضع فيهم العزيز وجيشه السيف ، فأكثروا القتل ، وبلغ عدد القتلى نحو عشرين ألفا .

وهرب أفتكين بعد انكساره وبذل العزيز لمن يأتى به مائة ألف دينار ، وكان ابن مفرج الطائى من شيوخ الأعراب فى الشام وصاحب الرملة قد تمكن من أسر أفتكين فأرسله أسيرا إلى العزيز ، فأكرمه العزيز وصحبه معه إلى مصر وجعله من خاصته .

وكان القرامطة مصدر قلق للفاطميين ، مع ماكان بينهم من علاقات فى الدعوة والعقيدة . فقد انشق عليهم الحسن القرمطى وناجزهم الحروب بغارات متتالية كان منها تلك الغارة على مصر والتى بلغ فيها أبواب القاهرة ، لولا أن تمكن المعز بدهائه وماله أن يغرى بعض أعوان القرمطى ، فانسحبوا عنه وتخاذلوا وتمكن المعز من هزيمته سنة ٣٦٣هـ

إلا أن القرامطة ظلوا يسعرون الحروب بالشام ، ليقضوا مضاجع الفاطميين

ويزعزعوا قبضتهم على البلاد هناك . وتحالفوا مع بعض القوى المعارضة كما رأينا من تحالفهم مع أفتكين الذى انتهى أمره بالخذلان .

وكان آل الجراح مفرج وأبناؤه حسّان وعلىّ ومحمود شيوخ الأعراب بالرملة ، ومن القوى البارزة فى فلسطين وبادية الشام قد ناوأوا الفاطميين وقامت بينهم منازعات ، قد تهدأ أحيانا ويسود الصلح ، وقد تثور فتستعر الحرب ، وكان أول نزاع مسلح بين آل الجراح والفاطميين زحفهم صحبة الحسن القرمطى إلى القاهرة سنة ٣٦٣ هـ وانخذالهم عن القرامطة بعد إغراء المعز لهم بالذهب .

ثم عادوا فتحالفوا مع أفتكين فى أخريات عهد المعزّ وأول عهد العزيز ، ولكنهم تخلوا عنه وأسروه وقدموه للعزيز بالله بعد انكساره على ماعرفنا ، وساد السلام زمنا بين الجانبين حتى عهد الحاكم بأمر الله .

وعادت العداوة بينهما تطل من جديد بعد أن بعث الحاكم أحد قواده ياروختكين إلى الشام لإعادة الهدوء إليها ، وضبط أمورها ، وفرض سيطرة الدولة التى عبث بها الروم ، والحمدانيون فى الشمال .

وكانت جيوش الفاطميين قد عانت كسرةً على أبواب حلب على يد باسيليوس أو باسيل إمبراطور الروم .

ولم يطمئن آل الجراح إلى قدوم جيش الحاكم بقيادة ياروختكين فنازلوه ، وتمكنوا من أسره . وكان للفاطميين حامية بالرملة استطاعت الصمود أمام حسان بن مفرج وجنده من الاعراب ، ولم تلبث تلك الحامية أن استسلمت تحت ضغط حشود الأعراب بتحريض من الوزير الحسين بن على المغربى[1] . وبالغ بنو الجراح فى عداء الفاطميين فقتلوا ياروختكين بعد أن أمعنوا فى إذلاله .

وأطمعَ انتصار آل الجراح فى فلسطين والرملة آمالهم ، وزكّاها الوزير المغربى الموتور من الحاكم الفاطمى لقتله أباه وإخوته ، وحسّن لهم إغراء شريف مكة بتولى الخلافة ، على أن يكونوا أنصاره بسيوفهم ، وبتأييدهم .

وكانت علاقة بنى الجراح بالحاكم بأمر الله قد بلغت نقطة اللارجوع ، « وكان ابن المغربى يدرك ذلك ، فتفتق ذهنه عن خطة بارعة ، وهى أن يوجد الخليفة البديل الذى

(١) راجع الوزير المغربى لإحسان عباس ص ٤٢ طبع ونشر .ر الشروق بعمان الأردن ١٩٨٨

يستند إليه بنو الجراح فى استمداد « غطاء الشرعية » لسلطانهم ، ووجده ، فاجتمع بالمفرج وأولاده وقال لهم : كشفتم القناع فى مباينة الحاكم ، ولم يبق من بعد للصلح موضع . والتفت إلى مكة ، ولفت إليها انتباههم قائلاً : هذا أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوى صاحب مكة لا مطعن ولا مغمز فى نسبه ، وهو فى بيته وفضله وكرمه بمكان رفيع ، والصواب أن ننصبه إماما ، ونقوم معه على الحكم . فاقتنع بنو الجراح بوجهة نظره ، وأمره حسّان بالتوجه إلى أبى الفتوح بمكة ، وعرض الأمر عليه . ولما نزل على أبى الفتوح أطمعه فى الرئاسة والخلافة ، وضمن له طاعة حسان وقومه .

وكانت العقبة الكبرى هى قلة مافى يد أبى الفتوح من مال ، يستميل به الأنصار والمؤيدين ، وحين شكا ذلك إلى ابن المغربى أشار عليه بأخذ مافى خزانة الكعبة من الأموال ، وانتزاع ماعليها من أطواق الذهب والفضة وضربها دراهم ودنانير ، ففعل ذلك .

وهكذا تم للوزير المغربى وحسّان بن مفرج ماذهبا إليه من تنصيب خليفة بديلاً من الحاكم ، وركب أبو الفتوح فى يوم الجمعة ، والمفرج بن الجراح وأولاده بين يديه مشاة حتى دخل المسجد ودعا ابن نباتة عبد الرحيم بن محمد الفارقى الخطيب ، وأمره بالخطبة فصعد المنبر وخطب بقوله :

﴿ طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبّح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ﴾

وواضح إشارة ابن نباتة ، وتلميحه بالحاكم وتعريضه به لإرضاء بنى الجراح ، والخليفة المزعوم .

وشارك فى مؤامرات بنى الجراح ضد الخلافة الفاطمية الشاعر المعروف أبو الحسن التهامى ، وقد جاء إلى مصر موفداً منهم لتأليب بعض قبائل الأعراب فى مصر على الحاكم بأمر الله ، حتى يمكن إسقاط دولته ، إلا أن أمره انكشف فقبض عليه وأودع خزانه البنود وظل بها حتى مات .

ولم تكلل مؤامرات بنى الجراح وآمالهم التى زينها لهم ابن المغربى بالنجاح بل إن

الحاكم سرعان مافهم الغاية مما يجرى من حوله ، فتعامل معهم بأساليب تمزج بين الدهاء ، والمداهنة إلى حين يقتنص فرصة للانقضاض والإيقاع بهم . ولوَّح الحاكم لحسان ابن المفرج بالمال والقربى ، كما ألمح إلى التغاضى عن جريمة قتل ياروختكين ، وطلب إلى حسّان مقابل ذلك نقض الاتفاق الذى عقده مع الخليفة المزعوم أبى الفتوح .

وأغرى الطمع حسان ، كما أغرى أباه من قبل فى عهد المعز . وسال لعابه له ، وأحَسَّ الخليفة المزعوم بما يدور حوله فبادر بالعودة إلى مكة والاعتذار إلى الحاكم وطلب الصفح منه .[1]

وانتهت مؤامرة بنى الجراح بسبب يقظة الحاكم ورجاله ودهائه ، وانتهت بذلك متاعب الفاطميين منهم ، وواجهوا غيرهم ممن كانوا يناوئونهم بالشام ومنهم الحمدانيون أصحاب الموصل وحلب .

بين الفاطميين والحمدانيين

كتب المعز لدين الله إلى جوهر قائده بعد استيلائه على مصر « ... وأما ماذكرت ياجوهر من أن جماعة من بنى حمدان وصلت إليك كتبهم يبذلون الطاعة ، ويعدون بالمسارعة فى المسير إليك ، فاسمع لما أذكره لك . أحذر أن تبتدىء أحَداً من آل حمدان بمكاتبة ترهيبا له ولا ترغيبا . ومن كتب إليك كتابا منهم فأجبه بالحسنى والجميل ولاتستدعه إليك . ومن ورد إليك منهم فأحسن إليه ، ولاتمكن أحداً منهم من قيادة جيش ولا ملك أطراف ، فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب :

يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب
ويتظاهرون بالكرم ، وليس لواحد منهم كرم فى الله .
ويتظاهرون بالشجاعة ، وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة
فاحذر كل الحذر من الاستناد إلى أحد منهم . »[2]

وكان الروم قد اجتاحوا إمارة سيف الدولة فى حلب قبل وفاته ، وخلفه ابنه . كان

(١) راجع الوزير المغربى لإحسان عباس ص ٤٩ — ٥٢
(٢) الخطط ٣٥٢/١

نقفور البيزنطى قد عمل على تحطيم قوة المسلمين والعرب فى الشام وثغوره ، وبدأ بإمارة الحمدانيين .

قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٥٩ هـ « وجعل نقفور همه قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها . »

وبعد وفاة سيف الدولة ، خلفه ابنه سعد الدولة ، وكانت علاقته بالفاطميين مضطربة حتى توفى فخلفه أحد أبنائه ، وكان قد ترك ولدين صغيرين ، وكفلهما لؤلؤ تابع سعد الدولة فاستبد بالسلطة فى حلب دون الأمير الصغير ، وكانت بين لؤلؤ والفاطميين أحداث ، لم يستقر فيها الوضع على حال ، وأغرى حال إمارة الحمدانيين فى حلب بعض شيوخ العرب الأقوياء ممن كانوا ينافسون الحمدانيين وهم بنو مرداس الكلابيين الذين ورثوا إمارة حلب من بعد ، وأصبحوا ملوكها بعد منازعات ومصادمات بينهم وبين كل من الحمدانيين والفاطميين والروم .

وجدير بالذكر أن بعض أمراء الحمدانيين جاءوا إلى مصر وتولى أحدهم منصباً رفيعاً ، وشارك فى الأحداث التى اضطربت فى مصر فى القرن السادس وانتهى الأمر بمقتله وأعنى الأمير ناصر الدولة الحمدانى .

وكان الوزير الداهية يعقوب بن كلس قد أوصى العزيز أن لا يأمن لبنى حمدان وكانت أحوال الشام قد اضطربت فى عهد المستنصر بالله حتى بعث بقائده أنوشتكين الدزبرى ــ وكان صارما ــ أمكنه حفظ البلاد والوقوف أمام الخارجين وهزيمة الروم إلا أن الأمور ساءت بينه وبين الوزير الجرجرائى . فحرض هذا الوزير بعض جند الشام على أنوشتكين ، وتمكنوا منه فهرب ، وانتهى الأمر بموته سنة ٤٥٣ هـ .

وقال ابن الأثير فى حوادث هذه السنة[1] : « فسد أمر بلاد الشام ، وانتقضت الأمور بها ، وزال النظام ، وطمعت العرب ، وخرجوا من نواحيه ، فخرج حسّان بن مفرج الطائى بفلسطين وخرج معز الدولة بن صالح الكلابى بحلب ، وقصدها وحصرها وملك المدينة . »

والمتتبع لدور الحمدانيين فى الشام ومنذ نشأتهم ير أنهم عملوا على بسط نفوذهم على

(١) راجع الكامل فى أحداث هذه السنة الجزء الثامن .

الجزيرة وشمال الشام ، واقتطاع كا مايمكن اقتطاعه من أرض الخلافة العباسية ، أو أملاك الفاطميين فى تلك الجهات ، سواء أكان ذلك بانتهاز فرصة ضعف أى منهما ، أو محالفة أحدهما ضد الآخر أو حتى محالفة الروم والارتماء فى أحضانهم ضدهما كليهما أو ضد واحد منهما إذا مارأوا فى ذلك كسبا أو مصلحة لهم .

بيــن الفاطميــن والسلاجقة

بدأت قوة السلاجقة الأتراك فى الظهور فى القرن الخامس ـــ الحادى عشر الميلادى ـــ ، وناجزوا البويهيين للسيطرة على شرق العالم الإسلامي ، والخلافة العباسية فى بغداد ، وتدخل الفاطميون فى هذا الصراع المثلث الأطراف محاولين النفوذ إلى غايتهم فى السيطرة على بغداد عاصمة العباسيين والدعوة لأنفسهم على منابرها .

وكان لدعاتهم فضل تمهيد الأرض أمام بسط نفوذهم فى تلك الأرجاء . وقد مر بنا ماكانوا يفعلونه من بث الدعاة ، وماكان من أمر الحسن الصباح صاحب قلعة الموت ، كذلك كان لأحد دهاة دعاتهم وهو المؤيد للدين داعى الدعاة دور كبير فى الانقلاب الذى حدث فى بغداد على يد البساسيرى أحد أعوان الفاطميين من جند الأتراك سنة ٤٥٠ هـ إذ ثار على الخليفة العباسى وأعوانه ، وكاتب المستنصر ودعا له بمسجد بغداد وغيرها . ولم يدم ذلك طويلا ، إذ سرعان ماأعاد السلاجقة الأتراك هجومهم على بغداد وتمت هزيمتهم للبساسيرى وأعادوا الخليفة العباسى إلى موقعه ، والخطبة له على المنابر من جديد .

واستطاع السلطان السلجوقى طغرلبك بعد الاستيلاء على بغداد والقضاء على البساسيرى أن يتعقب دعاة الفاطميين ورجالهم ، كما هاجم أملاكهم فى الشام وطاردهم خلفاؤه فى أنحائها ، وظل سلاجقة الشام والروم فى حرب مع الفاطميين حتى تقلص نفوذهم بالشام . فاستولوا على حلب ، وهاجموا دمشق ، واتجهوا جنوبا إلى فلسطين وبيت المقدس سنة ٤٦٣ هـ

وكان السلاجقة ممن اتخذوا من مذهب أهل السنة عقيدة لهم ، وتحمسوا له وعارضوا الشيعة وفرقهم ، وحاربوهم فى المشرق والعراق والشام ، وانضم إليهم كلّ أهل السنة فى تلك البلاد وعضدوهم ، وآزروهم فى حربهم للفاطميين ومن لف لفهم . وقد نشطت فرق الشيعة الباطنية فى تكوين جمعيات سرية فداوية ، كانت تتعقب سلاطين

السلاجقة وكبار رجالهم ، وتغتالهم ، لتعيق حركتهم فى محاربة الفاطميين والشيعة .

ويقول أحد الكتاب فى تصوير قيام الدولة السلجوقية وعملها على دفع موجات الروم والصليبيين بعد توحيد كلمة المسلمين :

« كان سبق للمسلمين أن شهدوا فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وحدة فى صفوفهم يوم قامت أولى امبراطوريات الأتراك على سواعد السلاجقة ، وامتدت أطرافها حتى ضمت مع ممتلكاتها أراضى الخلافة أيضا . وقد رفع قواعدها السلطان طغرلبك سنة ٤٢٥ هـ — ٤٤٥ هـ (١٠٣٣ — ١٠٦٣ م) فاستولى فى سنة ٤٢٥ هـ على خراسان ، وخطب له فى نيسابور ، ومازال أمره فى علو حتى هابه ملك الروم ، وهاداه ثم أنفذ رسوله إلى الخليفة القائم بأمر الله وسار يريد بغداد حتى دخلها سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، وأزال دولة البويهيين .

وملك بعده السلطان ألب أرسلان الذى وسع رقعة دولته حتى حدود الروم ، وكانت بينه وبين ملك الروم آنئذ وقعة ملاذكرد الفاصلة سنة ٤٦٣ هـ/٤٦٤ هـ والتى تم فيها النصر له فرجحت منذ ذلك الحين كفة السلاجقة فى المشرق الإسلامى ، وأصبحوا هم السادة الجدد للمنطقة . وبعد ألب ارسلان ملك السلطان العظيم ملكشاه ، ووزيره الخطير والمصلح الكبير نظام الملك ، وفى عهد ملكشاه ، استولى السلاجقة بقيادة تتش على جزء كبير من الشام ، وجعلوا قاعدتهم بها دمشق واستقر بها تتش .

وبعد ملكشاه انقسمت الدولة السلجوقية إلى ثلاث دول .دولة المشرق ، وسلاجقة الشام ، وسلاجقة الروم .

واستمر النضال بين سلاجقة سوريا أو الشام والفاطميين فى مصر طوال النصف الثانى من القرن الخامس ، وكان أبطال هذا النضال من السلاجقة تتش ، وسليمان بن أرتق حاكم القدس ، ومن جانب الفاطميين أمير الجيوش بدر الدين الجمالى وابنه الأفضل الذى استطاع أن يطرد الأرتقيين من بيت المقدس ويعيده مرة أخرى إلى سلطة الفاطميين سنة ٤٨٩ هـ ، ثم سقط بعد ذلك بقليل فى أيدى الصليبيين وكانت قد بدأت جموع الصليبيين تجتاح الشام فى أخريات القرن الخامس الهجرى وطوال القرن السادس .

وظهر من أتباع السلاجقة أحد أمرائهم بالموصل وهو عماد الدين زنكى فقاد عدة حملات ضد الصليبيين لتخليص نفوذهم بجزيرة الفرات وثغور الشام واستطاع أن يستعيد الرُّها من قبضة الصليبيين سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م)

ثم ملك بعد زنكى أبناؤه ، وبرز منهم سيف الدين غازى ونور الدين محمود واستولى نور الدين محمود على دمشق. وحدثت بينه وبين الفاطميين مفاوضات واتفاقات ، ومراسلات اشترك فيها أو فى بعضها أسامة بن منقذ ، والصالح طلائع بن رزيك ، وبعد مقتل طلائع واضطراب الأمر وخروجه من يد ولده وصراع السلطة بين الوزير شاور وضرغام تدخل الصليبيون ، وبعث الخليفة الفاطمى فى طلب النجدة من نور الدين محمود فارسل شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين .

ثم حدث ماحدث من القتال بين هذه الأطراف حتى استقر الأمر لشيركوه ومن بعده لابن أخيه صلاح الدين .

بيــن الفاطميين والروم البيزنطيين

كان اللقاء بين الروم البيزنطيين والفاطميين قبل دخول الأخيرين مصر وفى أثناء ملكهم شمال أفريقيا ، وكان النزاع بين القوتين فى البحر للسيطرة عليه ، وتملك بعض جزره الهامة .

وقد حرص الفاطميون منذ البداية على بناء قوة بحرية تمكنهم من مناجزة الروم وغيرهم فى البحر المتوسط. واستطاعوا السيطرة على بعض تلك الجزر كما عرفنا ، ولم يسلم لهم الروم بذلك بل حاولوا انتزاعها منهم ، كما حاولوا انتزاع السيطرة على البحر وبخاصة فى الجزء الشرقى منه .

وكانت حملات الروم البيزنطيين مستمرة على الجزيرة الفراتية وشمال الشام وثغوره لردع بعض غارات المسلمين ، من أمراء الشام والجزيرة ، وأبرزهم فى الوقت السابق على دخول الفاطميين مصر أمراء الحمدانيين فى الموصل وحلب . وكانت إمارة الحمدانيين فى حلب قد ضعفت فى أخريات حكم سيف الدولة ، وتعرضت لحملات من الروم البيزنطيين ، بقيادة نقفور .

قال ابن الأثير : « وجعل نقفور همه قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها وتم له ما أراد باشتغال ملوك الإسلام بعضهم ببعض ، فدوّخ البلاد ، وكان قد بنى أمره على أن يقصد سواد البلاد فينهبه ويخربه ، فيضعف البلاد فيملكها . وغلب على الثغور الجزرّية والشامية ، وسبى وأسر بما يخرج عن الحصر . وهابه المسلمون هيبة عظيمة ، ولم يشكّوا فى أنه يملك جميع الشام ومصر والجزيرة وديار بكر لخلو الجميع من مانع ، فلما استعجل أمره أتاه أمر الله من حيث لم يحتسب وقتل سنة ٣٥٩ هـ . »[1]

وجاء الفاطميون إلى مصر وبسطوا نفوذهم على الشام ، واستشعر الروم البيزنطيون بقوة الفاطميين أيام المعز والعزيز بالله ، وحاولوا جس نبض هذا السيد الجديد بالشام ، فقام الامبراطور باسيل بحملة إلى الشام عبر فيها الحدود إلى حلب وبعض مدن الشام ثم عاد أدراجه

وظل الروم يعملون حساب الدولة الفاطمية فى مغامراتهم بالشام على الرغم من وجود خلافات ونزاعات بين الأطراف العربية والإسلامية بها والتى كانوا يسعون إلى زيادتها لضعف الشوكة والانقضاض كلما أتيحت فرصة .

وهدأت الأحوال بين الفاطميين الروم بعض الوقت أيام العزيز والحاكم وتبادلوا السفارات ، وعقد الاتفاقات على أن يحفظ الفاطميون للنصارى حقوقهم فيما يملكون من البلاد ، ويفعل الروم مثله مع المسلمين من رعاياهم .

وانتقض الحال ، وعاود الروم نشاطهم بأرض الشام فى دولة الظاهر بالله والمستنصر ، ففى سنة ٤٢٢ تحرك الامبراطور أرمانوس إلى شمال الشام والجزيرة فقتلوا المسلمين ، واحتلوا مدينة الرها ، وملكوا قلعة أفامية من الفاطميين ، وأغاروا على بعض البلاد

ثم جاء المستنصر فهادن الروم فى سنة ٤٢٩ هـ وشرط عليهم إطلاق خمسة آلاف أسير من المسلمين ، وشرط الروم عليه أن يعمّروا بيعة « قمامة » أو كنيسة القيامة بالقدس ، فأرسل المستنصر إليها من عمّرها ، وأخرج عليها مالاً كثيرا .

ولم يلبث الروم أن نقضوا الهدنة فأغاروا بجيوشهم سنة ٤٣٢ هـ على شمال بلاد الشام

---

(١) الكامل ٧/ حوادث سنة ٣٥٩

فسيّر إليهم المستنصر قائده الدّزبرى على رأس جيش قوى لقيهم قرب حماة ، فكان النصر للفاطميين ، وقتل من الروم عدد كبير ، وأسر ابن عم ملك الروم فبذلوا فى فدائه مالاً جزيلا وعدة وافرة من أسرى المسلمين .

وفى سنة ٤٣٩ هـ تجددت الهدنة بين الروم والمستنصر وحمل كل من ملك الروم والخليفة لصاحبه هدية عظيمة .

وظلت الأحوال بين الفاطميين والروم هكذا بين الحرب والمهادنة حتى أخذ حكم الفاطميين فى الانحسار عن الشام مع دخول السلاجقة واستيلائهم على دمشق وزحفهم إلى بيت المقدس ، فى آخر عهد المستنصر ، وأول عهد المستعلى والوزير الأفضل ابن بدر الجمالى . وزامن هذا بدء الموجات الصليبية على أرض الشام ، واحتلال بعض الثغور وإقامة الإمارات ، وفى النهاية احتلال بيت المقدس سنة ٤٦٢ هـ فلم يبق للفاطميين سوى أجزاء قليلة فى جنوب الشام وفلسطين .

الفاطميــون والصليبيــون

جاء الصليبيون إلى الشرق الإسلامى ونزلوا بلاد الشام بعد أن آنسوا من ملوك المسلمين ضعفاً ، وتخاذلوا ، ووجدوا بينهم الشحناء والحروب المتتابعة ، فبدأوا هجومهم على جزر البحر المتوسط ، واستخلصوا صقلية بواسطة النورمان .

وعبر الفرنج من الصليبيين آسيا الصغرى ، وقطعوا سهل الأناضول حتى بلغوا شمال الشام بقيادة بوهمند وبلدوين ، وسقطت فى أيديهم عدة مدن كالرها وانطاكية ثم زحفوا جنوباً قاصدين بيت المقدس على الساحل خوفا من غارات المسلمين لدى توغلهم داخل البلاد . وحتى يكونوا قريبين من المدد الذى يأتيهم عبر البحر من بلادهم فى أوروبا

وزحفت جيوش الصليبيين على ساحل الشام حتى عكا ، وحيفا وقيسارية أرسوس وتوغلوا قليلاً فى الداخل فى أرض فلسطين حتى وصلوا مدينة الرملة ، فغادرتها حاميتها قبل بلوغها خوفاً ، وهكذا سقطت الرملة فى أيديهم دون حرب ، ومنها أطلوا على مدينة بيت المقدس ، وتجهزوا لحصارها . وكانت حاميتها من جيش الفاطميين وتقدر بألف رجل ، وأما الصليبيون فكانوا يقدرون بأربعين ألف . حاصروا المدينة أكثر من شهر حتى سقطت فى أيديهم .

وكانت مدينة بيت المقدس خاضعة لتاج الدولة تتش من السلاجقة بالشام ومستقرة بدمشق فأقطعها لأحد قواده الأمير سلمان بن أرتق ، فلما ظفر الصليبيون بالأتراك السلاجقة فى أنطاكية وقتلوا فيهم تفرقوا وضعفوا ، ولما رأى الفاطميون هزيمة الأتراك السلاجقة وضعفهم هاجموا بيت المقدس واستردوها منهم بقيادة الأفضل بن بدر الجمالى . وذلك فى شعبان سنة ٤٨٩ هـ بعد حصار دام نيفاً وأربعين يوماً .

وترك الفاطميون حامية بالقدس ، وظلت كذلك حتى داهمها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ بعد حصار عكا وعدم تمكنهم من اقتاحمها .

وسقطت مدينة القدس ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان ، الموافق ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م ، وقد وافقت حاميتها على التسليم للصليبيين على أن يسمح لهم بالرحيل إلى عسقلان سالمين . غير أن الصليبيين نكثوا بتعهداتهم، وأعملوا السيف فى رقاب الحامية وأهل المدينة فى مذبحة عظيمة جرت فيها الدماء بالشوارع وخاضها جنودهم حتى ركب الفرسان كما توصف فى بعض المصادر .

يقول ابن الأثير[1] : « وركب الناس السيف ، ولبث الفرنج فى البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين ، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود ، فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام فبذل الفرنج لهم الأمان فسلموه إليهم ووفى لهم الفرنج فخرجوا ليلاً إلى عسقلان ، فأقاموا بها . وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف . »

وكان من أسباب هزيمة المسلمين هذه واحتلال بيت المقدس الاختلاف وكثرة الحروب بينهم . قال ابن الأثير : « واختلف السلاطين على ماتذكره ، فتمكن الفرنج من البلاد وصدق الأبيوردى إذ يقول :

أرى أمتى لايشرعون إلى العدا ... رماحَهُم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولايحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويغضى على ذل كماة الأعاجم

(١) الكامل المجلد التاسع ص ٢٠

وأين صناديد الأعاريب الذين ذكرهم الشاعر وقد ذهبت ريحهم ، وولت دولتهم ، وملك أمرهم الخدم ، والعجم والأرمن . ؟ ، وقد حذر المتنبى الشاعر من هذا المصير المؤلم وكأنه يرى تلك النهاية الفاجعة لأمة العرب والمسلمين فى كثير من قصائده .

وحاول الأفضل أن يسترجع القدس فخرج إلى البلد بجيش كان على رأسه ، وانطلق من عسقلان قاعدة الفاطميين الباقية فى الشام لملاقاة جند الصليبيين ، إلا أنهم هزموه ففر مع جنده إلى عسقلان ، قال ابن الأثير : « وانهزم الأفضل فدخل عسقلان ومضى جماعة من المنهزمين ، فاستتروا بشجر الجميز ، وكان هناك كثيرا ، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه ، وقتلوا من خرج منه ، وعاد الأفضل فى خواصه إلى مصر ونازل الفرنج عسقلان » فبذل لهم أهلها المال فتركوها عائدين إلى القدس .

وكانت عودة الصليبيين من عسقلان فى شهر أغسطس (آب ١٠٩٩ م) ، وكان قادتهم ريموند وجودفرى . واستطاع الملك الصليبى بلدوين أن يعاود الكرة لينتزع عسقلان سنة ٥٤٨ هـ وظل الصليبيون يمكنون لأنفسهم فى الشام ، ويتوسعون فى ضم الأرض إلى مملكة بيت المقدس حتى امتدت هذه المملكة لتشمل أرض فلسطين وتمتد على طول ساحل الشام شمالا حتى بيروت ، وجنوباً إلى العريش فى مصر . ولكنها لم تتسع شرقاً إلى أبعد من مقاطعة الأردن خوفاً من التوغل فى الصحراء . وقد أقاموا على حدودها الشرقية القلاع الحصينة مثل قلعتى الكرك والشوبك .

وكانت الحالة فى مصر قد بلغت من السوء والفوضى والضعف بسبب ضعف الخلفاء وتسلط الخدم وجند الخلافة والنساء على القصر ، وصراع القوى بين رجال الدولة والقادة العظام حتى قتل الصالح طلائع بن رزيك ، وابنه ، وقامت الفتنة بين شاور وضرغام وانتهز الصليبيون الفرصة ليزحف ملك بيت المقدس إلى مصر لضمها إلى ملكه .

الباب الثانى

الحيـاة الاجتماعيـة

مصر والنيل يجرى وسطها ، يشقها من الجنوب إلى الشمال حيث يتفرع بعد القاهرة إلى فرعيه دمياط ورشيد تمثل بهذا الوضع وادى النيل فى قطاعه الشمالى (مصر) وهى كذلك منذ الأبد بصورتها المكانية تحف الوادى الأخضر بأرضه الزراعية على جانبى الضفتين ، وتحيط بهما من الشرق والغرب الأرض الصحراوية ، يشقها النيل مكونا واديه فتبدو فى الجنوب أطراف الضفتين وكأنها تلال وجبال : الحاجز الغربى والحاجز الشرقى ولاتزال هذه الحافة تنخفض فى ارتفاعها وتبتعد عن الوادى حتى قرب الجيزة فالقاهرة حيث تتفرع الدلتا بفرعى النيل ، ولايبدو لهذه التلال أثر بل أرض صحراوية ممتدة شرقاً ، وأخرى ممتدة غرباً ... على مرمى البصر .

تلك هى مصر ويحدها من الشمال البحر المتوسط ومن الغرب الصحراء الليبية ، ومن الشرق جبال البحر الأحمر والصحراء الشرقية والبحر الأحمر ، بفرعيه اللذين يحتضنان شبه جزيرة سيناء بجبالها ووديانها وسهولها الساحلية فى الشمال .

ومصر على هذه الصورة قسمت منذ القديم إلى عدة أعمال ، وعلى كل عمل والى حرب وعامل خراج وقاض ، ولكل عمل مصر أو عاصمة ، وهذه الأعمال عشرون عملاً منها بالوجه القبلى أو الصعيد عشرة أعمال بالوجه البحرى عشرة ، فأعمال الصعيد الإطفيحية ، والجيزية ، والفيومية ، والبوصيرية والبهنساوية ، والأشمونية ، والأسيوطية ، والإخميمية ، والقوصية والواحات .

وكانت هذه الأعمال منفصلة ، ثم انقسمت إلى قسمين البحرية وتتبع القاهرة ، والقبلية وتتبع الفسطاط .

فمن أعمال القاهرة : القليوبية والشرقية ، والمنوفية ، والدنجاوية وجزيرة بنى نصر ، وجزيرة قويسنا ، والسمنودية ، والغربية ، والدقهلية والمرتاحية ، والأبوانية ، والتنيسية ، والبحيرة وحوف رمسيس .

هذا فضلاً عن الثغور وهى ثغر دمياط ، وثغر رشيد وثغر الفرما ، وثغر الإسكندرية .

ويتمثل فى هذا التقسيم الإدارى لمصر جوانب العمران الحضرى والبدوى جميعاً أى القرى ومن بها من فلاحين مستقرين يعملون بالزراعة ، وبادية على أطراف الوادى

يسكنها جماعات البدو والأعراب الرحل غير المستقرين والذى يعيش بعضهم على الزراعات المطرية ، أو الرعى وينتقلون من مكان إلى مكان

ومعظم قرى الصعيد ومدنه وأمصاره تنتشر على ضفتى النيل ، وأكثر الأمصار والمدن يقع على الضفتين لسهولة الاتصال عن طريق النيل وهو الطريق الرئيسي للاتصال بين البلاد شمالاً وجنوباً .

وكثيرا مانجد القرى والمدن المصرية تقوم على تلال أو مرتفع من الأرض لتأمن فيضان النيل ، وتمتد بين بعضها الجسور . وتتخذ بعض المدن والقرى من المرتفعات غربى النيل وشرقيه مكاناً لتأمن غائلة الفيضان وبخاصة فى الصعيد .

وكانت تشق أرض الصعيد ، وشمال البلاد بعض الخلجان (الترع) مثل خليج المنهى أو بحر يوسف فى الصعيد ، وخليج أمير المؤمنين غربى القاهرة ، وخليج الإسكندرية الذى يخرج من فرع رشيد .

وتقوم الزراعات البقلية على مياه الفيضان ، وأهمها الحبوب كالقمح والفول والعدس ، كما تقوم بعض الزراعات الموسمية الأخرى على المطر فى البوادى وتزرع الحدائق والخضروات على المجارى المائية من النيل بواسطة السواق والآلات الأخرى كالطنابير والشواديف ومالإليها .

واعتاد المصريون زراعات أرض الشراقى التى لايصلها ماء النيل على السواق وقد ابتدعوا من قديم الزمان حفر السواقى العميقة ، التى ترفع مياهها بواسطة القواديس على مستوى واحد أو مستويات متعددة حسب عمق البئر أو السأقية .

وكانت مصر تعتمد على ثروتها الزراعية من القرى اعتمادا كبيرا فى حياة الناس ومعايشهم ، وكان من عادة مؤرخى مصر الحديث عن سعر القمح فى حالى الشدة والرخاء وتوفر رغيف العيش أو اختفائه ، ولم تكن مصر لتستورد القمح بطبيعة الحال ، بل كانت تنتجه وتصدره إذا فاض عن حاجة أهلها فى أوقات الرخاء وسخاء النيل

كان النشاط الزراعى فى قرى مصر بالصعيد والوجه البحرى هو النشاط الرئيسى للسكان ، كما أن الفلاحين يمثلون الغالبية العظمى منهم ، وهم جلُّ أهل القرى فيما عدا أعداد قليلة من البشر يقومون بالخدمات المساعدة ، والحرف أو المهن الأخرى

كالنجارين والسقّائين ، والتجّار ، والمعلّمين أو الشيوخ فى كتاتيب القرى الذين يعلمون أبناءها القرآن ، ويؤمون الناس فى المساجد ويخطبون أيام الجمع ، ويحيون ليالى رمضان ، وفى المناسبات .

وكانت حواضر مصر من البنادر على طول العصور الوسطى ، وبالضرورة فى العصر الفاطمى تمثل النشاط المدنى للسكان إلى جانب النشاط الزراعى لبعض كبار الملاك .

واهتم المؤرخون ، وكتاب الدواوين بحصر عدد قرى مصر وحواضرها فى سجلات وكتب ، ومنها كتاب ابن مماتى والوطواط (ت ٧١٨) [١] . .

ويذكر الوطواط حواضر مصر المشهورة ، فيسميها مصراً بمعنى المدينة[٢] أو المدينة الكبيرة » والتى تشرف إدارياً على مجموعة من الأقسام الإدارية « الأعمال » » ومنها الفسطاط التى كانت تشرف على أعمال الوجه القبلى . والقاهرة التى تشرف على أعمال الوجه البحرى .

ويستعملها على معنى العاصمة الاقليمية للعمل أو لعدة أعمال كالجيزة ، التى تشرف على عملها ، وقليوب التى تشرف على أعمال القليوبية ، وقد تشرف إحدى هذه العواصم على عدة أعمال يتولاها والى حرب واحد كأعمال الدقهلية والمرتاحية والأبوانية فهى كلها يتولاها والٍ واحد وعامل واحد وقاض واحد ، ومصر الجميع أشموم طناح وكذا الحال فى الصعيد هناك ولايات كبرى لها عاصمة كالأشمونية ، وأسيوط وقوص تضم عدة أعمال . كذلك كانت الأعمال البوصيرية وعاصمتها بوصير فى إقليم بنى سويف .

كذلك أعمال الاسكندرية واليها ثغرة ثغر الإسكندرية وتضم منطقة الإسكندرية وماحولها ، وتضم إليها أحيانا أعمال فوّة .

ومن الثغور الهامة ثغر الإسكندرية ، وثغر دمياط ، وثغر تنيس وثغر الفرما فى الشمال ، وثغر أسوان بالجنوب والقصير وعيذاب على البحر الأحمر .

---

(١) مناهج الفكر ومباهج العبر للوطواط صفحات مه تحقيق د. عبد العال عبد المنعم الشامى طبع الكويت سنة ١٩٨١

(٢) المصدر نفسه المقدمة ص ٢٠

وذكر المسبحي فى تاريخه أن قرى مصر أسفل الأرض ــ أى بالوجه البحرى ــ ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية . ونقل المقريزى عن أحد كتاب الخراج الأقباط أن عدد كور مصر وقراها سنة ٣٤٥ هـ بالصعيد والوجه البحرى كان ألفين وثلاثمائة وخمساً وتسعين قرية منها بالصعيد تسعمائة وست وخمسون قرية وبالوجه البحرى ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية .(١)

ومن مقارنة عدد قرى الصعيد فى كتاب المسبحي الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى وألف كتابه بعد الكاتب القبطى بما يقرب من سبعين عاماً يتضح أن عدد قرى الصعيد ينقص مرتين عما كان أيام الإخشيديين ، ربما كان ذلك بسبب خرابها أو انضمامها إلى قرى أكبر .

وعلى أية حال فإن عدد القرى بالصعيد أقل منه بالوجه البحرى لكثافة سكان الوجه البحرى وسهولة مواصلاته ، واعتدال مناخه ، وحسن رعاية الولاة له لقربه من العاصمة وثغور الدولة ومصالحها الرئيسية .

قال المقريزى : « وقد تغيرت بعد ذلك بخراب ماخرب منها » . ولعل خراباً كبيرا قد حدث بعد إحصاء المسبحى ، وبخاصة بعد الشدة المستنصرية التى هجر فيها كثير من الفلاحين قراهم ، فخربت ، ودمرت ، وزاد الخراب بثورات الأعراب ، واضطراب الأحوال فى مصر الفاطمية بعد ذلك نتيجة ضعف سلطة الدولة للنزاع على الحكم بين الخلفاء والأمراء والوزراء حتى سقوط الدولة وقيام الدولة الأيوبية .

ويتكون سكان مصر فى عصر الفاطميين من المصريين « الأقباط » مسلمين ومسيحيين ، ويطلق عليهم اسم « القبط » فى التواريخ الإسلامية المتقدمة ، ثم غلب اسم القبط على المسيحيين من أهل مصر بعد ذلك ، وخلط بعض كتاب التاريخ فى التفرقة بين الدلالتين .

وكان الأقباط المسيحيون قد ثاروا على بعض ولاة المسلمين لزيادة ضريبة الرءوس على أهل الذمة ، وهى الجزية المقررة ، وكان مقدارها ديناراً فزادوها دراهم ، وانتقض الأقباط مسيحيين ومسلمين لمغالاة الولاة فى جمع المال من الجزية والخراج ، بل شارك الأقباط بعض القبائل العربية التى استوطنت فى أنحاء الوجه البحرى والصعيد ، كما ثار

(١) راجع الخطط للمقريزى ٧٣/١

أهل الشرقية سنة١٨٧ هـ[1] وكانوا من العرب القيسية ، وظلت ثورات أهل الشرقية متتابعة حتى سنة ٢١٤ هـ

قال المقريزى : « ... فلما كان فى جمادى الأولى سنة ٢١٦ هـ انتقض أسفل الأرض (الوجه البحرى) بأسره : عرب البلاد وقبطها ، وأخرجوا العمال ، وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم ، فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب امتدت إلى أن قدم الخليفة عبد الله أمير المؤمنين المأمون إلى مصر لعشر خلون من المحرم سنة ٢١٧ هـ » .

وقال المأمون لوالى مصر آنئذ : « لم يكن هذا الحدث العظيم — أى ثورة المصريين فى الوجه البحرى — إلا عن فعلك وفعل عمالك . حملتم الناس مالا يطيقيون ، وكتمتنى الخبر ، حتى تفاقم الأمر ، واضطرب البلد » .

ويحكى المقريزى قصة وقعت للمأمون تشير إلى مدى غنى بعض أقباط مصر فى الوجه البحرى قال المقريزى[2] : « ويقال أن المأمون لما سار فى قرى مصر كان يبنى له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقة والعساكر من حوله . وكان يقيم فى القرية يوماً وليلة فمر بقرية يقال لها وطاء النمل فلم يدخلها لحقارتها فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية ، وهى تصيح ، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها . وقالت له القبطية : : نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى والقبط تعيرنى بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف والعقبى ، ولاتشمت الأعداء بى ، وبكت بكاء كثيراً فرق لها المأمون ، وثنى عنان فرسه إليها ونزل . » وأكرمته العجوز القبطية إكرام الملوك ، وقدمت له من الهدايا ما أدهش المأمون . قال المقريزى : « ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاً كثيرا ، حتى أنه استعظم ذلك ، فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر : جاءتكم القبطية بهدية الريف الكامخ والصحناء والصّير ، فلما وضعت ذلك بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضَرْبُ عام واحد كله . فقال : هذا والله أعجب . ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك

---

(١) الخطط ١/٨٠

(٢) الخطط ١/٨١

فقالت : ياأمير المؤمنين : لاتكسر قلوبنا ولاتحتقر بنا . فقال : إن فى بعض ماصنعت لكفاية ولانحب التثقيل عليك ، فردى مالك ، بارك الله فيك . فأخذت قطعة من الأرض وقالت : ياأمير المؤمنين ، هذا وأشارت إلى الذهب ، من هذا وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض ، ثم من عدلك ياأمير المؤمنين . وعندى من هذا شيء كثير . فأخذه منها وأقطعها عدة ضياع ، وأعطاها من قريتها « وطاء النمل » مائتى فدان بغير خراج ، وانصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها . »

وهذه القصة تدل على أشياء كثيرة أهمها غنى أرض مصر ، وسماحة حكام المسلمين مع أهلها وأبنائها خاصة وعدم مصادرتهم ، وأخذ أموالهم دون حق ، ومراعاة أحوالهم وجزائهم على حسن معاملتهم بما يستحقون . وبلوغ بعض الملاك فى ريف مصر من الثراء والجاه مبلغاً عظيماً .

ولاشك أن الحال استمر على هذا طوال حكم العباسيين وأمرائهم بمصر بقية القرن الثالث وفى القرن الرابع عصر الأخشيديين وحتى بدء العصر الفاطمى .

وثراء مصر فى القرن الثالث يحدثنا عنه حكم الطولونيين ، ومدى ماكانوا ينعمون فيه ،ويكفى الإشارة إلى بذخ خمارويه .

وهكذا عاش سكان مصر من الأقباط فى قرى الوجه البحرى والصعيد ، وشاركهم العرب الوافدون من الجزيرة العربية فى صورة هجرات قبلية متتابعة على مدى الحكم الإسلامى منذ عصر الولاة فى عهد الراشدين والأمويين والعباسيين .

قال المقريزى : « وكان من خير أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها، واستيطانهم وأهاليهم فيها ، واتخاذهم الزرع معاشاً وكسبا ، وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام ، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ماينتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس . »

وأهم قبائل العرب التى وفدت إلى مصر ، وتفرقت فى نواحيها بالوجه البحرى

والصعيد من عرب القحطانية جهينة وبلى وجذام ، ويتبعهم بطرق متعددة وفدت على مراحل وهجرات متعددة وتواريخ متعاقبة ، كما ينتسب إليها قبائل مغربية مختلطة بدماء بربرية وفدت إلى غرب مصر مثل بنى قرة ، ولواته ، وهوارة ، وتنقلت هذه القبائل اليمنية الأصول وانتشرت فى أنحاء كثيرة بمصر شرقاً وغربا وشمالاً وجنوبا ، واختلطت بأبناء البلاد من القبط واختلطت بغيرها من القبائل المصرية التى نزحت كذلك إلى مصر على هجرات متعاقبة ومتعددة منذ الفتح الإسلامى وحتى عصر الفاطميين .

ومن أهم قبائل مصر قيس أو قيس عيلان ، ومن بطونها فزارة ، ومنهم من دخلوا مصر وسكنوا بعض نواحى وقرى القليوبية فى قلقشندة وزفتا ، ومنهم جماعات من هوازن من بنى عامر بن صعصعة ، وخاصة من بنى هلال ، وفدوا إلى جنوب مصر وسكنوا الصعيد فى الضفة الشرقية للنيل مع بنى سليم ، وجماعات أخرى من قيس . ونقل القلقشندى أنه كانت لهم بلاد الصعيد كله إلى عيذاب . وهاجرت جماعات منهم إلى المغرب .

كذلك نزحت قبائل من قيس إلى بلاد الشرقية فى الحوف الشرقى . ونزحت قبائل وبطون من ربيعة من شرق الجزيرة إلى كثير من مناطق مصر . كما وفدت جماعات من قريش فى عصر الولاة ، وجاء إليها من الهاشميين جماعات فى عصر الفاطميين وبخاصة الطالبيين .

ونزح من ربيعة بطون استقر معظمها فى الصعيد الأعلى قرب أسوان ومنهم الكنوز .

وشجع الفاطميون لانتسابهم إلى أسرة عربية عريقة هى قريش العرب وبخاصة قيس والمغاربة على النزوح إلى مصر ، واستخدموهم فى غزواتهم ، وفى بعض نزاعاتهم مع القبائل الأخرى اليمنية والبربر فى شمال أفريقية .

يقول الدكتور عابدين[1] : « فالفاطميون على الرغم مماقيل فى نسبهم يعتزون بالانتساب إلى قريش ويجرون على سياسة تشبه سياسة الأمويين فى الاعتماد على العناصر العربية والاستعانة بهم فى حروبهم وفى تدعيم قوتهم ، وفى استغلال العصبية بينهم

(١) البيان والإعراب للمقريزى دراسة د. عبد المجيد عابدين ص ١١٦
طبع عالم الكتب بالقاهرة سنة ١٩٦١

أحيانا . » » ولعل أخبار بنى هلال مع الفاطميين مثل واضح على ذلك كله ، فقد شجع الفاطميون هجرة بنى هلال وحلفائهم إلى مصر . فاكتظت بهم أنحاء مصر الشرقية ، ثم أدركتهم شريعة الصحراء فجعلوا يشغبون حتى سمح لأكثرهم بالهجرة إلى بلاد المغرب لمحاربة بنى باديس »

وكان بنوقرة الجذاميون يمثلون قلقا للفاطميين فى أقليم البحيرة غربى الدلتا ، فقد تحالفوا مع أبى ركوة الثائر المشهور فى عصر الحاكم بأمر الله . ولما قضى على أبى ركوة ، عاود بنوقرة مرة أخرى الشغب بإقليم البحيرة واستولوا على الإسكندرية ، فتصدى لهم الفاطميون مرة أخرى سنة ٤٤٢ هـ وهزموهم فانسحب بنوقرة إلى الصعيد وتفرقوا بقراه . ولازالت فى أقليم أسيوط قرية بهذا الاسم .

وعرفت كثير من القرى بأنحاء مصر شمالاً وجنوباً بأسماء قبائل عربية سكنتها . ككفور العائد فى مركز بلبيس سكنها جماعات من العائذ من جذام ، اوسى عدى ، وبنى محمد ، وبنى حسين ، والدناجلة ، والبلازة .

كان إذا لاختلاط العرب النازحين من الشرق أو من المغرب على اختلاف عصور التاريخ الإسلامى منذ الفتح وحتى عصر الفاطميين فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وطوال القرنين التاليين حتى القرن السادس أثر كبير فى الاسراع بتعريب مصر ، جنساً ، ولغة ، وثقافة واعتناق معظم المصريين للدين الإسلامى .

وقد تعايش العرب والأقباط فى قرى مصر ونجوعها ، وتصاهروا وتناسلوا وامتزجت الحضارات المصرية القديمة بالحضارات العربية الإسلامية الوافدة ، وظهرت على مدى العصور الإسلامية بمصر هذه السمات الخاصة والمميزة للشعب العربى فى مصر والتى تميزه عن غيره من الشعوب العربية الإسلامية فى البلاد الأخرى .

لقد كان نتيجة هذا الاختلاط نوع جديد من الحضارة تبدى فى طرق العيش فى قرى الريف فى بناء المساكن وأنظمتها ، وآلاتها ، وطرائق الطعام والشراب ، وأنواع السلوك والتعامل مع الأرض والزراعة واتباع ماعرفه المصريون القدماء من أقدم العصور من مواقيت الزراعة والحصاد ، وبذر البذور ، وجنى الثمار وترتيب ذلك حسب الشهور القبطية ، وجرت بها أقوال دارجة على ألسن الفلاحين فى قرى مصر شمالها وجنوبها مثل قولهم فى أمثالهم :

« اللّى ماتشبع برسيم فى كياك إدعو عليها بالهلاك »
وكيهك من الشهور القبطية ، وهو سابق لشهر طوبة ، وبه ينضج البرسيم فترعاه الماشية وتدر اللبن .

وكقولهم فى برمهات :

« برمهات روح الغيط وهات »
يعنى أن هذا الشهر القبطى هو شهر نضج البقول كالفول والعدس ، والبر القمح .

وهكذا واعتاد المصريون من المسلمين والمسيحيين من العرب والقبط ماورثوه عن أجدادهم المصريين القدماء فى تدبير الإفادة من مياه النيل بحفر الترع وتنظيم الرى ، ريذكر المقريزى اهتمام المصريين بهذا حتى يفيدوا من مياه النيل أكبر فائدة ، ويجنوا من زراعة أرضهم بالصعيد أكبر مايستطيعون .

ويذكر كيف كان ولاة الأعمال يحرصون على تطهير الترع والخلجان ، ويجمعون لهذا الرجال من عمّال الفلاحين ، ويوفرون لهم العدد التى يعملون بها طوال العام .

ومن أشهر خلجان مصرافى العصر الإسلامى والتى ظلت إلى عصر الفاطميين وبعده خليج القاهرة ، أو خليج أمير المؤمنين ، وخليج الإسكندرية ، وخليج سخا وخليج سردوس وخليج الفيوم والمنهى (بحر يوسف) ، وبحر أبى المنجا الذى حفره ابن أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥٠٦ هـ . وكان حفره أبو المنجا ابن شعيا اليهودى فعرف به .

وكانت الأرض تقسم فى مصر حسب جودتها إلى أقسام ، كما أنها تضم بمساحاتها فى قبالات ، وكذلك تسمى بالوجه القبلى جمع « قبالة » أو حوض ، وفى الوجه البحرى تعرف بالأحواض ، وكان لكل قبالة أو حوض ، أو مجموعة قبالات أو أحواض متعهدين ، ويقول المقريزى : « واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد اقطاعات بمعنى ماعليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تُضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء ، والأجناد ، والوجوه ، وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم ...

وكان كل من اختار زراعة أرض يقبلها ، وحمَل ماعليه لبيت المال ، فإذا صار مال

الخراج بالديوان أنفق فى طوائف العسكر من الخزائن . وكان مع ذلك إذا انحط النيل عن الأراضى ، ونقصت نواحى مصر من أصناف الزراعات ندب من الحضرة من فيه نباهة وخرج معه عدول يوثق بهم ، وكانت لهم معرفة بعلم الخراج وكثيرا ماكان هذا كاتبا من النصارى الأقباط ويخرج إلى كل ناحية من ذكرنا فيحررون مساحة ماشمله الرىّ من الأراضى مما لعله بار أو شرق ، ويكتب بذلك مكلفات واضحة بالفدن (الأفدنة) والقطائع على جميع الأصناف المزروعة ، ويحضر إلى دواوين الباب ، فإذا مضى من السنة القبطية أربعة أشهر ندب من الأجناد من عرف بالحماسة وقوة البطش وعين معه من الكتاب العدول من اشتهر بالأمانة وكاتب من نصارى القبط غير من خرج عند المساحة وساروا إلى كل ناحية كذلك فاستخرج مباشرو البلد ثلث ماوجب من مال الخراج . »[1]

وقد تغير هذا النظام فى عصر الأيوبيين والمماليك إلى نظام الاقطاع العسكرى إذ كان كل أمير من أمراء الجند الأتراك يقطع أرضاً ، يقوم على ملكها والسيطرة على أرضها وفلاحيها ، وكان يفرض على الفلاحين قدراً بعينة من المحصول أو المال ، ويعتبر زراع الأرض كالعبيد لايملكون أن يعتقوا كالعبيد ، ولا أن يغادروا الأرض . وقد أدى هذا النظام الاستبدادى إلى ضمور كثير من القرى والكفور وتدهور الزراعة والأرض الزراعية حتى عصر الدولة المملوكية الثانية وفتح الأتراك العثمانيين لمصر فازدادت الأمور سوءاً .

وكان المصريون كما قلنا يهتمون بزراعة القمح بالأراضى الجيدة . يقول المقريزى[2] : « وأصلح مازرع القمح فى أثر الباق (وهى أجود الأراضى ،والشراق، لأنها كانت تستريح دورة ، فتستعيد خصوبتها .) . وكان يزرع بالصعيد القمح على أثر القمح لكثرة الطرح ، وربما زرع هناك على أثر الكتان والشعير .

ويزرع القمح من نصف شهر بابه إلى آخر هاتور ، وهذا فى الحوالى من الأرض وكانت قطيعة فدان القمح أيام الفاطميين ببلاد الصعيد ثلاثة أرادب ، فلما حدث الغلاء فى سنة ٥٧٢ هـ تقرر على كل فدان أردبان ونصف ثم صار يؤخذ أردبان . هذا

(١) الخطط ١/٨٥ ـ ٨٦

(٢) الخطط ١/١٠١

بالصعيد ويبدو أن الأمر كان يختلف فى أسفل الأرض أى بالوجه البحرى ، فكان يؤخذ خراجها عيناً أى نقداً ، لا غلة . ويزرع الفول كذلك ويتحصل من الفدان على عشرين إردبا إلى مادون ذلك وكذلك يزرع العدس . وغيره من الحبوب .

وكان المصريون يهتمون بزراعة الكتان ، ويستخرج من بذره الزيت الحار ، ويؤخذ على الفدان خراجه عينا مابين خمسة إلى ثلاثة دنانير ، وفى بعض الأراضى التى يجود فيها كأرض دِلاص بالصعيد ثلاثة عشر دينارا .

تلك أهم المحاصيل الشتوية ، وهناك محاصيل صيفية وخضروات وفاكهة كانت تجود بها أرض مصر ولازالت .

وكان الخراج يحصّل على ماتغله الأرض من حب وفاكهة وخضروات ، ومايقوم به الناس من أنواع النشاط كالحرف والصناعات والتجارة . وقد قرر ابن المدبر أحمد بن محمد لما تولى خراج مصر بعد سنة ٢٥٠ هـ عدة موارد للخراج وجَبْى المال ، قال عنها المقريزى أنها بدع صارت مستمرة من بعده لاتنقض ، فأخذ على القطرون وكان مباحاً للناس ، وقرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالاً سمّاه المراعى ، وقرر على مايطعم الله من البحر مالاً وسماه المصايد ... إلى غير ذلك . فانقسم مال مصر إلى خراجى وهلالىّ ، وكان الهلالى يعرف فى زمنه ومابعده بالمرافق والمعاون . ثم اسقطت بعد ذلك فى عهد الخليفة العباسى المعتمد على الله ، وكان هذا الخراج الهلالى أو المرافق يبلغ فى مصر مائة ألف دينار كل سنة .

ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية عندما ضعفت ، وصارت تعرف بالمكوس ، وجاء صلاح الدين بعد ذلك فأسقطها .

كانت أحوال الفلاحين خاصة ، وأهل مصر فى عهد الفاطميين طيبة ، وكانت ثروة البلاد ، وخيراتها تعم أهلها فيما عدا أيام الشدة ونقص النيل .

وعاش الفلاحون فى قراهم ومارسوا أنشطتهم فى الزراعة ، والحياة اليومية بين العمل فى الحقول والبحث عن المعايش ، وتختلف طبائع سكان مصر باختلاف منازلهم ، ومواقعهم من الصعيد أو الوجه البحرى ، وكان عدد قرى الوجه البحرى يبلغ مايقرب من ضعف قرى الصعيد ، وقد وصف المقريزى أهل مصر من المصريين عامة دون

تحديد جنسهم أو أصولهم صفات ليست بالكريمة ، فأقل ماوصفهم به ضعف الطبيعة والجبن والخضوع للحاكم ، والصبر والذل . ونقل عن بعض الكتب أقوالاً تؤيد هذا القول ، وأرجعهما بعضهم إلى طبيعة أرض مصر ومناخها الذى يقترب من الحرارة ، ولايميل إلى الاعتدال إلا فى شهور قليلة من السنة وفى الوجه البحرى مما أثر على أمزجة الناس وطباعهم وأجسادهم .

ولاندرى سبباً لحملة بعض علماء العرب وكتاب المسلمين على المصريين ، فاتهموهم اتهامات غير كريمة ، ووصفوهم صفات لاتدل على حقيقة ، وربما خلطوا فى هذا بين أقباط مصر وعرب مصر ، ومن سكنوا مصر من أجناس أخرى وافدة كرقيق وعبيد مجلوب ولم يكونوا من سكان مصر ولايدينون لها بالولاء ، وقد أتاحت لهم أعراقهم المختلطة أن يداهنوا الحكام ، وأن يتصفوا بصفات قد تكون غير صفات المصريين الخلّص من القبط أو العرب أو ممن نسلوا منهم جميعاً فى صعيد مصر أو وجهها البحرى . وبصفة عامة فإن المصرى الذى امتزجت دماؤه بتراب أرض مصر ، وامتدت اعراقه فى طينها يمتاز بصفات خاصة تميزه عن غيره من أهل البلاد المحيطة فهو طيب المعشر ، صافى القلب ، ودود ، متدين ، محب للأرض والأهل متمسك بما نشأ عليه من الخلق والعقائد ، لايتخلى عنها بسهولة ، ألوف لايخون ، ولايعق ، صبور طويل الصبر ، لكنه إذا فاض به ثار فكانت ثورته عارمة .

ولاشك أن بعض هذه الصفات اكتسبها من عراقة الحضارة التى عاشها آلاف السنين ، وأضافت عليها الهجرات العربية صفات أخرى اكتسبها من الشخصية العربية ، كالحميَّة ، وإباء الظلم ، والغيرة على العرض والدفاع دونه ، والحرص على نقاء النسب ، وعدم اختلاط الدماء .

وعرف المصرى على مدى الزمن باعتزازه بالحرية الشخصية ، بداخله ، رغم تظاهره بالطاعة لسلطة الدولة . ولعل ملاحظة كثير من المؤرخين على المصرى خضوعه للسلطان مرجعه لاعتياده على نظام الدولة المركزية القوية منذ عهد الفراعنة من آلاف السنين .

وليس كذلك البدو والأعراب الذين لم يعتادوا نظام الدولة إلا بعد ظهور الإسلام وتكوين أمة لها حاكم واحد ودولة تدير شئونهم ، وقد قاست الأنظمة الإسلامية الحاكمة من تمرد الأعراب والبدو وانتقامهم كثيراً رغم محاولة تلك النظم [illegible]

الشريعة الإسلامية تم تسييس الأعراب ، وتعويدهم أو طبعهم على طاعة الدولة .

والمصرى أديّن بطبعه ، عرف الدين وسرى فى عروقه منذ آلاف السنين وكانت أرضه مصر مهداً لعدد من الأنبياء ، ومسرحاً لكثير من الرسالات السماوية منذ إبراهيم عليه السلام وقبله من أنبياء ورسل سمعنا عنهم ولم تأتنا أخبارهم تفصيلاً ولكن جاء مصر من الرسل الكبار يوسف وموسى وعيسى كما زارها عدد من الأنبياء كيعقوب ، وهارون .

ويبدو أن العبادة المصرية القديمة فرضت فى طقوسها بعض مظاهرها على ديانة المصريين سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين ، وربما كان فى التثليث المسيحى بعض آثار الثالوث المقدس القديم عند الفراعنة أعنى أوزوريس وإيزيس وحورس (أو أوزير وإيزى وحور) . كذلك بناء الكنيسة وبعض طقوسها تمت إلى المعبد المصرى القديم بأسباب .

ولم يخل التطبيق المصرى للإسلام ، أو الإسلام فى صوره السلوكية فى حياة المصريين قد شابته بعض شوائب من حضارة مصر القديمة كتقديس الأولياء وزيارة فى قبورهم ، وتقديم النذور والذبائح لهم . وتكاد لاتخلو قرية مصرية من مزار ولى أو شيخ . واختلطت بعض عقائد الطرق الصوفية بالعقائد المصرية القديمة ، كالاعتقاد باجتماع الأولياء فى أماكن متعددة كاجتماع الأرباب يصرفون أحوال الدنيا ، ويكتبون مقادير الناس ومصائرهم .

ولا يغرب عن الأذهان قصة ذى النون المصرى الذى نشأ فى صعيد مصر ، وكان فى عقيدته الصوفية غريبا تأثر فيها بموروث التراث الدينى المصرى القديم .

لقد احتفظت كل قرية من قرى مصر بمسجد وكنيسة إذا كان بها أقباط مسيحيون وربما كان هناك أكثر من مسجد وكنيسة . كما كثرت على جانبى الوادى البرانى والبيع والأديرة التى كان يسكنها رهبان المسيحيين وقسيسيهم ، ويؤمها المسلمون والمسيحيون جميعاً فى أعياد النصارى التى كان كثير منها أعياداً مصرية أو قومية قديمة كعيد النيروز أو النوروز وغيره .

وكان لمدن مصر سماتها الخاصة التى تجمع بين سمات المدن الإسلامية مع ملامح مصرية مميزة لها .

فمن مميزات المدينة المصرية أو القرية الكبيرة السوق الأسبوعى الذى يعقد فى أحد أيام الأسبوع ويجتمع فيه الناس من القرى القريبة للبيع والشراء والمبادلة .

وقريب من هذا السوق فى صورته ووظيفته المولد السنوى للولىّ أو الشيخ الذى يوجد مزاره بالمدينة أو العاصمة « البندر » ويعقد كل عام ، وكم ذا بمصر من الموالد لأولياء الله الصالحين الكبار والصغار والذين تعقد موالدهم على مدى العام فى مواسم فراغ الأرض من المحاصيل ، وأوقات الحصاد إذ تمتلىء جيوب الفلاحين بالمال فيجيئون لإنفاقه فى المدينة لزيارة الولى والفرجة على المولد وقضاء بعض مايرونه من زيارة دينية ترضى الولى عنه وربما يستجيب لدعوته فيرضى نفساً ويعود مطمئنا لداره ، وسعيداً بقضاء أوقات من الصفاء والسعادة فى مرح وسرور بين مباهج المولد فيشترى من حاجاته مايطلبه ، ويمتع نفسه بالفرجة على مايختصُّ به المولد من ألعاب وملاه .

ولا نحتاج إلى التذكير بأن هذه الموالد قريبة الشبه بما كان يصنع فى مصر القديمة لمعبودات المصريين من احتفالات وأيام زينة كما جاء فى القرآن الكريم حيث يرأس الحاكم أو الفرعون الاحتفال المهيب بمولد المعبود ، ويشق الموكب الذى يضم صورة المعبود أرض المدينة تحف به مظاهر الهيبة والاجلال والفرحة وأنواع الزينة .

وغريب أن تصبح مواكب المعبود القديم مواكب لأتواب الشيوخ التى توضع على مقاماتهم يتقدمها « الخليفة »[1] ومن يمثل السلطة من أمير أو حاكم للإقليم .

ومعظم القرى والمدن والحواضر المصرية قديم منذ عهد الفراعنة والعصور المتعاقبة اليونانى والرومانى ، وبعضها قرى ومدن قامت فى العصر الإسلامى أقامها العرب الوافدون ، حيث استقروا من البلاد ، وسميت بأسماء عشائرهم كبنى قرة ، وبنى مزار ، وبنى محمد ، وبنى حسين ، وبنى مرّ ، والعقامة ، والدناجلة ، وأولاد الياس ، والعواصم والحواضر الكبرى التى اختطها الولاة والخلفاء مثل الفسطاط ، ومنية بنى خصيب ، والقاهرة .

وأما البلاد والقرى الفرعونية ، أو التى أنشئت فى العصر اليونانى والرومانى فتعرف بأسمائها غير العربية والمغيرة مثل سيوط أو سى أوط ، وفى العصر اليونانى ليكوبوليس ،

---

(١) خليفة الولى أو الرجل الصالح

والإسكندرية ، نسبة إلى الإسكندر ، ودمنهور ودمروط التي عربت إلى دمروط ، والبهنسا ، والأشمونين ، وقفط ، وبوتيج ، أبوتيج وغيرها من عشرات الأسماء التي لازالت تحمل السمات الفرعونية أو اليونانية القديمة .

ومنها بعض المدن ذات الأصول القديمة التي جاء العرب المسلمون فأطلقوا عليها أسماء عربية كالأقصر على مدينة طيبة .

واحتفظت تلك المدن القديمة بطابعها القديم إلى جانب الملامح الإسلامية الوافدة ، فاجتمعت في تخطيطها معالم الحضارتين المصرية القديمة والعربية الإسلامية .

وأما المدن التي خططها المسلمون وأنشأوها فقد احتفظت بالطابع العربي الإسلامي خالصاً والذي يتمثل في وجود المسجد الجامع في سرة المدينة تحيط به الأسواق ، والقيساريات ، ثم تتوزع الأحياء بعد ذلك وتنتشر حول المسجد والسوق كالمروحة ، وغالبا ماتكون مدنا مدورة .

ونخص بالحديث العواصم وبعض المدن الكبرى في الصعيد والوجه البحري .

الإسكندرية :

وأول مانبدأ به الحديث مدينة الإسكندرية التي بناها الإسكندر بن فيليب المقدوني على مايذكر المؤرخون وسميت باسمه ، وظلت عاصمة للبطالمة خلفاء الإسكندر من اليونانيين الذين تمصروا بعد ذلك ، وأقاموا حضارة امتزجت فيها الحضارة المصرية القديمة بالحضارة اليونانية وكانت الإسكندرية في عصرهم عروس البحر المتوسط ، ومنارة العلم والفكر والحضارة ، بما مكتبتها الزاهرة العظيمة ودار الحكمة ، فضلاً عن قصور البطالسة ، ومنشآتهم العظيمة وعرفت الإسكندرية في أخريات العصر البيزنطي وأوائل العصر الإسلامي بمبانيها الحجرية البيضاء التي تبهر الأعين بشدة بياضها ، والتي بالغ بعض المؤرخين العرب والمسلمين في وصفها فقالوا إنها لبياض بيوتها كانت تغني أهلها عن إيقاد السرج لتضيء لهم ليلاً ، وخاصة في الليالي المقمرة . ومن هؤلاء مما خلفه ملوك الإسكندرية وولاتها من قبل الروم من آثار عظيمة كالمنارة المشهورة ، وملعب الإسكندرية ، وعمود السواري .

ولما دخل المسلمون المدينة أبقوا على طابعها القديم ولغتها ، وتخطيطها وأسوارها

وأبوابها ، وأضافوا لها حديداً ، أو جددوا ما أنهار أو هُدم منها ، كسورها العتيد الذى أعيد بناؤه ، واضيفت أحياء سكنية للعرب الذين وفدوا إلى الإسكندرية فسكنوا بعض ضواحيها ، كذلك بنيت المساجد ، والزوايا ، واستقر بها كثير من علماء المسلمين وعبادهم ، وفى عصر الفاطميين بنى بها بدر الجمالى مسجده المشهور بالعطارين واستقر بها علماء معروفون كالحافظ السلفى نزيل الإسكندرية ، والمحدث المشهور وخرج منها الطرطوشى ، وابن عطاء الله السكندرى ، وضمت جماعة من كبار الصوفية ورجال الدين الذين أجلهم أهلها واحتفظوا لهم بمكانة بينهم كأبى العباسى المرسى ، والبوصيرى وكانت لهم مساجدهم التى يجتمعون فيها إلى أهل الإسكندرية يأخذون عليهم العلم ثم ضمت بعد ذلك أضرحتهم بعد الموت .

ونشأ بالإسكندرية فى العصر الفاطمى جماعة من الأدباء والشعراء أشهرهم ظافر الحداد وابن قلاقس . وقد وصف ظافر مدينة الإسكندرية ، وبعض معالمها كالمنارة والبحر وخليجها المعروف . كما وصف بعض قصور أثريائها بحىّ الرمل .

ويعتبر خليج الإسكندرية من أجمل منازهها . وهو الذى يجلب إليها ماء النيل ليشرب منه أهلها . وحفر منذ قديم الزمان ، وقام على إعادة حفره ولاة مصر فى العصر الإسلامى فقد حفر سنة ٢٤٥ هـ فى عهد الواثق الخليفة العباسى ، وأعيد حفره فى عهد أحمد بن طولون سنة ٢٥٩ وأعاد الحاكم بأمر الله حفره سنة ٤٠٤ هـ .

وذكر المقريزى أن خليج الإسكندرية كان يسقى الإسكندرية وبلاد مريوط ، وكانت بلاد مريوط فى نهاية العمارة ، والجنان المتصلة بأرض برقة . وكانت السفن تجرى فى النيل وتمخر فى الخليج حتى تدخل الإسكندرية وتتصل بأسواقها ، وكانت أرضه وأرصفته بها مبلطة بالأحجار والمرمر .[١]

وعرف أهل الإسكندرية بالعمل بالبحر والاشتغال بالصيد ، وعمل السفن ، والتجارة وبعض الصناعات ، واشتهر بها نسيج الكتان ، وعمل بعض الملابس والمنسوجات التى اشتهرت فى أنحاء مصر وغيرها من الأقاليم .

ولما كانت ثغراً على البحر فقد سكنها أجناس من أهل الجزر وكثير من المغاربة الذين

(١) الخطط ١٧١/١

كانوا يستقرون بها لأنها أول مايلقاهم من حواضر مصر فى طريق الحج ، ولذلك كانت تعرف بباب المغرب .

وقد وفد إليها واستقر بها كثير من علماء المغرب ورحالتها وشعرائها طوال العصور الإسلامية .

كذلك عرفت الإسكندرية بأنها أم الكنيسة المرقسية الأرثوذكسية المصرية وبها أقام مرقس داعية المسيحية فى مصر والذى سميت الكنيسة باسمه .

ويصور على بن ظافر بقلمه لمحة من الإسكندرية فيقول فى أحد قصورها بكتاب البدائع[1]

« قال على بن ظافر وحضر يوماً عند بنى خليف بظاهر الإسكندرية فى قصر رسا بناؤه وسما ، وكان يمزق بمزاحمته أثواب السما ، وقد ارتدى جلاليب السحائب ولاث عمائم الغمائم ، وامتسحت ثنايا شرفاته ، واتسمت بالحسن حنايا غرفاته وأشرف على سائر نواحى الدنيا وأقطارها ، وحبته السحائب بما أؤتمنت عليه من ودائع أمطارها . والرمل بفنائه قد نثر تبره فى زبرجد كرومه ، والجو قد بعث إليه بطيبه نسيمه ، والنخل قد أظهرت جواهرها ، ونثرت غدائرها ، والطلُّ ينثر لؤلؤه فى مسارب النسيم ومساحبه ، والبحر يرعد غيظا من عبث الرياح به . »

ويقول شاعر الإسكندرية فى العصر الفاطمى ظافر الحداد فى وصفها[2] :

بذاك الثغر أضحكنى زمـــــانٌ	بكائى عليه نوحٌ وانتحـــــابُ
سقى تلك المعاهد كلُّ عهـــــدٍ	تفيض على الهضاب له هضـــابُ
مضت لى فى جزيرتها ليـــــالٍ	لآلٍ هـنَّ لوقيل الصـــوابُ
فلو نُظِمَتْ قلائِد للغـــــوانى	لما رضيت عن الدُّر الرقـــابُ
كأن البدر فيها عين مـــــاءٍ	لها من فائض النور انسكـــابُ
تضىء بها المساجد فهى تزهـــو	بياضاً مثلما تزهـو الكِعَـــابُ
تجاورها منارتها وفيهـــــا	وفى فانوسها عجبٌ عجـــابُ

(١) بدائع البداهة ص ٣١٦

(٢) ديوانه ص ٢٥/٢٦ تحقيق د. حسين نصار طبع مكتبة مصر بالفجالة سنة ١٩٦٩

فتاةٌ غادةٌ بإزاء شيخٍ ... قصير طال بينهما العتابُ
سقى الله السوارى بالسوارى ... ودُرتُ فى مذاهبها الذهابُ
وسيف خليجها كالسيف حدًّا ... وفى أرج الرياح له اضطرابُ
يمُدّ مُدًى تلثّبُ بالمجارى ... وليس لمديةٍ منها قرابُ
وإيقاع الضفادع فيه عالٍ ... وللدولاب زمر واصطخابُ
وتكسوه الرياحُ دروع حربٍ ... ولاطعنٌ هناك ولاضرابُ
وترقصُ فى جوانبه غصُونٌ ... كرقص الغيد ماذ بها الشرابُ
وتشدو بينها الأطيار شدواً ... رخيماً للقلوب به انجذابُ
وكم لى بالكنيسة من كِناسٍ ... به رشأ جَلّتهُ لنا القِبابُ
وكم لى بالمجالس من جلوس ... تحُفُّ به الأحبّةُ والصحابُ
وبحرُ الملح مثلُ الفَحلَ يَرْغُو ... ويُزبِدُ حين يُقلقه المُبتابُ
وتحسبُ سفنه صفَةً ولوناً ... فيولاً حين يرفعها العُبابُ
وأذكر قصرَ فارِسَ والمعَلّى ... ففيه لكلّ موعظةٍ مَنابُ
وهى من بعد قوته فأضحَى ... كما بركتْ على الغبراءِ نابُ

° ° °

وكم يوم لنا بالرمل فيه ... حديثٌ مثلما نُثِرَ السُّحابُ
حديثٌ كاسْمِه ميتا حديثٌ ... كما يسقى أخاظمأ ثِغابُ
جلسنا والرمالُ لنا حشايا ... وأوراق الكروم لنا حجابُ
على الكُثبانِ أكثبةٌ سمانٌ ... وفى الأغصان أغصانٌ رطابُ
به القصران كالرَّجلين لاحا ... على بُعد يتلّهما السُّرابُ
أقاما صاحبين مع الليالى ... ولم ينعبْ بينهما الغُرابُ

وظافر وإن مزج الحقيقة بالخيال فى هذا الشعر إلا أنه استطاع أن يرسم لنا صورة لبعض معالمها المشهورة كالمنارة والمنازل البيضاء وعمود السوارى ، والبحر والرمل وخليج الإسكندرية بما يحوطه من منازه وحدائق .

دمياط

وقد اكتسبت دمياط أهمّية فى مصر الإسلامية ، وعصر الفاطميين خاصة لأنها كانت مرفأ

للاسطول الفاطمى ، يخرج من الفسطاط مبحراً شمالاً فى فرع نيل دمياط حتى يصل البحر المالح .

قال المقريزى[1]: « اعلم أن دمياط كورة من كور أرض مصر بينها وبين تنيس إثنا عشر فرسخا » ، وتقع تنيس شرقيها بين بحيرة المنزلة والبحر . ويقال أن اسمها مشتق من كلمة سريانية تعنى إجتماع العذب بالملح حيث يجتمع عندها نهر النيل عند مصبه بالبحر المتوسط . وتعرضت دمياط لقربها من الفسطاط عاصمة الدولة الإسلامية فى مصر لغارات الروم من البحر .

وكان أقرب غارات الروم على دمياط فى عصر الإخشيد سنة ٣٥٧ هـ إذ هاجموها فى بضع وعشرين مركبا .

وفى أيام الفاطميين فى عصر الخليفة الفائز بنصر الله ووزيره طلائع بن رزيك سنة ٥٥٠ م نزل على دمياط نحو ستين مركبا من مراكب الفرنج بعث بها صاحب صقلية ، فعاثوا وقتلوا ونزلوا بتنيس ، ورشيد والإسكندرية .

وبنى المسلمون فى دمياط برجاً حصينا فى مدخل البحر ، وأقاموا على مدخل النيل عند التقائه بالبحر سلسلة عظيمة تسدّ الطريق أمام مراكب الفرنجة ومن تحدثه نفسه بالاغارة على المدينة ومحاولة إقتحام مجرى النيل بمراكبه مبحرين إلى الفسطاط والقاهرة .

وكان المسلمون قد بنوا بها مسجداً يسمى مسجد فتح ، وكتب على بابه بالقلم الكوفى أنه عمر بعد سنة خمسمائة من الهجرة ، وفيه عدة من عمد الرخام منها مايعز وجوده على حد قول المقريزى .

تنيس

وتنيس من المدن المشهورة فى الساحل الشمالى الشرقى لمصر ، وقد كانت مدينة مزدهرة فى العصور القديمة والعصور الإسلامية ، ثم خربت وطمرتها مياه بحيرة المنزلة . وكان لها فى بعض الروايات مائة باب ، مما يدل على سعتها وحصانتها .

وقال المقريزى إنها بلدة من بلاد مصر فى وسط الماء ... وكانت مدينة كبيرة وفيها آثار كثيرة للأوائل . وأهلها مياسير أصحاب ثراء ، وأكثرهم حاكة ، وبها يحاك ثياب

---

(١) الخطط ١/٢١٣

الشروب التى لايصنع مثلها فى الدنيا . وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لايدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لاتحوج إلى تفصيل ولا خياطة ، تبلغ قيمته ألف دينار . و. ـ فى الدنيا طرازٌ ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو ساذج بغير ذهب مائة دينار عيناً غير طراز تنيس ودمياط .

وكان النيل إذا أطلق يشرب منه من مشارق الفرما من ناحية جرجير وفاقوس من خليج تنيس . فكانت من أجل مدن مصر .

ويبدو أن ثياب تنيس هذه كانت تصدر إلى دار الخلافة فى بغداد ، وكان الحمل منها كما يقول المقريزى يبلغ عشرين ألف دينار ، فلما كانت سنة ٣٦٠ هـ بعد تولى الوزير يعقوب بن كلس الوزارة للمعز لدين الله الفاطمى منع تصدير هذه الثياب إلى بغداد .

وكان يسكن مدينة تنيس ودمياط نصارى تحت الذمة . وكان أهل تنيس يصيدون السّمانى وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم . والسُّمانى طائر يخرج من البحر ويقع فى الشباك .

وكانت السفن تركب من تنيس إلى الفرما وهى على ساحل البحر وكانت المراكب هى وسائل انتقال أهل تنيس من البلدة وإليها ويبدو أن ثياب تنيس ومنسوجاتها الفاخرة كانت من الهدايا التى تقدم لخلفاء الفاطميين كل عام . قال المسبحى فى حوادث سنة ٣٨٤ بتاريخه : « وفى ذى القعدة ورد يحيى بن اليمان من تنيس ودمياط والفرما بهديته ، وهى أسفاط وتخوت وصناديق مال ، وخيل وبغال وحمير ، وثلاث مظال وكسوتان للكعبة .

« وفى ذى الحجة سنة إثنين وأربعمائة (٤٠٢ هـ) — فى عصر الحاكم بأمر الله — وردت هدية تنيس الواردة فى كل سنة ، منها خمس نوق مزينة ، ومائة رأس من الخيل بسروجها ولجمها وتجافيف وصناعات عدة ، وثلاث قباب دبيقية بمراتبها ، ومتحرقات وبنود ، وما جرى الرسم بحمله من المتاع والمال والبز . ولمّا قدم الحاكم استدعت أخته السيدة ست الملك إلى عامل تنيس عن الحاكم بأن يحمل مالاً كان قد اجتمع قبله ويعجّل توجيهه ، وقيل إنه كان ألف دينار ، وألفى ألف درهم اجتمعت من أرباض البلد لثلاث سنين وأمره الحاكم بتركها عنده ، فحمل ذلك إليها ، وبه استعانت على مادبّرت » .[1]

(١) المقريزى ١٨١/١

« وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة ورد خبر على الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبى هاشم على بن الحاكم بأمر الله أن السودان وغيرهم ثاروا بتنيس وطلبوا أرزاقهم وضيقوا على العامل حتى هرب ، وأنهم عاثوا فى البلد وأفسدوا ومدُّوا أيديهم إلى الناس وقطعوا الطرقات ، فأرسل الوزير الجرجرائى تجريدة من خمسين فارساً للقبض على الجناه . »[1]

قال المسعودى يصف أرض تنيس وماتخرجه من أصناف الفاكهة والزرع [2] :
« تنيس كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة ، وكانت جنانا ونخلاً ، وكرْماً وشجرا ومزارع ، وكانت فيها بحار على ارتفاع من الأرض ، ولم ير الناس بلداً أحسن من هذه الأرض ولا أحسن اتصالاً من جنّاتها وكرومها ، ولم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبهها إلا الفيوم . »

وقال ابن وصيف شاه : « وحولها الزرع والشجر والكروم ، وقرى ومعاصر للخمر ، وعمارة لم يكن أحسن منها ، وكثر بها الطير والسمك ، » ولتنيس موسم يكون فيه من أنواع الطير مالايكون فى موضع آخر ، وهى مائة ونيف وثلاثون صنفاً ، منها السلوى والقمرى ، والزرزور ، والفاختة والفَواح ... ويصل إلى تنيس طير كثير لايعرف اسمه صغار وكبار ، ويعرف بها من السمك تسعة وسبعون صنفا منها البورى والبلمو ، والبرو واللبب »

قال المقريزى[3] : « وكان من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها « تونة » يعمل لها طراز تنّيس ، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحيانا . قال الفاكهى ورأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد من قباطىّ مصر مكتوباً عليها : بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونة سنة تسعين ومائة (١٩٠ هـ) . »

ومن قرى تنيس سمناى قال المقريزى[4] : « قرية من قرى تنيس غلبت عليها بحيرة تنيس فصارت جزيرة ، فلما كان فى شهر ربيع الأول سنة ٨٣٧ هـ سبع وثلاثين وثمانمائة كشف عن حجارة وآجّر بها فإذا عضادات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها

(١) المصدر نفسه ١٨١

(٢) فى مروج الذهب ونقله المقريزى ١/١٧٦

(٣) خطط المقريزى ١/١٧٧

(٤) المصدر نفسه ١/١٧٧

اسم الإمام المعز لدين الله وعلى بعضها اسم الإمام العزيز بالله نزار ، ومنها ماعليه اسم الإمام الحاكم بأمر الله ومنها ماعليه اسم الإمام الظاهر لاعزاز دين الله ، ومنها ماعليه اسم المستنصر وهو أكثرها . »

و « بورا » وكانت بين تنيس ودمياط وإليها ينسب السمك الذى يقال له البورىّ .

وكانت بحيرة المنزلة والتى كانت تعرف فى ذاك الزمان ببحيرة تنيس تحيط بالبلدة قال ياقوت : « وبحيرتها التى هى عليها مقدار إقلاع يوم فى عرض نصف يوم ، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحاً لدخول بحر الروم إليه عند هبوب الشمال — أى شتاء — وعند دخول الشتاء وكثرة هبوب الرياح الغربية فإن أهل تنيس تخزن الماء فى جباب ويعدونه لسنتهم » ويقول ياقوت : « وهناك فوهة يدخل منها ماء البحر الأعظم إلى بحيرة تنيس ، وإذا تكاملت زيادة النيل فى الفيضان غلبت حلاوته على ملوحة ماء البحر ، فصارت البحيرة حلوة . وعندها يختزن أهل تنيس الماء على ماذكرت فى صهاريجهم ومصانعهم لسنتهم » .

وذكر المقريزى أن شرب أهل تنيس من مياه مخزونة فى صهاريج تملأ فى كل سنة عند عذوبة ماء البحر بدخول ماء النيل إليها . »[1]

ويحمل الماء العذب إلى تنيس خليج يخرج من النيل .

وأما أهل تنيس وسكانها فقد كان بها عدد كبير من نصارى الأقباط ، معظمهم حرفتهم صناعة النسيج والحياكة ، وبعضهم يحترف الصيد . وكان هؤلاء السكان يتفاوتون فى الغنى والفقر ، وبعض فقرائها من العاملين بالنسيج أو الحياكة كان يبدو عليهم البؤس .

قال أحد الرحالة العرب الذين زاروا المدينة : إنى لم أر من البؤس فى بلد أكثر من بؤس أهلها — تنيس — ، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابونى أن مدينتنا محاطة بالماء ، فلا نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية ، والماء الذى نشربه يجلب لنا من بعيد ، ونشترى الجرة منه بأربعة دراهم ، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه ونعطى على ذلك نصف درهم فى اليوم من تجار الأقمشة ، ومع أن أجرتنا لا تكفى لإطعام كلابنا فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير كل عام .

---

(١) المصدر نفسه ١٧٧/١

« لأنهم من أهل الذمة »

ولم يكن هذا الإرهاق بدفع الجزية قائماً فى كل العصور ، بل كان استثناء فى عصور بعض الولاة ، وقد مر بنا خبر أحدهم مع المأمون .

قال المقريزى : « وأخلاق أهلها سهلة منقادة ، وطبائعهم مائلة إلى الرطوبة والأنوثة . وهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة ، وأكثرهم يبيتون سكارى . وهم قليلو الرياضة لضيق البلد ، وأبدانهم ممتلئة الأخلاط وأكثر أغذية أهلها السمك والجبن وألبان البقر »

وهكذا من أقوال المؤرخين يمكن أن نتصور حال تلك المدينة العامرة التى اشتهرت فى العصور الوسطى منذ الفتح الإسلامى لمصر وحتى اندثرت وضاعت آثارها بعد أن خرّبها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة أربع وعشرين وستمائة (٦٢٤هـ) ، فاستمرت خراباً ، ولم يبق منها إلا رسومها فى وسط البحيرة . »[1]

وخرج من تنيس علماء وأدباء وشعراء أشهرهم فى عصر الفاطميين الشاعر ابن وكيع التنيسى شاعر الخمر والزهر ، ووصف الطبيعة والذى تأثر ببيئته ، فانعكست صور الحياة والطبيعة فيها على قصائده . ومن ذلك قوله فى مزدوجة :

واشربْ عقاراً طال فينا كَوْنها	يَصْفَرُّ من خوف المزاج لونُها
من كفِّ ظبيٍ من بنى النصارى	ألبابنا فى حسنه حيارَى
لا سيما مع مسمعٍ وزامِرِ	قد سلما من وحشة التنافُرِ
دونك هذى صفة الزمانِ	مشروحةً فى أحسن البيانِ

الصعيد وأهم بلاده

يقول الأدفوى :[2]

إن مسافة الصعيد فى الطول مسيرة اثنى عشر يوماً بسير الجمال السير المعتاد ، وأما عرضه فثلاث ساعات وأكثر وأقل بحسب الأماكن . ويتصل عرضه فى الكورة الشرقية

(١) الخطط ١/١٨١

(٢) الخطط ١/١٨٩ ــ ١٩٠

بالبحر المالح (بحر القلزم أو البحر الأحمر) وبأراضي البُجـاة ــ شرق أسوان . وفى الكورة الغربية بالواح (الواحات) .

وهو ــ الصعيد ــ كورتان شرقية وغربية ، والنيل فاصل بينهما . ومن أهم مدن الصعيد ، الجيزة ، والبهنسا ، والأشمونين ، وأسيوط ، وقوص ، وقنا ، وأسوان .

وقد اشتهرت أرض الصعيد بخصوبتها ، ويكثر النخيل على ضفتى النيل ويحيط ببلادها وقراها . وقيل إن تمر الصعيد فى تلك الأيام كان من أجود التمر وبخاصة فى أسوان وقوص . وكان مصدر رزق لأهل الصعيد إلى جانب الزراعة والعمل ببعض الصناعات التى كانوا يجيدونها .

وكثر بأرض الصعيد الضأن والماشية ، لاهتمام أهله بتربيتها . قال المقريزى : « وأرض الصعيد كثيرة المواشى من الضأن وغير ذلك لكثرة نتاجه حتى أن الرأس الواحد من الضأن يتولد منه فى عشر سنين الف وأربع وعشرون رأساً » ! . ولاندرى إن كانت هذه الاحصائية صحيحة ، لكنها على أية حال تشير إلى كثرة انتاج الضأن بالصعيد .

وأما عن سكان الصعيد الأعلى فيقول المقريزى : « وكانت الكثرة والغلبة ببلاد الصعيد لست قبائل وهم : بنو هلال ، وبلىّ ، وجهينة ، وقريش ، ولواته ، وبنو كلاب (من عامر بن صعصعة) . وكان ينزل مع هؤلاء عدة قبائل سواهم من الأنصار ، ومن مزينة وبنى دراج وثعلبة وجذام .

مدينة أسيوط :

ومن أشهر مدن الصعيد أسيوط ، وكانت عاصمة لإحدى أعماله الأسيوطية .

قال الوطواط :[1]

« مدينة أسيوط على غربى النيل ، بلد فرح بهجٌ ، خطرٌ ، جليلٌ ، به الأسواق والقياسر والحمامات والمساجد والمدارس ، ولأهله شارة حسنة ومروءة ظاهرة ، ولهم بيوت وأقدار ، ورياسة وبستان . »

---

(١) مباهج الفكر ــ صفحات من جغرافية مصر ــ دراسة وتحقيق دكتور عبد العال عبد المنعم الشامى طبع الكويت ١٩٨١ ص ٩٤

وتتصل مساكن أسيوط بالجبل الغربى ، ويفصلها عن النيل مسافة ، بها الحقول والبساتين ، وقد أعجب بها كل من زارها فى تلك الآونة من الرحالة العرب والمسلمين وذكروا أن بها عدداً كبيرا من الأقباط النصارى ، وتوجد لهم بها كنائس كثيرة . كما تنتشر حولها بجبل أسيوط الغربى الأديرة الكثيرة والبيع التى أكثروا من وصفها وبخاصة فى بلدة درنكة فى جنوبيّها الغربىّ .

ويصل بينها وبين غربى السودان درب الأربعين الذى كان يسلكه تجار السودان والأفارقة من بلاد تشاد ونيجيريا ومالى ، ويحملون إليها بضائع تلك البلاد من العاج والأبنوس ، وريش النعام وما إليها .

وكان بأسيوط جوامع ومساجد يؤمها الشيوخ والعلماء ويتلقون العلم فى حلقاتها وتخرج فيها جماعة من الأدباء والعلماء والشعراء منهم آل مماتى فى أخريات العصر الفاطمى وأول العصر الأيوبى فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى .

مدينــة قــوص :

وهى من الأمصار الخطيرة فى مصر الاسلامية ، المقصودة بالتجار ، ولاسيما عندما يرد عليها تجار الكارم من بلاد السودان . وبها الأسواق العامرة بالتجارات والصناعات والقياسر بأصناف البر ، وسوق عطر قل أن يكون فى بلد مثله لعمارته ، وبها الفنادق والحمامات والمدارس ، والمنازل والدور التى تدل على جلالة سكانها وتعاستهم وسعادتهم .

وتقع شرقى النيل ، ويتبعها عدة بلاد من الصعيد تعتبر من المدن العامرة مثل قنا واسنا وادفو واخميم واسوان وقفط .[1]

ويقول المقريزى[2]: « اعلم أن قوص أعظم مدائن الصعيد ، وهى على النيل ، بنيت بعد قفط » وحكى المؤرخون أنها شرعت فى العمارة وشرعت قفط فى الخراب من سنة أربعمائة فى عصر الحاكم بأمر الله الفاطمى .

وعرفت بطيب زراعاتها وكثرة بساتينها ، وبخاصة بساتين النخيل . وكان البستان فى لغتهم يسمى مغلقاً وهو من عشرين فدانا ، وله ساقية بأربعة أوجه .

---

(١) المباهج للوطواط ص ٩٦

(٢) المقريزى الخطط ٢٣٦/١

وذكر الإدريسي أنها مدينة كبيرة بها أسواق جامعة ، وتجارات[١] ، وذكر ناصر خسرو أنها مدينة قديمة محاطة بسور من الحجر ، وأكثر أبنيتها من الحجارة الكبار [٢]. وذكر ابن جبير أنها مدينة حفيلة بالأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين ، وتجار أرض الحبشة ، لأنها محط للرحال ، ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب ، وإليها انقلابهم في صدرهم من الحج . وكانت أيام الفاطميين والأيوبيين قصبة صعيد مصر . وزاد من أهميتها كونها مركزا للحجاج ، ومفداً لهم عبر الصحراء الشرقية إلى ثغر عيذاب ، ومنه إلى جدة فمكة .

يقول الأدفوى : وهى باب مكة واليمن والنوبة ، وسواكن والبالة[٣]. وفيها يقول الشيخ العالم نجم الدين أحمد بن ناشي القوصي القاضي :

قوص دهليز يثرب فإلى كم   وسط دهليز يثرب أتبخترُ

قال الادفوى :[٤] قال ابن حوقل فى كتابه المسمى بـ « الممالك والمسالك » : إن ماء مصر أشد عذوبة وحلاوة وبياضاً من أنهار الإسلام ، فإذا كان كما قال فماء إقليم قوص أجمع لهذه الصفات . »

وذكر الأدفوى « أن قوص وبلادها كانت كثيرة النخل ، يقول ومن محاسنها كثرة نخيلها وأشجارها على شاطىء النيل من الجانبين الشرق والغربى ، يشق بينهما مسافة سبعة أيام لايخلو منها إلا القليل ، والذى أظنه أن مساحة الأراضى التى فيها النخيل والبساتين تقارب عشرين ألف فدان » .

وإلى جانب النخيل ، كانت تزرع العنب واشتهرت به . ويقول الادفوى إن فاكهة هذا الإقليم شديدة الحلاوة حسنة المنظر . وكذلك رياحينه عطرة الرائحة .

روى الادفوى عن أحد شيوخه وهو القشيرى قوله له : تروح إلى قوص تدرس الحديث

---

(١) نزهة المشتاق ٤٩

(٢) سفرنامه ٧١

(٣) [illegible] ٢٥

(٤) [illegible]

بها . فذكرت له بعدها وحرارتها فقال : أين أنت من طيب فاكهتها وعطرة رياحينها . ورطبها من أحسن الرطب ، صادق الحلاوة ، كسير السقر (العسل) . وفيه شيء تُسلُّ النواة منه وهو على عرجونه قبل أن يقطف .

وذكر ابن زولاق أنه ليس نوعٌ من أنواع التمر بالعراق إلا وفى صعيد قوص مثله ، وفيه ما ليس فى العراق .

واشتهرت قوص وإقليمها بالزراعة ، والتجارة ، وقد اتسعت تجارتها فى تلك الآونة لكونها محطاً للحجاج الذين يفدون إليها كما ذكرنا ، ويتجهون منها إلى عيذاب والعائدين من مكة إلى بلادهم .

يقول الادفوى إن هذا الاقليم اشتهر بكثرة الأمن ، يسير الانسان ليلاً ومعه ما شاء فلا يجد من يعترضه . والشتاء فيه طيب مخصب ، كثير الألبان والبقولات ، كثير الدُّفا ، طيب الاقامة جداً .

وكثرت فى قوص واقليمها المدارس والجوامع التى يتلقى فيها الناس العلم ، واشتهرت بكثرة من خرّجت من العلماء على مدى العصور منذ عمرانها فى العصر الفاطمى وطوال العصرين الأيوبى والمملوكى .

وكان معظم بلدان (١) الاقليم يدينون بالتشيع على مذهب الاسماعيلية الفاطمية أو الإمامية ، وكانت لهم مع صلاح الدين بعد استيلائه على الحكم من الفاطميين وقائع مثل واقعة كنز الدولة الذى زحف بجموعه سنة ٥٧٠ هـ إلى القاهرة يريد إعادة الحكم للفاطميين إلا أن صلاح الدين هزمه وقتله[1] .

واشتهرت شرقى قوص صحراء عيذاب بأنها دربُ الحجاج الرائحين والغادين ، قال المقريزى : « اعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتى سنة لايتوجهون إلى مكة شرفها الله تعالى إلا من صحراء عيذاب ، يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص ، ثم يركبون الإبل من قوص ، ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب ثم يركبون البحر فى الجلّاب إلى جدة ساحل مكة . وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون فى البحر إلى عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص ، ومنها يردون مدينة مصر ، فكانت هذه

(١) راجع فى هذه الأحداث : الـ[كامل] لأبى الأثير ١١/١٥٦ ، الروضتين ١/٢٣٥ والمختصر لأبى الفدا ٣/٥٦ وخطط المقريزى ١/١٩٨

الصحراء لاتزال عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج حتى إن كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها والقفول صاعدة وهابطة لايعترض لها أحد إلى أن يأخذها صاحبها . فلم تزل مسلكاً للحجاج فى ذهابهم وإيابهم زيادة على مائتى سنة من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة — عصر المستنصر بالله الفاطمى — إلى أعوام بضع وستين وستمائة عصر السلطان الظاهر بيبرس — الذى اخرج قافلة الحجاج إلى البر وغيّر سلوك طريق النيل وعبور صحراء عيذاب[1] .

أســـوان

وتعتبر أسوان ثغر مصر الجنوبى ، وشهرتها كمدينة كبيرة لها هذا الموقع الخطير منذ أقدم العصور ، وازدهرت أسوان فى العصور الإسلامية ، وتوافد عليها كثير من قبل العرب ، وسكنها وأقام حولها بصحرائها الشرقية جماعات من ربيعة عرفوا بالكنوز نسبة إلى كنز الدولة وكان ولاؤهم للفاطميين .

قال المقريزى[2]: وأسوان فى آخر بلاد الصعيد ، وهى ثغر من ثغور الإقليم ، يفصل بين النوبة وأرض مصر ، وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضروات والبقول . وكانت كثيرة الحيوان من الإبل والبقر والغنم ، ولحمانها هناك غاية فى الطيب والسمن . وكانت أسعارها أبداً رخيصة ، وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة .

وفى جنوبها جبل به معدن الزمرد ، وهو فى برّية منقطعة عن العمارة ، وعلى خمسة عشر يوماً من أسوان معدن الذهب .

وحولها بساتين النخيل على شاطىء النيل ، يقول الأدفوى[3] : « ونخيلها تشق الركب فيه مسيرة يومين » وقال المقريزى : والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير .

قال : « وبأسوان حجارة صوّان . ذكر ابن سعيد أن عمود السوارى الذى بالاسكندرية منها » وكذلك كانت تقطع مسلات المعابد من حجارتها أيام الفراعنة . قال الأدفوى : وبها حجارة سودٌ تشبه القار . وتنتشر هذه الحجارة البازلتية فى مجرى النيل عند أسوان مكونة الجنادل ، وتكسبه هناك منظراً جذابا .

---

(١) راجع الخطط ٢٠٣

(٢) الخطط ..

(٣) الطالع السعيد ٣٢

قال : وهى كثيرة السمك ، والجنادل بها نزهة من نزه الدنيا ، بَهجةُ المناظر كأنها مقطعات نيل ـــ جزر ـــ . وهى معتدلة الهواء ، قليلة الوباء ، وبها جبَل الطفل يعمل منه الفخار وكيزان الفقاع ، ولايوازيه شىءٌ من نوعه .

ومقابل البلد جزيرة ، وبها نخيل ورياحين ، تهب رائحتها على البلد . وهى كثيرة المزارات والنزه ، دائرة على البحر .

والغالب على أهلها سمرة الألوان ، قال المسعودى : ومدينة أسوان يسكنها خلق من العرب من قحطان ونزار بن ربيعة ومضر ، وخلق كثير من قريش ، وأكثرهم من الحجاز وكان بثغر أسوان بنو الكنز من ربيعة ، وكان منهم أمراء ممّدحون ، ألف فيهم أبو الحسن بن عرّام سيرة ذكر فيها مناقبهم وأسماء من مدحهم ، ومن ورد عليهم .

قال الأدفوى [1] ولما كانت البلاد للعبيديين غلب على أهلها التشيع . وكان بها قديماً أيضا .

ولأن أسوان كانت على حدود مصر الجنوبية ، فقد كان بها رباط وحامية قوية ، كما كان أهلها فى رباط دائما ، لأن ممالك النوبة المسيحية بالسودان الشمالى كانت مجاورة لهم ، وكان ملك النوبة كثيرا ماينتهز فرصة ضعف الحكم بمصر أو غفلة الحكام ، وانشغالهم فيغير على ثغر السودان ، حدث ذلك قبيل قيام الدولة الفاطمية سنة ٣٤٤ هـ فى عهد الإخشيديين إذ أغار ملك النوبة على أسوان وقتل جمعاً من المسلمين ، واستطاع أحد قادة مصر رده ، وقتل عدد من رجاله ، وأسر عدد آخر ، وقد حفظ الفاطميون ثغر أسوان وأقاموا به حامية قوية . قال المقريزى [2] : « وكان بأسوان رجال من العسكر امستعدون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان عليه . فلما زالت الدولة الفاطمية ، أهمل ذلك » .

وكانت أسوان أيام الفاطميين من الغنى والثراء والازدهار العظيم بسبب ماتنتجه زراعاتها ، وبساتينها ، ذكر المقريزى أنه تحصل من ثغر أسوان فى سنة ٥٨٥ هـ خمسة وعشرون ألف دينار . وقال الأدفوى أنه تحصل من أسوان فى سنة واحدة ثلاثون ألف أردب تمراً .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٤

(٢) الخطط ١/ ١٩٨

وخرج فى أسوان جماعة من العلماء والفضلاء والأدباء والشعراء من أبرزهم فى العصر الفاطمى ابن عرام ، والقاضى الرشيد ، والمهذب ممن سيأتى الحديث عنهم .

ونصل بعد عرضنا لصورة الحياة فى بعض أقاليم مصر شمالاً وجنوباً إلى التعرف على عاصمتى مصر فى هذا العصر ، ونعنى الفسطاط أو مصر ، والقاهرة ، وصور الحياة فيهما . وهذه تلقى كثيرا من الضوء على المجتمع المصرى خاصة والإسلامى العربى عامة فى عصر هذه الدولة .

الفسطاط

يقول امية بن أبى الصلت[1]: « وليس تشمل أرض مصر بعد الفسطاط الذى هو قصر الملك وكرسى الدولة على مدائن لها قدر فى كثرتها وفخامتها ، لكن أجل مدائنها وأفخرها أما فى الجهة الشمالية من الفسطاط فالاسكندرية وتنيس ودمياط ، وأما فى الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفط » .

يقول أمية فى مدينة الفسطاط : « واختط عمرو بن العاص مدينتهُ المعروفة بالفسطاط فانسرب أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم إلى سكناها ، فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا »[2].

قال ابن سعيد المغربى ؛[3]« من كتاب الكمائم » : « وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى مدينة عين شمس ، وجاء الاسلام وبها مبنى يعرف بالقصر حوله مساكن وعليه نزل عمرو بن العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع الآن المنسوب إليه .

وقال : وقد أمعنت السؤال عنها فأخبرت أنها مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ، وتحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل ومن جنوبه بأنواع الفوائد ، ولها متنزهات » .

قال ابن سعيد : ولاينزل فيها مطر إلا فى النادر ، وترابها تثيره الأرجل ، وهو قبيح اللون تتكدر منه أرجاؤها ، ويسود بسببه هواؤها ، ولها أسواق ضخمة ، إلا أنها ضيقة . ومبانيها

---

(١) الرسالة المصرية ص ١٧ من نوادر المخطوطات الجزء الأول تحقيق عبد السلام هارون

(٢) الرسالة المصرية ص ٢٩

(٣) المغرب بتحقيق د. زكى محمد حسن ود. شوقى ضيف ود. سيدة الكاشف طبع جامعة فؤاد سنة ١٩٥٣

بالقصب والطوب طبقة على طبقة. ومنذ بنيت القاهرة للخلفاء الاسماعيليين المتوثبين عليها من المغرب ضعفت مدينة الفسطاط — وبينهما نحو الميلين .

وقال : والفسطاط هى قصبة مصر ، والجبل المقطم يشرقيّها ، وهو متصل بجبل الزمرد — يعنى الذى قرب أسوان .

وقال ابن حوقل : والفسطاط مدينة حسنة ، ينقسم النيل لديها ، وهى كبيرة — نحو ثلث بغداد — فى عصر المؤلف فى القرن الرابع — ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيب واللذة . ذات رحاب فى محالّها . وأسواق عظام فيها ضيّق ، ومتاجر فخام . ولها ظاهرٌ أنيق وبساتين نضرة ، ومتنزهات على مر الأيام خضرة . وبالفسطاط قبائل وخطط للعرب وتنسب إليها كالكوفة والبصرة ، إلا أنها أقل من ذلك . وهى سبخة الأرض ، غير نقية التربة وتكون الدار بها سبع طبقات وستاً ، وخمساً ، وربما يسكن الدار المائتان من الناس .

وفى الفسطاط دار تعرف بدار عبد العزيز يصب فيها لمن بها فى كل يوم أربعمائة راوية ماء . ومعظم بنيانهم بالطوب ، وأسفل دورهم غير مسكون ، وبها مسجدان للجمعة ؛ بنى أحدهما عمرو بن العاص فى وسط الفسطاط والآخر على الموقف — شمالى الفسطاط — بناه أبو العباس أحمد بن طولون » .

وأراد ابن سعيد أن يرى الفسطاط رأى العين فرحل إليها من الأسكندرية . قال : ولما استقررت بالقاهرة تشوفت إلى معاينة الفسطاط ، فسار معى إليها أحد أصحاب العزمة ، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة لاعهد لى بمثلها فى بلد ، فركب منها حمارا وأشار إلىّ أن أركب حماراً آخر ، فأنفتُ من ذلك جرياً على عادة ما خلفته من بلاد المغرب ، فأعلمنى أنه غير معيب على أعيان مصر — وكانت البغال من مراكب القضاة والشيوخ من العلماء وأصحاب المناصب — وعاينتُ الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها ، فركبتُ ، فعندما استويت راكبا أشار المكارى على الحمار فطار بى وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ودنس ثيابى وعاينت ماكرهته . ولقلة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده ، وقلة رفق المكارى وقعت !! فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج . وقلت :

لقيت بمصر أشدَّ البَوارْ ... رُكوبَ الحمارِ ، وكُحلَ الغُبارْ
وخلفى مكارٍ يفوتُ الريا ... ح ، لايعرف الرفقَ مهما استطارْ

أناديه مهلاً ، فلا يرعوى — إلى أن سجدتْ سُجود العِثارْ
وقد مُدَّ فوق رواقِ الثّرى — وألحد فيه ضياءُ النّهارْ

فدفعتُ إلى المكارى أُجرتَه ، وقلت له : إحسانُك إلىّ أن تتركنى أمشى على رجلىّ ، ومشيتُ إلى أن بلغتُها . وقدرتُ فى الطريق بين القاهرة والفسطاط وحققتُه بعد ذلك نحو الميلين .

قال ابن سعيد : ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرَّةُ . وتأملت أسواراً مثلَّمة سوداء ، وآفاقاً مغبرةً . ودخلت من بابها — وهو دون غلق — يفضى إلى خراب مغمور بمبان مشتتة الوضع ، غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة ، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغضّ طرف الظريف ، فسرتُ وأنا معاينٌ لاستصحاب تلك الحال إلى أن سرتُ فى أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لايفى به إلا مشاهدته ومقاساته ، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع ، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ماذكرت به ضده فى جامع أشبيليه وجامع مراكش . ثم دخلتُ إليه فعاينت جامعاً كبيرا ، قديم البنية ، غير مزخرف ، ولا محتفل فى حُصْرِهِ التى تدور مع بعض حيطانه وتبْسطُ فيه وأبصرتُ العامة رجالاً ونساءً قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم — يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسَّرات والكعك ، وما جرى مجرى ذلك ، والناس يأكلون منه فى أماكن عدة ، غير محتشمين ، لجرى العادة عندهم بذلك . وعدة صبيان بأوانى ماءٍ يطوفون على من يأكل ، قد جعلوا ما يحصل لهم منهم رزقاً . وفضلات مآكلهم مطروحةٌ فى صحن الجامع وفى زواياه . والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان ، والصبيان يلعبون فى صحنه ، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة مختلقة من كتب فقراء العوام .

إلا أنه مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس مالاتجده فى جامع أشبيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه ، وما يتبع ذلك .

ولقد تأملت ما وجدته فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك ، فعلمتُ أنه سرّ مودعٌ من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم فى ساحته عند بنائه . واستحسنت ما أبصرته فيه من حلق المصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن . وسألت عن مواد

أرزاقهم ، فأُخبرتُ أنها من فروض فى الزكاة وما أشبه ذلك ، ثم أخبرت أن اقتضاءها يصعب إلا بالجهد والتعب. فنُغصت عندى تلك القاعدة الفرصة التى وجدتها من اجتماع العلماء على ارزاق تفرغُ المعلّم للتعليم . وتنشط المتعلّم للاستفادة .

ثم انفصلنا من هنالك إلى ساحل النيل ، فرأيتُ ساحلاً كدر التربة غير نظيف ، ولا متسع الساحة ، ولا مستقيم الاستطالة ، ولا عليه سورٌ أبيض يبهجُ العُيون بلونه وحسن استقامته ، إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصلُ من جميع أقطار النيل . ولكن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقاً . والنيل هنالك ضيقٌ لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن[1] قلعته قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط ، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الشرجة فى ذلك الساحل » .

وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذى يمتد من الفسطاط على النيل إلى جزيرة الروضة ومن الجزيرة إلى برٌ الجيزة .

قال ابن سعيد : وبتنا فى ليلة بطيارة مرتفعة على جانب النيل — يعنى نوعاً من المراكب كان معروفا بالعراق ، وصنع مثله بمصر .

وقال ابن سعيد يصف موضع النيل وشاطىء الفسطاط وجزيرة الروضة :

نزلنا من الفسطاط أرفع منزلٍ	بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سُحرةً	كسرب قطا أضحىَ يَرِفُ على وِرْدِ
وأصبح يطغى الموج فيه ويرتمى	ويطفو حناناً وهو يلعب بالنَردِ
غدا ماؤه كالريق ممن أحبه	فمدت عليه حليةُ من حلى الخدُ
وقد كان مثل الزهر من قبل مده	فأصبح لما زادهُ المدُ كالورد

قال : قلت هذا لأنى لم أذق فى الحياة أحلى من مائه ، وأنه يكون قبل المدّ الذى يَزيد به ، فيفيض على أقطاره أبيض ، فإذا جاء عباب النيل صار أحمر .

وذكر ابن سعيد أهل الفسطاط فقال :

« لم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط ، حتى إنهم ألطف من أهل القاهرة ، وبينهما نحو ميلين ... وجملة الحالة أن أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة واللين فى الكلام ، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة ، وكثرة الممازحة والألفة ما يطول ذكره » .

(١) هو السلطان الصالح نجم الدين أيوب

وهذه الصورة القلمية التى تعطها ابن سعيد لمدينة الفسطاط فى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب وبعد مايقرب من مائة عام على نهاية الدولة الفاطمية تعطى صورة قائمة لمدينة الفسطاط التى كانت عاصمة للدولة المصرية ، أو لإقليم مصر وقاعدة لولاتها من عصر عمرو بن العاص وحتى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، ولا شك أن الفسطاط كانت أكثر إشراقاً وجمالاً مما وصفه لنا ابن سعيد ، إلا أن الخطوط الرئيسية أو الشكل العام للمدينة ومسجدها وأسواقها تظل هى هى لا تتغير ، ولا ننسى ما حل بها من الخراب والحريق فى آخر العصر الفاطمى . وما حل بها من إهمال بعد ذلك ، وان حاول صلاح الدين وخلفاؤه إعادة الحياة إليها ، وإن كان اهتمامهم بها أقل من الاهتمام بالقاهرة التى جعلوها عاصمة لهم كالفاطميين .

ولأن الفسطاط كانت العاصمة الشعبية ، والقاهرة كانت مقر خلفاء الفاطميين ومن بعدهم سلاطين الأيوبيين ، فقد ذكر ابن سعيد ملامح هذا الخلاف بين المدينتين فقال :

« وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم مايجرى هذا المجرى ، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، كما أن جميع زى الجند هو بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط ، وكذلك ماينسج ويصاغ ، وسائر مايعمل به من الأشياء الرفيعة السلطانية . والخراب فى الفسطاط كثير . والقاهرة أجدُّ وأعمر وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان إليها . وسكنى الاجناد فيها . »

وكان ساحل الفسطاط غاصاً بالسفن التى تحمل التجارة من الاسكندرية من البحر المتوسط ومن دمياط ، ومن البحر الأحمر عبر النيل . وما يرد منها لساحل الفسطاط على قول ابن سعيد فوق مايوصف ، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة وكان بالفسطاط لكل مهنة سوق خاصة ، الا أصحاب المطاعم والشوّاءون والخبازون وباعة المشروبات ، فقد كانوا ينتشرون فى كل مكان .

ففى سوق الحدادين كان المرء يرى الصناع منكفئين على أعمالهم ، وقد غطاهم سواد الفحم ، والمألوف أن يرى بعضهم يثبتون حدوات الخيول .

وكان بالفسطاط سوق يسمى سوق القناديل حيث كانت تباع تحف فنية لاتوجد فى مكان آخر ، وقد اشتهر العصر الفاطمى بقناديله الزجاجية المتقنة الصنع ، ومن التحف الزجاجية كذلك فى مصنوعات الفسطاط الأوانى الزجاجية والمحارية الدقيقة التى كانت علامة بارزة على تقدم هذه الصناعة فى هذا العصر .

كذلك كانت تعرض المشغولات الصدفية كالصناديق المكفتة بالصدف والأمشاط ومقابض السكاكين .

كما كان يعرض بهذه السوق أنواع من الصناعات والتحف المستوردة من أقطار أوروبا والعالم الاسلامى المختلفة .

وتعرض بأسواق الفسطاط كذلك كميات من الخضر والفاكهة ، وقد عدد منها ناصر خسرو حين زارها أربعة وعشرين نوعاً ، وكان السعر محدداً بواسطة المحتسب ، فإذا زاد البائع السعر قبض عليه وشهّر وطافوا به فى المدينة على جمل أو حمار وعلق فى عنقه جرس .

وكان المألوف فى شوارع الفسطاط والقاهرة أن يركب عامة الناس الحمير ، ويركب ذوو المناصب من أصحاب القلم أو شيوخ الدين والقضاة البغال ، بينما يركب أصحاب السيف من الجند ، وقادة الجيش الخيل . ولذلك كان ابن سعيد وهو من أصحاب القلم متحرجاً من ركوب الحمار لانه مركب العامة .

وقد اهتم الفاطميون بالأمن فى المدن والعواصم خاصة ، ويشدد رجال الدولة على ذلك حتى إن الصائغ كان لايبالى أن يترك دكانه فيغيب عنه زمنا دون أن يخشى عليه من سطو اللصوص ، وكان يكتفى بأن يمد حبلاً أو شبكة على مدخل دكانه إشارة إلى عدم وجود صاحبه .

وكان هذا بالضرورة عند استتباب الأمور فى عصور الخلفاء الأقوياء ، والحكام القادرين من الوزراء والأمراء .

وكان بعض الدواوين فى العصر الفاطمى بالفسطاط ، كما أن بعض وجوه الدولة ومعظم الشيوخ ورجال القلم والقضاة كانوا يسكنون الفسطاط ، وكان لبعضهم دار بالفسطاط وأخرى بالقاهرة .

وللفسطاط متنزهات كثيرة خارجها فى المرج والحقول المحيطة بها ، وبجبل المقطم . ومن أشهرها بركة الحبش . وكانت متنزها معروفاً لأهل الفسطاط والقاهرة .

وبركة الحبش منخفض من الأرض جنوب الفسطاط تغطيها الخضرة فى معظمها بعض أيام السنة فى أخريات الشتاء وطوال شهور الربيع وحتى الفيضان ، حيث يفيض النيل فيملأ هذا المنخفض الذى يبلغ طول كل جانب من جوانبه ميلاً وتتحول إلى بركة عرفت ببركة الحبش . وأقيم حولها الحدائق التى أحاطت بها ، فاكسبتها بهجة ومنظراً أنيقا تغنى به الشعراء .

يقول ابن سعيد : « وعاينت من هذه البركة أيام فيض النيل عليها أبهج منظر . ثم زرتها أيام غاض معظم الماء . وبقيت فيها مقطعات بين خضر من القرط والكتان تفتن الناظر . وفيها أقول :»[1]

يابركة الحبش التى يومى بها	طول الزمان مبارك وسعيدُ
حتى كأنك فى البسيطة جنةٌ	وكأن دهرى كلّه بك عيد
ياحسنَ مايبدو بك الكتانُ فى	نواره أو زرّة معقودُ
والماء منك سيوفه مسلولةٌ	والقرط فيك رواقه ممدودُ
وكأنَّ أبراجاً عليك عرائسٌ	جلبتْ وطيرك حولها غرِّيدُ
ياليت شعرى هل زمانك عائدٌ	فالشوق فيه مُبدئٌ ومعيدُ

ويقول أمية بن الصلت عن فيضان النيل وكيف تبدو فى أثنائه نواحى مصر جميلة المنظر « وفى هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شىء منظرا ، ولاسيما متنزهاتها المشهورة ودياراتها المطروقة كالجزيرة وبركة الحبش »[2]

ويقول إن أهل الخلاعة وذوى الأدب والطرب كانوا ينتابون هذه الأماكن النزهة . قال : « واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان — الفيضان — إلى بركة الحبش فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس فى خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تُنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء فقال فى ذلك بعضنا :

لله يومى فى بركة الحبش	والأفقُ بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطربٌ	كصارمٍ فى يمين مُرتعشِ
قد نسجتها أيدى الغمام لنا	فنحن من نسجها على فُرش
ونحن فى روضةٍ مُفوّفةٍ	دُبّجَ بالنّورِ عِطفُها وَوشى

وقال أيضا :

علل فؤادك باللذات والطّرب	وباكر الراح بالنايات والنُّخب
أما ترى البركة الغنّاءَ لابسَةً	وشياً من النّورِ حاكتْه يد السُّحب
وأصبحت من جديد النبتِ فى حُلَلٍ	قد أبرزَ القطْرُ فيها كلَّ محتجب
من سوسنٍ شرقٍ بالطلِّ محجره	وأقحوانٍ شهيّ الظَّلْمِ و الشَّنَب
وانظر إلى الورد يحكى خدُّ محتشمٍ	من نرجسٍ ظلَّ يُبدى لحظ مرتقب

(١) المغرب ص ١٠

(٢) الرسالة المصرية ص ٢٠

وكان لبعض خلفاء الفاطميين عليها مناظر (استراحات) وبساتين ، وأغرم بها الأمير الشاعر تميم بن المعز ، وكان له بستان عليها اسمه المختار ، كان يعتاده فيه بالزيارة أخوه الخليفة العزيز بالله .

يقول فى بستانه المختار هذا :[1]

يارُبَّ ليلٍ بتُّه ناعماً	بين ربا المختار فالجسر
أخرج فيه نصباً من صبا	واستحثُّ الخمر بالخمر
وعذبة الألفاظ ممشوقة	ساحرة الأوتارِ والشِّعر
فلم أزل أشرب من كفها	واجتنى الشهد من الثغر
والبدر قد مدَّ على نيله	منطقة من خالصِ التِّبْر

ويقول تميم فى بركة الحبش :

انظر إلى البركة الغنَّاءِ مفعمةً	بالماءِ والشمسُ من حُسْنٍ تُغامِزُها
والريح تلعبُ فى أمواجها جَذلاً	فما تسالمها إلا تبارزُها
والنبتُ قد حفَّها من كل ناحيةٍ	بكلِّ غصنٍ أنيقٍ فهو حائزُها
كأنها بُسطٌ بيضٌ اذا برزت	للعين مخضرَّةٌ منها فراوزُها

وقد بنى الخليفة الآمر بها منظرة من خشب مدهونة فيها طاقات تشرف على خضرة البركة وكان إلى جوار بركة الحبش هذه دير مرحنا ـــ قرب فم الخليج الآن ـــ على شاطىء البركة من الجهة الغربية ، وإلى جانبه بساتين للأمير تميم ، وقد جعل بها مجلساً له على عمد . وكان قرب الدير عين ذهبت فى الرمال . وكان هذا الدير من مواطن اللهو وأماكن الفرجة واللذة فى زمن الفاطميين يقول فيه تميم :

أيا دير مرحنَّا سقتْك رُعُودُ	من الغيْث تهمى مرةً وتعودُ
فكم واصلتْنا فى رُبَاك أوانسٌ	يَطُفْنَ علينا بالمدامة غيدُ
وكم نابَ عن نور الضحى فيك مبسمٌ	ونابتْ عن الوردِ الجنىِّ خدودُ

وإلى الشرق من البركة وبجبل المقطم كان دير القصير ، وكان هذا الدير من منازه الفسطاط والقاهرة المقصودة للمتعة واللهو ، وكان رهبانه يرحبون بالزائرين وبخاصة فى أعياد النصارى حيث يكون القصف والشراب ، والغناء ، وكان الشعراء يعجبون به ، ويقضون أوقاتا سعيدة يتناشدون الشعر ، وذكره الشابشتى بين ديارات مصر المعروفة التى بهج بها

(١) ديوانه ص ٢١٥

الشعراء . وكان لهذا الدير مكانة لدى خلفاء الفاطميين ، يؤمونه فى أوقات نزهتهم ، كما كان يتردد عليه الحاكم بأمر الله فى زهده لقضاء أوقات بين رهبانه .

وتغنى به الأمير الشاعر تميم بن المعز[1] قال :

كم بدير القصير لى من بكور ... ورواح على الصبا والعقار
حيث أخلو بما أحبُّ من القصْـ ... ـفِ قليل الوقار لستُ أداري
كم صبوح شددته بغبوقٍ ... وظلام وصلته بنهارِ

وقال :[2]

إلى دير القُصَير صَبا فؤادى ... وقد يصبو الخطيرُ إلى الخطير
محلٌّ جَلَّ أن تُعزى إليه ... محلاّت الخورنق والسَّدير

ويقول :[3]

أرى الليلَ فى دير القصير كأنما ... تطالعنا من ساحتيه شموسُ
يلذُّ التصابى فى ذُرَاه كأنما ... تجدد للزوار فيه نُفوسُ
فمن كان محبوساً على حبِّ لذةٍ ... فإنى على دير القصير جليسُ

ويقول [4] :

غمرتُ المغانى واجتنبتُ النّواويسا ... وساغدتُ فى الدير القصَيْرىّ إبليسا
وهل يهجرُ اللّذّاتِ إلا مُسَوَّفٌ ... ويتركها إلا امرؤٌ بات محوشا
رُبّما عظمتهُنَّ النصارى ولم أزل ... أعرِّسُ باللّذّات فيهنَّ تعريسا
أصولُ بقرع البمّ والزير بعدهُ ... إذا قرعُوا عند الصلاة النّواقيسا
وإن عظمت فيه النصّارى صَليبهمْ ... وحرّكتُ الناقوس أو عبدتْ عيسى
فزعتُ إلى دين النبىّ محمّدٍ ... وقدّستُ فيه ربَّ أحمد تقديسا

وظل هذا الدير مرتاداً للشعر حتى القرن السابع ، ويذكر الشاعر على بن ظافر فى كتاب « بدائع البدائه » أنه ذهب إليه مع بعض صحابته . قال :[5] « ومضيتُ أنا وجماعة من صحابتى إلى الدير المعروف بالقصير إيثارا لنظر تلك الآثار ، فلما تنزهنا فى حسن منظره ، وقضينا الوطر من نظره تعاطينا القول فيه جرياً على عادة الخلعاء والبلغاء ، وظرفاء الأدباء ، ومجان الشعراء الذين نبذوا الوقار بالعراء » .

---

(1) ديوانه ص ٢٣٥ ... (2) ديوانه ص ٢٤١
(3) ديوانه ص ٢٤٨ ... (4) ديوانه ص ٢٥١
(5) بدائع البدائة ص ٢٢٧ بتحقيق أبو الفضل إبراهيم .

ومن منازه الفسطاط والقاهرة القرافة بجبل مقطم بين الفسطاط والقاهرة وقد يعجب المرء أن تكون مدينة الأموات نزهة ومكانا يأنس إليه الأحياء ، ولكن هكذا كان الحال وظلّ ، وللمصريين عادات غريبة تختلف عن غيرهم ، ومن هذه العادات الغريبة أنسهم للأموات ، واحتفالهم معهم فى الأعياد يذهبون إليهم ، ويعتقدون مشاركتهم لهم فيها .

ومن هنا كانت القرافة مكاناً يجتمع فيه الناس للفرجة ، بدلاً من كونها قاصرة على العبرة بالموت ، فالمصرى يعتقد من قديم أن الموت مرحلة ينتقل بعدها الانسان من طور إلى طور ، ولا يفنى ، فهو باق فى الحياة الآخرة يعمل ما كان يعمله فى حياته الدنيا . وقد انتقلت هذه العقيدة إلى المصرى المسلم ، وجمع بينها وبين ماجاء عن البعث فى الإسلام وحياة القبر وما إلى ذلك .

وذهب إليها ابن سعيد قال[1] : « وبت ليالى كثيرة بقرافة الفسطاط ، وهى فى شرقيها بها منازل لأعيان الفسطاط والقاهرة ، وقبور عليها مبانٍ معتنى بها ، وفيها القبة العظيمة العالية المزخرفة التى فيها قبر الإمام الشافعى رحمة الله عليه .... ولا تكاد تخلو من طرب ولاسيما فى الليالى القمرية ، وهى معظم مجتمعات أهل مصر وأشهر متنزهاتهم . وفيها أقول :

إنّ القرافة قد حَوت ضدّين من	دنيا وأخرى ، فهى نعم المنزلُ
يغشى الخليع بها السماعَ مواصلاً	ويطوف حول قبورها المتبتّلُ
كم ليلةٍ بتنا بها ومُدامُنا	لحنٌ يكادُ يذوبُ منه الجندلُ
والبدرُ قد ملأ البسيطة نورُهُ	فكأنما قد فاض فيها جَدولُ
وبدا يضاحِكُ أوجُهاً حاكَيْنَهُ	لمّا تكمَّل وجهُهُ المتهلّلُ

قال ابن سعيد : « وفوق القرافة فى شرقيها جبل المقطم ، وليس له علوّ ولا فيه اخضرار ، وإنما يقصد للبركة . وهو نبيه الذكر فى الكتب ، وفى سفحه مقابر أهل الفسطاط والقاهرة . »

وسكن القرافة أمية بن أبى الصلت العالم الشاعر الأديب القيروانى الذى وفد إلى مصر فى عهد الخليفة المستعلى ووزيره الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى وظل بمصر زمناً .

ووصف على بن ظافر القرافة بعد انتهاء دولة الفاطميين وأوائل دولة الأيوبيين[2] :

(١) المغرب ص ١٠/١١

(٢) بدائع البداية ٢٠٣

« كنت فى بعض العشايا بالقرافة فى منزل قد ارتفعت ورود أشجاره ، وابتسمت ثغور أزهاره ، وذاب كافور مائه على عنبر طينه ، ومدّت بكاسات الخلفاء بنانُ غصونه . والنسيم قد خفّ فاخضلّ ، وسقط رداؤه فى الماء فابتلّ ، ووهت قواه فضعف فى السَّير ، واشتدّ مرضه حتى ناحت عليه أنواع الطير » .

وقال :[1] « واجتمعنا بالقرافة فى ليلة وقد عم السُّرور الأرض بسحابه ، وغمرها بفائض تسكابه ، فأنبتت نواحيها زاهىَ جلّنار من شُمَلِ النار ، فى غصونٍ مائسات ،كحبال الفرقيات ، وكشف بها النَّوْرُ سُجُف الظلماء » .

القاهــــرة :

بنى الفاطميون القاهرة على بعد ميلين شمال مدينة الفسطاط ، لتكون مدينة الخلفاء ومستقر ملكهم ، مع حريمهم وعبيدهم وجندهم المقربين ، فلم تكن أول الأمر تحفل بالأحياء الشعبية والأسواق ، بل لم يكن بها بعض دواوين الدولة التى ظلت بالفسطاط مصر . وبنوا فيها قصورهم الفارهة المزدهرة ، كالقصرين الكبيرين الشرق والغربى اللذين بناهما جوهر للخليفة المعز لدين الله ، وأضاف إليها العزيز بالله والخلفاء من بعدهما أجنحة وقاعات كثيرة .

وكان بالقصر الشرقى الكبير تسع بوابات تعلو إحداها منظرة يظهر الخليفة فى شرفاتها عند الاحتفال بمواسم معينة . ومن أسماء هذه البوابات : باب الزّمود ، وباب السلام ، باب الفتوح .... إلخ .

ويربط القصرين بعضهما ببعض ، كما يربط بعض قاعاته أنفاق وسراديب لانتقال الخليفة محفورة تحت الأرض .

وكان هذا القصر الشرقى مشيّدا فى الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة ، روى ناصر خسرو أنه عندما كان يرى من بعد كان يبدو كالجبل لضخامته وارتفاع مبانيه . وقد شيد مكان بستان كافور ودير العظام .

والقصر الغربى كان ظهره يطل على الخليج ، وعلى جانبى الواجهة الشرقية امتد جناحان للبناء ، مما جعل القصر شبيها بحدوة الحصان يمتد جناحاها ناحية القصر الشرقى الكبير وقد

(١) المصدر نفسه ٢٠٥

اضيف بعد ذلك إلى هذا القصر على الخليج قصر اللؤلؤة ، وبين القصرين امتد ميدان عظيم عرف بهذا الاسم ، « رحبة بين القصرين » وكانت قصبة القاهرة تخترقه[1] ، وصف أحد رسل ملك بيت المقدس الصليبيين قصر الخليفة العاضد فقال : انه استقبل أمام القصر بحرس شاهرى السيوف ، ثم اقتيد عبر ممرات وسراديب وعبر ثلاثة أبواب يحرس كلاً منها جندى سودانى من حرس القصر حتى بلغوا فناء واسعاً ، كسيت أرضه بالرخام الملون والمنقوش الذهبية المموهة ، وتتخلله نافورات بأنابيب من الذهب والفضة وتتناثر على جوانبها مجموعات من الطيور النادرة تسرح فى أنحاء القصر ، كذلك شاهد حيوانات متعددة مجتلبة من أنحاء العالم .

وأفضى الحرسُ بالرسول ومن معه إلى القصر الكبير الذى قام على حراسته حرسٌ تام العدة والسلاح فى زىّ يلمع بالفضة والذهب ، ثم انتهى بهم الأمر إلى حجرة العرش التى استقبلهم فيها الخليفة ، وبها ستارٌ فخم يمتد من بين حائطى القاعة ، من الحرير المزخرف متعدد الألوان ، ومطرز بخيوط الذهب ، وقد صُوِّرت عليه تصاوير أناس وطيور وحيوانات ، ومطعمة بأحجار الزمرد والياقوت .... وغيرها .

وكان الخليفة يجلس خلف هذه الستارة ، فكشفت عند اكتمال المجلس وتجلّى الخليفة فسجد الحضور ، وبدا الخليفة على كرسيّه المذهب والمطعم ، وقد أحاط به مساعدوه يكسوهم الهيبة والوقار .

وأفاض المقريزى فى وصف قصور الخلفاء وقاعة الذهب[2]

وسوى قصور الخلافة مقرهم الرسمى ومقر حريمهم وجواريهم وخدمهم وحشمهم ، وجندهم وحرسهم ، ومن يختصون بهم كان للخلفاء كذلك مناظر كثيرة بالقاهرة ومصر والروضة والقرافة وبركة الحبش ، وظاهر القاهرة ، ولهم بها وخارجها عدة متنزهات وبساتين .

ومن أشهر مناظرهم على خليج القاهرة منظرة قصر اللؤلؤة ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس على النيل الرئيسى قرب الفسطاط ، بينها وبين الجزيرة ، ومنظرة باب الفتوح ومنظرة بركة الحبش ، والأندلس بالقرافة ، وقبة الهواء على المقطم .

---

(١) موقعه الآن فى المنطقة مابين جامع الحسين وخان الخليلى دمارستان قلاوون وقد سميت باسمه رواية نجيب محفوظ « بين القصرين » لأن أحداثها تدور فى ست المنطقة .

(٢) راجع خطط المقريزى ١/

وكان الخليفة العزيز بالله نزار ولعاً باشادة القصور والحدائق ، وحب استخدام الرياش الفاخرة والثياب المموهة بالذهب والفضة .

وتمتعت القاهرة فى عهده بدرجة بالغة الثراء ، وعمت مظاهر الترف جميع الناس .

ومن قصورهم المشهورة بالقاهرة قصر الشوك والذى حرف من بعد على ألسنة العوام فأصبح قصر الشوق .

وبنوا بالقاهرة إلى جانب القصور الجوامع والمساجد ، كجامع الأزهر الكبير الذى خصه الخلفاء لأداء الصلوات أيام الجمع والأعياد ، وفى شهر رمضان ، حيث كان الخليفة يذهب إليه فى موكب مهيب ليلقى خطبة الجمعة ، أو خطبة العيد ويؤم الناس فى الصلاة ، كما جعل الأزهر مكاناً للعلم يتحلق فيه الطلاب حول العلماء والشيوخ لتلقى أصول المذهب الفاطمى ودراسة علوم الدين واللغة والتاريخ والأدب والعلوم العقلية والرياضية .

وبنى الحاكم الجامع الأنور ، أو جامع الحاكم ، ودار العلم أو دار الحكمة ، ومسجد المقس، والجامع الأقمر ، وحول بعض الكنائس إلى جوامع .

وأحاط الفاطميون القاهرة الملكية بأسوار ضخمة ، كانت لها أبواب تفتح وتغلق وقت الحاجة ، وأول أسوار القاهرة بناه جوهر الصقلى ، ثم عاد بدر الدين الجمالى فوسع السور حول القاهرة وأعاد بناءه وبناء أبوابه .

واشتهر من أبواب القاهرة باب الفتوح ، وباب النصر ، وباب زويلة أو بوابة المتولى ، وكان باب زويلة على الضلع الجنوبى للقاهرة مواجها لمدينة الفسطاط ولهذا كان أكثر الأبواب ازدحاماً بالناس لأنه كان مدخل أصحاب الحرف والقضاة ورجال الدولة ومخرجهم إلى الفسطاط .

وقامت حول باب زويلة بعض الأسواق ، كما شاد بعد الناس من الجند وغيرهم مساكن لهم بالقاهرة .

ووصف بعض الرحالة القاهرة فى عهد الفاطميين فذكروا أن الحى الملكى مسكن الخلفاء بقصوره ورحباته كان جميلاً فخماً واسع الأرجاء ، تبدو عليه مظاهر الأبهة والجمال وفيما عدا ذلك ظاهر القاهرة قامت بمساكن للناس ضيقة الدروب والحارات ليست فى نظافة الحى الملكى ولا فخامته بطبيعة الحال .

وكان بعض الخلفاء يركب فرسه أو بغلته أو حماره — كما فعل الحاكم — ويشق الأسواق فى الأحياء الشعبية من القاهرة لتفقد أحوال الرعية والتعرف على مايجرى ، وكان بعضهم يتقدم لهم بالشكاوى للنظر فيها .

كما أن مواكب الخلفاء تشق تلك الأحياء فى الأعياد والمناسبات أو عند الخروج للنزهة على الخليج خارج القاهرة فى عين شمس أو الفسطاط وبركة الحبش أو بالمقس وجزيرة الروضة أو للصيد فى برارى سرياقوس وحولها من منطقة شرق القاهرة .

وقد بلغت القاهرة أيام الفاطميين مبلغاً من البهاء والجمال والعظمة نافست فيه بغداد عاصمة العباسيين ، وكانوا يقصدون إلى ذلك ، لأنهم منافسوهم السياسيون فى العالم الاسلامى آنذاك ، فلابد وأن تكون عاصمتهم على مايطمحون إليه من مكانة ، ولذلك لم يدعوا فرصة دون اضافة جديدة من العمارة .

وكان ناصر خسرو قد زار القاهرة فى عصر الفاطميين فقال عنها :

« إن القاهرة واحدة من اكبر مدن العالم وبها مالايقل عن عشرين ألف متجرا مملوكة للخليفة ، وبها أيضا حانات وحمامات ومبان عامة أخرى كثيرة العدد تعجز الحصر .

وقد شيدت القاهرة حول قصرى المعز على خلاف مدينتى الفسطاط والقطائع اللتين شيدتا حول جامعى عمرو بن العاص وابن طولون .

وكانت القاهرة أيامها تبدو تحفة فنية شكلها صائغ ماهر فى أيام ، ثم وضعت كما لو كانت توضع فى صينية وسط السهل الممتد الذى ينحصر بين النيل والمقطم .

وقد شيدت المنازل بالقاهرة بعناية فائقة حتى ليخيل للرائى أنها قد شيدت من أحجار كريمة لامن ملاط وقرميد وأحجار عادية .

وكانت منازلها منفصلة الواحدة عن الأخرى حتى إن الأشجار المزروعة فى واحدة منها لاتلامس أغصان المنزل الآخر . وكل منزل منها مزود بحديقة ، وأجملها مايحيط بقصر الخلافة .

ويقول ناصر خسرو : من أهم خصائص مصر أن من يريد أن ينشىء حديقة يمكنه أن يحقق رغبته فى أى فصل من فصول السنة . ولدى المصريين أشجار مزروعة فى براميل خشبية موضوعة على أسطح منازلهم التى تشبه الحدائق ، وهذه الأشجار غالبا ماتكون مثمرة ، محملة بالفاكهة من البرتقال السكرى والبلدى والرمان والتفاح والسفرجل . ولدى

أهل القاهرة كذلك مشاتل للزهور من الورود والرياحين وغيرها من نباتات الزينة .

وكانت منازل القاهرة المحاطة بالحدائق اليانعة تشبه مدن الحدائق المنتشرة فى أوروبا الآن[1] .

وإلى الجنوب خارج أسوار المدينة كانت توجد بركة الفيل التى سميت على اسم واحد من اتباع ابن طولون . وكان الخليفة الفاطمى مولعاً بالخروج اليها للتنزه على ضفافها ، أو فيها على إحدى مراكبه، شوانية أو سمّارياتة .

وقد كان المشهد ساحرا بالليل عندما تضاء المناظر والجواسق بالشموع على شواطىء البحيرة . وقد وصف ابن سعيد المغربى بركة النيل فقال :

انظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت	بها المناظر كالأهـداب بالبصـر
كأنما هـى والأبصـار ترمقـها	كواكبٌ قـد أداروهـا على القمـر

وقدر ناصر خسرو مساكن القاهرة فى عصره بعشرين ألف مسكن ، كل منها مكون من خمس أو ست طوابق . وكان إيجار منزل من أربعة طوابق أحد عشر ديناراً كل شهر . فقد طالب صاحب المنزل الذى نزل فيه الرحالة ناصر خسرو بخمسة دنانير ايجاراً شهرياً للطابق الأخير الذى نزل به .

وكان الماء ينقل إلى المدينة على ظهور الدواب ، يحمله السقاءون من النيل الذى كان يبتعد عن المدينة ما يقرب من الميل .

وعادة السقائين أن يحملوا الماء على ظهورهم فى آنية من الفخار أو الجلد (القربة) ويدفع القادرون ثمن الماء المحمول إلى منازلهم ، ويستقى الفقراء من الأسبلة المقامة فى نواحى البلد ، أقامها القادرون صدقةً ، وتقرباً إلى الله لإعانة غير القادرين على الحصول على الماء .

وكانت الأسبلة هذه من العمائر التى اشتهرت بها القاهرة الاسلامية منذ ذلك العهد وطوال العهود التالية حتى عهد العثمانيين الأتراك .

قال صاحب كتاب القاهرة : كان فى ذهن من بنى القاهرة حقيقتان سياسيتان

---

(١) راجع كتاب القاهرة مدينة ألف ليلة طبع هيئة الكتاب ص ٥ ــ ٧

إحداهما أن ملوكها شيعة يحيط بهم شعب مصر السّنى ، وأعداؤهم العباسيون الذين لايفتأون يتربصون بهم ، ويكيدون لهم ، ويحرضون عليهم . فعملوا على اختيار موقع حصين يمكن الدفاع عنه بما يبنى حوله من الأسوار القوية .

وقال : « لقد بنيت تلك المدينة ليسكنها الغزاة المنتصرون لا رعاياهم . ولذا فقد كانت القاهرة فى تلك العصور مدينة ارستقراطية للخاصة تذكرنا بالمدينة الامبراطورية فى بكين ، والكرملين فى موسكو ، وشيئاً فشيئاً اتخذت مظهر مدينة محرمة . وبدون تصريح كان من المستحيل أن تدخلها حمولة من خشب أو من قش . وكان على السفراء الأجانب أن يمروا بين صفوف الحرس إذا دخلوها ، كما كان على الفارس أن يترجل عند دخوله من الباب المواجه للفسطاط باب زويلة . »

وشيئاً فشيئاً أضيف إلى هذه المدينة الملكية مساكن للناس ممن تتصل أعمالهم بهذه الطبقة الحاكمة الارستقراطية ، أو من يقومون على خدمتهم ، وهكذا عاش البسطاء من الصناع والحرفيين حياة خشنة تختلف عن حياة القصور .

وكذلك أقام التجار مساكنهم ووكالاتهم ودكاكينهم فى أحياء حول قصور الأثرياء ومنازلهم ، وتكونت الحارات والشوارع الضيقة . وقد غصت بعض الأسواق بالدكاكين التى تغلق ليلاً ويقام عليها حراس خصوصيون يدفع لهم أصحابها أجورهم لحمايتها من سطو عصابات اللصوص ومناسير الحرامية أيام الاضطراب وفساد الأمور فى المجاعات والمحن . وكان ذلك حافزاً على أن يقيم سكان كل حارة باباً على حارتهم يغلق على أهلها ليلاً ويقوم على حراسته حراس ولايسمح للمرور بها إلا من يعرف كلمة السر .

ومهما يكن من أمر فإن القاهرة الفاطمية قد ازدهت على غيرها من العواصم بما أولاه الخلفاء من الاهتمام بالتشييد والبناء ، واضفاء مظاهر الأبهة والفخامة واهتم العزيز بالله نزار بذلك أشد الاهتمام ، وبلغت البلاد فى عهده مبلغاً من الثراء والرخاء حتى كانت القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة . قال الشاعر تميم بن المعز يصف حال الرخاء فى عهد أخيه :

وعادت بك الأيام فيه أوانساً ... وأصبح فيه مبعد الخير مقتربٌ
وزادت مدود النيل حتى كأنما ... أرتك ارتغاباً تقذف الموج أو رهبٌ
كأن بنانَ الماءِ فاضت على الثرى ... بمسكٍ ، وَمَجَّتْ فيه عنبر التُّرب
فقد عمّت الخلجان حتى كأنها ... مدائن تدعو من جيوشك بالحرب

فدام لأهل المصر عمرك إنهم غدوا بك فى ظلٍّ من العوش منتصبْ
سعودٌ وإقبال وخصبٌ ونعمةٌ ولولاك ما آبوا إلى خير منقلبْ

مظاهر الترف فى الأعياد والاحتفالات :

واهتم الفاطميون اهتماما بالغا بالأعياد ، وبالغوا فى اضفاء مظاهر البهجة والترف عليها ، وأسرفوا فى العطاء ، وتقديم الهدايا ، واقامة المآدب وتوزيع الحلوى والمال ، وعمل المواكب ، والزينات .

واكثروا من عدد الأعياد ، فلم يقتصروا على الاحتفال بالعيدين عيد الفطر وعيد الأضحى ، بل جعلوا من كل مناسبة اسلامية عيداً ، فعيد للهجرة ، وعيد المولد النبوى ، وعيد المحمل وكسوة الكعبة ، وكانت لهم أعيادهم الخاصة بعقيدة الشيعة كعيد يوم الغدير أو غدير خم ، وعيد العاشر من المحرم ، وليلة الاسراء والمعراج ووقفة رمضان .

وشاركوا فى أعياد المصريين القومية كعيد النيروز ، وعيد كسر الخليج ووفاء النيل ، وشاركوا الاقباط النصارى أعيادهم كعيد الشهيد ، والعذراء ، والشعانين والحريق وغير ذلك .

فأما عيد الفطر ، فكان أول أيام شوال يخرج الخليفة ممتطيا صهوة جواده لصلاة العيد فى فضاء متسع قرب القصر . ويخرج من قصره فى موكب حافل مهيب يتقدمه الجند ، وحاملو الأعلام ، ويركب الخليفة فرسه ممسكاً بالعصا متقلداً بالسيف مرتدياً أبهى لباس من الثياب البيضاء المطرزة بخيوط الذهب ، واضعاً فوق رأسه العمامة البيضاء المزينة بأنواع الذهب والجوهر ، تظله المظلة التى يمسك بها أحد أمراء الجند من خاصة الخليفة .

وعند بلوغه مكان الصلاة يكون فى استقباله رجال الدين ، وكبار رجال الدولة ، فينزل عن فرسه ، ليؤم الناس للصلاة ، ثم يخطب خطبة العيد .

وبعد أن يفرغ من الصلاة يتهيأ للعودة فى موكبه الحافل مثل ماجاء فيتوقف على باب القصر ، ويخلع عنه الوزير لباساً ليلبسه لباساً آخر جديداً هو لباس العيد — ولعل لبس الجديد فى العيد عند المسلمين فى مصر ترجع إلى هذه العادة ، ويجلس الخليفة إلى مائدة أو سماط أعد لهذه المناسبة ، قد اجتمع به ألوان الطعام والشراب والحلوى التى تقدم فى أوان

وصحاف من الذهب والفضة أو الصينى ، وأباريق من الزجاج وأكواب من البللور الفاطمى الذى اشتهرت بمصر صناعته آنذاك أو استورد من أنحاء العالم . ويتخلل السماط آنية الزهر ويمتد على حوافى المائدة صفوف أرغفة الخبز .

وتتوسط المائدة صحاف كبيرة عليها خرافٌ مشوية محاطة بدجاج وطيور أخرى وتحيط بهذا كله أطباق الحلوى . وقد يؤتى بها بعد انتهاء الطعام محمولة على محفاتٍ ومغطاة بأوراق الذهب مزينة بنقوش بارزة .

ويجلس الخليفة على عرشه متوسطا المائدة ، وعلى يمينه وزيره ، وينتظم المدعوون على الجانبين من حولهما كل على قدر مقامه ومنزلته .

وفى أثناء الطعام كان جماعات من المضحكين والمحبظين يقومون بعروض لادخال السرور على الطاعمين .

وابتدع الخليفة العزيز بالله نزار فطرة شوال فى أول أيام العيد ، وتتكون من أنواع الحلوى والنقل ، وتفرق بديوان القصر ، ثم تنقل بعدة أماكن . وكان مصروفها فى كل سنة عشرة آلاف دينار .

وفى عيد الأضحى كان يجرى مايجرى فى عيد الفطر ، إلا نظام « الفطرة » ، فقد كان يستبدل به نظام الأضحية ، إذ كان الخليفة يذبح بيده بعد الصلاة ناقة ، ويأمر بذبح الذبائح من الإبل ، والغنم ، وتفرق اللحوم على الناس ، كما كان يأمر بتفريق الاضحيات على رجال الدولة وخاصته من رجال القصر .

وكان عيد المحمل وتجهيز الكسوة للكعبة من الأيام الحافلة التى تزين لها القاهرة ويشقها موكب كسوة الكعبة والمحمل النبوى ، وكانت تجهز كسوة الكعبة من أفخر الأقمشة التى تصنعها مصر وتزين بخيوط الذهب ، كما تزينها خمسون لؤلؤة كل لؤلؤة كبيضة الحمامة ، وقد وشيت بالآيات القرآنية المذهبة الموشاة باللؤلؤ والزمرد . ويطاف بها فى أنحاء القاهرة حيث تتجمل لها الشوارع ، ويخرج الناس لمشاهدتها فرحين مهللين .

وفى ليلة النصف من شعبان يجتمع الناس بجوامع القاهرة ومصر ، ويجتمع الفقهاء والقراء والمنشدون ، ويحضر القاضى والداعى ووجوه البلد ، وتوقد التنانير والمصابيح على أسطح الجوامع وفى صحنها ، وتوضع الشموع على المقصورة وفى مجالس العلماء . ويحمل إليهم

الخليفة الاطعمة والحلوى والبخور .

ومن الأعياد التى استحدثها الفاطميون ليالى الوقود ، وهى أربع ليال فى أول رجب ونصفه ، وأول شعبان ونصفه ، ويشق القاهرة فيها ركب عظيم يتقدمه الشهود ، وتوزع فيه الحلوى من خشكنانج وبسندود ، ويركب الوزير أو القاضى فى موكب يطوف بجوامع القاهرة ومصر (الفسطاط) فتفرق العطايا والحلوى أمامه جماعة يحملون الشموع والقناديل . والبخور فى مجامر الذهب والفضة .

ويصف لنا المقريزى موكب الوقود فى أول رجب فيقول :

« تحمل الشموع إلى دار القاضى لركوب ليلة مستهلّ رجب ، فإذا كان بعد صلاة العصر من ذلك اليوم اهتم الشهود أيضا ، فمنهم من يركب بثلاث شمعات إلى اثنتين إلى واحدة ويمضى أهل مصر منهم إلى القاهرة فيصلوّن المغرب فى الجوامع والمساجد ، ثم ينتظرون ركوب القاضى ، فيركب من داره بهيئاته ، وأمامه الشمع المحمول إليه موقوداً مع المندوبين لذلك من الفراشين من الطبقة السفلى من كل جانب ثلاثون شمعة ، وبينهما المؤذنون بالجوامع يذكرون الله تعالى ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقدر محفوظ »

« ويحرس القاضى جماعة من الحجاب فى زى الأمراء — أمراء الجند ، وفى ركابه القرّاء يطرّبون بالقراءة ، والشهود وراءه على الترتيب فى جلوسهم بمجلس الحكم الأقدم فالأقدم وحوالى كل واحد ماله من شمع ، فيشقون من أول شارع فيه دار القاضى إلى بين القصرين وقد اجتمع من العالم فى وقت جوازهم مالايحصى كثرة ، رجالاً ونساءً ، وصبياناً ، بحيث لايعرف الرئيس من المرءوس ... ويظل الموكب على حاله حتى يصل إلى قصر الخلافة حيث يجلس الخليفة فى منظرة على الباب . فينزجّلون تحتها ريثما يجلس الخليفة فيها وبين يديه شمع ، ويحضر بين يديه الخطباء ، ويذكرون استهلال شهر رجب ، وأن هذا الركوب علامته .

ثم يركب الناس إلى دار الوزارة ، فيدخل القاضى والشهود إلى الوزير فيجلس لهم فى مجلسه ويسلمون عليه ، ويخطب الخطباء أيضا بأخف من مقام الخليفة ، ويدعون له ، ويخرجون عنه فيشق القاضى والجماعة القاهرة ، وينزل على باب كل جامع ويصلى ركعتين ، ثم يخرج من باب زويلة طالبا مصر بغير نظام ، ووالى القاهرة فى خدمته حتى جامع ابن طولون فيدخل القاضى للصلاة فيجد والى مصر عنده لتقاء القوم . وينفل إلى الفسطاط ويذهب إلى جامع عمرو فيوقد له التنور الفضة الذى كان معلقاً فيه ، وكان مسبحاً فى

شكله وتعليقه » .

ومن أعيادهم الشعبية المشهورة التى ورثها المصريون عن أجدادهم الفراعنة فاقرهم عليها المسلمون بعد الفتح عيد وفاء النيل وكسر الخليج .

ففى الخامس والعشرين من شهر بؤونه القبطى وقبل أن يصل مقياس النيل بالروضة إلى ستة عشر ذراعا بإصبع أو إصبعين يفد إلى المقياس المقرئون لقراءة القرآن ويختمون الختمة الشريفة . ويكون هذا الاجتماع فى جامع المقياس ، فيوفّى الماء ستة عشر ذراعا فى تلك الليلة » .

ولوفاء النيل عندهم قدر عظيم ، إذ يبتهج الناس له ابتهاجاً عظيماً زائداً ، ذلك لأنه عمارة الدار ، وبه التئام الخلق على فضل الله .

وفي هذا العيد يضرب سرادق كبير عند الخليج لينزل به الخليفة ورجاله .

ويخرج الخليفة من قصره فى كامل زينته وثيابه المذهبة ، فيقدم الهبات لمن حوله من الحاشية ، وأصحابه ورؤساء المواكب . ويصل إلى السرادق ، فيجلس تحت خيمته على كرسّيه . وبعد مراسم الاحتفال التى تنتهى عادة بسماع الشعراء يقوم الخليفة لينتقل إلى منظرته على فم الخليج ، فيطل من إحدى شرفاتها على موضع كسر الخليج ، حيث يكون العمال قد استعدوا مشدودى الأوساط ، واقفين عليه . فيأمرهم الوزير أن يكسروه فيتولاه الفعلة فى البساتين السلطانية بالفتح من الجانبين مع قراءة القرآن والتكبير من الجانب الغربى للخليج حيث مكان الخليفة ، والرهج واللعب من الجانب الشرقى .

وتجمع العشاريات من المراكب السلطانية فيعدى الخليفة فى إحداها مع الوزير إلى المقياس ويصليان هناك ويعودان أدراجهما ، فتدخل العشاريات بعد فتح الخليج ، تتقدمها عشارية الخليفة ، وبقية العشاريات وخلفها السماريات (المراكب الصغيرة) .

وقد يبدأ الصغير يليه الكبير وكلها محيط بعشارية الخليفة وتسير خلفها .

وقد توسط الخليفة مركبه ، المذينة بالذهب والفضة والستور المرقومة ، وحوله عشاريات كبار رجال الدولة والرؤساء وخاصة فى أبهى زينة وأجمل لباس .

ويبلغ موكب الخليفة وحاشيته ست عشاريات ، وغالبا ماكانت عشارية الخليفة ذهبية ، وبجانبها فضية وحمراء وصفراء ، ولازوردية وصقلى (منسوبة إلى صانعها — رجل من

صقلية)

ويسير الركب فى الخليج متجها إلى قصر اللؤلؤة حيث ينزل الخليفة فى منظرته هناك ليجلس مرة أخرى ويفرق الهدايا من الأكسية الحريرية ، ويقدم الطعام من الخراف المشوية والحلوى وما إليها من ضروب الطعام .

كل هذا وحرس الخليفة الخاص من الفرسان من فرق المغاربة والصقالبة والأتراك والسودان يصطفون فى الثياب المزركشة على الشاطىء وأمام القصر .

عيـد النيـروز :

ومن الأعياد التى شارك فيها المسلمون الأقباط بهجتهم واحتفالاتهم عيد النيروز يقول أحد الرحالة الذين زاروا مصر آنذاك : « ما رأيت أجمل من أيام النيروز والغطاس والميلاد والشعانين والمهرجان وغير ذلك من أيام اللهو التى كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة فى القصف والعزف . ذلك أنه لايبقى صغير ولا كبير الا خرج إلى بركة الحبش متنزهاً . فيضربون عليها المضارب الجليلة ، والسرادقات ، والمماليك المحررات ، فيأكلون ويشربون ، ويسمعون ويتفكهون وينعمون . فإذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتى فارس من عبيده بالعسس عليهم فى كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أدبهم وينصرفوا ، فيسكرون وينامون كما ينام الإنسان فى بيته ، ولا يضيع لأحد منهم حبة واحدة ، ويركب الأمير تميم فى عشارى ويتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة وطعاماً وشراباً ، فإذا كانت الليالى مقمرة ، وإلا كان معه من الشموع مايعيد الليل نهارا ، فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتاً أمرهم باعادته ، وسألهم عما عز عليهم ، فيأمر لهم به ، ويأمر بمن يغنى لهم ، وينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله » .

وكان المصريون الاقباط يحتفلون بهذا العيد قبل الفاطميين ، وذكر المقريزى عن ابن زولاق أنه فى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة منع المعز من وقود النيران ليلة النوروز فى السكك ومن صب الماء . وقال : وفى سنة أربع وستين وثلاثمائة وفى يوم انيروز زاد اللعب بالماء ووقود النيران ، وطاف أهل الأسواق وعملوا فيلة ، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم ، ولعبوا ثلاثة أيام

وأظهروا السماجات فى الأسواق ثم أمر المعز بالكف ، وأن لاتوقد نار ، ولايصب ماء ، وأخذ قوم فحبسوا ، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال »[١].

وكأن هذه الأعمال التى كان يقوم بها العامة يوم النوروز قد زادت عن حدها ، وتأذى بها الناس ، وكثرت شكواهم حتى أن المعز بادر بمنع الأذى وكف العامة عن مثل هذه السماجات .

ويبدو أن الحال قد استمرت فى الاعتدال بالاحتفال بهذا العيد ، ولم يخرج العوام بعد عقوبة المعز للخارجين والمبالغين ، الا أننا نلاحظ بعد ذلك عودة الظاهرة من جديد فى بعض السنوات .

ويبدو أن الافضل بن بدر الجمالى قد استحدث فى هذا العيد أشياء ، وأراد الآمر أن تظل كما هى ، وكان من العادة أن تقدم الهدايا من الثياب الجديدة والفاكهة الموسمية كالموز والتمر والرمان الى بعض الطرف الأخرى ، وتقدم الأطعمة من قصور الخلافة وقد أبطل الاحتفال بهذا العيد فى عهد صلاح الدين . وذكر المقريزى رسالة للقاضى الفاضل يشير فيها إلى ذلك . قال : « وقال القاضى الفاضل فى تعليق المتجددات لسنة أربع وثمانين وخمسمائة يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطى وهو مستهل توت . وتوت أول سنتهم . وقد كان بمصر فى الأيام الماضية والدولة الخالية ـــ يعنى دولة الخلفاء الفاطميين ـــ من مواسم بطالاتهم ، ومواقيت ضلالاتهم ، فكانت المنكرات ظاهرة فيه ، والفواحش صريحة فى يومه ، ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ومعه جمع كثير ، ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه على دور الأكابر بالجمل الكبار ، ويكتب مناشير ، ويندب مترسمين كل ذلك يخرج مخرج الطنز ، ويقنع بالميسور من الهبات ، ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهى ، وترتفع الأصوات ، وتشرب الخمر والمزر شرباً ظاهراً بينهم فى الطرقات ، ويتراش الناس بالماء وبالماء والخمر ، وبالماء ممزوجا بالأقذار ، فإن غلط مستور وخرج من داره لقيه من يرشه بالماء ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته فإما فدى نفسه وإما فضح ، ولم يجر الحال فى هذا النوروز على هذا ولكن قد رش الماء فى الحارات ، وأحيى المنكر فى الدور أرباب الخسارات »[٢].

---

(١) الخطط ١/ ٤٩٣ ، [illegible] ابن تغري بردي

(٢) الخطط ١/ ٤٩٣ ـــ ٤٩٤

وهكذا فإن تلك العادات التى جرى عليها المصريون من ايقاد النيران واللعب بالماء قد نقلها عامتهم عن عادات الفرس ، وربما أدخلها بعض الولاة من الفرس أو الأتراك من بلاد فارس الذين كانوا يهتمون بهذا العيد ، وكان يحتفل به فى العاصمة العباسية بغداد فى أول السنة الفارسية فأصبح فى مصر يحتفل به فى رأس السنة القبطية .

ولم يستطع المسلمون بطبيعة الحال أن يحتلفوا بالنوروز على رأس السنة الهجرية الإسلامية لما لهذا اليوم من وقار لايسمح ولاة الأمر بابتذاله بتلك الأعمال التى تخرج عن حدود الوقار ، وترتكب فيه أعمال خارجة على أوامر الشرع .

ومع ذلك فلم يرد هؤلاء أن يحرموا الناس من اللهو فى أعيادهم ومناسباتهم ، حتى يغفلوا عن مطالبة الحاكم بما ينبغى أن يفعله فى رعاية أمور الناس ، والقيام على مصالحهم . على عكس ماكان حادثا من استحواذ الخلفاء لمعظم ثروة البلاد وامتلاكهم للمال الكثير للصرف منه على قصورهم ، ومتعهم الخاصة وملاذهم ، وتقديم مايفضل عنهم للشعب من مال وطعام وإغراقهم فى رغبة الطعام وملاذ الشراب ، وخلق المناسبات لإشباع نهمهم فى هذا المجال .

عيد ميلاد المسيح ، والغطاس :

وشارك الفاطميون المسيحين من أقباط مصر فى أعيادهم الدينية ففى ميلاد المسيح وتعمله أقباط مصر فى التاسع والعشرين من كيهك . قال المقريزى : وما برح لأهل مصر به اعتناء ، وكان من رسوم الدول الفاطمية . فيه تفرق الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية ، والمتارد التى فيها السمك ، وقرابات الجلاّب ، وطيافير الزلابية ، والبودى ، فيشمل ذلك أرباب الدولة أصحاب السيوف والأقلام بتقرير معلوم .

كذلك احتفلوا بعيد الغطاس من مواسم النصارى فى الحادى عشر من طوبة .

ونقل المقريزى عن المسعودى قوله : « ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها ، لاينام الناس فيها ، وهى ليلة إحدى عشرة من طوبة » .

وكان يحتفل بهذه الليلة فى العصور السابقة ، ولكن الفاطميين اهتموا بها وشاركوا النصارى فيها كعهدهم فى كل أعيادهم .

«واعتاد المصريون نصارى ومسلمين أن يشاركوا فى هذا العيد بالاحتشاد له والخروج إلى النيل بالآلاف . وفى ليلة الغطاس تسرج المشاعل والشموع ، وتتلألأ أنوارها منعكسة على صفحة النيل بالقاهرة والفسطاط ، ويركبون الزوارق ، وفى أيديهم الشموع والمشاعل ، ويظهرون ألوانا من الفرح والمرح ، والمآكل والمشارب ، فى آلات الذهب والفضة ، ويتزينون بأنواع الزينة ، وتعلو أصوات الغناء والموسيقى .

« ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض »

قال المسبحى :[1] « فى سنة ثمان وثمانية وثلاثمائة كان غطاس النصارى ، فضربت الخيام والمضارب.والأشرعة فى عدة مواضع على شاطىء النيل ، وأوقدت الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون » .. إلى أن كان وقت الغطاس فغطس الناس وانصرفوا .

وقال :[2] « وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة وفى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة كان غطاس النصارى ، فجرى الرسم من الناس فى شراء الفواكه والضأن. وغيره ، ونزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم لقصر جدّه العزيز بالله بمصر لنظر الغطاس ومعه الحرم . ونودى أن لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم إلى البحر فى الليل !! وضرب بدر الدولة الخادم الأسود خيمته عند رأس الجسر ، وفرش فيها مرتبة مثقل ، ومرتبة ديباج ملكى ، وجلس الخليفة فى الخيمة ومتولى الشرطة قائم بين يديه ، وأمر بأن يتقّد وقيد النار والمشاعل فى الليل ، ففعل ذلك ، وكان وقيدًا حسنا طويلاً ... وحضر جماعة من القسيسين والشمامسة بالصلبان والنيران ، فقسسوا هناك طويلاً وانصرفوا إلى حيث يغطسون » .

وكانت الأعياد والمواسم فى عصر الفاطميين فرصة لأظهار ثراء الخلفاء ، وترف كبار رجال الدولة والأمراء والحاشية . يقول الدكتور محمد كامل حسين[3]: « عرف الفاطميون بثراء دولتهم ، وبذخهم الذى لامثيل له بين ملوك الدول الأخرى ، وأكثروا من استحداث الأعياد والمواسم ، وافتنّوا فى إقامة حفلاتهم ومواسمهم حتى يخيّل إلى من يقرأ تاريخهم أن حياة مصر فى ذلك العصر الزاهر كانت كلها أعياداً ومواسم ، وكلها لهوا ومرحاً »

وقد ذكر الشيخ عمارة اليمنى مآثر الفاطميين فى تلك المواسم والأعياد ، باكياً راثياً ،

---

(١) الخطط ١/٤٩٤

(٢) ويرجع تاريخ المسبحى طبع هيئة الكتاب ص ١٩٠ والخطط ١/٤٩٤

(٣) فى الأدب الفاطمى

وفى قلبه حسرة على انقضائها فقال :

مررتُ بالقصـر والأركان خـالية	من الوُفـودِ وكانتْ قبلة القِبَــلِ
أبكي على ماتراءت من مـكارمـكم	حـال الزمـان عليها وهـى لم تحُـلِ
دارُ الضيـافةِ كانت أنسَ وافـدكُم	واليوم أوحـش من دارٍ ومن طـللِ
وفـطرة الصـوم إذ أضحـت مكارمكم	تشـكو من الدهـر حيفاً غـير محتَمـلِ
وكسـوةُ الناس فى الفصلين قد درسـتْ	ورثٌ منـها جـديدٌ عـندهم وبَـلِى
وموسمٌ كان فى يوم الخـليج لكُـمْ	يأتى تجمُّلكم فيـه على الجُمـلِ
وأوّل العـام والعيـدين كم لكـمُ	فيهنّ من وَبْـلِ جـودٍ ليس بالوَشَـلِ
والأرض تهتز فى يوم الغـدير كمـا	يهتزُّ مابين قصْرَيْكُمْ من الأسَلِ
والخيلُ تُعرضُ فى وشـي وفـى شـيةٍ	مثـل العرائس فى حـلي وفى حُـللِ
ولا إحملم قرى الأضيـاف من سعـة	الأطباقِ إلا على الأكتـاف والعَجَـلِ
وما خصـصتُمْ ببرءَ أهلَ مِلَّتـكمْ	حتى عممتم بـه الأقصـى من المِـللِ

وشارك الخلفاءَ رجال الدولة فى البذخ والتمتع باللذات ، وتعرف أن الأمير تميم بن المعز كان حريصاً على هذا البذخ وحب التمتع باللذات فى قصوره وبساتينه ، يستمع إلى الغناء ويشارك فى الاحتفالات والمواسم ، ومرّ بنا حاله يوم النيروز واحتفاله به مع الناس ومشاركتهم فى لهوهم .

وكذلك كان « برجوان » رجل الدولة القوى من حاشية العزيز بالله ، والذى أوصى به ولده الحاكم ، فكان بيده الأمر فى أول دولته حتى تخلص منه . يقول المقريزى : « ترقت أحوال برجوان — وهو خصى أبيض إلى أن بلغ النهاية فقصّر عن الخدمة ، وتشاغل بملذاته ، وأقبل على سماع الغناء ، وأكثر من الطرب ، وكان شديد المحبة فى الغناء ، فكان المغنون من الرجال والنساء يحضرون داره ، فيكون معهم كأحدهم ، ثم يجلس فى داره حتى يمضى صدر النهار » .

ولم يسلم بعض شيوخ الدين ورجال القلم من الانغماس فى تلك الملاهى وإن كانوا يتسترون عليها أحيانا ، ولا يجهرون .

ويبدو أن طبيعة الشعب المصرى وحبّه للحياة البهجة ، واستمتاعه بنعيم الدنيا كان مشجعاً له على الاقبال على الاحتفال بالأعياد بكل ما أوتى من طاقة ونشاط ، وإن بالغ أحياناً وشذ بعض الشذاذ والعوام ، فأسرفوا على أنفسهم وأرتكبوا بعض المفاسد وأظهروا

المجون ، وخرجوا على التقاليد والحرمات ، ولم يتقيدوا بما توجبه أوامر الدين مما اضطر الحكام ورجال الشرطة إلى التدخل لمنع هذه الانحرافات المخلة بالقيم الدينية والاجتماعية .

والظاهرة الواضحة الدلالة فى هذا العصر مشاركة المسلمين النصارى فى أعيادهم وعدم شعورهم بالحرج فى ذلك ، والاختلاط بهم نساءاً ورجالاً ، دون وجود قيود أو حواجز تحجز بينهم ، وكأنهم أبناء ملةٍ واحدة .

وقد يعزو بعض المراقبين ذلك إلى خفة فى دين المصريين ، أو إلى ما غير ذلك من صفات تسوءهم . وليس الأمر كذلك فى اعتقادنا ، بل إن مرجع الأمر كله إلى شعور المصريين بالانتماء لمصر ، وأنهم متساوون فى هذا الوطن الذى أظلتهم سماؤه ، وسقاهم نيله بمائه ، فأحدث بينهم من الألفة وتمازج الأرواح ما غلب على شعور الفارق الدينى بين المسلم والمسيحى .

كذلك الموروث الثقافى والحضارى لهذا الشعب العريق لعب دوراً كبيراً فى التغلب على الحدود الدينية فأذاب تلك الحدود ، وعاد المصرى واحداً تتشابه ملامحه النفسية والاجتماعية مسلماً كان أو مسيحيا .

وأشار أمية بن أبى الصلت فى الرسالة المصرية من منطلق عداء واضح للمصريين — ككثيرين غيره — إلى هذا التجانس بين المصريين على اختلاف دمائهم وأصولهم ، وعدم وجود العصبية القلبية بينهم فقال :[1]

« وأما سكان مصر فأخلاط من الناس مختلفةُ الأصناف من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وحبشان وأرمن وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم .. فلهذا اختلطت أنسابهم فاقتصروا من التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم والانتماء إلى مساقطهم ومواقعهم » .

وقال : « وأما أخلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات ، والانهماك فى اللذات والاشتغال بالنزهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات .. !! »

وأمية يصف أهل زمانه من المصريين فى آخر القرن الخامس من الهجرة فى عصر الخليفة المستعلى ووزيره الأفضل .

(١) الرسالة المصرية ص ٢٣/٢٤

ولم يكن المصريون وحدهم أبناء ذلك الزمان الذين ينتمون إلى مواضعهم أو ينتسبون إلى بلادهم ، بل كانت الكثرة الغالبة على أهل الزمان وغيره من الأزمنة من يفعل هذا ، وليست النسبة إلى البلد أو الاقليم بدعة عند المصريين ولا دلالة على عدم الاهتمام بالنسب كما ادى من نقل عنه أمية وأمّن عليه .

ولم يكن المصريون وحدهم من بالغوا فى اللهو واتباع الشهوات ، بل إن من العرب والمسلمين فى المشرق والمغرب من فاقهم بكثير فى ضروب اللهو والمجون ، وخالطت حياتهم الشهوات الماجنة التى تخرج على كل حدود وقيود . وكتب الأدب العربى والأخبار حافلة بالقصف والنوادر عما يحدث فى بيوت بعض الخلفاء والولاة وكبار رجال الدولة وفى هذا العصر نفسه عصر الفاطميين ، لانستثنى من كان منهم متبعا لمذهب السلف من أهل السنة ، أو من كان متبعاً لمذهب الشيعة الإمامية أو الإسماعيلية .

ونقرأ عن شيخ تونسى كان نهاية فى المجون وكان يجلس إليه أحد شعراء القيروان فى القرن الخامس وهو عبد الرحمن بن محمد الفراس الشاعر الماجن . ولم يكن يتورع عن فاحش القول ونقرأ عن شيخ آخر من شيوخ القيروان يدعى عتيق بن محمد بن أبى بكر الوراق التميمى ، يبدى الخشوع وتترقرق دموعه فى حلقة الجامع حتى إذا كان فى بيته كان فى يده الطنبور ، وعن يمينه غلام مليح ، فإذا قيل له : ما أبعد مابين حاليه فى مجلسيه ؟! قال : هذا بيت الله وهذا بيتى أصنع فى كل واحد منهما مايليق به وبصاحبه .!! »[1]

ونقرأ أن أحد أمراء صنهاجة أصحاب القيروان فى عهد الفاطميين كذلك وما كان يحياه فى قصره ، ويحيط به نفسه من ملاذ الحياة ومتعها ، فقد قال إن أبا الفتوح بلكين بن زيرى بن سناد كان له أربعمائة جارية وحظية ، وأن البشائر قد وفدت عليه فى يوم واحد بولادة سبعة عشر ولداً .

كذلك كان يحيى بن تميم بن المعز الصنهاجى حين يقدم إلى مجلس الطعام يشير إلى جارية من حظاياه ليتكىء عليها . ومحمد بن سحنون يتمتع بتسعة أسرة لكل سرير سرّية[2]

وفى المشرق فى بلاد الجزيرة الفراتية من أرض العراق يحدثنا الفارقى صاحب التاريخ عن أحد أمراء العشائر ، وكيف اقتنى من النساء عدداً ، ومارس من متع الدنيا والملذات ألوانا ،

---

(١) حياة القيروان للدكتور ناعى ص ٨٧

(٢) المصدر نفسه ص ٧٨

ولم يكبح جماحه عن الشهوات ذلك الأمير هو نصر الدولة صاحب آمد وميا فارقين (ت سنة ٤٥٣ هـ) .

قال الفارقي[١]: وكان ـــ نصر الدولة ـــ قد تزوج أربع نساء .. وكان له ثلاثمائة وستون جارية حظايا ، وفيهن عمَّالات ، وكان لاتصل نوبة إحداهن فى السنة إلا مرة واحدة وكان فى كل ليلة له عروس جديدة ، وكان له من المغنيات والرقاصات والعمَّالات ، وأصحاب سائر الملاهى مالم يكن لسواه من سائر الملوك والسلاطين . وكان كلما سمع بجارية مليحة نفذ وبالغ فى مشتراها ووزن أضعاف قيمتها . وكان رسمه أن يجلس يوماً للجند ويوماً معهن يأكل ويشرب إلى الليل . ويخلو بنفسه ويجلس يوماً لبنى عمه وأولاده وأقاربه وخاصته فيأكل معهم ويشرب إلى الليل ، ثم يخرج للمغنيات والرقاصات ، وجماعة أصحاب الملاهى إلى بين أيديهم ساعة ثم يتفرقون ، ويبقى الأمير فى خلوته مع جواريه .

ويجلس يوماً ثالثا وحده على السرير ، وليس فى المجلس ذكَرٌ غيره ، وتحضر حظاياه وجواريه ونساؤه وبناته ، ويأكلون الطعام ويرقصون ، ويلعبون بسائر الملاهى طول يومه إلى الليل ، ثم تمضى نساؤه وبناته ويجلس ويشرب وجواريه والعمَّالات بين يديه إلى وقت نومه قريب الصباح ، ويخلو بصاحبة النوبة ! ...

قيل : وكان يركب نصر الدولة من غدوة إلى الصيد ، ويعود ضحوة ، ويجلس ساعة ، ويدخل إليه الوزير ويستأذنه فيما يحتاج إلى إذنه . ثم إنه يجلس على الطعام ويستريح إلى قبل العصر ، ويجلس على الطعام والشراب بعد أن يكون قد صلى الظهر والعصر فى وقتهما ، ثم يشرب إلى الثلث الأول من الليل ، ثم ينفض من عنده ، وتخرج الجوارى والعمالات فيغنينه ، ويشرب ويلعب معهن إلى الثلث الأخير من الليل وهن بين يديه ، وهو على مسرَّته ، ثم يقوم إلى الموضع لمنامه ويأتيه الخادم بصاحبة النوبة فتبيت عنده إلى السَّحر ، ثم يجلس فيدخل الحمام ويخرج ويصلى الصبح فى وقتها .

وقيل : إنه مدة ولايته لم تفته صلاة الصبح فى وقتها . ولقد غُنِّىَ بين يديه ذات يوم بأبيات أبى نواس التى أولها يقول :

(١) تاريخ الفارقى لأحمد بن يوسف بن على طبع دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٧٤ بتحقيق الدكتور بدوى عبد اللطيف عوض

وهبتُ النوم للنوَّام إشفاقاً على عمرى
وقضيتُ سواد اللّيـ ـل باللّذاتِ والخمرِ
فما يطمع فى النـو م إلّا ساعة السُكرِ

قيل : فطرب لها الأمير وقال : لله درّه . فكأنه غنّى بنا فى شعره !! »

تلك كانت حياة أحد ولاة المسلمين وملوكهم فى القرن الخامس الهجرى فى عهد المستنصر بالله الخليفة الفاطمى ، وكانت بينهما علاقاتٌ ، وقد اشترك معه فى هذه الحياة كثيرون غيره فى بلاد المسلمين ، قارفوا اللذات ، ولم يحجموا عن شهواتهم ، بل اطلقوا لها العنان واستمتعوا بالنساء والغلمان ماشاءت لهم شهواتهم ، وما اتاحت لهم ثرواتهم وأموالهم التى اكتسبوها من رعاياهم ومن حكمهم لهم وتسلطهم عليهم بغير ولاية شرعية إلا ولاية انتهاز الفرصة والاستيلاء على الحكم بالاقتدار والحيلة .

حكام مسلمون لايشبعون من لذات المال والولد والنساء والغلمان ، ومعاقرة الشراب والقصف وسماع الغناء والعبث ، ويحرصون مع ذلك على أداء الصلوات وكأن الصلاة ترفع عنهم كلّ هذه الآثام ، وكأن الغلمان والنساء والخمر والعبث الماجن لاينهى عنه الدين . أو كأن الدين والتمسك بآداب الشرع والامتناع عن الحرمات من شأن الرعية وأما هؤلاء الملوك والأمراء فقد رفعت عنهم المحرمات بل وابيحت لهم هذه الأشياء ماداموا يواظبون على أداء الصلاة فى أوقاتها !!

وهكذا نرى الإسلام فى قيمه التى نزلت فى الكتاب الكريم وحديث الرسول وسيرته قد تداولتها الدول ، وقرأت كل جماعة فى نصوصها مايرضيها وغفلت عما لايرضيها ، وأسرف قومٌ ، وتزمت آخرون ، وتساهلت جماعة ، وتمسكت جماعة ، وعادى كل مذهب من يخالفه الرأى ، وكلٌ يعتقد بصحة معتقده ، وضلال معتقد مخالفه .

واعترت صور الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامى في تلك العصور اضطرابات فى الحكم ، فمن محبذ لروح التساهل والتسامح ، والرغبة فى الحياة بمباهجها ، ومتحامل على كل زميّت مغلق الفكر والسلوك ، ومن معترض على أمثال تلك الحياة اللاهية منكر لها داع إلى التزام أصول الدين القيّم ممثلاً فى سلوك السلف الصالح فى عهد الرسول والراشدين .

وفريق ثالث يقف بين بين لاهو إلى هؤلاء فى الجهر بالإباحة ، ولا إلى هؤلاء بالتزمت

مظهراً ومخبراً ، بل يبيح لنفسه فى الستر ما لايبيحه فى العلن ، ويرى الجهر بالمعصية أو مخالفة أوامر الشرع ضرباً من التصرف قد يجلب اللوم فيبتعد عنه لتظل الصورة الإسلامية النقية منوطة به فى العلن ، وله بعد ذلك أن يفعل بينه وبين نفسه مايشاء كذلك الشيخ الذى ذكرناه يقول إنه يفعل بالمسجد مايليق بصاحب المسجد وأنه يفعل بعد ذلك فى منزله مايليق به !! .

حياة عامة الناس فى معايشهم :

ونخرج من حياة اللهو والقصور بعد هذه الصحبة الطويلة لنقترب من حياة الناس العادية الجارية فى معايشهم اليومية ، ولا تعيننا مصادر التاريخ كثيرا فى رسم صورة لتلك الحياة كما هو الشأن فى الإفاضة عن حياة القصور ، ونلجأ فى تقصى بعض جوانب تلك الحياة إلى كتب الحسبة ، وبعض مصادر التاريخ والرحلات التى ترد فيها أخبار ونتف متفرقة عن تلك الحياة .

وكانت الحسبة تسند إلى وجوه الناس المسلمين وأعيان المعدّلين لأنها خدمة دينية إلى جانب كونها سلطة رقابية من قبل الدولة . وللمحتسب نواب عنه بالقاهرة ومصر ، ويجلس بجامع الأزهر بالقاهرة ، وعمرو بن العاص بمصر يوماً بعد يوم .

ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ، ويأمر نوابه بالختم على قدور الهرّاسين ونظر لحمهم ، وكذلك الطباخون .

ويتتبعون الطرقات ويمنعون الخروج على أوامر الشرع وينظرون المكاييل والموازين . وللمحتسب النظر فى دار العيّار ، ويخلع عليه ، ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر . وكان جاريه فى الدولة الفاطمية ثلاثين ديناراً كل شهر . ودار العيّار هذه كانت دارا تُعايَرُ فيها المقاييس والمكاييل ، يحضر إلى المحتسب أو نائبه ليعاير المعمول به منها فى الأسواق ، فإن ما صح منها أمضاه ، وإلا أمر بإعادة عمله حتى يصح ، وما زالت هذه الدار قائمة طوال عصر الدولة الفاطمية .

ويلزم رجال المحتسب رؤساء المراكب أن لايحملوا أكثر من وسْق السلامة وكذلك يفعلون مع الحمّالين على البهائم .

ويأمرون السقّائين بتغطية الروايا بالأكسية ، ولهم عيارٌ وهو أربعة وعشرون دلواً ، كل دلوٍ أربعون رطلاً ، وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم ، وهى زرقٌ .

وينذرون معلمى المكاتب بأن لايضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ، ولا فى مقتل .

وكان المحتسب يحرص على سلامة الناس وصحتهم بمراعاة النظافة فى الأسواق وأن لاتتعرض السلع من المأكولات لتراب الشارع المتصاعد من أقدام المارة والحيوانات ، بل أمروا الباعة بتغطية تلك المأكولات .

كذلك حرصوا على أن لا تتصاعد الروائح الكريهة من دكاكين الجزارين وباعة الأسماك فأمروهم بغسيلها ونظافتها باستمرار ، وعدم عرض اللحوم أو الأسماك التى تعرضت للتلف . وكان يجازى من يضبط مخالفا بالعقوبة الصارمة .

ومنعوا عجين الخبز بالرجل .

وكثيراً ماتظهر صور من التجاوز والخروج على الآداب العامة فى الطرقات وأماكن اللهو والنزهة ، وفى المواسم والأعياد ، وكان متولى الشرطة يقف لهذا بالمرصاد ويمنعه .

ولا شك أن مظاهر الثراء العام فى مصر وما كان يعم المجتمع من الرخاء نتيجة وفرة المحاصيل والانتاج الزراعى ، ورواج التجارة ، وما تحصلة الدولة على التجارة وقوافل الحج من المكوس كان له أثر كبير على الحياة والمجتمع وسلوك الأفراد ، بالاضافة إلى ما أشاعه الفاطميون من عادات ، ومظاهر سلوكية وافراط فى الطعام والشراب والافتتان فيهما ، وفى أنواع اللبس والرياش .

ونال الطبقات الكادحة من عامة الناس نصيب من الثراء ، ورفاهية الخلفاء ، والطبقات القادرة الغنية فى أوقات الرخاء ، كما أصابها القهر والعسف من الجباة والعسس أوقات النكبات ، والمحن .

ومرت بمصر والبلاد الدائرة فى فلكها والتى تقع تحت نفوذ الفاطميين محن وأوقات شدة تفاوتت فى ضراوتها وأثرها على الناس ، وفى طولها أو قصرها .

ورغم أن العصر الفاطمى بدأ بفترة من الرخاء فى عصور المعز والعزيز والحاكم إلا أن فترات من الغلاء بدأت تنتاب البلاد منذ عهد الظاهر فى عام ٤١٤ إذ غلت الأسعار وعز الخبز ، وتلاعب التجار بأقوات الناس مما دفع بالظاهر ورجاله إلى الضرب بشدة على كل

من يحاول استغلال ظروف الناس للكسب الحرام .

يقول المسبحى :[1]

وفى سنة ٤١٤ فى شهر جمادى الآخرة « انصرف ماء النيل انصرافا متداركاً فاحشاً ، ولم ترو منه الضياع ، ولازكت الأرضين ، فكثر ضجيج الناس بمصر واستغاثتهم إلى الله عز وجلّ ، وخرج أكثر أهل البلد من الرجال والأطفال ومعهم المصاحف المنشورة إلى الجبل يستغيثون إلى الله تعالى . وتعذرت الأخباز فى الأسواق ، ووقع الازدحام على الغلات »

واضطر المحتسب أن يتدخل ليأخذ التجار بالشدة حتى يفرجوا عما اختزنوه لاغاثة الناس . قال المسبحى :

« ففى يوم الأحد لخمس خلون من رجب انتهى إلى مجلس الحسبة فجلس فيه ثم أحضر الخبازين والدقاقين وضرب قوماً منهم وشهرّهم . وظهرت الأخباز واستقامت أحوال الناس » .

ثم كان عهد المستنصر ومضت السنوات الأولى من حكمه طيبة رخاء حتى كان عام ٤٤٨ هـ . قال ابن الأثير[2] : « كان بمصر غلاء شديد ، فكان يموت فى اليوم ألف نفس . ثم عم ذلك سائر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والحجاز واليمن وغيرها » .

وفى سنة ٤٦٢ يقول ابن الأثير حدثت الشدة الثانية ، وهى الشدة الكبرى قال[3] : « وفيها كان بمصر غلاء شديد ومجاعة عظيمة ، حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، وفارقوا الديار المصرية ، فورد بغداد منهم خلق كثير هرباً من الجوع . وورد التجار ومعهم ثياب صاحب مصر وآلاته نهبت من الجوع . وكان فيها أشياء كثيرة نهبت من دار الخلافة » .

الحيـاة الدينيـة والسلوك الدينى

كان الفاطميون حريصين على التمسك بالمظاهر الدينية فى الصلاة والصوم وبالغوا فى التظاهر بهذا التمسك فى المناسبات الدينية التى استحدثوها ، والأعياد التى أقاموها . ولا

---

(١) أخبار مصر فى سنتين (٤١٤ ـــ ٤١٥) ص ٣٢

(٢) الكامل ٢٣٥/٨

(٣) الكامل ٣٨٥/٨

ننسى أن شرعية توليهم الحكم قائمة على الدين وعقيدة الإمامة فهم أئمة دينيون . لهذا كان عليهم نصرة الإسلام وإظهار أخذهم بعباداته ومعاملاته والحرص عليها ، والدعوة لها ، ومنع كل مخالفة ، أو خروج ، والتزام الشدة فى ذلك أحيانا .

فمن المظاهر الاجتماعية التى حرص الفاطميون على مراعاة أمور الدين فيها عدم خروج المرأة متبرجة فى الأسواق . وقد وقف الحاكم بأمر الله من المرأة موقفا متشدداً . فخلال سبع سنوات كاملة من حكمه لم يكن يسمح لامرأة بالخروج إلى الطريق . وكانت مشترواتهن تتم فى بيوتهن عن طريق النوافذ والطاقات .

وقد خفت هذه القيود من بعد الحاكم إلا أن الخلفاء ظلوا يحافظون على الآداب العامة ويراقبون سلوك النساء ، فيردعون من تحدثه نفسه بالإخلال بما يأمر به الشرع .

من ذلك حرصهم على أن لاتكشف امرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ، ولا تتبرج بلبس ثياب تكشف عن جسدها أو تظهر زينة .

قال المسبحى فى أحداث سنة ٤١٤ أنه قبض على رجل وامرأته ، وأمر متولى الشرطة بضربهما وشهّر بهما ، وأمر بأن ينادى عليهما : « هذا جزاء من يقود على عياله مع اليهود والنصارى » .[١]

كذلك أمر بأن يضرب فى الأسواق والطرقات بالجرس وينادى أن لايدخل الحمام أحدٌ إلا بمئزر — حتى لاتظهر العورات ، ويستباح الحياء — وقبض على جماعة فى الحمام بغير مئزر فضربوا وشهّروا .

وعلى عكس ما نقرأ فى كتب التاريخ والأدب من شيوع شرب الخمر بين طبقات المجتمع من خلفائهم وحتى عامتهم ، وظهر ذلك فى الشعر والتغنى به إلا أننا نقرأ كذلك من أخبار بعض الخلفاء حرصهم على منع الخمر وتداولها بين الناس وأخذ من صنعها أو شربها بالشدة .

ذكر المقريزى أنه فى سنة ٣٩٩ قرىء سجلّ (منشور) بأمر الحاكم بمنع عمل الفقاع وهو نوع من الشراب الشعبى المسكر يصنع من الخبز ، ومنع بيعه بالأسواق . كذلك أمر

---

(١) أخبار مصر ص ٣٢

بأن لايحمل شي من النبيذ والمزر — نوع آخر من الخمر — ولا يتظاهر به ولا بشيء من الفقاع .

« وحرم شراء الزبيب بأكثر من الحاجة ، وكذلك العنب لغاية عصره — أربعة أرطال فما دونها » .

وحرص الفاطميون على نشر مذهبهم الدينى فور دخولهم إلى مصر ، وإن كان قد سبقهم من الدعاة ، من مهّدوا لهم ، فاتبع دعوتهم بعض المصريين إلا أن عامتهم كانوا حريصين على مذهب أهل السنة مع محبتهم لآل البيت .

يقول المقريزى :

« ولما دخل جوهر الصقلى القائد بعسكر المعز لدين الله إلى مصر وبنى القاهرة أظهر مذهب الشيعة ، وأذّن فى جميع المساجد الجامعة وغيرها « حيَّ على خير العمل » ، وأعلن بتفضيل على بن أبى طالب على غيره ، وجهربالصلاة عليه ، وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم .

وأمر جوهر إمام الجامع العتيق — عمرو بن العاص — بالفسطاط أن يجهر بالبسملة فى الصلاة — وكانوا لايفعلون ذلك — وزيد فى صلاة الجمة القنوت فى الركعة الثانية .

وأمر فى المواريث بالرد على ذوى الأرحام ، وألاَّ يرث مع البنت أخٌ ولا أخت ولا عمٌّ ولا جدّ ، ولا ابن أخ ولا ابن عم .

ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلا الزوج أو الزوجة ، والأبوان والجدّة . وكان قاضى مصر قبل دخول الفاطمين أبو طاهر محمد بن أحمد يحكم بأحكام أهل السنة ، فجاء جوهر فأقره فى القضاء ، وظل كذلك فى عهد المعز ، وخاطب جوهر هذا القاضى بأن يعدل فى احكام المواريث بما يتفق ومذهب الشيعة فقال القاضى لاأفعل .

وأخذ الفاطميون بالحساب الفلكى فى تحديد أوائل الشهور العربية وبخاصة شهر رمضان ، ولم يعتمدوا على رؤية الهلال . قال المقريزى :[1] « وصار صوم رمضان والفطر على حساب لهم ، فأشار الشهود على القاضى أبى طاهر — المذكور — أن لايطلب شهود الرؤية لأن الصوم والفطر على الرؤية قد زال . فانقطع طلب الهلال من مصر ، وصام القاضى

(١) الخطط ١/٣٤٠

وغيره مع القائد جوهر كما يصوم ، وأفطروا كما يفطر » .

وفى سنة ٣٧٢ هـ أمر العزيز بالله بن المعز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية وكان الحنابلة وبعض شيوخ المسلمين لايجهرون فى الصلاة بالبسملة ، وخالفهم الشافعية ،[1] وكذلك الشيعة .

وبعد أن بدأ الفاطميون بالتشدد فى تطبيق عقائدهم فى الصلاة والصوم وبعض الأحكام الشرعية ، رأوا معارضة من المصريين وبعض الرعية فى غير مصر من البلاد وبخاصة فى دمشق والقيروان ، فاضطروا إلى التخفيف من ذلك التشدد والعدول عن الأمر بالسلطان إلى الاقناع بالدعوة .

ففى عهد الحاكم بأمر الله بدأ التخفف من بعض الأحكام التى أصدرها المعز والعزيز بخصوص الأذان والصوم بدون الرؤية ، وأذن للناس بأن يؤذنوا الأذان الشرعى ، وأن يصوموا لرؤية الهلال ، وأذن للناس فى صلاة التراويح بعد العشاء فى رمضان :

ونادى الحاكم « بأن لكل مجتهد فى دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ومعاده ، عنده كتابه ، وعليه حسابه » .

وأرجع بعض المؤرخين التصرفات الغريبة والشاذة للحاكم إلى عقائد خاصة بالفاطمية كقولهم — كما ذكر المقريزى — بأن منع الحاكم للناس من أكل الملوخية لأنها كانت محببة عند معاوية — كذلك منعه الناس من أكل النقلة المسماة بالجرجير المنسوبة إلى عائشة رضى الله عنها ، ومنعهم من المتوكلية المنسوبة الى المتوكل العباسى .

وكان الفاطميون قد أعلنوا سب أبى بكر وعمر على المقابر ، فتضايق الناس فاضطروا إلى التخفف من ذلك والعدول عنه فى بعض الأحيان .

وكان للمذهب الفاطمى آثاره على الحياة العامة وعقائد الناس وعاداتهم ، فقد بالغوا فى تقديس آل البيت ومزاراتهم ، ونقل الأفضل بن بدر الجمالى رأس الحسين رضى الله عنه — على حد قولهم — من عسقلان إلى القاهرة ودفنت هناك بالمشهد الحسينى إلى الآن ، وأذنوا للناس بالزيارة والتبرك به وصارت عادة لدى المصريين حتى الآن وكذلك الحال بالنسبة إلى

(١) وقعت الفتنة فى بغداد بسبب الجهر بالبسملة بين الشافعية والحنابلة لعدم موافقة الحنابلة على الجهر بها . وقال الشافعية للحنابلة : إن أردتم أن لا نجهر بها فامحوها إذا من المصحف

مزارات أهل البيت كالسيدة زينب والسيدة نفيسة وغيرهما .

وشاع فى كتابات العصر اضفاء ألقاب دينية على الخلفاء ، ففضلاً عن تلقيبه بأمير المؤمنين ؛ فقد كان يتبع اسمه بقولهم — عليه السلام — كما يفعل بعد أسماء الأنبياء ، لأن الأئمة عندهم من سلالة النبوة ، فلهم مالهم من التقديس !!

على أن المذهب الإسماعيلى الفاطمى لم يكن السائد وحده فى كل أنحاء الدولة الفاطمية ، بل لم يكن له الغلبة التامة على أهل مصر ، فقد ظلت المذاهب الأربعة على حالها من عقائد الناس يعملون بها فى مصر وفى أفريقيا والشام والحجاز ، وإن غلب التشيع فى بعض انحاء صعيد مصر واليمن .

وقد ضعف المذهب الفاطمى نفسه شيئاً فشيئاً فى ظل الحكم الفاطمى فلم يكن فى آخر دولتهم على مثل قوته فى بداية الدولة . وكانت هناك أسباب كثيرة أدت إلى هذا الضعف . منها مالاقته الدعوة الفاطمية من مقاومة عنيدة من أهل السنة بتأييد من العباسيين فى بغداد ، وتألب الخارجين ممن عارضوا المذهب ودعوا إلى مذهب أهل السنة أمثال أبى ركوة فى المغرب ، وارتداد المعز بن باديس وأهل دولته عن المذهب الفاطمى فى افريقيا ، وعودتهم إلى أهل السنة ، وانقسام الفاطميين الإسماعيلية على أنفسهم بعد تعيين المستعلى بن المستنصر دون أخيه نزار إلى فرقتين متعارضتين .

أدى هذا كله إلى ضعف المذهب فى مصر وما يليها وتحول بعض الوزراء عن الشيعة الفاطمية إلى الإمامية .

فقد ذكر المقريزى أن أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ثار على الحافظ لدين الله وأعلن مذهب الإمامية والدعوة للإمام المنتظر ، ورتب أربعة قضاة اثنين من الشيعة ، واثنين من أهل السنة ، والاثنان من الشيعة أحدهما إمامى والآخر إسماعيلى ، والإثنان من أهل السنة واحد منهما مالكى والآخر شافعى لغلبة هذين المذهبين على أهل مصر والمغرب ، فحكم كل منهم بمذهبه وورَّث على مقتضاه وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأبطل من الأذان حى على خير العمل وكذلك قولهم : محمد وعلى خير البشر .

فلما قتل أحمد بن الأفضل سنة ٥٢٦ هـ عاد الأمر على ماكان عليه من مذهب الإسماعيلية ولكن بعد تولى الصالح بن رزيك الوزارة كان على مذهب الإمامية ، وصرح بهذا بعد توليه .

ويبدو أن هذا الاضطراب الديني بين مذاهب المسلمين ، وظهور بعض صور التحرر والضعف في العقيدة أدى إلى تجاوزات كثيرة في أمور الشرع وحدود الدين . حتى إن بعض الأمراء ، وولاة الأمر في بعض البلاد كانوا يستهينون بحدود الشرع ، كما يروى عن أحدهم واسمه قرواش العقيلي من أمراء عرب الجزيرة الفراتية بالشام والعراق . ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٤ هـ « أنه كان من رجال العرب من بني عقيل من ذوي العقل ، وله حسب وله شعر حسن قيل إنه جمع بين اختين في نكاحه ، فقيل له : إن الشريعة تحرم هذا . فقال : وأي شيء عندنا تجيزه الشريعة ؟! » .

وظهر من آثار التحلل الديني من ادعى بعودة الحاكم ، أو الوهيته .

موقف الفاطميين من أهل الذمة : اليهود والنصارى

كان موقف الفاطميين من أهل الذمة والكتابيين من يهود ونصارى عامة موقفاً متسامحاً ونعلل ذلك لأسباب عقدية ، وإدارية ، فأما الأسباب العقدية ، فإن الإسماعيلية لم يتشددوا في مواقفهم من الأديان الأخرى تشدد أهل السنة والحنابلة خاصة . وأما الأسباب الإدارية فلأن اليهود والنصارى عرفوا بمهارتهم في الإدارة وشئون المال ، ولذلك اعتمد عليهم كثير من الولاة والخلفاء حتى من غير الفاطميين . وكان لأقباط مصر دراية تامة بشئون مصر الإدارية والمالية ، لذلك كانت الدواوين لاتخلو منهم ، واعتمد عليهم ولاة المسلمين منذ الفتح ، فلما جاء الفاطميون زادوا من اعتمادهم على الأقباط ، والنصارى عامة واتخذوا منهم زوجات على مدينا ، كما اتخذوا وزراء وكتاباً ، وخلصاء لهم ، بعضهم عدل عن دينه وأسلم ، وبعض بقي على عقيدته .

وكان إكثار الخلفا الفاطميين من اتخاذ اليهود والنصارى أعوانا لهم ظاهرة ملفتة في التاريخ الإسلامي ، ومنذ كان الفاطميون بأفريقيا وقبل دخولهم مصر اتخذوا اليهود والنصارى فقد كان من أطباء المعز وخلصائه يعقوب بن كلس الذي وفد عليه من المغرب هاربا من مصر ولما جاء إلى مصر أطلق يده في ادارة شئون الدولة .

وتعلم العزيز في مدارس النصارى وتزوج واحدة منهم ولدت ست الملك والحاكم وعين العزيز اخوة زوجته النصرانية في مناصب دينية احدهما بطريركا للقدس والآخر بطريركا في مصر ، وهما ارسانيوس واريسطيس ، وقاما بدور هام في التقريب بين العزيز وملك بيزنطة .

كذلك عين العزيز عيسى بن نسطورس وأطلق يده فى شئون الدولة ، وعين منشا اليهودى مسئولا عن شئون الشام فى عهده .

وقد ضجّ الناس من تصرف الوزيرين لتعصبهما وعسفهما فاضطر إلى عزلهما . وكذلك فعل الحاكم ابنه ، لكن الرأى العام جعله يعدل عن سياسة التسامح تلك ، وفرض بعض القيود على اليهود والنصارى ، بل واتخاذ بعض الإجراءات العنيفة كتحويل بعض الكنائس إلى مساجد ، وإلزام النصارى باتخاذ زى خاص بهم ، وهو اتخاذ الزنار الذى كان معمولاً به فى سائر البلاد الإسلامية يربطون به أوساطهم ، وأن يتقلدوا فى أعناقهم بصلبان خشبية تتدلى على صدورهم ، ويضعوا فوق رءوسهم عمائم سوداء .

وأما اليهود فقد ألزموا بلبس العمامة الصفراء فى عهد الحاكم

الباب الثالث

الحيـاة العقليـة والفنيـة

احتل الفاطميون مصر وبسطوا نفوذهم على معظم شمال أفريقيا والشام واليمن والحجاز وبعض أرض الجزيرة بالعراق . ونافسوا العباسيين والبويهيين سياسياً ، وحاولوا منافستهم ثقافيا وأدبيا .

ويرى بعض الباحثين أن الاحتلال الفاطمى لمصر أدى إلى عزلتها وماوليها من البلاد عن بقية البلاد الإسلامية ثقافيا .

فهل كان الأمر كذلك حقا ؟ ...

إن واقع الحياة ، وأخبار التاريخ والعلم والأدب والفن فى هذه المرحلة تنكر هذا الزعم ، وتثبت عكسه . فإن العالم العربى والإسلامى ظل متصل الروابط الفكرية والثقافية من مشرقه إلى مغربه ، ولم يحل الخلاف المذهبى والسياسى دون وحدة الفكر والثقافة فى العالم العربى والاسلامى .

يقول أحمد أمين :[1]

« .. ثم جاءت الدولة الفاطمية فبسطت سلطانها على مصر والشام . والحق أنها أتت بحركة علمية نشيطة ، وقدمت العلم والأدب والفن فى مصر والشام خطوات ، حتى لايعد شيئاً بجانبها ماكان فى العهد الطولونى والإخشيدى ويصح أن تقارن وتساوى بما كان فى العراق ، وخاصة فى مجال العلوم العقلية والفلسفية ، فإنها نبغت فيها . ويرجع ذلك إلى أمور :

أولها ـــ أن الفاطميين جاءوا بمذهب شيعى له أسس ودعائم تخالف ماكان عليه أهل السنة فى مصر والعراق ، كعصمة الأئمة ونحو ذلك ، وتأتى بشعائر ظاهرة المخالفة لشعائر السنيين كذلك . كالأذان « بحى على خير العمل » والاحتفال بعاشوراء وعيد الغدير . فإتيان الفاطميين بهذا أوجد حركة عنيفة للتأييد والتفنيد من جهة ، فهب علماء مصر يفندون هذه الآراء » .

ويقول محمد كامل حسين[2] : « فالحياة العلمية كانت مزدهرة فى مصر الفاطمية ، وعن

(١) ظهر الإسلام ١/١٨٨

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٤٩

مصر أخذ كثير من العلماء فى الغرب والشرق ، فلا غرو أن قلنا إن مصر الفاطمية كانت بدءاً للزعامة المصرية للأقطار الإسلامية».

وكان من أسباب ازدهار العلم والأدب والفن تشجيع الخلفاء لرجالها ، وإغداقهم العطايا والمال الكثير ، والسعى لاجتلاب الكتب من كل مكان وبذل المال فى سبيل ذلك . ونقل عن المعز لدين الله الفاطمى أنه قال : « والله ماتلذذت بشيء تلذذى بالعلم والحكمة »[1]

وكان لوفود علماء الشيعة من المشرق إلى مصر أثره كذلك إلى ما أدت اليه رحلات الحج من المغرب ، وحرص الفاطميين على تشجيع الحجاج على الوفود إلى مصر وتأمين طريقهم ، وكان بينهم كثيرون من العلماء واللغويين والأدباء الذين استقر بهم المقام فى بعض بلاد مصر فى الشمال أو الصعيد فى رحلة العودة من الحج .

ومن مظاهر الاهتمام بالعلم ، والعلم العقلى والطبيعى خاصة بناء « دار الحكمة » أو « دار العلم » . وكان الهدف الأول من بنائها نشر المذهب الشيعى ، إلاّ أنها لم تقتصر على الدعوة ، بل درست فيها العلوم الإسلامية والعربية وبعض علوم الأوائل .

وكانت دار الحكمة بناء فاخرا زود بمكتبة عظيمة نقلت إليها بعض كتب مكتبة القصر ، وسمح بالاطلاع فيها لكل راغب . وكان بها مدرسون تدفع من مال الحاكم بأمر الله الخاص ، ومن مال من بعده من الخلفاء .

قال المقريزى[2] : ودار العلم اتخذها الحاكم بأمر الله ، فاستمرت إلى أن أبطلها الأفضل ابن أمير الجيوش . قال المسبحى : « وفى يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة . وجلس فيها الفقهاء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ، ودخل الناس إليها ، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه ، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها . وجلس فيها القرّاء والمنجمون ، وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت ، وعلقت على جميع أبوابها وحجراتها الستور ، وأقيم قوّامٌ وخُدّامٌ وفراشون وغيرهم وُسمُّوا بخدمتها . وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر الآداب والعلم بالخطوط المنسوبة ... وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم من يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها ، فكان ذلك من المحاسن المأثورة التى لم يسمع بمثلها من اجراء

---

(١) المجالس والمسايرات للقاضى النعمان ١/٦١-

(٢) الخطط ١/٤٥٨

الرزق السنىّ لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره . وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجُعل فيها مايحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر » .

وقد أغلقت دار الحكمة أيام الأفضل خشية الفتنة الدينية ثم أعاد الآمر فتحها[1] .

الجامع الأزهر

ومن آثارهم العلمية الخالدة الجامع الأزهر الذى بناه جوهر الصقلى القائد بتوجيه من المعز لدين الله الفاطمى ليكون مقراً للعلم الفاطمى وتربية الدعاة وتلقينهم أصول دعوتهم . وليقوم فى هذا المجال بما يقوم به الجامع أو المسجد فى الحضارة الاسلامية من كونه مدرسة ، ومكاناً لجلوس الفقهاء بين تلاميذهم .

وتطور دور الأزهر فأصبح جامعة اسلامية كبرى خرجت فى هذه العصور والعصور التالية كثيرا من علماء المسلمين فى مختلف فروع العلم والمعرفة الاسلامية .

ومن آثارهم العلمية المكتبة الكبرى بالقصر

وقد طبقت شهرتها الآفاق مما جمعت من نادر الكتب فى كل فن وعلم ، ومن النسخ الثمينة التى يعز الحصول عليها . وكان الفاطميون يحرصون على اقتنائها ويدفعون فيها من المال كل غال ولايبخلون بشىء منه على تحصيل ماعزّ وعلا قدره من الكتب .

وكانت هذه المكتبة تحتل أربعين حجرة من القصر الكبير الشرقى . ويذكر أن عدد مقتنياتها من الكتب بلغ ستمائة ألف ومليون مجلد . وقيل إنه بلغ مليونين تمثل مائة الف عنوان من الكتب النادرة فى مختلف فروع العلم واللغة والأدب والديانات ، وما وصلت إليه المعرفة فى عصرهم .

وكانت الكتب كلها محفوظة فى صواوين مغلقة عليها قوائم بمحتوياتها ، ويقوم على أمانتها أمين يعمل معه مساعدون ، وناسخون ، وخدم وفراشون رتبت لهم رواتب ، وعين لها ميزانية خاصة لصيانتها ، وإصلاح مايصيبه التلف من أثاثها وفرشها واقتناء مايلزم من الأقلام والأحبار للناسخين .

ومما يذكر من مقتنياتها احتواؤها على ألفين وأربعمائة نسخة من القرآن الكريم مزخرفة وملونة . ومنها ما هو مكتوب بقلم ابن مقلة صاحب الخط الشهير فى تاريخ الخط

---

(١) راجع فى ذلك المقريزى فى الخطط ١/٤٥٩

الإسلامى ، وبأقلام غيره من مشاهير الخطاطين .

كذلك وجد بالمكتبة ثلاثون نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدى منها نسخة بخط يده . وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ، منها واحدة بخط يده كذلك .

واشتملت على مائة نسخة من كتاب جمهرة اللغة لابن دريد .

واعتاد بعض الخلفاء أن يرتادوا مكتبة القصر للجلوس بها بعض الوقت والقراءة أو الوقوف على بعض نسخ القرآن الكريم ، والاطلاع على كل نادر تحتويه وقد يمر الخليفة على أقسامها متفقدا ، وقبل مغادرتها يمنح أمينها منحة سخية قد تبلغ عشرين دينارا وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت .

وعلى قدر حرص الخلفاء على تلك المكتبة والعناية بها إلّا أنها مع ذلك لم تسلم من العبث والنهب فى أوقات الفوضى ، وضعف الخلفاء .

فقد يهجم عليها بعض الجند فيستولون على ماتطوله أيديهم من نفائسها فيبيعونه بالأسواق بأبخس الأثمان لجهلهم وعدم معرفتهم بما لها من قيمة . وبلغ بهم الاستهتار بالكتب والعبث أن جعلوا من جلودها خفافا لنعالهم .

لقد بدا العصر الفاطمى بين عصور الفكر الإسلامى ظاهرةً بينة بمعالمها البارزة . وساعدت عوامل أشرنا إليها على هذا التغير فى ملامح الفكر الإسلامى السائدة من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه .

ولما كان علماء الاجتماع والحضارة يؤكدون على أن هناك ثلاثة عوامل فعالة تؤثر تأثير مباشرا على السلوك الانسانى والتفكير الانسانى جميعا هى الخوف والجنس والجوع فإن الإنسان العربى المسلم فى هذه المنطقة قد خضع لهذه العوامل بعنف .

فأما الخوف ، فلأن المنطقة اجتاحتها مجموعة من الأحداث والصراعات أودت بالآلاف وكانت الهجمة الصليبية فى القرن الخامس والمذبحة التى وقعت للمسلمين فى بيت المقدس أثرها المدمر فى نفوس المسلمين من الخوف على الإسلام والمسلمين ، كذلك الكوارث والنكبات المتعاقبة من الطواعين ، وشح الأقوات ، مما جعل خيال الموت يخيم على الناس فى كل مكان ألبسهم لباس الخوف والجوع .

وأما الجنس فإن الإسراف فيه واتخاذ السند الدينى مبررا لاقتناء الجوارى والتزيد فى ذلك وتعدى هذا إلى اقتناء الغلمان أدى إلى كثرة هذه العناصر التى تتخذ للمتعة الجنسية فى

بيوت الناس ، وشاع الجنس فى البيت الإسلامى حتى أصبح جزءاً هاما من حياة الناس . بدت ظواهره واضحة فى الأدب ، وأدى هذا كله الى أن بعض العادات والأخلاق المتصلة به وظلت من القيم الثابتة فى المجتمع الاسلامى اخذت فى التحلل شيئاً فشيئاً على مارأينا فى مجتمع الفاطميين وغيرهم ممن عاصرهم .

ولما كانت التغيرات فى السلوك الإنسانى مقدمة للسلوك الحضارى والثقافى لم يكن غريباً إزاء مانراه من تلك التغيرات الفكرية والدينية والفنية فى حياة هذه الحقبة .

الدعوة الفاطمية والتحول الفكرى

أثرت الدعوة الفاطمية تأثيرا بالغا فى التحول الفكرى الإسلامى طوال القرون الثلاثة التى حكمت فيها الدولة الفاطمية من القرن الرابع وحتى أخريات القرن السادس . ولم يقتصر التأثير على مابثه الدعاة من تعاليم ، وأثاروه من قضايا فكرية فى التراث الإسلامى والمعتقدات والتطبيقات الشرعية التى كانت سائدة فى العالم الإسلامى فى ظل الفكر السنى بمذاهبه الأربعة بل بما أحدثوه كذلك من ردود فعل متعددة تجاوبت أصداؤها فى العالم الاسلامى ، وظهرت على صور مختلفة من التفكير المتحرر بعض الشىء من العقائد المتوارثه ، والتى تعد من القيم الثابتة التى لا تحتمل النقاش ولا الجدل ، فوجد فى هذا القرن من الجرأة على اقتحام تلك المقدسات ومناقشتها فى جو من حرية الرأى مما دعا بعض العلماء المتزمتين إلى أن رموا بالإلحاد والخروج على الدين كل من تجرأ على مس تلك المقدسات أو نظر فيها بفكر حر .

وسنعرض لبعض هذا فى حديثنا عن أبى العلاء المعرى وعصره ، وكيف أن أدبه وفكره كان صدًى ، ومرآة انعكست عليها أفكار العصر ، بل إن فلسفته فى شعره ونثره كان نتيجة تفاعله مع قضايا عصره المثارة آنذاك فى جوانب الدين والحياة .

وكان خلفاء الفاطميين حريصين كل الحرص على التزود بالعلم ، وبث أفكارهم حول الدعوة لدعاتهم من أمثال القاضى النعمان وداعى الدعاة وغيرهما من كبار رجال الدعوة ومفكريها . وكانت المجالس التى يعقدها الخلفاء ودعاتهم فى القصور أو فى غيره مجالاً لعرض أفكارهم وحث الناس على اتباعها بالإقناع .

وكانت هناك مجالس للرجال وأخرى للنساء فى بعض أيام الأسبوع ، يجلس فيها الداعية ليعلم الناس ماتلقاه عن الخليفة أو الإمام من آراء ، وكانت هناك علاقة غريبة بين الإمام

والداعية ، إذ الداعية هو لسان الامام المترجم عن أفكاره .

وكان الداعية أو داعى الدعاة يجلس إلى من يدعوهم من الناس فى هذا المجلس الخاص بالقصر . وكان الذين يجلسون إليه ينقسمون أقساماً ، فمنهم المؤمنون ، والخاصة وعامة الناس والنساء .

وكان الداعى يحضّر مايلقيه على المؤمنين وعلى كل فئة ، كلّ بما يناسبها من القول وينقل المؤمنون عظة الداعى وما كتب فى أوراقه وألقاه إليهم بعد أن يكون عرضه على الخليفة أو الإمام .

وبعد انتهاء الموعظة أو الجلسة يحصّل من المؤمنين قدراً من المال يدفع كلّ عن قدر جاهه وطاقته . ويجتمع من هذا قدر وفير من المال يذهب إلى الخليفة للصرف منه على شئون الدعوة .

وينقل المقريزى صورة لما كان يطرح فى تلك المجالس من قضايا العقيدة والدين . فكان داعى الدعاة يبدأ بقوله :

« إن هذا العلم من دين محمد صلى الله عليه وسلم ماجاء بالتملّى ، ولا بأمانى الرجال ، ولا شهوات الناس ، ولا بما خف على الألسنة وعرفته دهماء العامة ولكنه صعب مستصعب ، وأمر مستقبل ، وعلمٌ خفى غامض ستره الله فى حجبه وعظمٌ شأنه عن ابتذال أسراره ، فهو سر الله المكتوم ، وأمره المستور الذى لايطيق حمله ولاينهض بأعبائه وثقله إلا ملكٌ مقرب ، أو نبى مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى ، فإذا ارتبط المدعو إلى الداعى ، وأنِسَ له نقله إلى غير ذلك .

فمن مسائلهم : ما معنى رمى الجمار ؟ والعدو بين الصفا والمروة ، ولم كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ وما بال الجُنب يغتَسلُ من ماء دافق يسير ، ولا يغتسل من البول النجس الكثير القَذَر ؟ وما بال الله خلق الدنيا فى ستة أيام ؟ أعجز عن خلقها فى ساعة ؟ واحدة ؟ وما معنى الصراط المضروب فى القرآن مثلاً والكاتبين الحافظين ، ومالنا لانراهما ؟ أخاف أن نكابره ونجاحِدَهُ حتى أولى علينا العيون وأقام علينا الشهود ؟ وقيد ذلك فى القرطاس بالكتابة ؟ .

وما تبديل الأرض غير الأرض ؟ وما عذاب جهنم ، وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب .

وما معنى « يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ؟ . وما إبليس ؟ وما الشياطين وما وصفوا به ، وأين مستقرهم وما مقدار قدرهم ؟ وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت وأين مستقرهم ؟

وما سبعة أبواب النار ؟ وما ثمانية أبواب الجنة ؟ وما شجرة الزقوم النابتة فى الجحيم ؟ وما دابة الأرض ، ورءوس الشياطين والشجرة الملعونة فى القرآن ؟ والتين والزيتون ، وما الخنَّس الكُنَّس ؟

وما معنى الم ، والمص ، وما معنى كهيعص ، وحاميم ولم جعلت السماوات سبعاً ، والأرضون سبعاً ، والمثانى من القرآن سبع آيات ؟ ولم فجرت الأرض اثنتى عشرة عينا ؟ ولم جعلت الشهور اثنى عشرة شهراً ؟!

ويسألون المريدين : وما يعمل معكم عمل الكتاب والسنة ، ومعانى الفرائض اللازمة ! فكروا أولا فى أنفسكم ، أين أرواحكم ، وكيف صورها ؟ وأين مستقرها وما أول أمرها والإنسان ما هو ؟ وما حقيقته ؟ ، وما الفرق بين حياته وحياة البهائم ، وفضل مابين البهائم وحياة الحشرات ؟ وما الذى بانت به حياة الحشرات من حياة النبات .

وما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلقت حواء من ضلع آدم . وما معنى قول الفلاسفة : الإنسان عالم صغير ، والعالم إنسان كبير ؟ .

ولم كانت قامة الإنسان منتصبة دون غيره من الحيوانات ، ولم كان فى يديه من الأصابع عشر ، وفى رجليه عشر أصابع ، وفى كل أصبع من أصابع يديه ثلاثة شقوق إلا الإبهام فإن فيه شقين فقط ...

.. وهـكذا ...

هذا لون من الأسئلة المطروحة والتى تتضمن بعض قضايا العقيدة كثر حوله الجدل بين العلماء ، وبين المعتزلة والمتكلمين والفلاسفة ورجال الدين وعلماء القرآن ، والإعجاز وعلماء الملل والنحل . وما طرح على بساط البحث بين علماء المسلمين وبعض الملاحدة من المعترضين والشاكين كابن الراوندى ، وابن النغريلة اليهودى وغيره .

وهذا التساؤل الذى اختلف حوله الناس والأئمة ، وعدّ بعضه من المتشابه الذى لايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ، ويرى الشيعة أن تأويله لايعلمه إلا الله ومن أولاه من لدنه علماً . ويقولون : « إنّا الأئمة فمن ذا يدعو للاعتصام والتمسك بشريعة جدنا محمد غيرنا »

فإنا قلنا : إن الله عز وجل أورثنا شرفه ومجده وفخره ، وأقامنا أئمة للأمة بعده . وأوجب لنا على الناس من الطاعة بعده مثل الذى يجب له . لقد صدقنا بقول الله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، فنحن والله أولو الأمر الذين يعبدُ الله الخلقُ بطاعتنا » .

وما دام العلم من عند الإمام بتأويل تلك الأحاديث والآيات المتشابهات ، والقضايا التى لايدرك حكمتها العلماء ، وإنما يعلمها الأئمة ، ويفضون بعلمها إلى من يختارون من الدعاة ، فإن تأويلها ينتقل إلى الداعى ـــ يقول الداعى مخاطبا سامعيه :[1]

ألا تتفكرون فى حالكم ، وتعتبرون وتعلمون أن الذى خلقكم حكيم غير مجازف ، وأنه فعل جميع ذلك لحكمة ، وله فيها أسرار خفية حتى جمع ماجمع وفرق مافرق ، فكيف يسعكم الإعراض عن هذه الأمور وأنتم تسمعون قول الله عز وجل : (وفى الأرض آيات للموقنين) و (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) و (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون) و (سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

وأى حق عرفه من جحد الديانة ؟ ألا يدلكم هذا على أن الله ـــ جل اسمه ـــ أراد أن يرشدكم إلى بواطن الأمور الخفية وأسرار فيها مكتومة لوتنبهتم لها وعرفتموها لزالت عنكم كل حيرة ، ودحضت كل شبهة ، وظهرت لكم المعارف السنية ، ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم ، التى من جهلها كان حريًا ألا يعلم غيرها . أليس الله تعالى يقول : (ومن كان فى هذه الدنيا أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا)

ونحو ذلك من تأويل القرآن ، وتفسير السنن والأحكام ، وإيراد أبواب من التجويز والتعليل .

فإذا علم الداعى أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه ، وطلب منه الجواب قال حينئذ : لاتعجل . فإن دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله .. ، يعنى من الأئمة والدعاة أولى العلم .

وهكذا يستدرجه حتى يدخل فى عهده ويؤمن له .

ويقول الدكتور مصطفى غالب فى مقدمة المجالس المستنصرية :[2]

---

(١) خطط المقريزى ١/٣٩٣ .

(٢) مجالس مؤيدية ، مائة الأولى ، تحقيق وتقديم الدكتور مصطفى غالب طبع دار الأندلس بيروت

يتبين للباحث فى تاريخ الدعوة الفاطمية ، ومبلغ تأثيرها على المجتمعات الإسلامية خلال قرون عديدة أن هذه الدعوة العقلانية الفكرية التى اعتمد عليها الأئمة الفاطميون كانت ترتكز على نظام دقيق صعب مستصعب .

ليس أجل فى النظام الفاطمى مرتبة وأسمى من مرتبة الداعى الذى أخذ على عاتقه نشر الأفكار الفاطمية وتعميمها فى كافة البلدان والأمصار .

ولقد اعتبر الفاطميون من حيث الأصول والأحكام الدعاة من حدود الدين المفروضة طاعتهم على المؤمنين ، كطاعة الإمام الذى يعتبر المحور الأساسى الذى تدور عليه كل العقائد . وعملاً بقوله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ويذكر الدكتور مصطفى غالب أنهم جعلوا شروط الدعوة مبنية على ثلاثة أمور رئيسية هى : العلم ، التقوى ، السياسة .

ويرون أن العلم على قسمين : علم الظاهر ، وعلم الباطن .

فقالوا إن الظاهر ينقسم إلى خسمة أقسام :

(١) الفقه والأحكام الذى به صلاح الناس ، ومنفعة الدين والدنيا ، وهو عماد الدين والشريعة .

(٢) علم الحديث والأخبار والروايات والأسانيد عن النبى والأئمة ، وبه بقاء الدين والشريعة .

(٣) علم القرآن والتأويل والتفسير ، ومعرفة المحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ ، والأمر والنهى .

(٤) علم الوعظ والتذكير والقصص .

(٥) علم الجدل والكلام الذى به يكون الجهاد فى سبيل الله .

وأما علم الباطن فيتفرع إلى أنواع كثيرة :

منها العلم المحسوس ، وهو معرفة الحدود السفلية ، ومعرفة الأعمال الشرعية وتأويلها والحكمة فيها ، ومعرفة جميع مايتعلق بعمل مرئى أو شخص مدرك .

والثانى هو العلم الموهوم الفكرى . وهو معرفة الحدود العلوية والأعداد ومعرفة الأمثال التى أعيانها ليست بمرئية ولا محسوسة ، وإنما يُدرك ذلك بالوهم والفكر .

والثالث العلم المعقول ، وهو معرفة حقائق الأشياء ومعرفة عللها وابتدائها وانتهائها .

وهذه الشروط الثلاث التى أولها كالرضاع للصبى الذى هو المستجيب كالعلم المحسوس فى تعليمه . والثانى التربية العقلانية والإفادة بالعلم والحكمة . والثالث معرفة الآفاق والأنفس ، والمبدأ والمعاد ، والتوحيد والتجريد والتنزيه .

ولا نريد أن نطيل الحديث فى أسرار العقيدة الفاطمية ، وقولهم بالمثل والمتمثل ، ومصادر هذه العقيدة ، واتجاهاتها ، انما يكفى أن نلم بأطرافها ، ونتعرف على مظاهرها البارزة التى تشير إلى مدى التغير الذى طرحته فى ميدان الفكر الإسلامى على مدى تلك القرون ، مما كان له أثره الواضح والفعّال فى كثير مما تجلّى آنذاك من الظواهر الفكرية والأدبية والفنية .

ونعرض الآن لأهم دعاتهم ، وملامح من فكرهم ونتاجهم العلمى .

ونبدأ الحديث بالداعية الأكبر الذى لزم كثيرا من أئمتهم فى مطلع دولتهم ونعنى به القاضى النعمان بن محمد .

وكان من أهل العلم والفضل . التقى بالمهدى والقائم والمنصور ، واختص بالمعز لدين الله الفاطمى فكان أثيراً عنده ، خاصاً به ، ولازمه حتى جاء المعز إلى مصر فولاه القضاء إلى جانب قاضيها آنذاك أبى طاهر . وظل قائماً بأصول الدعوة حتى توفى أبو طاهر فاستقل بالقضاء إلى جانب الدعوة وكان قد بلغ من العمر مبلغاً ، فناب عنه ابنه .

وعرف النعمان بسعةِ العلم واطلاعه على العلوم الإسلامية ، وإلمامه بأصول الفقه على المذاهب الأربعة وعلوم القرآن واللغة ، كما ألم بعلوم الكلام والمنطق والفلسفة قال صاحب « عيون الأخبار »[1] :

« وله تأليفات كثيرة ، وعلوم مأثورة . وقد أقر المخالفون بفضله ، واتساع علمه ، وإنما ألف ما ألف وجمع ماجمع وصنف ما صنف مما أخذه عن أئمته الذين عاصرهم مما ألقاه إليهم آباؤهم الطاهرون صلوات الله عليهم أجمعين . ولم يؤلف تأليفاً ولا جمع كتاباً حتى عرضه عليهم شيئاً فشيئاً ، فأثبتوا الثابت منه والصحيح ، وقوموا الأود بالتصحيح . ومن بحرهم اغترف وبهم عرف ماعرف ، وبفضلهم فيما ألف وصنف اعترف

---

(١) عيون الأخبار السبع السادس تأليف الداعى المطلق ادريس عماد الدين — طبع دار الأندلس ببيروت بتحقيق الدكتور مصطفى غالب ص ٤١

فمن تأليفه فى الفقه كتاب الإيضاح ، أى إيصاح مااجتمعت عليه الرواة فى الفقه والثابت منها بالأسانيد الصحيحة ، والروايات المتفقة ، وهو مائتان وعشرون جزءاً ، كما ذكر فى قصيدته المنتخبة بقوله :

فكلّمت فى مائتى كتاب ألفْت منها مائتى كتاب تزيد عشرين على الحِسَاب

وكتاب مختصر الإيضاح فى الثابت منه فيما رواه عن الأئمة الطاهرين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وكان ابتداؤه تأليف كتاب الإيضاح على عهد أمير المؤمنين المهدى بالله (عليه السلام) بأمره وعلى ما أراه ، وأصّله ، وبيّنه وفصّله . وكتاب الأخبار فى الفقه ثلاثة عشر جزءاً . وله كتاب فى البيوع فى الفقه أيضاً ، وكتاب الاقتصار فى الفقه . وكتاب الإتفاق والافتراق فيما اختلف فيه الفقهاء ووافق قول أهل البيت عليهم السلام ، أربعون جزءاً . وكتاب المختصر اختصر فيه كتاب الاتفاق والافتراق .

وألف كتاب دعائم الإسلام[1] فى الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن المعز لدين الله أمير المؤمنين عن آل البيت . وذلك أنه حضر النعمان وجماعة من الدعاة عند أمير المؤمنين المعز لدين الله (عليه السلام) فذكروا الأقاويل التى اخترعت والمذاهب والآراء التى افترقت بها فرق الإسلام ، وما اجتمعت ، ومماادّعت أكثرها وابتدعت ، فذكر أمير المؤمنين (عليه السلام) قول جده رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أثبت روايته آباؤه الطاهرون إذ قال صلى الله عليه وسلم : « لتسلكُنَّ سُبل الأمم قبلكم حذو النعل بالنّعل ، والقذّة بالقذّة ، حتى لو دخلوا جحر ضبٌّ لدخلتموه » .

وفى حديث آخر : « لتركبُنَّ سنَنَ من كان قبلكم ذراعاً بذراع ، وباعاً بباع حتى لو سلكوا خِشْرِمَ دُبُرٍ لسلكتموه » ثم ذكر لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا ظهرتْ البدعُ فى أمّتِى فليظْهر العالمُ علمه ، وإلا فعليه لعنةُ الله » .

ونظر المعز (عليه السلام) إلى القاضى النعمان بن محمد رضى الله عنه فقال له : أنت المعنى بذلك فى هذا الأوان يانعمان . ثم أمر بتأليف كتاب الدّعائم ، وأصّل له أصوله وفرّع له فروعه ، وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير مااختلف فيه الرواة وابتدعته ولفّقته من الاختراعات وجمعته . وقال له : إنا قد

(١) دعائم الإسلام للقاضى النعمان حققه آصف فيضى فى جزءين — نشر دار المعارف بمصر

رُوِى لنا عن الصادق عليه السلام أنه قال : بُنى الإسلام على سبع دعائم : الولاية ، وهى أفضلها وبها وبالولىّ يوصل إلى معرفتها ، والطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، وصوم شهر رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام ، والجهاد . وأمره فابتدأ بذكر ولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وتبيين ماخصه به النبى صلى الله عليه وسلم من فضله ، وإنه أولى الأمة بخلافته بعد ذكر الإيمان الذى لايقبل الله عملاً إلا به ولايزكوه إلا من كان من أهله .

وذكر ولاية الأئمة من ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم وعليهم ، وإيجاب الصلاة عليهم والبيان بالتوقيف على الأئمة من ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم . والإمامة لاتكون إلا بالنصّ والتوقيف ومنازل الأئمة عند الله — عز وجل — وبراؤهم محمد من غلافيهم ، وشيئاً من وصاياهم لشيعتهم وأوليائهم وذكر ما أوجبه الله تعالى من مودتهم ، والحض على العلم ، ومَن الذين أوجب الله الأخذ عنهم . ثم ذكر فرائض الإسلام من طهارة وصلاة وزكاة وصوم ، وحج وجهاد ، ومايلى ذلك من ذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، والأثوبة والبيوعات ، والمأكولات ، والمشروبات ، والطلاق والمناكحات والمواريث والشهادات وسائر أبواب الفقه الواجبات .

فأتم القاضى النعمان تأليف هذا الكتاب الموسوم بدعائم الإسلام على ماوصفه له أمير المؤمنين المعز لدين الله ، وأصّله . وكان يعرضه عليه فصلاً فصلاً وبابا باباً .

وله كتاب الاتفاق والافتراق فيما اختف فيه الفقهاء ، ووافق قول أهل البيت ، وهو أربعون جزءاً .

وكتاب أخبار الدولة الفاطمية ، ومناقب بنى هاشم ، ومثالب بنى أمية ومعالم الهدى ، وحدود المعرفة ، وتفسير القرآن الكريم ، والتنبيه على التأويل سبعون جزءاً ، وكتاب « أساس التأويل » ، فيه تأويل الولاية ، وقصص الأنبياء ، وكتاب الصلاة ، وكتب كثيرة أخرى ذكرها صاحب عيون الأخبار[1] .

والقاضى النعمان من أشهر علماء الفاطميين ، والمؤسس النظرى لفقههم فيما ألف من الكتب ، وما قدم فى مجالسه من آراء اعتمد عليها الدعاة الذين جاءوا من بعده وعلماء المذهب الذين أرسوا قواعد الفقه الفاطمى الإسماعيلى .

---

(١) عيون الأخبار ص ٤٣ ومابعدها

يقول الدكتور محمد كامل حسين[1] : « لا أكاد أعرف فى تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية الدولة الفاطمية أسرة كان لها من الأثر فى الحياة العقلية والسياسية ماكان لهاتين الأسرتين أسرة عبد الحكم قبل العصر الطولونى ، وأثناءه ، وأسرة النعمان فى العصر الفاطمى فبنو عبد الحكم كانوا أساتذة المدرسة المالكية فى مصر ، وكذلك كان بنو النعمان أساتذة مدرسة المذهب الفاطمى بمصر .

ويعد القاضى النعمان مؤسس هذه الأسرة ، وأكثر رجالها تأليفا للكتب وتعد مؤلفاته من الأسس التى تبعها من جاء بعده من علماء المذهب » .

والقاضى النعمان هو أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله محمد بن المنصور ابن حبون التميمى المغربى . وقد اختلف فى تاريخ مولده بين عامى ٢٥٩ هـ والعشر الأخير من القرن الثالث .

وعاش مع والده بالقيروان حيث توفى والده بها عام ٣٥١ هـ ودفن هناك واتيح له الاتصال بالمهدى العبيدى مؤسس الدولة . ويبدو أنه كان مالكياً شأن غيره من مسلمى أفريقيا ومصر ، ثم تحول إلى المذهب الفاطمى بعد اتصاله بالمهدى وأبنائه أى منذ سنة ٣١٣ هـ .

يقول الدكتور محمد كامل حسين : « دخل النعمان فى خدمة المهدى واتصل به ، ولاندرى نوع الخدمة التى كان يؤديها ، ولا الصلة التى اتصلها به . ولكن بعد وفاة المهدى اتصل النعمان بالقائم بأمر الله طوال مدة حكمه . وفى أواخر أيام القائم ولى النعمان قضاء مدينة طرابلس الغرب ، أما قبل ولايته قضاء طرابلس فلا نكاد نعرف عنه شيئاً . ولما بنى المنصور مدينة المنصورية كان النعمان أول من ولى قضاءها . بل ولاه المنصور القضاء على سائر مدن إفريقية .

وأصبح النعمان شديد الصلة بالإمام الفاطمى مقربا إليه وظل قاضى قضاة هذه المدن ومن تحته قضاتها إلى أن ولى المعز لدين الله الإمامة فاشتدت صلة النعمان به ، حتى إنه كان يجالسه ويسايره ، وقل يفارقه بعد أن كان مستوحشا منه عقب ولايته » .

وظلت العلاقة بين النعمان والمعز على مارأينا حتى استقر المعز بمصر سنة ٣٦٢ هـ

(١) فى أدب مصر الفاطمية ص ٦٣

فاصطحب معه النعمان وبنيه . وكان النعمان إذ ذاك قاضى الجيش ، ثم ولاه قضاء مصر كما أسلفنا مع القاضى أبى طاهر الذهلى الذى كان قد ولى القضاء فى عهد الإخشيد سنة ٣٤٨ هـ .

وظل كذلك حتى توفى سنة ٣٦٣ هـ .

وكان النعمان يسكن الفسطاط ويغدو منها إلى القاهرة كل يوم .

ومن علماء الفاطميين يعقوب بن كلس الوزير وقد أشرنا إليه مع الوزراء ، ولابأس من أن نعيد ذكره مع علماء الدعوة . فقد كان إلى جانب دوره فى إدارة شئون الدولة فى منصب الوزارة عالماً من أشهر علماء الدعوة الفاطمية ـــ الذين كان لهم أثر قوى فى الدعوة والفكر فى عصرهم .

وكان يعقوب بن كلس يهودياً عراقيا ولد ببغداد ونشأ بها وتعلم ، ورحل منها مع والده فى التجارة إلى الشام ، ثم جاء إلى مصر فى ولاية كافور الإخشيدى فاستطاع بذكائه وكياسته أن يتقرب من كافور ، وبلغ من نفسه مكانة رفيعة فكان كافور يثق به ويكل إليه مهام الأمور . وعرض عليه كافور الإسلام فترك اليهودية وأسلم ، ولزم التعبد ودراسة القرآن وكتب الدين والفقه . واجتهد فى الدرس والتحصيل حتى بلغ فيهما درجة عالية من العلم .

وحنق عليه الوزير أبو جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابه لتعلق كافور به ، وسعى ابن كلس لبلوغ مكانة من كافور قد تضر بمكانة ابن حنزابة فنصب له الحبائل لإخراجه من البلاد وانتهز فرصة وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ ، فطلب يعقوب بن كلس فوجده قد هرب إلى المغرب .

واتصل ابن كلس بالمعز لدين الله ، فقربه إليه ، وكان المعز قد اعتزم دخول مصر ، ولاشك أنه وجدها فرصة للتعرف على أحوالها من ابن كلس .

ولما تم للفاطميين فتح مصر ودخلها المعز سنة ٣٦٢ هـ صحبه يعقوب ، فولاه المعز خراج مصر وجميع وجوه الأموال والحسبة .

واستطاع بحسن تدبيره أن يكسب ثقة المعز ، ويثبت أقدامه فى دولته فولاه المعز النظر فى جميع أموره فى قصره حتى توفى المعز فتولى لابنه العزيز من بعد ماكان تولاه لأبيه وزاد فجعله العزيز بالله وزيرا سنة ٣٦٧ هـ .

وكان بذلك أول وزير فى مصر الفاطمية .

واستطاع ابن كلس إلى جانب توفيقه فيما تولى من المناصب حتى الوزارة أن يبرز ويجلّى فى العلم الإسلامى ، وأصول الدعوة الفاطمية .

وكان يعقوب محباً للعلم والعلماء يغدق عليهم المنح والعطايا ، ولايبخل بالمال على الكتب وقرب الشعراء ووهبهم الهبات الجزلة .

روى ابن خلكان أنه كان يجمع العلماء فى داره ، وكان بها قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب والطب ، ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها .

وكان ينصب كل يوم خوانا لخاصته من أهل العلم والكتاب وخواص أتباعه . فكان من خاصته الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلى مصنف كتاب الأسجاع والتميمى المقدسى الطبيب الذى صنف للوزير كتابا ضخماً فى عدة مجلدات سماه : « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء » .

وبلغ ابن كلس من الفقه الفاطمى درجة مكنته من تأليف الكتب فيه وعقد مجالس التأويل . فقد رتب لنفسه مجلساً فى كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ، وكان يحضر هذا المجلس القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل ، والعدول ، وغيرهم من وجوه الدولة .

قال المقريزى :[1] « وكان يجلس عنده فى كل يوم الأطباء لينظروا فى حال الغلمان ومن يحتاج منهم إلى علاج .. ورتب فى داره العلماء والأدباء يقفون بين يديه ، وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين ، وأرباب الصنائع ، لكل طائفة مكان مفرد . وأجرى على كل واحد منهم من الأرزاق . وقد نصب مجلساً فى داره يحضره كل يوم ثلاثاء الفقهاء والمتكلمون وأهل العلم والجدل والمناظرة بين يديه .

وألف ابن كلّس عدة كتب فى مختلف مجالات العلم ، وبخاصة ماتصل منها بالدين والعقيدة منها : كتاب فى القراءات ، وكتاب فى الأديان ، وكتاب فى آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحها ، ألف فى ألف ورقة .

(١) الخطط ٢/٦

ومنه يبدو اهتمامه بالطب ، ويدل على ذلك حرصه على أن يجمع إليه فى مجلس جماعة منهم يناظرهم ويحادثهم فى مجال هذا العلم .

وكتاب فى الفقه مما سمعه من الإمام المعز لدين الله ، والإمام العزيز بالله

وكتاب مختصر الفقه وهو المعروف بالرسالة الوزيرية .

ولم يبق من هذه الكتب إلا الرسالة الوزيرية فى مختصر الفقه ، وهو الكتاب الذى طلب الإمام الظاهر إلى الناس أن يحفظوه . وشجع على ذلك بترتيب أموال لمن حفظه .

وأسباب فقدان كتب ابن كلّس واضحة ، كتلك الأسباب التى فقدت بها كتب الفاطميين فى مصر ، وهى كثيرة من نهب للمكتبات إلى ماجرى عليها من حريق فى عهد الأيوبيين أتى على البقية الباقية منها .

لكن تسرب بعض تلك الكتب بين أيدى الناس هو الذى حفظ لنا بعض آثارها .

وقد بلغ الوزير ابن كلس فى فقه الفاطمية مبلغاً جعل الظاهر يطلب إلى الناس حفظ مختصره الوزيرى نسبة إلى منصب ابن كلس وزيراً .

بل إن هذا الاهتمام بفقه الوزير كان سابقا على عصر الظاهر إذ يحدثنا المقريزى عن تقدير العزيز بالله نفسه لفقه ابن كلس وما ألفه فيه إذ قال إن العزيز بالله أجرى لجماعة فقهاء كانوا يحضرون مجلس الوزير أرزاقا كل شهر تكفيهم .

وما ذلك إلا لتشجيعهم على تلقى أصول هذا العلم على يديه حتى يعلموه للناس ويحدثنا المقريزى أن الناس كانوا كلفين بكتابه فى الفقه . ودرّس فيه الفقهاء بجامع مصر أى بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

وشجع على تلقى العلم بالجامع الأزهر وهو أول من جعل منه جامعة علمية[1] .

وكان اهتمام ابن كلس بالأدب والشعر مثل اهتمامه بالفقه وعلوم الدين وسنعرض ذلك فى مكانه عند الحديث عن الشعر .

كذلك كان للطب والعلوم الطبيعية مكانة من نفسه .

---

(١) فى أدب مصر الفاطمية ص ٧٩

داعى الدعاة شمس الدين الشيرازى :

ويعد داعى الدعاة المؤيد . والوزير المغربى أخطر رجلين فى السياسة وتدبير الأحداث والانقلابات فى القرن الخامس عشر . وفى عصر المستنصر ، وكان الأول رجل دين ودولة داعياً خطيراً من دعاة الفاطميين . وأصله من شيراز فى بلاد فارس وكان الثانى من رجال السياسة الدهاة، وأصله من العراق ووفد إلى مصر ووزر بها وسنتحدث عنه فى حينه . وقد اشترك الاثنان فى أحداث السباسيرى بالعراق والتى أدت إلى ضم العراق وعاصمة الدولة بغداد لسلطان الفاطميين فترة من الزمن، والدعوة للمستنصر الخليفة الفاطمى على منبر العباسيين .

كان هذا المؤيد إذا من رجال الدعوة الخطرين ، علماً وعملاً .

وهو هبة الله بن أبى عمران موسى بن داود الشيرازى ، ولد بشيراز فى العشر الأخير من القرن الرابع الهجرى ، فى أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهباً لها ، وكان أبوه حجة جزيرة فارس أيام الحاكم بأمر الله ، فنشأ ابنه فى الدعوة ، واحتل مكان والده بعد وفاته ، وكاتب الحاكم ، وأقره على أن يكون حجة فارس ، واستطاع إن يجمع قلوب أتباع الدعوة هناك حوله ، وانضم بفضل نشاطه إلى الدعوة الفاطمية عدد كبير من الأتباع حتى خشى السلطان أبوكاليجار البويهى ــ وهو من الشيعة الإمامية ــ سطوته ونفوذه ، وهم أن يقصيه مرارا عن شيزار ، لولا خشيته من كثرة أتباعه .

واستطاع المؤيد بدهائه أن يجذب انتباه السلطان ، وأن يحمله على الاستماع إليه فى مجالس كان يعقدها للمناظرة بين المؤيد وعلماء المعتزلة والشيعة وأهل السنة ، فكان المؤيد يبرز عليهم ، وشجع ذلك السلطان على أن يقتنع بقوة حجته ، وأن يميل إلى رأيه وعقيدته . وصار المؤيد يجالس السلطان ليلقى عليه شيئا من علوم أهل البيت والفقه الفاطمى من كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان .

وظل أمر المؤيد يقوى فى فارس حتى جهر بالدعوة الفاطمية ، وعلم بذلك الخليفة العباسى ، فأوفد إلى السلطان كاليجار للقبض على المؤيد ، وأحس المؤيد بالخطر من حوله فسارع بالفرار متخفيا إلى مصر ، ودخل القاهرة سنة ٤٣٧ هـ ، وكانت الخلافة قد آلت إلى المستنصر ، ولم يكن بيده الأمر بل كان لأمه وبعض كبار دولته ، يقول معرباً عن ذلك فى سيرته :

« بلغت بشق النفس الباب الطاهر ، مترجحا بين أمل ويأس ، ومتعقباً لملتقى ما يلقانى من طرق إيحاش وإيناس ، فأما الأمل فمن جهة خدمة ما خدم مثلها غيرى ، حدانى حاديها ، ونادانى بالأهل والمرحب مناديها . وأما اليأس فمن حيث علمت أن المقصود شمسٌ توارت بالحجاب ، ووجه نهارٍ ترفع بالسحاب ، وأن المسافة لعلها تقذفنى من الإضاعة فى يم ، وتؤوينى من حيث أرادت غنما إلى غرم ... أدخلونى من باب القاهرة المعزية إلى قصر الخلافة ــ عمرها الله تعالى ــ فاستلمت على جارى العادى فى مثله الأبواب ، ولمحت الثريا ترابا تحت أقدامى إذ ترشفت ذلك الترابْ . وأجلسونى هنيهة لأفيق من غشية الهيبة التى ملأت جوانحى ، لما غَشيَتْ المسَّرةُ بمشاهدة ذلك المقام قلبى وجوارحى . ثم أدخلونى إلى الوزير المعروف بالفلاحى ــ رحمه الله ــ فرأيت شيخاً عليه من الوقار مسحة ، ومن الإنسانية سمة ، فأدنى وقرب ، وأكرم ورَحَّب وخرجت فأخذونى إلى دويرة كانت فرشت لى ، هى من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال لا بالإكثار ولا بالإقلال .. » .

ومضت الأيام بالمؤيد فى مصر ، ولم يسلك سبيله فى الحياة بها على مايروم بل تقلبت الأحوال به ، الإحساس رجالات مصر من المقربين للخليفة بخطر الرجل ودهائه وطموحه لبلوغ مأرب لايرضى منه بغير التقدمة والرئاسة .

وانتهز فرصة اضطراب الأحوال فى بغداد ، وقيام السلاجقة الأتراك وكانوا من أهل السنة بمحاولات للقضاء على البويهيين والسيطرة على الخلافة فى بغداد فأعد العدة للجهاد ضدهم ، والعمل على كسر شوكتهم وأن يحول بينهم وبين مايبتغون من السيطرة على بغداد ، التى كانت مطمع الفاطميين للسيطرة على العالم الإسلامى فى شرقه ومغربه .

ونهض إلى بلاد العراق واتصل ببعض الأمراء ، وبعض أعوانه ومتبعى دعوته ، مستعينا بمن استطاع من ولاة الفاطميين على الشام والجزيرة حتى استمال البساسيرى إليه ومعه رجاله فرحبوا بالعمل باسم الفاطميين ... وكان ماكان من هزيمة البساسيرى لطغرلبك السلجوقى والدعوة للفاطميين على منابر بغداد حينا من الزمن .

وقال المؤرخون إن محاولة الفاطميين استمالة الأعوان للقضاء على الدوة العباسية فى بغداد اقتضت الفاطميين كثيرا من الأموال مما كان عبئاً على خزانة مصر ، وأدى بها إلى الإفلاس وإلى تلك الضائقة الاقتصادية التى عرفت فى عصر المستنصر بالشدة الكبرى .

وعاد المؤيد إلى مصر بعد فشل حركة البساسيرى فى بغداد ، وقضاء طغرلبك عليها فى

حملته الثانية . وتولى بمصر هذه المرة رتبة داعى الدعاة الا أنه لم يستقر فى هذا المنصب طويلا بل عزل عنه وأعيد اليه وتولى الإنشاء إلى غير ذلك حتى انتهى عمره وتولى سنة ٤٧٠ هـ . ودفن بدار العلم بجوار القصر .

ولم تكن مكانة المؤيد العلمية بأقل من مكانته السياسية والدينية ، فقد كان من أكبر علماء مصر فى الفقه الفاطمى ، إلى جانب سعة علمه وثقافته فى شتى العلوم ، مع تضلعه فى علوم اللغة والأدب مما أكسبه أسلوباً جميلاً رصيناً خلاباً تدلّ عليه تلك القطعة التى أوردنا من سيرته .

وقد اتصل المؤيد ببعض كبار علماء عصره وأدبائه وكانت بينه وبينهم محاورات ، وحدثت بينه وبين أبى العلاء المعرى محاورة اعترف فيها بفضله حين وصفه بقوله : « وسيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين مازالت حجته باهرة ، ودولته عالية .. ، ولو ناظر ارسططاليس لجاز أن يفحمه ، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه » .

ونقل ياقوت الحموى أن داعى الدعاة المؤيد لما سمع قولَ أبى العلاء :

غدوت مريضَ العقل والرأى فالقنى ... لتخبرَ أنباءَ العقول الصحائحِ

فبعث إليه المؤيد قائلاً : « أنا ذلك المريض رأياً وعقلاً ، وقد أتيتك مستشفياً فاشفنى » وجرت بينهما مكاتبات كثيرة[1]

وكان المؤيد آنذاك بحلب قبل عودته إلى مصر بعد فتنه البساسيرى .

ومما كتبه داعى الداعاة إلى المعرى :[2]

« الشيخ ـــ احسن الله توفيقه ـــ الناطق بلسان الفضل والأدب ، الذى ترك من عداه صامتاً مشهودٌ له بهذه الفضيلة من كل من هو فوق البسيطة . غير أن الأدب الذى هو جالينوس طبعه ، وعنده مفاتيح غيبه ليس مما يفيده كبير فائدة فى معاشه أو معاده ، سوى الذكر السائر به الركبان مما هو إذا تسامع المذكور به علم أنه له بمكانة الجمال والزينة مادام

(١) راجع ترجمة أبى العلاء فى معجم الأدباء لياقوت الحموى طبع هندية ١٩٠٧/١٩٢٧ ـــ جـ ١٦٢/١ ـــ ٢١٦ وكتاب « تعريف القدماء بأبى العلاء » جمع وتحقيق مصطفى السقا وبعض الأساتذة طبع الهيئة المصرية للكتاب ١٩٤٤ ص ١١٨

(٢) المصدر نفسه ص ١١٩

حياً ، فإذا رمت به يد المنون من ظهر الأرض إلى بطنها فلا بحسن ذكره ينتفع ، ولا بقبحه يستضّر ، وإذا كانت الصورة هذه كان مستحيلاً منه ـــ أيده الله ـــ مع وفور عقله ـــ أن جعل موادّه كلها منصبة إلى إحكام اللغة العربية ، والتقعّر فيها ، واستيفاءِ أقسام ألفاظها ومعانيها ، ووفّر عمره على مالا نتيجة له منها ، وترك نفسه المتوقدةُ نارُ ذكائها خلواً من النظر فى شأن معاده ، وأن يختار من علمه ما هو أنفع ، فيمكث إذا ذهب الزبدُ جفاءً ، من غيره .

فإذا هو ـــ حرسه الله ـــ بمقتضى هذا الحكم مرتو من عذب مشرب هذا العلم ، وإنما ليس يبوح به ، لضربٍ السياسة . والدليل على كونه ناظراً لمعاده سلوكه سبيل شظف العيش والتزهد ، وعدوله عن الملاذ من المأكول والمشروب والملبوس ، وتعففه عن أن يجعل من جوفه للحيوان مدفنا ، أن أن يذوق من دَرّها لبنا ، أن أن يستطعم من طعام استكدّت عليه فى حرقه وإنشائه . وهذه طريقة من يعتقد أنه إذا آلمها جُوزى بآلمِها ..وهذا غايةٌ فى الزهد .

لما رأيتُ ذلك ، وسمعت داعية البيت الذى يعزى إليه ، وهو :

غدوْتَ مريض الدين والعقل فالْقنى   لتعلمَ أنباءَ الأمور الصحائح

شددت إليه راحلة العليل فى دينه وعقلِه ، إلى الصحيح الذى ينبئنى أنباء الأمور الصحائح . وأنا أول ملبٍّ لدعوته ، معترفٍ بخبرته ، وهو حقيقٌ ألا يوطئنى العشواء ، فيسلك بى فى المجاهِل ولايعتمد فيما يورده تلبيس الحق بالباطل .

وأول سؤالى عن أمرٍ خفيف ، فإن استنشقْتُ نسيم الشفاءِ سقتُ السؤال إلى المهم أسأله عن العلة فى تحريمه على نفسه اللحم واللبن ، وكلِّ مايصدرُ إلى الوجودِ من منافع الحيوان ، فأقول : أليس النباتُ موضوعاً للحيوان يمتار فيه ، وبوجوده وجوده ، وبقوةٍ فى الحيوان حسّاسة مااستولى على الانتفاع بالنبات ؟ ولو لم يكن الحيوان لكان موضوع النبات باطلاً لا معنى له ، وعلى هذه القضية ، فإن القوة الإنسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات لرجحانها عليه بالنطق والعقل ، فهى مسخَّرةٌ له على أنواعٍ من التسخير . ولولا ذلك لكان موضوع الحيوان باطلاً .

فتجافى الشيخ ـــ وفقه الله ـــ عن الانتفاع بما هو موضوعٌ له ، مخلوقٌ لأجله إبطالٌ لتركيب الخلقة . ثم امتناعه عن أكل الحيوان ليس يخلو القصد به من أحد أمرين . إما أنه

أخذه رأفة بها ، فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغي له أن يكون أرأف بها من خالقها .

فإذا ادَّعى أن تحليلها وتحريمها إنما كان من بعض البشر ــ يعنى به أصحاب الشرائع ــ وأن الله لم يبح إراقة دم حيوان وأكله ، كان الدليل على بطلان قوله وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التى خلقها الله على صبغةٍ لاتصلحُ إلا لنهش اللحوم وفسخِها ، وتمزيق الحيوانات وأكلها . وإذا كان هذا الشكل قائم العين في الفطرة كان جنس البشر وسيع العُذْر فى أكل اللحوم ، وكان من أحلَّ لهم ذلك محقاً .

والثانى : أنه يرى سفك دماءِ الحيوان خارجاً عن أوضاع الحكمة ، وذلك اعتراض منه على خالقه الذى أوجده .

وإذا أنعم الشيخ وساق إليَّ حجَّةً أعتمدها رجوتُ كشف المرض الذى وقع اعترافى به » .

وكان جواب أبى العلاء إليه :[1]

قال العبد الضعيف العاجز أحمد بن عبد الله بن سليمان :

« أولُ ما ابدأ به انى أعدُّ سيدنا الرئيس الأجلَّ المؤيدَ فى الدين ــ أطال الله بقاءه ــ ممن ورث حكمة الأنبياء ، وأعدُّ نفسى الخاطئة من الأغبياء . وهو بكتابه إليَّ متواضع . ومن أنا حتى يكتب مثله إلى مثلى ؟! .. مثله فى ذلك مثل الثريا كتبت إلى الثرى .. وقد علم الله أنَّ سمعى ثقيل وبصرى عن الأبصار نقيل[2] . قضىَ عليَّ وأنا ابن أربع أن لا أفرقِ بين البازل والرُّبَع . ثم توالت محنى فأشبه شخصى العود المنحنى .... »

ثم قال : وأما قول العبد الضعيف العاجز :

غدوتَ مريض العقل والدين فالقـنى

فإنما خاطب به من هو فى غمرةَ الجهل ، لا من هو للرياسة علمّ وأصْل ، وقد علم أن الحيوان كله حسّاسٌ يقع به الألم . وقد سمع العبد الضعيف شيئاً من اختلاف القدماء . وأول مايبدأ به : لو أن قائلاً من البشر قال : إذا بنينا القضية المركبة من للسند والمسند إليه

---

(١) ارشاد الأديب وتعريف القدماء ص ١٢١

(٢) نقيل : أى غريب عن الإبصار كليل .

ولها واسطتان إحداهما نافية والأخرى استثنائية ، فقلنا الله لايفعل إلا الخير ، فهذه القضية كاذبة أم صادقة ؟ ، فإن قيل : إنها صادقة ، فقد رأينا الشرور غالبة ، فعلمنا أن ذلك أمر خفى ، ولم يزل من يُنسب إلى الذين يرغب فى هجران اللحوم ، لأنها لم يوصل إليها إلا بإيلام حيوان ، يفر منه فى كل أوان ، وإن الضائنة تكون فى محل القوم وهى حامل ، فإذا وضعت وبلغ ولدها شهراً أو نحوه اعتبطوه فأكلوه ، ورغبوا فى اللبن ، وباتت أمه ثاغية ، لو تقدر سعت له باغية . وقد تردد فى كلام العرب مايلحق الوحشية من الوجد ، والناقة إذا فقدت الفصيل فقال قائلهم :

فما وجَدتْ كوجْدى أمُ سَقْبٍ أضلَّتْهُ فرجَّعتِ الحنينا

وللسائل أن يقول : إن كان الخير لايريد ربُّنا سواه ، فالشرُّ لايخلو من أحد أمرين : إما أن يكون قد علم به أولاً ، فإن كان عالماً به فلا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون مريداً له أو لا ، فإن كان مريداً له فكأنه الفاعل ، كما أن القائل يقول : قطع الأمير يد السارق وإن لم يباشر ذلك بنفسه ، وإن كان غير مريد فقد جاز عليه مالايجوز على أمير مثله فى الأرض ، إنه إذا فُعل فى ولايته شىءٌ لايرضاه أنكره وأمر بزواله . هذه عقدةٌ قد اجتهد المتكلمون فى انحلالها فأعوزهم .

وقد ذكرت الأنبياءُ أن البارىء ــ جلّت عظمته ــ رءوفٌ رحيم ، ولو رأف ببنى آدم وجب أن يرأف بغيرهم من أصناف الحيوان الذى يجد الألم بأدنى شىءٍ ، وقد عُلمَ أن الوحش الراتعة يبكر إليها الفارسُ فيطعنُ العَيْرَ أو الأتان وهنَّ ماأسدين إليه ذنبا ، ولأىّ حال استوجب من يفعل بها هذا الرأفة ، وهى لم تشرب من المآثم بذَنُوب ، ولم تجْن مايُكتبُ من الذُّنوب ، وقد رأيت الجيشين المتنسب كلُّ واحدٍ منهما الى الشرع المنفرد يلتقيان ، وكلاهما فى مدد ، ويُقتلُ بينهما آلاف عدد ، فهذا محسوبٌ من أىّ الوجهين ، فليس عند النظر بهيِّن .

فلما بلغَ العبدَ الضعيفَ العاجزَ اختلافُ الأقوال ، وبلغ ثلاثين عاماً سألَ ربَّه إنعاماً ورزقه صومَ الدهر ، فلم يُفطِرْ فى السَّنةِ ولا الشَّرْ إلا العيدين ، وصبر على توالى الجديدَين وظنَّ اقتناعه بالنبايت يثبتُ له جميل العافية ، وقد علم سيدنا الرئيسُ الأجلُّ المؤيَّدُ فى الدين ولاريب ، أنه قد نظر فى الكتب المتقدمة ، وماحُكى عن جالينوس وغيره من اعتقاد يدلُّ

على الخبرة . وإذا قيل إن البارئ رءوفٌ رحيم ، فلم سلَّط الأسد على افتراس نسمةٍ إنسيَّة ، ليستْ بالمفسدةِ ولا القسيَّةْ ، وكم مات بلدغ الحيَّاتِ جماعةٌ مشهورة ، وسُلِّطَ على الطير الراضية بلقط الحبَّةِ البازى والصقر . وإنَّ القطاةَ لتدعُ فراخها ظِماء ، وتبتكرُ لتردَ ماءً ، تحمله إليها فى حوصلتها ، فيصادفِها دونهنَّ أجدَلُ ، فيأكلها فيهلك فراخُها عطشا » .

وذكر أشياء من هذا الباب ثم قال : « وأعوذ بالله وأتبرأ من قول الكافر :

ألمت بالتحيةِ أمُّ بكرٍ ... فحيُّوا أمَّ بكرٍ بالسَّلام
وَكائِن بالطَوىّ طوىّ بدرٍ ... من الأحسَابِ والقومِ الكرام
وكائن بالطوىّ طوىّ بدرٍ ... من الشيزى تكَلُّلُ بالسنام
ألا يا أمَّ بكرٍ لا تكُرّى ... علىَّ الكأسَ بعد أخى هشامِ
وبعد أخى أبيه وكانَ قرماً ... من الأقرام شرَّابِ المدام
ألا من مبلغ الرحمنَ عنى ... بأنى تاركٌ شهر الصيَّامِ
إذا ما الرأسُ زايل منكبَيْهِ ... فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدُنا ابنُ كبشة أن سنحيا ... وكيفَ حياةُ أصداءٍ وهَامِ
أيترك أن يردَّ الموت عنّى ... ويحيينى إذا بليت عظامى

ولعن الله القائل ، ويقال إنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

أدنِيَا منّى خليلى ... عبدلاً دونَ الإزارِ
فلقد أيقنتُ أنّى ... غيرُ مبعوثٍ لنارِ
سأروض الناس حتى ... يركبوا دين الحمارِ
وأرى من يطلبُ الـ ... جنةَ يسعى لخسَارِ

وويلٌ لابن رغبان إن كان قال :

هى الأولى وقد نعموا بأخرى ... وتسويفُ الظنونِ من السَّوافِ
فإن يكُ بعض ما قالوه حقاً ... فإنَّ المبتليك هو المعافى

ومما حثَّنى على ترك أكل الحيوان أنَّ الذى لى فى السنة نيفٌ وعشرون ديناراً ، فإذا أخذ خادمى بعض مايجب ، بقى لى مالايعجب ، فاقتصرتُ على فولٍ وبلُسُنْ ، وما لا يعذبُ على الألسن ، فأما الآن فإذا صارَ إلىَّ من يخدمنى كبيرٌ عندى وعنده هيِّن ، فما حظى إلا اليسيرُ المتعيِّن ، ولستُ أريد فى رزقى زيادة ، ولا أوثر لسُقمى عيادة ، والسلام » .
وكان جواب المؤيد داعى الداعاة عليه :

« حُوشيَ الشيخُ أدامَ الله سلامته من أن يكون ممن فَطِنَ من مرض دينه وعقله لعلته ، وأجاب دعوة الداعى منه بالبيت الشائع عنه لينَال شفاء علته جوابا يزيده إلى غلّته غلّة ، إذا يكون كما قال المتنبى :

أَظْمَتْنِى الدُّنيا فلمَّا جِئْتُها مُسْتَسْقِياً مَطرتْ علىَّ مصَائِبا

كان سؤالى له — حرسه الله — فى شىءٍ يختص بنفسه فى هجره مايشُدُّ الجسمَ من اللحم الذى يُنبتُ اللحْم ، فأجاب بما أقول فى جوابه : أهذه أنباءُ الأمور الصحائح ؟ وهل زاد السقيم بدوائه هذا إلا سقَما ، والأعْمى الأصمُّ فى دينه وعقله بما قَالَ إلَّا عَمى وصمماً. على أنَّ جميع ماذكره بنجوة عن سؤالى الأول ومعزلٍ عنه ، ولا مناسبة بينَهُ وبينه .

وأما القولُ بأن اللحومَ لايُوصَلُ إليها إلا بإيلام الحيوان ، فقد سبق الجواب : لايكونَنَّ الشيخُ أرأفَ بها من خالِقها ، فليس يخلو من كونه عادلاً أو جائراً ، فإن كان عادلاً ، فإنه سبحانه يقبضُ أرواحَ الآكِلِ والمأكول جميعاً ، وذلك مُسلَّمٌ له . وإن كان جائراً لم ينبغ أن نرجح على خالقنا بعدلنا وجوره .

وأما قوله : « وللسائل أن يقول : إن كان الخير هو الذى لايريد ربُّنا سواه فالشرُّ لايخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون قد علم به ، أولا ... إلى آخره » فأقول :

قيل إن إنساناً ضاع له مصحفٌ ، فقيل له : إقرأ (والشمس وضحاها) فإنك تجده ، فقال : وهذه السورة أيضاً فيه ! فأقول أيضا : إن هذا أيضا من ذلك ، وجميعه ظلماتٌ ، فأين النور ؟ وإنما قصدنا أن نعرف أنباء الأمور الصحائح كما قاله .

وأما قوله : لما رأى اختلاف الأقوال ، وأيقن بنفادٍ وزوال سأل ربَّه أن يرزقه صوم الدَّهر واقتنع بالنبات ، فما صحَّ لى أن الربَّ الذى سأله هو الذى يريد الخير وحده ، أو الذى يريد الشرَّ وحده ، أو الذى يريدهما جميعا .

والصومُ شرعٌ على أصلٍ من شرْع يأتى به رسولٌ ، والرسول يتعلَّق بمرسل ، وقضيتُنا فى المرسل مشتبهة ، يبعث رسولاً يريد أن يطاع أم لايطاع ؟ فإن كان يريد أن يُطاع فهو مغلوب على إرادته ، لأن من لايطيعه أكثر ، وإن كان يريد أن يطاع فإرساله إياه محالٌ ، وطلبهُ حجةً على الضعفاء ليعذبهم . فإن كان موضوع صومه على هذا ، فلم يفعل شيئاً ، وإن كان على غيره مما هو أجلى وأوضح ، فهو الذى أطلبه .

واما حكايته قول بعض الملحدين ، واستعاذته بالله من أن يكون من المعترضين فى قوله تعالى : (وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمودَ فما أبقى) ... الآيات ، فإن كان البارىء سبحانه خلقهم وهو يعلم أنهم مجرمون ، والتوبة والإنابة يُحرمون ، فكان الأولى به ، وهو الرءوف الرحيم ، ألا يخلقهم ، لئلا يعذبهم . وإن كان لايعلم فهو كأمثالنا . ولايدرى ما يكون منه .

وقول الشيخ بعده : معاذ الله أن نقول ذلك ، بل نسلِّمُ ونتلو الآية (من يَهْدِ الله فهو المهتَدِ ، ومن يُضْلِلْ ، فلن تجدَ له ولياً مرشِدا) . فليس الملحد إذا قال : إن السكرَ حلوٌ والخلَّ حامضٌ ، لا يُقْبَلُ منه لكونه ملحداً ، وقوله يقتضى جوابا ، فإن كان عند الشيخ جوابٌ فهو الذى نبغى ، وإلا فما التسليم فى هذا الموضع إلا التسليمِ للملحد ، لا لشىءٍ غيره .

وأما إنشاده :

ألمــت بالتحـية أم بكــر

وما بعده من الأشعار ، وذمه من قال ولعْنُه ، فمن الذى اتهمه بشىءٍ من ذلك ؟ حاشاه . وما الذى أوجب الإذكار بكفريَّات شعرهم ؟

وأما ختمه الرسالة بقوله : إن الذى حثه على ترك أكل الحيوان أن الذى له فى السنةِ نـيِّـفٌ وعشرون ديناراً يصير الى خادمه معظمها ، ويبقى له أيسرها ، فمحمل مؤونة القَدْرِ الذى يُطعَمُه لو كان ثقيلاً لوجب تَحَمُّلُهُ ، فكيف وهو الخفيف محْمَلهُ ، وقد كاتبتُ مولاىَ تاج الأمراء حرسَ الله عزَّه أن يتقدم بإزاحة العلة فيما هو بُلغَةُ مثلِه من ألذِّ الطعام ، ومراعاته به من الإدرارِ والدوام ، ليتكشَّفَ غاشية هذه الضرورة ،ويجرى أمره فى معيشتِه على أحسن مايكون من الصورة . ثم إن قام من الشيخ نشطَةٌ لجواب ، أعفانى فيه عن قصد الأسجاع ، ولزوم مالايلزم فإنَّ ملتمسى فيه المعانى لا الألفاظ » .

وكان جواب أبى العلاء[1]

سيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين ، عصمة المؤمنين ، هدى الله الأمم بهدايته ، وسلك بهم طريق الخير على يده .

(١) تعريف القدماء ص ١٢٨

قد بدأ المعترف بجهله ، المقرُّ بحيرته ، والداعى إلى الله سبحانه أن يرزقه ماقلَّ من رحمته فى أول ماخاطبه به أن ذكر اعتقاده فى سيدنا الرئيس الأجل المؤيد فى الدين ــ ضوَّأ الله الظُّلَمَ ببصيرته ، وأذهب شكوك الأفئدة برأيه وحكمته ، وما نفسه عليه من الذِلّة والحُقْرِيَّة عنده ، وأنه يحسبها ساكنة فى بعض السَّوام .

وعجبٌ أن مثله يطلب الرُّشد ممن لا رُشْدَ عنده ، فيكون كالمقرِّ الذى هو دائِبٌ فى خدمة ربِّه ليلاً ونهاراً ، يطلبُ الحقيقة من أقْمَر[1] بفلاةٍ ، يردُ الماءَ على الصائد ويصيب قلبه بسهم .

وقد ذكر ــ أيد الله الحق بحياته ــ بيتاً من أبياتٍ على الحاءِ ذكرَ وليُّه ليعلم غيره ماهو عليه من الاجتهاد فى التدين ، وماحيلته فى الآية المنزلة التى هى قوله : (من يهد الله فهو المهتدِ) . وأولها :

غدوتُ مريضَ العقل والدين فالقنى　　لتعلم أنباءَ الأمور الصحائِح
فلا تأكُلَنْ ما أخرجَ الماءُ ظالمَاً　　ولا تبغ قوتاً من غريضِ الذَّبائح

ولا يقدر أحدٌ يدفع أن الحيوان البحرى لايخرج من الماء إلا وهو كاره ، وإذا سئل المعقول عن ذلك ، لم يقبِّح ترك أكله وإن كان حلالاً ، لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ماهو لهم حلالٌ مطلق .

وأبيضَ أماتٍ أرادتْ صريحَه　　لأطفالِها دونَ الغوانى الصرائح

والمرادُ بالأبيض اللبن . ومشهورٌ أن الأم إذا ذُبح ولدُها وَجِدَتْ عليه وجداً عظيما ، وسهرت لذلك ليالى ، وقد أخذ لحمه ، وتوفر على أصحاب أمه ماكان يرضع من لبنها فأىُّ ذنب لمن تحرَّج عن ذبح السليل ، ولم يرغب فى استعمال اللبن ، ولايزعمُ أنه مُحرَّمٌ ، وإنما تركه اجتهاداً فى التعبُّد ، ورحمةً للمذبوح ، رغبةً أن يُجازى عن ذلك بغفران خالق السماوات والأرض ، وإذا قيل إن الله سبحانه يساوى بين عباده فى الأقسام ، فأىُّ شىءٍ أسلفته الذبائح من الخطأ حتى تمنعَ حظَّها من الرأفة والرِّفْق ؟!

فلا تفجعن الطيرَ وهى غوافلٌ　　بما وضَعَتْ فالظُلمُ شرُّ القبائح

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن صيد الليل ، وذلك أحد القولين فى قوله عليه

---

(١) الأقمر : الحمار الوحشى لونه إلى الخضرة ، أو أبيض فيه كدرة

الصلاة والسلام : « أقِرُّ الطير فى وُكُنَاتِها » . وفى الكتاب العزيز : (ياأيُّها الذين آمنوا لاتقتلُوا الصَّيد وأنتم حُرُمٌ ، ومن قتله منكم متعمداً فَجزَاءٌ مثل ماقتَل من النَّعَم) . إلى غيرها من الآى فى المعنى .

فإذا سمع من له أدنى حسٍّ هذا القول فلا لوم عليه إذا طلبَ التقرب إلى ربِّ السماوات والأرضين بأن يجعل صيد الحلّ كصيد الحرم ، وإن كان ذلك ليس بمحظور .

ودعْ ضربَ النحل الذى بكرت به كواسبَ من أزهار نبتٍ فوائح

لمَّا كانت النحلُ تحاربُ الشَّائِر عن العسل بما تقدر عليه ، وتجتهد أن تردَّه عن ذلك ، فلا غرو أن أُعرضَ عن استعماله رغبة فى أن تجعل النحل كغيرها مما يكره : من ذبح الأكيل ، وأخذ ما كان يعيش به لتشربه النساء كى يلذُنَّ غيرها من بنى آدم . وقد وصفت الشعراءُ ذلك ، فقال أبو ذؤيب يصفُ مشتارَ العَسل :

إذا لسعتْه النَّحلُ لم يَرْجُ لسْعَها وخالفَها فى بَيتِ نُوبٍ عَواسِلُ

وروىَ عن علي عليه السلام حكايةٌ معناها : أنه كان له دقيق شعير فى وعاء يختم عليه ، فإذا كان صائما لم يختم على شيءٍ من ذلك الدقيق ، وقد كان عليه السلام يصل إلى غَلَّةٍ كثيرة ، ولكنه كان يتصدق بها ، ويقتنع أشدَّ اقتناع . وروى عن بعض أهل العلم أنه قال فى بعض خطبه إنَّ غلَّته تبلغُ فى السنة خمسين ألف دينار . وهذا يدل على أن الأنبياء والمجتهدين من الأئمة يقصرون نفوسهم ويؤثرون بما يفضل منهم أهل الحاجة .

وقد عدلَ سيدنا الرئيس إلى الإيماء بأن من ترك أكل اللحم ذَميمٌ ، ولو أُخِذَ بهذا المذهب لوجب على الإنسانِ ألاَّ يصلِّى صلاةً إلا ما افترض عليه ، لأن مازاد على ذلك أداه إلى كلفة ، والله تبارك وتعالى لايريد ذلك ، ولوجب أن الذى له مالٌ كثير إذا أخرج عن الذهب رُبع العشر ، لايحسُنُ به أن يزيد على ذلك . وقد حُثَّ الناسُ على النفقات فى غير موضع من الكتاب الأشرف . والعبد الضعيف العاجز قد افتقر إلى مثل ذلك . ولو مثل بحضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يُسأل ولا أن يُجيبَ ؛ لأن أعضاءه متخاذلةٌ ، وقد عجز عن القيام فى الصلاة ، فإنما يصلى قاعداً ، والله المستعان . وكيف له أن يكون يصل إلَّا أن يدبَّ على عكّاز .

(وثم اشتشهد على عجزه بأشعار العرب .)

وإنى لأعجز إن اضطجعت عن القعود ، فربما استعنتُ بإنسان ، فإذا همَّ بإعانتى ؛

وبسط يديه لنهضتي ضربتْ عظامي ، لأنهنَّ عارياتٌ من كسوةٍ كانت عليهن .

وأما استشهاده ببيت أبي الطيب ، فمن استرشد بمثل العبد الضعيف العاجز مثله مثل من طلب فى القتادة ثمر النخلة ، وإنما حملَ سائله على ذلك حسنُ الظن الذى هو دليلٌ على كرم الطبع ، وشرفِ النفس ، وطهارة المولد وخالص الخيم .

وأما ماذكره من المكاتبة فى توسيع الرزق عليّ ، فدلَّ على إفضال ورثه عن أبٍ فأب ، وجدٌّ فى إثر جد حتى يصل النسبُ إلى التراب ، فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبةٌ فى التوسع ومعاودة الأطعمة وتركها صار له طبعاً ثانيا ، وإنه ماأكل شيئاً من حيوان خمساً وأربعين سنة :

والشيخ لايترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

وقد عُلم أن السيد الأجلَّ ، تاجَ الأمراء ، فخرِ الملك ، عمدة الإمامة وعدَّة الدَّولة ومجدها ، ذا الفخرين ، نَصيبُ أولادِ سامٍ وحامٍ ويافث . ودَّ العبد الضعيف العاجزُ لو أن قلعةَ حلب ، وجميع جبال الشام جعلها الله ذهبا لينفقه تاج الأمراء نصير الدولةِ النبوية ، على إمامها السلام ، وكذلك على الأئمة الطاهرين من آبائه من غيرِ أن يصير إلى العبد الضعيف من ذلك قيراط .

وهو يستحي من حضرةِ تاج الأمراء أن ينظر اليه بعين من رغب فى العاجلة بعد ماذهب وهو رضى أن يلقى الله ، جلَّت قدرته ، وهو لايُطالبُ إلا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سعد .

(ثم اعتذر عن السجع بأخبار أوردها ، واحتجاجات ذكرها)

وسيدنا الرئيس الأجل ، المؤيد فى الدين ، لازالت حججه باهرة ، ودولته عالية كما قال ثعلبة بنُ صُعَير :

ولَرُبَّ قوم ظالمين ذوى شذًا تغلى صدورُهم بهترٍ هاتر
للهِ ظأرتُهم على ماساءهم وخسأت باطنهم غلى بحقٍّ ظاهر

ولو ناظر أرسطاليس لجازَ أن يُفحمه ، أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه ، والله يجمِّل بحياته الشريعة ، وينصر بحججه الملَّة ، وحسبى الله ونعم الوكيل .

وأجاب داعي الدعاة بقـوله :

ما فاتحت الشيخ ــ أحسن الله توفيقه ــ بالقول إلا مفاتحة متناكر عليه فيه . مؤثر أن يخفى من أين جاء السؤال ، فيكون الجواب عنه باسترسال ، ورفض حشمة وحذف تكلف للخطاب « بسيدنا » و « الرئيس » ، ومايجرى هذا المجرى اذ كان حكم مايتجارى فيه موجبا أن لايتخلله شيءٌ من زخارف الدنيا ، ولأننى أعتقد أن سيدى بالحقيقة من تستفِل دون يده يداى أخذاً منه للدنيا ، أو تمتاز نفسى من نفسه استفادة من معالم الأخرى . فما أدرى كيف انعكست الحال حتى صار الشيخ ــ أدام الله تأييده ــ يُخاطبنى بسيدنا والرئيس ولست مفضلاً عليه فى دنيا ولا دين ، بل شادٌ راحلتى إليه ، لاستفادةٍ إن وردت موردها أو صادفت نهلاً أو علاً منها ، قابلتها بالشكر لنعمته ، والإسجال على نفسى بأستاذيته .

وبعد فإنى أعلمه ــ أدام الله سلامته ــ أنى شققت جيب الأرض من أقصى ديارى إلى مصر وشاهدت الناسَ بين رجلين إما منتحلاً لشريعة صبًا إليها ولهج بها إلى الحدّ الذى إن قيل له من أخبار شرعه إن فيلاً طارَ أو جملاً باضَ ، لما قابله إلا بالقبولِ والتصديق ، ولكانَ يُكفِّرُ من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه .

والعقل عند من هذه سبيله فى مهواةٍ وفى مضيعة ، فليس يكاد ينبعثُ لأن يعلمَ أن هذه الشريعة التى هو منتحلها لم يُطَوِّق طوقَها ولم يُسوِّرْ سِوارَها إلا بعد لمُوع نورِ العقل منه ، فكيف يصحُّ توليته أولاً وعزله آخراً ؟ . أو منتحلاً للعقل يقول إنه حجة للهِ تعالى على عباده . مبطلاً لجميع ماللناس فيه ، مستحقاً بأوضاع الشرائع ، معترفاً مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها لكونها مَقْمَعَةً للجاهلين ، ولجاماً على رؤوس المجرمين المجدّفين ، لا على أنها ذخيرةٌ للعُقبى ، أو منجاة فى الدار الأخرى .

فلما رمت بى المرامى إلى الشام ، سمعتُ أن الشيخ وفقه الله ــ بفضلٍ فى الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويلُ ، ووضح به البرهانُ والدليل . ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفى أمره مبلبلين ، فكلٌ يذهبُ فيه مذهبا .

وحضرتُ مجلساً جليلاً أجرىَ فيه ذكره ، فقال الحاضرون فيه غثاً وسمينا ، فحفظته فى الغيب ، وقلتُ إن المعلوم من صلابته فى زهده يحميه من الظِّنَّةِ والريب . وقام لى نفسى أن عنده من حقائق دين الله سراً ، قد أسبل عليه من التقيَّةِ سِتْرا ، وأمراً يمَيّز به عن قوم يكفِّرَ

بعضهم بعضا .

ولمَّا سمعتُ البيت : « غدَوتَ مَريض العقل » توثَّقتُ من خَلدَي فيما حدَّثتْ عُقوده ، وتأكَّدت عهودُه . وقلتُ : إن لساناً يستطيع بمثل هذه الدَّعوى نطقاً . ويفتق من هذا الفخر العظيم رتْقا ، للسانٌ صامتٌ عنده كُلّ ناطق ، من ذروة جبلٍ من العلم شَاهِق . فقصدتُه قصدَ موسى للطُّور ، أقتبس منه ناراً ، وأحاولُ أن أرفَعَ بالفخر منارا لمعرفة مايتخلف عن معرفته المتخلفون ، فأدليتُ دلوى بالمسألة الخفيفة التى سألت عنها ، ترقياً من دونٍ إلى فوق ، وتدرُّجاً من صغير إلى كبير ، فكان جوابه أنه يصغر عن أن يكون للاسترشاد محلاً ، فقلتُ هذه زيادةٌ فى فضله ، ومايجوزُ صدور مثله عن مثله . ثم انتهى إلى الإحالة على كون الناس ممن تقدم أو تأخرَ فى وادى الحيرة تائهين وفى أذيالها متعثرين ، فمن قائلٍ يقول : إنَّ الخيرَ والشرَّ من عند الله ، ومجيبٍ يجيبهُ : هل كان ماكان يستعيذ منه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من وعثاءِ السفر وكل مستعاذٍ منه خيراً أو شراً ؟ . فإن كان خيراً فالاستعاذة منه كذلك فضول وزيادةٌ فى المعنى .

وسؤال من يسأل : هل كان سمُّ الحسن وقتْل الحسين عليهما السلام خيراً أو شراً ؟ فإن كان خيراً فاللعنة على القاتل من أى جهة وإن كان شراً والله مريده زال اللوم عن القاتل . وقائل يقول : إن الخير من الله والشرَّ من غيره ، ومجيب يجيب بالجواب الذى يقطع به الأسباب وغير ذلك مما أطال به الخطاب من أشعار الملاحدة وأقوالهم .

فكان جوابى — أدام الله سلامته — أننى من هؤلاء الذين ذكرتهم تبَريتُ إليك وتطاوحتُ عليك ، وإن كلامهم عندى قبل أن علته عليل ، وهو على مسامع القبول منى ثقيل ، فافتح لى إلى ماعندك باباً ، وافسح لى من لدنك جَنابا ، فلم يفعل .

ثم خاطبته على امتناعه من أكل اللحوم ، فاحتج بأنه متحرِّجٌ من قصدها — أعنى البهائم — بالمضرة والإيلام ، متخففاً عنها لهذه الجهة ، فقطعت لسان حجته بعد تناهيها وقلت : إذا كان الله تعالى سلَّط بعضها لتأكل بعضاً ، وهو أعرف بوجوه الحكمة وأرأف بالخليقة ، فلا يكن أن أرأف بها من ربِّها ، ولا أعدل فيها من خالِقها . ثم عدلَ إلى قصور يد الاستطاعة دون ذلك ، إذ كان القدر الذى هو له فى السنة منصرفاً إلى من يتولى خدمته أكثره ، وخالصاً له أقله ، فقطعتُ الحجة فى هذا الباب أيضا وعيَّنتُ له على جهةٍ كريمةٍ من الذين لايتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى مايقوم بقدر كفايته من أطيب مايأكلون ، وأزكى مافى

البيوت يذخرون . فتجافت نفسه — وقاها الله السوء — عن هذا الباب أيضا ، وكتب فى الجواب الثانى بأنه لا يؤثر ذلك ولا يرغب فيه ، ولايخرق عادته المستمرة فى الترك ، وابتدأ يقول : إن طلبت الرشد ممن لارشد عنده ، وان البيت الذى قاله مما تعلقتُ به وجعلته محجّة إلى استقراء طريقته ومذهبه إنما أراد الإعلام باجتهاده فى التدين ، وما حيلته فى الآية المنزلة : « من يهد الله فهو المهتدِ ، ومن يُضللْ فلن تجد له وليًّا مرشدا » . فجمع بين المتضادين فى كلمةٍ واحدة . إنه إن كانت الآية حقاً كان الاجتهادُ باطلا . وقال : إن لله سبحانه أسراراً لايقف عليها إلا الأولياء ، فنحن على ذلك السرّ ندور ، وعلى باب من هو عنده نطوف . فإن قلنا إنه — حرسه الله — من أصحابه بدعوى صحته فى دينه وعقله ، ومرض الناس على موجب قوله . قال : لارشد عندى . فنظمه فى هذا المعنى يناقض نثره ، ونثره يخالف نظمه ، فكيف الحيلةُ ؟ . ثم قال إن البيت المقول :

غدوت مريض العقل والدين فألقنى   لتعلم أنباء الأمور الصحائح

يؤدى معناه البيت الثانى :

فلا تأكلن ما أخرج الماءُ ظالماً   ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح

فكأن مرض الدين والعقل من جهة أكل اللحوم وشرب الألبان وتناول العسل ، فمن ترك هذه المطاعم كان صحيحاً دينه وعقله . وهو يعلم أن مصحة الأديان والعقول لاتقوم بذلك . ولايجوز أن يكون هذاالبيت الثانى ناسخاً لحكم الأول ، فيكون محصول دعواه فى فقر الناس إلى أن يصح دينهم وعقلهم هو أن يقول لهم : لاتأكلوا اللحم واللبن .

وأما قوله : إن الحيوان البحرى كاره أن يخُرج إلى البرّ ، وأنه ليس يقبح فى العقول ترك آكله وإن كان حلالاً ، لأن المتدينين لم يزالوا يتركون مالهم طلقٌ ، فما من حيوانٍ بحرىٍّ ولا برىّ هو أجل من هذا الإنسان الحى العاقل ، وهو كاره للموت فيموت ، وكارهٌ لأن يأكله شيء ، والدود يأكله فى قبره . فإن كان ذلك صادراً عن موضع حكمة كان ماذكره من الحيوان البرىّ والبحرى جارياً فى مضمار هذا مثلاً بمثل ، وإن كان معدولا به عن وجه الحكمة كان محالاً أن يكون صانعى سفيها ، وأكونَ — وأنا صنيعه — حكيما .

وأما قوله ان النبى — صلى الله عليه وسلم — صلَى إلى أن تقرحت قدماه ، فقيل له فيه فقال : « أفلا أحبُّ أن أكون عبداً شكوراً » فما هذا مما نحن عليه فى شيء . والإنسان له أن يصلى ماشاء من الصلوات فى الأوقات التى تجوز فيها الصلاة ، على ألاّ يزيد فى

الفرائض ولاينقص منها . وهذا الكلامُ شرعىٌّ . وكان القضيةُ للتكلم على العقليات .

وأما قوله : إنه عليه الصلاة والسلام حرَّم صيد الحرم ، وإن لغيره أن يحرّم صيد الحلّ تقرباً إلى الله سبحانه — فليس لأحدٍ أن يحلل أو يحرّم غيره .

وأما قوله : إن علياً عليه السلام لما قدم إليه الخبيص سأل : هل أكل النبى صلى الله عليه وسلم منه ؟ فلما قالوا : لا ، رفعه ولم يأكله — فهذه الحجة عليه لا له . فإن الناس مجمعون على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يفارق أكل اللحم ، وهو يهجره دهره . وذلك بالضد سواء . ولو أنه — حرسه الله — لم يستظهر علىٌّ بالشريعة ولم يتجاوز قضية العقل ، لصنته عن هذا الجواب الذى عسى أن يشغل سرّه ويعزّ علىّ ذلك .

وأما ماشكاه من ضعفه وقصور حركته وأنه لم يبق فيه بقيةٌ لأن يُسأل ولا أن يجيب ، فما هو — حرسه الله — على علاته من الضعف والقوة إلا من محاسن الزمان ، وممن سارت بذكر فضله الركبان ، إلا أنه على عدوان الدهر عليه عَدا على نفسه ، بحرمانها ملاذ دنياها ، فإن وثقت نفسه بملاذ تعتاض عنها ، مما هو خير وأبقى منها ، فما خسرت صفقته ، وقام مصداق قوله فى البيت المقدم ذكره ، وإن كان يوسم بميسم الشحّ بمنع المنتجعين ، وردّ السائلين ، وإن كان شقَّ على نفسه من غير بصيرة كما يدّعيه الآن ، خوضاً مع الخائضين وتحيراً مع أمثالنا من المتحيِّرين فقد أضاعها وجنى عليها ، وادعى فى البيت المقدم ذكره مالابرهان له . والغرض فى السؤال والجواب الفائدة ، وإذا عُدمت فقد خفف الله عنه أن يتكلف جوابا .

وأما الأسجاع ومسألتى التخلّى عنها ، فما كانت إلا شُحاً بالمعانى أن تضلَّ بتتبعها ولأننى إذا تتبعت فضله ، بصنعاته فى الأدب والشعر ، وجدت فى أرضه مراغما كثيراً وسعةً . ومن أين لى أن أظهر على مكنون جواهر علوم دينه ، كظهوره على مصنفات أدبه وشعره ! .

وقبلُ وبعدُ فأنا اعتذر عن سرّ له — أدام الله حراسته — أذعْتُـه ، وزمانٍ منه بالقراءة والإجابة شَغلْتهُ ، لأننى من حيث ما نفعتُه ضررتُه .

والله تعالى يعلمُ أنى ماقصدت به غير الاستفادة من علمه ، والاغتراف من بحره . والسلام » .

وقد حرصنا على إيراد هذا الحوار الفكرى بين عالمين جليلين وأديبين عظيمين هما من أعلام العصر أوفرها قدراً وأجلها شموخاً ، لنتبين من خلال الحوار أشياء كثيرة نتعلمها ، أولها هذا الأدب فى الحوار بين رأيين مختلفين ، لايمسُّ أحدهما ماللآخر من مكانة رفيعة فى موقعه وعلمه ويكون الموضوع هو القطب الذى يدور حوله الحوار .

ونلاحظ أشياء كثيرة فى الحوار ينبغى أن نفطن إليها ، منها ما أورده مؤيد الدين من وجود مذاهب بين علماء العصر وعلماء مصر خاصة ، وأن هذه المذاهب فى الدين تتجاذبها تيارات التصديق بالعقل وتحكيمه فى كل أمر من أمور الدين أو الطرف الآخر الذى يأخذ بما قال السلف والتصديق به حتى لو كان خارجاً عن العقل أو العرف كما قال حتى لو قالوا إن الفيل يطير لصدقوه ...

وهذا التطرف فى الاتجاهين من مظاهر الحياة الفكرية فى العصر . وإن حاول الفاطميون ودعاتهم كما رأينا أن يمزجوا بين الدين ومقتضيات العقل والعلم بحيث لايبدو التناقض بينهما .

وأما فى الأمور المشتبهة التى جاءت فى الدين مثل قضية الخير والشرّ ومايتصل بهما من علم الخالق وارادة المخلوق فى فعل أيهما فقد أوكل الفاطميون أمرها إلى من أوتوا العلم من الأئمة الذين ألهموا أسراراً لايطلع عليها عامة الناس وإن كانوا من العلم فى الدرجة العالية .

وظهر لنا من الحوار هذا الميل من مذهب دعاة الفاطمية وأئمتها إلى الأخذ بأسباب الحياة وملاذها ومتعها التى أحلها الله دون إسراف ، وعدم الامتناع عما هيأ الله للانسان فى هذه الحياة من أسباب النعمة .

ولعل قطب الرحى الذى دار حوله الحوار بين مؤيد الدين والمعرى هو هذا المعنى بعينه ، لأن الأبيات التى شغلتهما من قول أبى العلاء إنما تدور حول معنى الانصراف عن أكل مالذ من الطيبات مما أحل الله من لحم الحيوان والطير والأسماك ، ولا أكل العسل ، ولاشرب الألبان وما إلى ذلك .

وعلى ذلك فهذا الحوار حيوى إلى حد كبير يلقى أضواء كثيرة على العصر وفكره وأدبه . والملاحظة أو الاشارة الأخيرة الجديرة بالاهتمام هنا حول صورة الحوار أو شكله الذى حرص المعرى فى أوله على أن يأتى على طريقته فى السجع ولزوم مالايلزم ، وطلب إليه المؤيد أن يتخلى عن هذا الثوب اللفظى حتى لا تضلّ المعانى وراء بريق اللفظ .

وقد حقق المعرى فى رسالته الأخيرة رغبة مؤيد الدين فتخلى عن السجع ولزوم مالايلزم وضروب الصنعة المشابهة فجاء قوله رصيناً عامراً بالفكر ، قاصداً إلى معانيه دون بريق اللفظ أو زخرفه .

وكذا كان قول المؤيد الذى لم يحفل بصنعة لفظية فجاءت عباراته سديدة المعنى مقومة اللفظ من كل عيى أو ضعف أو خروج عن القصد .

لقد كان داعى الدعاة المؤيد عالماً فذاً ، وأديباً مفكراً ، شاعراً فحلاً ، ترك تراثا هائلاً فى كل هذه المجالات .

ففى مجال العلم خلف عدداً من المؤلفات القيمة نذكر منها :

(١) المجالس المؤيدية فى ثمانمائة مجلس من مجالس الحكمة التى كان يلقيها فى دار العلم . جمع هذه المجالس وبوبها حسب موضوعاتها الفكرية الداعى المطلق حاتم بن إبراهيم الحامدى ، وسماها « جامع الحقائق » .

(٢) كتاب شرح المعاد .

(٣) كتاب شرح الإيضاح والتبصير .

(٤) كتاب الابتداء والانتهاء .

(٥) رسالة فى تحريم اللحوم ــ ولعلها من تأثير هذا الحوار المتبادل مع المعرى .

(٦) تأويل الأرواح .

وله ترجمة أو سيرة ذاتية تحدث فيها عن حياته ، السياسية والاجتماعية ، وبعض صور الحياة فى عصره فى الدول التى عاش فيها وتنقل بينها فى فارس والعراق والشام ومصر من سنة ٤٢٩ إلى سنة ٤٥٠ هـ . وتعتبر سجلاً حيًا لوقائع عصره ، تضمَّنها بعض الوثائق المتبادلة بينه وأمراء العرب وملوكها الذين اتصل بهم ، وكذلك الرسائل والمحاورات التى كانت بينه وبعض الوزراء المصريين إبان ثورة البساسيرى .

وله ديوان شعر جيد ، هو مجموعة من القصائد التى مدح بها أئمة الفاطميين ، وبعض رجال العصر ، وعرض فيها لحياته ، ووصف أحواله ، مشيراً إلى مابذل فى سبيل الدعوة ، فضلاً عما به من موضوعات متصلة بالعقيدة الفاطمية ، وهو زاخرٌ بكثير من الرموز والمصطلاحات المستخدمة عنهم .

المجالس المؤيدية :

ونعرض لبعض مايدور فى المجالس وهى من أخطر مؤلفاته لاتصالها بالعقيدة الفاطمية وآرائهم المتصلة بقضايا الدين والحياة .

والمجالس المؤيدية كما قلنا تضم ثمانمائة مجلس ، قسمت إلى ثمانى مجلدات ، كل مجلد مائة مجلس .

ونعرض لبعض ماجاء فى « المائة الأولى »[1] :

« وخصص المؤيد هذه المجالس لطبقة من الدعاة والأجنحة والمأذونين ، وهى بما تضمنته فوق علوم الشريعة والظاهر . والمدخل التمهيدى إلى علم الباطن والحقائق وكانت تلقى كمحاضرات تعقبها بعد ذلك مناقشات واستفسارات .

وموضوعات المجالس المائة الأولى متصلة بمفهوم التوحيد عند الفاطميين ، والإبداع والوجود والموجودات ، وترتيب العوالم السفلية والعلوية ، والنطقاء ، والوحى ، وعالم الأمر ، والمعاد والبعث ، والقيامة والجنة والنار . وإثبات الوصاية ، وماهية الإمامة ، والتأييد ، والإفادة والمفيد ، والأدوار والأكوار ، والمثل والممثول والقيام بالقوة والقيام بالفعل ، وكيفية أخذ العهد والميثاق .

بالاضافة إلى الردود القصيرة على القائلين بالرجعة والتناسخ والتقمص ، وعلى الحشوية والمعطلة والمعتزلة والصوفية ، والغلاة من الشيعة ، والفلاسفة والملحدين ، وغير ذلك من المواضيع الهامة[2] .

يقول فى المجلس الأول من المائة الأولى :

« الحمد لله الذى نظم بين الإنسان والبهائم ، إذ خلقهما من طين ، وجعل نسلهما من ماء مهين ثم اقتضت العناية الإلهية أن رمى فى أخلاط الصورة الإنسانية من إكسير العقل بلغة أهل صنعة الكيمياء ماعرج به فى أعلى المعارج من الفضل والعلية ، فصار ممن قال

---

(١) المجالس المؤيدية — المائة الأولى — تحقيق وتقديم الدكتور مصطفى غالب
- طبع دار الأندلس بيروت سنة ١٩٧٤ م
(٢) مقدمة المجالس (المائة الأولى) ص ن

الله سبحانه عنه ومن أصدق من الله قولا : (ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهمَ من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) . فاستنزل الطير بتدبيره من الهواء واستخلص الحوت من لجج الدأماء ، واستعبد أجناس الحيوان طيراً وبهائم وسباعاً ، فمنها ما انتفع بلحومها انتفاعا ، ومنها ما استمتع بجلودها وأصوافها وأوبارها استمتاعاً ، وجعل الفلك المحيط على عظم فضائه محصورا فى سرادق فكره ، والجسم فى عالم الكون والفساد مأسوراً فى سرادق فكره وبخار أسره . فهذا منفوعه الذى نفعه الله تعالى به فى الدار الأولى ، ثم جعله سُلماً يرتقى به إلى دائم البقاء فى الدار الأخرى ، فلولا نور استبصاره بالعقل لما كانت رسالةٌ من مرسَلٍ تقبل ، ولا أمرٌ عن مرسل يؤخذ ويحمل ، ولا نفس بمعرفة توحيد الله سبحانه ترتسم وتستنير ، ولا لسانٌ بمعارف الآخره بين اللهوات يدور .

وصلى الله على محمد خير رسولٍ استنار بنور سراجه ، وسار على أوضح منهاجه ، وعلى وحيه الذى عرج به من أفق المجد إلى أعلى معراجه ، وعلى آله الداعين إلى عذب المشرب وفراته ، الناهين عن ملحه وأُجاجه .

معشر المؤمنين : جعلكم الله عمن استنارت بنور العقل قلوبهم ، وتجافت عن مضاجع الجهل جنوبهم .

إن قوماً من الآخذين الدين بالعادات ، والجارين فيه على آثار الوالدين والوالدات زعموا أن شرائع الأنبياء صلى الله عليهم هى أسباب النجاة ، والطريق إلى دائم الحياة ، على غير العقل موضوعها ، وفى سوى موقعه وقوعها ، فلو أنهم أمعنوا النظر ، وجرّدوا من ثوب الهوى والعصبية الفكر ، لعلموا أن أحدهم لو قيل له فى شيءٍ من خاصة أعماله ومايصدر عنه من أقواله وأفعاله : إن فعلك هذا على غير أساس العقل موضوعه ، ولا من مطالعه طلوعه لاستشاط من ذلك غضباً ، ولقام له مكذباً ، وفى مثل هذه المواجهة مستذباً ، فكيف يرضون للأنبياء عليهم السلام الذين هم سادات دينهم والوسائط بينهم وبين ربهم ما لو قابلوهم بمثله مقابل لكرهوه ؟ ، أم كيف لايعتبرون أن الخطاب فى كتاب الله سبحانه كله لأولى الألباب ؟ بقول الله تعالى « فاتقوا الله ياأولى الألباب » . وقوله : « إنَّ فى ذلك لذكرى لأولى الألباب » ومايجرى مجراه مما كثر وتكرر ، وليس يخلو من كون هذه الأوضاع الشرعية لابرهان لها من العقل عند الرسول صلى الله عليه وسلم الآتى بها نفسه أو كونه عنده ، ولم يشعر به ، فإن كان لابرهان لها عنده ، فهو فحش ، ولو أن سائلاً سأله عن

العلة التى اقتضت أن يجعل الصلاة خمساً ولا يجعلها ستاً ، فكان يقول : لا أدرى ؟ لكفاه طعنا أن يأتى بالشيء ولايدرى العلة فيه إذا سئل عنها . وإن كان لها عند نفسه برهان عقلى . والبرهان مما يُجمّل الأقوال والأفعال . ثم لايظهره ، فلم يقم إذا بحق البلاغ وهذا منتفٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه بلّغ وقال فى النادى : اللهمّ اشهد أنى بلّغت .

وسوى هذا فمعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكلف تكاليف الشريعة إلاً ذا عقل ، فكيف يكلّف ماكان موضوعُه على غير عقل ، فهو بغير ذى عقل أولى منه بذى عقل . وما السبب فى توليته العقل أولاً وعزله آخراً ، ولم لاتكون التولية آخراً لكونها أولاً » .

. ويقول : « فلو أن أحد الفلاسفة قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله عن الملائكة والعرش والكرسىّ ، والجنة والنار ، وأوضاع الشريعة من صلاتها وزكاتها وصومها وحجّها وزكاتها وصومها وحجّها وجهادها حيث يدل عليها البرهان العقلى أكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : لاقبل لى فى برهان ذلك ؟ .... حاشا لله تعالى » .

وقولٌ آخر مأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول ماخلق الله تعالى العقل فقال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال : أدبر فأدبر ، ثم قال له : وعزتى وجلالى ماخلقت خلقاً أجلَّ منك ، بك أثيبُ ، وبك أعاقب . »

وإن كانت الشرائع على غير العقل موضوعها ، فلا ثواب عليها ولاعقاب على مقتضى الخير بك أثيب وبك أعاقب » .

معشر المؤمنين : دعوا أهل الفرقة والخلاف فإنهم أشياع غىٍّ . يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه : (إنَّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم فى شيء) . وتمسكوا فى دينكم بالأدلة ، واعرفوا المواقيت والأهلة وأصلحوا أحوالكم ، وطهّروا سرَّ بالكم وأحمدوا الله تعالى الذى فتح لكم إلى الحقائق أبصاراً ، والناس عنها عمون ، وكشف لكم عنها حجاباً ، فأنتم فى رياضها تنعمون . وأجروا فى مضمار التائبين العابدين ، واستشعروا شعار الراكعين الساجدين . وكونوا دعاة إلى أئمتكم بحسن الفعال صامتين ، وقوموا آناء الليل والنهار لله قانتين .. » .

واضح من هذا المجلس الأول المنهج العقلى الذى دعا الناس إليه وعدم التسليم بكل

مأثور يقال أو خبر يروى دون عرضه على ضوء العقل وادراك العلـة وراءه ، فلايجوز تعطيل هذا العقل نعمة الله الكبرى للإنسان حتى فى تقصى أمور الشريعة وحكمها ، وذلك كله مع القيام بكل ما أمر الله وعدم التقصير فى حد من حدوده التى نزل بها الوحى على نبيه صلى الله عليه وسلم .

وواضح كذلك مخالفته لمذاهب أهل السنة التى نعتها بأهل الفرق والخلاف وإذا كان المذهب الفاطمى قد نهج هذا النهج العقلى فى بحث أمور الدين وشرائعه ، وشجع على دراسة العلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك ... والعلوم الطبيعية من الطب والكيمياء وما إليها فإنه لم يهمل كذلك بحث الديانات والملل ، ومافيها وبينها من التقارب أو التباعد . وحدث من الحوار والجدل بين علماء المسلمين والنصارى فى جو من حرية الرأى مثل ماحدث فى بعض العصور السابقة فى العراق والأندلس .

وينقل لنا التاريخ وتحتفظ لنا المكتبات بصورة من هذا الحوار فى مجالس إيليا مطران نصيبين ، وما دار فيها من أسئلة ألقاها عليه الوزير المغربى أبو القاسم حسين بن على .

يقول الدكتور إحسان عباس[1] : « وقد دخل الوزير المغربى إلى نصيبين لأول مرة يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأولى سنة ٤١٧ هـ فزاره مطران نصيبين إيليا ... ثم جرت محاورات بينهما فى سبعة مجالس ... سأل فيه الوزير عن عقيدة النصارى فى الأقانيم الثلاثة ، وكيف يمكن وصف ذلك بالتوحيد ، وكيف يمكن للنصارى أن يدفعوا قول الله فيهم : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) . وعن علة الناس فى محبة أديانهم ، وهل يتحقق المرء صحة دينه أو مذهبه من جهة العقل ، أو من جهة المعجزة ؟! .. ويدور المجلسان السادس والسابع حول أسئلة عن المقارنة بين نحو السريان ونحو العرب وعلم اللغة عند الفريقين واستعمال المجاز عندهما ... »

وبما أن مطران نصيبين هو الذى كان يتولى الإجابة فإنه أعطى نفسه دوراً كبيراً فى الشرح والتوضيح مما يجعل الوزير يسلم له معجباً ... وفى بعض الأحيان نجده أعلم من الوزير بشؤون الإسلام ، ويكاد فى معرفته بالقرآن أن يبلغ درجة لم يبلغها الوزير نفسه » .

وعلى الرغم من هذه الهزة التى أدى إليها الفكر الفاطمى فى الفكر الاسلامى عامة ،

---

(١) الوزير المغربى ص ٧٥

والتحول الفكرى الخطير فى بعض جوانب العقيدة ، وماتركه من آثار باقية فى تطبيقات الدين ومأثوراته لازالت مأخوذا بها فى بعض شعائر الصلاة وغيرها من العبادات إلاّ أن مذاهب السنة ظلت تدافع عن مواقعها باستماتة وصلابة فى البلاد التى سادها الفاطميون فى شمال أفريقيا ومصر والشام والحجاز وبعض أطراف العراق .

وكان وراء هذا الصمود السنّى يشجعه ويمده بالعون المادىّ والمعنوى الخلافة العباسية فى بغداد ، ثم سلاطين السلاجقة الاتراك الذين بدأ نجمهم فى الظهور بعد زوال سلطان البويهيين على أيديهم فى عصر المستنصر الفاطمى ، وبدء الصراع المرير بين القوتين الفاطميين والسلاجقة طوال القرنين الخامس والسادس .

وكان الصدام بين الفاطميين وأهل السنة يخرج عن مجرد الجدل الدينى إلى المقاومة المادية ، فإن المقريزى يروى فى أحداث سنة ٤١٦ هـ أن الظاهر أخرج فقهاء المالكية وغيرهم من الفسطاط . وأمر الدعاة بتحفيظ الناس كتاب « دعائم الإسلام » لداعى الدعاة ، ومختصر الوزيرى ، وجعل لمن حفظ ذلك مالا »[1]

كذلك كان للمالكية وفقهائهم فى أفريقيا والمغرب دور كبير فى مقاومة الدعوة الفاطمية والفكر الفاطمى ، ونجد بيانا لهذه المقاومة فى بعض المصادر مثل « رياض النفوس » و « معالم الايمان » للدباغ ، و « المدارك » للقاضى عياض ، و « الديباج المذهب » لابن فرحون .

وقد عاصر الدولة الفاطمية بالقيروان أحد مشاهير فقهاء المالكية ، وهو « سحنون » الذى تخرج عليه عدد كبير من العلماء والفقهاء بلغوا سبعمائة على حد قول بعض الروايات .

وذكر ابن اللباد مكانة سحنون فى الفقه المالكى فقال : « ولئن قلت لك إن سحنون أفقه من أصحاب مالك بن أنس ــ معلميه ــ كلهم إنى لصادق »[2] ومنهم النفرى القيروانى أبو محمد عبد الله بن أبى زيد ولقب « بمالك الصغير » . وكان يرحل إليه العلماء للرواية عنه والتفقه به (توفى سنة ٣٨٦ هـ) .

---

(١) الخطط ٣٥٥/١

(٢) راجع رياض النفوس للمالكي ٢٥٤/١

ومن فقهاء المالكية بالقيروان كذلك القابسى على بن محمد (توفى سنة ٤٠٣ هـ) وكان واسع الدراية عالماً بالحديث ورجاله ، فقيها مالكيا أصوليا ، متكلماً مؤلفاً مجيداً ، له عدة كتب فى الفقه .

واستطاع المالكية والشافعية أن يتعايشوا مع الفاطميين ، وربما كان بعض دعاة الفاطمية ملما بالفقه المالكى ومتأثرا به كالقاضى النعمان الذى قيل إنه بدأ مالكيا قبل اعتناقه المذهب الفاطمى .

كذلك لشيوع هذين المذهبين فى مصر والمغرب وكثرة أتباعهما على ما أشرنا من قبل .

العلوم العقلية والطبيعية :

وكان جو الفكر فى القرن الرابع الهجرى ومابعده من القرون مهيأً للعلوم العقلية والفلسفية لما بثه كبار الفلاسفة المسلمين فى المشرق والمغرب من افكار فلسفية ، وما نقلوه عن كبار فلاسفة اليونان ، وقد شهد هذا العصر الفارابى وابن سينا وابن رشد .

عاش الأول فى ظل الدولة الحمدانية بحلب غير بعيد من عصر الفاطميين، ولا أرضهم التى امتلكوها ، كما عاش الثانى ابن سينا فى عصر هذه الدولة الفاطمية وتوفى سنة ٤٢٨ هـ بعد حياة حافلة فى ظل السامانيين والبويهيين فى بلاد فارس وترك تراثاً ضخماً أهم ما فيه جمعه بين الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية .

قال عنه ابن الأثير :[١] ففى سنة ٤٢٨ هـ مات أبو على ابن سينا الحكيم الفيلسوف وهو صاحب التصانيف السائرة على مذهب الفلاسفة . وكان موته بأصبهان ، وكان يخدم علاء الدولة أبا جعفر بن كاكويه ». ثم يقول ابن الأثير « ولا شك أن أبا جعفر كان فاسد الاعتقاد فلهذا أقدم ابن سينا على تصانيفه فى الإلحاد والرد على الشرائع فى بلده » .

ونلاحظ أن ابن الأثير وهو المؤرخ السنى الذى عاش فى ظل دولة سنية متشددة لمذهب أهل السنة قد اتهم الأمير والفيلسوف بفساد العقيدة والالحاد لأن أهل السنة يكرهون الفلسفة والفلاسفة ، ويتعقبونهم ، ويحجرون عليهم ، بل ويقتلونهم أحيانا .

والأمر مختلف بالنسبة للفاطميين والبويهيين فقد شجعوا الفلاسفة ، ومع ذلك فإن ابن

(١) الكامل ص ٨ وفيات سنة ٤٢٨ هـ

سينا لم يكن فاسد العقيدة خارجاً على الإسلام كما صوره ابن الأثير ملحداً .

وقد اعترف ابن سينا بمنهجه فى الحياة ، فأكد على التزامه بحدود الدين « وكنت كلما أتحير فى مسألة أو لم أكن أظفر بالحدّ الأوسط فى قياس ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى فتح لى المنغلق ، ويسر لى المتعسر وكنت أرجع بالليل إلى دارى ، وأضع السراج بين يدى ، وأشتغل بالقراءة والكتابة » .

وربما كان فى حياته بعض التساهل أو التحرر الذى غلب على كثير من الناس ممن أقبلوا على الحياة ولم يرفضوها ، ورأوا أن الله زين للإنسان الدنيا ليتمتع بها مادام لايهمل اداء فروض دينه .

وقد كان الفاطميون كذلك لايرون بأساً من الاستمتاع بملاذ الحياة مادام الإنسان مؤمنا بالله موحداً مؤديا لفروض دينه وواجباته ، مقبلاً على ما أحلّ له ممتنعا عما حرّم عليه .

والفلسفة والعلوم العقلية والطبيعية كلها متصل بعضها ببعض ، وقد بنى الفاطميون دار الحكمة واهتموا بتدريس الفلسفة والعلوم العقلية والطب والرياضيات وعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك .

وكان للطب فى مصر الإسلامية والفاطمية خاصة مكانة مرموقة ، وكان الخلفاء يهتمون بالطب والأطباء ، كذلك جمع بعض العلماء بين العلوم المختلفة والطب .

وأشار أمية بن أبى الصلت فى رسالته المصرية إلى اهتمام المصريين بعلمى الطب والفلك ، كما شغفوا بالتنجيم ، واستقراء أحوال النجوم ، وما توحى لهم بما يعتقدونه علّما أو رجماً بالغيب .

يقول أمية « إن الاطباء المصريين فى عصره فى أخريات القرن الخامس لم يتقنوا صناعة الطب لأنهم لم يبحثوا فى علل المرض بقدر بحثهم عن الدواء لهذا المرض . قال : فلما لم يأخذوا أنفسهم بالإتقان ، بل استطالوه ، واستبعدوا الأمد إليه ، ورأوا أن غرضهم من صناعة الطب الذى هو عندهم ، وبحسب رأيهم — التكسّب بما يتم لهم بأقرب مما شرطه الأوائل متناولاً ، وأسهل مراماً ، لم يحفظوا غير أسماء أدوية قليلة العدد ، يصرّفونها فى مداواة كل مريض دون إعمال فكرهم فى حقيقة نوعه وسببه ، ومقتضيه وموجبه »[1]

(١) الرسالة المصرية ص ٣٣

وكلمات ابن أمية تصدر عن صدر مسجور ، ونفس غير صافية نحو المصريين لما لاقاه من المحنة على يد الوزير الأفضل فقضى زمناً فى السجن خرج بعده ، وفى نفسه مافيها نحو المصريين ، ولا ننسى كذلك إن هذه الرسالة موجهة إلى عدو للدولة الفاطمية فى مصر هو أبو طاهر يحيى بن تميم بن المعز صاحب القيروان ، والذى كان موقف المستنصر من أبيه مانعرفه .

ومع ذلك فإن مصر الفاطمية قد أخرجت جماعة من مشاهير الأطباء كابن رضوان كما نبغ فى الفلك جماعة ، واشتهر فى العلوم الرياضية والطبيعية ابن الهيثم (الحسن بن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ)[1] .

جاء مصر من البصرة فى أيام الحاكم وأقام بها حتى آخر عمره ، وفيها أبدع معظم مؤلفاته ، ونظرياته ، وقد برع فى الرياضيات والطبيعيات . وكانت له مشاركة فى الطب .

وكان مصدر حركة فلسفية وعقلية كبيرة فى القاهرة فى عصره ، وكان يقول : « إنى لم أزل منذ عهد الصبا مروَّعا باعتقادات هذا الناس المختلفة وتمسك كل فرقةٍ منهم بما تعتقد من الرأى ، فكنت متشككا فى جميعه ، موقنا بأن الحق واحد ، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه ، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق ، ووجهت رغبتى وحرصى إلى إدراك مابه تتكشف تمويهات الظنون ، وتنقشع غيابات المتشكك المفتون » .

وقد ألفَّ ابن الهيثم نحو مائتى كتاب فى الرياضيات والطبيعة والفلسفة ظلت عماد الناس فى الشرق والغرب ـــ وبخاصة كتاب « المناظر » فى علم الضوء .

وما زال يؤلف ويشرح ويلخص فى حركة دائبة حتى توفى سنة ٤٣٠ هـ

ولم يكن اهتمامنا بايراد جهود الفاطميين فى العلوم العقلية والطبيعية إلا للتأكيد على صبغة هذا العصر الفكرية ، ومناهجهم العلمية التى أثرت فى كل المجالات .

علم التاريخ :

ظهر فى عصر الفاطميين جماعة من المؤرخين المشهورين ، وإن لم يرتفع صيتهم ارتفاع

(١) اشتهر ابن الهيثم فى حضارة الغرب الأوروبى كأحد كبار علماء المسلمين فى علم الطبيعيات وكتب عنه الدكتور مصطفى مشرفه بحثاً جليلا حول اكتشافاته فى علم الضوء .

صيت غيرهم من المؤرخين للأسباب التى عرضنا لها فى اختفاء ذكر كثير من اعلام هذا العصر وعلمائه . ومن كبار مؤرخى العصر القضاعى ، والمسبّحى ، وابن ميسر ، وابن الرقيق ولما كان علم التاريخ قريب الأسباب ، متصل الوشائج بعلوم الأدب ، فلا بأس أن نقف وقفة مع هؤلاء نتعرف عليهم ، وعلى كتبهم ، وأساليبهم فى كتابة التاريخ ، وقد تعددت مشاربهم ، واختلفت منازعهم ونياتهم ، وتنوعت ثقافاتهم واهتماماتهم .

والمسبحى

هو الأمير عز الملك بن أبى القاسم عبيد الله أحمد المعروف بالمسبحى الحرانى الأصل المصريّ المولد والحياة . ولد سنة ٣٦٦ هـ ، واتصل فى صباه بخدمة الحاكم بأمر الله بين جنوده ، ومازال يرقى فى الجندية حتى صار أميراً على اقليم البهنسا والقيس بصعيد مصر ، ثم ولى ديوان الترتيب .

وكان يجلس إلى الحاكم وإلى ابنه الظاهر ، وسجل هذا كله فى تاريخه .

وميزة تاريخ المسبحى أنه يدون أحداثاً ومشاهدات يومية عاينها وعاصرها المؤرخ وشارك فى بعضها .

وقد وصف المسبحى تاريخه بقوله : « التاريخ الجليل قدره ، الذى يستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة فى معانيه ، وهو أخبار مصر ومن حلّها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ــ وما بها من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها وأحوال من حل بها ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة والحكّام والمعدّلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم » .

ولم يكن المسبحى مؤرخاً ، يلتزم أسلوب كثير من المؤرخين فى ذكر الاحداث سرداً بل كان أديبا ذواقه ــ له أسلوبه الطليّ ، الذى يكسب وصفه للأحداث جمالاً كما أنه لايخلى وصفه أو تحريره للوقائع التى يدونها من انطباع خاص ، أو موقف ذاتى .

يقول فى أحداث سنة ٤١٤ هـ[1] « وفى يوم الأحد لإثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر جلس أمير المؤمنين للناس فى المجلس الذى يجلس فيه أبوه بقصر الذهب ودخل

(١) أخبار مصر فى سنتين للمسبحى تحقيق وليم ج. ميلورد وطبع هيئة الكتاب ص ٥٨

الناس إليه من باب العيد ، ودخلت فيمن دخل على رسمى ، وجلسنا بحضرته عليه السلام — مع من جرى رسمه بالجلوس . ودخل إليه حسين بن حسن بن حمدان المقلب بناصر الدولة المستخدم — كان — بطرابلس ، لأنه وصل فى هذا اليوم مصروفا عن عمله ، فلقى بالبنود والطبول . وكان عدة البنود أربعين بنداً ملونة ، وخمسة بنود مذهبة . ودخل بدخوله الشريف ابن موسى المقيم — كان — بدمشق ، فلما وصلا إلى حضرة أمير المؤمنين عليه السلام — قبلا التراب ، ثم قبّلا يدَه ، ووقفا بين يديه ، فأمرهما بالجلوس فجلسا ، وكان الآمر لهما القائد معضاد عنه — عليه السلام . وكان جلوسهما بين الصفين . ثم انقضى السلام وانصرف الناس .

ولما كان وسط نهار هذا اليوم نزلت طائفة من جوارى القصر ، ومعها طائفة من الخدم ، إلى دار الجوهر ودار الصرف[1] ، ودار الأنماط ، فابتاعوا من جميعها رحلاً ، وعادوا إلى القاهرة المحروسة » .

ومن المؤرخين المشهورين ابن زولاق الحسن بن ابراهيم الليثى

وله عدة كتب مشهورة منها سيرة محمد بن طغج الاخشيد ، وأخبار سيبويه المصرى وسيرة كافور ، وسيرة جوهر الصقلى ، وسيرة المعز لدين الله ، وسيرة العزيز بالله وكتاب « التاريخ الكبير » على السنين ، وكتاب « خطط مصر » .

وفقد أكثر هذه الكتب — كما حدث لأكثر التراث الفاطمى — ولكن كثيرا من المؤلفين والمؤرخين نقلوا عنه ، وبخاصة فى التأريخ للعصر ، ومن هؤلاء ابن عبد الظاهر وابن خلكان ، وابن فضل الله العمرى ، والنويرى ، وابن حجر ، والمقريزى والسيوطى .

ومن المؤرخين الكبار القضاعى أبو عبد الله محمد بن سلامة (توفى سنة ٤٥٤ هـ) من مؤرخى عهد المستنصر . وقد تفقه على مذهب الشافعي ، ومع ذلك فقد ولاه الفاطميون القضاء . وخدم الوزير الجرجرائى ، إذ جعله كاتب علامته ، وعمل فى ديون الإنشاء ، وأوفده سنة ٤٤٧ هـ الخليفة المستنصر إلى بيزنطة حيث التقى بتيودوره امبراطورة الروم فى القسطنطينية ليتحدث معها فى أمر الصلح وعقد مهادنة بين الجانبين . ولكن هذه السفارة لم تصل فيما يبدو إلى إقرار السلام بين الروم والفاطمين .

---

(١) دار الجوهر ، ودار الصرف ، ودار الأنماط أسواق مشهورة بالفسطاط كانت تقع شرق جامع عمرو وحوله .

ومن كتبه فى التاريخ « تاريخ الخلفاء » . وخطط مصر واسمه « المختار فى ذكر الخطط والآثار » . وقد أفاد منه المقريزى فائدة كبيرة ، وكان عونا له على تأليف كتابه الخطط أو « المواعظ والاعتبار » . كما أخذ عنه كثير من معاصريه ومن جاءوا بعده .

ومن مشاهير المؤرخين الرُّقَيِّق القيروانى : إبراهيم بن القاسم[1] .

وعرف الرقيّق بالكاتب والنديم ، فقد تولى الكتابة فى ديوان الانشاء أو ديوان الرسائل بالقيروان مدة نيف وعشرين سنة . ويمكن القول على وجه التقريب أنه ولد بالقيروان فى منتصف القرن الرابع الهجرى . وباشر الكتابة فى الديوان بحضرة الدولة الصنهاجية بعد خروج المعز إلى القاهرة ، وظل كذلك أيام المنصور بن يوسف بن زيرى ، وابنه باديس، وابنه المعز .

وتوجه مرتين أو ثلاثة إلى القاهرة سفيراً عن الصنهاجية ، بقصد تأكيد الولاء للخليفة الفاطمى بمصر قبل حدوث الجفوة أيام المستنصر .

فقد سافر سنة ٣٨٦ هـ من قبل المنصور إلى العزيز بالله ، ثم فى سنة ٣٨٨ هـ لتهنئة الحاكم بأمر الله بالخلافة ، وحمل فى هذه السفارة هدايا ثمينة من الأمير باديس بن المنصور ، مع سجل التهنئة ، وألقى بين يدي الحاكم قصيدة جيدة .

ويعدّ الرقيق أديبا ، وشاعراً له كثير من الشعر الجيد وربما توفى على الأرجح سنة ٤٢٥ هـ[2] وأما كتابه فى التاريخ « تاريخ أفريقية والمغرب » فهو فى عشرة مجلدات — على ماتذكر — كتب التراجم والمصادر التى تحدثت عنه . وابتدأ فيه بأخبار الفتح العربى إلى نهاية سنة ٤١٧ هـ ومنه قسم مهم شهد المؤلف حوادثه بنفسه ، وكان ممن عايشها وشارك فيها بما كتب من الرسائل المتبادلة بين الأمراء .

ولم يبق من هذا التاريخ سوى قطعة صغيرة[3]

ويقول المنجى الكعبى : « لا نغلو إذا قلنا إن التاريخ الذى كتبه الرقيّق القيروانى كان

(١) راجع فى تاريخ حياته مقدمة كتاب المختار من قطب السرور بتحقيق عبد الحفيظ منصور وطبع مؤسسات عبد الكريم ابن عبد الله سنة ١٩٧٦ م بتونس وفى مقدمة تاريخ أفريقيا بتحقيق المنجى الكعبى نشر تونس ص ٥ ج

(٢) راجع المختار ص ١٤

(٣) قام بنشرها المنجى الكعبى وسبقت الاشارة إليه

يعد أوفى وأشمل ما كتب عن بلاد أفريقية والمغرب ، وما تعاقب فيها من الأحداث منذ مطلع تاريخها الإسلامى إلى القرن الخامس » .

وقد نقل عنه واعتمد عليه جماعة من المؤرخين من بعده أمثال ابن عذارى فى « البيان المغرب » والنويرى فى « نهاية الأرب » ، وابن خلدون فى تاريخه الكبير ... وغيرهم وكذلك اعتمد عليه عز الدين بن الأثير كثيرا فى تاريخه فيما يتصل بأخبار المغرب وأفريقية حتى القرن الخامس .

ويقول المنجى الكعبى : « ولا نستطيع تكوين فكرة كاملة عن أسلوب الرقيق فى تاريخه ، ولا عن المنهج الذى اتبعه فى سرد الأخبار وتدوين الحوادث ، واستخدامه للمصادر القديمة ، ولايمكن لنا كذلك أن نقف على خصائص شخصيته وعقليته كمؤرخ ، وذلك لأن هذه القطعة اليسيرة من تاريخه لا تسمح لنا بفكرة محدودة ،.ولا قول فصل فى هذه الأمور . وإنما حسبنا أن نتلمس من خلال هذه القطعة (التى قام بنشرها) بعض مايلقى ضوءاً على طريقته فى التأريخ وأسلوبه الكتابى » .

ونورد قطعة من هذا التاريخ لنعرض لطريقته . قال وقد ذكر بعض حروب عقبة بن نافع بافريقية :

« .. ثم عزم عقبة على الغزو فى سبيل الله ، وترك بالقيروان جنداً من المسلمين ، واستخلف عليها زهير بن قيس ، ودعا أولاده فقال له : إنى بعتُ نفسى من أجل الله عز وجل ، « ونذرت » أن أجاهد من كفر حتى ألحق بالله ، ولست أدرى أترونني بعد يومى هذا أو أراكم ، لأن أملى الموت فى سبيل الله .أو رَدّى إليكم كما أحب ، ثم قال : « اللهم تقبل منى نفسى فى رضاك » . ومضى فى عسكر عظيم حتى أشرف على مدينة باغاية ، فكانت النصارى تهربُ من طريقه يميناً وشمالاً ، واحتصر صاحب قلعة مجانة فلجأ النصارى إلى مدينة باغاية ، واجتمعوا بها ، فنزل عليها ، وخرجوا إليه ، فقاتلهم قتالاً شديداً فقتلهم قتلا ذريعا ، وأخذ لهم خيلاً كثيرة ، لم ير المسلمون فى مغازيهم أصلب منها ، وكانت من نتاج جبل أوراس المطل عليها . ودخل بقية الروم حصنهم ، وكره عقبة أن يقيم عليها ، فمضى إلى المسن ، وكانت فى ذلك الوقت من أعظم مدائن الروم ، فلجأ إليها من كان حولها منهم ، وخرجوا إليهم فى عدة وقوة ، فقاتلوهم قتالا شديداً حتى ظن الناس أنه الفناء ، فانهزموا ، فقاتلهم إلى باب حصنهم فأصاب غنائم كثيرة ، وكره المقام عليها ،

فرحل إلى بلاد الزاب ، فسأل عن أعظم مدينة لهم قدراً فقالوا مدينة يقال لها « أذنة » ومنها الملك ... وكان حولها ثلاثمائة قرية وكلها عامرة فلما بلغهم أمره لجأوا إلى حصنهم ، وهرب أغلبهم إلى الجبال والوعر . ونزل واديا بينه وبينها ثلاثة أميال ، فلقوه عند الوادى وقت المساء ، فكره قتالهم فى الليل ، فوقف القوم ليلهم كله ساهرين ، فسمّاه الناس إلى اليوم « وادى سهر » . فلما أصبح وصلى أمر بالقتال .

وكانت بينهم حربٌ ماراوا قط ممن حاربوه مثلها حتى يئس المسلمون من أنفسهم ، فأعطاه الله عز وجل الظفر ، فانهزم القوم . وقتل فيها أكبر فرسان البربر ، فذهب عزّهم من الزاب وذلّوا آخر الدهر » .

علمـاء اللغـة والأدب :

عرفت مصر فى هذا العصر جماعة من علماء اللغة والنحو المرموقين والذين كانت لهم جهود مذكورة فى هذين العلمين ، وخلفوا فى ذلك كتباً انتفع بها الناس وتداولوها كما أفادوا كثيرا ممن أخذ عنهم فنبغ وكان له صيت ، وعلو كعب فى اللغة والأدب أو مايتصل بهما .

ومن هؤلاء المرموقين المهلبى : على بن أحمد الذى عاش قدرا من حياته فى عصر الاخشيد ، وعاصر مجىء المتنبى إلى مصر أيام كافور ، وامتد به العمر إلى عصر الفاطميين ، فالتقى بالمعز لدين الله والعزيز بالله وصار من جلسائهما .

وكان المهلبى إماما فى النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار وله كتاب فى الرد على المقصور والممدود لأبن ولاد المصرى وتوفى المهلبى سنة ٣٨٥ هـ فى عهد العزيز .

ومنهم : أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوى إمام عصره فى هذا العلم . وعُهد إليه تصحيح رسائل الكتاب فى ديوان الإنشاء . وله عدة كتب ، منها شرح على الجمل للزجاجى ، وشرح كتاب الأصول لابن السراج .

وله موسوعة فى النحو عرفت بين النحويين بعده باسم « تعليق الفرقة » فى خمس عشرة مجلداً . وكان يقرىء منها تلاميذه فى حلقته بجامع عمرو بالفسطاط ، وتوارثوها من بعده .

وفى آخر حياته استعفى من العمل بديوان الانشاء وتزهد وانقطع للعلم والتدريس فى جامع عمرو وتوفى سنة ٤٦٩ هـ

وممن وفد إلى مصر وأقام العالم اللغوى القيروانى أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى (ت سنة ٤١٤ هـ) وكان فى خدمة الخليفة العزيز بالله ووالده من قبله المعز لدين الله ، ويظنّ أنه وفد معه إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ[١]

ولد أبو عبد الله محمد بن جعفر بالقيروان فى حدود سنة ٣٢٢ هـ ، وتلقى علومه بها ، وكانت آنذاك قصبة دولة الفاطميين بالمغرب وافريقية قبل انتقالهم إلى عاصمتهم الجديدة القاهرة .

وتنقل بين علماء القيروان فى مساجدها الجامعة ، كما تردد على دور الكتب وخزائنها التى حرص على اقتنائها بنو الأغلب ثم الفاطميون من بعدهم .

وكانت خزانة « بيت الحكمة التى أسسها الأغالبة تمور بنفائس الأسفار وكان الأغالبة قد بذلوا الأموال الطائلة فى سبيل اقتناء الكتب من أقاصى البلاد وبأغلى الأثمان ».[٢]

ورحل أبو عبد الله إلى المشرق للتزود بالعلم ، كغيره من علماء المغاربة فقصد بغداد ، والتقى هناك بشيخه الآمدى (ت ٣٧٠ هـ) الذى أخذ عنه علوم اللغة والأدب ، والشعر خاصة .

وكان أبو عبد الله استاذا لكثير من علماء وأدباء عصره فى القيروان ، مثل ابن رشيق القيروانى صاحب العمدة الذى أكثر من النقل عنه ، وابن شرف القيروانى وابن الربيب الحسين بن محمد التميمى[٣] .

والتحق القزاز بخدمة المعز لدين الله الفاطمى منذ كان بالقيروان ، وصحبه إلى مصر وقد طلب إليه أن يؤلف له كتاباً فى النحو على مايقترحه عليه ، وظل بمصر على الأرجح حتى تولى العزيز بالله ، فقام بخدمته كذلك . كما عقد المجالس العلمية فى الأزهر وغيره .

وربما عاد فى عهد الحاكم إلى بلده القيروان ليستأنف جهوده العلمية ، ويأخذ عليه كثير من المشهورين من علماء القيروان وأدبائها آنذاك .

---

(١) راجع ترجمته الوافية للمنجى الكعبى فى كتابه عنه القزاز القيروانى ـــ حياته وآثاره ـــ طبع الدار التونسية سنة ١٩٦٨

(٢) المصدر نفسه ص ١٨

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧ وراجع ترجمته فى الانموذج لابن رشيق والذخيرة قسم ١

وظل بها حتى توفى سنة ٤١٢ هـ[١]

وترك من المؤلفات فى علوم اللغة والأدب ماعدته ثلاثة عشر كتاباً أو تزيد من أشهرها كتابه فى النحو الذى كلفه به المعز لدين الله وهو كتاب فى الحروف ، وإعراب الدريدية وشرحها ، وكتاب المعترض ، والمفترض ، ومايجوز للشاعر فى الضرورة ، والجامع فى اللغة ، والمثلث ، والعشرات ، والضاد والظاء ، والكلمات الشاكلة الصدر ، وفى الأدب : التعريف والتصريح ، شرح رسالة فى البلاغة ، معانى الشعر ، وأدب السلطان .[٢]

وابن القطاع الصقلى على بن جعفر السعدى ، وفد إلى مصر من بلده صقلية فى حدود سنة ٥٠٠ هـ عندما أحس بقرب تملك الفرنج لها . واتخذ مصر وطنا له فلقيه المصريون بالحفاوة والتكريم ، وقربه الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فصار من خاصته وجعله مؤدباً لولده فى علوم العربية وفنون الأدب .

روى عن أبى بكر الصقلى كتاب الجوهرى « الصحاح فى اللغة » ، واشتهر بروايته بين العلماء وله حواشى على الصحاح اعتمد عليها ابن برى النحوى المصرى فيما تكلم عليه من حواشى الصحاح وله عدة تصانيف فى اللغة والأدب منها فى اللغة : كتاب الأسماء ، جمع فيه أبنية الأسماء كلها . وكتاب الأفعال هذب فيه أفعال ابن القوطية ، وأفعال ابن طريف وغيرها فى ثلاث مجلدات .

وله كتاب « الدرة الخطيرة » فى شعراء الجزيرة أى جزيرة صقلية ، اشتمل على مائة وسبعين شاعراً وعشرين ألف بيت شعر . ونقل عنه العماد الأصبهانى فى الخريدة .

وله كتاب فى التاريخ عن « تاريخ صقلية »

وتوفى ابن القطاع بالقاهرة سنة ٥١٥ هـ ودفن قرب مقام الإمام الشافعى .

وعرف فى مصر من علماء النحو أبو بكر الأدفوى (ت سنة ٣٨٨ هـ) وهو من تلاميذ أبى جعفر النحاس ، ومن أشهر نحاة مصر فى زمنه ، وبرع كذلك فى علوم القرآن وله كتاب فى هذا يقع فى مائة وعشرين مجلداً .

---

(١) ذكر د. محمد كامل حسين أنه توفى بالقاهرة فى أدب مصر الفاطمية ص ١١٦

(٢) راجع المصدر السابق ص ٤٤ ومابعدها .

الفنــــون

العمــارة والزخــارف المعمــاريــة

عرف الفاطميون باهتمامهم بالعمارة ، وبناء القصور والمساجد والمدارس ، وحشدوا لها نابهى الصناع والمهندسين والفنانين ، فجاءت آية فى إحكام البناء وجماله وحسن تناسقه وبديع زخارفه .

تشهد بذلك آثارهم الباقية منها فى مدن القيروان والمهدية والمنصورية فى تونس ومساجد الأزهر والحاكم ومسجد الأقمر وغيرها كمسجد الصالح بن رزيك بالقاهرة وبدر الجمالى بالعطارين بالاسكندرية .

ومن قصورهم بالقيروان وافريقية قصر المنصور الكبير بالمنصورية بناه المنصور والد المعز سنة ٣٣٧ هـ . ووصفه الشاعر على بن الايادى المتوفى سنة ٣٦٥ هـ بقوله :

ولما استطال المجد واستولت العلا	على المجد وامتد الرواقُ المروَّقُ
بنى قُبةً للمُلكِ فى وسط جنةٍ	لها منظرٌ يزهى به الطرف مونِقُ
بمشوقة الساحاتِ أما عراصُها	فخُضرٌ ، وأما طيرها فهىَ نُطَّقُ
تحُفُ بقصر ذى قصور كأنما	ترى البحر فى أرجائه يتدفَّقُ
له بركةٌ للماء ملءُ فضائه	تخُبُّ بقطريها العيونُ وتُعنِقُ
لها جدولٌ ينصبُّ فيها كأنه	حسامٌ جلاه القينُ بالأرض ملصقُ
لها مجلسٌ قد قام فى وسط مائها	كما قام فى فيض الفرات الخورنَقُ
كأن صفاءَ الماءُ فيها لحسنهِ	زجاجٌ صفت أرجاؤه فهو أزرقُ
إذا بثَّ فيها الليل أشخاص نجمه	رأيت وجوه الزنج بالنار تحرقُ
وإن صافحتها الشمس لاحت كأنها	فرندٌ على تاج المعزّ وروَنقُ

وامتازت قصورهم بمصر بزخارفها وثراءِ ما استخدم فيها من الألوان وماء الذهب والأحجار الكريمة أحيانا . وقد عرفت قاعة الذهب أو قصره الذى كان به عرش الخليفة بثراء زخارفه ، وكانت حوائطه وسقوفه كلها مموهة بالذهب . وكذا ستوره المزركشة بجميل الزخارف وألوان الصور للانسان والحيوان والنبات .

وفى جامع المهدية الذى يرتكز مصلاه على أعمدة بينما تتكون بواتكه من عقود مدببة الرءوس قائمة على دعائم مبنية ، تلفت النظر منشأة أمامية فخمة على المدخل لم يكن مثالها معروفا قبل ذلك الحين .

وترتبط دور العبادة من المساجد وغيرها فى القاهرة بأنماط من الطرز المعمارية المشرقية والمغربية جميعاً ، مزج بينها المعمارى الفاطمى فى جمال وإبداع ، وتحس بعناصر من جامع ابن طولون الى جانب عناصر أخرى مقتبسة عن جامع عقبة بالقيروان .

وتبدو فى الزخارف التى تعلو مدخل الجامع الأزهر آثار فارسية وكذلك أروقة العقود المدببة فى المصلى ومنها رواق القبلة . وأما مايخف بالرواق من أعمدة مزدوجة فلعله متأثر بجامع القيروان .

وكذلك الحال فى جامع الحاكم ، بنى على غرار جامع ابن طولون ، وتوجد بمآذن الجامع الأقمر زخارف شاعت أنماطها بعد ذلك فى العمارات الفاطمية ، مثل جامع الجيوشى والصالح بن رزيك .

يقول الدكتور أحمد موسى :[1] إن المادة الحجرية التى استعملت بمقادير كثيرة لتزيين واجهات جوامع القاهرة قد عنى بزخرفتها فى حالات كثيرة . والظاهر أن النماذج المغربية كانت الأصل الذى اتبع فى بادىء الأمر ، ... وهو يشبه أكبر الشبه مثيله المعاصر له فى مدينة الزهراء بالأندلس » .

وتمتزج فى الأشرطة الزخرفية ببعض مساجد القاهرة كمسجد طلائع بن رزيك عناصر زخرفية من الأرابسك تمتزج فيها الآثار العباسية الشرقية بالآثار المغربية وتوجد فى بعضها شرائط ذات قاعدة من زخرفة الأرابسك عليها خطوط كوفية مزخرفة مريشة ومورقة . لايمكن إنكار أصلها القرطبى »[2]

وقد برع الفاطميون فى صنع المحاريب والمنابر الخشبية المزخرفة ، والأبواب الخشبية للجوامع .

---

(١) الفن الإسلامى ص ٤٩ لأرنست كونل وترجمة الدكتور أحمد موسى ــ طبع دار صادر بيروت سنة ١٩٦٦

(٢) المصدر نفسه ص ٥٠

وقد برع الفنان الفاطمى فى الزخرفة المنحوتة سواء على الخشب أو على الجدران والتى تصور عناصر بشرية وحيوانية ونباتية .

وافتن الفاطميون فى تشكيل وزخرفة أدواتهم التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية فى منازلهم وفى أعمالهم ، كما اهتموا بتشكيل وزخرفة الحلىّ واشتهرت الالات والأدوات المصنوعة من العاج ، وقد حفظت لنا بعض المتاحف الاسلامية مجموعة من الأبواق العاجية وصناديق الحلىّ تحمل ميزات النحت الفاطمى التى تتمثل فى رسوم الحيوان داخل دوائر ، ومناظر صيد .

كما امتاز الفنان الفاطمى فى صناعة وزخرفة أدوات المائدة كالدوارق والأكواب ، والكؤوس ، والصحاف ، وكلها مصنوع من البللور الصخرى وتحلى برسوم من الحيوان والطير ، وبعض الكتابات .

وقد أشرنا إلى أن الخلفاء كانوا يهدون فى بعض المناسبات الصوانى عليها صور لمغنين ومغنيات .

ونقلوا التصوير ذا البريق المعدنى من الأوانى الخزفية الى الزجاج وامتازوا فى صناعة بعض الأدوات من البرونز كالشمعدانات ، والمجامر ، والدفوف التى زخرفت بزخارف محفورة على سطحها تشمل كذلك عناصر حيوانية ونباتية .

ومنها صورة على شكل عنقاء محفوظة بأحد المتاحف(١)

وبرعوا فى صناعة الخزف ، واشتهر فى الفن الاسلامى « طراز الفسطاط » لما عثر عليه فى بعض أماكنها وحفرياتها من نماذج لهذا الفن .

النسيج والملبوسات :

وقد أشرنا الى امتياز مصر منذ قديم الزمان بمنسوجاتها التى اشتهرت بها فى العالم القديم والعصور الوسطى والتى عرف منها القباطى والديبقى ، وهى منسوجات غاية فى الدقة والزخرفة والمطرزة بخيوط من الذهب والفضة ، ومنقوش عليها نقوش وصورٌ لعناصر بشرية

(١) الفن الإسلامى ٥٤ ــ ٥٥

وحيوانية ونباتية .

واشتهرت بها بعض البلاد المصرية التى نسبت إليها ، كما أشرنا من قبل مثل تنيس ودمياط .

وبالغ الفاطميون فى العناية بالملبوسات ، ولهذا فقد أولوا مصانع النسيج جل اهتمامهم ، وبدت المنسوجات الفاطمية من التيل بالغة الجمال . وكان للحياة المترفة التى عاشها الخلفاء الفاطميون ورجال الدولة أثرها فى الاهتمام بالملابس المزخرفة من الثياب والعمائم .

وكان لاهتمامهم بكسوة الكعبة أثر واضح فى المبالغة بزخرفتها بالزخارف والآيات القرآنية ، المذهبة ، والمرصعة على ما أشرنا .

قال المقريزى ذاكراً ما كان يقدم من هدايا فى عيد كسر الخليج . « وقدم بين يدى الخليفة الصوانى الذهبية التى وقع التناهى فيها من أشكال الصور الآدمية والوحشية ، من الفيلة ، والزرافات ونحوها المعمولة من الذهب والفضة .

وذكر المقريزى أن هذه الصوانى بالتماثيل والصور كانت لاتقدم إلى رجال الدين والقضاة توقيرا للشريعة ، بل تقدم الى الخليفة والأمراء[1] .

وتدل هذه الآثار والأخبار جميعاً على مابلغه الفنان الفاطمى من درجة فى اتقان فن النحت والتصوير وذكر المقريزى أنهم كانوا يصنعون التماثيل من العنبر وغيره على شكل الفيلة والأنياب من الفضة والعينان من الجوهر كبيرتان وفى كل منهما مسمار ذهب .

يقــول :

« ويجلس الخليفة على سرير من خشب نفيس بمتكآت فضة وذهب وعليه عدة رجال ركبان وعليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رءوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدّرق ، وجميع ذلك فضة ، ثم صور السّباع منجورة من عود ، وعيناها من يواقيت حمراء .

كذلك اهتموا بالتصوير على السرادقات ، والخيام التى تنصب للخليفة وكانت تزين بصور لمناظر الصيد وعليها من الحيوان والانسان والنبات مايخلب عين الناظر .

وسبق أن عرفنا خيمة لسيف الدولة من هذا النوع جاءت فى وصف أحد الشعراء .

(١) خطط المقريزى ١/٤٧٩

وكذلك كان الحال عند الفاطميين .

ويحتفظ المتحف الاسلامى بالقاهرة بمجموعة فريدة من ألواح الخشب عليها صور بارزة مختلفة يمثل بعضها مجالس للغناء والطرب ، وبعضها مناظر للمنادمة ومعاقرة الشراب . وفى مشاهد أخرى منها ترى أصحاب آلات الإيقاع ، وبين أيديهم العود والبربط ، والرباب ، والدف ، والمزمار ، والمزهر ، إلى غير ذلك من الآلات الموسيقية .

ويرجع تاريخ تلك الألواح إلى القرنين الرابع والخامس من الهجرة . يعنى إلى زمن ازدهار الحضارة الفاطمية فى مصر .

ويقول الدكتور زكى محمد حسن عن تلك الألواح[1] :

« إن تلك الألواح الخشبية كانت مستعملة فى تغطية جدار بقصر الخليفة العزيز بن المعز لدين الله ، وهى مناظر منقوشة فيها رسوم مطربين ومطربات ، وعازفات على آلات موسيقية ، وراقصين وراقصات ، ورسم الأمير أو الخليفة جالساً على أريكة وفى يده اليمنى كأسٌ ، وفى اليسرى زهرة ، وعلى رأسه عمامة ، وإلى يساره الساقى يصب الخمر فى كأس ، وإلى يمينه تابع يقدم إليه صينية ذات غطاء ، المفروض أن تحته شيئا من الطعام أوالحلوى » .

قال حسن حسنى عبد الوهاب (ورقات ٢ ص ٢٠٣) :

« وقد وصلت نماذج من فن التصوير عند الفاطميين ، منها لوحٌ رخاميٌّ عثر عليه فى بعض انقاض مدينة المهدية عليه صورة نصف بارزة تمثل شخصين جالسين ، الأول جهة اليمين لأمير عربى متربع وعليه حلة حرير على زنديها توشيح طراز جميل ، وعلى رأسه تاج مرصعٌ بالأحجار الثمينة ، ويتفرع التاج من أعلاه إلى ثلاثة أفرع مثلثة الشكل على نمط التيجان الكروية عند الفرس وفى وسط الأمير نطاق محلًى أيضا بالجوهر ، وبيده اليمنى كأسٌ أوجامٌ من البللور ، وبجانب الأمير بالجهة اليسرى صورة مغنية متربعة أيضا وبيدها مزمارٌ طويلٌ تنفخ فيه » .

والملاحظ فى فن التصوير الفاطمى عدم تحرج الفنان من رسم الأشخاص والحيوان فهل

---

(١) التصوير عند العرب للدكتور زكى محمد حسن — طبع مصر سنة ١٩٤٢ ص ٢٥٦

كان هذا ترخصاً من الفنان الفاطمى من الناحية الدينية ، أم أن الفاطميين كانوا لايرون فى ذلك حرجاً ، وربما كان الحرج الذى أشار إليه المقريزى فى النص الذى أوردناه خاصا برجال الدين وتوقير الشريعة راجعاً لأمرين ، الأمر الأول : عزوف بعض شيوخ من مذهب أهل السنة عن مثل هذه الصور واستخدامها فى أدوات منازلهم ولباسهم اعتقاداً منهم فى تحريم الاسلام أو كراهته للصور معتمدين فى ذلك على بعض النصوص والآثار التى قد لاتكون ثابتة أو ربما لم يحسنوا تأويلها .

علماً بأن خلفاء المسلمين منذ عصر الأمويين لم يتحرجوا من تصوير الحيوان والانسان وقد وجدت فى بعض قصور الأمويين بالشام صور آدمية فيما كشف عنه من آثارها فضلاً عما تواتر من أخبار قصور العباسيين ببغداد وما كانت تعمر به من تماثيل للحيوان والطير ، وكذلك نوافير الماء والبرك التى عليها صور الحيوان ، ناهيك عن الأمويين فى الاندلس ومن تبعهم من ملوك المسلمين وأمرائهم فى قرطبة واشبيلية وغرناطة .

وقد يقال إن الشيعة ترخصوا فى هذا التصوير ، ولم يروا فيه حرجاً ، ولا كراهة وربما كان ذلك من أسباب اقبال فنانى ايران أو فارس من المسلمين ، وكذلك بعض فنانى الهند فى العصور الاسلامية المختلفة على التصوير للحيوان والبشر لشيوع مذهب الشيعة بين الفرس منذ قديم الزمان .

يقول حيدر بامات فى حديث عن الفن الاسلامى[1]

« نشأ الفن الاسلامى عن امتزاج طرز الشرق القديم الخاص بالبحر المتوسط . ولم يكد الفن الاسلامى يقوم حتى انتقلت صوره إلى مختلف شعوب دولة الاسلام المترامية الأطراف ، وتنتحلها هذه الشعوب ويكيفها كل واحد منها وفق عبقريته الخاصة ، ومايعانى من المؤثرات الأجنبية .

ويجادل النقاد فى أهمية ماللفن الجزرىّ أو البيزنطى ، أو القبطى ، أو الفارسى الساسانى ، أو الهندى أو المغولى ، أو الصينى من حصة فى الفن الإسلامى ، ولكن مع بقاء الأمر القائل بوجود طراز إسلامى يسهل تمييزه بين جميع الطرز . فهذه الوحدة فى الطراز تنشأ ،

---

(١) مجالى الإسلام ترجمة عادل زعيتر ــ الفصل الثانى عشر ص ٤٠٧ وبعدها .

قبل كل شيء عن الوحدة الروحية فى المجتمع الاسلامى ، وعن الشعور الخاص الذى أوجبته تعاليم القرآن .

ومما ساعد هذه الوحدة ، وسهل أمرها مابين شعوب الشرق من تجانس نفسى وما ساد بينها من الصلات الثقافية والتجارية الكثيرة التى دامت حتى فى أدوار الانقسام .

وقد أعان العامل الدينى على منح الفن الإسلامى صبغة روحانية مجرَّدة إلى الغاية ، وما بين جميع شعوب الشرق من أذواق مشتركة حملها على الإمعان فى الزخرفة وحب الأشكال الهيف والكلف بالمواد الثمينة .

ومما وقع غالباً أن عوتبَ القرآن (كذا) على فرضه بتحريم محاكاة الوجوه الحية الى صيغة كثيرة التجريد مما أضفى صبغة ومسحة على الفن الاسلامى . فعرف بتقييده ثم إضعافه حسَّ التصوير الماثل لدى الأمم التى دخلت الإسلام . وهكذا يكون الفن الاسلامى قد حصر منذ البداية ضمن رسوم ضيقة ، فما كان فن التصوير وفن النحت ليزدهرا بهذا ازدهاراً طبيعيا . ومن ثم أتيح للمتفننين أن يتمثلوا أزهى مايكون من المركبات الزخرفية ماخلوا من قدرة على إحياء أشكال حكم عليها أن تبقى بلا حياة .

لايؤيد القرآن هذه القضية الكثيرة الانتشار حتى بين المسلمين . أجل لقد حُدّ فى إثر الوثنية بشدة . ولكن لايوجد فى مكان منه ـــ القرآن ـــ حظرٌ صريح لتصوير الموجودات الحية . ويستند نفى صور الإنسان والحيوان الى أحاديث قليلة إلى الغاية ، يمكن أن تنكر صحتُها لعدم مطابقتها لنص القرآن وروحه » .

الموسيقى والغنـــاء

لقد اهتم العرب والمسلمون بالموسيقى والغناء منذ عصور الإسلام الأولى واشتهر بينهم جماعة من الموسيقيين والمغنين على اختلاف العصور وضرب بهم المثل فى الصنعة ، وتداولت كتب الأدب والتاريخ أخبارهم ، وشاع هذا فى المشرق والمغرب والأندلس على السواء . وكما أن الفن الاسلامى المعمارى والتشكيلى قد ظهرت فيه سمات خاصة بالعرب والمسلمين ، واكتسب مع الزمان ملامح جديدة بما أضافه إليه تراث الأمم التى دخلت الاسلام من فرس وهنود ومصريين اقباط ومغاربة وغيرهم وقد أثرت تلك الملامح تيار الموسيقى وأضافت إلى الغناء إضافات عديدة لكنها لم تعدل به عن شخصيته وطابعه المورروث .

وكان الموقف من الموسيقى والغناء كالموقف من بقية الفنون التشكيلية من حيث التشدد أو التسامح والترخص فى أنواع منها ، أو جميعها ، وأقام المتشددون والمتسامحون والمترخصون حججهم على آثار منقولة لم تثبت بالقطع ، أو لم يفهموا مراميها أو أساءوا تأويلها وحرفوه عن جهته . لكنه لم يثبت فى نص قرآنى تحريم للغناء ولا الموسيقى ولا السماع .

وربما كان موقف التشدد من بعض المذاهب الاسلامية بخصوص موضوع السماع او الموسيقى والغناء مجرد رد فعل لما شاع فى بعض المجتمعات وتحت ظروف بعينها من تطرف فى الأداء ومصاحبة الموسيقى والغناء بصور من الخلاعة والمجون أدى ببعض علماء المسلمين إلى سد هذا الباب من باب سد الذرائع مادام هذا سيكون مدخلاً للهو غير المستباح والمتعة المحرمة .[1]

وقد أشرنا إلى أن الشيعة عامة وقفوا من الفنون جميعها والمتعة الحلال والزينة غير المحرمة بنص قرآنى أو حديث صحيح ثابت يرتضونه موقف الإباحة . والأصل فى هذه الأمور الاباحة مالم يرد نص واضح وصريح فى التحريم وليس العكس .

وهكذا كان الحال فى الدولة الفاطمية ، لم يحرموا المتعة والزينة ، حتى بالغ الناس فيها ، كما بالغ بعض الخلفاء ، والناس على دين ملوكهم ، وأحدث الفاطميون مناسبات كثيرة جعلوها مواسم للفرحة والبهجة والموسيقى وسماع الغناء .

ومر بنا فى الحديث عن الحياة الاجتماعية صور من تلك الاحتفالات . وعرفنا كيف كان الخلفاء يهتمون بالموسيقى وسماع الغناء فى قصورهم . ويحرصون على اقتناء الجوارى المغنيات ، ويدفعون فيهن أثمانا غالية ، كما كانوا يجزلون العطاء للمغنين والموسيقيين . واشتهر الأمير تميم بن المعز بحبه للسماع ، حتى إنه كان يؤلف الشعر ليتغنى به بعض جواريه . ويحرص على اقتناء المغنيات من كل مكان ، وقد دفع مبلغاً كبيراً من المال لشراء قينة مغنية من بغداد ، ثم جاءت الى مصر ولم يدم بقاؤها فى قصر الأمير حتى عاودها الحنين الى بلدها فأعادها ، وانتابه بعدها لحزن لفراقها .

وعرف « برجوان » الذى كان من كبار أعوان العزيز بالله ثم صار وصياً على ابنه الحاكم

---

(١) راجع ماذكره ابن عبد ربه فى موضوع تحريم الغناء وتحليله بالعقد الفريد ٣/١٧٨ ونقله فارمر ص ٣٧ ومابعدها ترجمة حسين نصار

من بعده بحبه للموسيقى وشغفه بالغناء حتى إن ذلك شغله عن مهام الدولة كما يقول المؤرخون .

وكان القرن الرابع الذى ظهر فيه الفاطميون بأفريقية ومصر عصر ازدهار للموسيقى والغناء فقد كان البويهيون فى المشرق والمغرب ممن يعشقون هذه الفنون ، واشتهر بهذا العشق جماعة من سلاطين البويهيين ــ الشيعة ــ كعضد الدولة ، وبهاء الدولة .

كما اهتم الحمدانيون فى حلب بالموسيقى والغناء ، ونشأ فى بلاطهم الفارابى الذى وضع كتابا فى الموسيقى ، وكذلك فعل ابن سينا من بعده فى دولة البويهيين، كما جمع أبو الفرج الأصبهانى كتاباً فى الأغانى والموسيقى يعد مرجعاً هاماً على مدى التاريخ لهذين الفنين .

وكذلك كان الحال فى مصر فى عهد الفاطميين ، وتعرف أن الوزير المغربى الحسين بن على والذى وزر أبوه للحاكم قد جمع كثيرا من الأغانى فى كتاب .[1]

ويقول العلامة التونسى حسن حسنى عبد الوهاب[2] :

« إن الموسيقى وفنون التلحين كانا من أجل اهتمامات الفاطميين فى مرحلة ملكهم بالمغرب وظلوا عليه حين ذهبوا إلى مصر » قال : « وقد اعتنى بشأنه الملوك الفواطم مدة اقامتهم بأفريقية عناية خاصة ، وساعد على ذلك ــ فيما نظن ــ انتسابهم الى النحلة الشيعية التى لم تكن تر بأساً فى السماع للإيقاع ، كما لم تقل بتحريم التصوير بل إنها كانت تجوّز تمثيل الأحياء من آدميين وحيوان فى صورة بارزة منحوتة من الرخام والنحاس ، أو مرسومة بالأدهان على الجدران والمنسوجات والبسط تمثيلا واقعياً أو خيالياً متقناً » .

ويقول : إن الصلات بين تونس ومصر الفاطمية كانت قوية لأن الفاطميين كانوا خلفاء أفريقيا ويدين لهم أمراء صنهاجة بالولاء .[3]

وأشار النديم ابن الرقّيق إلى اهتمام الناس فى القيروان بالموسيقى والغناء فيما رواه عن الحاجب عبد الوهاب أحد رجال أمراء صنهاجة المرموقين بالقيروان فقال : « كان

---

(١) راجع تاريخ الموسيقى العربية د. هـ.ج. فارمر ترجمة حسين نصار من سلسلة ألف كتاب رقم (٧) ــ طبع مكتبة مصر بالفجالة سنة ١٩٥٦ م

(٢) ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية ٢/٢٠٣

(٣) المصدر نفسه ٢/٢٠٨

حاجب الدولة فى مدة المنصور بن زيرى والى القيروان من قبل المعز لدين الله وابنه العزيز . قال : « وهو من ادركته وعاشرته ، وذكرته هاهنا لأنه يلحق بالأمراء المتقدمين غير خارج عنهم ... وكان قد قطع عمره وأفنى دهره فى اللهو واللعب والفكاهة والطرب ، وهو أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه ، وصنعة اللحون . كثيرا مايقول الأبيات الحسنة فى المعانى اللطيفة ويصوغ عليها الألحان المطربة البديعة المعجبة اختراعاً منه وحذقاً . وكانت له فى ذلك قريحة وطبع .

فكان إذا لم يزره أحد من إخوانه حضر مائدته وشرابه عشرة من أهل بيته .. وبعض غلمانه . وكل هؤلاء يغنون ويجيدون ، فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب ، فيدعو بالعود ويغنى لنفسه ولهم . وكان بشارة الزامِرْ يزمِزُ عليه — وهو من حذّاق زمرة المشرق ، وكان بعيد الهمة سمحاً . »

ويقول انه كان يرحب بكل من كانت له فى صنعة الغناء حنكة ، أو كان له صوت مطربٌ أو حكاية نادرة . ودخل عليه أحد الطارقين ممن يحسن الغناء ، فرحب به ، ودار الغناء فى المجلس كالعادة حتى انتهى الى هذا الطارق الغريب ، فسكتوا واندفع الرجل يغنّى بصوت ندىّ وطبع حسن :

ألا ياديارُ ما الهجــــــــرُ	لســكّانِــكِ مــن شــانِى
ولو شــئت لما اســتقســيـ	ـتُ عيشاً غير أجفانـــــى
وما الدهـــــر بمأمــــونٍ	عــلى تشــتيت خــلانى

فطرب عبد الوهاب وصاح ، وتبين الحذقَ فى إشارته ، والطيب فى طبعه ، فقال : ياغلام خذ بيده إلى الحمّام وعجّل علىَّ به ، فأدخل الحمّام ونظّف ، ثم دعا عبد الوهاب بخلعةٍ من ثيابه فألقيت عليه ، ودفعه فأجلسه عن يساره ، وأقبل عليه وبسطه فغنى له :

قومى اسرجــى التبرَّ باللُّجيْنِ	واحمــلى الرَّطــلَ باليــديــنِ
واغتنمــى غفــلة الليــالــي	فــربما أيقظتنــى لحــينِي
فقــد لعمــرى أقـــرُّ منــا	هـــلالُ شــوّال كــلُّ عــينِ
ذات الخــلاخيــل أبصــرتــه	كنصــفِ خــلخالها اللجــين

فطرب ، وشرب ، واستزاده ، فغناه ، فمر يوم من أحسن الأيام وأطيبها ، ووصله ، وأحسن

اليه ، ولم يزل عنده مقربا مكرماً »[1]

ومن أشهر آلات الموسيقى فى ذلك العصر والتى ورد ذكرها فى الأخبار العود والمزمار ، والطنبور ، والصنوج ، والدّف[2].

---

(1) المختار من قطب السرور للرقيق .

(2) راجع تاريخ الموسيقى العربية ص ١٨٢/١٨٤

الباب الرابع
النثر
الكتابة والكتَّاب

فنون النثر
الخطابة
الكتابة
الرسائل والسجلات
المؤلفات الأدبية ــ السير الذاتية ــ الرحلات
الدراسات والنقد
أشهر الكتاب الفاطميين

الأدب الفاطمى بشتي صوره النثرية والشعرية صورة لتلك الحيوات السياسية والاجتماعية والفكرية والفنية ، تتجلى فيه عناصرها جميعا ، والتى أفضنا فى ذكر بعضها وأوجزنا فى ذكر بعضها الآخر حسب ماأمدتنا به مصادر العصر التى لمسنا فيها شحاً ملحوظا لأسباب أشرنا إليها فى حينه .

والظاهرة التى ينبغى أن لا تغرب عن بالنا فى هذا الأدب بصفة عامة تتمثل فى عدة عناصر ، كلها كانت آثاراً للبيئة ، وما ساد فيها من أحداث وأحوال سواء فى دنيا السياسة والملك والحرب والصلح والصراع على السلطة بين الدول أو بين الأفراد ، والجماعات ، والقبائل والأصقاع على اختلاف انتماءاتها العرقية والإقليمية ، أو فى دنيا الحياة ، والسلوك والتقاليد ، ورفاهة العيش ونعمته ويسره ، وسعادته وبلهنيته ، أو عبوسه ، ونكباته ، ووحشته ، وبؤسه ، أو فى الفكر والثقافة والفن ، وما سادها جميعاً من تيارات نابعة مما استحدث فى هذه الدولة من قيم دينية وعقلية ، وجرأة فى مناقشة بعض الثوابت الدينية فى حرية ، على ضوء العقل والمقاييس العلمية ، وما صاحب هذا كله فى دنيا الفن من تحرر فى القيم الفنية أيضا واعتماد المضمون دون الشكل وحده ، مع عدم إهمال هذا الشكل الذى يكسب الأعمال الفنية قبولاً لدى الحِسّ ، يلذ له ، ويرتاح .

كان الأدب إذاً صورة لهذا كله ، وقد تنوعت أساليبه ، وأشكاله وإن ظل في صورته العامة على ماجرت به أقلام الأدباء والكتاب ، أو تحدثت به وانطلقت ألسنة الخطباء والمحدثين ، أو جادت به وتغنت قرائح الشعراء والمنشدين .

ونتناول فى أول عرضنا لفنون الأدب فى العصر « النثر » بكل أشكاله الخطابة ، والرسائل والسجلات ، والكتب الأدبية ، والسير والسير الذاتية والدراسات الأدبية والنقدية .

وتنوعت بيئات الأدب فى بلاد الدولة من المغرب إلى المشرق ، وكانت أهم بيئاته وأكثرها عطاء ونشاطاً مصر والقاهرة ، والقيروان وأفريقية والشام وبخاصة فى عواصمها دمشق وحلب ، والجزيرة الموصل ، وميافارقين ، والحجاز ، واليمن .

وكانت حاضرة الدولة الأولى « القيروان » وما يتصل بها من المدن التى أنشأها الفاطميون كالمهدية والمنصورية مركز النشاط الأدبى والفكرى فى الدولة ، ثم انتقل هذا

المركز بعد انتقال سلطة الخلافة إلى القاهرة . وظلت مع ذلك القيروان مركز إشعاع وعطاء مستمر وتبادل بينها ومركز الخلافة الجديد فى مصر والقاهرة .

الخطابـــة

كانت الخطابة الدينية هى السائدة فى العصر ، ومعظمها فى مناسبات يوم الجمعة ، والعيدين ، وقد يخطب الخلفاء الأئمة الفاطميون فى مناسبات أخرى كما فعل المعز لدين الله الفاطمى عند وفاة أبيه المنصور . وكان قد كتم خبر وفاته .

قال صاحب عيون الأخبار[1] :

« وكتم أمير المؤمنين المعز لدين الله عليه السلام وفاة والده المنصور صلوات الله عليهما من آخر شهر شوال يوم وفاته إلى عاشر ذى الحجة يوم النحر ، وقد خرج لصلاة العيد ، وعليه شعار السكينة ، ، وهيبة الإمامة ، فصلى صلاة العيد ثم ارتقى المنبر وخطب خطبته التى أظهر فيها وفاة أمير المؤمنين المنصور بالله . عليه السلام فقال :

بسـم الله الرحمـن الرحيم وبه نستعين

الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الأعز الأقدر الخالق ، المدبر ، ذو الكبرياء والجبروت ، والعزة والملكوت ، الأحدُ ، الصمدُ ، الفردُ المنفرد ، الأعلى القاهر ، الباطن الظاهر ، الأول الآخر مبدع السماوات والأرض بالقدرة ، ومالكها بالعزة ، ومدبرها بالحكمة ، وخالقها بما فيها من عجائب الفطرة ، وبدائع التركيب والصنعة ، الذى كل شيء من موات وحيٍّ ناطقٌ بالدعاءِ له ، والدلالة عليه والشهادة له بالتوحيد والتعظيم والتمجيد . فتكوينه الأشياء كُلَّها من عدم شاهدٌ بأن لا شيء قبله ، وانتهاؤها إلى الغايات دليلٌ على ألّا غاية له . واحاطته بحدودها منبيءٌ بأن لا حدَّ له . فالضعف والعجز ، والفقر والنقص الذي لم يخل منه مخلوقٌ أفصح ناطق وأصدق شاهد للخالق وحده جل ثناؤه بالإلهية والفردانية ، والقدرة والربوبية ، والتمام والكمال ، والأزل ، والدوام . تبارك الله ربُّ العالمين أحسن كلَّ شيءٍ خلْقه ، وتكفَّلَ لكلِّ حيٍّ رزقه ، ثم هدى بالعقل الذى قامت به حجته ، ووجبت طاعتهُ ، والكُتُبِ والرُّسلِ الذي تمت بهم حكمته . فصلّي الله عليهم أجمعين ، وعلى محمد سيد المرسلين الذى رفع

---

(١) عيون الأخبار ص ٢٤ .

ذكره ، وأعلى قدره ، فكرّمه بالوسيلة ، واختصه بكل فضيلة ، وابتعثه هادياً للعباد ، ونوراً فى البلاد علّم به من الجهل وهدى به من الضلّ ، وكثر به القلّ ، وأعز به من الذلّ ، فألف به بعد الشتات ، ونوّر به دياجير الظلمات . صلوات الله عليه وعلى آله المهدين . الأخيار الطيبين .

يأيها الناس . إن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يهملكم سدًى ، ولم يجعل عليكم فى الدين حرجاً ، ولم يضرب الذكر عنكم صفحا ، للعبادة خلقكم ، وبطاعته وطاعة رسوله أمركم ، وجعل للطاعة أعلاماً منصوبة ، وفروضا مكتوبة . ومن أفضل أعلامها ، وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق مَبْوَأ إبراهيم خليل الله عليه السلام ، وقبلة محمد رسول الله ﷺ . فتقربوا إلى الله بما أمركم به ، ورزقكم إياه من بهيمة الأنعام ، مقتدين لنبيِّه محمد نبى الرحمة والهدى ، مستشعرين لله التقوى . فإن الله عز وجل يقول : ﴿ لن ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوي منكم ﴾ فبالتقوي تقبل الأعمال ، ويدركُ الأمل .

وكبِّروا الله على ماهداكم ، واشكروه على ما أولاكم ، ألا وإنَّ خير الهدْيِ الإبلُ وخير الإبل إناثها ، وكذلك من البقر ، ثم الفحول من الضأن . وسلامة الضحايا سلامة العين والأذن ، وأن تكون من حلال الأموال .

نسأل الله لنا ولكم قبول العمل بامتنانه ، وبلوغ الأمل من رضوانه ورحمته وإحسانه .

ثم جلس جلسة خفيفة وقام للخطبة الثانية فقال :

الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر الله أكبر شأنا وأعظم سلطاناً وأوضح آيات وبرهانا عن أن تنكر العقول توحيده ، أو تروم تحديده خالق السماوات والأرض ، ومالكها ومُدبِّرها الفردُ الصمد ، الواحدُ الأحد الذي لاشريك له ولا ولد الخالق القدير ، الرحْمن الغفور ، النافذ قضاؤه ، الكائن مايشاؤه ، المتقن كلَّ شيءٍ صنعا ، الواسع كلَّ شيءٍ رزقا ، والمحيط بكل شيء علما .

أحمده وأستعينه ، واستغفره ، واستهديه . وأفوّض إليه ، وأتوكَّلُ فى كل الأمور عليه .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً خيرتُه من عباده ونجيُّه من بريته ، وصفوتهُ من المتطهرين ، ورسوله إلى كافة العالمين ، وبعثُه بالإمامة إلى الثقلين ليبلغ حجة الرب ، ويوضح محجة الحق . فأدّى رسالة الله ، ورحم ورأف بعباد الله ، وصبر على الكبار من مكر الكفّار . إلى أن أدال الله للحق على الباطل ، والهدى على الأحفائل ، محمد ﷺ وآله أفضل الصلاة وأزكاها وأتمها وأكملها وأتماها ، وأخلدها وأبقاها .. وعلى الأئمة من عترته المهديين الكرام الأبرار الذين اختارهم الله للخلافة ، وارتضاهم للإمامة . وأكد بوصية الرسل حجتهم ، وأوجب فى التنزيل طاعتهم ، بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين . وعلى أفضل الوحيين ، وعلى أمه سيدة النساءِ ، وخامسة أصحاب الكساءِ صلى الله عليهم أجمعين ، وعلى أمير المؤمنين المهدى بالله ، والقائم بأمر الله ، سيّدَىْ الوَرى ، وإمامى الهدى اللذين أعلن الله بهما دعوة الحق ، وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين ، وأقام بهما معالم الدين ، وأزهق بحقهما باطل المدعين ، وأكاذيب المتخرصين ، وقطع بسيوفهما دابر الظالمين .

صلوات الله ورحمته ، وبركاته ورضوانه وتحياته عليهما . اللهم أخصص الإمام الفاضل والوصىَّ العادِلَ ، والبرَّ الفاضل والغيث الوابل ، ذا الآيات الباهرات ، والمعجزات النافذات الباذل نفسه الكريمة فى حين الأزل والكربات ، الصابر فى الباساءِ والضرَّاء حتى طهَّر الأرض من جبابرة الأعداء ، عبْدَك وولِيَّك ونجيكَّ وصفيُّكَ ، أبا طاهر المنصورَ بك ، والمتوكلِّ عليك والمفوّض إليك ، العامل بما يرضيك ، ويقرّب إليك ، ويُزْلِفُ لديْك ، الذى فجعتنا بفقده ، وأوحدتنا من بعده ، وأفردتنا منه ، وأوحشتنا ، فقلبتَ دُعاءَه ، وأجبت نداءَه ، وجمعت بينه وبين أحبته فى مستقر جنتك وسعة رَحمتك .

وإِن القلقَ وشدَّة الحُرقِ عليك ياأبتاهُ ، ياسيداه ، ياإسماعيلاه ، ياأبا الطاهراهُ يابحر علوم الأئمة الطاهرين ، الهداةِ المهديين ، يابقية أبناء الرسول ، وأولاد الوصى الطاهرةِ البتول . ياإمام الأئمةِ ، ومفتاح بابِ الرحمةِ . ياسراجَ الهُدَى ، وشمس الوَرَى ، يامخصوصا من الله بتعجيل الكرامة ،

عظمُ والله علينا المصابُ بكَ ، وحلَّ البلاءُ ، وعدمَ العَزاءُ لفقدك ، وقصرت الألسن عن إدراك إحصاء فضائلك ، وتعداد مناقبك .

فو الذي اختصك بكرامته ، وحماك بجزيل عطاياه ، وشرَّفَكَ بأُبوَّةِ رسوله ، لولا ما أوعزت إليَّ به ، وأكدَّ عليَّ من القيام بحقِّ الله ، والذَّبِّ عن أمة جدِّك رسول الله ﷺ ، واستنقاذهم من غمرةِ الجهالةِ ، وبحار الضلالةِ ، ومهَاوِى الفتن ، ومعاطب المحن . وما تقرر عندى ، ورسخ فى صدرى من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله ، ولأئمةِ الهُدى لضَرَبْتُ على وجهي سائحاً فى البلاد ، قالياً للمهاد ، راضياً ببلغةٍ من الزاد إلى أن يُلحقنى سريعا بك فأفوز بقربك ورحمة ربك . لكنى فكرتُ ، ونظرتُ وتَدبَّرت ، فلم أرَ لى وجهاً استوجبُ به درجتك واللحاق بشرفك سوى الصبر والاحتساب ، فتجلّدتُ ، وصبَّرنى ربّى فصبرت ، وغلب علّى النبىُ فأمْسَكْتُ ، فأقولُ إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلىّ العظيم الرحمن الرحيم ، له الحمد على ما أبلى والشكر على ما أولى .

معاشِرَ أوليائنا ، والقائلين بطاعتنا ، والمتمسكين بولايتنا هذه والله المحن الشّداد والمنضجةُ للأكباد ، هذه الزلازل العَظام التى لاتثبت لها الأقدام . هذه المشاهد التى لم يأْلُكُمْ ائمتكم لها تثبيتاً ، ولم تتزل راغبة إلى الله فى تثبيت أقدامكم ، وعصمة قلوبكم عند حلولها بكم ووقوع المحنة فيها عليكم . فتثبتوا تسلَمُوا ، ولا تضِلُّوا لتندمُوا ، فلن يخلى الله أرضه وعصره فى كل زمانٍ من قائم لله بالحق ، شاهدٍ على الخلق ، يقرُّ به المؤمنون ، ويجحده الكافرون الضالون الأخسرون ، إن الله بحمده خالقَ الخلق من غير حاجةٍ كانت منه إليهم ، لكن لعبادته وإظهار فضله وجوده عليهم . وجعل الحياة فيهم قوة عاملة ، والموت كأساً دائرة . وما بعد الموت جزاء للعمل ، وبيّن لهم بين هذين نهج السبيل برسلة المنتجبين ، وبأئمة الهدى المختارين . وجعل ثوابهم وحظهم على مقدار بلاغهم وقيامهم ، واضطلاعهم بأمره وإرشاد خلقه . وجعل بينهم درجاتٍ فى الفضل فقال جل ثناؤه ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير ﴾ . تبارك الله ربُّ العالمين الذى لم يرض بالدنيا ثوابا للمؤمنين ، ولا عقاباً للكافرين .

ياأيها الناس ! ما من حيٍّ إلا وهو رهينٌ بالموت ، ولا موتَ إلا وبعده نُشُور ، ولا نُشورَ إلا بحساب ، فثوابٌ أو عقاب ، فطوبى لمن يتقى الله متمسكاً بحجزةِ أوليائه ، معتصما بعصمتهم ، قائما بلوازم الطاعة المفترضة عليهم بحججه وأصفيائه ، متفيئاً بظلال ألوية عترة رسوله محمد سيد المرسلين ، يوم لاينجى إلا الدين ، ولا ينفع إلا

صحة اليقين . ﴿ يوم تجد كلُّ نفس ماعملت من خير محُضراً ، وما عملت من سوءٍ تَوَدُّ لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوفٌ بالعباد ﴾ .

ياأيها الناسُ إنما الأعمال بخواتمها ، والجزاءُ من الله بحسب الوفاءِ لله ولرسوله ، ولأئمة الهُدى من ذرية الرسول . وقد شاهدتُم سيد الأئمة ، وراعى الأمة ، وسراجَ الدُّجنة فى مواطن ومشاهد قضى فيها فرض ربه عليه ، وأدَّى وديعة جده محمد لديه . وبيَّن لكم من سنته ما أن اقتديتم به لن تضلُّ ، ولن تبتَّ أيديكم من رحمة الله . ولن تعشو أبصاركم عن قصد السبيل الأقوم ، والتمسك بالدليل الأعظم ، وما من وليّ سالِف إلا وبعده وصيٌّ خالف ، قائم لله بحقه ، منجز ثوابه ، عامل بما يرضيه حسب طاقته ، ومنتهى استطاعته. ولا يكلّف الله نفساً إلا وسعها ، ولا يرتضى للقيام بدينه وهداية خلقه ، ورعاية أمة نبيه إلا الأفاضل الأمجاد . ذوى الهمم العالية ، والأخلاق الرضية ، والنفوس الأبية من خالص الذريّة .

وقد جرت سنة الله فى خلقه ، ونفذ فى حكمه ما لا يستطاع له جحد . ولا للقول به رد . من مواصلة الرسل لتبين السبل فى الزمان بعد الزمان ، ولإعلان دينه حسب الإمكان . وأوجب للعباد الثواب بطاعتهم ، وإجابة دعوتهم ، وقبول هدايتهم ، والعقاب باسخاطهم وجحدهم وإنكارهم وليس المؤمن بأولهم جاحداً لآخرهم ، ولا ينفع جاحدُ أولهم تصديق آخرهم للثواب والرحمة . من العذاب الأليم ، والخزى العظيم ، وقد قرن الله طاعته أئمة الهدى بطاعة الرسل ، طاعةَ الرسل بطاعته قال الله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ كذلك جرت عادته فى الأنبياء والأوصياء ﴿ لن تجد لسُنّة الله تبديلا ﴾ و ﴿ ولن تجد لسنة الله تحْويلا ﴾ . وهل لمقرٍّ بنبوة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام حاجة بتفضيل محمد سيد النبيين وخاتم المرسلين إذا أنكر نبوته ؟ . وهل له انتفاع بأعماله أو ثوابٌ لعبادته ؟ .

النور أيها الناس فينا مصون ، وعطاء ربكم لنا غير ممنون ، فأين تذهبون ، وفى أى أرض تتيهون هيهات ، هيهات لما توعدون . فأطيعونا تهتدوا ، وتمسكوا بحبلنا ترشدوا ، واعملوا بما تفوزون فى أخراكم تسعدوا ، ولا تجعلوا أكثر همكم دنياكم ، فإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أبا الأئمة المهديين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين قال : « إن اللهِ أحل حلالاً وأعان عليه ، وحرَّم حراماً وأغنى عنه » .

فدعوا ماقلَّ لما كثر ، وما ضاق لما اتسع ، فقد أمركم بالعمل ، وتكفل لكم بالرزق ، فلا يكون طلب المضمون لكم أولى من طلب المفروض عليكم .

اللهم أوزعنى شكر نعمتك ، ووفقنى لما يرضيك ويقرب إليك ، ويوجب المزيد من فضلك والذخر عندك بإتمام نعمتك علىَّ فى الدنيا والآخرة .

إله الخلق ! ربَّ العالمين ، اللهم أيدنى بنصرك ، وافتح لى على أعدائك فتحا مبينا تحيى به الدين ، وتعز به ملة محمد سيد المرسلين . وارزقنا زيارة قبره ، والارتقاء على منبره ، وحلول داره عليه السلام . وقضاء الحج إلى بيتك الحرام ، والوقوف بتلك المشاهد العظام براياتنا ، وقد جددت لنا العز ولأوليائنا ، وقد أيدتنا وإياهم بالنصر ، وأكرمتنا بالظفر وأظهرتنا على القوم الظالمين ، وأخضعت لنا رقاب العاصين ، وقد تقدم منك الميعاد للآباء والأجداد ، ولا خلف لوعدك ، ولا رادَّ لأمرك ، والرضا والتسلي بما قضيت ، عجّلت أو أجلت .

اللهم اجعل ما قنعت به من إحسانك ، وما تجدد لى من فضلك ونعمتك علىَّ وعلى العباد رحمة منك . اللهم واقرن بكل عزٍّ تجدده لى ذلاً تسكنه قلبى لعظمتك وجلالك وهيبتك فلا عزّ إلا فى الخضوع والعبودية لك ، ولا غنى إلا فى الفقر إليك ، ولا أمن إلا فى خوفك ولا سعادة فى الدنيا والآخرة إلا برضاك ياربَّ العالمين .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات واخصص أولياء دولتنا ، وأنصار دعوتنا المجاهدين الصابرين الشاكرين من رحمتك بما استوجبه من طاعتك ، وقضاء فرضك ، وموالاة أوليائك ، ومعاداة أعدائك ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين فى الأولين والآخرين .

اذكروا الله العظيم يذكركم ، واستغفروا الله لى ولكم ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله . » .

وهذه الخطبة فى صورتها العامة مثال لخطب الجمعة والأعياد ، بما انقسمت إليه من جزئين أو خطبتين ، الأولى والثانية ، وتعتبر الأولى افتتاحية وعظية يناقش فيها الخطيب قضايا دينية عامة ، ويسوق بعض الأيات والأحاديث فى موضوع الايمان والتوحيد والتمسك بأسباب الدين عامة .

وأما الخطبة الثانية فهى الرئيسية الأطول نسبياً ، فيها يعرض الخطيب موضوعاً يسهب فيه ويؤيده بأسانيد القرآن والحديث وأقوال الأئمة المذكورين . وقد كان موضوع خطبة المعز هنا وفاة والده المنصور ، وقد بدأ برثائه والترحم عليه ، وطلب الرضا من الله ، وإلحاقه به فى مكانه من ربه . ثم عرض لموضوع خلافته ، وتناول موضوع الوصية والولاية عامة ، ومكانة أولياء الله وأوصيائه ، وضرورة الطاعة للإمام المختار والوصىّ فقد فرض الله الطاعة على عباده لنفسه ورسوله ثم للإمام . وبدأ يعرض مبادىء دعوة الفاطميين وكيف أنهم أحق الناس بولاية أمر المؤمنين والدفاع عن دين الله ضد أعداء الله وأعداء دينه ، وأنه من يتمسك بالطاعة لهم فله الجزاء الأوفى ، وأن من يخذلهم ويعرض عنهم فله الخزى الدائم .

وتعرض الخطبة كالعادة هذه القضايا الدينية العامة التى لايختلف حولها المسلمون ، ويورد آيات من القرآن الكريم ، والحديث ويبدأ الخطبة ويختمها بأدعية مأثورة محفوظة تتردد دائما فى خطب الجمعة ولا يزال أئمة المساجد يلقونها على أسماع المصلين كل يوم جمعة .

والملاحظ أن الخطبة من حيث البناء الفنى مسجوعة ، لكنها لا تلتزم السجع بل يأتى السجع خلالها لتأكيد بعض المعانى والتركيز عليها لدى السامع حتى يردف تردد الصوت ، تكرار المعنى بصور مختلفة من اللفظ .

والفقرات متراوحة بين الطول والقصر ، فهى تقصر حين يريد التأثير فى السامع بنبض سريع الايقاع متتابع السجعات ، وتطول الفقرات حين يريد الشرح والبطء والتراخى فى عرض الموضوع أو المعنى الذى يتناوله .

وجدير بالذكر أنه يركز على أهمية العقل ، وأنه نعمة الله الكبرى .
يقول فى خطبته الأولى : « وتكفل لكل حىٍّ رزقه ، ثم هدى بالعقل الذى قامت حجته ووجبت طاعته ، والكتب والرسل الذين تمت بهم حكمته . » .

ولما كانت الخطبة بمناسبة عيد الأضحى فقد أشار كعادة كل خطيب فى خطبة هذا العيد أن يبين للناس سُنّتهم فى النحر والاقتداء بسنة نبيهم فى الأضحية والهدى . ونراه يعلن أن أفضل الهدى الإبل . ثم البقر .

والملاحظ كذلك أن هذه السنة اقتداء بفداء إبراهيم لاسماعيل بكبش على أرجح القول وعلى ما درج عليه معظم الناس ، فلم يجعل الكباش إلا فى المرتبة الثالثة من الهدى .

وقد طبق الخلفاء هذا فى حياتهم ، فكانوا يفدون بالإبل ، يذبحونها بعد صلاة العيد ، ثم يذبحون البقر والضأن بعد ذلك إذا شاءوا ثانى أيام العيد أو فى اليوم نفسه بعد ذبح الإبل .

ربما لأن الله قد كرم الإبل فى القرآن بذكرها فى أكثر من موضع ، ولما كان لها فى نفوس الرب من مكانة عظيمة ، وكانوا يقدمونها قرىً لمن يكرمون ، ويريدون الزيادة فى إكرامه .

ولما كانت الضحية قرباناً لله ، وزلفى ، فقد كانت أفضل مايتقربون به إلى الخالق سبحانه .

وللخلفاء الآخرين خطب كذلك فى المناسبات ، نكتفى بإيراد هذه الخطبة نموذجاً لخطبهم ، ونعرض بعد ذلك نموذجاً لسجلاتهم أو منشوراتهم للناس عامة أو لأشخاص بأعينهم .

الكتابـــة

(١) الســجلات

وتعد السجلات الفاطمية نوعاً من الرسائل الديوانية التى يعالج فيها الخلفاء بعض الأمور الإدارية الخاصة بالدولة عامة أو رجالها كتقليد ولاية أو حسبة أو نقابة أشراف وما إلى ذلك أصدره وكان يتولى صياغة هذه السجلات كبير الكتاب فى ديوان الإنشاء غالباً . فمن أمثلة تلك السجلات العامة ماأصدره الحاكم بمناسبة منعه من سبّ السلف من الصحابة وبخاصة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما بعد ماشاع ذلك من بعض العوام فى العاصمة .

« بســم الله الرحمــن الرحيــم »

من عبد الله ووليه أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين إلى كل حاضر وباد .

أما بعد .

فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين . « لا إكراه فى الدين » .

مضى أمس بما فيه ، وجاء اليوم بما يقتضيه الصلاح ، والإصلاح بين الناس أصلح والفساد والإفساد بينهم مستقبح إلا من شهد الشهادتين أحق أن لاتنفكٌ له عروة ولا توهن له قوة بحيى على خير العمل يؤذن المؤذنون أولا يؤذنون ، ويخمس المخمسون ويربع المربعون فى الصلاة على الجنائز . ولا يعترض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ولا يشتم السلف ، ولا يَنْبغِى المخالف على من قبله خلف . تلك أمةٌ قد خلت لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تُسألون عما كانوا يعملون .

معشر المؤمنين

نحن الأئمة وأنتم الأمة .. عليكم أنفسكم ، لايضركم من ضَلّ إذا أهتديتم . إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون .

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على رسوله سيدنا محمد وآله الأكرمين . » .

ومنه السجل الذى أصدره الظاهــر بن الحاكم وقرأه على الناس أحد رجاله (١) :

« إن أمير المؤمنين بفضله العادل ، وأمره الفاضل ، وحسن نظره الشامل يحفظ نظام حنوده بعداً وقربا ، ويراعي أحوال رعيته شرقاً وغربا ، ويعتمد مصالحهم بضروب من السياسة تقضي بالصلاح فى تدبيرهم ، وتفضى إلى الإصلاح فى إمالة كبيرهم وصغيرهم ، فتكشف بمدودها الغمم ، وتعتبر بموقعها الأُمم ، وتتوكد بتوخى الحق فيها الأواصر والرُّحم، كذلك عرفاتُ الإمامة واقعةٌ مواقع السداد ، جامعة لمصالح العباد ، قاضية بمراشد الأمور فى الإصدار والإيراد . وما توفيق أمير المؤمنين فيما يبسط ويقبض ، ويبرم وينقض إلا بالله . عليه يتوكل ، وإليه ينيب .

وإنه انتهى إلى الحضرة حالُ جماعة من أوغاد الأرياف ، وأوباش الأطراف ، يأتون العظائم ، ويرتكبون الجرائم ، ويحتقبون المآثم ، وينتسبون إلى خيرة القبائل ، وبررة الأماثل الذين ميزهم الله فى دولتنا بالسوابق الصالحات ، وحماهم بعصمة طاعتنا عن البوائق المحرمات ، للاحتماء بهم والالتجاء إليهم متى وقع من الولاة جدٌ فى طلبهم . وأن هؤلاء الرعاة بجنياتهم الفارطة ، وأحكامهم القاسطة لايزالون يدخلون على أنفسهم ضررا بما يصدر من القبائح عنهم ، ويبرزون بأفعالهم الذميمة فسادا ومنكراً يؤدى إلى قتل من يقتل منهم ، فيجد بمستفظع أحداثهم السفهاء فى الباطل وصالاً ، والجهلاءُ فى التوصل إلى إثارة الفتنة مجالاً ، ويزداد الغواة زيغاً وبعداً عن أمر الله تبارك وتعالى ، ويترامى بهم الداء إلى حِطةٍ توقع التنافر والتشاجر ، وتحدث التضاغن والتناكر .

فأنكر أمير المؤمنين على ذلك إنكار مثله من الأمور التي تكسبُ سوءَ الافتراق ، وتولّدُ الاختلاف بعد الائتلاف ، وتقدح فى نظام أولياء أمير المؤمنين المنتجبين، وطوائف عساكره المنتخبين . » .

وأمر الخليفة الظاهر بكتابة هذا السجلّ المنشور وقراءته فى قصور الخلافة على كافة الحاضرين بها من أنصار الدولة وجنودها ، وسائر المائلين فيها من خدم المملكة وعبيدها ، ينهى جميعهم عن قبول منتسب إليهم ، أو متطارح عليهم ، لا اسم له فى الجرائد المجلدة ، ولا رزق له فى العطايا المقررة ، وأسقاط من هذه سبيله ، ووضع اسمه

(١) راجع تاريخ المسبحى طبع إنورد ص ٢٢ .

والمسجل أو السجل المنشور وثيقة رسمية يصدرها الخليفة .

وحذف ذكره ، وإزالة رسمه والإضراب عن الخطاب بنسب أحد منهم فى حدٍّ أو حقٍّ أو دم . إذ كان أمير المؤمنين ـــ لمحله فى الإمامة ومكانته من الخلافة ـــ يأخذ فى الحق من القوى للضعيف ، ومن الشريف للمشروف . ولا تأخذه لومة لائم فى إقامة حد الله ـــ عز وجل ـــ على واجبه المحتوم .[1] .

ومن سجل آخر للظاهر فى تقليد نقيب نقباء الطالبيين محمد بن علي الحسنى الرّسّى[2] .

« بســم الله الرحمــن الرحيـــم »

أما بعد ، فالحمد لله شافع إحسانه بالمزيد ، ومتابع إنعامه على الشاكر المستزيد ، ومجير المعتصم بحبله من كيد الكائد ، ومعيذ المستعيذين به من شر الحاسد ، الذى لا واضع لمن رفع ، ولا ضار لمن نفع ، ولا تفاوُتَ فيما خلق وصنع ، لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم يحمده أمير المؤمنين على ماأسبغه عليه من جلائل نعمه ، وأراه لديه من جسائم قِسمه ، ويسأله أن يصلى على جده محمد الذى ختم به عدة الأنبياء ، وأيده بجنود من الأرض والسماء ، وأمده بالبرهان المشتمل على النور والضياء ، وعضده بأبينا أمير المؤمنين عليٍّ خير الأوصياء ، وأوضح بهديِهِ الهدَى والرُّشد ، ونهج بمنهاجه الطريق الجدَد ، وأمره بالتعوذ من شر الحاسد إذا حسد . صلى الله عليه وعلى عزته المنتخبين وسلالته المنتجبين آباء أمير المؤمنين ، ما نطق ناطق وذرَّ شارق .

وإن النعم إذا حدثت حدث لأربابها منافسون ، وسعى عليهم بغيا وظُلْماً سعاةٌ مناصبون ، فلا يزالون موارد البغى والعدوان ، ويتآزرون فى قول الزور والبهتان ، ويحملهم التقصير والعى وسفه العقول والعمى على قدح فى المتميزين بخصائصها من أولياء الدولة وخدمها بأشانيع لا يضرهم الله بها ، وأباطيل تعود بالمضرة على ناصبها ومُربِّيها ، إقداما بجهلهم على كذب الإرجاف وجرياً على غلوائهم فى ذميم الاقتراف . وحسداً لذوى التقدم والاختصاص ، وكيدا يظنُّ معمله أنه يفضى بمن شرفته الحضرة بملابس نعمها إلى السلب والانتقاص . فلا نقَعَ الله غلة الحاسد ، ولا سدّد عزيمة المكر الكائد ، ولا أمتع جماعة أهل الحسد والمكر تَبْلِ محبوبهم ، وجعَل جمرات التأسف

(١) تاريخ المسبحى ـــ أخبار مصر فى سنين طبع هيئة الكتاب ص ٢٤
(٢) المصدر نفسه ص ٢٦

بجميل رأى أمير المؤمنين فى صنائعه متضرمة على قلوبهم .

ولو عقل هؤلاء الجهّال لانتهوا عما يقولون ، لأنهم يرجفون فيكذبون ، ويحكون فلا يصدقون ، ويتقربون بالميل والمحِال ، فيبعدُون ويُسترذلون ، ويسلكون مسالك المكر والخداع . ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

وإنه انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين ماأوقعه الخراصون من الإرْجافِ بصرفك عن نقابة الطالبيين ، وقبض يدك بعد البسط والتمكين . وتعلقهم في مواصلة التشنيع عليك بكذب الأقاويل وشبه الأباطيل ، تخلقاً بدنيء الأخلاقِ ، واستمراراً على قول الزور والاختلاق وما عراك لأجل ذاك من ضعف المِنَّة بعد قوتها ، وكلال العزيمة بعد مضائها وبسطتها ، ولا بدع فقد يُرجف الأشرارُ بالأخيار ، ويولعُ ذوو النقص بذوي الفضل والأقدار .

وما السبب الداعى إلى تغيير أمرك ، وإزالة نظرك ؟ . وأخبارك طيبة العرف ، وآثارك جميلة الوصف . ومرابيك فى الخدمة صائبة المقاصد ، ومساعيك فى السياسة زاكية المصادر والموارد . وأنت من أهل بيته أكسبتهم الطاعة مزية الفخر والنفاسة ، وحكمت لهم الدولة بالإقرار على ماإليهم من النقابة والرياسة .

وقد رأى أمير المؤمنين ـــ وبالله توفيقه ـــ تجديد إحسانه إليك ، وتوكيد إنعامه عليك وتكذيب المرجفين بسلبك ما فى يديك بما أمر به من كتب هذا السجل إليك ، وقراءته على رءوس الأشهاد ، والملأ من الخاص والعام ، بإحماد خدمتك ، وإظهار مكرمتك ، واستداد طريقتك ، وإيقاع الدلالة على لطيف منزلتك ، وتوخي بسط يدك ، وإمضاء جدك ، وتمكينك من التصرف فى مصالح ما نيط بك ، لتنسحم عنك مادة إرجاف المرجفين ، وأباطيل المبطلين ، وتخرص المتخرصين . فاعلم بذلك ، واجر على رسمك فيما هو مردود إليك من نقابة الطالبيين ، شملهم الله بالحضرة وسائر أعمال الدولة شرقا وغرباً ، وَبَرّاً وبحرا ، مشتد الأزر ، منشرح الصدر عزيز الأمر ، ساكنا إلى حسن نظرا أمير المؤمنين الذى أوجب إطالة ساعدك ، وإرغام حسودك ، عاملاً بحكم وصاياه وأمثلته التى اشتمل عليها سجل تقليدك . والله يحسن معونتك على القيام بفروض طاعته ، ويمدُّك بتوفيقه وتسديده ، بمنه وقدرته . والسلام عليك ورحمة الله . » .

فهذا تقليد بسجل منشور قصد فيه الخليفة الظاهر إلى إقرار نقابة الطالبيين لمحمد بن على الحسنى الرسّى ، وهو من الأشراف الرسّيين فى مصر ومن كانت فيهم النقابة منذ

جاء الفاطميون إلى مصر . ويبدو من السجل أن الأراجيف قد شاعت حول عزله . فأراد الظاهر أن يسكت هذه الأقاويل بإعادة التأكيد على توليته نقابة الطالبيين الأشراف على ماكان عليه .

والسجل لا يكتفى بالتقليد الرسمى المعهود ، بل أطال كما رأينا القول فى الحديث عن تلك الإشاعات ، وأراد الخليفة من كاتبة أن ينفيها ، وأن يظهر فى السجل رضى الخليفة وثقته فى النقيب بمختلف العبارات ، ويسوق لذلك الحجج والمبررات ، فالرجل لم يؤخذ عليه مأخذ يجعل الخليفة لا يرضى عنه ، بل يسير فيما يتولاه من أمور النقابة على الوجه السديد الذى لا تؤخذ عليه لائمة . فما الداعى لصرفه عنها ؟! .

اللهم إلا الحسد لكل صاحب نعم ، على ماأولاه الله إياها ، وماأكسبه من القربى لدى الظاهر .

والرسالة أو السجل كما نرى لا يسرف فى صنعة اللفظ اللهم إلا هذا السجع غير المتكلف ، والمعتاد فى مثل هذه الكاتبات على طريقة العصر . مع الاستشهاد ببعض آيات القرآن .

وشكل السجل لا يختلف كثيراً عن شكل الرسالة .

(٢) الرســائل

وتختلف الرسائل عن السجلات المنشورة فى طبيعتها ، فهى من مرسل إلى مرسل إليه ، وقد تقتضى الإجابة ، أو لعلها تكون إجابة عن رسالة أخرى ، وغالباً ما نرى مثل هذه الرسائل المتبادلة بين الأدباء والعلماء ، وتختلف فى موضوعاتها ومناسباتها .

ومنها الرسائل الإخوانية التى تدعو صاحباً أو صديقاً لزيارته ، أو يكتب إليه متشوقاً وسائلاً عن أخباره . كما جاء فى رسالة ذكرها المسبحى للكاتب الحسن بن أحمد المعروف بابن الخياط [1] كتب بها إلى صديق له من تنيس .

« بسـم الله الرحمـن الرحيـم

ـ كتبتُ إليك عن سلامةٍ ، وأمرٍ أشيمُ برقَهُ ، وأتوكّف وَدْقَه ، وحالٍ سارٍ

(١) راجع المصدر السابق تاريخ المسبحى ص ١١٦

مبداها ، ومرجوّ منتهاها . والحمد لله ، وإياه أسأل حسن التوفيق والتسديد ووصلت إليها غداة يوم الأربعاء ، مترفها متودعاً ، ولله الشكر والطول ، وبه القوة والحول . وجرت خطوبٌ فى إحدارى آلت إلى سلامتى ومسارى ، أحببتُ وقوفك عليها ، وسكونك إليها .

كنت أقمتُ يومى وليلتى فى دار الصناعة ، ثم استقررت فى السفينة غداة السبت ، وحدّرنا فى المسير ، حتى إذا جاوزنا عبسُوس ، وشارفنا شطنوف ، ومالت الشمس للغروب هاج البحر واندفع موجه . وتدافع تياره ، وبدا كالمازح ، وهو لنا جد مكافح . ثم نما وارتفع فطما ، واضطرب واربدَّ ، وتدفق ، واختبط وتغطمط ، وركب بعضه البعض وعلا إلى الجو ، وانحطَّ إلى الأرض ، فصار خداناً ، وبطنانا ، وأطواداً ، وأوهادا . وعصفت الريحُ واشتدَّتْ ، وتنَاوَحتْ واصطفَقَت ، وزَجلت ، وهاجت فتمردتْ . وتقاربت وتباعدتْ ، وجاءت ككثبان الرمال ، وشواهق الجبال . فعظُم تيارُه وتجرجَر آذيُّه ، وتلاطمت أمواجه ، وثارت قيعانه ، وشرَّدت حيتانه ، ونذَّتْ نينانه . وتقلَّت ، وصاعَدَ وصوَّب ، وزخَر ، وزفر ، وزأرَ ، كأنه ليثٌ ضارى ، أو مغيظٌ يمارى . واضطربَ فأزبَد ، واحتدم فتوقَّدَ . فأورى ناراً ، واقتدح شراراً ومثَلَتْ تماسيحه فاغرةً أفواهَها ، مبرزةً براثنها ، حاسرةً عن أنيابها ، شائلةً بأذنابها ، مترقبةً للافتراس ، متأهبةً للاختلاس ، كأنها أجذاعٌ ملقاةٌ ، أو سفُنٌ مرساةٌ . ووقفت صفوفاً ، كأنها آكـامٌ ماثلةٌ ، أو هضابٌ متقابلة ، وزحفت زحف الأبطال ، وجالت فى مرابضها الألوانُ ، وخفقت القلوب ، وعظمت الكروبُ ، وزاد الهلعُ ، واستولى الجزَعُ ، وطارت الأفئدة من الفزع ، وغلبَ اليأسُ على الطمع . وخاننا الاصطبار ، وأشفينا على البوار . ولم يبق لنا حيلة غير التضرع إلى الملك الجبَّار ، فعججنا بالدُّعاء عَجّـاً ، وضججنا بالابتهال إليه ضجًا ، فكشف البلاءَ بامتنانه ، وأجرىَ على المعهود من طولِهِ وإحسانه . ومنح السلامة وأتاحها ، وسيّرها وسبَّبهَا ، ووفّقها وسهَّلها ، وجاد بها وخوَّلها ؛ فسكنتْ الريحُ ، وسجَا البحر ، وتقشعت السحب ، وانجلى الغمام ، وانحسر الظلام ، وأشرقَ الضيّا ، وتلألأ الضحىّ ، وابتسمت الأرض عن نوارهاواستضحكت عن أزهارها . وأبرزت جواهرها ، ونشرتْ برودها ووشيها ، ورفلت فى حليها وحللها ، فناصع وفاقع ، وناضرٌ وزاهر .

وأمرحْنَا أبصارنا فى رياضٍ مونقات ، ومناظر رائقات ، وأنهارٍ متدفقات ،

وجداولَ مطردات ، كأنهنَّ ظهور حيات ، تظلُّها أشجارٌ متهدّلاتٌ ، مخضلّةٌ بنداها ، راضيةٌ بثراها ، وتحفُّ بها أطيارٌ ، منهداتٌ ومؤتلفات ، من خائمٍ وعائم ، وجاثم وقائم ، وطائر وواقع ، وسارح ورائع ، كأنما ألبستْ الوشي والقباطي والعَصْبَ ؛ فمن مدرَّج وموشَّح ، ومقنَّع . كأنها قيانٌ مصبغاتٌ ، أو عرائِسُ مجلوَّات ، مطوقةٌ ومقرَّطة ، ومطلَّسةٌ وموشَّاة . وملوَّنةٌ ومكحَّلة، ومحجرةٌ ومعجَّرة ، ومذهبةٌ ومخضبة ، ومُدَفَّفةٌ ومشنَّفَة ، أنواعاً مختلفةً ومصنَّفة . كأنما عُبئتْ تعبئة العساكر ، ونضّدت تنضيدَ الجواهر ، كلُّ شكل إلفٌ لشكله ، وكلُّ مثلٍ مؤاخٍ لمثله . يختال اختيال القيان ، ويتباهى تباهِيَ الحور الحسان . كأنها ربَّاتُ خُدور ، أو آلفاتُ قُصور .

وأبدلنا الله من الخوف أمنا ، ومن البؤس نعيما ، ومن القلق سكونا ، ومن الغرقِ طُمأنينة ومن الانزعاج دعةً ، ومن النَّصبِ راحةً ، فله الحمدُ والمنّ ، والطَّوْل والفضْلُ ، معطى النعم ومُسْدِيها ومُجزلُها ، ومُوليها ، وملبسها ومَسبِغُها ، وداهبها ومهديها .

وعرَّفتُك ــ أدام الله عزَّك ــ ذلك لتعلمه وتقف عليه ، وتستيقنه ، وتسكنَ إليه إن شاء الله . » [1] .

والرسالة كما ترى بديعة الأسلوب جميلة التصوير ، خرجت عن مجرد كونها اعتذارا لصديق عن موافاة صديقه إلى طُرقٍ من الوصف وضروب من التحبير ، أجرى فيها القلم بعذب اللفظ ، ممتزجاً بالخيال الجامح فى لطف ، يجمع بين الأضداد ، بين الخوف والرجاء ، واليأس والأمل ، والحزن والسرور .

وهو فى وصفه لمشاهد النيل وقد ثارت أمواجه ، وأزبدت ، وتراقصت بهم فى اليم السفن وأظلم الجو واربدَّت السماء ، ووصف تماسيحه العاكفة على شواطئه المترقبة فى كسل فريسة يسوقها القدر إليها ... بين هذه المشاهد من الفزع ، ومشاهد السعادة بهدوء الجو وانقشاع الغيم ، وتجلى الشمس وتبرج الزهر ، واختيال الطير بين الرياض مبدعٌ فى هذا كله ، موفق فى تصويره واختيار ما يناسبه من لفظٍ دالٍ وإيقاع موافق .

ويعتمد السجع فى فقرات متفاوته بين الطول والقصر ، تتناسب مع المعنى ، ونبضه ، ومايلزمه من الجرس الخافت أو الضجيج ، أو الهمس الناعم الرشيق . ويزواج

---

(١) أخبار مصر من تاريخ المسبحى ص ١١٨ .

كثيراً بين المعنى وأخيه وقريبه ، أو يقابل بين المتضادات فيلجأ لفن الطباق والمقابلات . وقد يستخدم الجناس إذا لزم الحال . أو اقتضاه المقام .

وهو فى هذا كله لايحرم عبارته التشبيه والاستعارة ليكسب الصورة مسحة من الخيال الموفق ، وينفق من زادٍ من اللفظ ، ومحفوظ من الشعر القديم والمحدث ماترددت أصداء معانيه وألفاظه فى حنايا الرسالة .

وبعد ، فهذا المثال من الرسائل الإخوانية لأحد كتاب عصر الظاهر تدلنا دلالة لا تحتاج إلى كثير شرح على مابلغه الفن النثرى من براعة لا تقل فى مصر عنها فى بغداد وغيرها من بلاد المشرق ، بل لعل بعض المشارقة فى رأينا كالخوارزمى والهمذانى ، قد يتكلفون فيثقلون لا كما فعل ابن الخياط ، إذ رفق باللفظ فى عبارته فانسابت المعانى لينة هينة .

ولا كهذه الرسالة ما عرضناه من قبل للرسائل الديوانية من سجلات ومنشورات ، فلغتها هناك لغة مباشرة ، لا يعنى فيها الكاتب بالخيال ، فلا تشبيه ولا استعارة ، وإنما قولٌ فصلٌ ، وعبارة تقصد المعنى وتؤكد بآى من القرآن أو مثل أو ما إلى ذلك .

ولكن اللونين جميعاً الرسمى والفنىّ يتفقان فى الشكل واستخدام العبارة الرصينة واللفظ الدال فى وضوح لا لبس فيه ولا غموض ، ولا لغز ولاتعمية ، كذلك لا لعب بالتراكيب ، والتوفيق والتلفيق فى أنواع الجناس والطباق .

ونعرض فى مجال الرسائل الإخوانية ثلاثَ رسائل تدور بين ثلاثة رجال من الكتاب يعرضون فيها لموضوع متقارب ، يبدأ أولهم فيعرض حديثا عن واحد من الرجال يعرفه الثلاثة معرضاً به ، ذاكرا فى شىء من الهزل صور الطعام والشراب ، ويردُّ الاثنان الآخران معرّضين كذلك واصفين . وهو لون من الكتابة الاخوانية ساد فى هذا العصر والعصور التالية يدور حول الاستدعاء للطعام والمشاركة فى لذته ولذة الشراب . ولم يقتصر هذا اللون على الرسائل والنثر ، بل عداه إلى الشعر كما سيأتى القول فيه من بعد .

وأما الرسائل الأولى فأوردها المسبحى فى كتابه [1] قائلاً : « ووقعت لى نسخة رسالةٍ كتبها ابن الكرخى إلى أبى نصر المغنى العوّاد البغدادى ، يعرّضُ فيها بحسن بن القُمّى .

(1) أخبار مصر للمسبحى ص ١٣٤ وتحقيق الدكتور حسين نصار ــ القسم الأدبى ص ٧٥ .

« عندى يامولاىَ — أطال الله بقاءك — مطجَّن ومَصوص [١] ، واسفيدباجٌ [٢] بقسوس ومفرَّكاتٌ كتفريك المغنياتِ بالحركات ، والليليَّات الخنثات ، والهَلْيَوْن [٣] كالزمرّد خضرْةً والغصون نُضرة ، وباذنجانٌ مقلوٌّ كالأُكَر ، وشيراز [٤] فى شكل القمر ، وطردين [٥] كالكمأة فى المثال وسنبوسج [٦] يصلحُ تعاويذَ للأطفال ، وزيرباجٌ تَخلَّقُ بها المحاريبُ ، وتنتزعُ أعضاءُ الغَارِق منها بالكلاليب . ومضيرةٌ[٧] تُستَبْدَجُ بها الحيطان ، ويستغنى بها عن بقية الألوان . وجَدْىٌ كالأمير الملقب بالغلهير ، فى خُلقِه وخَلْقِه ، وعقله ونُطْقه ، ونسبه وحسبه . سهلُ الجانب غيرُ ممتنع عن المجاذب،ممكنٌ من ضربِ الحالب ، مطيعٌ لا يعرفُ الخلاف ، مظلومٌ لا يؤثرُ الإنتصاف ، قد تلّ للجبين ، وضرّج بدمِ الوتين ، وأوجتْ فيه السفافيد ، وعلّق بها تعليق العناقيد ، وأصلى نار الجحيم ، وعذِّب العذابَ الأليم ، ودفع إلى أمرٍ عظيم . وشغله مانزل به من البلوى عن مواصلة الاستغاثة والشكوى ، فهو المسكين من الحمّالين والصابرين فى البأساءِ والضرّاءِ ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والمؤثرين على أنفسهم ، لا لها — والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود .

فإذا قدّمَ الخوان بَدَا فى حُللٍ من أرجوان . فحين تسلبه ثيابه ، وتمزق عنه إهابه يفترُّ عن يقق ، ويسفر عن قلق . كما قال عبد بنى الحسحاس :

إن كنتُ عبداً ، فنفسي حرةٌ كرماً أو أسودَ الخلقِ إنّي أبيضُ الخُلُق

يتهرَّأ من الإيماء كالملسوع ، مُلْقىً على جانبه كالمصروع . يقولُ : هيتَ لك . جوْدٌ لا أمَّ لك . : تلك المكارمُ لا قِعْبانٌ من لبنٍ .

---

(١) المصوص طعام من لحم يطبخ وينقع فى الخل ، ويكون من لحم الطير خاصة .

(٢) والاسفيدباج طعام من اللحم والبصل والزبد والجبن أو من الخبز واللبن .

(٣) الهليون نبات .

(٤) الشيراز اللبن الرائب المستخرج ماؤه ويسمى اللبنة أحيانا فى بعض البلاد .

(٥) كذا وصححها د . حسين إلى طبرزن وهو السكر .

(٦) السنبوسج يعرف الآن بالسنبوسك وهو عجين باللحم يقطع قطعاً صغيرة .

(٧) المضيرة مرقة تطبخ باللبن الحامض .

انقضى باب الجدى
يتلوهُ بابُ الشاة

لكننى أخرّتُ ذبحها إشفاقاً على ماشيتى أن استنفدَ جميعها فى يوم واحد ، فجعلتُ ذلك باباً مفرداً ليوم مفرد أبنى أمرى فيه على الصبوح ، وأنشط للتعبئة فى المسوح ، وأعلقها بعرقوبها ، وأتجردُ لتعذيبها ، وأتولى بنفسى سلخها ، وأكشفُ عظمها ومخُّها ، وأمتحن بذلك باب التشريح . وفى التلميح مايغنى عن التصريح .

دع — ياسيدى — هذا الباب الذى لا فائدة لك فيه ، فإنما ذكره شُجون ، وخذ فيما يعودُ عليك نفعهُ ، لأننى أعرفُك تُحِبُّ العاجلةَ ، وتذر الآجلة .

يتبع الجدىَ طباهجتان [1] كالعود الرطب لوناً ، وكالرياض حسناً ، وكالمسكِ نشْراً ، وكالعافية طعماً . قال : صدقنا أبو الرقعمق رحمه الله :

ما هبَّتْ الريحُ لنا فى غلس الأسحار
إلّا تنفّسن لنا عن جُونِ العطّار [2]

وهما منى الجائع ، وجوارش [3] المتخم ، ودواءُ المخمور . وفى مثلهما قال الشاعر :

شركُ النفوس وقينةٌ ما مثلها للمطمئنّ ، وعُقْلَةُ المُسْتوفِزِ

خيرٌ ولا شرّ . كل هذا ماعندنا ، نحن اليوم على باقِلّا ، فبحرمةِ شيرِخنا أبى الخير الهرَّاس والبغدادىّ الروَّاس ، والأزرق الشوَّاء ، وجميع إخوانا أصحاب الزَّفَر والغذاءِ إلّا قدَّمت الحضور لتَؤُمَّ بنا الصلاة على هذا المظلوم الفقيد ، وتغتنمَ ثواب الغريب الشهيد . وتشاهد أيضا من سرعة حركات مفاصلك ، وبعثرة مافى الصحون مايحكى بعثرة القبور فى يوم النشور ، وترى من خوضها فى غُدرانِ المرق ، وسلامتِها من الغرقِ والشرق وتعفيتها علىَ اللَّقْلَقِ فى غطّ منقاره فى المياه ، وحرصه على موادّ المعيشة والحياة ، وإطلاق عنانها فى ميادين لحوم الحيوان ، وثنى زمامها عن مواطن القرع والباذنجان ،

(١) الطباهجة اللحم المشرّح .
(٢) جون جمع مفرده جونة وهى سفط مغشّى جلد يحفظ فيه العطار الطيب .
(٣) الجوارش دواء مساعد على الهضم .

أمراً عجيباً ، طريفاً ، غريباً .

وفّقك الله للحضور ، ولا حرمَك خير ما فى هَذه القدور ، فإن المسرَّة معك حيث حللت، فإن غبتَ غابتْ ، وإن حضرتَ حضرتْ . والله يجمعك وإياها علينا ، ويأتى بكما سريعاً إلينا إن شاءَ . وهو حسبى ، ونعم الوكيل . » .

فأجابه أبو الحسن أحمد بن العباس الكاتب ، المعروف بابن الخياط برسالة عن حسن بن القُمىّ ، المقدم ذكره . وهى :

« ليس الدعوى فى الدعوة ، ياسيدى ـــ أدام الله عزّك ـــ من شأنى ، ولا أرى المخرقةَ على إخوانى أسألهُم الحضورَ على ماحضرنى،ولا أدخر عنهم ماأمكننى.وأمشى مع دهرى وزمنى . فإنْ أوسعَ أكثرتُ ، وإنْ قتَّر اختصرت . فالاختصار فى حين الإقتار من خلق الأحرار . وترك التصنُّع والادعاء من شروط المودّة والصفاء . وعلى خير مذهبى هذا جماعةً يرون الادعاء فضلاً ، والمخرقةَ جمالاً ونبلا . وإن سألت أحدهم ما أصلح لك اليوم ؟ حدَّثك بما رآه بارحته فى النوم ، وأوهمك أنه اختصر على مقلوبةٍ ، وقد قلب الجزعُ أمّ رأسه . ومشوشةٍ وقد شوَّش الطّوى صحيح رأيه وقياسه ، وقليّةٍ وهو من الشّغب يتقلّى ، ومغمومةٍ ، وليس غير حليلته الثكلىَ . فإذا أراد أن يتطايب ويتكاتب ، وأحب أنْيتكالبويتلاعب قال : كانت لنا مضيرة يصلح أن تُسبدَجَ بها الخيطان ، وهو يتقوَّتُ الكِسرَ من أحجار الفيران ، ويستلبُ الرُّغفانَ من ولدان الجيران . وزيرباج كخلوقِ المحاريب تنتزع أعضاء الضائق منها بالكلاليب ، ولا يعرفها من الجلّبان [1] لو أحضرا لَهُ مكانٌ ، ولا يدرى أيهما هى بالمذاق لو أطعمها وجُوذابة[2] رِقاق . ويوهمك أن له راتباً ، وقد أصبح ساغباً خائباً ، وأن له وكيلا ، ولا يعرف لسد جوعته سبيلا .

فإن نفق عليك قوله ، وأعجبك فضوله ، فسألته النزول غلَّبك الجواب ، وقلبه فى نصبٍ وعذاب ، ثم انتهز الفرصة ، وانكشفت هُزولةُ القصة : فإذا حضرت المائدة ، فاستفد منه كل فائدة . تراه يزاحم بكاهله ومنكبه ويضغط إلى من بجانبه ، ويقتلع مابين يدىْ الإخوان ويغيرُ على الألوان كبطلان الفرسان ، ويجيل يده على الخوان جولان الشجعان يوم الطّعان ويهوى بكفّه ولا شاهين ، وينتزع القِدْرَ بأنامله ولا أبازين ،

(١) الجلبان : نبت .

(٢) الجوذابة طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم .

ويحسرُ عن ذراعه ، ويجوزُ بباعه ، ويكبُّ بصدره ، ويغيبُ عنه رشيدُ أمره ، وتسمع له همهمة وتمتمة ، وطبطبةٌ وحمحَمَة ﴿ هُنَالِكَ دعَا زكريَّا ربَّه ﴾ .

كفاك الله وإيَّانا من هذا وصف طريقته ، وعفانا وإياك من مخالطته ومعاشرته ، فالشَّرهُ شينٌ يُعدى ، والبطنةُ منقصةٌ تُردى ، والكذب داءٌ عياء ، والمحمقةُ عادةٌ وبلاء ، والصحيح ماتحصَّل ، والبَاطِلُ يلغى ويبطل .

عندى — ياسيدى — قريصٌ أشبهُ بنَصيصةِ الفُصوص ، يرتعدُ ارتعاد المضرور ، والمُحنَقِ الغيور ، ويكفيك بمذاقه المنازعة والمراء . وتحسب حيتانه سُبَّحاً فى الإناء ، شقيق الرحيق ، كأنه ذوب العقيق ، ينسيك طعمُه لذيذ الزيرباج ، وتصنعُ المضيرة له والكباج ويغذيك من لحوم الحيتان مايُغنيك عن فائق الحيوان ، ويشغلك حسنُ مرآه عن التعرض لما سواه . مجمع طيبات ، ومحشر إدام ولذات . ومن ذا ياسيِّدى يوريك ما وصفه سيشهِّيك ، مقلوَّة كالعسجد السَبيك ، يمنحك إهابة بالإيماء ، ويجيبك بلا ممانعةٍ ولا إباء ، لو ظفرت منه بلُطَافةِ المقالى لأغنتك عن عتيق الغوالى . لو لم يكن غيره لكفاك ، ولو قنعت به لأغناك نعم الطعام ، وأفضل الإدام .

ومن بلطيِّك الطرىّ السمين ، ما تحكيه صفائح اللجين ، قد أُلبسته النار ثوبَ نُضَار ، إن سلبتَه فطلعٌ نضيد ، أو لمستَه فزبدٌ عتيد ، متساوى المساحة يفضُلُ عن الراحة ، فهو كما قال الصاحب : « إن نعتَّه فقد أعبته ، وإن وَصَفْتَه فما أنصفته . » . ومن الشبُّوط ماأشبه البلّلور المخروط ، عمل منه صليقٌ ، أنت بسلبِ محاسنهِ خليق ، يُنْسيكَ بنضرته روض الجنان ، وأراضى الريحان ، ويغنيك بحسن منظره عن كشف مخبره ، وبطيب نشره عن هتك سِرِّه .

وإن أبعث لك ياسيدى الفرخ ، حذراً من وضيع الكرخ ، فإنهما متساويان فى النعت والاسم ، والمولد والجسم ، وله — لعنه الله — شأن من الشان ، لم يصد مثله قبلى إنسان ولا شوهد شبيهه فى الحيتان . مهولٌ مرآهُ ، ولا يَعْرفُ أباه ، كان يبعث منه على الحيتان الحتوف ، ويقتلع بها منه المراسىَ والجروف . عريضٌ طَويل ، عظيم مهول ، إن وجد صَخرةً رضَّها واقتلعها ، أو بقرةً التقمها وبلعها . سلاحُهُ أضراسه ، وجثته قفاه ورأسُه . فلما كثر فيه ضجيج أسماك البحر ، ودعاءُ النُّواتِيَّةُ والسُّفر ، واستجاب الله سبحانه دعوتهم وكشف بفضله محنتهم ، قضى هلاكه على يدى ، وأمرنى بقبض روحه

وتعذيبه بالنار ، كما يُفعَل بالمؤذين والأشرارْ ، والمخالفين والكفّار ، لقصده مراكبَ البحار ، وتعرُّضه لأذيّةِ المستورين والأحرار . وأحلَّ لى أكل لحمه بعد التناهى فى عذابه ، جزاءً لفتكه حيناً بأضراسه وأنيابه :

فظــلَّ طُهــاةُ اللّحم من بين منضج　　صفيــف شِــواءٍ أو قدير مُعَجَّــلِ

وها هو بعدما وصفت لك من عتوّه وطغيانه ، وجبروته وسلطانه ، صريعُ يدِ القضاء ، وأسير الحين والبلاء ، قد مكنّت السّفافيدُ من أحشائِه وفكهّ ، وجُوزى باعتدائه وفتكه . وشُق جوفُه وحُشِى ، وأحكم وَثاقه وشوى ، توجدكَ مضغَتُه نعومةَ الزُّبد ، ورطوبةَ الفائِق ، ولينَ الرُّضيّع ووطِاءَ النقانِق .... زهومة ، وحياتك ياعزيز إني أشتوى لك بكفيك أو زندكَ عِوَض أيدك فى زفر عوضَ حيب ، وقدر على حالك اليوم مبيح أحق ناراً . وقدَّر الله تبقى زهومتُه فى سبالِكَ ولحيتاكِ ، أو تدخل حفرتك ، لا تطمع الأغيار بقتل نفسك بالجوع .

هذا مزاحُ البطّالين ، ومداعبة المتفرغين، ليس لك ها هنا إلّا الباقلّى القيسى والجبن الحِيْسىّ ، والخردل الشامى ، والزيت الفلسطينى ، وخَلُّكَ الثّقِفُ ، وبقلُكَ القطفُ . وأنا صَديقُكَ ذاك الذى تعرفُ ، وجريرتك التى لاعدمتها . وتلميذك دعبل يغنيك بالطنبور :

مابلينا من ذا الأعيــرج ياقَـــو	مُ بأمــر يُدعـــى الفــداةَ وليـدَهْ
يدّعِى الشــعر والترسّل حينــا	ويرى أنه ــ بِجَهْــلٍ ــ يجيــدُهْ
يشتهى أن يُرى بعين ذوى الفضـ	ـل ، ويأبــى قفاه ذاكَ وجيدُهْ

فإن استقصيته زادك :

لا تشغلَنْ ســرّك بالقَــرْخ	لقــد قرأنـــا آية النَّســـخ
فى باقِــل القيسىّ مســتمتعٌ	يضــربُ بالفــرخ قفا الكرخِــى

هذا ــ ياسيدى ــ الحاصل العتيد ، ورأيك الموفق السديد .

فلئن أتيت لتحمدنَّ نصيحتى　　ولئن - أبيتَ لتندمَنَّ وتبرمَـــا

والحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله . وسلامه . » .

(٣) أجاب أيضا أبو تراب النوبختى أبا الحسن على بن الحسن الكرخى الكاتب عن رسالته التى أجابه عنها أبو الحسن أحمد بن العباس بن الخياط بهذا الجواب . وهو : [١]

«وقفنا على رقعة الشيخ ــ وفقه الله للصواب، وحماه من كل عاب.. من ذات المذر الطويل ، والمعنى المستحيل ، المشبه للشيء بضده ، الدال على فساد تخيله فى نقده . ونحن عند صديق أليف ، مليح ظريف ، مفتن فى المكارم والآداب ، ونتخرق بنا إلى المسرَّةِ من كل باب . وبين يدينا مائدة بالحديقة ، مرتبة كالروضة الأنيقة ، وعليها مُصوصٌ من فراخ سمان ومطجنات من فراريج خصيان ، وباذنجانٌ جنيُّ المغرس ، رخص الملمس . قد قُلِيَ بشحم الدجاج ، فجاء غاية فى الإنضاج . وهيلونٌ مُمْتَلِئُ القضبان يشبه فى خضرته نضارة الأغصان ، ومفتَّتاتٌ يَفُتُّ قلبكَ ــ أيها الشيخُ ــ عدمُها ، وبَهمٌ تُبْهِمُكَ بأدمها ونقانق وطبرزن ، اقترحه بعض الحاضرين ، ونرجسية أحكمها طاهيها ، وزينها باللوزِ المرتب فيها ، قد زينها زينة العروس ، تصلح أن يشرب عليها بالكؤوس . ومضيرة فى طيفور [٢] كبير ، تقوم من دسمها فى غدير ، قد أُجيد عقدها ، ولم تتجاوز بها حدَّها فهى فى بياض الكافور ، وصفاء سرائر السادة الحضور . وزيرباج يروق للعين كأنها الوجنة عند البين ، قد عقدت عقد الخبيص [٣] ، واشبهته فى اللون والبصيص طيبة المساغ والمذاق ، كأنها وجه المولّدة فى الإشراق . وطباهجة مزوَّجة يذوب لحمها ويتهرَّى فى شبه العود المطرّى ، قد فتقت بالقرفة والأبازيرْ ، وعامت فى دُهنِها الغزير ، وأغنت بعليب الرائحة عن العبير ، بعد خروف رضيع كما اقتطع من القطيع ، يترجرج من شحمه ، قريب العهد برضاع أمه . نضيجٌ شواؤه . فائقٌ خِصبُهُ وامتلاؤه . قد دفن الشحم فى كُلائِه دفنا ، وندف منه على جنبيه قُطْنًا .

فتواكلنا مواكلة الأُلّاف ، وانتقلنا إلى مجلس السُّلاف . مجلس يروق الناظر ، ويعجب الحاضر ، قد فرش فرشاً نظيفاً ، وحوى منصفاً وأليفا . وقُدِّمت الفواكه فى

---

(١) أخبار مصر بتحقيق د . حسين نصار ص ٨٢ .

(٢) الطيفور إناء ضخم .

(٣) الخبيص طعام يعمل من التمر والسمن .

الصدور ، وتشاجر العود مع الطنبور ، ودارَتْ الكاسُ على الجلّاس والخمرةُ تشـرقُ فى الكؤوس ، وتغربُ فى الأفواهِ والنفوس . فلم نَر إلا طرباً من فرحه ، صريعاً من جورِ قدحهِ . ونحن فى ميدانِ الإطراب ، نجولُ على خيلَ الآداب والزمان قد غمَّض عنا طرفه ، وأوسعنا فنونَه وظَرفه .

حتى طرق الباب ، وأستأذن علينا البواب ، ودخل علينا بهدية تزيد على الأمنية : جرةُ نبيذ كالحوت العظيم ، تصلحُ لصبح المستعين أو حكم أمِّ حكيم . كأنّها قلّة الزيت لايوجدُ نظيرها فى البيت ، تشبهك أيها البليغ فى دهره ، المتطايب على إخوانه فى نظمه ونثره . فى الصورة والخلقة ، وتفضلها بالانخلاع والجلْقَـةْ ، كعنقك القصير ، وبطنك فى الكبر والتكوير ، تسع من العقار والقهوة ما يسعه بطنك من الطعام عند الشهوة . فذَكَّرتْنا لقبك الخطير ، الذى كشفت به لقب الأمير الظهير . وهو جرّة الزيت الذى أتت من اشتهاره فى الدَّست .

فعجبنا من مُلقَّب كيف يهتف بالإخوان ، ويأتى بهذا الفضل والحسن والبيان . ونشرنا فضل رسالتك من طىّ الإغفال ، وتأملنا فصولها القصار والطوال ، فوجدناها فاسدة التشبيه ليس لها فى القباحة من شبيه :

فأما قولك : « ومفركات كتفريك المغنيات الحركات » . فهذا من المعنى الطريف ، الدالّ على قوة التخشيف [1] . تفريك المغنيات : تمايلهم على الآفهم ، وحلاوة حركاتهم فى أعطافهم ، وصَوْلٌ خفىٌّ بسيق ، وانحلالُ مفاصلهم على الصاحب والعشيق . فأين هذا من بَيْضٍ قد شُوِّشَ فى المِقْلَى ، وقدّم على المائدة فى إنا . ولكن التجنيس عَدل بك عن التحصيل ، ومال إلى المعنى المستحيل .

وأما قولك : فى سنبوسك : « يصلح تعاويذ للأطفال » ، فالسّنبوسك شىءٌ يأكله الأطفالُ ، لا يتحلّون بلباسه للجمال ، ولكن لو قلت : وسنبوسك يصلح مراسيل [2] للأطفال » لكان أقرب للنسبة ، لأن فى المراسيل مايصلح على شكل فِضةٍ مُصاغة ، وليس ماأشبه الشيء صلح أن يقوم مقامه فى الاستعمال والاتخاذ ، ولكن أوقعك الادعاء فى الزلل ، وعَدل بك عن الصواب المستعمل .

---

(١) التخشيف الذهاب فى الأرض .

(٢) ما يعقد حول رقبة الطفل ويرسل من حلى الفضة وغيرها .

وأما قولك : « وزيرباج تخلق بها المحاريب ، وتُنْتَزَعُ أعضاءُ الحيوان منها بالكلاليب » . المحاريبُ لا تُخَلَّقُ بالزفر ، لأنها مساجدُ الملائكةِ والبشر . فلو قلتَ : تخَلَّقُ بزعفرانها المحاريب » لجاز ، أو « تجانِسُ صنعتها خلوقَ المحاريب » ، أو تزيد سفرتها على خلوق المحاريب » . لكان أقرب للاستواء وأصوب .

والكلاليبُ فإنما يُجتذبُ بها الشيءُ الممتنع ، والعَصَبُ الشديدُ الذى لاينقطع . فأما الفائقِ فإنه يتفتت من شحمه ، ويتهتَّك من رَخْصتِه ، وَنعمتِه . اللهُمّ إلا أن تكون عنيت أنابق الذيول اليابسة الأعصاب . الصعبة الانجذاب ، المشبهة صدورُها بخصل اللّيف ، فمثل هذا تجتذب أعصابها بالكلاليب والخطاطيف . وما حواك على ادعاء معرفة التشبيه ، وإيراده على جنس المغالطة والتموية .

وأما قولك : ومَضْيَرَةٌ تُسَبَّدج بها الحيطان ، ويُستغنى بها عن بقية الألوان » . فما سمعت قط إنسانا سبدَج بطعامه الحيطان ، وخلّق المحاريب غيرك يارَجُل ! . لو قلت : ومضيرة تقصر عن طيبها الألوان ، كأنما تسبْدجُ ببياضها الحيطان ، وتخليق المحاريب بالطعام — واللهِ — باردٌ فى اللفظ والمعنى .

وأما قولك : وجدىٌ كمولاىَ الأمير الملقب بالظهير ، فى خُلقِهِ وخَلْقِه ، وعقْلِه ونُطْقِه ، ونسبه وحسبِهِ . فهذا محالٌ بعيدٌ عن الحقيقة ، قد سلكتَ منه أقبح منهج وطريقة لأن الإنسان لا يشبَّهُ بالبهيمة إلا إذا قاسَ قياسَك ، والتمس من هذه المعانى التماسك وأيضاً فإنَّ الجدْى خلقه لطيف ، وخلْق هذا الرجلِ الذى عيَّنتهُ عظيم كثيف . والجدْىُ خُلقُه الصِّياحُ والبعرة . وخلق هذا الرجل حلاوةُ اللسان ، وحسنُ الخلق . وعقلُ الجدىِ مسلوبُ التميز والرويَّةِ . وهذا الرجل يمَيِّزُ بعقله ، ويصيبُ فى روِّيتِهِ . والجدىُ أخرسُ لا ينطق ، وهذا الرجلُ ينطق ويتكلم . والجدى لا حسب له ولا نسب ، لأنَّ أباه تيسٌ لا يعرف . وهذا الرجلّ أبوه من ملوك البحار ، ذوى الأقدار ، الذين ملكوا الأموال وخدمهم الأقيال . ومات — رحمه الله — وهو معترفٌ به ، متحققٌ لوقت العلق به ، ورث ماله . واستنفذ بمكارمه ماله . وليس هذا حق وداده ، ولا يحسن بك أن تستعمله مع أنداده ! .

وأما قولك فى الجدى : « فإذا قدِّم على الخِوانِ بدا فى حُلَّةِ أرجوان » . يارجل ! لو لم يقدَّم على الخوان ، لم يَبْدُ فى حُلَّةِ أرجوان ؟! . أما يحمرُّ جلدُه من نار

الشَّىّ ؟ . هذا والله فسادٌ فى التَّصوُّرِ والقياس ، وتمويه فى العلم على أغمار الناس . لو قلت : « ووفَدَ على الخوان فى حلةٍ من الأرجوان » . أما كان أسلم لأغراضك ، من تحديك بالرد واعتراضك .

وأما قولك : انقضى بابُ الجدى ويتلوه بابُ الشاه لكنك أخرت ذبحها إشفاقا على ماشيتك أن تستنفد جميعها فى يوم واحد . فجعلت ذلك بابا مفرداً ليوم مفرد ، يُبنى أمرك فيه على الصبوح وتنشط المتعبئة فى المسوح ، وتعلقها بعرقوبها ، وتتجردُ لتعذيبها ، وتتولى بنفسك سلخها إلى أن تكشف عظمها وَمُخَّهـا ، وتمتحن بها كتاب التشريح ، وفى التلويح ما يغنى عن التصريح .

فالجواب عن ذلك :

إما أن تكون عَنيتَ شاة على الحقيقة ، فهذا الصبوحُ لا يصلحُ إلا لمثلك ولا يصدرُ مثله إلا عن فضلك ، لاسيَما إذا ذبحتْ شبيهَتُكَ، بشهادة العيون ونظيرتك فى امتدادِ العروق ، واتخذت منها طعاماً يَميرُ الجماعة ، ويبينُ لهم من كرمك الاستطاعة . وإذا اجتذبتَ بالكلاليب أعضاء دجاجتك ، وقطعت بالقوادم مفاصل شابك ، كانت صبيحة أغتنام لا صُبوحَ مُدَام !!

أو تكون عنيت بهذا القول مباضَعَة جارية سوداء ، واتبعت فى السقاطة بذكره الأهواء لأن قولك « والتعبئة فى المسوح » يدل على ذلك . لا سيما وقد قصدت به تنقُّصَ بعض أصدقائك واشتهرت بغدرك وقلة وفائِك ، فقد أخطأت خطأً عظيما ، وسلكتَ معنىً فاسداً سقيماً . لأن المباضعة ليس فيها قتل ولا سلخ ولا تعليق بعرقوب ، فإن كنت عنيت بالسَّلخ تجريد الثياب عنها ، فجائز لك على جنس المجاز من الاستعارة ، عن تعليقها بعرقوبها ، ما يشبه رفعك بساقها لأن المباضع — وإن ارتفعت ساقة يلتصق ظُهره بالأرض ، والمعلق بعرقوبه لا يبلغ إلى الأرض شيء من جسمه .

وأيضا كيف يمتحن بمباضعتها التشريح ؟ بأرسطاليس الجماع ، وبأبقراط الاستمتاع ؟ وابتداؤك فى هذا الفصل بمضى باب الجدى ويتلوه باب الشاة غلط . لأن الأبواب لا تكون إلا فى التأليفات والفصول فى الرسائل والمكاتبات . ولو قلت : مضى باب الجدى ويتلوه فصل الشاة لكان أجود .

والتعبئة فى المسوح غلط ، لأن التعبئة إنما تكون للفواكه والمتاع والآلات ،

وكلام يريد الإنسان أن يردده . ولو قلت : التعبير بالراء فى المسوح لكان أدَلّ على إرادتك .

وأما قولك : « وتتبع الجدى طباهجتان كالعود الرطب لوناً ، وكالرياض حسناً ، بقطع الطباهجة بالعود الطرى نسبة . والطباهجة أيضا لا تشبه بالرياض ، لأن هذا فسادٌ فى المعانى والأغراض لأن الرياض تحوى الأخضر والأصفر والأبيض والأحمر : أنواع الألوان من الزهر . والطباهجة حمراء إلى السواد ، فما تشبهها الرياض إلا إذا أُحرقت ، وانتقلت عن صورة الاستحسان .

فإذا أردت طباهجة فقد فُقِسَ عليها بيض ، شبهتَ صفرته وبياضه بالروض ، وكنت تقول : « وتتبع الجدى طباهجتان ، بيض مفقوس ، تتوق إليهما كل النفوس ، قد رويتا مرقاً ودُهنا ، وأشبهتا الرياضَ ملاحة وحسنا . »

وكأنا بالشيخ ــ عضده الله بالتوفيق ــ وقد أصلحت له هذه القدور ، واجتمع له فى مجلسه إخوان السرور ، ونظر فى مقعده عن جانبيه ، وفتح دواته بين يديه ، وتخيل أنه ــ فى قصفه مع إخوانه ، وماافترحه من ألوانه ، وأظهره من فضله بهذه الرسالة وبيانه ، وانطق به فصاحة لسانه ، وأجرى سوابق بنانه ــ عبد الله بن المعتز فى زمانه ، فجاش خاطره بهذه الرسالة الدالة منه على الضلالة ، الجامعة لأقسام الجهالة .

ولما رأينا وده للأمير الظهير على غاية الإفساد والتغيير ، وإنما وصفه من طعامه فى نفسه بالمحل العظيم الكبير ، وأنه لا يكفى شدة نهمه ، ولا يقوم بمقدار الكفاية من مطعمه أنفذنا إليه شيخنا أبا نصر يُشرفه ، ويغصصه بريقه ، ويطلّع على قلّة طعامهِ وضيقةِ ، وما تخرّق به من هذه الألوان الحسان وموّة على الإخوان ، لأن عاداته التطفيلُ عَلى الدعوات ، وطَروقُ الولائم المهولات ، حتى يُطردَ طردَ الذباب ، ويُلزم ملازمةَ المذبوب بالأبواب .

وربما عجزت الاستطاعة ، وتعذرت من النفس الطاعة ، لاسيما فيما خالف الإرادة ، ونغَّصَ عن الأمر العادة .

ولما علمنا أنه لم يُصلح مما ذكره شيئاً ، ولا قدّم مطبوخا ولا مشويًّا ، وإنما قصد الطعن على هذا الرجل وحده ، أنفنا له من تحَدُّ تنقصَه وقصده . ونقضنا عليك ــ أيها الظالم ــ كلامك ، واعتمدنا الانتصار له إرغامك .

فتنصَّل من هذا التعريض ، وإلا وقعت من المناقضة فى الطويل والعريض . والخليج بعض مدد البحر ، والروضة جزءٌ من أثر القطْر . وأنت أبصر بنفسك والسلام . » [1] .

وتخرج عن هذه الرسائل التى ساقها المسبحى لجماعة من أدباء المصريين فى عصره عصر الظاهر لاعزاز دين الله وتدور حول الإخوانيات ، وإن جمعت الوصف لمظاهر الطبيعة والحياة ، وبعض أصناف الطعام والشراب المعروفة على موائد المتيسرين واصحاب الجاه فى ذلك الوقت ، كما ضمت بعض صور المزح بين الاخوان الذى قد يتطور إلى التعريض والهجاء . وكل ذلك فى اسلوب رائق فائق ، طلىّ جلىّ . يوقفنا على ماكان عليه طبقة الكتاب والأدباء آنذاك من ثقافة ومعرفة بضروب الكلام وأسرار البلاغة ، واقتدار على التعبير عما يدور فى خلدهم من الأمور حتى مابدا منها قليل الشأن غير جدير بالاعتبار .

تخرج من هذا اللون من الرسائل فى مصر إلى مكان آخر قريب ، وإن كان مشاركاً فى الحياة الأدبية فى مصر بسهم ونصيب ، أعنى إلى القيروان العاصمة الثانية والسابقة للفاطميين وقد كان بها فى هذه المرحلة من تاريخهم كتابٌ تبادلوا الرسائل فيما بينهم كما تبادل كتاب مصر ، أو تبادلوها مع غيرهم من كتاب العالم العربى والاسلامى ، وبخاصة فى المغرب والأندلس .

ونُمثل لهذا النوع الأخير بالرسالة التى بعث بها الكاتب القيروانى « ابن الرَّبيب » (ت سنة ٤٣٠ هـ) [2] .

كتب رسالة إلى أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم يذكر فيها تقصير أهل الأندلس فى تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسيرة ملوكهم [3] يقول فيها :

« كتبت ياسيدى وأجل عُدَدِى ــ كتب الله تعالى لك السعادة ، وأدام لك العزَّ والسيادة ــ سائلاً مسترشداً ، وباحثاً مستنجراً ، وذلك أنى فكرتُ فى بلادكم إذ كانت

(١) أخبار مصر للمسبحى تحقيق د . حسين نصار ص ٨٧ .

(٢) هو الحسن بن محمد بن أحمد التميمى المعروف بابن الربيب . راجع ترجمته فى كتاب مجمل تاريخ الأدب التونسى لحسين حسنى عبد الوهاب طبع مكتبة المنار بتونس ص ١٢٤ .

(٣) راجع الذخيرة ، ونفح الطيب والخريدة للعماد شعراء المغرب والأندلس وكذلك المرجع السابق ص ١٢٥ .

قرارة كل فضل ، ومنهل كلّ خير ونبل ، ومصدر كل طرفة ، وموردَ كلِّ تحفة . وغاية آمال الراغبين ، ونهاية أمانى الطالبين ، إن بارت تجارةٌ فإليها تجلب ، وإن كسدت بضاعةٌ ففيها تنفُق ، مع كثرة علمائها ، ووفرة أدبائها ، وجلالة ملوكها ، ومحبتهم فى العلم وأهله ، يعظمون من عظَّمه علمه ، ويرفعون من رفعهُ أدبه . وكذلك سيرتهم فى رجال الحرب يقدمون من قدمته شجاعته ، وعظمت فى الحروب نكايته ، فشجُع الجبانُ ، وأقدمَ الهيبان . ونبَه الخامل ، وعلم الجاهل ونطق العَيىُّ. وشعر البكىّ ، واستنسر البغاث ، وتشعبَنَ الحفاثْ . فتنافس الناسُ فى العلوم ، وكثر الحذاقُ بجميع الفنون . ثم هم مع ذلك فى غاية التقصير ، ونهاية التفريط من أجل أن علماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم ، وخلدوا فى الكتب مآثر بلدانهم ، وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكراً فى الغابرين ، يُجدد على مَـرِّ الليالى والأيام ، ولسان صدقٍ فى الآخرين يتأكد مع تصرف الأعوام .

وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم ، كل امرىء منهم قائم فى ظله لا يبرح ، وراتب على كعبه لا يتزحزح ، يخافُ إن صنَّف أن يعنَّف ، وإن ألَّفَ أن يخالف ، ولا يوالف ، لم يُتْعِبْ أحدٌ منهم نفساً فى جمع فضائل أهل بلده . ولم يستعمل خاطره فى مفاخر ملوكه ، ولا بلَّ قلماً بمناقب كتَّابه ووزرائه ، ولا سوَّد قرطاساً بمحاسن قضاته وعلمائه . على أنه لو أطلَق ما عقل الإغفالُ من لسانه وبسط ماقبض الإهمال من بيانه لوجد للقول مساغاً ، ولم تضق عليه المسالك ، ولم تخرج به المذاهب ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد . ولكن همُّ أحدهم أن يطلُبَ شأوَ من تقدمه من العلماء ليحوز قصبات السبق بقدع ابن مَقبل ، وبكظم تَغفل ، ويصير شجاً فى حلق أبى العَميْثل . فإذا أدرك بغيته واخترمته منيتّه دُفن معه أدبه وعلمه ، فمات ذكرهُ وانقطع خبرهُ .

ومن قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الأكياس ، فألّفوا دواوينَ بقى لهم بها ذكرٌ مجددٌ طول الأبد ، فإن قلتَ إنه كان مثل ذلك من علمائنا ، وألفوا كتباً ، لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم غير روحة راكب أو رحلة قارب ، لو نفت فى بلدكم مصدور ، لأسمع من بلدنا من فى القبور ، فضلاً عمن فى الدول والقصور . » .

ومات أبو المغيرة ابن حزم ، ولم يجب عن الرسالة السالفة . ثم بعد مدة طويلة وقف الوزير أبو محمد على بن حزم حفيد أبى المغيرة المخاطب بالرسالة المذكورة ، فأجاب

برسالة مطولة أثبت فيها ماللأندلس وعلمائها الأفاضل من فضل وتقدم فى شتى العلوم والآداب وأثبتها ابن بسام فى الذخيرة ، ونقلها عنه غير واحد ممن اهتموا بأدب الأندلس كعماد الدين الاصفهانى فى الخريدة قسم شعراء الأندلس والمغرب ، والمقرى فى نفح الطيب . وليس المجال هنا لعرض هذه الرسالة .

وملاحظتنا على رسالة ابن الربيب تتلخص فى أنها تعتمد أساليب العصر من استخدام للسجع دون تكلف واضح ، والتزام بالوضوح دون ثقل الصنعة ، مع تفاوت الفقرات ، والمراوحة بينها واستخدام المزاوجة فى العبارة . واللجوء أحيانا إلى المجاز لتأكيد المعنى واثباته فى الذهن .

ومن كتّاب صقلية الفقيه أبوموسى عيسى بن عبد المنعم . قال فى رسالة فى وصف الخط [1] :

« ورد كتاب فلان أطال الله بقاء فلان لفلك السعادة والكرم ، وعماداً تعلو به الهمم ليشيد من عرصات الفضل دارسها ، ويبين من أعلام المجد طامسها ، وينير من آفاق العلم حنادِسَها ويبسط من أوجه الليالى عوابسها . فنظرت منه إلى خط موصُوف ، معتدل الحروف ، أملس المتون مفتح العيون ، لطيف الإشارات ، رقيق الحركات ، ليِّن المعاطف والأرداف ، متناسب الأوائل والأطراف ، يروق العيونَ حسنُه وشكلُه ، ويعجز المحاولَ بيد التناول صنعه وفعله ، متضمناً معانى كأنها رقب الزمان ، وضمّةُ الأمان ، لو كانت مساربَ كانت الحياةَ ، أو مشاربَ زادت النجاة . فأوجب تأملى لها تألُّبى ، واستنار بفكرى فيها تعجبى . قلتُ : سبحان ربى القيُّوم أفسحرٌ هذا ، أم أنتم لا تبصرون . أكلّ هذا الإحسان فى طاقة الإنسان ؟ . ومأأرى ذلك فى الممكن والإمكان . ولئن كان ذلك فنحن الأنعام يشملنا اسم الحيوان . ثم رجعتُ إلى نفسى وثابَ إلىّ حسّى ، فقلت عند سكونِ جأشى ، وثبوت طيشى ، وإفراخ روعى ، وذهاب دهشى ، إن من دبَّ فى الفصاحة ودرج فى وكرها ، ورضع بلبانها ، وجرع من درّها . وصاحب السادات مقتبلا ، والأمجادَ مكتهلاً ، لخليقٌ أن يعلُ من الفضل وسائطه ، ويجمع قطريه ، بل يستولى على عذاريه ، ويملك شطريه . » .

---

(١) خريدة القصر للعماد ـــ شعراء المغرب القسم الرابع تحقيق عمر الدسوقى وعلى عبد العظيم طبع دار نهضة مصر بالفجالة سنة ١٩٦٤ .

ومن القيروان وصقلية بالمغرب إلى الشام وهى جناح الدولة الشرق حيث نلتقى بجماعة من الكتاب المشاهير ، والبلغاء المرموقين ، كانت لهم الرسائل البليغة فى مواضيع كثيرة ، فى الاخوانيات والوصف ، والعلوم والفنون ، ونُمثل منها برسائل للوزير المغربى ، وأبى العلاء المعرّى ، وابن القارح .

قال أبو القاسم الحسين بن على الوزير المغربى من رسالة له فى الرد على كتاب وصلهُ[1] :

« وقفت على كتابك ، ولم أزلْ ألثمه كأنى قد ظفرتُ باليدالتى بعثته ، وأضمُّه كأنى أضمُّ الجوانح التى نفثته ، وكأنى كلما أدنيتُه من الكبدِ المعذبة ببعدِك ، وأمررته على العين المطروفة بفقدك ، سحبتُ على النار ذيلَ السَّحاب . وسقيت عطش الحبّ كأسَ الرُّضابْ ، وأعرت أخا سبعين ظِلَّ الشباب ، فأرَّختُ يوم قدومه لأجعله موسماً للسرور ، وعيداً باقيا على الدُّهور أرتقبُ السعدَ عنده كلَّ عام ، وأنتظر الفرجَ منه من كلّ عام ، وأنتظر الفرجَ منه من كلّ غرام ، واتفقَ ورُودُه فى أشرف فصول الدهر حسباً ، وأكرم مفاخر الأيام نسبا حين ابتدأ الربيعُ يزخرفُ برودَه ، والرَّوضُ ينظِمُ عقوده . وكنت أعرف هذا الفصلِ باعتدال منهاجه ، وصحة مزاجه ، وأنه لو كان الزمنُ شخصاً لكان لهُ مقبَّلا ولو أنَّ الأيام غوانٍ لكانَ لها حليًا وحُلَالًا ، لأن الشمس تَخلُصُ فيه من ظلمات حُوتِ السماء خلاصَ يونس من ظلماتِ حوتِ الماء ، فإذا وردتْ الحملَ وافت أحبَّ أوطانِها إليها ، وأعزَّ مساكنها عليها .

وفى فصل منها : فياحسنَ تلك الصحيفة ، ومدادها يُنتَهبُ بالأفواه ، ويزيد بالتقبيل لعَساً فى الشفاه . وياعجباً كيف حفظ مع بُعد العهدِ نشر عَرفك ، وكيف عَلِقَ مع تَراخى الأيام طيبَ كفِّك ؟ . وكيف جاءَ كأنك كتبته من أمم ، وَأنفذته وبيننا خُطوةُ قدم . وكيف لم يُغيِّره ماقطع من مهاوِلَ قِفار ، وليلٍ ونهار ، وعدوٍّ كاشح ورقيبٍ لامح . فأنعم به من ريحانة ألفاظ دامت لدونَتها ، وباكورة وصال سلمت غُضوضتَها ومسحةِ يدٍ بقي أثرها أرَجا ، وروضةِ كَلِمٍ دام على الصيف بهجتها .

وفى فصل منها : فأما سؤالك عنى فما يشبه سيرتك الحسنى ، ولا يليق بطريقتكَ المثلَى كيف تسألنى والإجابةُ معك ؟ ، وكيف تستخبرنى ، ومحلُّ الخبر والاستخبار

(1) الذخيرة ص ٤٩٦ بتحقيق د . إحسان عباس وكتاب الوزير المغربى له ص ١٨٢ طبع الأردن سنة ١٩٨٨ .

عندك ؟. ومتى سمعت بجواب جسدٍ رهينة ؟ . وأين رأيت طِماخ عن لواحظها مقيدةٌ كليلة ؟ . ألم أفارقك وقلبى عندك أعشارٌ . وأضلعى منه قفار ؟ . » .

وله من فصل يصف الموصل حين وردها .

« ... وردت الموصل التى خالف اسمها معناها ، وكانت مقطعا بيننا لولا خدع الأمانى وفصلاً لولا المرجوُّ من عفو الليالى . فوجدت هواءها يعطل سُوق بقراط اعتدالاً وطيبة ، وماءها يُسْلى عن مُجاج النحل استمراء وعذوبة ، وصُقعها قد تبغدد رقة ولطفا ، وجوُّها قد تزندق تنعماً وظرفا . تكاد تثقله عُقود الغانيات ، ويخجله تتابع اللحظات ، كلُّ شمأله نسيم ، وكلُّ جنوبه حَيّاً عميم ، ورأيت أرضها أطيب الأرض خيما ، وأزينها أديما ، تُنسجُ بالسندس الأخضر ، وتفترُّ عن الأقحوان الأحمر ، ورأيت بنيانها هو الذى حمده الله فى تنزيله ، وأحبه لنا أن نكون مثله جهاداً فى سبيله ، مرصوصاً بوقاح الجلد ، ملاءماً بينه بالشيد الممرَّد . قد حُصِّنَ ظاهره علىٰ باطنه عن تداخل الإبر ، ومساكن الذر ، يزلُّ عنه ظُفر الطائر ، وتتدحرج عليه أصداق الناظر . وتغنَّى به العروس عن الماوىّ المنير ، وتستبينَ به الجفون منابت الشكير من أحدابها والغمير ، متلاقية أقطارها على رجالٍ كأنهم أعلاء عاد ، وثاقة أجسام ، وصلابة أحلام ، وبُعد مرام . لطُفوا عن بدوِّية الشام وغلِظته ، وجمُدوا عن ذوْب العراقِ وخلابته ، وقد عقدت ألسنتهم بالصدق ، فما ينتثر الباطل من عذباتها . وصحُتْ غرائِسهُم فى المودة ، فما يُجتنى النور من ثمراتها إن سلماً فسلماً ، وان حرباً فحرباً ، لا يعرفون تدليس الأخلاق ، ولا تمويه النفاق . وشعراؤهم ملء اليدين ، وكتابهم أثرٌ بعد عين . أدبهم حسنٌ على قلة الملوكىّ فيه ، وعلمهم متقنٌ لمن تأمّل أدق مسرف فى فتن معانيه . قد محَّصَ تهذيبُ المحن شرارهم ، وأوهَن خيارَهم . بلدُهم أطلالٌ وأحوالهم آل . قويُّهم يَئِنُّ ضعفاً ، وصفيفهم يماطل حتفا . بقيت عليهم أسمالُ النعم ، وذهب الدهر بأجسادها ، وانجلت عنهم ظُلل المحن وهم يتأوهون من غير آلامها إلّا أن فيهم بقية نقيّة ، وفيهم موضع تدارك إن رُزقوا سيرةً مرضية ، فلولا ماأرجوه من مداواة أسقامهم ، وإعادة صالح أيامهم ، لقضانى الانتهاءُ بمعايشتهم قبل معاناتهم ، وبملاحظتهم قبل مقاساتهم ، لكننى أعلم أن من يحيى العظام وهى رميم ، ويبعث الروض وهو هشيم ، وينشىء (الأرض) بعد ماكانت قفاراً ، ويجعل من الشجر الأخضر نارا قادرٌ على أن يجعل ثواب نيتى فيهم معونتى علىٰ ماأنويه لهم ، وجزاء تأملى بهم بلوغ الغرض فى تدارك

رمقهم . »

ومن رسائله تلك الرسالة التى بعث بها إلى أبى العلاء المعرى وأخيه .

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقى

هذه أطال الله لسيديّ الشيخين فى سبوغ النعمة البقاءَ ، وأدام لهما فى ذورة المجد الارتقاء . وجعلنى لهما من كل سوء الفداء والوقاء . نفثةُ مصدورٍ ، وضجرة مأسورٍ بعشْقهما صبابة الهوَى ، تُذكيها نارُ الغرام ، فى صبابة لقاء تُقِلُّها أيدى السلام :

بقيّـــةُ شـلو كسّـر البين عظمه ... ومزّق جلداً كان يستُر مابقـــى
أقــام فلا تلـك الخوافى تطيُعه ... نهوضاً ، نهوضاً ولا تلك القوادم ترتقى

ولابد للمصدور أن ينفث ، ولا غرو للمأسور أن يتلهث . وجملتها أنى كتبتُ ، ومالى جارحة إلا وهى جريحةٌ حبهما ، ولا جانحةٌ إلا وهى جانحةٌ إلى قربهما ، ولا قلبٌ إلا وهو كيفما تردُّدَ وتقلب فى مرضاتهما ، ولا نفسَ إلا وهو كيفما تصعَّد وتصوَّبَ ففي موالاتهما ، فالله يحرسُ على مُوقِدىْ جزلِ الغَضَا بين جنبيَّ ، وموقدىْ جيش الصبابة كلَّ يوم إلىّ ، اللذين إن واجهتُ بهما المروءةَ أسفر مربدُّها ، وسر مكمدّها . وإن قابلت بهما الفتوة طلع سعدها ، وأورى زندها :

أردِّدُ فيهمـــا فكـــرى ... فترجـــع حسْـــراً فِكَـــرى
كذاك الشـمـس تثنى العيـ ... ـنَ معشـاةً عن النظـــرِ

فإذا هاجَتْ بلا بلى ذكراهما ، وإن كنتُ لا أنساهما ، وَاشتقت أن أراهما ، ولم أجد عوضاً عمن سواهما

أروم بالذكـر شـفاءَ الـذى ... يقلقنـى من لوعـة الذكـــر
ولسـتُ بالحاصـلِ إلا علـــى ... إطفـاءِ جمـرٍ بلظـى جمــرِ
وعلـة الكـونِ إذا طولبـــث ... بالجـر فى الإفســادِ لم تجرِ

مثلت نفسى لديهما ، وقررت مكانها بين أيديهما :

وخلـوت أجتلـبُ الرقـاد لعلنـى ... ألقـى خيـالاً منهما فأراهمـــا
فإذا عدمـت النوم لـذتُ بفكرتـى ... فالمجـاب لى من ليلتى فجراهمـا
وإذا سـئِلتُ بمن تهيـم صبابـةً ... قلـت اللذان همـا اللذان هُماهُمـا

الموفيان بعهدى بالغيب ، والساتران لما فىَّ من عيب ، والمحسنانِ إلىَّ إذا أسأت والمصيبان فى أمرى إذا أخطأت .

دليلاىَ إن جارَ بى مهتدٍ — وعَوْناىَ إن خذلَ الناصِرُ
ولولا تردُّدُ فكريهما — لما كان لى فى الدُّجى سامِرُ

من أجتلى غُررَ محاسنهما من جبَهاتِ الدهر ، وأقرأ فضائِلهما فى صحائِف العصر ، وأطالعُ طلعتيهما فى مرآة التخيل ، وأشاهد سمتيهما بعين التفكر والتأمل . ولا غرور وإن بَعُد العهد إذا قَربَ الود ، ولا ضير إن تناءت الأشباح ، فقد تدانت الأرواح .

ولكن إذا حاسبتُ نفسى تأملت — فلم تر إلا فكرةً قل ماتجدى
فلا العين ترعَى غير ماكان من نوى — ولا القلبُ يلقى غير ماكان من وجْدِ
وإلى لجانى البعد والبعد قاتلى — وشاحذُ حدّ البين والبين لى مُردى
فوا أسفاً من ذا ألوم على النوى — ومنْ قِبلَى كانَ الفراقُ ومن عندى
وكم قد أقلتُ الدهر من خطأ ثنىً — فهَلّا أقال الدهرُ من خطاءٍ فرْدِ
فنفَّسَ من كربٍ وفرجَ من أسىً — وجمَّع من شتٍّ ، وقرَّب من بعد

وهيهات ! . هو الدهر الذى يسرُّ نادراً ، ويسوءُ مبادراً ، ويحسن مبتدئا ويسوء آخراً :

ويجودُ ثم يجيد أخذ صلاته — مستدركاً خطأ الجميل فمدركا
فإلى الزمان أذم ماألقاه من — غِيَرَ الزمانِ واستنيم إلى البكا
وإذا شكوتُ إلى سواه صنيعهُ — لم يُشكِنى فإليهِ منه المشتكى

فلعله أن يغلط باجتماع ، لا يكدره الصداع ، أو تلاق لا ينغصه افتراق ، وهو المرجوُّ من طُولِ الله تعالى ، ولولا ماأرجوه من عوده إلى ماعوَّد من جمع الفريقين ، ولم ذات البين ، لمتُّ كمدا ، ولم أجد على ماأقاسيه جلدا ، فأما حالى وماأنا عليه ، فجملتُها أنى أصبح وأمسى فى غلّ التدبير ، وأروح وأغدو فى سجن المقادير ، هدفا لسهام الليالى والأيام ، وغرضاً لأسنّة الأحوال والأعوام ، أجدُ مالا أريد ، وأريد مالا أجد :

وليتنى من زمانى — خرجت رأساً برأسِ

فلـــم ينلِنِـــــى بخيـــــر ولم يصبنـــــى يـــــأسِ

وهما يريان ذلك فى اضطراب خَطّى ، ورجوع ألفاظى شيئا فشيئاً إلى حُطّى ، فإذا هما صرفا التأمل إلىّ ، واقبلا بكلية فهمهما علىّ وجدانى :

وقد استحال الهمّ بى فتخالنـى من طول ماأجِـدُ الجوَى مسـرورا
وقد انطوت منى الضلوع على أسًى لو كان محسوساً لكان سـعيرا

وأَخلِقْ بمن كانت هذه صفته ، أن تتساوى عنده الصحّة والسقم . وأخرى بمن كان هذا نعته أن يتماثل لديه الراحة والألم .

بأىّ فـؤاد أقاسـى الهموم وفى أى جفن أحـسُّ السهادَا
وما ترك الدمع لى مقلـةً ولا خلّـفَ البين عندى فـؤادا

وأنا مع كمال هذه الأحوال أخاشن الحجر ، وأحاسن القمر ، وأفاضلُ الهجانَ بالهجن ، وأفضّل الغَثَاثَة على السِّمن .

أتعاطى نزح الركىّ وقد قصّـ ـرَ عن أن ينال مـاءً رشـاءُ
ولعهدى بفكرتى وهى تنجـا بُ بها عن صباحـها الظلمـاءُ
غير أنى وإن تعاورنـى الهـمُّ وشـاءَ الزمانُ مالا أشـاءُ
ورمانـى مستيقنا أنَّ قلبـاً بين جنبّى صخـرةٌ صمّـاءُ
لا أبالى بالليل طالَ أم اليـو مَ ، كـلا الزنبتين عندى سـواءَ
والمنادى هو المراوح من هـمـ ـمى فهذا الصباح ذاك المسـاءُ
وإذا العين لم تعاين سوى السُّـ ـوءِ فسِّيان ظلمةٌ وضيـاءُ
وابنى الهـمُّ لا ابنه أنا إذ كـل ابن همٍّ بَلِيَّـةٌ عميـاءُ

وبعد فهذا أدام الله عِزّ سيدىَّ الشيخين ـــ قولٌ أستغفر الله منه ، وأسأله التجاوز عنه ، واسلم للمحتوم فى أمره ، وأرضى بقدره فى خيره وشرّه ، وأسأله الجمع بينى وبينهما على حالٍ تَسُرُّ الولىَّ وتسوء العدوِ بحوله وطوله . إنه ولىُّ الإجابة ، والقادر عليها إن شاء الله تعالى . » .

والرسالة كما نرى تنمّ عن صدر محرور ، وقلب موتور ، وتكشف عما لاقاه كاتبها من أزمات ، ومعاناة فى حياته الغريبة بين مصر وأقطار الشام والعراق ، وقد لاقى فيها

مالاقى من الأحداث الكبار .

وهو يبعث بالرسالة إلى عالم أديب فيلسوف كانت له أيادٍ فى العلم والفكر . والرسالة غريبة فى طراز الرسائل التى كتب ، لأنه مزج فيها بين النثر والشعر وكلاهما من صنعه ، وفاضل بين الترسّل والنظم ، فأجرى منهما فرسَىْ رهان ودلّ على تمكنه من التعبير وامتلاكه ناحية اللغة ، مع علم عزيز ، وعلوباع فى الأدب ، وكثرة محفوظ لتراثه .

ولاشك أنه يراعى مكانة المرسل إليه فى الأدب واللغة ، فهو يحافظ على كل كلمة ينثرها ، وكل لفظة ينظمها ، لا يدع مجالاً لأن يختل ترسله ، أو يهن نظمه .

والرسالة بعد هذا كله تدلّ على علو كعب صاحبها فى فنّى الكلام مما سنفصل فيه القول عند وقفتنا معه .

الرسـائل الموضوعيـة

وندع هذا اللون من الرسائل إلى ضَرْبٍ آخر لم يقصد به التراسل ، بل الافضاء بما يدور فى خلد الكاتب من فكر حول موضوع بعينه ، فهو من الرسائل التى تدور فى موضوعات العلم . وربما أطلق عليها اسم الرسالة لكونها فى حجمها لا تبلغ شأو الكتاب . وهى أشبه بالمقال .

ومنها كما عرفنا رسائل كثير من البلغاء والأدباء فى عصر سابق على هذا العصر ولعل أشهرها فيمن عرفنا رسائل الجاحظ ، وهى ليست أقل أهمية من كتبه بل لعلها تفوق بعضها لتركيزه القول فى الموضوع الذى يطرقه بما يجعل أثرها فى القارىء أقوى ،

وهذا ماكانت عليه الحال كذلك فى رسائل البلغاء فى عصر الفاطميين من المصريين والمشارقة أو المغاربة ، وكم عرفنا من الرسائل لهذا العصر بقيت بقاء الدهر واشتهرت فى الخافقين كرسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، والرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت ، وبعض رسائل ابن الصيرفى على بن منجب .

ولما كانت بعض هذه الرسائل لجماعة من كبار كتاب العصر وأدبائه ، وكانت كذلك من أشهر أعمالهم الأدبية ، وقد تناولها أو تناول بعضها كرسالة الغفران جماعة من الدارسين والباحثين فى العالم العربى والاسلامى ، وفى العرب المسيحى ... [illegible]

فليس لنا بعد قولهم فيه من مزيد ، اللهم إلّا أن نعرض لموضوعها ، ومناسبتها لنضعها فى مكانها من هذا العصر الحافل بتراث الأدب والفكر .

رســـالة الغفران :

ومعروف أن أبا العلاء المعرى ألف رسالة الغفران ردًّا على رسالة ابن القارح التى عرض فيها لجملة من قضايا اللغة والأدب والفكر والدين فى عصره ، وليست غرابة الرسالة ولا كان تفردها واهتمام الناس بها من بين جميع رسائل أبى العلاء ، بل دون جميع رسائل العصر لأنها تناولت بعض القضايا الأدبية أو الدينية والفكرية الهامة ، فقد تناثرت معظم هذه القضايا فى كتب مفكرى العصر وأدبائه ، بل إنّ منهم من عالجها بصورة أكثر شمولاً من أبى العلاء فى رسائل ومؤلفات عدة . بل إن أهمية رسالة الغفران تتعلق بذلك النمط الخيالى الذى بناها عليه المعرى مما جعلها نموذجاً متفردًا ، بل شكلاً جديداً فى الرسائل العربية والاسلامية لم يسبق إليه حتى إن بعض أدباء عصره حاولوا تقليده والسير على منهاجه فيها مثل ابن شهيد الأندلسى فى رسالته « التوابع والزوابع » . وقد قام كثير من الجدل حول إمكانية هذا التقليد . لتقارب زمنيهما .

ولم يكن أثرها مقصوراً على الأدب العربى وحده ، بل تعداه إلى آداب الغرب فى العصور الوسطى ، وكم تحدث العلماء والباحثون عن العلاقة بين « جحيم » دانتى ، وغفران أبى العلاء .

ورسالة الغفران ـــ كما نعلم ـــ جواب على رسالة لابن القارح على بن منصور الحلبى وكان قد كتب بها من حلب إلى أبى العلاء ، وقد اتصلت الأسباب بين الثلاثة الأعلام أبى العلاء وابن القارح وابن المغربى ، كما اتصلت أسباب الثلاثة بالفاطميين ودولتهم ورجالهم ، وكان لهم شأن فى مجريات الأحداث وكان لهم شأن فى بعض مادار من الحوار والتراسل على ما عرفنا من قبل من رسائل بين المعرى وداعى الدعاة ، وما قيل من دعوة الحاكم بأمر الله أو المستنصر لأبى العلاء إلى مصر ، والرسائل والعلاقة التى قامت بين الوزير المغربى وأبى العلاء ، وقد أوردنا رسالة المغربى ، وهذا ثالث وابن القارح كانت علاقته بالفاطميين بيّنةً لأنه ذهب إلى مصر مُسْتَدْعَىً من الشام للانضمام إلى على بن الحسين والد أبى القاسم الوزير المغربى .

وحدث بين ابن القارح وأبى القاسم ماحدث ، وكانت له آثاره فى رسالته إلى أبى العلاء والتى يقول فيها :[1] .

« كنت أختلف إلى أبى الحسن المغربى — (ببغداد) ... ثم سافرتُ إلى مصر ولقيتُ أبا الحسن المغربى فألزمنى حتى لزمته لزوم الظل ، وكنت منه مكان المِثل فى كثرة الإنصاف والحنّو والتّحاف . فقال لى سرًّا : أنا أخافُ ثمة أبى القاسم أن تنزو به إلى أن يوردنا ورداً لا صدَر عنه . وإن كانت الأنفاس مما تحفظ وتكتب ، فاكتبها واحفظها وطالعنى بها .

فقال لى يوماً : ما نرضى بالخمول الذى نحن فيه ، قلت : وأى خمولٍ هنا ؟ . تأخذون من مولانا — خلّد الله ملكه[2] — فى كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوك من شيوخ الدولة ، وهو معظم مكرَّم . فقال : أريد أن تُصارَ إلى أبوابنا الكتائب والمواكب والمقانب[3] . ولا أرضى بأن يجرى علينا كالولدان والنسوان .

فأعدت ذلك على أبيه ، فقال : ماأخوفنى أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه ، وقبض على لحيته وهامته .

وعلم أبو القاسم بذلك ، فصارت بينى وبينه وقفة » .

ويروى ابن القارح كيف أنه غادر مصر وغاب عنها إلى الحج زمناً ، وكان أن فتك فى هذه الأثناء الحاكم بأمر الله بأبى الحسين وإخوته ، وقتل الحسين بن جوهر . وفر أبو القاسم الحسين إلى الرملة بالشام .

وكانت مناسبة ذكر الوزير المغربى فى رسالة ابن القارح أن أبا العلاء ذكره بأنه الذى هجا ذلك الوزير . ويبدو أن العداء بين الوزير وابن القارح انتشر وذاع حتى بلغ أسماع أبى العلاء وعلق بذهنه ، وكانت مناسبة أن ذكره بذلك بين بعض أصحابه ، فنقلوه إلى ابن القارح فى حلب . فكانت هذه الرسالة التى بعثت أبا العلاء على أن

---

(١) الوزير المغربى

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه

يكتب رسالة الغفران ، وهى من أجمل ماحملت لنا أيام تلك الفترة من النصوص الأدبية .

ألا ترى معى إذا كيف تشابكت ظروف السياسة والأدب والفكر ، والتعارف والتعادى بين أعلام السياسة والفكر والأدب وتكاتفت لتبرز لنا كلها فى هذا النص وغيره ؟

كانت رسالة ابن القارح عتاباً ، وذكرا لأحواله ، وادلالاً بنفسه وعلمه وشيوخه وربما أراد من هذا كله أن يعرّض بأنه لا يعرف بهجاء الوزير المغربى كما ذكر أبو العلاء وانما يعرف بماله من مكانة فى العلم والأدب واللغة ، وأنه حصل على مشاهير علماء العصر من أمثال ابن خالويه ، وأبى على الفارسى ، وأبى سعيد السيرافى ، وعلى بن عيسى الرمانى وأبى عبيد الله المرزبانى ، وأبى حفص الكتانى . يقول : [1] .

« كنتُ أدرس على أبى عبد الله بن خالوية رحمه الله ، وأختلف إلى أبى الحسن المغربى ولما مات ابن خالوية سافرت إلى بغداد ، ونزلت على أبى علي الفارسّى . وكنت أختلف إلى علماء بغداد : إلى أبى سعيد السيرافى ، وعلى بن عيسى الرمانى ، وأبى عبيد الله المرزبانى وأبى حفص الكتّانى ، صاحب أبى بكر بن مجاهد . وكتبت حديث رسول الله ﷺ ، وبلغت نفسي أغراضها جهدى والجهدُ عاذُر . ثم سافرت منها إلى مصر . » .

وذكر ابن القارح فى هذه الرسالة بعض انحرافات العقيدة ، ومن ثار من الثائرين وخرج من الخارجين على جادة الدين من مدعيى النبوة ، والمتنبئين والمتألِهِّين ، والملحدين المارقين . وذكر منهم عدداً منذ فجر الإسلام كابن المعذل ، وبشار بن برد ، والبازيار ، والأفشين وابن الراوندى ، والحلاج وغيرهم .

وذكر بعض ادعاءات هؤلاء ومفترياتهم ، وماعترضوا به على الإسلام وكتاب الله ، ونبوة نبيه محمد ﷺ وغيره من الأنبياء .

وجعل ابن القارح الرسالة معرضاً لمعارفة فى الملل والنحل والتاريخ والأدب واللغة محاولاً أن يتبرأ من مثل هذه الدعاوى الباطلة ، وأن يصل قلبه وعقله بالعقيدة الصحيحة دون أن ينافق أحداً ، أو يسعى فى سبيل المال لمسالأة إنسان .

(1) من رسالة ابن القارح في مقدمة رسالة الغفران بتحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن الطبعة السابقة ذخائر العرب ([illegible] ٤) ـ دار المعارف سنة ١٩٧٧ . ص [illegible] ـ ٥٧ .

ولعل التعريض فى هذا واضح بما كان يدور فى مجال الدعوة والفكر بين المعسكرين الاسلاميين فى بغداد الخلافة العباسية السنية والقاهرة حيث الدولة الفاطمية الشيعية وما بينهما من البلاد الاسلامية وقد تنازعتها الملل والأهواء والنحل . بين قرمطية وإمامية وإسماعيلية نزارية .

وربما أراد ابن القارح وقد بلغ من السنّ مبلغاً أن يعبر عن هذه الرغبة فى أن ينجو بنفسه من معترك تلك العقائد والملل ، وأن يمسك بحبل كتاب الله ، والصحيح الثابت من سنة رسوله الكريم . ليفوز برضوان الله ، وقد آذنت أيامه بانقضاء .

وعرف المعرى هذا كله فى الرسالة ، فلم يبادر بالردّ على ماورد فيها مباشرة ، بل بدأ عرضاً فنياً جميلاً فى رحلة خيالية فى اليوم الآخر ، ليصحب صاحبه ابن القارح فى رحاب الجنة التى أعدها للمتقين ، وأن يطوف به اليوم الآخر يوم البعث ليلقى جماعة من الشعراء والأدباء ، فيقف معهم وقفة للمحاورة والمذاكرة . وإنشاء الشعر .

ويبدأ أبو العلاء رسالته بالاعتذار لابن القارح عما بدا منه من ذكره بهجاء ابن المغربى وابداء مايضمر له من المحبة والتقدير .

« ... يُضمر من محبة مولاى الشيخ الجليل — ثبّتَ الله أركان العلمٌ بحياته — مالا تضمره للولد أمٌّ . » .

ثم يقول بعد فذلكة لغوية عرفت عند أبى العلاء فى كثير من رسائله : [1] .

« ... وقد وصلت الرسالة التى بحرها بالحكم مسجورٌ ، ومن قرأها مأجورٌ ، إذ كانت تأمرُ بتقبُّل الشرع ، وتعيب من ترك أصلاً إلى فرع . وقد غرقتُ فى أمواج بَدعِها الزاخرة ، وعجبتُ من اتساق عقودها الفاخرة . ومثلها شفع ونفع ، وقرّب عند الله ورفع . وألفيتها مفتتحةً بتمجيد صور عن بليغ مجيد . وفى قدرة ربّنا — جلت عظمته أن يجعل كلَّ حرفٍ منها شبح نور ، لا يمتزج بمقال الزُّور . يستغفر لمن أنشاها إلى يوم الدين ، ويذكره ذكر محبٍّ خدين . ولعله سبحانه ، قد نصب لسطورها المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الأُرض الراكدة إلى السماء ، وتكشف سجوف الظلماء بدليل الآية : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيبُ والعمل

(1) رسالة الغفران ص ٢٣٩ — ٤٠ .

الصالحُ يرفعه ﴾ . وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله : ﴿ ألم تر كيف ضربَ اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابتٌ وفرعها فى السماءِ ، تؤتي أكلها كُلَّ حين بإذن ربِّها ﴾ .

وفى تلك السطور كلمٌ كثيرٌ ، كله عند البارى ــ تقدَّسَ ، أثير . فقد غرسَ لمولاىَ الشيخ الجليل ــ إن شاء الله ــ بذلك الثناء ، شجرٌ فى الجنة لذيذ اجتناء . كلُّ شجرة منه تأخذ ما بين المشرق والمغرب بظلٍّ غاط [1] ، ليستْ فى الأعين كذاتِ أنواط . [2] » .

مشاهد الجنة ــ وجولة ابن القارح بها .

ويعرض مشاهد متخيلة من جنة الخلد بما فيها من أنهار لبن وعسل ، وما فيها من أوانى الذهب وفراش الاستبرق وما شابهه من فاخر الشيء الذى لا يشبهه متاع الدنيا .

ويعرج به إلى مشهد آخر فيقول : « ثم إنه أدام الله تمكينه يخطر له حديث شيء كان يسمى النزهة فى الدار الفانية ، فيركبُ نجيبا من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر ، فى سجسجٍ بعُدَ عن الحرّ والقُر ، ومعه إناء فيهج ، فيسير فى الجنة على غير منهج ، ومعه شيءٌ من طعام الخلود ، ذُخِرَ لوالِدٍ سعِدَ أو مولود ، فإذا رأى نجيبةَ يُملغُ[3] بين كثبان العنبر ، وصنيْمَرانٍ وصِيلَ بصعْبَرَ [4] ، رفع صوته متمثلاً بقول البكرى :

ليتَ شعرى متى تخبُّ بنا النا   قةُ نحو العُذيبِ فالصَّيُّونِ
محْقِبـًا ذُكرةً ، وخُبزَ رُقاقٍ   وجباقاً ، وقطعَةً من نونِ

يعنى بالحباقِ جُرزَة البقْل . فيهتف هاتفٌ : أتشعرُ أيها العبدُ المغفورُ له لمن هذا الشّعر ؟ . فيقول الشيخ : نعم حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم ، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى يصلوه بأبى عمرو بن العلاء ، فيرويَه له عن أشياخ العرب ، حرشَةِ الضباب فى البلاد الكلدات [5] ، وجُناةِ الكمأةِ فى مَغَانِي البُداة ، الذين لم يأكلوا شيراز[6] الألبان ،

(١) غاط : واسع ممتد
(٢) وذات أنواط شجرة كانت تعبد فى الجاهلية .
(٣) يملغ : يسرع ويخف ، والنجيبة الناقة أو الفرس السريع
(٤) صعبر : [illegible]
(٥) الكلدات : [illegible]   (٦) [illegible]

ولم يجعلوا الثمر فى الثّبان[1] ، أن هذا الشعر لميمون بن قيس بن جندل أخى بنى ربيعة بن ضُبيعةَ بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل . » . فيقول الهاتفُ : أنا ذلك الرّجُل ، منّ الله علىَّ بعدما صرتُ فى جهنّم على شفير ، ويئستُ من المغفرة والتكفير . فيلتفتُ إليه الشيخ هَشَّاشاً ، مُرتاحاً ، فإذا هو بشابٍّ غُرانقٍ[2] ، غبرَ فى النعيم المفانِق [3] ، وقد صار عَشاهُ حوْراً معروفاً ، وانحناء ظهره قواما موصوفا . فيقول : أخبرنى كيف كان خلاصك من النار ، وسلامتك من قبيح الشّنار ؟ فيقول : سحبتنى الزبانية إلى سقر ، فرأيت رجلاً فى عرصاتِ القيامة يتلألأ وجهة يتلألأ القمر والناسُ يهتفون به من كل أوب : يامحمد . يامحمد ، الشفاعة ! الشفاعة !! . نمتُّ بكذا ، ونمتُّ بكذا . فصرختُ فى أيدى الزبانية : يامحمد أغثنى فإنَّ لى بك حرمة ! . فقال : ياعلىّ بادِرْهُ فانظر ما حُرمتُه ؟ . فجاءنى على بنُ أبى طالب — صلوات الله عليه — وأنا أُعتلُ كى ألقى فى الدَّرْك الأسفل من النار ، فزجرهم عنى وقال : ما حرمتُك ؟ . فقلت : أنا القائل :

ألا أيّهذا السائِلى أيـن أمـمـتْ ... فإنَّ لها فى أهـلِ يثرب موعـدا
فآليت ، لا أرثـى لها من كلالـةٍ ... ولا من حـفًى ، حتى تلاقـى محمَّدا
متى ما تناخِى عند بابِ ابن هاشـم ... تُراحى ، وتلقَىْ من فواضله نـدى
أجدَّك لم تسـمع وصـاةَ محمـدٍ ... نبىِّ الإله حين أوصى وأشـهدا
إذا أنت لم ترحلْ بزادٍ من التُّقى ... وأبصرت بعد الموت من قد تزوّدا
ندمتَ على أن لا تكـون كمثلـهِ ... وأنّكَ لم تُرْصـد لما كانَ أرصَدا
فإيّاك والميتاتِ لا تقْرَبنّهـا ... ولا تأخذَنْ سـهماً حديداً لتفصـدا
ولا تقربنّ جارةً إنَّ سـرَّها ... عليكَ حـرامٌ فانكحـنْ أو تأبّدا
نبىٌّ يرى ما لا يروْنَ ، وذِكْـرُهُ ... أغار لعمرى فى البلادِ وأنجـدا

وهو — أكمل الله زينة المحافل بحضوره — يعرفُ الأقوال فى هذا البيت ، وإنما أذكرها لأنه قد يجوزُ أن يقرأ هذا الهذيان ناشئٌ لم يَبْلُغهُ .

الثبان . أذيال القمصان
(٢) الغرانق : الأبيض الجميل الصورة
(٣) المفانق الناعم

حكى الفرَّاءُ وحده أغارَ بمعنى غارَ . إذا أتى الغور — وإذا صحَّ هذا البيتُ للأعشى، فلم يُردْ بالإغارة إلَّا ضد الإنجاد . وروى عن الأصمعي روايتان : إحداهما أن أغار فى معنى عدا عدواً شديداً . وأنشد فى كتاب « الأجناس » .

فعدّ طِلابهَا وتسلَّ عنهـــــا بناحيــةٍ إذازُجِــرَتْ تُغيــــرُ

....

ويقول الأعشى : قلتُ لعلّى ، وقد كنتُ أُومن باللهِ ، وبالحساب ، وأُصدِّق بالبعثِ وأنا فى الجاهلية الجهلاء ، فمن ذلك قولى :

فمـا أيْبُلِــيٌّ على هَيْكــلٍ بَنَـــاهُ وصــلَّبَ فيـه وصــارا

يــراوحُ من صَلَــواتِ المليـكِ طـوراً ســجوداً وطـوراً جُؤارَا

بأعظـم مِنـك تُقـى فى الحِسـاب إذا النَّسماتُ نفضْنَ الغبـــارا

فذهب علىٌّ إلى النبى ﷺ ، فقال : يارسولَ اللهِ هذا أعشى قيس قد رُوىَ مدحُهِ فيك ، وشهدَ أنك نبىٌّ مُرسل ، فقالَ : هلاَّ جاءنى فى الدار السابقة ؟ . فقال على : قد جَاءَ ولكن صدَّته قريشٌ وحُبُّه للخمر . فشفع لِى ، فَأُدْخِلْتُ الجنة على أن أشربَ فيها خمرا ، فقرَّتْ عيناى بذلك ، وإنَّ لى منادِحَ فى العسلِ وماءِ الحيوان ، وكذلك من لم يَتُب من الخمرِ فى الدارِ الساخِرة ، لم يُسقَها فى الآخرة .

* * * *

وينظر الشيخ فى رياض الجنة فيرى قصرين منيفين ، فيقولُ فى نفسهِ : لأبلغَنَّ هذين القصرين فأسألَ لمن هما ؟ . فإذا قَرُبَ إليهما رأى على أحدهما مكتوباً : هذا القصرُ لزهير ابن أبى سُلمَى المزنىُّ وعلى الآخر : هذا القصرُ لعبيد بن الأبرص الأسدى ، فيعجبُ من ذلك ويقول : هذان ماتا فى الجاهلية ولكنَّ رحمة ربنا وسعت كلَّ شىء ، وسوفَ ألتمس لقاءَ هذين الرجلين فأسألهما بم غُفِرَ لهما . فيبتدىء بزهير فيجدُه شاباً كالزهرةِ الجنيَّة ، قد وهبَ له قصرٌ من ونيَّة [1] . كأنه ما لبِس جلباب هرم ولا تأفف من البرَم . وكأنه لم يقل فى الميمية :

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يَعِشْ ثمانين حــولاً ، لا أبالَــك ، يَسأم

---

(١) الونية اللؤلؤة أو الدرة

ولم يَقُلْ فى الأخرى :

ألمْ ترنى عُمرّتُ تِسعين حجّةً   وعشراً تباعاً عشتُها وثمانيا

تمول : جَيِّرٌ ، جَيْر ! ، أأنت أبو كعبٍ وبُجيرٌ ؟ . فيقول : نعم . فيقول ــ أدام الله ه ــ : بم غُفِرَ لَك ، وقد كنت فى زمان الفترة ، والناسُ هملٌ ، لا يحسنُ منهم العمل ؟ . فيقول : كانت نفسى من الباطِل نُفورا ، فصادفتُ ملكاً غفورا ، وكنتُ مؤمناً بالله العظيم ، ورأيت فيما يرى النائمُ حبلاً نزل من السماء ، فمن تعلّق به من سكان الأرض سلم ، فعلمتُ أنه أمرٌ من أمر الله ، فأوْصَيتُ بنىّ وقلتُ لهم عند الموت : إنْ قام قائم : « يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه . ولو أدركتُ محمداً لكنْت أول المؤمنين . وقلتُ فى الميمة ، والجاهليةُ على السّكِنة ، والسفه ضاربٌ بالجران :

فلا تكتمُنّ اللهَ ما فى نفوسكُمْ   ليخفى ، ومهما يُكتم اللهُ يعْلَم
يؤخَّر فيوضع فى كتابٍ فيُدّخره   ليوم الحساب أو يُعجَّلْ فينْقَم

فيقول : ألست القائل :

وقد أغدو على ثُبةٍ كرام   نشاوى ، وَاجدين لما نشاءُ
يجرُّون البرودَ وقد تمشّتْ   حُميّا الكأسِ فيهم والغناءُ

أفأطلقت لك الخمرُ كغيرك من أصحاب الخلود ؟ . أم حرّمت عليك مثل ما حُرّمتْ على أعشى قيس ؟ . فيقول زهير : إنّ أخا بكر أدرك محمداً ، فوجبت عليه الحجة ، لأنه بعث بتحريم الخمر ، وحظْرِ ما قبحَ من أمر . وهلكْتُ أنا والخمر كغيرها من الأشياء ، يَشربُها أتباع الأنبياء ، فلا حُجّة علىّ .

فيدعوه الشيخ إلى المنادمة ، فيجده من ظراف الندماء . فيسأله عن أخبار القدماء . ومع المِنصف[1] باطيةٌ من الزّمرُّد فيها من الرحيق المختوم شيءٌ يُمزجُ بزنجبيل ، والماءُ أخذ من سلسبيل . فيقول ــ زاد الله فى أنفاسه ــ أين هذه الباطية من التى ذكرها السّرَوىّ فى قوله :

ولنا باطيةٌ مملوءةٌ   جونةٌ يتبعُها برْذيْنها
فإذا ماطردت أو بكأتْ   فُتّ عن خاتم أخرى طِينُها

* * * *

(١) المنصف : الخادم .

ويمر ابن القارح فى الجنان بقصريْ النابغتين نابغة ذبيان والنابغة الجعدى فيجلس إليهما ويدور الحديث فى شعرهما ، ويحدث التلاحى بينهما من مثل قول النابغة الذبيانى للنابغة الجعدى :

« .... أتقول هذا وإن بيتاً مما بنيتُ ليعدلُ بمائة من بنائك ؟ . وإن أسهبت فى منطقتك ، فإن المسهب كحاطب الليل ، وإنى لفى الجرثومة من « ربيعة الفرس » . وإنك لمن بنى جعدة ، وهل جعدةُ إلا رائدةُ ظليم تعوُر . أتُعَيِّرنى مدح الملوك ؟. ولو قدرت ياجاهل على ذلك لهجرت إليه أهلك وولدك ، ولكنك خلقت جبانا هدانا [1] . لا تدلجُ فى الظلماء الداجية ، ولا تهجِّرُ فى الوديقة الصاخدة [2] ، وذكرتَ لى طلاقَ الهزانية ، ولعلها بانت عنّى مسرَّةً الكمد ، والطلاقُ ليس بمنكر للسُّوق ولا للملوك .

فيقول « الجعدى » : اسكت ياضُلَّ بن ضلّ ، فأُقسم أن دخولك الجنة من المنكرات ! ولكنَّ الأقضية جاءت كما شاء الله ، لَحقُّكَ أن تكون فى الدَّرك الأسفل من النار ، ولقد صلى بها من هو خيرٌ منك . ولو جازَ الغلط على ربِّ العزَّة لقلتُ : إنك غُلطِ بك ألست القائل ؟ .

فدخلتُ إذ نام الرقيبُ ، فبتُّ دونَ ثيابها
حتى إذا ما استرسلت فى النوم بعد لعابِها
قسَّمتُها قسمين كلُّ مُسوَّدٍ يُرمى بَها
فثنيتُ جيد غريرةٍ ولمستُ بطنَ حِقابها
كالحقة الصفراءِ صا كٌ عبيرُها بملابها
وإذا لهَا تامورةٌ مرفوعة لشرابها

واستقللت ببني جعدة ، وليومٌ من أيامهم يرجحُ بمساعى قومك . وزعمتنى جبانا وكذبت لأنا أشجع منك ، ومن أبيك . وأصبرُ على إدلاج المظلمةِ ذاتِ الأريز [3] . وأشدُّ إيغالاً فى الهاجرة أمْ الصخدان [4] .

---

(١) الهدانُ : الأحمق الجافى
(٢) الوديقة : شدة الحر . . صاخدة الهاجرة . وصخد اليوم اشتدَّ حرُّه
(٣) الأريز البرد والصقيع
(٤) والصخدان حرٌّ شديد . وصخد النهار يصخدُ اشتد حرُّه

ويثب نابغة بنى جعدة على « أبى البصير » فيضربه بكوز من ذهب ، فيقول : أصلح الله به وعلى يديه — لا عربدة فى الجنان ، إنما يعرف ذلك فى الدار الفانية بين السِّفِلةِ والهجاج . وإنك ياأبا ليلى لمتنزّع — وقد روى فى الحديث أن رجلاً صاح بالبصرة . ياآل قيس . فجاء النابغة الجعدى بِعُصَيَّةٍ له ، فأخذه شُرَطِىٌّ أبى موسى الأشعرىّ فجلده ، لأن النبى ﷺ قال : من تعزَّ بعزاء الجاهلية فليس منا . ولولا أن فى الكتاب الكريم : ﴿ لا يُصدَّعون عنها ولا ينزفون ﴾ لظننناك أصابك نزْفٌ فى عقلك . فأمَّا أبو بصير ، فما شرِبَ إلا اللبنَ والعسل . وإنه لوقورٌ فى المجلس ، لا يخفُّ عند حلّ الحبوة . » .

وهكذا يظل الحوار والتلاحى بين الشاعرين يجريه المعرىّ فى اقتدار ، ولماحية ، يشير حينا إلى فكرة ، أو يرْمز لها ، ويكسب العبارة أحيانا روح السخرية ، وأحيانا روح الفكاهة ، لكنها تخفى وراءها ماتخفى من المعنى الذى لا يريد التصريح به ، وإنما يفهمه الألمعى الذى يظن بك الظن .

ومن هنا جاءت رسالة الغفران بهذا الإمتاع ، إذ ليست تعبيراً صارماً أو مباشراً عن رأى المؤلف ، ولا جدلاً فارغاً من حلاوة الحديث ، يغلفه جفاء العلم ، وزهامة العقل . بل قولٌ جميل ينتقل بك فى رياض الجنانِ ورياض الأدب ورياض الفكر من روضة إلى روضة تستروح النفس فيها ما تستروحه من نسمات ، ويلتقط الفكر ما يلتقط من ثمرات .

ويخرج أبو العلاء بصاحبه ابن القارح من تلك الجولة أو النزهة فى جنات النعيم ليطلّ إطلالة على أهل الجحيم .

جولتـــه فى الجحيـــم :

يقول : [1] « ويبدو له أن يطَّلِعَ إلى أهل النارِ فينظرَ إلى ماهم فيه ، ليعظُمَ شكرُهُ على النعم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ قالَ قائلٌ منهم إنّى كان لى قرينٌ يقولُ أئنكَ لمن المصدّقين ، إئذا متْنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنّا لمدينون . قالَ هلْ أنتمْ مُطلّعُون ، فاطّلع فرآهُ فى سواءِ الجحيم ، قال تاللهِ إنْ كِدْتَ لتُردِين ، ولولا نعمةُ ربّى ، لكنت من المحْضَرِين ﴾ .

(١) رسالة الغفران ص ٢٩٨ .

فيركبُ بعض دواب الجنة ويسيرُ ، فإذا هو بمدائِنَ ليستْ كمدائِن الجنَّة ، ولا عليها النُّورُ الشعشعانيُّ ، وهى ذات أدحالٍ [1] وعماليل [2] . فيقول لبعض الملائكة : ماهذهِ ياعبد الله ؟ . فيقول : هذه جَنَّةُ العفاريت الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، وذكروا فى الأحقاف ، وفى سورة الجن . وهم عددٌ كثيرٌ . فيقول لأعدِلَنَّ إلى هؤلاء ، فلن أخلو لديهم من أعجوبة ، فيعوج عليهم فإذا هو بشيخ جالس على باب مغارةٍ ، فيسَلِّمُ عليه ، فيحسنُ الردَّ فيقول : ماجاءَ بكَ ياإنسّى ؟ . إنكَ بخيرٍ لعَسِىّ ، مالك من القوم سِىّ .

فيقول : سمعت أنكمَ جنٌّ مؤمنون ، فجئتُ ألتمس عندكم أخبارَ الجنّانِ ، وما لعلَّه لديكم من أشعار المردة . فيقول ذلك الشيخ : لقد أصبت العالِمَ ببجدةِ الأمر ، ومن هو منه كالقَمر من الهالة ، لا كالحاقِنِ من الإهالة [3] فسل عمَّا بدالَك .

فيقول : مااسمُك أيها الشيخ ؟ . فيقول : أنا الخيتعورُ أحد بنى الشيصبان ، ولسنا من ولدِ إبليس ، ولكنا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم صلى الله عليه .

فيقول : أخبرنى عن أشعار الجن . فقد جمع منها المعروف بالمرزبانّى قطعةً صالحة . فيقول ذلك الشيخ : إنما ذلك هذيانٌ لا معتمد عليه . وهل يعرف البشر من النظم إلا كما تعرفُ البقرُ من علم الهيأة ومساحة الأرض ؟ وإنما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قل مايعدوها القائلون ، وإنَّ لنا لآلاف الأوزان ماسَمِع بها الإنسُ وإنما كانت تخطرُ بهم أُطيفالٌ منا عارمون ، فتنفِثُ إليهم مقدار الضُّوازةِ [4] من أراك نعمان [5] . ولقد نظمتُ الرجز والقصيد قبل أن يخلق الله آدمَ بكورٍ أو كورين . وقد بلغنى أنكم معشَرَ الإنسِ تلهجونَ بقصيدة امرىء القيس :

قِفَانبــكِ من ذِكْـرى حبيب ومنــــزل

---

(١) الأدحال : جمع دحل وهو النقبُ فى الأرض الضيق الأعلى الواسع الأسفل . وتكثر مثل هذه الأدحال فى جزيرة العرب ، وجاءت فى أخبارهم . وهى من مخاوف البادية .

(٢) غماليل . جمع غملول وهو الوادى ذو الشجر

(٣) حاقن [illegible] لونه والإ[illegible] من شحم أو زيت

(٤) الضوازة بالضم شظية من السواك

(٥) نعمان وادٍ بالحجاز

وتحفّظونها الحزاورة فى المَكاتب ، وإنْ شئتَ أُمليتكَ ألف كلمةٍ على هذا الوزن على مثل منزل ، وحوامل وألفاً على ذلِكَ القِرَىّ . يجيءُ على منزِل وحوْمَل ، ألفاً على منزلاً وحوملاً ، وألفا على منزله وحومله ، والفاً على منزلُه وحوملُه ، وألفاً على منزله وحومَلِه .

وكلُّ ذلك لشاعر مِنَّا هلك وهو كافر . وهو الآن يشتغل فى أطباق الجحيم . فيقول — وصل الله أوقاته بالسعادة : أيها الشيخ ، لقد بقىَ عليك حفظكُ . فيقول : لسنا مثلكم يابنى آدم ، يغلبُ علينا النسيان والرطوبة ، لأنكم خلقتم من حمإٍ مسنون ، وخلقنا من مارجٍ من نار ،

فتحمله الرغبة فى الأدب أن يقول لذلك الشيخ : أفتملُّ علىَّ شيئاً من تلك الأشعار ؟ . فيقول الشيخ : فإذا شئت أمللتُك ما لاتسِقُه الركاب ، ولا تسَعُهُ صحفُ دنياك .

فيهمُّ الشيخُ — لازالت همته عالية — بأن يكتتب منه . ثم يقول : لقد شقيت فى الدار العاجلة بجمع الأدب ، ولم أحظ منه بطائل ، وإنما كنتُ أتقرب به إلى الرؤساء ، فأحتلبُ منهم درَّبَكيءٍ وأجهدُ أخلافَ مَعْصُورٍ[1] . ولستُ بموفَّقٍ إن نزلتُ لذاتِ الجنة ، وأقبلتُ أنتسخُ آداب الجنّ ومعى من الأدب ما هو كافٍ ، لاسيما وقد شاع النسيان فى أهل أدب الجنة ، فصرت من أكثرهم روايةً ، وأوسعهم حفظا والحمد لله . »[1] .

ويظل فى حوارٍ مع شيخ الجنّ ، يورد أبو العلاء خلاله شعراً من صنعه ، ويلتزم فيه مايلتزمُ فى القافية على صورة ديوان لزوم ما لا يلزم ، أو اللزوميات .

وينتقل من ناحية إلى أخرى فى هذا المكان بين الجنة والنار ، يلقى فيه بعض الشعراء كالحطيئة والخنساء . وفى لقائه مع الخنساء يقول[3] :

« .. فإذا هو بامرأةٍ فى أقصى الجنة قريبة من المطَّلع إلى النار فيقول : من أنت ؟ . فتقول : أنا الخنساءُ السُّلَميّة ، أحببت أن أنظر إلى صخر ، فاطلعتُ فرأيتهُ كالجبل

---

(١) البكيءُ الناقة البطيئة حلبها ، والمعصور العسير بالدر .

(٢) الغفران ص ٢٨٩ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه ٣٠٨

الشائخ ، والنارُ تضطرمُ فى رأسه . فقال لى : لقد صحَّ مزعمك فىَّ ، يعنى قولى :

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ به　　كأنه علمٌ فى رأسه نارُ

فيطّلع فيرى إبليس — لعنه الله — وهو يضطربُ فى الأغلال والسلاسل ، ومقامعُ [1] الحديد تأخذه من أيدى الزبانية . فيقول : الحمد لله الذى أمكن منك ياعدوَّ أوليائه ، لقد أهلكت من بنى آدم طوائف لا يعلمُ عددها إلا الله . فيقول : من الرَّجُل ؟ .

فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل « حلب » كانت صناعتى الأدب ، أتقرب به إلى الملوك . فيقول : بئس الصناعة ، إنها تهبُ غُفَّةً[2] من العيش لا يتَّسعُ بها العيال ، وإنها لمزلّةٌ بالقدم ، وكم أهلكت مثلك ، فهنيئاً لك إذ نجوت ، فأولى لك ثم أولى ، وإنَّ لى إليك لحاجةً ، فإن قضيتها شكرتُكَ يدَ المنون

فيقول : إنى لا أقدرُ لك على نفع ، فإن الآية سبقت فى أهل النار ، أعنى قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحابَ الجنةِ أن أفيضوا علينا من الماءِ أو مما رزقكم الله ، قالوا إن الله حرَّمها على الكافرين ﴾ .

فيقول : إنى لا أسألُكَ فى شيءٍ من ذلك ، ولكنى أسألُكَ عن خبر تخبرنيه : إنَّ الخمر حرّمت عليكم فى الدنيا وأحلَّتْ لكم فى الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنة بالولدانِ المخلدين فعل أهل القريَّات ؟ [3] .

فيقول : عليك البهلةُ[4] . أما شغلك ماأنت فيه ؟ . أما سمعتَ قوله تعالى : ﴿ ولهم فيها أزواج من مطهرةٌ وهم فيها خالدون . ﴾ .

فيقول : وإنَّ فى الجنة لأشربةً كثيرةً غير الخمر ، فما فعل بشَّارُ بن برد ؟ . فإنَّ له عندى يداً ليست لغيره من ولد آدم . كان يفضلنى دون الشعراء . وهو القائل :

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدم　　فتبيَّنوا يا معشرَ الأشرارِ

النارُ عنصُرهُ ، وآدم طينةٌ　　والطينُ لا يسمو سموَّ النارِ

---

(١) المقامع : جمع مقمعة على ورد مـَمسة ، وهى حشبة أو حديدة يضرب بها الانسان ليندلَّ أو يُقْمعَ .

(٢) الغُفّة : البلغة من العيش

(٣) يعنى قرى قوم لوط

(٤) البهلة النعمة ، وبهلةُ الله لعنة

لقد قال الحقَّ ، ولم يزلْ قائلُهُ من الموقنين .

فلا يسكتُ من كلامه ، إلا ورجلٌ فى أصناف العذابِ ، يغمِّضْ عينيه حتى لاينظر إلى ما نزلَ به من النِّقم ، فيفتحها الزبانيةُ بكلاليب من نار ، وإذا هو بشار بن برد ، قد أعطِىَ عينين بعد الكمهْ ، لينظر إلى ما نزل له من النكال .

فيقول له — أعلى الله درجته — ياأبا مُعاذ ، لقد أحسنت فى مقالِك ، وأسأت فى معتقدِك ولقد كنتُ فى الدار العاجلةِ أذكرُ بعض قولك فأترحَّمُ عليك ، ظنًّا أنَّ التوبة ستلحقُك ، مثل قولك :

إرجعْ إلى سكنٍ تعيش به	ذهب الزمان وأنت منفردُ
ترجو غداً وغدٌ كحاملةٍ	فى الحىِّ لا يدرون ما تلدُ !

وقولك :

واهاً لأسماء ابنة الأشدِّ	قامت تراءى إذ رأتنى وحدى
كالشمس بين الزِّبرج المنقدِّ	ضنَّتْ بخدٍّ ، وجلتْ عن خدِّ
ثم انثنت كالنفس المرتدِّ	وصاحب كالدُّمَّل المُمِدِّ
أرقبُ منه مثل حمَّى الوِرْدِ	حملته فى رقعةٍ من جلْدى
الحرُّ يُلحى ، والعصى للعبد	وليس للملحف مثلُ الردِّ

الآن وقع منك اليأسُ ، وقلت فى هذه القصيدة « السُّبْد » فى بعض قوافيها ، فإن كنت أردت جمع سُبَدٍ ، وهو الطائر ، فإنَّ فُعلاً لا يُجمعُ على ذلك ، وإن كنت سكنت الباءَ فقد أسأتَ ، لأن تسكين الفتحة غير معروف . ولا حجة لك فى قول الأخطل :

وما كلُّ مغبونٍ إذا سلف صفقةً	براجع ما قد فاتهُ برداد

ولا فى قول الآخر :

وقالوا : ترابىٌّ ، فقلت : صدقْتمُ	أبى من تراب خلْقهُ اللهُ آدما

لأن هذه شواذ . فأما قول جميل :

وصاح ببين من بثينة والنوى	جميعٌ بذات الرَّضْم صردٌ مُحجَّلُ

فإن من أنشده بضمّ الصادِ مخطىءٌ ، لأنه يذهب إلى أنه أراد الصُّرد . فسكَّن الراء وإنما صَرْدٌ ، أى خالص . من قولهم : أحبّك حُبًّا صَرْداً . »

ويلتقى فى النار بعد ذلك بجماعة آخرين من الشعراء كامرىء القيس وطرفة وعمرو بن كلثوم يقف مع كل واحدٍ منهم وقفة كالتى وقفها مع بشار ، وهو فى النار يجمع الجاهلين مع بعض الاسلاميين كبشار والأخطل . وبعد أن يجول جولته فى النار يعود أدراجه إلى الجنة .

ويختم حديثه فى العود بحديث حيّات الجنّة ، وما دار بينه وبينها من حوار وحديث ذى شجون يجولان فيه فى كل وادٍ من أودية الشعر واللغة على عادة أبى العلاء دائما إذ يأتى بالشعر فيقف عند غريبه من لغةٍ فيفصّل ويبحرُ من معلومة إلى أخرى معتمداً على فيض ثرثار من علمه الجمّ ... وينتهى المطاف برؤبة والعجاج من أهل الرجز .

ثم يقول : « ... ويذكر — أذكره اللهُ بالصالحات — ماكان يلحقُ أخا النّدام من فتور فى الجسدِ من المدام ، فيختار أن يعرضَ له ذلك من غير أن يُنزفَ له لبٌّ ولا يتغيَّر عليه خبٌّ ، فإذا هو يخالُ فى العظام الناعمة دبيب نمل ، أسرى فى المقمرِة على رَمْل ، فيترنم بقول : « إياس بن الأرت » .

أعاذِلَ لو شربتِ الخمَر حتَّى يظلُّ لكلِّ أنملة دبيبُ
إذا لعذرتنى وعلمت أنى لما أتلفت من مالى مصيبُ

ويتكىء على مفرشٍ من السندس ، ويأمر الحور العينَ أن يحملن ذلك المفرشَ ، فيضعنه على سريرٍ من سُرُر أهل الجنة ، وإنما هو زبرجدٌ أو عسجد ، ويكوِّن البارىء فيه حلقاً من الذهب تُطيفُ به من كلِّ الأشراءِ [1] حتى يأخذ كلُّ واحدٍ من الغلمان ، وكلُّ واحدةٍ من الجوارى المشبهةِ بالجمان واحدةً من تلك الحلق ، فيحملُ على تلك الحالِ إلى محلّه المشيَّدِ بدار الخلود ، فكلما مرَّ بشجرة نضحته أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور ، وبمسكٍ ماجُنىَ من دماءِ الفُور . بل هو بتقدير الله الكريم . وتناديه الثمراتُ من كلِّ أوب وهو مستلقٍ على الظهر ، هل لك ياأبا الحسن ، هل لك ؟ . فإذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره . انقضب من الشجرة بمشيئة الله ، وحملته القدرة إلى فيه ، وأهل الجنة يلقونه بأصناف التحية ، ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله ربِّ العالمين ﴾ .

لا يزال كذلك أبدا سرمداً ، ناعماً فى الوقت المتطاول منعَّما ، لاتخبر الغيرُ فيه مزغَما . » [2] وينقضى بذلك القسم الأول من الرسالة ، وهو القسم الخيالىّ ، وهو

---

(١) الأشراء : جمع شرى بفتحتين وهو الناحية . يقال : دخلوا أشراء الحرم ، أى نواحيه .

(٢) رسالة الغفران ص ٣٧٩ .

الجديد فيها بما ابتدعه أبو العلاء من هذا الجوّ المحلّق فى العالم الآخر ، وتصوّره على ما أوحى إليه القرآن وأثارته فى ذهنه أحاديث الجنة وما قيل فيها من آثار السلف . ونلاحظ تركيزه على أشياء قال فيها المعترضون كثيرا ، وردّ المنافحون عن كتاب الله كالخمر بالجنة ، وشربها ، وأوصافها ونعم المؤمنين تمجالسها ، كتنعمهم بغيرها من ملاذ الدنيا من متاع فاخر ورياش من سندس واستبرق وأباريق الذهب والفضة . ومايتخلقون به من أنواع الأطايب والخلوق من كافور وزنجبيل ورياحين . ومايقوم على خدمتهم ومتعتهم من الجوارى الحسان والغلمان .. كل هذا يعرضه أبو العلاء فى صور متقابلة بين الرأى والرأى الآخر ، ولا يعدمُ التعريض والتلميح كما قلنا ، مما أطلق ألسنة بعض معارضيه من الشيوخ ورجال الدين بالقدح فيه .

وتجدر الاشارة هنا إلى ماجاء بالرسالة من ذكر لعلىّ بن أبى طالب ، وصحبته للنبى عندما استغاث به من أرادوا شفاعته ، فبعث إليهم بعلى بن أبى طالب . وكيف أنه ذكره مع النبى ﷺ مسلماً مصلياً . والعصر كما قال قد غلبه التشيع ، بل أن أبا العلاء نفسه وقع فى دائرة الفاطمية ، و فى ظل نفوذهم ، أحاط به رجالهم من مفكرين وأدباء من أمثال الوزير المغربى وابن القارح ، وغيرهم من رجال الحمدانيين وبقاياهم فى حلب وحولها .

وتندّ من أبى العلا هنا وهناك بعض العبارات والمواقف ، تكشف عن تنمّره أحيانا بما يخالف العقل أو يدلُّ على خلاف فى العقيدة . وقد ترددت أصداءُ أفكاره التى بثها فى شعر اللزوميات ، وبعض رسائله هنا وهناك .

وبعد فإن هذا القسم الأول ينتهى ليبدأ القسم الثانى ، وهو الذى جعله ردًّا منفصلاً على رسالة ابن القارح ، يتناول فيه كل جزئية مما ذكره . ويبدأ هذا القسم الثانى بقوله . « وقد أطلت فى هذا الفصل ـــ يعني القسم الأول ـــ ونعود الآن إلى الإجابة عن الرسالة : [1] .

ونخرج من حديثنا عن رسالة الغفران لأبى العلاء إلى رسالة أخرى أدبية من صنع ابن الصيرفى على منهج كبير كتاب المستعلى والآمر وصاحب وزيرهما الأفضل بن بدر الجمالى وابنه . وقد اخترنا له رسالة « التذنى على التسلّى » .

---

(١) راجع رسالة الغفران ص ٣٨١ ....

وهذه الرسالة جاد بها قلم ابن الصيرفى بعد مقتل الوزير الأفضل بن بدر الجمالى غيلة بتدبير الآمر[1]. وقد كان الأفضل مخدومه ، وله صنف كتاب الأفضليات والرسالة فى رثاء الوزير . ينهج فيها نهج كتاب العصر فى شكلها العام من اختيار السجع أداةً ، وصورة يبث من خلاله أقواله ، وايراد ما يعنّ له ، ويرد على خاطره من أقوال الكتاب والشعراء من معاصريه أو سابقيهم ، فيعقب عليها ، مستدركاً ومحللا .

وقد يستغرب القارىء اسم الرسالة ، كما استغربه أحد معاصريه ، فيرد عليه صاحبها مبينا ، وموضحاً سبب تلك التسمية .

يقول ابن الصيرفى [2]: « كنت أنفذت نسخة هذه الرسالة إلى بعض الرؤساء الكبراء ، ممن كان يؤثرُ الوقوفَ على ماأعملهُ ، فبلغنى أنَّ كاتبه قال لما رأى ترجمة هذه الرسالة قبل الوقوف عليها : هلاَّ قال : الغَلْوةَ فى السلّوة ؟! .. وأنكر التدلّى ، فكتبت إليه : بلغَ عبدَ الحضرة ما انتقد عليه فى ترجمة ماخدَم به ، وماستبعد من التدلّى العائِد بدنُوِّ النّائى وتقرُّبه ، وقد كان يجبُ أن يُبْقىَ على من عمِلَ عجلاً ، وترجم مرتجلا ، ولم تكنْ له مهلةٌ لتنقيح ألفاظه وتهذيبها ، وابرازها فى معارضَ تستحسنُها النقدةُ ، وتهذى بها . وانَّ بعض من انتقد عليه قال : هلا كانت الترجمةُ : الغلوةُ فى السّلوة ؟

وعبدُها يقول : أما الغلوةُ فهى المرماةُ ، والمغلاةُ السَّهمُ ، فالغلوةُ غايتهُ . وهذا ضدّ مراده ، وذلك أنَّ التدلىِّ إنما هو التوصُّل ، تدليتُ على الشىء إذا توصلتُ إليه . ومنه أدْلى فلانٌ بحجته إذا توصَّل بما أتى به إلى بُغيته . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلَّى ﴾ ، وهذه الآية من باب قوله سبحانه : ﴿ ما إنَّ مفاتِحهُ لتنوءُ بالعصبةِ أولى القوَّة ﴾ . وهو من المقلوب : أى تنوءُ بها العصبةُ أولو القوة ، و : ثمَّ تدلَّى فدنا ،.

لا تقْلُوَاهَا ، وادلُوَاهَادَلْوَا إنَّ مع اليوم أخاهُ غَدوَا

وتقلوُاها : تُبعداها ، وادلواها : قرِّباها . والدَّلوَ من هذا ، لأنّها تقرِّبُ الماء بعد بُعده فقول عبدها : التدلّى على التسلّى إنما معناهُ : التوصُّل إلى السلوة بأسبابها من التأسّى وطلبِ الثواب ، وغير ذلك .

وقولُ من قال : الغَلوةُ فى السلوة ، إنما هو الوصولُ إلى غايتها ، والفرقُ بين من قصدَ

(١) قتل الأفضل سنة ٥١٤ هـ

(٢) الأفضليات تحقيق د وليد قصاب ود عبد العزيز المانع ص ٣٢٣ . طبع دمشق سنة ١٩٨٧ م .

التوصُّل ، وبين من بلغ الغايةَ لا يخفى عن أحد ، فقد بان تضادُّ الترجمتين ، وتنافى الغرضينْ وما ضرٌ من انتقد لو صَبَر إلى أن يقف على الرسالة ، ثم يقولُ ما يختار ، ولا يعجلُ بأن يضعَ منىِّ ما صَدرَ عنِّى ، فاللهُ المستعانُ ، وصبرٌ جميل .

وبدأ ابن الصيرفى الرسالة بقوله :

« من دلائِل تفرُّدِ الله بتدبير بريَّتِهِ ، وشواهدِ جَرْيِ الأُمورِ على إرادته ومشيئته ، وحجج وحدانيتِهِ التي من جحدَها أبانَ جهلاً وعنتا ، وبراهين ماأخبر به فى قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلَّا الله لفسدتا ﴾ أنه سبحانه يُحمد على ما يَسلبُه كما يُحمد على ما يهبُه ، ويُشكرُ على ما يُزعجُ ويَضُرُّ كما يشكَرُ على مايبهجُ ويَسُرُّ ، فجىءَ القلُوبَ بما يحدث فيها انصداعا ، ودهَمَ العقول بما يكادُ يطيرُّها شعَاعًا ، لم يلْفِتْها ، الجزعُ عن حمْدِه — جلَّ وعزَّ وعلا — ولم يمنعها الولَهُ من الرِّضا بقضائه ، وإن تحملَّتْ منه باهظا مُثقِلا .

فالحمد للهِ الذى لايُحمدُ على مكروهٍ سواه ، ولا يخرجُ شيءٌ من مصنوعاتِه عن الشهادة له بأنه إله . وصلى الله على سيدنا محمدٍ ، نبيِّه الذى حباهُ الشَّرف الباهرَ ، وآتاهُ الفضائل الجمَّةَ والمفاخِر ، وأحسن العزاءَ لأُمته فى قوله : ﴿ لقد كان لكم فى رسولِ الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كانَ يرجو الله ، واليومَ الآخرِ ﴾ .

وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى تولَّى من رسولِ الله ﷺ ماأبان به عن حسنِ صبرِه ، واعتزل أمور الدنيا جانباً ، إلى أن واراه عليه السلام فى قبره . مع ما تداخلَ النفوسَ يومئذٍ من الحسراتِ ، وفجعتْ به من الطوارق المستنكرات ، حتى غدا ذوو الجلد فى قبضة الهلع مُوثقين أُسارى ، وظَلُّوا كما قال الله — عزَّ من قائلٍ — : ﴿ وترى الناس سُكارَى وماهم بسكَارَى ﴾ . وعلى آلهما الأئمة الأبرار ، الذين اهتضموا حيث حلُّوا من الأرض وكانوا ، وظُلِمُوا ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيلِ الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، إلى أن استثمروا من الصبرِ استعادة حقِّهم ، وصيَّفوا على أعدائِهم مسالِكَ طُرُقِهم ، وسلَّم عليهم أجمعين تسليما ، وزادهم تشريفاً وتكريماً وتعظيما .

وإنَّ من حكمة الله — تعالى — وقدرته ، وخفىِّ علمه فى تدبير خليقته أن جعل أهل الدنيا فيها متفاضلين ، وعند فراقها مُتساوين متماثلين ، إذا نزل بهم حدثُ الموتِ لم

يتميز فيه قويٌّ من ضعيف ، وإذا تجرَّعوا كأسه لم يختصَّ بمرّ مذاقها مشروفٌ دون شريف . وذلك يقينٌ لا مجالَ للشكّ فيه ، وحقٌّ لا يطورُ الباطل بناحية من نواحيه . وقد أخلدت النفوسُ إلى صحته وركنَتْ ، وأطمأنت القلوب إلى حقيقته وسكنت ، لأنه أمرٌ حتمٌ قد عُلِمَ بالفطرة ، وغامضٌ من غوامض الحكمة ، وسرٌّ من أسرار القدرة ، وفى الصَّبر على ألمه الموجع وترك الجزع الذى هو غير نافعٍ ولا منجع إيضاحٌ للتذلُّلِ والخشوع ، وإظهارٌ للتضرُّع والخضوع ، وإبانةٌ عن الإخبات لله — جلَّ وعز — فيما شاءَهُ ، ودلالةٌ على رضى المخلوقِ بحكم خالقه فيما سرَّهُ وساءَهُ ، وذلك موصلٌ إلى السَّلوةِ بأقوى الأسباب ، وداع إلى نيلها من إحراز الأجر الجزيل ، والثواب . ومن أبَى فى الرُّزْءِ إلَّا الأَسى كان بُكاهُ منتهى جهده وماأحسنَ قولَ الحسنِ البصرىّ : الحمدُ لله الذى كلَّفنا ما لو كلَّفنا غيره لصرنا فيه إلى معصيته ، وآجَرَنا على مالابدَّ لنا منه .

يقول : كلَّفنا الصَّبرَ ، وأكلفنا الجزعَ ، لم يُمكنَّا أن نُقيم عليه ، وآجرنا على الصبر ، ولابُدَّ من الرجوع إليه . ثم إنَّ التأسِّىَ يُسهِّلُ المصاعب ، ويُهوّنُ المصائِب ، فلله ابن دُرَيْد فى قوله :

وفى خطـوبِ النَّاس للنـاسِ أُسَـى

وإن كانت الخنساءُ قد غلبت على هذا الباب فى المشهور من قولها :

ولولا كثـرةُ الباكيـن حولـى ... على إخوانهـم لقتلْـتُ نفسـى
وما يكـون مثـل أخـى ولكـن ... أُعـزِّى النفـس عنه بالتأسِّـى

وقد جعلت العذْرَ فى تركها قتْلَ نفسها كثرةَ الباكين حولها . وأين هذا من قول الآخر :

ولقد هممـت بقتـل نفسـى بعدهُ ... أسـفاً عليه فخفـتُ ألَّا نلتقـى

فذكر أن علَّة ما همَّ به من قتل نفسه الأسفُ على من فقده ، على أنَّ ذلك فى قوةِ الخنساءِ . وإنَّ علةَ الامتناع ماجاءَ فى الحديث من أن قاتل نفسه فى النار، وقد وثِق بحصولِ من فقدهُ فى الجنة ، وطمِع بها إذا لحقه غير قاتلٍ نفسه . وهذا العذرُ أشرفُ من عُذرِ الخنساء ، لأنه للمخافةِ من عدم اللقاءِ فى المآل ، وعذرُ الخنساءِ إنما هو للتأسِّى .

فأما قول ابن الرومى مناقضاً لهذا الباب ، وذاكراً أن التأسِّى غير مخفِّف للمصاب :

وما راحة المرزوء فى رزء غيره — أيحمل عنه بعض ما يتحمَّل
وضربٌ من الظُّلم الخفىّ مكانه — تُعزّيك بالمرزوء حينَ تأمّل
لأنك يأسوك الذى هو كلمة — بلا سببٍ لو أنّ رأيك يعدلُ

وقوله :

ومعزٍّ عن الشَّباب مُؤَسٍّ — بمشيب اللّدات والأصحابِ
قلتُ لما انتحى يعدُّ أساهُ — من مصاب شبابُه فمُصَابِ
ليس تأسو كلومُ غيرى كُلومى — ما به ما به ، وما بِىَ ما بِى

وقولُ الآخر :

رأيت التأسّىَ مما يهيجُ — على المرءِ ساكنَ أوْصابِه
وما نالَ ذو أسوةٍ سلوة — ولكن أتى الحزنُ من بابِه
تذكّر فى مثله أو رآه — فأذكَره ما بِهِ ما به

فذاك من تمويه الفصيح وخدَعِه ، وتصرّفِ البليغ وتنوعُه ، وإلّا فالأولُ هو الصحيح الذى جاءَ فى الكتاب والسُّنة . قال الله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ فى إبراهيمَ والذين معه ﴾ وقال : ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنةٌ ﴾ .

ولولا أن الاجتماع يخفِّفُ كلَّ ما ينُوء ، والاشتراك يهوِّنُ صعبَ ما يسوء ، لما قالَ الله تعالى : ﴿ ولن ينفعكم اليومَ أن ظلمتم أنكم فى العذابِ مُشتركون ﴾ . لأنه نفى عنهم الانتفاع بالاشتراك فى العذاب تغليظاً عليهم ، لما قدّموهُ من الظّلم .

وقال رسولُ الله ﷺ : تأسَّوْا فى مصائبكم بى .

وذلك فى كلام البلغاءِ ، ونظم الشعراءِ أكثر من أن يُحاط به .

معلومٌ أن مالكنا الملكَ السّيدَ الأجلَّ الأفضل ، ونعوته ، والدعاء له ، وهو سيدُ ملوكِ الزمان ، ومن فازَ بجزيل ثواب الله فى حالتيِ المسرةِ والحزن ، أما المسرّةُ فلأنه يشملُ بها جميع عبيده ورعيته ، ويستخلصُ دعاءَ كلٍّ منهم بكريم فعله وجميل نيته ، وأما فى الحزَن ، فإنه يستعمل حسن الصبر فى الأمورِ التى لا حيلة له فى دفعها ، ويدلُّ بذلك على استحقاقه ما خصّهُ الله به من إعلاءِ المنزلة عنده ، ورفعِها ، لا يُرى فى العظائِم إلّا صابراً مسترجعاً ، ولا ينفكُّ وجهه إلا مُستقراً ، وإن كان متوجعاً متفجعا ، إذا نازله

همٌّ لقيه من الرّضى والتسليم بالجيشِ اللّجب المجْر ، وإذا سما إليه خطبٌ عَرف شرف ما ينالهُ فى الصبرِ عليه من جزيلِ الأجر ، على أن محلّهُ أعلى وأعظم من أن يكون من الأقدارِ إلا مخدوما ، ومكانه من الله — جل وعزّ — يكادُ يجعلهُ من الأُمورِ الحتمية موقّى معصوما .

ولما طُرِق — خلّدَ الله مُلكَه — بالحادث الجلل ، ودُهِم بالرُّزْءِ الذى لولاه لرُمِىَ عرشُ المملكةِ بالثَّلَلِ من وفاةِ أخيه من جهةِ نسبته ، وولده لكفالته إيّاهُ وتربيته :

ومن كانَ يستعفِى الإلٰه إذا اشتكى من الأجرِ فى الشكوىَ ، وإن عظُمَ الأجرُ

الأجلّ المظفَّر ، سيف الإمام ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، ناصر الدين ، خليل أمير المؤمنين ، الذى حلّت وفاته من كلِّ عَيْنٍ عقْدَ وكائها ، وأجرَى فقدُه سوادَ النواظر فى نجيع بكائِها ، وبغتَ القضاءُ فيه بأجورِ حُكْمِه ، وأنكرِ فِعْلِه . وشوهدَ من يومه الأنكدِ الشنيع ما لم تتمخض المنونُ بمثله .

ما إن سمعنا بطودٍ قبلهُ طَفقتْ أناملٌ تتهاداهُ وراحاتُ
تنافستْ أعينُ الباكِينَ حين بَكَوْا كأنما أعينُ الباكينَ ضرّاتُ

ولقد عفّتْ منيتُه سبيل التماسُك والجَلَد ، وأتت غِبطتُه بمالم يجْرِ فى الخاطِر ، ولا جالَ فى الخلَدِ ، لأنه — قدّسَ الله روحه — صارَ إلى رحمةِ اللهِ ورضوانهِ ، وانتقلَ إلى جوارهِ وسُكنى جنانِه ، وهو فى ريعانِ عمره وأوّلِه ، وشرخ شبابه ومستقبلهِ ، مع حسنِ تركيبه وبنيته ، والحكماءُ فى خدمته وتدبير صحته :

بنفسِىَ مولًى أسلمتْهُ عيدُهُ ومرتحلٌ لم ينتظِرْ أن يوَدَّعَا
لقد راضهُ الموتُ الكريهُ مذاقهُ ولو لمْ يُرضْ لم يَرْضَ بالأرضِ مضجعًا
ولا اتخذ الغبراءَ دار إقامةٍ وقد كانَ مثواهُ من النجمِ أرفعَا

فلستَ ترى إلّا مختنقاً بعبرتهِ ، متنفساً عن نار حَسْرتِه ، عادماً لسكونِه وصبره ، باكيا على انقطاعِ أملِه ، وانقصام ظهره .

والناسُ مأتمُهم عليه واحدٌ فى كلِّ دار رنّةٌ وزفيرُ

فما يغتبطُ بدنياهُ من تأمّل هذا الحَين ، ولا يأمنُ فيظ النفس إلا من طمِعَ بالصَّبر ، وأين أين ؟ .

وكلُّ أسىً لا تذهبُ النفسُ بعدهُ فما هو إلا من قبيل التَّصنُّـــــع

ولئن مضى إلى حوار الله الكريم ، وانتقل إلى ماأُعِدَّ له من النعيم المقيم فللكافةِ من مالكِها ـــ ثبّت الله دولته ـــ من دوام ظلة فلَّ عن كلِّ مُولٍّ ، وبقاؤهُ محسنٌ الخلفَ عن كلِّ من مضى وسلف .

لم يستحقَّ الدَّهرُ كونكُما معاً فيه فعُوِّضَ قاطِناً بمـــــودِّع

والله يجعلُ كلَّ الأعمارِ زيادةً فى مُدَّتِه وعُمره ، ويجيبُ فيه ما يرفعهُ الحريصُ فى سرّه وجهره ، يكرمهِ وطوله ، وقدرتهِ وفضله .

ولمّا كانت خدمةُ مجلسه العالى ـــ ثبّت الله سلطانه فرضاً على عبيد مملكته ، وحقاً لاعُذرَ فى التخلفِ عن تأديته ، وقد صنع شعراءُ المقام الأشرف ـــ ضاعفَ الله سعودَه ، ونصرَ أحزابه وجنودَه ـــ فى هذا الباب ما أربَوْا فيه على من سبقَهم ، وآيسُوا غيرهم من أن يلحقَهم ؛ بادر المملوكُ بهذه الخدمةِ ، وأنشأ ماياتى ذكره فى هذه الحادثةِ الملمّةِ على ماهو عليه من الحالِ التى ضلّتْ معها العقول ، وحجزتْ الأحزانُ فيها بين القائِل

والذى صنعه المملوك :

إن كان الدهرُ قد فجىء بفادحِ المصيبة ، رمى سهامه المصْمية ، وبالغ فى الفجيعة الفظيعة ، وسعَى بين الأرواحِ والأجسامِ بالفراقِ والقطيعة ، وطرقَ من المصابِ بالأجلِّ المظفَرِ ـــ كرّم الله مثواه ـــ بما منع الطرف وسنه ، وفتح من الصَّبْرُ مستحسنَه ، فما حكمَّ مُداهُ إلا فى مفاصله ، ولا مكّنَ ظُباهُ إلا من مقاتِله ، ولا سطا إلا على قدرِه المنير فأخفاهُ ولا عدا إلا على رونقة المونقِ ، فطمسه وعفّاهُ :

إن خان فيه الدهــرُ عندى إنمــا فى نقصه وعلى محاسنه ســـعَى
فى كلِّ يوم عثــرةٌ من صرفــهِ لا تستقالُ بأن يقال لــــا : لعــا

فياللهِ ماأعجبَ فعله ، وأبين جهله ، وأقبح إسناده إلى نفسهِ ، وأشنع سوادَ يومه بعد بياضِ أمسهِ :

يومٌ أظلُّ بغُمــةٍ لا يشـــتفى فيها الهُـــدى ، وبغُمَّــةٍ لا تنجلى

وأعجبُ من ذلك انطلاقُ الأيدى بعده ـــ شرّف الله ضريحه ـــ بتحقيق خبر فقده ،

والإقدام على التعزية عنه ، وقد عدمتْ العقولُ من بعده فوالهفاهُ على مضيِّه وذهابه ، ووا أسفاهُ علىَ ما فعله الدهرُ ، ودهَى به ، وواحسرتاهُ ماأمرَّ العَيْشَ لما مرَّ ، وواحرَبَاهُ ، لقد أساءَ القدرُ فيه بعد ماسرَّ . »[1]

وتمضي رسالة الرثاءِ على هذا المنوال ، وتطول ، مكرراً المعانى نفسها أو أكثرها ، مستشهداً بالشعر من قول غيره أو من صنعه ، وبالنثر من أقوال البلغاء من عصره وقبل عصره . فيذكر لمطيع بن اياس أبياتا ، وللشريف الرضيّ ، ومهيار الديلمى، وأبى الفرج الببغاء ، وابن مُعلّى الأندلسيّ ، والوزير أبى القاسم المغربى . قال :[2]

« ومن كلام الوزير أبى القاسم بن المغربى :

« ولقد سمعتُ نبأ من هذا الحادث الرائع ، وذروا من هذا الخبر المكروه الطلائع ، فكنتُ كالظبى أفزعه القناص ، وكالهارب لاحت له الأشخاص ، فدافعتُ بتصديقه ، وتصاممت عن تحقيقه ... إلخ . » .

والوزير المغربى سابق عليه وتوفى قبل مقتل الوزير المرثىِّ بزمان ، إنما استشهد بكلام له فى مثل المناسبة ، وكذلك فعل فى اقتباسه لقول حسن بن عبد الصمد المعروف بابن أبى الشخباء .

والعجيب فى أمر الرسالة أن أبن الصيرفى يخرج عن سياق معانيه إلى تحليل وانتقاد أقوال من استشهد بهم من الشعراء والكتاب ، فيقول ان معنى من معانى أبى القاسم المغربى مأخوذ من قول أبى الطيب المتنبى[3] . وتتتابع به المعانى ويستطرد من معنى إلى معنى حتى يشغل تعقب المعانى حَيِّزاً من الرسالةِ غير قليل . ويبدو أن هذا النمط من الكتابة لم يكن مستكرها ولا متروكا ، بل ربما لقى من المتأدبين والأدباء ترحيباً وتقبلاً ، لأن الأمر فيه لم يتوقف عند ابن الصيرفى وحده ، بل رأينا شبيهاً له عند من عرضنا لهم من الكتاب فى نماذج رسائلهم التى أوردناها من قبل ، وأقربها إلينا رسالة المعرى « الغفران » . وكم رأيناه فيه مستطرداً ، إلى شرح معنىً ، أو تعقب لفظة ـــ ويطول به الأمر قاطعاً بذلك سياق الكلام ، ثم مايلبث أن يعود إلى ماخرج عليه ، ويستأنف

(١) الأفضليات ٢٩٧ .

(٢) الأفضليات ص ٣٠٩ .

(٣) راجع ص ٣١٠ من المصدر نفسه .

ماانقطع عنه .

ويبدو أن الصيرفى كان مغرماً إلى جانب السجع بالجناس ، لأنه حرص عليه فيما أورده من قول منثور ذاكراً أنه مما صنعه فى هذا المجال .

إلا أن الرسالة فى جملتها سهلة اللفظ سلسة السياق ، لا يتوعر صاحبها ولا يتحذلق ولا يُدلُّ باقتداره اللغوى ، وإن أبدى معرفته بتراث الشعر القديم والمعاصر له ، ووقوفه على كتابات البلغاء من الكتاب والعلماء .

الرّسالة المصرية لابن أبى الصلت :

هذه الرسالة تختلف موضوعاً ، وشكلاً عن رسالة ابن الصيرفى ومن سبقه وإن كانت لواحد ممن عاشوا فى كنف الأفضل بن بدر الجمالى بمصر فى الوقت نفسه الذى كان فيه ابن الصيرفى من رجاله ، فقد تعاصرا لاشك ، وتقابلا وذكره فى الأفضليات .

وموضوع الرسالة يدور حول مصر والمصريين ، وما شاهده فى أثناء وجوده بها وقضاء سنوات تحت سمائها ، وإن كان انطباعه عن مصر وأهلها ليس انطباعاً كريماً ، وربما كان للمحنة التى امتحن فيها عندما حبسه الأفضل فى سجن المعونة زمناً أثرها فى شعور المرارة والسخط اللذين يظهران فى الرسالة .

وأصل أمية من دانية ، فى الأندلس قدم مصر سنة ٤٨٩ هـ فى عصر المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر ، فى آخر أيام دولته ، ووزيره آنذاك الأفضل بعد وفاة أبيه بدر الدين الجمالى وكان أمية يأمل من وراء رحلته هذه بسطة فى العيش .. ويبدو أنه ظل دهراً خاملاً يتحين الفرص إلى أن أتيح له أن يتصل بأحد المقربين إلى الوزير الأفضل وفى أيام الخليفة الآمر ، وذلك الرجل هو تاج المعالى « مختار » ولكن حدثت وحشة بين الأفضل وتاج المعالى أخذ بجريرتها فيما يبدو أمية مما دفع بالأفضل إلى القاء أمية فى سجن المعونة ثلاث سنين [1] .

وكتب هذه الرسالة مستجيباً لرغبة ولى نعمته بالقيروان والمهدية بافريقية أبى الطاهر

(١) راجع مقدمة الرسالة تحقيق عبد السلام هارون ص ٧

ويقال إن حبسه كان سنة ٥١٠ ق خلافة الآمر بالاسكندرية

يحيى ابن تميم بن المعز (ت ٥٠٩ هـ) .

يقول فيها : « كنتُ إبَّان عصرُ الشباب مُونِقٌ ، وغصنُ الصِّباموِرقٌ

إذ لمتـــي مســـــوَدَّةٌ ولمـــاءِ وجهـــي رَونـــقُ

ممن سامحه الدهر بغفلةٍ من غفلاتهِ ، وتجافى له عن غفوةٍ من غفواتِه ، فعاش آمنَ السِّرب ، سائغ الشِّرب ، لا يتفرَّغ من أدبٍ يرودُ رياضة ، ويردُ حياضَه إلا إلى طربٍ يعمرُ ميْدانه ، ويسحبُ ذيولَه وأردانَه . ثم تلوَّنَ فقلبَ لى ظهرَ مِجنِّهِ ، وسَقانى دُرْدِيَّ دنّه ، فتدارك ماأغفله ، واستردَّ مابذله ، واضطررتُ إلى مفارقة الوطن ، والخروج عن العطَن . فتماسكتُ إشفاقاً من مفارقةِ أولِ أرضٍ مسَّ جلدى تُرابُها ، وشدَّتْ عليَّ التمائمُ بها . وجاءت أمورٌ لا تطاقُ كِبار ، فلما لم يمكن القرار ، ولم يبْقَ إلَّا الفرار ، قلتُ : ليس لى إلا أن أرمىَ بنفسى كلَّ مرمى ، وأطرحها كل مطرَّح .

لأبلـــغ عُـذراً أو أنال رغيبـــةً ومبلغ نفسٍ عُذرَها مثلُ مُنجِـحِ

وسكنتُ إلى البيت المشهور

تلقـــى بكـلِّ بلادٍ إن حللـــت بهـــا أهـــلاً بأهلٍ ، وأوطانا بأوطـان

وإن كان يقول العامة : ليس بين بلد وبلد نسب ، فخير البلاد ماحملك . فجعلتُ أستقرى البلاد لأتيمم أوفقها للمقَام ، وأعونَها على مقارعة الأيام ، فكانت مصر مما وقع عليه اختيارى ، وصدَّقـت حسنَ ظنىّ قبل اختبارى ، وسرتُ قاصداً إليها ، أعتسفُ المجاهل والتنائف ، وأخوض المهالِكَ والمتالف ، فطوراً أمتطى كلَّ حالكِة الإهاب [1] ، مُسودَّةِ الجلباب ، ثابتةٍ كصبغةِ الشبّاب ، قد فسح ميدانها ، ووُضِعَ براحة الريح عنانُها ، فجرتْ جرىَ الطِّرف الجموح ، وفاتتْ مَدى الطَّرف الطموح ؛ وطوراً كل نِقِبِ الأياطل كالمياطل [2] ، سبط المشافِر ، جعد الأشعار ، احتذى العقيق ، أو الصنو الشقّيق ، إن علا قلتَ ظليمٌ خاضِب ، وإن هـوى قلتَ شهابٌ ثاقب . يصلُ الذميلَ بالوخِاد [3] ، ويلتهم التهائم والنجاد . فكم جزْع وادٍ جزعتُه ، وجلباب ليلٍ ادَّرعتُه وكم برٌ خَرقْتُ خنارِقه وفجاجه ، وبحرٍ شققتُ غواربِهِ وأمواجه ، وليس لى غير مصر

(١) يعنى السفينة .

(٢) الياطل جمع هيطل وهو الذئب

(٣) الوخاد والوحد هو نوع من السير للابل .

مقصدٌ ، ولا وراءها مذهبٌ ، ولا دُونها للعنى متطلّبٌ

وكم فى الأرض من بلدٍ ولكن ... عليك لشقوتى وقع اختيارى

فلمّا تغمّدتْ ركابى من النيل ، واستذرتْ بظلّ المقطم ، ألقيت عصا التسيار ، واستقرتْ بى النوى ، وخفّتْ ظهورهنّ من الرّحالْ ، وأرحتُهنّ من الحِلّ والترحال ، وقلتُ : ضالتى المنشودة ، وبغيتى المقصودة . ها هنا ألبثْ وأقيم ، فلا أبرحُ ، ولا أريم ، « بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفور » ، وحيثُ التفتُّ فروضةٌ وغدير ، وحورنقٌ وسدير ، وظلٌّ ظليلٌ ، ونسيم عليل .

وكم تمنيتُ أن ألقى بها أحداً ... يَسلى من الهمّ أو يعدى من النُّوب

فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا ... كانتْ مواعيدهم كالآل فى الكذب

وكانَ لى سببٌ قد كنتُ أحسبُهُ ... أحظى به ، فإذا دائى من السَّببِ

فما مقلّم أظفارى سوَى قلمى ... ولا كتائبُ أعدائى سوى كُتبى

ولم تَطُلْ مدّة اللّبْثِ حتى تبينتُ بما شاهدتُه أنى فيها منجوسُ البَضاعة ، موكوس الصناعة . مخصوصٌ بالإهانة والإضاعة . وأن عيشها الرّغد ، مقصورٌ على الوغْد ، وعقابها المرُّ موقوفٌ على الحرّ ، فلو تقدمتُ فعلمتُ ذلك لخفّ عنها مركبى ، ولصرفتُ إلى سواها وجه مطلبى ، ولكان لى فى الأرض مرمى شاسع ، ومنتابٌ واسعٌ ، بل تثبطتُ حتى تورطت ، حتى عوملتُ بما يعاملُ به ذوو الجرائر والذنوب . وجرعتُ من الذلة بأوفى ذنوب ، هذا مع ماحبَّرتُه من المِدَح التى اشتهرت شهرة الصباح ، وهبت هبوب الرياح ، ولهج بها الحادى والملّاح .

فسار بها من لا يسير مشمرًا ... وغنّى بها من لا يُغنّى مغرّدا

إلّا أن الله جلّت آلاؤه ، وقدست أسماؤه ، تدارك برحمته فأزال تلك المحنة بالمنحة ، ونسخ تلك النقمة بالنعمة ، وختم بالوصول إلى حضرة الملك الأجلّ أبى طاهر بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، الذى لم تزل حضرته مصاد العُناة ، ومرادَ العُفاة ، ومجتمع الفضائل ، ومنتجع الأفاضل ، ومشرع الجود ومنشر الوفود . فلما استترت بجناحه ، واستظهرت باستماحه ، أعذب لى بسماحة الندى جناه ، واعتذر لى مما جناه ، فكفّ دونى كفّه ، وصرف عنى صرفه .

كريمٌ رفضتُ الناس لما بلغتُه ... كأنهم ما خفّ من زاد قادم

فكنتُ فيما مضيتُ عليه ، وآلت حالى إليه من إشراقها بعد الأفول ، وإيراقها بعد الذُّبول ، كنصل أهمل أمره من جهل قدره ، ولما وقع إلى الخبير به صان صفحته وحدَّه ، وحلَّى حمائله وغمده ، ثم ادّخره فيما يدَّخرُ وأعدَّه ، فإن انتضاه يوماً ارتضاه ، وإن جرَّده أحمده ، وإن هزَّه ، ستره فى الضريبة حَزُّه ولكن أبى الله أن يكون الفضلُ إلا لمن نشأ فى مغارسه ، ونجم فى منابته ، ورَبى فى حجره ، وغُذِىَ بدرِّه .

فلم أستسغ إلا نداهُ فلم يكـــنْ ليعدلَ عندى ذا الجنابَ جنــابُ

فما كـلُّ إنعام يخفُّ احتمالــهُ وإن هطلــتْ منه علىَّ رَبــابُ

ولكن أجلُّ الصنــع ما جـلَّ ربُّه ولم يأتِ بابٌ دونــه وحجــابُ

وما شئتُ إلا أن أدلَّ عواذِلــى على أنَّ رأيى فى هواك صــوابُ

وإعلِمَ قوماً خالفونى فشــرَّقوا وغرَّبتُ أنى قد ظفــرتُ وخابوا

والأولى أن أضرب عما سلَفَ ، وأترك ما فرط ، وآخذ فيما أجريتُ إليه وقصدتُه ، ونحوتُه واعتمدتُه مما آثرتُ به الحضرةَ الساميةَ ــ أدام الله سُموَّها ــ من وصف ما عانيتُه من أرض مصر ، وعاينتهُ ، والاقتصار على الذى رأيته دون مارويتُه ، فليس من يقولُ علمت هذا عن طريق العلم والسماع ، كمن يقول تحققتُ بالمشاهدة والاطلاع فإنَّ ذا اللبِّ الأمينَ لا ينخدعُ بمحالٍ ، ولا يرضى بانتحال .

* * * *

وأنا ابتدىء بذكر هذه البلاد وموقعها فى المعمورة ، ومجرى النيل منها ، وغنائه فيها ، وأشفع ذلك بنبذٍ من ذكر أحوال أهلها فى أخلاقهم وسيرهم ، وعاداتهم ، وما يتصل بذلك وينجرُّ معه ، ويجيءُ بسببه ، ويدخل فى تضاعيفه . وها أنذا آخذ فى ذلك ، وبالله أستعين ، وعليه أتوكل .

* * * *

أرض مصر بأسرها واقعةٌ من المعمورةِ فى قسمى الإقليم الثانى والإقليم الثالث ، ومعظمها فى الثالث .

وحكى المقنون بأخبارها وتواريخها أنَّ حدَّها فى الطول من مدينةِ برقة التى فى جنوب البحر الرومى إلى أيلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين .

ومسافة ذلك قريبٌ من أربعين يوماً .

قالوا : وحدها فى العرض من مدينة أسوان ، وماسامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة إلى رشيد وما حاذاها من مساقط النيل فى البحر الرومى ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوماً . ويكتنفها من مبدئها فى العرض إلى منتهاها جبلان ، أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم ، والآخر فى الضفة الغربية منه . والنيل منسربٌ فيما بينهما . وهما أجردان غير شامخين ، يتقاربان جداً فى وضعيهما من لدن مدينة أسوان إلى أن ينتهى إلى الفسطاط ، فثمَّ تتسع المسافة بينهما وتتفرج قليلاً ، ويأخذ المقطم منهما مشرقاً ، والآخر مغرّباً على وِراب فى أخذيهما وتفريج فى مسلكيهما ، فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرمَا وتنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية . وهناك تنقطع فى عرضها الذى هو مسافة مابين أُوغلها فى الجنوب أوغلها فى الغرب والشمال ..

... وليس تشتمل أرض مصر بعد الفسطاط الذى هو مقرُّ الملك وكرسيُّ الدولة على مدائن لها قدْر فى كثرتها ولا فخامتها ، لكن أجلُّ مدائنها وأفخرها ، أما فى الجهة الشمالية من الفسطاط فالإسكندرية وتنيس ودمياط ، وأما فى الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفط . فهذه صفة أرض مصر على الجملة .

* * * *

وأما النيل فينبوعه من وراء خط الاستواء ، من جبل هناك يعرف بجبل القمر ، فإنه يبتدىء بالتزيُّد فى شهر أبيب . الذى هو بالرومية يولية . والمصريون يقولون : « إذا دخل أبيب ، كان للماء دبيب» . وعند ابتدائه فى التزيُّد تتغير جميع كيفيَّاته وتفسُد . والسبَبُ الموجبُ لذلك مرورُه بنقائع مياهٍ آجنةٍ يخالطها فيحلبُها ، ويستخرجها معه ويستصْحِبُها ، إلى غير ذلك مما يحتمل . فتغييرُ مثل الحال التى وصفه بها الأمير تميم بن المعز لدين الله :

أما ترى الرَّعد بكى فاشتكى	والبرق قد أومض فاستضحكا
فاشربْ على غيم كصبغ الدُّجى	أضحك وجه الأرض لمّا بكى
وقد حكى العودُ أنين الهوى	لكنَّه جوَّد فيما حكى
وانظر لماءِ النيل فى مدِّه	كأنَّما صُندل أو مُسِّكا

أو كما قال غيره من أهل العصر ، من قصيدة يصف فيها أرض مصر :

وللهِ مجرى النيل فيها إذا الصَّبـــا أرتنا به فى مرّها عسكراً مُجْــرا

فشطٌّ يهزُّ السمهريّة ذُبَّـــلاً وموجٌ يهزُّ البيضَ هِنْدِيةً تبــرْا

إذا مدَّ حاكى الوردَ غضاً وإن صفا حكى ماءَه لوناً ولم يَعْدُه نشـــرا

* * * * * * *

وقال تميم بن المعز ، وأحسن التشبيه :

يـومٌ لنا بالنيـــل مختصـــرُ وبكـــلِّ يوم مسـرَّةٍ قِصَـــرُ

والسـفنُ تصعِدُ كالخيولِ بنـــا فيه وجيـــشَ الماء ينحـــدرُ

فكأنما أمواجـــهُ عُكَـــنٌ وكأنمـــا داراتــه سُـــرَرُ

....

وقال أبو الحسن محمد بن الوزير فى تدرج زيادة الماءِ إصبعاً إصبعاً ، ومنفعةِ ذلك التدرج :

أرى أبـداً كثيـــراً من قليـــل وبدراً فى الحقيقـةِ من هـــلالِ

فلا تعجبْ فكلُّ قليلٍ مـــالٍ بمصرَ مسبِّبٌ لخليج مـــالِ

زيادةُ إصبـع فى كل يـــــوم زيادةُ أذرع فى حُســـنِ حـــالِ

فإذا كان فى الخامس عشر ذراعاً ، وزاد من السادس عشر إصبعاً واحدةً كُسرَ الخليج .

ولكسره يومٌ معدودٌ ، ومقامٌ مشهودٌ ، ومجتمعٌ غاصٌّ ، يحضره العام والخاص . وإذا كُسِرَ فُتِحتْ التُرع — وهى فوّهات الخلجان — ففاض الماء وساحَ ، وعمَّ الغيطان والبطاح ، وانضمَّ الناسُ إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل ، وهى على آكام ورُبىً لا ينتهى إليها الماءُ ، ولا يتسلطُ السَّيْلُ عليها ، فتعودُ عند ذلك ، أرض مصر بأسرها بحراً غامِراً لما بين جَبليها المكتنفين لها . وتثبتُ على هذه الحال ريثما يبلغُ الحدُّ المحدود ، فى مشيئة الله المعبود . وأكثر ذلك يحوم حول ثمانية عشر ذراعاً ، ثم يأخذ عائدا فى منصبه إلى مجرى النيل ومسربه ، فينْضُبُ أولاً عما كان من الأرض مشرفاً عالياً ، ويصير فيما كان منها مُتَطامِناً ، فيترك كلَّ قرارة كالدِّرهم ، ويغادِرُ كلَّ تلْعةٍ كالبُرد المسهَّم .

وفى هذا الوقت من السنة تكون أرض مصرَ أحسنَ شيءٍ منظراً ، ولاسيَّما متنزَّهاتُها المشهورةُ ، ودياراتُها المطروقة ، كالجزيرة ، وبركة الحبش ، وما جرى مجراها من

المواطنِ التى يطرقُها أهل الخلاعة ، وينتابها ذوو الأدبِ والطَّرب .

واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركةِ الحبش ، فافترشنا من زهرها أحسن بِساط واستظللنا من دوحِها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زُجاجاتِ الأقداح شموسٌ فى خلع البدور ، ونجومٌ بالصفاءِ تنوَّرْ ، إلى أن جرى ذهبُ الأصيل على لجين الماء ، ونَشبتْ نارُ الشفق بفحمةِ الظلماء . فقال فى ذلك بعضُنا :

لله يومى ببركةِ الحبشِ ... والأفق بين الضياءِ والغبشِ
والنيل تحت الرِّياح مضطربٌ ... كصارم فى يمين مرتعشِ
قد نسجتْها يدُ الغمام لنا ... فنحن من نسجها على فُرُشِ
ونحنُ فى روضةٍ مفوَّفةٍ ... دُبِّجَ بالنَّوْرِ عِطْفُهَا ووُشى
فَعاطِنى الرَّاحَ ، إنْ تاركَهَا ... من سَوْرةِ الهمِّ غيرُ مُنتعشِ
وسقِّنى بالكبار مترعةً ... فهنَّ أروى لشدَّةِ العطشِ
فأثقلُ الناسِ كلهم رَجلٌ ... دعاهُ داعى الصِّبا فلم يطشِ

وقال أيضا :

عَلِّلْ فؤادك باللذاتِ والطربِ ... وباكِرْ الرَّاحَ بالنَّايات والنُّخَب
أما ترى البركة الغنَّاءَ لابسةً ... وشياً من النَّور حاكته يدُ السُّحب
وأصبحت من جديد النبتِ فى حُلَلٍ ... قد أبرز القطرُ منها كلَّ محتجب
من سوسن شرق بالطلِّ محجرُهُ ... وأقحوانٍ شهىِّ الظَّلم والشنبِ
وانظر إلى الورد يحكى خدَّ مُحتشمٍ ... من نرجس ظلَّ يُبدى لحظ مُرْتقب
والياسمينَ وقد أربى على دررٍ ... والرَّاح من دُررٍ تطفو على ذهب
كم مرةً قد شفينا فيهُ غُلَّتنا ... بجاحمٍ من فم الإبريق ملتهب
شمسٌ من الراح حيانا بها قمرٌ ... موفٍ على غصُنٍ يهتز فى كُثُب
أرخى ذوائبه واهتزَّ منعطفاً ... كصعدة الرُّمح فى مسودَّة العذب
فأطرب وذونكها فاشربْ فقد نضبتْ ... على التصابى دواعى اللهو والطرب

ومما يتعلق بوصف النيل من أبياتٍ له كتبها إلى الأفضل ليلة المهرجان :

أبدعْتَ للناس منظراً عجباً ... لا زلْتَ تُحيى السرور والطَّربا
ألفتَ بين الضدَّين مقتدرًا ... فمن رأى الماء خالط اللَّهبا

كأنما النيلُ والشموعُ بـه أفقُ سماءٍ تألقتْ شُـهُبَا
قد كان من فضةٍ فصارَ سمًا وتحسبُ النارَ فوقه ذهَبَا

* * * *

وأما سكان مصرَ فأخلاطٌ من الناس مختلفةُ الأصناف ، من قبط وروم وعربٍ وبربرٍ وأكرادٍ وديلم وحُبْشانٍ وأرمن ، وغير ذلك من الأصناف والأجْناس على حسب اختلافاتهم . وقالوا إن السبب فى اختلافهم ، والموجب لاختلاطهم اختلاط المالكين لها ، والمتغلبين عليها من العمالقة واليونانيين والروم والعرب وغيرهم ، فلهذا اختلطت أنسابهم ، فاقتصروا فى التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم ، والانتماءِ إلى مساقطهم ومواقعهم .

وحكى جماعةٌ من المؤرخين أنهم كانوا فى الزمن السَّالف عُبَّاد أصنام ، ومُدبِّرى هياكل ، إلى أن ظهر دين النصرانية وغلب على أرض مصر فتنصَّروا ، وبقُوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأسلم بعضهم ، وبقى بعضٌ على دين النصرانية . ومذهبهم مذهب اليعاقبة .

وأما أخلاقُهم فالغالبُ عليهم اتباعُ الشهوات ، والانهماك فى اللذات ، والاشتغال بالترّهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات ، إلى غير ذلك مما حكاه أبو الحسين على بن رضوان فى ذلك واقتصه . وأورده من الأمور الطبيعية وموجبه . وكفى به حكما منصفا ، وشاهداً عدلا ؟ .

وحكى الوصيفيُّ فى كتابه الذى ألفه فى أخبار مصر أنَّ أهلها فى الزمن السابق كانوا يعتقدون أن هذا العالم الذى هو عالم الكونِ والفساد أقام بُرهةً من الدهرِ خالياً من نوع الإنسان عامراً بأنواعٍ أُخَر غير الإنسان ، وأن تلك الأنواعَ مختلفةٌ على خِلَقٍ فَاذَّةٍ[1] ، وهيئات شاذة . ثم حدث نوع الإنسان ، فنازع تلك الأنواع ، فغلبها واستولى عليها ، وأفنى أكثرها قتلا ، وشرَّد ما بقى منها إلى القفار . وأن تلك المشرَّدةَ هى الغيلانُ والسَّعالى وغير ذلك . مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة ، وتصوراتهم الفاسدة ، وتوهماتهم النافرة . إلا أنه يظهرُ من أمرهم أنه كان فيهم طائفة من ذوى المعارف والعلوم ، خصوصاً [illegible]م الهندسة والنجوم . ويدلُّ على ذلك ماخلَّفوه من الأشغال

(١) . فاذة : متفردة

البديعة المعجزة كالأهرام والبرابى ، فإنها من الآثار التى حيرت الأذهان الثاقبة ، واستعجزت الأفكار الراجحة . وتركت لها شغلاً بالتعجب منها ، والتفكُّر فيها . وفى مثلها يقول أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرى فى قصيدته التى يرثى بها :

تضلُّ العقولُ الهِبْرِزِيَاتُ رُشدها ولا يسلمُ الرأىُ السَّليمُ من الأَفْن
وقد كان أربابُ الفصاحةِ كلَّما رأوا حسناً عدُّوه من صنعة الجنّ

وأىُّ شىءٍ أعجبُ وأغرب — بعد مقدوراتِ الله ومصنوعاته — من القدرة على بناء جسم جسيم من أعظم الحجارة ، مربع القاعدة ، مخروط الشكل ، ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراع ونحو سبعة عشر ذراعاً ، يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع ، طولُ كلّ ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعاً . وهُو مع هذا العِظم ، من اتقان الصنعةِ وإحكامِها فى غاية من حسن التقدير بحيث لم تؤثّر إلى هلمّ جرًّا بعصفِ الرياح وهطلِ السحاب . وزعزعة الزلازل . وهذه صفة كلّ واحد الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربى على ماشاهدناه منهما .

وقال بعضهم وقد ذكر عجائب مصر : وما على وجه الأرض بنيةٌ إلا وأنا أرثى لها من الليل والنهار ، إلا الهرمين ، فإنى أرثى لليل والنهار منهما .

وهذان الهرمان لهما إشرافٌ على أرض مصر ، وإطلالٌ على بطائحها ، وإصعادٌ على ذُراها . وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبى بقوله :

أين الذى الهرمانِ من بُنيانِه ما قومُه ، ما يومُه ، ما المصرعُ
كنا نظنُّ ديارهُ مملوءةً ذهباً ، فمات ، وكلُّ دار بلقعُ
تتخلّفُ الآثار عن أربابِها حيناً ، ويدرِكُها الخرابُ فتتبعُ

واتفق أن خرجنا يوماً إليهما ، فلما أطفنا بهما ، واستدرنا حولهما كثر تعجُّبنا منهما ، فتعاطينا القول فيهما ، فقال بعضنا :

بعيشك هل أبصرت أروعَ منظرا على طول ماأبصرتَ من هرمَىْ مصر
أنافا عناناً للسماء وأشرفا على الجوّ إشرافَ السِّماكِ أو النَّسر
وقد وافيا نشزاً من الأرض عالياً كأنهما نهدانِ قاما على صدر

وزعم قومٌ أن الأهرام قبورُ ملوك عظام آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد

مماتهم ، كما تميزوا عنهم فى حياتهم ، وتوخَّوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخى العصور .

ولما وصل الخليفة المأمون إلى مصر أمر بنقبهما ، فنقب أحد الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جهدٍ شديد ، وعناء طويل ، فوجدوا داخله مهاوِىَ ومراقي يَهُولُ أمرُها ، ويعسُر السُّلوك فيها ، ووجدوا فى أعلاها بيتاً مكعباً طولُ كلٍّ من أضلاعه نحوٌ من ثمانية أذرع ، وفى وسطه حوضُ رخام مطبق . فلما كُشفَ غطاؤه لم يجدوا فيه غير رِمَّةٍ بالية ، قد أتت عليها العصورُ الخالية . فعند ذلك أمر المأمون بالكفِّ عن نقب ماسواه . ويقالُ إن النفقة على نقبه كانت عظيمة ، والمؤونة شديدة .

....

ورأينا سطوح كل واحدٍ من هذين الهرمين مخطُوطةً من أعلاها إلى أسفلها بسطورٍ متضايقةٍ متوازية من كتابة بانيها ، لا تعرفُ اليوم أحرفَها ، ولا تُفهم معانيها . وبالجملة الأمر فيها عجيب ، حتى إن غاية الوصف لها . والإغـراق فى العبارة عن حقيقة الموصوف منها بخلاف ما قاله على بن العباس الرومى ، وإن تباعد الموصوفانِ ، وتباين المقصودان . إذ يقول :

إذا ما وصفتَ امرءًا لامرئٍ ... فلا تغـلُ فى وصفـهِ واقصـدِ

فإنك إنْ تغلُ تغلُ الظُّنـو ... نُ فيـه إلى الغـرضِ الأبعـدِ

فيصـغر من حيـثُ عظَّمتَـه ... لفضـل المغيـبِ على المشْـهَدِ

وكذلكَ أمر البَرابِى[1] ، كبَرْبَا إخميم ، وبربا سمنُّود[2] . وبربا دندرا (دِندره) ، فإن فيها من الإحكام والصنعةِ ، وجودة الشكل وحسن التصوير ، مايدلُّ على أنَّ عُمَّارها ذوو عقولٍ راجحة ، وأنه قد كانت لهم بالحكمةِ عنايةٌ بالغة ، لاسيما بصناعة الهندسة والنجوم .

وقال بعضُ أهل العناية بأخبار الأمم وتواريخهم ! كان بمصر بعد الطوفان علماءُ

---

(١) جمع برباة ، وكانت هذه الكلمة تطلق على المعابد المصرية .

(٢) معبد إخميم لا [illegible] ، وأما [illegible] أو معبد سمنود فلم يبق منه مايدل على عظمته [illegible] ذكره علماء العرب فقالوا كان [illegible] القرن [illegible] ٣٥٠ هـ

بضروبِ الحكمة من العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية ، ومتحققون بعلم المرايا المحرقة ، وبالطّلسمات والنيرنجيّات ، وغير ذلك .

والملكُ بمصر من قديم الزمان بمدينة منف ، وهى فى غربىّ النيل على مسافة اثنى عشر ميلاً من الفسطاط . ولما بنى الاسكندر مدينة الإسكندرية منذ نحو ألف سنةً وأربعمائة سنة ، وأربعين سنةً ، رغب الناسُ فى عمارتها ، وكانت دار العلم ، ومقرَّ الحكمة ، إلى أن تغلَّب عليها المسلمونَ فى خلافة عمر بن الخطاب ، رضوان الله عليه ، واختط عمرو ابن العاص مدينته المعروفة بالفسطاط ، فانسرب أهلُ مصرَ ، وغيرهم من العرب والعجم إلى سكناها ، فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا . » .

* * * *

ويذكر من كانوا مشهورين بالحكمة فى الزمن القديم أيام ازدهار مدينة الإسكندرية بالحكمة والعلم . وينتهى إلى قوله :

« فهؤلاء هم المشهورون من أهل الحكمة بمصر فى ذلك الزمان ، وأما زماننا هذا فقد دثر منها كلُّ علم ، وامّحى رسمُه ، وجُهل اسمه ، ولم يبق إلا رعاعٌ وغثاء ، وجهلةٌ دهماء ، وعامةٌ عمياء ، وجلُّهم أهل رُعانة ، ولهم خبرةٌ بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوةٌ عليه ، وتلطُّف فيه ، وهدايةٌ إليه ، لما فى أخلاقهم من الملق والسياسة التى أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر ، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم ، حتى صار أمرهم فى ذلك مشهوراً ، والمثلُ بهم مضروبا .

وفى خبثهم ومكرهم يقول أبو نواس :

محضتكُمُ ياأهل مصر نصيحتى	ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحيّةٍ	أكولٍ لحيّات البلادِ شروب
ولا تثبوا وثبَ السَّفاة فتركَبُوا	على حدّ حامى الظهر غير ركوب
فإن يك باقٍ إفكُ فرعونَ فيكم	فإن عصا موسى بكف خصيب

وذكر أمية بعض من لاقاهم من علماء مصر وخاصة من عمل بالطب ، فعابهم وتنقص منهم ومن علمهم ، وعرض للمنجمين كذلك فنبزاهم بالأغبياء قائلا .

« وأما المنجمون الآن بمصر فهم وأطباؤهم كما قد اشتركا من الحق ، مثل كا

حذيت النعل بالنعل ، لا يتعلق أمثلهم من علم النجوم بأكثر من زايجة يرسمها ، ومراكز يقوّمها فأما الإمعان والتبحر فى معرفة الأسباب والعلل ، والمبادى الأول ، فليس منهم من يرق إلى هذه الدرجة ويسمو إلى هذه المرتبة ، ويحلق فى هذا الجو ، ويستضىء بهذا الضوء إلا أبو الحسن على بن النضر المعروف بالأديب . » [1] .

ويعرض أمية بعد ذلك لبعض شعراء مصر ممن لقيهم فى أثناء إقامته بها ويعجبه ابن مكنسة ، فيختار له مجموعة من شعره فى مناسبات وأغراض مختلفة .

والغريب فى موضوع اختياراته من شعراء المصريين أنه اهتم بمن كانوا مثله من المغضوب عليهم من الأفضل بن بدر الدين الجمالى وكما يقول الشاعر :

إن المصائب يجمعن المصابينا

والرسالة فى مجملها تجمع موضوعات كثيرة كلها تدور حول مصر ، وانطباعه عنها ليس الانطباع السّار ،ولا السعيد،ولكنه انطباع المرارة والألم كما قلنا.لذلك فإن الرسالة فى معظمها تحمل طابع الحملة على البلد وأهله ، وإن لم يستطع أن ينكر بعض صور الجمال فيه كالنيل ومناظر النزه فى الروضات والحقول والغيطان ، وبخاصة ماأحاط منها بالفسطاط حيث كانت إقامته .

فقد أعجب ببركة الحبش ونظم فيها شعراً ، كما نظم فى النيل وماكان يجرى عليه من السفن ، وما يقيمه المصريون من احتفالات كيوم المهرجان الذى يوقدون فيه الشموع ويركبون المراكب تمخر بهم فى مجراه أو فى الخليج وتتلألأ أنوار الشموع على صفحة الماء فيكون لها فى نفسه الأثر الجميل الذى يبعثه على وصفه شعرا .

أما موقفه من أهل مصر وكونهم أخلاطاً ، وما وصفهم به من الأوصاف غير الكريمة كميلهم للشهوات ، والمكر واللؤم وما إلى ذلك ، فإن الذين نعتهم بتلك النعوت هم الذين خالطهم من أهل مصر ، وهم ليسوا أهلها على الحقيقة بل هم أخلاط مختلطة من البربر والسودان والأرمن والعجم ومن إليهم ممن استوطنوا العاصمة وجذبتهم بأنوارها أو الطمع فى نيل الحظوة من السلطان ورجاله .

وأمثال هؤلاء لا نعدم فيهم تلك الأخلاق ، وفى مقدمتها النفاق الذى أشار إليه .

---

(١) الرسالة المصرية ص ٣٠.

ومس ممن يتقرب إلى السلطان يخلو مس النفاق . ومن من طالبى الجدوى والرفد ليس فى خلقه النفاق ؟ ، وإن تفاوت عندهم فضل عن البعض وراد عند غيرهم . وهو وإن عاب المعاصرين إلا أنه أكبر القدماء بناة الأهرام والبرابى .

ومن خلا من رجال العصر مس حب الشهوات والتداعى إلى اللذات وهو نفسه قد مارسها وعاين من مارسها ، وشهد فى غير مصر لاشك وفى القيروان من تهالك عليها .

والرسالة فى شكلها وصورتها الفنية لا تخرج عن الاتجاه العام الذى رأيناه عند غيره ممن عرضنا لهم من أصحاب الرسائل . وبخاصة أولئك الكتاب الذين مارسوا صنعة الشعر إلى جانب الكتابة فمزجوا فى كتابتهم بين المنظوم والمنثور . ويغلب استخدام التراث الأدبى فى صيغ التعبير ، بل إن استخدام تلك الصيغ قد يبدو غير موفق أحيانا كأن يعزو ظهور النبت والزهر فى رياض مصر إلى القطر ، وعطاء السحاب ، وهو فى الحقيقة من عطاء النيل . ولكنها الصيغة المتوارثة غلبت فيها قريحته على عقله .

— ٣ —

الســـــيَر

والفن الثالث من فنون النثر فى هذا العصر كتابة السير سواء أكانت سير الملوك والأمراء ، أم سير العلماء . كذلك عرفنا فيه من كتب السيرة الذاتية لحياته أو بعض جوانب منها .

ومن أشهر مؤرخى السيرة أحمد بن عبد الله الفرغانى ، وله سيرة كافور الإخشيدى وسيرة العزيز بالله الفاطمى . (توفى سنة ٣٩٨ هـ) .

وابن زولاق الحسن بن إبراهيم الليثى المصرى (٣٠٦ — ٣٨٧ هـ)
ألف مافات من سيرة أحمد بن طولون ، وابنه أبى الجيش خمارويه ، تكملة على ماألفه ابن الداية . وألف سيرة سيبويه أو « أخبار سيبويه المصرى » ، وسيرة الإخشيد محمد بن طغج ، وسيرة المادرائيين [1] . وسيرة كافور الإخشيدى ، وسيرة جوهر الصقلى ، وسيرة المعز لدين الله الفاطمى ، وسيرة العزيز بالله .

وأخذ كثير من كتّاب السير والمؤرخين المصريين وغيرهم ممن اهتموا بأخبار مصر وحكامها من كتب ابن زولاق واعتمدوا عليه وعلى رأسهم ابن خلكان ، والنويرى ، وابن حجر العسقلانى والسيوطى ، وابن دقماق ، وأبو المحاسن ابن تغرى بردى والقلقشندى .

والقضاعى : أبو عبد الله محمد بن سلامة (— توفى سنة ٤٥٧ هـ) .
له فى أخبار الامام الشافعى ومناقبه
والقاضى النعمان له سيرة المعز لدين الله .

سيرة الأستاذ جوذر الصقلى

ومن أهم ماوصلنا من كتب السيرة فى هذه المرحلة « سيرة الأستاذ جوذر » الرجل

---

(١) ضاعت هذه [illegible]

الخطير فى دولة الفاطميين ، وبخاصة فى عهد الخلفاء الثلاثة : القائم والمنصور والمعز ومصنف هذه السيرة رجل غير معروف ، عمل فى خدمة جوذر اسمه منصور الجوذرى واصبح منذ سنة ٣٥٠ موضع سره ، وظل ملازماً له حتى توفى جوذر ببرقة سنة ٣٦٢ هـ وهو فى طريقه إلى مصر صحبة إمامه المعز لدين الله .

ويبدو أن مؤلف هذه السيرة ، قد وضعها بعد وفاة جوذر بزمن غير قليل فى عصر الخليفة العزيز بالله (تولى من ٣٦٥ــ ٣٦٨ هـ) .

وتتناول هذه السيرة حياة جوذر منذ جاء من بلده صقلية غلاماً ، ودخل فى خدمة المهدى الذى أهداه إلى ولده وولى عهده القائم بأمر الله ، وقد أعجب القائم به فقربه ، واشتدت الصلة بين السيّد وتابعه جوذر حتى إن القائم كان يثق فيه ثقة كاملة ، فيكل إليه بعض الأمور التى لا يأتمن عليها إلا خاصة خاصته . حتى إنه لما خرج للغزو ببلاد المغرب سنة ٣٠٠ هـ وكان لايزال ولياً للعهد استخلف جوذر على ما له وأهل بيته . وأصبح جوذر موضع سر مولاه القائم ، ولما تولى الخلافة ، أوكل إليه بيت المال ، وكان المتكلم باسمه للناس .

وكان جوذر معروفاً بحبه للخير والعطف على الرعية ، فارتفعت منزلته عندهم وقوى نفوذه فى الدولة ، وصار مهاباً من الجميع .

وعند وفاة القائم ، أخفى المنصور ولده خبر وفاته ، ولم يعلم به سوى جوذر ، وخرج لحرب الخوارج ، فتم له النصر عليهم ، وعاد ليعلن وفاة أبيه القائم .

وكافأ المنصور جوذر على خدماته لوالده وله وللدولة ، فاعتقه ، ونقبه بمولى أمير المؤمنين ، وأمر بأن لا يقدم اسم على اسمه فى الرسائل سوى الخليفة وولى عهده . كما أمر أن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولى عهده .

وفى خلافة المعز ظلت مكانة جوذر ، وزاد المعز به تعلقاً ، فاصبح سر مولاه والمتحدث باسمه . ولم يبلغ أحد فى تاريخ خلفاء المسلمين وحكامهم على مانعلم مبلغ جوذر من المعز لدين الله الفاطمى حتى إنه لما عزم المعز على ترك عاصمة ملكة بالقيروان عازماً على الذهاب . إلى مصر ظن الناس فى أفريقية أنه سيستخلف عليهم جوذر .

ســـيرة المؤيد داعى الدعاة [١] .

وهى سيرة ذاتية للداعية المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى وتحدث فى هذا الكتاب عن تاريخ حياته من سنة ٤٢٩ هـ إلى سنة ٤٥٠ هـ ، وأودع فيه بعض رسائله ومناظراته العلمية والفلسفية .

ومما جاء فى السيرة من ملاقاته للخليفة المستنصر . قال :

« ... فدخلتُ إلى مجلس الخلافة فى آخر يوم من شعبان سنة تسع وثلاثين وأربعمائه وكنت فى مسافة ما بين السقيفة الشريفة والمكان الذى ألمحُ فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية كما قال المتنبى عن رسول الروم عند دخوله إلى ابن حمدان ــ وإن كان بين الجهتين فرق ما بين التراب إلى السحاب :

وأقبل يمشــى فى البســاط فما درى   إلى البحر يمشى أم إلى البدر يرتقى

فلم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعةُ وغلبتنى العَبْرة ، وتمثل فى نفسى أننى بين رسول الله وأمير المؤمنين صلى الله عليهما ماثل ، وبوجهى إلى وجهيهما مقابل . واجتهدتُ عن وقوعى إلى الأرض ساجداً لوليّ السجود ومستحقه أن يسعفه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه . فوجدته بجُججمةِ المهابة معقولاً ، وعن مزيَّة الخطابة معزولا . ولما رفعت رأسى من السجود ، وجمعت علىَّ أثوابى للقعودِ رأيت بناناً يشير الىَّ بالقيام لبعض الحاضرين فى ذلك المقام ، فقطَّب أمير المؤمنين ــ خلَّد الله ملكه ، وجهه عليه زاجراً ، على أنى مارفعت به رأساً ولا جعلتُ له قدرا . ومكثتُ بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ، ولا يهتدى لقول ، وكلما استطرد الحاضرون منى كلاماً ازددت إعجاما ، ولعقة العييّ اقتحاما وهو ــ خلَّد الله ملكه ــ يقول : « دعوه حتى يهدأ ويستأنس » . ثم قمتُ وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عينى وصدري ، وودعت وخرجت . »[٢] .

الاعتبار [٣] : وهو فى السيرة الذاتية لأسامة بن منقذ

ألفه وهو ابن تسعين سنة ، وهو كتاب طريف : يقول عنه ابن مُنقذ[٤] :

---

(١) طبع الكتاب بدار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٩ تحقيق د . محمد كامل حسين

(٢) [illegible]

(٣) طبع مرتين [illegible] سنة ١٨٨٤ ــ ١٨٨٦ والثانية فى برنستون بالولايات المتحدة تحقيق د . فيليب حتى

(٤) [illegible]

« قد أوردتُ فى كتابى المترجم بكتاب « الاعتبار » عجائب ما باشرته وحضرته وشهدته من الحروب والمصافّاتِ والوقائع منذ كنت ابن خمسة عشر سنة إلى أن تجاوزت التسعين ، وما نالنى فيها من الجراح والمكاره وأنا القائل :

أخوض الرَّدى كم خضتُــه متعرضاً ... له ، وهو عنّى مُعرِضٌ متجنّــــب
وكم أخذت مني السيوفُ مآخذ الـــ ... حمام . ولكنَّ القضاءَ مغيَّــــب
إلى أن تجاوزت الثمانين وانقضـــت ... بُلهنيةُ العَيشِ الذى فيه يُرغــب
فمكروه ما تخشى النفوسُ من الرَّدى ... ألذُّ وأحلى من حياتى وأطيــب

وذكرتُ ماشاهدته من إقدام الرجال ، وعجائب تصرُّف الآجال ، فعنيت بما أوردتُه هناك » .

الاعتبـــار [1]
لأسامة بن منقذ

كتب أسامة بن منقذ هذه السيرة الفذة لحياته فى أخريات عمره بدمشق ، وكان قد تجاوز التسعين . ويقول فيليب حتى ناشر الكتاب[2] .

« بعد أن توقل أسامة ذروة التسعين ، وهو فى دمشق ... أخذ يطلُّ من ذلك العلو الشاهق على سابق اختباراته ، ويدوّنها ، أو يلقنها ، بانشاءٍ ساذج عادىّ ، لا تصنُّعَ فيه ولا تعمُّل ، على صورة مذكرات ، تصوّر لقطات من تلك الحياة الفذة الفريدة الغريبة المليئة بالمغامرات والمفاجآت ، والتناقضات ، بين مسرات الحياة ، واقبالها ومآسى العيش وادباره ، فهو بين تلك السطور ممتلىء نشاطا وفتوةً ، يقبل على الدنيا ، وكأنها لاتسعه ، وأحيانا يتوجس ، وتطيقُ أقصار الجوّ عليه ، وكأن السماء تكاد تطبق ، والليل يكاد بحناوسه ، وظلماته يهوّم على النهار فلا تبين أمامه الطريق ، وهو حينا سعيد مشرق مرحٌ متفائل ، وأحياناً قلق حائف يترصد ، ويتوقع العدوَّ الكامن له فى كل ثنيةٍ وطريق .

حياة حافلة لاشك ، ونموذج من كتابة السيرة لا يتكرر فى أدبنا العربى ، ومن هنا كان اهتمام الباحثين بالاعتبار ، باعتباره ظاهرة فريدة تستحق الوقوف أمامها والتنوية بها وبصاحبها .

يقول ناشر الكتاب [3]

« رمى المؤلف من وراء كتابه إلى تعليم أمثولة أدبية ، لذلك سمّاهُ « كتاب الاعتبار » وأورد موادَ يرجى منها أن يعتبر القارىء بما حلّ بغيره ، وأن يستفيد لنفسه . أما العظة التى أراد أن ينقشها على ذهن القارىء بحيث لا تُمْحى فهـى : أن ركوب الأخطار فى الحروب وغيرها لا ينقص الأجل المكتوب . يقول : فإنى رأيتُ معتبراً يوضّح للشجاع العاقِل ، والجبان الجاهل أنّ العمر مُؤقّتٌ مقدّر ، لايتقدُم أجله ولا يتأخر . » .

---

(1) طبع بتحقيق فيليب حتى بمطبعة جامعة برنستون بالولايات المتحدة سنة ١٩٣٠ .

(2) الاعتبار ص م من المقدمة .

(3) فيليب حتى ص ٥

ومن صور معاركه مع الصليبيين ننقل هذه الفقرة على لسانه حين نزل عليهم بقلعة شيزر بلدوين صاحب أنطاكية . قال أسامة [1].

« نزل علينا صاحب أنطاكية لعنه الله بفارسه وراجله وخيامه فى بعض السنين ، فركبنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلوننا ، فجاءوا نزولا منزلاً كانوا ينزلونه ، وهجعوا فى خيامهم فرجعنا إلى آخر النهار . ثم ركبنا ، ونحن نظن أنهم يقاتلونا ، فما ركبوا من خيامهم .

وكان لابن عمي ليث الدولة غلّة قد نجزت وهى بالقرب من الإفرنج ، فجمع دوابَّ يريد يمضى إلى الغلّة يحملها ، فسرنا معه فى عشرين فارساً معدّين . ووقفنا بينه وبين الإفرنج إلى أن حمل الغلّة ومضى ، فعدلتُ أنا ورجل من مولدينا يقال له حسام الدولة مسافِر فرأينا شخوصاً وهم على شط النهر ، فلّما وصلنا الشخوص التى رأيناها والشمس على مغيبها فإذا شيخٌ عليه معرفةُ امرأةٍ ومعه آخر ، فقال له حسام الدولة — وكان رحمه الله رجلاً جيداً كثير المزاح — : ياشيخ أىُّ شيء تعمل هاهنا ؟ .

قال : انتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار .

قال : ياشيخ باسنانك تقطع من خيلهم ؟.

قال : لا . بهذه السكين .

وجذب سكيناً من وسطه مشدودةً بخيط مثل شعلة النار ، وهو بغير سراويل فتركناه وانصرفنا .

وأصبحت بُكرةً ركبتُ انتظر مايكون من الإفرنج ، وإذا الشيخ جالسٌ فى طريقى على حجر والدم على ساقه وقدمه وقد جمد .

قلت : يهنئك السلامة . أى شيء عملت ؟

قال : أخذت منهم حصانا وترساً ورمحاً ولحقنى راجلٌ ، وأنا خارج من عسكرهم طعننى نفّذ القنطاريّة فى فخذى ، وسبقت بالحصان والترس والرمح .

وهو مستقل بالطعنة التى فيه كأنها فى سواه .

وهذا الرجل يقال له الزَّمَرْكَلُ من شياطين اللصوص .

(١) الاعتبار ص ٤٣ .

— ٤ —

الكُتـبُ الأدبيَّـــة

تنوعت المؤلفات والكتب الأدبية فى عصر الفاطميين ، وتعددت موضوعاتها ومناهجها فمنها كتب مجموعات تجمع عديداً من الموضوعات ، والأخبار الأدبية ، والطرف والنصوص الشعرية ، والنثرية ، وتراجم الشعراء والأدباء ، ونقد لأشعارهم وصنعتهم الكتابية ، أو تقريظ لها ، وبيان محاسنها إلى غير ذلك .

وقد يدور بعض هذه الكتب حول موضوع بعينه ، أو حول مدينة ، أو عصر أو قرن من الزمان أو قرون ، كما قد يتناول مرحلة فى عصر دولة من الدول أو خليفة من الخلفاء أو أمير ، أو وال ، وماقيل فيه من المدح ، أو عاش فى ظله من الأدباء والكتاب .

كما نجد بعض ماألفه كتاب الإنشاء عن الكتابة والإنشاء ، ومايتصل بأصول الكتابة الديوانية وما ينبغى أن يتوفر فى كاتب الديوان أو كاتب الانشاء من معرفة بكثير من العلوم والآداب والفنون . مما يعرض له المؤلف .

الأفضليـــات [1]: لعلى بن منجب الصيرفى

والكتاب مجموعة من الرسائل التى أنشأها للملك الأفضل أحمد بن بدر الجمالى الوزير الفاطمى الخطير من سنة ٤٨٧ هـ إلى ٥١٥ هـ .

وهذه الرسائل تبدأ برسائل فى رجاء العفو ، والصفح عن الذنب ، ويبدو أنها قدمت للوزير الأفضل بعد أن غضب على ابن الصيرفى لأمور لم تتضح لنا ولعل من أسبابها بعض الوشايات التى بلغت أسماع الوزير ممن يحسدون ابن منجب على مكانته . وكانت هذه الوشايات أمراً كثير الوقوع بين أفراد حاشية أولئك الرؤساء والخلفاء ، وكم جرّت على الناس من ويلات ، بل ووقع فى أحابيلها كثير من وجهاء الدولة وكبار علمائها .

---

(١) تحقيق الدكتور وليد قصاب والدكتور عبد العزيز المانع من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٣ هـ ١٩٨٢

وهكذا وقعتْ الجفوة بين الوزير وكاتبه ، فطرده من ديوان الانشاء ولكن الكاتب ، اعتذر ، وألح فى الاعتذار ، وطلب الصفح حتى استطاع أن يكسب عطف الأمير مرة أخرى ، ويستميله إليه ، فيعيده إلى مكانه من ديوان الإنشاء ونجد هذا الاعتذار والاستعطاف فى فصلين جاءا فى أول الكتاب هما :

فصل مماجاء فى العفو ، وفصل فى الشفاعة والاستعطاف . يعرض فيهما طلب العفو ، ويبذل ما فى ماء وجهه للصفح ، وتليها رسالة رد المظالم ، وهى متعلقة بالرسالة الأولى بفصليها ، ولم يكتف ابن الصيرفى ببذل ماء الوجه فى عبارات انشائية منمقة ، والاستشهاد بما جاء فى ذلك من آيات الكتاب ، وأحاديث النبى ، بل جال جولات شتى فى مجالى الأدب شعراً ونثراً يقبس منهما لعرض آرائه ، وبسط معانيه .

ومما جاء فى حديثه عن العفو كما بسطه فى أول الكتاب :

« قال الشيخ أبو القاسم على بن منجب بن سليمان الكاتب :

« هذه الرسائل التى صنفتها منذ الأيام الأفضلية ، فأولها رسالة العفو ... التى ترجمتها استنزال (العفو) مما خدم به المجلس العالى المالكى الأفضلى مملوكه ..

الحمد لله راحم خلقه وإن عظمت ذنوبهم ، وكاشف ضرهم ، فيما يطرقهم وينوبهم والمتفضل عليهم بنعمه وهم غافلون ، والقائل فى محكم كتابه ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذى شرفه بالقرآن الكريم ، ووصفه بالخلق العظيم ، وفضله على كافة الأنبياء الذين بعثهم وأرسلهم ، وأمره فى أصحابه بقوله ـــ عز من قائل : ﴿ فاُعفُ عنهم واستغفر لهُم ﴾ .

وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى أجاب إلى الإيمان مسارعاً مبادراً ، وصفح عن عدوّه ، وكان عليه قادرا ، وأعربت شيمه عن الشرف الصريح . ومنه كرمه أن يجهز على جريح .

وعلى آلهما الطاهرين الذين طهرّ بهم من الأدناس ، صلاةً دائمة الاتصال مستمرةً فى الغدوّ والآصال ، وسلّم ، وكرّم ، ومجّد ، وعظّم . أجمعت البرية على اختلاف ألسنتها وألوانها ، وتغاير عصورها وأزمانها ، وتباين عقولها ، وآرائها ، وتفاوت أغراضها وأهوائها

أن أفضل ماا كتسبه المرء فى وجوده ، وأشرف ما منِحه من كرم الله وجوده ، ما يوفق له من إصلاح أخلاق النفس وتهذيبها ، وتبليغها غايةً تجودُ الخواطر فيها ، وتهذى بها . وإن من أدرك ذلك فقد نال الرتبة العليَّة ، وحازَ السعادة الحقيقية ، لأنه حصلَ على فضيلة الذات ، ووصلَ بها إلى أعظم اللّذات . وهذه قضيةٌ لا تنتقض ، ومقدمةٌ لا يخالفُ أحدٌ فيها ولا يعترض ، فأما النتيجة عنها فهى فعلُ الحسَن ، والمثابرة عليه ، والتنزهُ عن القبيح ، وإن دعتْ المكافأة إليه . وأفضل الحسن ما بقى ذكر المرءِ بعده ، وجعله بالوصف قريبا ، وإن أطالت الأيام عهده ، إذ كان بقَاء ذكر الإنسان عمراً يستجدُّه ، وكنزا يذخره لوارثِهِ ، ويُعِدُّه . ومن أمثالهم : « البشْرُ أحدُ الجودين ، والذِّكْر أحدُ الخلودين ، والبيانُ أحد السّحرين والثناءُ أحد العُمْرينَ » . وما أحسن قول أبى الطيب :

كفــلَ الثنـاءُ له بـردَّ حياتـهِ　　لمَّا انطـوَى فكأنَّــهُ مَنْشُــورُ

وقد سبقه إلى هذا المعنى غيرُه . قال التيميُّ :

ردَّتْ صنائِعــهُ عليه حيائــه　　فكأنّــه فى طَيّـهِ منْشُــــور

وقال آخـر :

طوتـه المنايا والثناءُ كفيلُــــه　　بردِّ حيـاةٍ ليسَ يُخْلِقُهـا الدَّهــرُ

وبعد أبى الطيب قال مهيار :

ألفـى الثَّـراءَ على الثنـاءِ لعلمـهِ　　أنَّ الفناء على الثنـاءِ خُـلُـودُ

وإذا تُؤمِّلَتْ المناقبُ التى تخلِدُ حُسْنَ الذكرِ ، وتمثَّلَتْ صوراً تُسْتَشَفُّ فى مرآة الفكر ، وُجِدَ أحسنُها منظراً ، وأشقُّها جوهراً ماكانت النعمة فيه تتعدَّى ، والآمالُ تتعرض نحوهُ وتَتَصدَّى ، فلذلك عُظِّم ربُّ المنائح والصلات ، وفُضِّلَ المتنفِّل بالصدقة على المتنفلِ بالصَّلاةِ ، وذلك أن المصلّىَ لا تتجاوزُه مثوبةُ ما صنع ، والمتصدّق فقد نفعَ غيره وهو لا محالةَ قد انتفعَ . وهذا أمرٌ قائم الدليل ، واضحُ بُرهانِ التفضيل. ثمّ إن هذه النعمة المشتركة بين منعَمٍ عليه بها ، ومنعم يُثاب بسببها ، تنقسم فى قِسْمين أيضاً : أحدُهما البرُّ المعهودُ والصَّدقةُ المعروفة، والآخرُ العفوُ عن الجرائم التى تأبى احتمالَها الطباعُ العزوفةُ ، وتفضيل من يعفو على من يتصدقُ فرضٌ واجبٌ ، وترجيحه عليه أمرٌ متعيّن وحقٌ لازب ، لأن المتصدق لا يتجاوز حالاً مختلة يسد خصاصتها وفاقتها . والعافى عن الذنوب فقد يحقن دماء يوجبُ العدلُ سفكها وإراقتها . فالأوّل يولى جميلاً ، ويحسنُ

جميعا ، والثانى يُحيى نفساً . ﴿ ومن أحياها فكأنَّما أحيى الناس جميعا ﴾ . فبينهما هذا التفاوت الذى لا يخفى قدرُه ، والتباينُ الذى لا يستتر على ذى تصوُّر أمرُه ، فقد استقر بهذه السياقةِ أن العفو أكرمُ الخصال ، وأعلى منازلِ الكمال ، وأحمدُ الأفعالِ عاقبة فى العاجلةِ والمآل .

ومن لطائف الله بأهل هذا العصر ، ومواهبه التى تتعدى مدى الإحصاء والحصر ، أن جعل هذه الفضيلة التى قام بها البرهان على أنها الأولى فى العدد ، وارتفع الخلاف فى كونها الأولى بتعظيم كلِّ أحد ، أغلبَ الخِلال على خلائِق مولانا الملك السيّد الأجل الأفضل أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادىِ دعاةِ المؤمنين ، عضّد الله ملكه بالتخليد ، وشدَّ ببقائه أزر الإيمان والتوحيد ، الذى ملأ جمالُه العيونَ ، وصدَّق إحسانُه الظنونَ ، ووضحت الدلائل على أن مثلَه لم يكنْ قطُّ ولن يكونَ :

هيهات قامت معجزاتُ العُلا ... فيه ومائت آيةُ الانفراد
جلَّ عن الناسِ فما عابَه ... شىءٌ سِوَى تشبيهِه بالعباد

ثم إنه بَسط الله اقتدارهَ ، وأعزَّ أولياءَه وأنصاره ، لم يعرضْ من الصفح بما أُلِفَ ولم يَقْنعْ من العفْو بَما عُرِفَ مما يَجُودُ منه على الجانى ببقاءِ روحه ، ويَحولُ به بين الجرم ، وبين سُكنى ضريحه ، حتى أبانَ من التذاذه بالغفران ، وإحسانه إلى من قابل نعمته بالكفرانِ ، ما جعل المذنبين يتقربون إليه بالجرائر ، والمسيئين يتوسلون عنده بالكبائر ، فحمدوا خطأهم ، وما عهدنا الخطأ مع غير كرمهِ يُحمد . وجَحدُوا براءتهم وما عرفنا البراءة ، لولا فيض فضله تنكر وتجحد . وصارت إساءَتهم من مواتّهم إليه وشوافعهم . وجنايتُهم من حرماتهم لديه وذرائعهم ، فما أصدقَ ما قال أحد شعراء مجلسه العالى ، شيد الله مبانيه ، وبلّغ كلا من مماليكه آماله وأمانيه .

وسعت مراحِمك الجناةَ بأسرهم ... وألَنْت كلاًّ منهم عِزّاتِه
وجزيت مرتكب الكبيرة منهم الـ ... ـحُسْنَى فأصبح شاكرا زلاتِه[1]»

ويمضى فى هذه الزلفى ، والاستشهاد بالشعر أو عمل شعر فى كل معنى متصل بما

---

[1] الأفضليات ص ٧ .

يعرض له من هذه المعانى فى دائرة العفو ، والصفح ، وسماحة النفس .. وما إلى ذلك حتى ينتهى إلى قوله : [١]

« وللمملوك مقرر هذه الرسالة خدمةٌ كان رفعها إلى المجلس العالى المالكى — خلد الله سلطانه وشيد أركانه — وهى . ﴿ وأيوب إذ نادى ربَّه أنّى مسَّنى الضرُّ وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضُرّ ﴾ لو كان للمراحِم عن الشّيم الشريفة الأفضلية معدل ، أو للعواطف عنها مرجع أو موئل ، لما منع ذلك ذوى العقول من قصد الجناب الكريم المالكى الأفضلى ، وقوفاً بآمالهم فى رحيب ساحاته ، وتخييساً برجائهم فى مصون عرصاته ؛ إذ كان كلُّ مملوك فإلى مَالكه معاذه ومفزعه ، ولسلطان عصره ملاذهُ وإليه مرجعه ، فكيف وأنواع الرأفة إلى مولانا — خلَّد الله ملكه — منسوبة وأقسام العواطف من سمائه مستنزلةٌ مطلوبة ؛ والجرائم عنده وإن عظمت ممسوحٌ بها موهوبة . على أن سطوته بالإجماع مخوفة ، وهيبتُه مرهُوبة . لا جرم أنَّ الله تعالى خصه من الرحمة بما هو معدودٌ من صفاته ، وأفرده من الخصائص ببدائع الفضل ومعجزاته . والله أحكم بتدبير خلقه ، وأعلم حيث يجعل رسالاته .

والمملوك يقبل الأرض بالمقام الكريم ، وينهى ما هو عليه من ضُرٍّ قد قصرٌ عنه جلدُه ، وضاق فيه بروحه جسدُه ، وأصار راحمه منْ كان يحسُدُه . وقد نهكتْه العطْلةُ والبطالة ، وأضال الزمانْ دفاعه عن الخط ومطالَه ، وله حرمةُ من نشأ فى ظلِّ دولته القاهرة ، وفاضت عليه سحائبُ مكارمِه الغامرة ، ورُبّى فى دواوين مملكته السعيدة . ».

وكذلك يجرى قلمه فى الرسالة التى سماها « رد المظالم » . يشير فيها إلى قصد الشعراء وغيرهم للأفضل من أجل المديح ونيل الجائزة فيقول [٢]

« وقد ازدحمت بفنائه ضروب الأمم ، وتواصلت إليه ملوك العرب والعجم ، وهاجروا نحو بابه راحلين مهطعين ، وأمُّوا ظله لاجئين إليه منقطعين . ولقد ورد منهم اثنان متباعدا الأفقين ، متباينا المستقرين وهما ملكا غانة وفرغانة ، فأزال من قلب كل منهما أحقاده على الدهر وأضغانه ، فاعتبروا يأولى الأبصار كيف أحسن حتى إلى الدهر

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٠

(٢) الأفضليات ص ٣٦

فأصلح القلوب له ، وجعل ذلك من شكر الله على ما قمّصه إياه وسربله ...

.... وإذا تأملنا ما سفر فيه البيان وتبرّج ، وأسفر به صبحُ الإبداع وتبلّج ، وأخرجتْ منه الضمائر جواهر كانت مستترة . ونظمت به الخواطر عقودا مازالت منتثرة وجدنا ضروباً من الأقوال منسعة ، وأصنافاً من المدح منشعبة متنوعة ، تدعو الناظرِ المحرَّرَ ، والمتأمل المقصِّر ، والعامل بفريضة العدل نعرضا لخزائه ، والمناضل عن الحقّ رغبة فى انتسابه إليه واعتزائه إلى القول إنَّ كلّ لسان انطلق فى أيامه بخدمة ملوكية فما قصدَ غيرَ مدحه ، وكلّ بيان انبعث فى أوصاف حقيقية ، فما أراد سوى تفصيل ذلك وشرحه . فلله در أبى نواس إذ يقول :

وإن جرت الألفاظ يوماً بمدحةٍ لغيرك إنسباناً فأنت الذى نعنى

وما أحسن قولَ ابن الرومى :

إن أسرق الشعراء شعرهُمُ فجزاءُ ماسرقوا من المجد
سرقوكَ مجدَك وهو مدُّ خسرٌ من قبل أن تلقى إلى المهد
وكسَوْهُ قوما لا يليق بهم من ماجدٍ وسطٍ ومن وَغْد
فرددت حقّك غير مُعتذرٍ منهم إلى حُرٍّ ولا عَبْد

فعمدنا إلى هذا الباب ذاكرين منه أنموذجاً لنظائره ، واقتصرنا عليه ، إذ لا طمع لنا فى ذكر سائره ، واعتمدنا على مالم يبتذله الاشتهار ، وقصدنا مالم يكن للألسن به استهتار واجتهدنا فى إيراد مالم تُخْلِقْ الأسماعُ جدَّته ، وخدمنا بما لم تسلب الروايةُ رواءهُ وبهجته وقد يأتى فى تضاعيفه ماليس من شرطه حسب مايوجبه تفرع التصنيف ، ويقضى به تشعبُ التأليف ، وسمينا ذلك : « ردُّ المظالم » لأنه حقٌ لمولانا .

وقد خليَتْ على غير أكفائه عروسُه ، وأديرتْ على غير شرْبه كؤُوسُه ، فافتضّتْ أسمَاعُهم أبكارَه ، وشربت أفهامُهم عُقارُه . وهذا ظلم من ناظمه وقائله ، وتعدٍّ من سامعه وقابله .

ويقول : « قال عبد الله بنُ محمد بن سنان بن سعيد الخفاجى الحلبى :

لا يدّعى الفصحاء فيك غريبةً والبيض تنثُرُ والأسنّةُ تنظِمُ
إن أحسنوا عنك الثناءَ فإنها نطقت بمدحك قبل أن يتكلّموا

عجباً لوجهك كيف بارقُ بشرِه ... تهمى سحائبه ولا يتغيَّمُ
ومن العجائب أن بيض سيوفِهِ ... تبكى دماً وكأنَّها تتبسَّمُ

فأما الأول فمن مليح التورية . وقد أتى بهما فى قوله :

وصفوا بياضَ يدِ الكليم بمعجزٍ ... فيه ، وكم لك من يدٍ بيضاءِ
واستطرفوا إحياءَ عيسى ميتاً ... فرداً ، وجودُك باعث الفقراءِ

وقال :

من القوم صالَ الدهر إلَّا عليهمُ ... وصالوا ببيض الهند حتى على الدَّهر
أشدُّ احتقارا بالرَّدى من حُسامِهِ ... وأدنى إلى سرِّ الأعادى على الدعرِ
له خلقٌ فى المحلِ غيثٌ وفى الصَّبا ... نسيمٌ ، وفى جنح الدُّجىَ غُرَّة البدرِ

وقد استعمل تركيب هذا البيت فى موضع آخر فقال :

ماهَزَّه طربُ العقار وإنما ... أعطته نشوة كأسِها الأخلاقُ
هى فى الهوَى وعدُ الوصالِ وفى الـ ... ـكرى طيفُ الخيال وفى الوداع عناقُ

وهو مأخوذٌ من قول ابن نباته :

إنها فى السَّحابِ وبْلٌ وفى السـ ... ـرِّيح نسيمٌ ونشوةٌ فى الشرَّاب

فأما قوله :

أشدُّ احتقاراً بالرَّدَى من حُسَامِه

فهذا الصدر يصلح أن يُعجَّزَ بقول أبى الطيب :

وأقدمُ بين الجحفلينِ من النَّبْل

على أنَّ صدر بيت أبى الطيب مناسبٌ للعجز المذكور ، لأنه قال :

أقلُّ بلاءً بالرَّزايا من القنا

فيصير هذا العجز مع صدرين .

قال محمدُ بن عُبادِ بن عمرو :

سمِيْدعٌ يَهبُ الآلاف مبتدِئاً ... ويَستقلُّ عطاياهُ ويعتذِرُ
له يدٌ كلُّ جبارٍ يُقبِّلُها ... لولا نداها لقلنا إنها الحجَرُ

ولو أمكنه أن يقبل الحجر الأسود لكشف المراد وبينه ، وأظهر اللمس ..

وقد اتفق ذلك لمحمود بن القاضي الموفق أحد مماليك مولانا ، وكاتب إنشاء :ولته في قوله يصف كتابا ورده ، ويذكر أن الفاتك والناسك لفياه بالتبجيل ، وقابلاه بالتقبيل كأنما قد حلّ فيه اللمى ، أو ذاب فيه الحجر الأسود .

على أن ابن مكنسة ذكر الحجر غير موصوف ، فلم يُشكل المرادُ فيه ، وسببُ ذلك ماقرنه به ، وضمه إليه . فقال من قصيدة أولها :

لمثل ذا اليوم كان السَّعدُ ينتظرُ

منها :

كأنك البيتُ قد طاف الحجيج به وفي ركابك حلَّ الركنُ والحجرُ

فأما قصيدة محمدٍ المقدم ذكره فإن لعبد الله بن سنان قصيدة على وزنها وفي معناها ، على تقارب العصرين ، وتباعد المستقرّين ، منها ماهو من شرط هذا الكتاب . قال منها :

ملكٌ له سيرةٌ في العدلِ معجزةٌ لولا الشريعةُ قلنا إنَّها سُوَرُ

....

وهكذا يظل يورد أبياتاً لبعض شعراء عصره في معاني المديح مقارناً بينها ناقداً ، مبيناً ما بين معانيها من النسب ، أو بين تلك المعاني ، وسابق ماقال الشعراء القدامى ، مما يدل على سعة محصوله في الشعر ، ودقة فهمه ، وحسن تذوقه .

ويعرضُ لشعر ابن عمار الوزير والشاعر الأندلسي قرين ابن زيدون فيورد منه جملة ، يعارضها بأبيات أخرى لبعض شعراء عصره ، ومن سبقهم على ماذكرنا . وقد كان كبعض معاصريه من المقربين مهتماً بشعراء الأندلس وشعر الاندلسيين ، وله فيه كتاب على ماجاءت به الأخبار ونقل عنه بعض المؤلفين .

ونعدُّ الرسالة على تلك الصورة من الموازنات الشعرية ، والمعارضة بين المعاني ، وتعقب الألفاظ ، وما جاء من صور التعبير الفني من تورية وغيرها جهداً من المؤلف في النقد الأدبي ونقد الشعر خاصة .

ويشير إلى مايأتي في الشعر من طرائف بعض الناظمين المتكلفين كالحريري في

مقاماته [1] كالمقلوب والتجنيس المبالغ فيه .

ويختم كلامه بقولـه :

« وهذا المقدارُ دالٌ على استنباط أمثاله من هذا الأسلوب ، ومسهِّلٌ استخراجَ أنظارهِ من هذا الغرض المطلوب ، وهادٍ إلى ما يجب قصده فى المدح واعتمادُ ، وباعثٌ على مايلزم إضمارُه فى الوصف واعتقاده ... » [2] .

فالرسالة إذا وإن كانت فى شعر المديح ، ومما قصد به الأفضل ، إلا أنه استطرد إلى معانى المديح ، ومنها إلى معانى موضوعات الشعر الأخرى وأساليب الشعراء فى تأدية تلك المعانى .

« لُمح الملـح » [3]

ويبدو أنه لم يبلغ غايته فى الرسالة السابقة ، فأراد أن يستأنف القول فى رسالة أخرى لاحقة اسماها لمحُ الملح .

فموضوع هذه الرسالة يجمع ملح الشعر والأخبار حول من نظموا من المديح فى الأفضل من شعراء العصر وبعض أخبار أخرى لشعراء من أهل مصر والقيروان والشام .

ويقسمها فصولاً كلُّ فصل يتناول لمحاً عن مجموعة من الشعراء ، فالفصل الأول بعنوان « من المحاسن العصرية فى المملكة المصرية » ذكر فيها بعض أقوال الشعراء فى الأفضل منهم محمود بن الموفق الكاتب ، ومجبر بن محمد بن عبد العزيز [4] ، الصقلى ثم المصرى وابن حيوس ، وفى فصل آخر سماه : « فى الاشارة إلى مدائح مولانا وفضائله وما ازدانت به الأرض من قصوره ومنازله . » ذكر فيها شعراً للشاعرين السابقين أيضا ، ويبدو أنهما كانا من الشعراء الملازمين لبلاط الأفضل .

يقول عن مجبر بن محمد : « ولمجبر أحد شعراء مجلس مولانا ــ خلد الله سلطانه فى

(1) الأفضليات ص ٨٢ .
(2) المصدر نفسه ٩٧ .
(3) الأفضليات ص ١٠١ .
(4) المصدر نفسه ص ١٢٦ .

وصف فوّارة فى المبانى الشريفة على ماأوجبه تخيله ، واقتضاه توهمه وتمثّلهُ لأنه ماأدركها بنظره ، ولا أجال فيها حاسة بصره :

وفوارةٍ يستمدُّ السَّحا ... بُ من فضلِ أخلافِها المُحتلبْ
رأتْ جمرةَ القيظِ مُحمرّةً ... لها شررٌ كرجومِ الشُّهُبْ
فظلت بها الأرضُ تروى السَّما ... ءَ خوفاً على الجوِّ أن يلتهبْ

وهذا من قول الآخر فى وصفها :

أمطرتْ الأرضُ بها السماءَ

ومن المستحسن فى ذلك ماأتى به على بن الجهم فى قوله :

وفوّارةٍ ثأرها فى السماء ... فليست تُقصّرُ عن ثارها
تردُّ على المزنِ ماأسبلَتْ ... على الأرض من صَوْب مدْرَارها

والذى صنعه الشعراء فى هذا الباب مما هو مستقرٌّ فى الخزائِن المَعمورةُ مغنٍ عن التوسّع فيه ؛ لاسيّما وهذه الخدمة مُحةٌ ، والذى أورد فيها على وجه الإشارة . » .

ويورد نادرة من كتاب الوزراء لابن عبدوس ، وكلمة لعمرو بن مسعدة الكاتب ، أراد أن يعارضه ، ويماته فيها ، فجاء بمقال له منثور ، أعقبه بشعر لبعض شعراء عباسيين ثم جاء بفصل عن ابن شرف القيروانى قال :[1]

« من المحدثين المجيدين محمد بن شرف . وذكر فى بعض تصانيفه أنه كتب يشرح حالَ حاجٍّ أصابه فى الطريق حرٌّ شديد ، فنزل بئراً ليشرب ، فسقطت فيه صاعقة ، فسلم منها ، ثم ركب وسارَ فنزلَ بردٌ أصابت رأسه منه واحدةٌ فقتلته ، وكتابه فى ذلك مشهور .. وقد كتب المملوك يعنى نفسه — ابن الصيرفى — فى هذا المعنى . » ثم يورد مقالاً آخر . يعقبه بالتعريف بابن شرف قائلاً : « وابن شرف من أعيان الشعراء ، وأماثل البلغاء ، وله أبياتٌ يجيد فيها ، ويحسنُ فى معانيها . فمن بديع شعره قوله :

خلقٌ كماءِ المزنِ طِيبَ مَذاقةٍ ... والرّوضةِ الغنّاء طيبَ نسيم
كالسيفِ لكن فيه حلمٌ واسعٌ ... عمّنْ جنى والسيفُ غيرُ حليم
كالليثِ إلا أنه مُتبرقعٌ ... بوسَامةٍ ، والليثُ غيرُ وسيم
كالغيث إلا أن وابل جودِهِ ... أبداً ، وجودُ الغيثِ غير مُقيم

(١) مصدر نفسه ص ١٢٦

كالدهــر إلا أنه ذو رحمــــةٍ والدهـُر قاسِى القلبِ غيرُ رحيـم »

وبعض مقطوعات شعرية أخرى . كقوله فى عود قينة :

سـقى اللهُ أرضاً أنبتتْ عودَكِ الذى زكـتْ منه أغصـانٌ ، وطابتْ مغارسُ
تغنىَّ عليها الطيرُ وهى رطيبـــةٌ وغنَّى عليها الناسُ ، والعود يابِــسُ

وقولـه فى مثله :

ياعُودُ من أيّةِ الأشجارِ أنتَ فـلا جفَّا ثراها ولا أغصانَها المــاءُ
غنَّى القيان عليها وهى يابســةٌ بعد الحمام زمانـاً وهى خضـراءُ »[1]

ويذكر ابياتا لابن رشيق فى الخمر ، يقارن بينها وبين أبيات أخرى لعبد المحسن الصورى من شعراء اليتيمة .

ويخول فى الرسالة جولات نقدية تتناول جوانب المعانى المشتركة بين الشعراء والمأخوذة مما يجرى فى كتب السرقات والمآخذ. كما يعرض للجوانب البيانية من تشبيه واستعارة مقارناً معلقاً ، مستحسناً ومقبحًا . فما استحسنه منها قول الشاعر فى وصف الخمر :

ومقتول سكر عاش لمَّا دعوتُــه فبادر مسروراً يَرى غيَّهُ رُشْـدا
وقام تثنيه بقايا خمـــارِه وقد قطفت عيْناهُ من خدّه وردا»[2]

لأنه جمع بين الاستعارة والتشبيه مع حسن اللفظ .

ويتحدث عن القوافى المتمكنة فيقول :[3]

فى الأبيات التى تقتضى قافية لايكادُ الخاطِرُ يتخطاها ، فيأتى قائِلها بأخرى لا يتعرض لها الفكر ولا يتعداها . من ذلك قول عُليّة بنت المهدى :

ومغتربٍ بالمرج يبكى لشـجوهِ وقد بان عنه المسعدونَ على الحـبِّ
إذا مأتاه الركب من نحو أرضـــهِ تنشَّـمَ يَستشـفي برائحـةِ القُرْب

قال السابق المعرى : فأنزلت الركب عن هذه القافية ، وقد كان لها موضع ، ولكنَّ

(١) الأغضنيات ١٢٨ ــ ١٣٠
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٩ .

القرب أحقُّ به . وقول ابن نباته .

رمتــهُ بها أهلُ الجبال فما دروْا   أخيــلَ رمتْها بالعدا أم ســــلالمْ

والمملوك ــ ابن الصيرفى ــ يقول : إن الذى يمرُّ إليه الخاطر تقفيةُ هذا البيت بالقشاعم ، فلما ارتفع إلى السلالم زاد المعنى بهجةً .

ويعقد بابا شبيهاً بما عقده ابن طباطبا فى كتابه عن القوافى المتمكنة (١). يجعل عنوانه « فى القوافى التى يتحدى بها ، فتتعذر على ملتمسيها وطلابها » يقول :

« من ذلك قول ابن نيقيا البغدادى أحد شعراء الوقت :

للهِ أىُّ مواقــــفٍ رقَّــتْ لنـــــا   فيها الرســـائلُ والقلـــوبُ غـــلاظْ

عهـدى بظـلِّكَ والشـبابُ نزيلـهُ   أيـام ربعُكَ للحسانِ عكــــاظْ

فأغرب فيما اهتدى إليه من هذه القافية ، وجدَّد بها رسم سوقِ الجاهلية العافية ، وأبان بذلك عن فكرٍ دقيق ، وغاصٍ بعيدٍ عميق . »

وهكذا يجرى هذا المجرى فى بقية الباب .

ويعرض للمعانى التى تحتمل ضدّين أو معنيين متعارضين أحدهما ممدوح والآخر مذموم من مثل قول المتنبى متخلصاً ، فجعل الممدوح رسولاً إلى المحبوبة أو قوّاداً على قول المعترضين على المتنبى فى قوله :

علَّ الأمير يرى ذلّـى فيشـفع لى   إلى التى تركتنــى فى الهـوى مثــلا

قال : قالوا إن الشفاعة سؤال ورغبة ، فإن أجيب إلى مساعدة أبى الطيب والإرجع إلى القهر . ويحاول الدفاع عن المتنبى .

ويذكر من الشعر « مايدل على النظر فى العلوم الشرعيات » وهو الذى يستعين بمصطلح علوم الشريعة ومعانيها . كقول الشاعر :

وأمســت صَباهُ تبــثُّ الحديـث   وتسنُدُ عن بانــة الأجـــــرع

وتقسِــمُ أنى أهواكـــــمْ   وليــس اليمــين على المدَّعــــى

---

(١) الأعصاب ١٦٧

ويذكر ابياتاً جاءت بها الأنساب والتفاخر بها كقول ابن الرومى :

وكـم أبٍ قد علا بابنٍ ذرُا شـرفٍ   كمـا عـلا برسول الله عدنـانُ

وبدكر الأبيات « الإخباريات » التى تحوى شيئاً من الأخبار والتاريخ ، و« النحويات » التى تحوى مصطلح النحو أو كتبه أو كتب اللغة كقول الشاعر : [1]

لا تألـفُ الأحكـام حيفـاً عنـدهُ   فكأنها الأفعـالُ والتنويــنُ

وكذلك الحال فى الطبِّيات التى تحوى علوم الطب ومصطلحه [2] ، والهندسيات [3]، والفلسفيات .

ويحدثنا فى فصل من فصول هذه الرسالة حديثاً مطولاً عن التجنيس وأنواعه ، وافتنان الشعراء فى ضروب صنعته . وقد كان التجنيس فى عصره يستولى على اهتمام الكتاب والشعراء جميعاً .

قال فى ذيل الرسالة وعند عرض هذه الرسالة ـــ على الأفضل ـــ رضى عنه وأعاده إلى ديوان الانشاء [4] .

والرسالة الخامسة من هذا المجموع باسم « **منائح القرائح** »[5] ، وفيها يعرض لنماذج من القدرة على صوغ الكلام كالتغير فى قوافى الشعر والتلاعب بها على حروف المعجم[6] ، ومما تجود به القرائح ويبارى فيه الكاتب قرائح غيره ، كالتبارى فى وصف خيمة أمر الملك الأفضل بنصبها وجعل الكاتب لهذا عنوان فصله « خيمة الفرج » ومن أقوالهم فيها قول الشاعر ابن زيد الانصارى :

أخيمةٌ ما نصبتَ اليومَ أم فلـكٌ   ويقظةٌ ما نراهُ منـك أم حُلُـمُ
ما كان يخطرُ فى الأفكار قبلك أن   تسمو علوًا على أفق السَّما الخِيَـمُ

---

(١) الأفضليات ص ١٧٧ .
(٢) المصدر نفسه ١٧٨
(٣) المصدر نفسه ١٧٩ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٨٣
(٥) المصدر نفسه ص ١٨٧
(٦) الأفضليات ص ٢٢٦

حتىّ أتيت بها شمّاء شاهقةً ... في مارن الدهر من تيهٍ بها شممُ
إن الدليلَ على تكوينها فلكاً ... أن احتوتك وأنت الناسُ كلّهمُ
والطيرُ قد لزمت فيها مواضعها ... لما تحققن منها أنها حرمُ
تغدو القماريُّ والبازيُّ يحفظُها ... كأنما بينهم في جوها رحِمُ
كأنها جنةٌ فالقاطنون بها ... لا يستطيل على أعمارهم هرمُ
إن أنبتت أرضُها زهراً فلا عجبٌ ... وقد همت فوقها من كفّك الديمُ»

ومن طريف ماجاء في هذه الرسالة ما قاله عن تناوب الأعضاء ، وهو ما يسميه بعض النقاد المعاصرين تناوب الحواسّ أو تراسل الحواس . يقول ابن الصيرفي[1] .

« وهو — أى تناوبُ الأعضاء — مما يدلُّ على تجويد الشاعر وقوة تصرفهِ ، ومضاءِ خاطره ، وقلة توقفه . ومن أحسن ماجاء في ذلك قول أبي الطيب :

وجحفلٍ ستر العيون غبارُهُ ... فكأنما يُبصِرْن بالأذان

وقوله :

كأن الهام في الهيْجا عيونٌ ... وقد طبعت سيوفك من رقاد

وحكى ابن رشيق قال : جلست يوماً إلى أبي حديدة الشاعر وأنا سكران ، فسألني عن حال المكان الذى خرجتُ منه ، فوصفته ، وأفضى بي الحديث إلى ذكر غلام كان ساقياً ، فقلتُ في درج الكلام :

فشربتُها من راحتيه ... كأنها من وجنتيه

وقلت : أجِز ، فقال:

وشممتُ وردة خدّه ... نظراً . ونرجس مقلتيه

فقلتُ : أحسنتَ ، وجوّدت شبهك بالنظر تشبيه أبي الطيب بالسمع حيث يقول :

خلقت صفاتُك في العيون كلامه ... كالخطِّ يملأ مسمعيْ من أبصرا .

وهذا — وإن لم يكن من هذا الباب من كلّ جهة ، فهو من أولى ما يورد ... .

وكذلك قول مهيار :

خان بكاءُ العين أجفانه ... فناح ، والنوحُ بكاءُ الفم

(١) [illegible] ص ٢٢٠

لأن النوحَ والبكاءَ ليسا عضوين :

ولابن رشيق فى جواب كتاب :

أسمعتْ عينى ما اشتهتْ بلسانِ هاتِيك البراعةْ

وقول الشريف الرضى :

عزّنى أرى الديارَ بعينى فلعلّى أرى الديارَ بسمعِى .» [1]

والرسالة الخامسة « مناجاة شهر رمضان » ، والسادسة « عقائل الفضائل » وهى مجموعة من المنوعات بين الأخبار ، والرسائل ، والمقالات ، والطرائف، والوقفات النقدية شبيهة بما مضى فى رسائله . والرسالة الأخيرة رسالة : « التدلّى على التسلّى » والتى ذكرناها فى غير هذا المقام .

والكتاب بهذه الصورة مجموعة من الرسائل تحوى مجموعة من الأخبار والأشعار على طريقة كثير من كتب المجموعات والأمالى ، والمحاضرات ، يخرج فيها المؤلف من فن إلى فن وان تميزت هذه عن غيرها بتوجهها إلى الأفضل ، وقد أراد ببعضها استعطافه ، واطرافه بعرض طرائف الأدب ونوادر الأدباء .

ومع ذلك فقد حوت فوائد جمة من شعر شعراء العصر وكلمات كتابه ، وحوت كثيرا من آراء ابن الصيرفى النقدية ، ونصوصاً كثيرة من كتابته وشعره . وهى من هذه الناحية . تلقى ضوءاً على عصر الأفضل ومن جمعهم مجلسه من الأدباء .

---

(١) الأفضليات ص ٢٢٦ ــ ٢٢٩

زهـــر الآداب

لأبى اسحاق إبراهيم الحصرى القيروانى (ت ٤١٣ هـ)

وهو كتاب جامع لطرائف الأدب كذلك لمؤلف قيروانى عاش فى ظل الفاطميين وتحت إمرة ولاتهم من آل باديس الأمراء الصنهاجيين . وهذا الكتاب الذى سماه زهر الآداب كتاب جامع لأشياء كثيرة مختلطة دون ترتيب بعينه ، مثله فى هذا مثل كتاب الموشى للوشاء ، أو كتب الثعالبى وغيرهما من تلك الكتب التى عرفت فى القرنين الرابع والخامس .

ويكاد الكتاب لايضم جديداً عن أهل عصره ، فغالبية ما ينقله عن أدباء وشعراء سابقين فى القرن الرابع ، وما قبله من المشارقة فى معظمهم ، ويكثر النقل عن شعراء القرنين الثانى والثالث من أمثال بشاربن برد ، وأبى العتاهية وأبى نواس ، وأبى تمام والبحترى وابن الرومى والعتابى ، كما ينقل عن الجاحظ وابن قتيبة ، ويكثر من نقل مقامات الهمذانى ورسائل الخوارزمى ، والميكالى .

وقليلاً مايأتى باشعار من المغاربة والأندلسيين والمصريين المعاصرين . وأهم من نقل عنهم من هؤلاء ابن هانى ، وابن عمار ، والأمير تميم بن المعز ، وابن وكيع التنيسى .

وأما الكتاب المغاربة فلا يكادون يذكرون فى هذا المصنف . ويأتى ببعض الأقوال المنثورة مسبوقة بقوله : « ولبعض أهل العصر فى كذا » ولعله يقصد نفسه .

يقول : [1] « ومن ألفاظ أهل العصر فى إقامة رسم الهدية فى المهرجان والنيروز » — « فى مثل هذا اليوم الجديد، والأوان السعيد، سنة على مثلى أن يستحق ويلطف، وعلى مثل سيدنا — ولا مثل له — أن يقبل ويشرف . لليوم رسم إن أخل به الأولياء عد هفوة ، وإن منع منه الرؤساء حسب جفوة ، ومولاى يسوغنى الدالة على مااقترن بالرفعة ، ويكسبنى بذلك الشرف والرفعة . الهدايا تكون من الرؤساء مكاثرة بالفضل ، ومن النظراء مقارنة بالمثل ، ومن الأولياء ملاطفة بالقل . وقد سلكت فى هذا اليوم مع

---

(١) [illegible] ص ٤ تحقيق د . [illegible] ص ٤

مولاى سبيل أهل طبقته من الأرباب ، وقد حملت إلى مولاى هدية المتحفّل ، والنفسَ له ، والمالُ منه . » .

ولهم فى التهنئة بالنيروز والمهرجان وفصل الربيع : هذا اليوم غرةٌ فى أيام الدهر ، وتاج على مفرق العصر ـــ أسعد الله مولانا بنوروزه الوارد عليه ، وأعاده ماشاء وكيف شاء إليه . أسعد الله سيدنا بالنوروز الطالع عليه ببركاته وأيمن طائره فى جميع أيامه ومتصرفاته » .

لبـــابُ الآداب [١]

لأسامة بن منقذ (سنة ٤٨٨ ـــ ٥٨٤ هـ)

والكتاب كذلك من كتب الأدب الجامعة فى هذا العصر ، ولكنه جاء فى آخره ، فقد عاش صاحبه معظم سنوات القرن السادس ، وعاصر الخلفاء منذ عهد الآمر إلى آخر خلفاء الفاطميين ، ولقى صلاح الدين الأيوبى فى أول دولته ، وكان قد بلغ من العمر مبلغاً .

والمؤلف شاعرٌ ، أديب ، فارسٌ مغامر ، من شخصيات القرن السادس البارزين فى الحرب والسياسة والأدب .

جاء إلى مصر فى أيام الفاطميين والتقى بالوزير الأديب الشاعر السياسى الصالح ابن رزيك ، وكانت له معه أمورٌ وأمور .

وأما الكتاب الذى نعرض له ، فيبدو أنه فى آخر ماألف فى حياته وقد بلغ من عمره التسعين أو نيفّ ، أو لعله قبل ذلك . لكنه أملاه فيما يبدو ولم يحرره لضعف الشيخوخه غالباً .[٢] .

قسم الكتابة سبعة أبواب هى : باب الوصايا ، باب السياسة ، باب الكرم ، باب الشجاعة ، باب الآداب ، باب البلاغة ، باب ألفاظ من الحكمة فى معانٍ شتى .

ويبتدىء الباب بآيات من القرآن ، يتلوها أحاديث نبوية ، ثم أقوال حكمية يتمثل بها ،ونوادرُ وأشعار ونحو ذلك مما أشرنا إلى مثله فى كتب الأمالى والمحاضرات .

وفى هذا الكتاب أمورٌ كثيرة مذكورة فى كتب الأدب المعروفة ، وفيه أمورٌ أخرى وقعت للمؤلف أسامة بن منقذ ، أو حدثت فى زمانه . ومنها كثير من الأحداث بين العرب المسلمين والصليبيين الأفرنج فى الشام .

وفى الكتاب نتف متفرقة عن بعض وقائع حياة المؤلف ، كحديثه عن والده صاحب

---

(١) اعتمدنا على النسخة التى قام بتحقيقها الشيخ أحمد محمد شاكر وطبع مطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٥.

(٢). يذكر الشيخ أحمد شاكر أنه أتمه وهو ابن احدى وتسعين سنة . ص ٢٥ من المقدمة .

قلعة شيزر ، وماوقع بينه وبين الفاطميين الإسماعيلية من صراع سنة ٥٢٧ هـ[١] . ومن أن والده كان يستخدم شيخاً لتعليم ولده ومنهم أسامة ضروب العلم والأدب .

ونورد مثالاً من باب الآداب ، نعقبه ببعض رواياته مما شاهده وشارك فيه من أحداث عصره .

قال[٢]: باب الآداب : يشتمل هذا البابُ على خمسة عشر فصلاً هى : فصلٌ فى الأدب ، وفصلٌ فى كتمان السرّ ، وفصلٌ فى أداء الأمانة ، وفصلٌ فى التواضع وترك الكبر ، وفصلٌ فى حسن الجوار ، وفصلٌ فى حفظ اللسان ، وفصلٌ فى القناعة ، وفصل فى الصبر ، وفصلٌ فى الحياء ، وفصلٌ فى ترك الرياء ، وفصل فى الإصلاح بين الناس ، وفصل فى التعفف عن السؤال ، وفصلٌ فى التحذير من الظلم وفصل فى الإحسان وفعل الخير ، وفصل فى مداراة الناسِ والصبرِ على الأذى .

فصـــــل فى الأدب

قال الله عز وجل فى سورة البقرة : ﴿ وعلَّم آدم الأسماءَ كلَّها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ .

فمن لا شريعة له لا إيمان له ، ولا توحيد . والشريعةُ موجِبةٌ للأدب ، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد .

وقال ابن عطاء رحمه الله : الأدبُ الوقوفُ مع المستحسنات ، فقيل : وما معناه ؟ قال : أن تعامل الله تعالى بالأدب سرًّا وإعلانا ، فإذا كنت كذلك كنت أديبا ، وإن كنت أعجميا. وعن الحريرىّ رحمه الله قال : منذ عشرين سنةً ما مددتُ رجلى وقت جلوسى للخلوة ، فإنَّ حسن الأدب مع الله تعالى أولى .

وروى عن ابن سيرين رحمه الله أنه سئِلَ : أىُّ الآدابِ أقربُ إلى الله ؟ . فقال : معرفةُ ربوبيته ، وعملٌ بطاعته ، والحمد لله على السرَّاء ، والصبرُ على الضرَّاء .

وقال رجلٌ من قيس لرجلٍ من قريش : اطلبْ الأدب ، فإنه زيادةٌ فى العقل ، ودليلٌ

(١) لباب الآداب ص ١٩٠ .
(٢) لباب الآداب ص ٢٢٧ .

على المروءة ، وصلة فى المجلس ، ثم قال :

تعلَّمْ فليسَ المرءُ يُخْلَقُ عالِمـــاً	وليس أخو علـم كمن هو جاهـــلُ
فإن كبيـر القوم لا علمَ عنـــدهُ	صغيـرٌ إذا ضُمَّت عليه المحافـلُ
ولا ترضَ من عَيشٍ بدونٍ ولا يكنْ	نصيبُك إرثٌ قدّمته الأوائـــلُ

وكان يقال : من حسن الأدب أن لا تنازع من فوقك . ولا تقولُ مالا تعلم ، ولا تتعاطى مالا تنالُ ، ولا يخالفُ لسانك ما فى قلبك ، ولا قولُك فعلَك ، ولا تدعْ الأمرَ إذا أقبل ، وتطلبهُ إذا أدبر

....

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر الناسُ فى الأدب ، ونحن نقول : هو معرفة النفس . وقال الجنيد رحمه الله : إن صحت المحبةُ سقطت شروط الأدب .

وأنشـــدوا :

فىَّ انقباضٌ وحشمةٌ فـــإذا	لقيـتُ أهـل الوفاء والكـــرم
أرســلتُ نفسى علـى ســجيتها	وقلـتُ ما قلـتُ غير محتشــم

كتمـــانُ الســـرّ : (١)

قال الله عز وجلَّ فى سورة يوسف : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيتُ أحد عشر كوكبا والشمسَ والقمرَ ، رأيتهمْ لى ساجدين . قال : يا بنىَّ لا تقصصْ رؤياكَ على أخوتك فيكيدوا لك كيدا ، إن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين ﴾ .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « استعينوا على الحاجات بالكتمان ، فإن كلَّ ذى نعمة محسود .» .

---

(١) لباب الآداب ص ٢٤٠

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه أنه قال : « سرُّكَ أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره . »

وقال بعض الأدباء : من كتمَ سرَّه كان الخيار إليه ، ومن أفشى سرَّه كان الخيارُ عليه .

* * * *

وقال الشاعر :

كن من صديقك حاذراً فلربما ... خان الصديقُ فصارَ غير صديق
واحذرْ صديقك - لا عدوَّك - إنما ... حركاتُ سرِّك عند كلِّ صديقِ

وقال آخر :

إذا أنت لم تحفظْ لنفسك سرَّها ... فِسرُّكَ عند الناس أفشى وأضيعُ

وقال آخر :

لا تفشِ سرّك ماستطعت إلى امرئٍ ... يُفشى إليك سرائراً يُستودَعُ
فكما تراهُ بسِرِّ غيرك صانعاً ... فكذا بسرِّك لا محالة صانِعُ

* * * *

فصل في أداء الأمانة : [١] .

قال الله تعالى : ﴿ يٰبنى إسرائيل اذكروا نعمتِيَ التي أنعمتُ عليكم ، وأوفوا بعهدى

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٤

أوفِ بعهدكم ، وإياىَ فارهبون ﴾ .

....

ومن سورة آل عمران : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدِّه إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادُمتَ عليه قائِما . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل . ويقولونَ على اللهِ الكذبَ وهم يعلَمون . بلى من أوفى بعهده واتقى فإنَّ الله يحبُّ المتقين . إنَّ الذين يشترون بِعَهْدِالله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاقَ لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم . ﴾ .

ومن حديث رسول الله عن أبى هريرة قال ﷺ : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخنْ من خانك . » .

وقال الحكيم : أربعٌ يُسَوِّدْنَ العبْدَ : الأدبُ ، والصدقُ ، وأداء الأمانة والمروءة .

وقال الآخر : من عرف بالوفاءِ حافظ عليه أهل المودة ، وتاقت أنفس الكرام إلى نصرته .

قال الشاعر :

وإذا امرءٌ أدّى إليك أمانةً   يحتالُ عندك أنّه أخفاها
فاحفظ أمانته ولا تعلّمْ بها   فتكونَ أول واحدٍ أنشاها

فصلٌ فى فضل التواضع : [1]

قال الله عز وجل : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنتَ فظاً غليظ القلبِ لانفضُّوا من حولك . فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمتَ فتوكل

(١) لباب الآداب ص ٢٥١ .

على الله . إن الله يحبُّ المتوكلين . ﴾ .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله عز وجل أوحى إلىَّ أن تواضعُوا حتى لا يبغى أحـدٌ على أحد ، ولا يفخرُ أحدٌ على أحد ، وكونوا عباد الله إخوانـاً . »

وقالت الحكماء : التواضعُ أحد مصايد الشرف ، والشرف مع التواضع ، والكِبرُ يضَعُ ، وهو حِمىً من المبغضة ، وحرزٌ من المقت .

وقال الشـاعر :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً فكم تحتها قومٌ همُ منك أرفـــعُ
فإن كـنت فى حرزٍ وعـزٍّ ومنعـــةٍ فكم طاح من قومٍ همُ منك أمنعُ

وهكذا يمضى أسامة فى الحديث عن بقية الأبواب
ومما رواه عن أحداث عصره ، وما جرى بين أمراء الصليبيين ومقدميهم ، وبعض أمراء العرب والمسلمين فى أحداث الحملة الصليبية الأولى بعد احتلالهم لأنطاكية والرها وغيرهما من بلاد المسلمين سنة ٤٩١ هـ قال :

« إن الأفرنج ـــ خذلهم الله ـــ لما خرجوا فى سنة تسعين وأربعمائة ، وفتحوا أنطاكية ، وقهروا أهل الشام ، تداخلهم الطمع ، وحدثتهم نفوسهم بملك بغداد وبلاد الشرق ، فحشدوا وجمعوا ، وساروا يريدون البلاد ، وصاحب الموصل فى ذلك الوقت « حكرمش » فجمع أمراء التركمان الأرتقية ، ومن قدر عليه ، ولقيهم على الخابور فكسرهم ، وأسر من يقدُمهم ، الملك بغدوين والبرنس جوسلين وسيّرهم إلى قلعة جَعْبَر إلى عند الأمير شهاب الدين مالك بن سالم،وأودعهم عنده وكان من بقىَ من الإفرنج إلى بلادهم ، ومقدمهم ميمون صاحبُ أنطاكية ، فركب فى البحر وسارَ إلى بلاده يستنجد بالإفرنج ويحشد ويرجع ، فمات قبل ذلك . ومات حكرمش صاحب الموصل ، وأقطع السلطان الموصل « جاولى سقاوى » ، فعزم على الغزاةِ وتوجه إلى الشام ، فوصل قلعة جعبر ، وطلب أسارى الإفرنج الذين عند صاحبها ، فقال : هم بحكمك . قال : اقطع عليهم مالاً يشترون به أنفسهم.، فتحدث معهم شهابُ الدين وقرر عليهم مائة ألف دينار ، وعرَّف الخاولى بذلك . فقال : انفذ لى جو سلين ، فلما حضر عنده قال : أقطعتمْ على أنفسكم مائة ألف دينار ؟ . قال : نعم . قال : تشتهى

اهب لك عشرة آلاف دينار ؟ . قال : ماينكر على مثلك أن يوهب عشرة آلاف دينار ، قال : أتشتهى أن أوهب لك عشرين ألفاً دينار ؟ .
قال : مايصلح للملكِ مثلك أن يتلاهى بمثلى . قال : والله ماتلاهيت بك ، ولو أردت أن آخذ منك المال ما أبصرت ولا تحدثتُ معك . وأنا أطلقكم وأخلّى لكم المال كله على أن لى حاجة تقضوها لى . قال : وماهى . قال : صاحب أنطاكية وصاحب حلب أعدائى . أريدكم تُعينُونى على قتالهم . وكان صاحب أنطاكية دنكرى . وصاحب حلب : الملك رضوان . فقال جوسلين : نمضى ونجتمع — فارسُنَا وراجلُنا ، ونصلك تقاتلُ معك كلَّ من قاتلك . فأطلقهم ، فمضوا ، وحشدوا وجمعوا ، ووصلوا إلى خدمته وسار هو وهم إلى لقاء عسكر حلب وعسكر أنطاكية حتى التقوا . فحدثنى من حضر حربهم قال : كان وقع السيوف بينهم — يعنى الإفرنج ، كوقع الفؤوس فى الحطب . فكسرهم صاحب أنطاكية . فأما المسلمون فطار من سلمَ منهم ، وأما الإفرنج فأسَر من فرسانهم جماعة كبيرة ، فجاءوا إلى عند دنكرى صاحب أنطاكية ثانى يوم أسرهم ، وقالوا له : أىُّ شيءٍ تريد تعمل بنا ؟. قال : أحملكم إلى أنطاكية . أحبسكم . قالوا : والله ما فينا من يتبعك ولا يجيء معك . نحنُ عُراةٌ ، ما معنا ثيابٌ ولا نفقة ولا فُرشٌ ننام فيها ، ولا معنا غلمانٌ يخدمونا . قال : وأى شيءٍ تعملون ؟. قالوا : تخلينا نمضى إلى بيوتنا نعملُ شغلنا ونجيء إلى الحبس . قال : امضوا . فمضوا وأحضروا غلمانهم ونفقاتِهم وفُرشَهم ووصلوا عنده إلى أنطاكية ، فحبسهم إلى حين تسهُّل خلاصهم .» [1] .

وذكر ماحدث بينهم بعض الاسماعيلية الذين حاصروا قلعة شيزر مقر آبائه وأجداد للاستيلاء عليها . قال[2] :

« كان بيننا وبين الاسماعيلية قتالٌ فى قلعة شيزر فى سنة سبع وعشرين وخمسَمائة لعملة عملوها علينا ، ملكوا بها حصن شيزر وجماعتنا فى ظاهر البلد ركابٌ ، والشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن المنيرّة رحمه الله فى دار والدى ، يعلّم إخوتى رحمهم الله ، فلما وقع الصّياح فى الحصن تراكضنا وصعدنا فى الحبال ، والشيخ أبو عبد الله قد مضى إلى داره إلى الجامع ، وكانت داره فى الجامع فوصل عمى فخر الدين أبو

(١) لباب الآداب ص ١٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٠ .

كامل شافع بن على رحمه الله إلى تحت الجامع ، والشيخ أبو عبد الله مشرفٌ عليه فقال له صاحبٌ يعمّى : ياشيخ أبا عبد الله دلّى لنا حبلاً . قال : ماعندى حبلٌ . قال : فَدَلِّ عمامتك . فأبطأ عليه ، فتجاوزه وطلع من مكان آخر . فقيل للشيخ عبد الله : كنت عريان وعلى رأسك عمامة ؟! . قال : لا ، ماكان علىَّ عمامة ، ثم أفكر فقال : بلى والله ، قد قال لى وهب بن التنوخى وهو مع الأمير فخر الدين أبى كامل شافع : دلّ لنا حبلاً . قلت : ماعندى حبل . فقال : دلّ لنا عمامتك ولو لم يكن قد رأى على عمامة ماقال ذلك ! . فكان رحمه الله عريان وعليه عمامة : ولا يدرى بالحال التى هو عليها لرعبه وضعف قلبه . » .

وحكى عن رجل من عسقلان يقال له ابن الجُّلنار « كان مشغوفاً بالصيد بالبواشق ، وكان مشهوراً بالقوة ، فركب وخرج من عسقلان وعلى يده باشَقٌ يتصيَّدُ به فى شجر الجميّز ، فخرج عليه فارسان من العرب ، وقالا : انزل ، فنزل عن فرسه وقال لهما : لكما فى هذا الطير حاجة ؟. قالا : لا فشدّ الباشَق على غصن شجرة ، ثم اختلفا على مهاميز حلى فى رجليه ، فقال لهما : أنتما اثنان يأخذ كل واحدٍ منكما فردة مهمازٍ ومدَّ رجليه لهما ، فجلسا يقلعان المهاميز من رجليه ، فمسك رقبة ذا ورقبة ذا ، وضرب رأسيهما بعضهما ببعض ، ولا يقدران على الخلاص من يده حتى قتلهما ، وأخذ خيلهما وسلاحهما وباشقهُ ودخل المدينة .

وقد كان عندنا بشيزر رجلٌ يقالُ له محمد بنُ البُشيبش كان يخدم جدّى سديد الملك أبو الحسن على بن نصر بن منقذ الكنانى رحمه الله وكيلاً على صنيعةٍ ببلد كفرطاب يقال لها « أرجة » أدركته أنا وهو شيخٌ كبير ، وكان أميراً شجاعاً . قال : جئتُ يوماً فى الحرّ إلى رَكيةِ أرجة لأشرب ، فرأيت رجلاً عليه معرقة امرأة ، وعلى كتفه كارةُ ثياب ، فتداخلنى الطمع فيه ، فقلت : حُطَّ الكارة . فأظهر لى خوفاً وقال : هايد مولاى ، وحطها عن كتفه ، فتقدمت إليها لآخذها ، فمدّ يده فقبض على ركبتى ورفعنى من الأرض ، ثم ضرب بى الأرض ، وبركَ علىَّ ، وأخرج من وسطه سكينا كشعلةِ النار ليقتلني ، فقلت : الصنيعة !، فنهض عنّى وخلّانى . وقال : لا تحتقر الرجال . ثم فتح الكارة فأخرج منها قميصاً دفعه إلىَّ ، فقلتُ له : بالله من أين أقبلت ؟ . قال : من المعرة . فتحت البارحة دكان الصبغ ، فأخذتُ كلَّ ماكان فيها . ثم

أخذ كارته ومشى .» .[1] .

وقال [2]: « كان عندنا بشيزرَ مخنثٌ يحضرُ الأعراسَ والجنائز اسمه « سبيكة » إذا وقع القتال لبس درعاً ، وأخذ سيفه وترسه وقال : بطَلَ التخنيث !! وخرج يضربُ بالسيف .» .

وقال [3]: « وشاهدت رجلاً من أجنادنا من الأكرادُ ينعت بزهرِ الدولة بختيار القبرصى سمى بذلك لصغر خلقته . وكان رحمه الله من خيار المسلمين فى الشجاعة والدِّين . وقد ظهر عندنا أسدٌ فحمل عليه ، فاستقبله الأسد ، فحاص [4] به الحصان فرماهُ ، فجاءهَ الأسدُ ، فرفع رجلَهُ لقَّمها الأسد ، وبادرناه فقتلنا الأسد . فقلنا له : يازهر الدولة ، مامعنى رفع رجلك للأسد ؟ قال : رأيتها أقْسَى مافىّ فيها الأَبران والساق موزا والخفّ ، فقلت : إن أمسك أضلاعى كسرها ؛ وإن أمسك رأسى فجشَبه ، يشتغل برجلى إلى أن يفرّج الله ! .
فعجبنا من حضور فكره فى ذلك الوقت . » .

هذه جملةٌ مما شاهده وسمعه من أحداث عصره رواها بلسانه ، وجاءت فى طيات الكتاب. وبين أبوابه التى نقلها عن جملة من الكتب الأدبية والدواوين الشعرية وقسمها إلى تلك الأبواب السبعة .

وبعض هذه الأخبار ترد كذلك فى كتابه الاعتبار .

والملاحظ فى لباب الآداب كثرة مايورده عن الحكماء من غير العرب ، وبخاصة حكماء اليونان كأرسطاليس وغيره ، وبعض شعرائهم القدامى كذلك أمثال أوميروس أو هوميروس ويختم بها دائماً أبوابه بعد أن يبدأها بالقرآن والحديث .

(١) لباب الآداب ص ١٩٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٩٩ .
(٤) حاص : حمح .

الديارات للشابشتي : (١)

ومن هذه الكتب الجامعة فى الأدب إلى الكتب التى تدور حول موضوع بعينه ، وأول ماعرفنا ووصلنا من هذا العصر « الديارات » للشابشتي . وكان معاصراً للخليفة العزيز بالله ونديماً له . وألف كتابه هذا فى الدّيارات وماجاء فيها من الشعر ، ومن أمَّها من الشعراء وعرف بديارات مصر والعراق وبعض البلاد الأخرى التى كثرت فيها ديارات النصارى وبيعهم .

ومعروف أن الديارات كانت منتجعاً لبعض أصحاب الملاهى والخلعاء فى الدولة الاسلامية يذهبون إليه للنزهة وشرب الخمر وقضاء وقت فى القصف واللهو .

وعرفت أديرة الحيرة بالعراق بكثرتها ، وكان خلعاء البصرة والكوفة يؤمونها فى أعياد النصارى كأعياد الشعانين وغيرها لتقدم إليهم الخمور ، ويعبثون مع من بها من الرهبان والشماسين .

وكانت جماعة المجاّن من شعراء البصرة والكوفة فى أخريات القرن الثانى ، وأول القرن الثالث أمثال أبى العتاهية ، وابن منادر ، وأبى نواس ، ووالبة بن الحباب يؤمون تلك الأديرة. وأبيات أبى نواس المشهورة فى ديرحنة تثبت ذلك ، يقول فيها :

يادير حنة من ذات الأكيـــــراح ... من يصح عنك فإنى لست بالصاحى
رأيت فيك ظباء لا قـــــرون لها ... يلعبن منا بألبـــــــابٍ وأرواح

وكان بمصر ديارات على ماذكرنا فى منارة الفسطاط ، ومن أشهرها دير القصير ، وكان مقصداً للشعراء والخلعاء ، ويذهب إليه أحيانا بعض خلفاء الفاطميين للنزهة ، وجاء ذكره فى كثير من أشعار العصر . وقد أغرم به من شعراء مصر آنذاك تميم بن المعز ، والشريف العقيلي وغيرهما .

والكتاب فى جملته يجمع كثيرا من الشعر فى وصف الأديرة ، ومايتصل بها من مجالس الشراب ، ومايحيط بها من منازه وحدائق ومناظر طبيعية جميلة .

وهو كتاب أدبى ممتعٌ ، وموضوعه فريد ، يجمع كثيراً من النصوص والأخبار التى

(١) طبع الكتاب بمصر .

يعز وجودها فى غيره من المصادر .

قطب السرور فى أوصاف الأنبذة والخمور للرقيق القيروانى[1] .

وصاحب الكتاب إبراهيم بن القاسم الرقيق القيروانى المعروف بالنديم من أدباء العصر الفاطمى المشهورين بالقيروان ، وقد سفر إلى مصر مرتين أو ثلاثاً فى عصر العزيز والحاكم . وكان كاتبا شاعراً مؤرخاً على مانفصله بعد .

وهذا الكتاب كما هو واضح من عنوانه يدور حول موضوع الخمر وما يتصل بها . قال صاحبه فى مقدمته : « وأودعته من أمثال الحكماء ، ومنثور البلغاء ، ومنظوم الشعراء ، وأخبار الأدباء والظرفاء مالا يستغنى عنه شريف ، ولا يجوز أن يخلوَ منه ظريف . وليس فى الأمور التى وقع فيها الحظر والاطلاق شيء اختلف فيه الناس اختلافهم فى الأشربة ، وما يحل منها ومايحرَّم على قدم الأيام ، ومع قرب العهد بالرسول عليه السلام ، وخيار الصحابة ، وكثرة العلماء الذين يؤخذ عنهم ، ويُقتدى بهم .. وإن شيئاً وقع فيه الاختلاف فى ذلك العصر بين أولئك الأئمة لحرىٌّ أن يشكل على من بعدهم ، وتختلف فيه آراؤهم ، ويكثر تنازعهم .

ثم يقول : «وجمعت لك فيها رأى العرب وشعرائها وشيئاً من علم الفلاسفة وحكمائها » وموضوع الخمور والأشربة عامة قد شغل جماعة المسلمين ، والفقهاء كثيراً ، وكتب الأديب الفقية ابن قتيبه كتابه المعروف « الأشربة » فى هذا الموضوع ومناقشة قضية الشراب من الناحية الفقهية من حيث الحلال والحرام .

ولم يشغل المجتمع الاسلامى أمرٌ من الحلال والحرام كما شغله أمر الخمور وأنواعها . ورغم أن جماعة الفقهاء يحرمون الخمر بأنواعها إلا أن ذلك لم يعصم كثيراً من المسلمين عنها ، وأسرف بعض العلماء فى تعاطيها ، وكثرت الأخبار حولها ، من أصحاب الأدب والشعراء ، وكثر القول فى أشكالها وأنواعها ومجالسها وأدواتها وما يصحبها من لذات الطعام والغناء والموسيقى .

ولعل موضوع الخمر من أكثر موضوعات الشعر لدى كثير من شعراء العباسيين ،

---

(١) طبع المختار منه اعتماداً على نور الدين المسعودى بتحقيق عبد الحفيظ منصور . وطبع مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله بتونس سنة ١٩٧٦ م . والكتاب برمته طبع قبل ذلك بدمشق

وغيرهم من الدول والامارات الاسلامية فى المشرق والمغرب .

فليس غريباً إذن أن يعرض له فقيه جليل كابن قتيبة ، وأدباء وعلماء أمثال ابن الرقيق فى هذا العصر ، ولعل هذا الكتاب نفسه متمم لكتاب الأديرة للشابشتى الذى كان معاصراً كذلك للرقيق النديم .

يقول المؤلف فى « ذكر اسماء الخمر ونعوتها واشتقاقاتها : »

الرَّاحُ : اشتق لها اسم من الرُّوح فسمّوها راحاً ، وأصل الرَّاح والرُّوح والرَّوْح والرِّيح واحد ، إلا أنهم خالفوا بينها لتدلَّ كل واحدة ، على معناها لتقارُب أسمائها ، فالرُّوح روح الأجسام ، والرَّوحُ طيب النسيم ، لأنه ريح يخرج عن الروح ، والريح هى الريح الهابَّةُ ، والرَّاحُ على فَعْل ، وأصلهُ روَح ، فقلبت واوها ألفا لمَّا انفتحت وانفتح ماقبلها .

وقال أبو عمرو : سمّيت راحاً لأن صاحبها يرتاح إذا شربها ، وقد أخذته أريحيةٌ إذا خفَّ إلى السَّماع وهشَّ له . وقيل لأن الشاربَ يستطيبُ رِيحها . وقيل : للاستراحةِ من الهموم والأحزان .

راحٌ تُريحُ من الأحزانِ والفِكَرِ

وقد جمع ابن الرومى صفاتٍ منها . قال :

والله لا أدرى لأيةِ علةٍ يدعونَ هذى الرَّاح باسم الرَّاح
ألريحها أم رَوْحِها تحت الحشا أم لارتياح نديمها المُلْتاح

ثم اشتقوا الريحان من ذلك لرائحته ، وربما سمُّوا الخمر روحاً .

قال الشاعر :

نفسي الفداء لظبي باتَ يُسعِدُنِى ليلاً على قبض أرواح الأباريقِ

وقال إبراهيم النظَّام :

مازِلتُ آخذُ رُوح الزقّ فى لطُفٍ واستبيحُ دماً من غير مجروح
حتى انثنيتُ ولى روحانِ فى جسدٍ والزقُّ مطَّرحٌ جسمٌ بلا روح

وقالوا : الراحُ أفضل أسمائها لمخالطتها الروح وامتزاجها بها ، وهو الذى أرادَ أبو نواس

بقوله :

اثن على الخمر بآلائهـا وسـمّها أحسن أسمائها

والخمر : وسميت الخمر لمخالطتها العقل . وكلُّ ما خالط شيئاً فقد خامَره .

وجاء فى الحديث : « الخمر كلُّ ما خمرَ العقْلَ . » وقيل سُمّيتْ خمراً لأنَّها خُمِّرتْ فى إنائها أى غُطّيتْ . وكلُّ غطّيته فقد خمَّرته . ومنه سُمّى الخِمار لأنهُ يغطّى الرأسَ . ومنه سُمّى ذو الخمار فرس الزبير بن العوام لأنه طويل الناصية . والخمار مشتق منه لأنه يغطّى العقل . وهو ـــ أى الخمر ـــ اسم جامعٌ لها ، وأكثر ماسواهُ صفاتٌ لها . وقيل لتغطيتها الدّماغ . ومن ذلك قولُ النبى ﷺ : « خمّرُوا آنيتى » . أى غطّوها .

وسمُّوهَا دماً لأنَّها تُولِّد الدمَ وتزيد فيه . وقال مسلم بنْ الوليد :

خلَطْنـا دماً من كرمةٍ بدمائنـا فأظهرَ فى الألوان مِّنا الدمَ الـدَّمُ

وقال شبرمةُ بنُ الطّفيل :

ويوم كظـلِّ الرُّمح قصَّر طولَـهُ دمُ الزقّ عنّا واصطفاقُ المزاهـر

والنفس تتصل بالدم ، فقالوا : نفسَتْ المرأةُ إذا حاضتْ ، وهى نفسَاءُ إذا وَلدتْ لسيلانِ الدمِ منها . وروى عن عبيد راوية الأعشى قال : قلتُ للأعشى أخبرنى عن قولك :

ومدامـةٍ مما تعتّـقُ بابـلٌ كدم الذّبيـح سَلبْتُها جريالَهـا

قال : شربتُها حمراءَ وقلبتها بيضاءَ ، يريدَ أن حمرتها صارتْ فيه دماً .

الشَّمُولُ : وسميت الشَّمُولُ ، لأنها تجمع الشملَ ، وقالوا لأنها تشمل على العقول . وقالوا : لأنها تشملهم رِيُحها أى تعمُّهم . وقيل : لأن لها عصفةً كعصفةِ الشمالِ .

وسميت القهوة : لأن المدمنَ عليها تمنعه الطعام ، فيقال أقهى الرُّجل إذا لم يشتهِ الطعام . وتُقْهِى الفؤادَ أى تستُره .

وسميت : عُقاراً ، لأنها تعقِرُ مالَ شاربِها ، وقيلَ لأنها تعقِرُ العقلَ . وقالوا عاقرت الدنَّ أىْ لزمتُهُ . وقالوا : عاقرَ فلانٌ الشرابَ أى لزمه .

وسميتْ : القرقَفُ : من القرقفةِ وهى الارتعاشُ . وهذا يصيبُ من أدْمَنها .

وقال الشاعر :

أزعشتِى الخمرُ من إدمانِها ... ولقد أزعِشْتُ من غيرِ كِبَره

وقال أبو عمرو : القرقَف مأخوذٌ من القرقفةِ ، وهى جِلْسةُ المقرور . يريدُ أن صاحبها يعتريه لشدَّتها اضطرابٌ . قال الشاعر :

قرقَفٌ تتركُ العليلَ مريضاً ... وتعيرُ الصحيحَ فترَ العليلِ

لأن صاحبها إذا شربَها أخذتْهُ قرقفةٌ ، وقفقفةٌ مثله ، وهَىَ الرِّعْدَةُ والبردُ .

والسُّلافُ : ماسالَ منها قبل أن تعصر من غير عصرٍ باليد ، ولا دوْسٍ بالرِّجل . وسلافُ كلِّ شيءٍ أوَّلهُ . ومنه قِيلَ : سلَفُ القوم أى المتقدمُ منهم ، وسالِفَةُ العَيْنِ مقدّمتُها .

والخُرطُومُ : أول ماينزلُ منها . وقيل سُمِّيتْ الخرطومُ لأنَّ صاحبها إذا شمَّها قطَّبَ وصرفَ وجهه ، كأنَّما أخذَتْ بخُرطومه . وقال غيره : الخرطوم أول ما يسيلُ منها عند العَصيرِ . وأنشدَ محمد بن حبيب فى القول الأول :

ولقد شربت الخمرَ حتَّى خِلتُها ... أفْعَى تكشّرُ عن طريقِ المِنخرِ

والمُدامُ : لأنَّها أديمتْ فى دِّنها حتى سكنتْ حركتُها ، وعتِّقتْ . وقيل لأن أصحابها يديمونها .

قال البحترى :

وليستْ مُداماً إذا أنتَ لمْ ... تواصِلْ مع الشيْبِ إدمَانَها

وقال آخر :

دامتْ وسُمِّيَتْ المَدامَ تكرُّماً ... فهىَ المدامَةُ فى دوامِ العَالَمِ

الرَّحيق : الصافى من كل شيءٍ . وقال أبو عبيدةَ : الرحيقُ صفو الخمرِ التى ليس فيها غشٌّ .

السلسبيل : والسلسالُ والسلسَلُ السهلَ النزولِ فى الحَلْقِ مشتقٌ من السَلَسِ . وجاءَ فى الكتاب العزيز ﴿ كأساً كان مزاجهُا سلسبيلا ﴾ . وقال الشاعر :

إن تدعها ترجُ الخيرى ... من رحيق السلسبيل

وقال البحتري :

سقاني القهوة السلسل شبيه الشادن الأكحل

الكلفاء : لكلف شرابها ، ويقال كلفاء من صفة الدن . ويقال : كلفاء في لونها ، وهي الحمرة تشتد حتى تضرب إلى السواد .

والكميت : وصفت بذلك لشدة حمرتها .

والصهباء : الحمراء إلى البياض ، وهي التي اتخذت من العنب الأبيض ، وهي التي تشبه الأصهب الشعر . وكذلك الكميت . وقال أبو عبيدة : كل ماكان منها يضرب إلى البياض فهي صهباء .

والطلاء : الذي طبخ حتى ذهب ثلثاه ، شبية بطلاء الإبل .

والسبيئة : الخمر بعينها ، يقال : سبأتها أي ابتعتها .

وسميت الجريال : لحمرتها . والجريال صبغ أحمر ، وهو مايسيل من راووق الصباغ من العصفر . قال الشاعر :

وجريال كأن اللون منها إذا أبصرته خد معصفر

ولذلك قالوا : شراب ماتع ، وهذا من حروف الإتباع . يقال أحمر ماتع .

وسميت : ماذية : لسهولة مدخلها في الحلق . ومنه عسل ماذي ، وهو الأبيض الحسن اللون البراق . ودرع ماذية أي سهلة ، لينة ، حسنة البريق . قال الشاعر :

ماذية في الكأس ذات صقال حليفة دن أبرزت ببزال

وقال الأصمعي : الماذي الخالص من كل شيء .

وسميت المزة : ولم يريدوا الحموضة ، وقد قيل : مزة بفتح الميم من قولهم : هذا أمز من هذا . أي أفضل وأرفع ، وله مزية . وإنما يريدون لذعها اللسان . قال الشاعر :

فاسقنيها مزة صافية فهي أشفى في فؤادي وأسر

والعرب يسمونها الدرياقة . والدرياق : نافع من السم ، فجعلوها درياق الهموم والفكر . كأنها عندهم شفاء . قال ابن مقبل :

سقتني بصهباء دِرْيَاقة متى ماتلينُ عظامِى تلِنْ

وقال ابن الرومى :

لطُفت فكادتْ أن تكونَ لَطَافةً في الجوّ مثل شعاعِها ونسيمها
ريحانةٌ ، لنديمها ، درياقةٌ لسليمها : تشفى سَقامَ سَقِيمِها[1]

ونكتفى مما ذكر من أسماء الخمر بهذه الأسماء المشهورة منها ، ويعرض بعد انتهاء ذكره لاسمائها لبعض عاداتهم فى شربها فيقول : « فصلٌ ... قال الأصمعيُّ : صفَّقَ الخمرَ إذا حوَّلها من إناء إلى إناء . وقال غيره : صفَّقَها مزجَها . قال حسانُ بن ثابت :

يسقون من برد البريصِ عليهمْ بردَى يصفّقُ بالرحيقِ السلْسَلِ

وشعْشعَها إذا أرقّ مزجَها حتى يكون لها شعاعٌ كشعاعِ الشمسِ حتى ينخضبَ الكفُّ من تشعشُعِها . قال الشاعر :

يطوفُ علينا بها أحورٌ يَداهُ من الكأسِ مخضوبتانْ

ورجلٌ شعشاعٌ : خفيفٌ . والشعشاعُ : المتفرق .

ويُقالُ مزج شرابه وقطّبه . وأصلُ القطب الجمعُ بين الماءِ والشراب . ومنه قيلَ : جاء الناسُ قاطبة ، أى جميعاً ، وقطّبَ الرجلُ أى جمع مابين عينيه (أوحاجبيه)

قال الشاعر :

إذا قُطّبتْ بالماءِ خِلْتَ بكأسِهَا أكارعَ نمْلٍ أو عُيُون جراد

وإذا شربَها بغير ماءٍ فقد صرفَها ، وهى مصروفةٌ .
ويقالُ أمهى شرابهَ إذا أرقَّهُ ، وحميَّا الكأسِ سورتُها .
وقال الفرَّاءُ شدَّتها ، والقُمحانُ وهو مثل الذريرة يعلو الكأسَ . قال الشاعر :

عَلاَ الرأسَ مِنْها إذا أبْرِزَتْ جُمَانٌ من القُمَّحانِ العِبقْ

وكأسٌ أنفٌ : إذا لم يشربْ منها أحد . وكذلك روضةٌ أُنُف إذا لم يرْعَها أحدٌ وأنفٌ مستأنَفٌ .

---

١ ـــ المختار من محب السرور ص ٢٨ ـــ ٣٤ .

أما أوانيهـا فيقالُ : كاسٌ أنفٌ إذا لم تُشربْ قبلَ ذلك . ولا تُسمَّى كأساً حتى يكون فيها شراب ، وإلا فهى قدحٌ ، وزجاجةٌ . والرَّفْدُ القدَحُ الكبيرُ ، والغُمرُ القدحُ الصغيرُ . والقَعْبُ أكبرُ منه قليلاً ، والكوبُ الكبيرُ المُقَعَّرُ . والعَسُّ الكبير الضَّخْمُ والتبن أكبرُ منه . والصَّحنُ القصير الجدارِ العريض ، وهو الجام . والناطِلُ المكيالُ الصغير الذى يرى فيه الخَمارُ شرابهَ ، وجمعه نياطلُ . قالَ أبو ذُؤيب :

فلو أنَّ ما عندى بجـدَّةَ عندهـا من الخمرِ لم تُبْلـلْ لهاتـي بناطِـلِ

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا هُبـيّ بصحنـكِ فاصبحينا ولا تُبْقِـي خمورَ الأندرينـا

وأما ماقيل من أوقات الشراب . فمن ذلك الصبوح . وهو الشربُ عند الصبح بعد طلوع الفجر . والقيلُ : شربُ نصف النهار . والغبوقُ : شربُ العَشيّ وشربُ المغرب إلى العِشاء يقال له التحيَّة .

والجاشريَّةُ : شربُ آخر الليل وقبل الصُّبْحِ . وقال رجلٌ من الأزد :

إذا ماشَربْتُ الجاشريَّةَ لم أخف أميراً ، وإنْ كان الأميـرُ من الأزْدِ

وقالَ رجلٌ من قريش :

أشربُ الراحَ بالعَشيّ وأُلْـو نشواتِ الغشيّ بالجاشريَّة
ما أبالى إذا اشتفيتُ من البيـ ـضِ ، وشربِ المدامِ ماقيلَ فيَّهْ

وإنما أكثرتْ الشعراءُ فى الصَّبُوح دون غيره من أوقاتِ النهار وحثَّتْ عليه ليسبقوا العواذِلَ قبلَ أن يغدوا عليهم ، لأن من شأنِ العاذِل أن يغدو على من يريدُ عذْلَهُ على مافعل أمس ، ويعظُه عن معاودةِ مثله . وقالَ القطامى :

أفـرُّ إذا أصبحتُ من كلّ عـاذلٍ وأُمسِي وقد هانتْ عليَّ العـواذِلُ

يقولُ : أفرُّ من العَذُول قبل الشُّرْبِ ، فإذا شربْتُ هانتْ عليَّ العواذِلُ .

ويقالُ : أعرقَ شرابَهُ إذا قَلَّل ماءَه .

وأنشدَ الأصمعيُّ :

وندمانٍ يزيدُ الكأس طيباً سَقَيْتُ وقد تغوَّرتْ النجومُ
رفعتُ برأسِه وكشفتُ عنه بمُعْرَقَةٍ ملامةَ من يَلُومُ

وقيلَ : العُرِقَة : الكريمةُ القُضب ، الطَيبةُ التربةِ ، كالرجل الطيب الأعراق والحسب . والقتلُ : الإفراط فى المزج . قال حَسانُ بن ثابتٌ رضى الله عنه :

إن التى ناولتنِى فرددْتُها قُتِلتْ ، قُتِلْتَ ، فهاتها لم تُقتَلِ

وقالوا : أماتها إذا طبخها طبخاً كثيرا . وقال حمادُ بن أسحاق :

علّلانِى بشربةٍ من طِلاءٍ نِعْمَتْ النِّيمُ فى شَبَا الزَّمهريرِ
من كميْتٍ أجادَها طابخوها لم تمُتْ كلُّ مَوْتِها فى القُدُورِ

والنيمُ القرو ، والشبا الحِدَّةُ

* * * *

ويقالُ : غمرَهْ إذا سقاهُ بالغَمرِ الصغير قليلاً . والتفوُّق الشُّرْبُ قليلاً قليلاً . ويقالُ : تمزَّزَ ، وتمزَّزَه إذا شرِبَهُ جرعةً بعد جرْعة . وأنشدَ محمد بنُ حبيب ا

يكونُ فى الذَّوقِ وفى التمزُّزِ فى فمهِ مثلُ عصيرِ السُّكَّرِ

وقيل لمشارب الرَّجُلِ نديمَة من الندامةِ ، لأنَّ معاقِرَ الكأس إذا سكِرَ تكلَّم بما يندمَ عليه . فقيل لمن شارَبَ رجُلاً نادَمَه ، لأنه فعَل مثل فِعلِه ، والمفاعلةُ لا تكونُ إلا من اثنين ، كما تقولُ ضاربه وشاتمه . ثم اشتُقَّ من ذلك نديمَ . كما يقال : جالسَهُ فهو جليسٌ . وقعيد . قال الشاعر :

ألم تعلما أن النديمين ما صَفَا وذادُ هُما أو أنصفَا أخوانِ
وأنَّ رضاعَ الكأسِ أوجبُ حُرْمةً وحقًّا علينا من رَضاعِ لُبَانِ »

وعقد بابا فى « ذكر الأشربة ومنافعها ، وفضل الخمر عليها » قال :

قال الله عز وجلَّ فى كتابه : ﴿ ومن ثمراتِ النخيل والأعنابِ تتخذونَ منه سُكْراً ورزقاً حسنا ﴾ وقال تبارك وتعالى وذكر أنهار الجنة فقال : ﴿ مثَلُ الجنَّةِ التى وُعِدَ المتَّقُونَ فيها أنهارٌ من مَاءٍ غير آسنٍ ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمهُ ، وأنهارٌ من خمرٍ لذَّةَ للشاربين ، وأنهارٌ من عَسلٍ مُصفًّى ﴾ . فذكر الماءَ واللبنَ ، ولم يذكرهما بالسلامة من

التغيرُ . ولم يذكر العسل إلا بأنه مُصفّى وذكر الخمرَ فجعلها لذةً للشاربين ، فكان هذا من التفضيل .

ويُروى أن قيصر ملكَ الرُّوم بعثَ إلى قسّ بن ساعِدة فسأله : أى الأشربةِ أفضل ؟ . فقال ما صفَا فى العين ، ولذَّ على الذوق ، وطابَ فى الأنفس ، شرابُ الخمر .

* * * *

قال اسحاق بن إبراهيم الموصلى : عيش الدنيا بعد الصحة والشباب فى ثلاثة : فى الطِّلاءِ والغناءِ والنساء قال بعض الحكماء : الخمرُ تمازجُ أخلاقَ النفوس على اختلافِ أخلاق الناس لأنها تبسطُ دمَ القلبِ العزيزى فى البدن ، فيكون من ذلك الفرحَ والنشاط . قال بشارُ بن بُرد :

أعــاذِلَ إنَّ العســرَ سَوْفَ يُفيــقُ ... وإنَّ يساراً فى غدٍ لخليـــقُ
وماأنا إلَّا كالزمــانِ إذا صَحَــا ... صَحوْتُ ، وإن ماقَ الزمانُ أموُقُ
ذَرِيني أُرِحْ هَمِّى براحٍ فإنّـــى ... أرى الدَّهرَ فيه كُرْبةٌ ومَضيـــقُ

* * * *

وذكر بعض الفلاسفة الشراب فقال : لم أر غذاءً أعمَّ نفعاً من الاقتصادِ فيه وقت الحاجةِ إليه ، ولا أدعى لمكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الأحوال منه . وذلك أنه يؤلِّف شمْلَ الأبعدين ، ويزرعُ المحبة بين المختلفين ، ويجلو الهموم عن القلوبَ ، ويستدرُّ الجودَ من البخيل ، والعطف من القاسي ، ويشجعُ قلبَ الجبان ، ويزيدُ الشجاع شجاعةً ، ويحدث فى الطبع إطراباً لا يثيرها سواه من الملاهى . وعمارةُ صحةِ البطونِ الذى عنه قوامُه ونظامه ، وبه كمالُه وتمامُه . »[1].

---

١ ــ المختار من قطب السرور ص ٥٢ .

كتـابُ « المنـازل والديـار » [1]

لأسامة بن منقذ (٤٨٨ ـ ٥٨٤ هـ)

وهذا الكتاب فى موضوعة جديد فى هذا العصر ، وإن لم يكن جديداً فى موضوعه عامة فقد سبقه إليه بعض المؤلفين من اللغويين ، لكن تناول أسامة يختلف فهو يعرض له من جوانب متعددة . والذى أثاره إلى تأليفه حادثٌ قضَّ مضجعه ، ونكأ جرحاً فى نفسه ظلت تعاوده آلامه ، وهو فقد ذويه فى زلزال دمَّر قلعة شيزر سكن أهله فبكاهم طويلاً ، وكان هذا الكتابُ بمثابة رثاءِ الأهل وبكاء الديار ، كما اعتاد الشعراء الوقوف على الأطلال للبكاء وتذكر الماضين من الأحباب والأخلَّاء .

يقول فى مقدمته : [2]

« الحمدُ لله وإن تنقَّلَتْ بنا الدنيا تَنقُّلَ الظِّلال ، وتقلَّبَ بنا الدهرُ من حالٍ إلى حالٍ ، وعفَّتْ رسُومُ آثارنا ، واستولَتْ يدُ الاعتداءِ على ديارِنا ، وتصدَّعَ شملنَا أيدى سَبا وتشعبت بنا سُبُل المذاهب ، وأخنَتْ الحوادثُ على معشِرى وآلى . وأفنى الموتُ أسُودى وأشْبَالى .

كل ذلك بقدرٍ جرى به القلم فى القدم ، وقضاءٌ سبقت به المشيئةُ قبل الخروج إلى الوجود من العدم ألفى ماسرَّ من ذلك وماساءَ بالتسليم والرضى ، وأفوِّض إليه ـ جلَّ وعلا ـ فيما قدَّر وقضىَ . وأُقِرُّ بأنّ ابتلاءه بعدْلِه ومعافات بفضله ، وأرجو من رحمته أن يكون ذلك كفَّارةً لذنوب سَلَفَتْ ، وموعظةً دعتْ عن المعاصى وصرَفتْ ، وأنْ مانالنا من الدنيا وآفاتها بذنوبٍ اقترفناها ، فرحمنا بتعجيل مكافاتها . وصلى الله على رسوله الأمين محمدٍ خاتمِ النبيين ، الذى وصفه فى كتابه الكريم فقال : ﴿ وإنك لعلى خلقٍ عظيم ﴾ .

وعلى آله الطيبين الطَّاهرين ، وأصحابه البرَرَةِ المتَّقين ، وأزواجه الطَّاهراتِ أمَّهاتِ المؤمنين صلاةً دائمة إلى يوم الدين .

---

١ ـ الكتاب نشر بالمكتب الاسلامى للطباعة والنشر بيروت ودمشق سنة ١٣٨٥ / ١٩٦٥ م .

٢ ـ المقدمة ص ١

وبعدُ ، جعلك الله بنجوةٍ من النوائِب ، وأصفى لك الحياةَ من كدَرِ الشوائب ، ولا راعك بحادثةٍ تُنسِي ماقبلها ، وتصَغّرُ مابعدها ، وتفتح من النكبات أبوابا لا نستطيعُ سدَّها . فإنى دعانى إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطانى من الخراب ، فإن الزَّمان جرَّ عليها ذيلَه وصرف إلى تعفيتها حولَهُ وحيْلَه ، فأصبحتْ كأن لم تَغْنَ بالأمس ، موحشةَ العَرصاتِ بعد الأنس قد دثر عُمرانُها ، وهلَك سكَّانُها ، فعادتْ مغانيها رسُوماً ، والمسرَّاتُ بها حَسرَاتٍ وهمُوْمَا .

ولقد وقفت عليها بعد ماأصَابَها من الزلازل ماأصابَها ، وهي أول أرضٍ مسَّ جلدى تُرابَها فما عرفت دارِى ، ولا دورَ والدى وإخوتى ، ولا دورَ أعمامى وبني عمّى ، وأسْرتي ، فَبُهِتُّ متحيِّراً ، مستعيذاً بالله من عظيمِ بلائه ، وانتزاع ماخوَّلَهُ من نعمائه .

ثمَّ انصرفتُ فلا أنثُكَ خيبتـــى رَعِشَ القيام أميس ميس الأصْوَر [1]

وقد عظمتْ الرَّزيَّة حتى غاضَتْ بوادِرُ الدّموع ، وتتابعت الزفرات حتى أقامت حنايا الضُّلوعِ ، وما اقتصرت حوادث الزمانِ على خراب الديار دون هلاك السكَّان ، بل كان هَلاكُـهم أجمعُ كارتداد الطّرف أو أسرع . ثم استمرت النكبات تترى من ذلك الحين وهلمَّ جرًّا . فاسترحتُ إلى جمع هذا الكتاب ، وجعلتُه بكاءً للديار والأحباب . وذلك لايفيدُ ولا يجدى ، ولكنه مبلغ جُهدِي . وإلى الله عز وجلَّ أشكو ما لقيتُ من زماني ، وانفرادى من أهلي وإخوانِي ، واغترابى عن بلادى وأوطانى :

لو كانتْ الأحلامُ فاجتْنِى بمـا ألقـاهُ يقظـانَ لأضْنانِـى الـرَّدى

وإليه عزَّ وجلَّ أرغبُ فى أنَ يمُنَّ عليَّ وعليهم بغُفْرانِه ، ويَعوّضنا برحمته فى دا رضوانِه ، إنه لا يردُّ دعاءَ من دعاه ، ولا يُخيِّبُ رجَاءَ من رَجاهُ .

وقد جعلتُ هذا الكتابَ فصولاً ، وافتتحتُ كلَّ فصلٍ بما يوافِقُ حالِى ، ثم أفضتُ فيما يوافق القلبَ الخالى ، لكى لايأتى الكتابُ وهو كلُّه عويل ونياحةٌ ، ليسَ فيه لِسوَى ذى البثّ راحة .

على أن رزايا الدنيا كالأجل تمهل ولا تُهمل ، وإن تولَّت اليومَ فغدا تقبل ، فما أحدٌ من ريبهنّ سليم .

---

[1] ــ الأصور : المائل والصَّوْرُ الميْل .

وتتبع هذا المعنى صعبٌ . وحصره لا يمكن . وقد أوردت فيه مايبردُ اللوعَةَ ، ويسكّنُ الرَّوعة ، والعذر إلى من وقف عليه مبذول ، وهو عند الكرام مقبول . » .

ثم يعدد فصول الكتاب وهى ستة عشر فصلاً :

فى ذكر المنازل ، وذكر الديار ، وذكر المغانى ، وذكر الأطلال ، وذكر الربع ، وذكر الدمن ، وذكر الرسم ، وذكر الآثار ، وذكر المساكن والمحال والمعاهد والأعلام والمعالم والعرصات ، وفى ذكر الأرض ، وذكر الأوطان ، وذكر المدن ، وذكر البلاد ، وذكر الدار ، وذكر البيت وفى بكاء الأهل والخلان .

ويبدأ بعنوان الفصل ويسوق بعض الأمثلة من شعر القدماء والمحدثين إلى عصره أو قبل عصره . وأول فصوله « فى ذكر المنازل » يقول :

« عن ابن مريم قال : مررت بسويقة عبد الوهاب [1] وقد خربت ، وعلى حائط منها مكتوب :

هذى منــازل أقـوامٍ عهدتُهـــمُ … فى خفـض عيـشٍ وعزٍّ ماله خطَـرُ

صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا … إلى القبـورِ فلا عيـنٌ ولا خبـرُ

وقال الأسودُ بن يعفُر :

مـاذا أُرجّـى بعد آل مُخــرّقٍ … درَسـتْ منازلُهـم وبعد إيــادِ

أهل الخورنق والسدير وبـارقٍ … والقصرِ ذى الشرفاتِ من سِندادِ

جرَتْ الرياح على محـلِّ ديارهــم … فكأنما كانوا على ميعـــاد

فإذا النعيـمُ وكـلُّ مايلهـى بــه … يومـاً يصير إلى بلـىً ونفـــاد

ولقد غنـوا فيها بأنعـم عيشـــةٍ … فى ظلِّ ملكٍ ثابت الأوتـــادِ

ويذكر شعراً لبشربن أبى خازم ، وابن أبى طاهر ، وعبد الله بن الزبعرى ، والبحترى وأبى تمام ، وأبى نواس ، وغيرهم .

ويفسر أحيانا ما يحتاج إلى تفسير من اسم مكان ، أو غريب لفظ ، وقد يعرف بالشاعر إذا لم يكن مشهوراً ، وقد يورد فى السياق خبراً يتصل بالموضوع كأن يقول فى هذا الفصل الأول :

١ ـــ وهى محلة قديمة غربى بغداد .

« عن زنام الزامرِ قال : لما اشتد بالمعتصم المرضُ الذى مات فيه أفاق فى بعض الأيام فقال : هيئوا لى الزلال لأركب فيه فى دجلةَ غداً ، فعملوه ، فركبه ، وركبته معه ، فمرَّ فى دجلة بازاءِ منازله ، فقال يازنام أَزْمُرْ لى :

يامنزلاً لم تبـل أطلالـــهُ	حاشىَ لأطلالـــكِ أن تبلَـــى
لم أبكِ أطلالَـــك لكنّـــى	بكيتُ عيْشـي فيـك إذ ولّـــى
والعيـش أولـى مابكـــاه الفَتـــى	لابُدَّ للمحـزونِ أن يسْـلَى
قد كان لى فيـك هـــوًى مـرةً	غيَّـرهُ الدهـــرُ وما مـــلاَّ

فما زال ينتحب حتى عاد إلى منزله .

مات المعتصم رحمه الله لثمانى عشرة ليلةٍ بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين . وحدَّثنى من أثِقُ به أنه لما وقع بمصر الغلاءُ العظيم فى أيام المستنصر بالله ، واستولت كتامة والجندُ على الدولة ، واستنفدوا ما فى الخزائن من الأموال ، وتضعضعتْ الدولة أمر المستنصر باحضار ابن الجوهرى الواعظ ، فحضر ونصبَ له كرسى ، فلما صعد على الكرسّى تلفَّت يميناً وشمالاً إلى نواحى القصر ، ثم أنشد :

يامنـزلاً لم تبـلُ أطلالـــهُ	حاشـا لأطلالِـــك أن تُبلَـــى

الأبيـاتُ .

فارتفع البكاءُ والضجيجُ فى القصر ، ومازادَ على ذلك ، يُستَعادُ منه ويكرره حتى انقضى المجلس .» [1] .

ويقول : « أنشدنى الخطيبُ العالمُ قدوة الشريعة أبو زكريا يحيى بن سلامة الحصكفى رحمه الله عند اجتماعى به بميافارقين فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة لبعض أهل المعرة ، وقد اجتاز بقرية من أعمال المعرة يقال لها سياث وفيها علوجٌ من الإفرنج يهدمون من جدرانِها الحجارة ويكسرونها بالمعاول ليخف عليهم حملها ، فوقف كالمتأسف وقال :

مـررتُ بربـع من سـياثٍ فهاجنى	بها زجـلُ الأحجارِ تحت المعاوِل
تصدَّى لها عبل الذراع كأنمـــا	جنى الدهـــرُ فيما بينهم حرب وائِل

---

١ ــ الاعتبار والديار ص ٢٢ .

فقلتُ له شلَّت يمينُك خلِّهـا لمستخبر أو واقـفٍ أو مسائِل
منازلُ قومٍ حدَّثتنا حديثهم ولم أرَ أحلى من حديث المنازل [1]

ويقـول : [2]

« وقال الشريف المرتضى أبو القاسم على بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى ابن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسينى بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم :

أعلى العهدِ منزلٌ بالجناب كان فيه متى أردتُ طلابى
المغانى ، تلك المغانى فهل فيـ ـهنَّ ماقد عهدتُ من إطرابى
ليست الدارُ بعد أن توحش النُّا رُ ترى غيرَ جندلٍ وترابِ
وإذا لم يُعِد حنينى علىَّ الـذا رَ حبيباً فليس يُعنى انتحابى

وقال الشريف نظام الملك أبو الحسن على الفاطمى أحد شعراء الدولة بمصر إذ أنا بها ، ويعرف بالأخفش :

أحبَابَنا لم تذق عيناىَ مُذ بَعُدتْ عنى منازِلكُم غمضاً ولا وسِنَا
ولا وَجدتُ لقلبى من يُسرُّ به ولم تر العينُ شيئاً بعدكم حسنا

ويذكر جملة من الشعر فى الموضوع يعقبه بقوله : « وقال آخر :

تطوى المنازل عن حبيبك دائبا وتظلُّ تبكيه بدمعٍ ساجم
ألَّا أقمتَ ولو على حجرِ الغضَا قُلْبتَ أو حدّ الحسَام الصَارِم
كذبتْك نفسُك لستَ من أهل الهوى تشكو الفراقَ وأنتَ عينُ الظالم

قلتُ : لى على من تقدم ذكره من الشعراء أفضلُ المزيةَ ، إذ كنتُ دونهم صاحبَ الرزيَّة ، فكانَ شعرى أولى أن يقدَّم على أشعارهم ، وإنْ قصَّرت بى البلاغةُ عن اقتفاءِ آثارهم ، لكن للمتقدم السبقُ ، وهو بالتقدمة أولى وأحق . وإن كنتُ وهم كما قال ذرٌّ لأبيه : ياأبَهْ مالكَ اذا تكلمت أبكيتَ الناسَ ، وإذا تكلَّم غيرك لمُ يبْكِهم ؟ . قال : يابنىّ ليسَ النائحةُ المستأجرةُ كالثَّكْلى .

---

١ ــ المنازل والديار ص ٢٥ ــ ٢٦ .
٢ ــ المصدر نفسه ص ٤٣

وأنا ذاكرٌ شيئاً من شعر أخى رحمه الله وشعرى مما يدخلُ فى هذا الفصل .

قال أخى عز الدولة أبو الحسن على بن مرشد بن على بن مقلّد بن نصر بن منقذ رضى الله عنه :

يامنزلاً لعبَ البِلَى برسومه ... شعفاً ببهجته فليس يَريمُ

لاتبعدنَّ وجادَ ربعكَ وابلٌ ... يُروى ثراك أتيُّه ويُسيمُ [1]

فاسقِ الرُّبوعَ من الدموع سجالها ... إن الرّسومَ لها عليك رُسومُ [2]

* * * *

وقلتُ : كان رحمه الله تأخر عنا ، وخرجتُ أنا وأَخَوايَ إلى دمشق ثم إلى مصر ، فكانَ يتأسف لبعدنا عند خلو منازلنا منا .

وهذا شيءٌ من شعرى فى هذا المعنى بعد ماأصابنا من الزلازل ماأصابنا . قلت

إلى الله أشكو روعتى لمنازل ... خلت وجوى قلبى لأهل المنازل

سيوفى إذا ما نازلتنىَ ملمّةٌ ... حُصُونِى إذا خِفْتُ الردى ومعاقِلى

مضوا سلفاً قبلى فلَم أحظ بعدهم ... من العيش والعمر الطويل بطائل »[3]

ويذكر ابياتاً أخرى له [4] .

ويمضى فى ذكر فصول أخرى فى بكاء المنازل حتى يقول :[5]

« وقال القاضى أبو الفتح محمد بن اسماعيل بن قادوس منشيء ديوان الرسائل بمصر من ابتداء قصيدة :

هذى منازلُ من هويتُ فيمم ... واربَع وسحَّ بربعها ديمَ الدَّمِ

عجبنا لمن صبٌ بصبِّ دموعهِ ... دربٌ ومن متعمل متعلّم »

ويعقد فصل "الديار" [6] يقول فيه :

---

١ — ليس يريم : ليس يبرح والوابل المطر الشديد . والأتيُّ : السيل .

٢ — الرسوم مالصق بالأرض من آثار الديار . ورسوم : أوامر .

٣ — ص ٥٤ .

٤ — المصدر نفسه من ص ٥٤ — ٥٨ .

٥ — المصدر ص ٩٦ .

٦ — ص ١٠٥ .

« قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكُم لا تسفكونَ دماءَكُم ولا تخرجونَ أنفسكُمُ من دياركم ﴾ .

قال الخليل : كل موضع حلَّه قومٌ فهو دارٌ ، وإن لم تكن فيه أبنية ، وسميت داراً لدورها على سكانِها ، كما سمّى الحائط حائطا لاحاطته على مايحويه .

قال القاضى الماوردى رحمه الله : إن قيل هل يسفك أحدٌ دمَه ويخرج نفسه من دياره ؟ ، ففيه قولانِ أحدهما : معناه لا يقتلُ بعضكم بعضا ، ولا يخرجه من دياره . والثانى أنه القصاصُ الذى يقتص منهم بمن قتلوه ، فصاروا قاتلين لأنفسهم بالقصاص . وقوله تعالى : ﴿ ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ فيه ثلاثة أقاويل : أحدهما لا يخرج بعضكم بعضًا . والثانى : لاتسيئوا جوار من جاوركم فتلجؤوهم إلى الخروج عن دياركم والثالث لاتفعلون ما تخرجون به من الجنة التى هى داركم . » .

« وقال القاضى المهذب أبو محمد الحسن بن على بن الزبير أحد شعراء مصر : [1]

لكم خيالٌ فى الجفونِ ممثـلٌ ... أبداً وذكـرٌ بالفؤاد موكَّـلُ
وإلى دياركم نحـنٌ صبابَـةً ... ونقْضٌ أوعيـة العيون ونرسِلُ
تلك المنازلُ ماتمرُّ سحابةٌ ... تهمي بها إلَّا وعيـنٌ تهمِـلُ
ما ضرَّها إذ ينزلـون ربوعَهـا ... أن لَا يُرى فيها لعلـوة منـزلُ

وقال السنبسى [2]:

وإنى كلمـا زادَ التياحـي ... إليـك وأضـرمَ القلْـبُ الخفُـوقُ
أمـرُّ على دياركـم وإنِّـى ... لمن أمسىَ بها صبٌّ مشـوقُ
وأومى بالتحيـة من بعيـدٍ ... كما يومى بإصبعـه الغريـقُ »

وقال الشريف المرتضى أبو القاسم على بن الحسين ..... :

أى دمـع جـرى ونحـن بنجـرا ... نَ لنا والديـارُ ثمَّ رسـومُ

---

١ ـــ المنازل والديار ص ١٣٠ .

٢ ـــ والسنبسى : محمد بن خليفة بن حسين . أبو عبد الله الهمرى السنبسى الآبيارى (ت ٥١٥ هـ) شاعر قائد ... أقام بالحلة عند صدقة بن مزيد ، فكان شاعره ، وشاعر ابنه دبيس بن صدقة .

دِمَنٌ لو رنت لهنَّ عينــا ك قبيلَ الفراقِ قلتَ نجومُ

ومغــانٍ من النحولِ كــأروا ح ، ولكــن ليست لهنَّ جسومُ

ما ســررنا إلّا بهن ، وفيهـ ـنَّ قفــاراً سيقت إلينا الهمومُ

وقال أيضا :

قد مررنا على الديارِ تبدّلـ ـنَ دثوراً بجدةٍ وتحولاً

نكرتْها العيـونُ منا فما تعـر فُ إلا رسومَها والطلولا »

وقال : « كتب إلى الملكُ الصالحُ ، ناصرُ الأبهة ، كاشف الغُمة ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، غياث الأيام ، كافلُ قضاةِ المسلمين ، وهادِى دُعَاةِ المؤمنين ، أبو الغارات طلائع بن رزّيك فتى أمير المؤمنين عزيز مصر رحمه الله قصيدةً من نظمه يعزينى عن أهلى الذين هلكوا فى الزلازل رحمهم الله منها :

لهفَ نفسى على ديارٍ من السكا نِ أقوتْ ، فليس فيها عَريبُ

ولكمْ حَلهَا فأنسته أوطا نَ صِبَاهُ ، والأهلُ يوماً غريبُ

فاحتسِبْ ما أصابَ قومَك مجد الدينَ واصبرْ فالحادثاتُ ضروبُ

هكذا الدهرُ حكمه الجورُ والعد لُ فيه المكروهُ والمحبوبُ

إن تخصّصْكُم نوائبُ مازا لتْ لكمْ دون من سوَاكمُ تنوبُ

فكذاك القناةُ يكسَرُ يوم الـ رو ع منها صدرٌ وتبقى كعوبُ »

وقال أبو محمد القاسم بنُ على الحريرى العالم [1]

عرّج لك الخيرُ صدورَ الرّكابِ على رُباً كنَّ مغانى الرّبابِ

وقف بها وقفةَ مستعبِر يسحُ فيها الدمعَ سحَّ الرّبابْ

فسُنّةُ العشاقِ أن يُعْوِلوا فى منزل الحبّ إذا الحبُّ غابْ

ياحبّذا تِلكَ الرُّبى من رُبى ظباؤها أفتكُ من ليثِ غابْ

وقال الشيخ أبو العلاء بن سليمان المعرى :

مغانى اللوى من شخصك اليومَ أطلالُ وفى النّوم مَغنىً من خيالك محلالُ

مغانيك شتّى والعبارة واحدٌ فطرفُك مغتالٌ وزندك مغتالُ

---

١ ــ ص ٢٠١ .

متى سألت بغدادُ عنى وأهلهـــا فإنى عن أهل العواصم ســال
إذا جنَّ ليلٌ جنَّ لبّى وزائِـــدٌ خُفُـوقُ فـؤادى كلما خفَق الآلُ
وماءُ بلادى كان أنجع مشـــربًا ولو أنّ ماءَ الكرخ صهبـاءُ جِرْيالُ»

وقال القاضي المهذب أبو محمد حسن بن على بن الزبير رحمه الله [1]:

ربعَ الفؤادُ خـلالَ تلك الأرْبُـع فكأنها أولى به من أضلُعِــى
وأقام فيه فالجوانـح بلَقَـــعٌ منهُ وما البيد القفـارُ بلقَـــعِ
وأرى الصَّبا تَمْرِى السـحابَ وإنما تمرى صبابتـه سـحابَ الأدْمُـعِ

وقال أبو العلاء بن سليمان المصرى :

أمرّ بربع كنتَ فيه كأنّمـــا أمرُّ من الإجلالِ بالحِجْر والرُّكْـن
وإجلالُ مغناك اجتهـادُ مقصِّـر إذا النّصلُ أودى فالعفـاء عَلى الجفْنَ

وذكر فى باب ذكر الرسم شعراً لبعض معاصريه كذلك ، ومنهم ابن الخياط الدمشقى قال : وقال ابن الخياط أبو عبد الله :[2]

هو الرَّسمُ لو أغنى الوقوفُ على الرَّسِم هو الحزمُ لولا بعد عهدك بالحـــزم
عشـيَّة جن القلبُ فيها جنونَـهُ ونازعنى شـوق منازعـة الخصْـم
فلما أبى إلا البكـــاءَ على الأسَى بكيتُ فما أبقيت للرسم من رَســم
لقد وجدتْ وجـدى الديـارُ بأهلهـا ولو لمْ تجِد وجْدى لما سقمتْ سُقْمِى

وفى « ذكر الآثار »[3] قال :

قال تبارك وتعالى : ﴿ إنا نحنُ نحيي الموتي ونكتبُ ماقدَّمُوا وآثارهم ﴾ قيل نحييهم بالإيمان بعد الكفر ، وقيل بالبعث . ونكتبُ ماقدَّموا ماعملوا من خير أو شر . وآثارهم : ماأثرُوا من سنةٍ حسنةٍ وسيرةٍ يُعمل بها بَعدهم . وقيل آثارهم : خطاهم إلى المساجِد .

وروى سفيان عن أبى سفيان عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدْرى رحمهم الله قال :

---

١ ــ المنازل ص ٢٦٣ .
٢ ــ المصدر نفسه ص ٣١٤ .
٣ ــ المنازل ١ ص ٣٣٢ .

كانت بنو سلمة فى ناحيةٍ من المدينةِ فأرادوا أن ينتقِلُوا إلى قريب من المسجد فنزلت : ﴿ إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهُمْ ﴾ . فقال لهم النبى ﷺ : إنَّ آثاركم تكتبُ ، فلم ينتقِلُوا .

* * * *

وكتب أرسطاليس إلى الاسكندر كتاباً يوصيه فيه بمصالح ملكه ، ثم قال له فيه : إعلم أن الأيام تأتى على كل شىء ، فتخْلِقُ الأفعال وتمحو الآثار ، وتميتُ الذكر إلا مارسخ فى القلوب بمحبة تتوارثُها الأعقاب ، فاجهدْ أن تظفر بالذكر الذى لايموتُ ، بأن تُودِع الناس محبةً يبقى بها ذكرُ مناقبِك .

وقال أبو العلاء بن سليمان :

اتبع طريقا للهُدى لاحِباً	وخلِّ آثاراً بملحوب
أفٍّ لدنياىَ فإنى بها	لم أخلُ من همٍّ وتعذيبِ
قلت لها امْضِ غير مصحُوبةٍ	فقالت اذهب غير مصحوبِ

وفى فصل « ذكر الأوطان » جاء بأبيات للقاضى المهذب بن الزبير . قال [1] :

« كتب إلىَّ القاضىِ المهذب أبو محمد حسن بن على بن الزبير قصيدة أنفذها من أُسوانَ وأنا بمصر .

منها :

أأحبابنا مالى إذا ماذكرتكُم	وما أنا ناس غال صبْرِىَ غُولُ
وإن شام برقُ الشام برق وشمِّرتْ	على البُعْدِ عنه للظلامِ ذيولُ
تدارك قلبى أن يطير صبابةً	بنانٌ كأنبوب اليَراع نحيلُ
وَخُيِّل لى أن السُّيوف لجوّهِ	سُلِلْنَ ، وأنىَ بينهنَّ قتيلُ
لئِنْ أقفرتْ منا الدّيارُ ومنكمُ	وأمست مغانيهنَّ وهى طلولُ
فإنَّ لنا فى آلِ منقذ أسوةً	يهونُ لديها الخطبُ وهو جليلُ
نبتْ بهم أوطانُهم فترحّلُوا	وللمجد فى ذاك الرحيلِ رحيلُ

---

١ — المنازل ٢ / ١٨ .

وقال فى ذكر المساكن [1] وما يتصل بدخولها واستئذان أهلها : [2]

وقال تبارك وتعالى : ﴿ ياأيُّها الذينَ آمَنُوا لا تدخُلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تَستأْنِسُوا وتسلموا على أهلها ... ﴾ الآية [3] .

روى عن عدىّ بن ثابت قال : جاءت امرأةٌ من الأنصار ، فقالت : يارسولَ الله إنى أكونُ فى بيتى على حالٍ لا أُحبُّ أن يرانى عليها أحد ، لا والدٌ ولا ولَدٌ ، فيأتى الأبُ فيدخُلُ علىَّ وإنه لا يزال يدخل رجلٌ من أهلى وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يارسول الله أفرأيت الخانات والمساكن فى طرق الشام ليس فيها ساكن . فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناحٌ أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة ﴾ الآية [4]

وفى قوله تعالى : ﴿ ياأيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تدخُلُوا بُيوتاً غيرَ بُيوتكم حتى تسْتأْنِسُوا وتُسَلِّمُوا على أهلِها ﴾ ثلاثة أوجه : قيل حتى تستأذنوا ، وقيل حتى تؤنسُوا أهلَ البيتَ بالتنحنح ، فيعلموا بالدخول عليهم . وقيل : حتى تستأنِسوا أى تعلموا هل فيها أحدٌ تستأذنوا فتسلموا عليه ؟ . ومنه قوله تعالى : ﴿ فإنْ آنَسْتُمْ منهم رُشْداً ﴾ أى علمتم .

والإذن يكون بالقول والإشارة . عن أبى هريرة رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : رسولُ الرجُلِ إذنه ، فإن استأذن ثلاثاً ، فلم يؤذنْ له ولّى ولم يُراجعْ .

رُوى عن أبى سعيد الخدرىّ عن الأشعرىّ أنه استأذن على عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ثلاثاً فلم يؤذن له ، فرجع ، فأرسل إليه عمر فقال : ماردَّك ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : من استأذن ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع : فقال عمر رضوان الله عليه : لتجيئنّي ببينةٍ وإلا جعلتُك نكالاً . فأتى أبو سعيد رحمه الله ، فشهد له .

قال الحسن رحمه الله الأولى إذنٌ ، والثانية مؤامرةٌ ، والثالثة عزمةٌ إن شاءوا أذِنُوا وإن شاءوا ردُّوا .

---

١ ــ المنازل ٢/١٠٥ .

٢ ــ المصدر ٢/٢٠٤ .

٣ ــ سورة النور ٢٧ .

٤ ــ سورة النور ٢٩

ولا يستأذنُ وهو مستقبلّ البابَ إن كان الباب مفتوحاً . وإذا أذِنَ لأول القوم فقد أُذِنَ لآخرهم ، ولا يقعد على الباب بعد الردّ ، فإن للناس حاجات .

ثم قال تعالى : ﴿ وتسلّموا على أهلها ﴾ والسلامُ ندبٌ ، والاستئذانُ حَتمٌ .

وفى السلام قولان : أحدهما مسنونٌ بعد الإذن على ماتضمنته الآية من تقديم الإذن عليه ولأن السلام من تحيات اللقاء ، واللقاء يكون بعد الإذن . والثانى أنه مسنونٌ قبل الإذن وأنه إن تأخر فى التلاوة فهو مقدم فى الحكم . وتقدير الكلام : حتى تسلّموا وتستأذنوا ، لما روى ربعى بن حراشى رحمه الله أن رجلاً استأذن على رسول الله ﷺ : أأدخُلُ ؟. فقال النبى ﷺ لرجل عنده : قم فعلّمه كيف يَستأذن ، إنه لم يُحْسِن . فسمعه الرَّجل فسلَّم واستأذن . وقد قيل : إن وقعت العين على العين قبل الاستئذان فالأولى تقديم السلام على الاستئذان ، وإن لم تقع العين على العين قبل الإذن فالأولى تقديم الاستئذان على السلام .

فأما الاستئذان على منازل الأهل ، فإن كانوا غير ذوى محرم لزم الاستئذان عليهم كالأجانب وإن كانوا ذوى محارم وكان المنزلُ مشتركاً هو فيه وهم ساكنون لزمه قبل دخوله إنذارهُم إمّا بوطْءٍ أو بنحنحةٍ مُفهمةٍ ، إلا الزوجة ، فلا يلزمُ ذلك فى حقّها لارتفاع العورة بينهما . وإن لم يكن المنزل مشتركاً ، ففى الاستئذان عليهم وجهان ، أحدهما النحنحة أو الحركةُ والثانى بالقول كالأجانب .

وقد روَى عطاءُ بنُ يَسار رحمه الله أن رجلاً قال للنبى ﷺ : أستأذنُ على أمّى ؟ قال : نعم . قال : فإنى أخدمُها . قال : استأذن عليها . فعاوده ثلاثاً . فقال ﷺ : أتحبُّ أن تراها عُريانة ؟ . قال : لا . قال : فاستأذن عليها .

* * * *

ولا يجوزُ أن يتطلع إلى المنزل ليرى من فيه فيستأذِنه إذا كان البابُ مغلقاً ، يقول النبى ﷺ : إنما جُعِلَ الاستئذانُ لأجلِ البصر . إلّا أن يكون البابُ مفتوحاً ، فيجوزُ أن يُنظَرَ إذا كان خارجاً منه ، لأن صاحبه بالفتح قد أباح النظر . » .

وبعد فهذا الكتاب الجامع فى موضوع المنازل والديار ، وإن بدأ بالحديث عن الديار المهجورة والأطلال الخربة تأسّياً بما حدث لأهله ، وتذكراً لمعاهده وأيام شبابه وعيشه

بين أهله وأحبابه إلا أنه تطرق لجوانب كثيرة من الحديث عن المنازل وأورد نصوصاً من القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الأدباء والشعراء والحكماء . وقد حظى الشعر منه بالقدر الوافَر حتى ليكاد أن يكون الكتاب مختاراً لأقوال الشعراء فى المنازل والديار ، ومايتصل بها .

ويدل ماجمعه من الشعر القديم والمحدث والمعاصر له أو السابق عليه بقليل أن زاده فى هذا زادٌ عظيم وافرٌ ، ولاشك أنه مدّ ملكته الشعرية والكتابية بمدد جمّ تجلى فى عبارته ، ومعانيه الشعرية .

والكتاب مادة غنية للشعر ، ومورد يرتاده الباحثون فى الأدب والراغبون فى ارتياد رياضه ، وهو مورد لكثير من آداب عصره ، وشعرائه ، ونصوص قد لا تتيسر بسهولة فى غيره . وبه معارف عن العصر تلقى أضواء على رجاله وأحداثه . وعلى حياته وعلاقاته .

وقد عرف بعض رجال عصره الفاطمى الذى ولد فيه ونشأ وشارك فى أحداثه يافعاً وكهلاً ، وقرأ لمفكرية وأدبائه ، ونقل عنهم . قرأ للمعرى وابن سنان ، والوزير المغربى والرشيد بن الزبير والمهذب بن الزبير ، ونقل عن التهامى وغيرهم كثيرين من شعراء مصر والشام كابن حيوس وابن الخياط وشعراء افريقيا ، والأندلس وعلمائها ..

فهو كاشف عن ثقافة الرجل واهتماماته الأدبية ، مبينّ لمدى اتصال الثقافة العربية الإسلامية وتواصلها ، لا تمنع بعد الأقاليم ، ولا موانع الحياة من حروب وانقسامات من هذا التواصل ، والتكامل حتى وكأنها جميعا نهر واحد تصب فيه روافده شرقاً وغربا .

مؤلفات الكتابة والإنشاء

مواد البيان لعلى بن خلف

وهذا النوع من المؤلفات وإن لم يكن أدباً صرفاً ، إلا أنه يمت إلى الأدب بنسب ، وبخاصة إلى الكتابة الإنشائية وديوان الرسائل ، ذلك أنها مؤلفات وضعت لجماعات الكتاب فى الدولة الإسلامية ، وقد ظهرت هذه المؤلفات منذ القرن الثالث الهجرى كما عرفناها فى كتب ابن قتيبة ، وبعده عند قدامة ، وأبى هلال العسكرى فى القرن الرابع كما سبق إليها من أسدى النصح للكتاب فى صورة رسائل مختصرة كعبد الحميد الكاتب ، وبشر ابن المعتمر .

ومن أشهر كتاب هذا اللون فى مصر فى هذا العصر على بن خلف صاحب مواد البيان . وهو كاتب من كتاب الدولة الفاطمية ووزير فى عصر المستنصر ، وفد إليها من بغداد ، وكان مع والده من كتّاب البويهيين .

ويبدو أن على بن خلف وكان يلقب بفخر الملك أبى غالب كان يتولى الوزارة والكتابة لبهاء الدولة بن بويه ، فلما مات وتولى ابنه سلطان الدولة عزل فخر الملك وغضب عليه ، واعتزم قتله فهرب هو وابنه أبو شجاع إلى مصر حيث كانت الخلافة للظاهر بن الحاكم ، أو للحاكم قبل وفاته ، وبقى الأب وابنه ولَقَيا من الترحيب بمصر كغيرهما ممن يفد إليها حتى بلغا مكانة فى الدولة ، وتولى الابن فى خلافة المستنصر سنة ٤٥٧ الوزارة وظل بها حتى غضب عليه المستنصر أو بعض رجاله فى وقت الفوضى والشدة وحدث الانقلاب الذى دعا المستنصر إلى استدعاء بدر الجمالى من الشام لوضع حد لتلك الفوضى فى القاهرة . وكان أبو شجاع محمد بن على بن خلف قد هرب سنة ٤٦٦ إلى الشام بطريق البحر فلقيه أمير الجيوش بدر الجمالى وهو فى طريقه إلى مصر فقبض عليه وقتله .

ويلفُّ الغموضُ حياة الرجلين الأب والابن كما تضطرب المصادر فى تحديد اسميهما بل وتخلط أحياناً بين اسميهما ولقبيهما ووظيفة كل منهما فى مصر بعد مغادرتهما بغداد سنة ٤٠٦ . ولعل احتمالاً آخر يرد على الذهن يقول بان الذى تولى الوزارة أبو شجاع حفيد لعلى بن خلف والغموض يشمل مؤلف الكتاب كذلك أهو على بن خلف وزير البويهيين

أم ابنه وقد نص صاحب مواد البيان على وجوده بمصر سنة ٤٣٧ هـ وهو يؤلف كتابه هذا ، فهل كان على بن خلف من العمر والقدرة بحيث يمكنه من تأليف الكتاب ونفترض أن عمره آنذاك لا يقل عن ثمانين عاماً . لأنه خرج من بغداد سنة ٤٠٦ وكان وزيراً خطيراً لبهاء الدولة الذى توفى سنة ٤٠٣ ، ولا يعقل أن تقل سنه آنذاك عن أربعين عاماً أو ما حولها .

وليس بعيداً مع ذلك أن يؤلف الكتاب وهو ابن الثمانين أو ما بعد السبعين . وكان قد بلغ فى دولة الفاطميين مكانة مرموقة جعلت القلقشندى يعتبره من كبار رجال دولتهم[1] .

والكتاب يتقسم إلى مقدمة وعشرة أبواب

ويبدأ الحديث فى المقدمة عن سبق القدماء إلى المعانى ، فاحتازوها : « ولولا سبقُ الأولين إلى مااخترعوه ، ووجودهم بتقدم الزمان إلى افتراعماافترعوه حتى لا يُلغَى مهملاً ، ولا ملقى مرسلاً لأمكن أن يقع المحدثون على ما وقعوا عليه ، ويصلوا إلى ما وصلوا إليه ، إذ المعانى قائمةٌ فى نفوسِ المميَّزينَ . وليس المتقدم أحق بالولاءِ عليها من المتأخر ، ولذلك تواردت فيها الخواطر ، وتعاورت عليها توافى الحوافر .

ولما كان كثيرٌ من مستنبطِى الصناعات يعجزونَ لاستفراغهم قُوى قوائمهم فى إقامة صور ما استنبطوه ، وإخراجه من القوة إلى الفعل ، من الباسه برود التتميم ، وتحليته بعقود التنظيم . خصَّنا الله بالفضيلة فى استدراك ما أغفلوه ، وتجلية ما أغمضوه وأقدرنا بما حملوه عنا من مئونة الابتداء ، وألقوه على قرائحنا من فضل الاتباع على تفصيل ما أجملوه ، وتلخيص ماأسهبوه ، فلهم حق التشكيل والترتيب ، ولنا حق التكميل والترتيب . »

ثم يقول :

« .. لما كانت الصناعة الكتابية ، والفضيلة اليراعيّة من أنبل الصنائع خطراً ، وأحسنها على أهلها أثراً ، لاشتراك الخاصة والعامة فى استعمالها ، وأخذ كلٌّ منهم بما تقتضيه حاجتُه ومنزلتُه منها أكثر الناسُ من وضع الكتب فيها ، وصار المعْنىُّ بالتصنيف فيها إنما يقتدى على مثِلِ السالف ، مُغيراً على معانيه ، مفسراً لألفاظه ومبانيه ، إلا أننا لما طالعنا الكتب الموضوعة فيها وجدنا أكثرها معدولاً به عن الطريق القاصد إليها ، لأن من الواضعين من اختصر وقَصَّر ، ومنهم من أسهبَ وَنثَّر . ومنهم من شغل كتابه بأجزاءَ من العلوم القائمة

[1] صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٣٢

بأنفسها الموجودة فى مظانّها ، لما للصناعة من الشركة فيها ، واصل بما هو من نفسها ، وهو أحق بها .

ومنهم من اقتصر على إيداع كتابه رسُوماً لا تستعْمَلُ إلا فى دولة بذاتِها وبلاد بعينها ، فلا ينتفعُ بكتابه فى غيرها . ومنهم من نصّ على طريقةٍ قد صار عرفها دائرا ، وأثرها عافيا ، لوقوع الاصطلاح على هجرها والغائها ، والاستبدال منها ما هو أليَقُ بالزمان والمكان وأهليهما . ومنهم من استوفى الفنَّ الذى جدَّ فيه وتدرَّب به ، وقصّر فى غيره من الفنون الأخرى وهى أجزاء الصناعة وأقسامها ،

فرأينا لذلك وبالله التوفيق أن نُصنِّف كتابنا جامعاً لأُصولها وفروعها ، ورسومها المستعملة ، وأوضاعها ، وأقسام البلاغة وأنواعها ، ليكون علماً يُهتَدى بناره ، ودليلاً يُسْعى على آثاره . وحاكِمًا يُتحاكَمُ إليه ، ومحكاً يعرضُ من اعتزى إلى هذه الصناعة عليه .

وأشرنا إلى مالا بد للكاتب الكامل من معرفته من العلوم الأُخرى التى هى وإن كانت من أجزائِها ، فإنها تؤخذ من معادنها ، وتوجد فى أماكنها ، لأن المتفردين لها قد فرغوا منها ، واستوفوا القولَ عليها ، فإن مرَّ فى الكلام شيء من نصوصها ، فإنما أتينا به تنبيها على القدر الكافى منها ، وإشارةً إلى موقع الحاجة فى الصناعة إليه .

ونعتنا هذا الكتابَ بـ « مواد البيان » لوقوع هذا النعت منه موقع الحقيقة .

والله نسأل عوناً يفرِغُه ، وتوفيقاً يُسْبِغُه ، وهو مانٌّ بهما بفضله . وهو عشرة أبواب .

الباب الأول : فى حدّ صناعة الكتابة وفضلها ومنفعتِها ، وقسمتِها ، ورسْم الكتاب وعلة وضعه .

الباب الثانى : فى البَلاغة وأقسامها الأَصلية

الباب الثالث : فى أقسام البلاغة الفرعية .

الباب الرابع : فى صناعة البديع وأبوابها .

الباب الخامس : فيما يخرجُ الكلام عن أحكام البلاغة .

الباب السادس: فى أن الطبع هو قِوام الصناعة ونظامُها .
واحتذاء مذاهب السابقين بكمالها وتمامِها .

الباب السابع : فى أوضاع الخط وقوانينه ، وترتيب الصدور والأدعية ، والعنوانات والتاريخ والختم .

الباب الثامن : فى رسوم المكاتبات .

الباب التاسع : فى آداب الصناعة .

الباب العاشر : فى آداب السياسة .

ونحن قائلون فى كل باب من هذه الأبواب ما يبلغ إلى قاصية الاقناع والإحسان . والله الموفق للسدادِ والصوابِ بمنّه ويُمنِه .»

ويحدُّ صناعة الكتابة أو يعرّفها بقوله :

« أما حدُّ صناعة الكتابة ، فإنها صناعة ترسم صوراً دالة على الألفاظ دلالةَ الألفاظ على الأوهام . وهذا الحدُّ وإن كان ظاهِرُ لفظه يدلُّ على أن جملة الصناعة إنما هو رسم الصور الخطيّة ، فإنه إذا تُدُبِّر وجد مشتملاً على حواشيها ، محيطاً بكل ما يقع فيها لأن الخط نوبُ اللفظ وقسيمُه ، بل هو فى الحقيقة ، لأنه لا سبيل إلى رسم صوره الموضوعة للدلالةِ على الألفاظ إلا بعد توسُّط اللفظ بينها وبين الأوهام القائمة فى النفس ، حتى إن من يكتبُ وهو صامت لابد وأن يكون مشكّلاً للفظ فى نفسه قبل أن تنقله يدُه خطّاً إلى ناظريه ، وكذلك الناظرُ فى الكتاب من غير جهر لابُدَّ له من حكاية اللفظ بضميره ليكون ذلك سبيلاً إلى تمييز معناه وتحصيله ، ولو اقتنع بالنظر دون تشكيل اللفظ لتعذّر عليه إدراكُ غرضه ، وكان كالحائرِ فى طَريق ، ولذلك قال المنطقِىُّ : إن النُّطقَ نُطقان ، نطقٌ داخِلٌ ، وهو صور المعانى القائمة فى النفس ، ونطقٌ خارجٌ وهو الألفاظُ المعبّرةُ عن تلكَ الصُّورَ .

فأطلق على صور المعانى اسم النُّطق ، ولا نُطقَ فيها يقرعُ السَّمْعَ .

وإذا انتظم الخط ما ينتظمه اللفظ ، وانتظم اللفظ ما تنتظمه الأوهام ، فقد اشتمل الرسم على كل ما تحيط به دائرة الصناعة ، ولم يخرج عنه شيء مما هوَ لها .

القول على الفضيلة :

أما الكلام على فضيلة هذه الصناعة الظاهرة الشرف والجلالة ، الحائزة للسيادة والنبالة ، وذلك لاختصاصها بالقوة الإنسانية ، وعودها بتمام الفضيلة التمييزية من قسميها العلمى والعملى ، لأنا إنما نميِّز فاضل الصنائع من مفضولها بتأمل أقوالها مما كان مختصاً بهذه القوة كصناعة الطب والنجوم ، فهو الفاضل . وما كان مختصاً بالحسِّ كالبناء والتجارة وما شابههُما فهو المفضول .

وصناعة الكتابة مختصة بالقوّةِ المميزة من قسميها العلمى والعمليّ .

أما العلمى فهو البيان عما يخرجه الكاتب من الصور القائمةِ فى ضميره بالقوة إلى الفعل بالألفاظ البليغة والحساب الذى يبرزه من وهمه إلى الخطّ . والبيان والحساب مختصان بالقوة المميزة التى بها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان ، لأنه إنما انحاز عنها وانفصل منها بالنطق . وكما أن بالتمييز وقع الفصْل بين الإنسان وأنواع جنسه ، فكذلك يجب أن تفصل به فى الفضيلة والنقيصة بين أشخاص نوعه ، فمن علت طبقته فى البلاغة والإبانة حكم له بالفضيلة ومن انخفضت درجته فيها حكم عليه بالنقيصة ، لأن أثر القوة المميزة فى البليغ اللّسِن ، أظهر منها فى المُفْحَم الأَلكَن . والطريق إلى اعتبار ذلك أن نتأمل ألفاظ الإنسان التى يخرج بها المعانى القائمةِ فى نفسه بالقوة إلى الفعل ، فإن كانت ألفاظا تطابقُها وتقربها من الأفهام وتُنْسَرِ عنها سجُوف الإيهام ، وتجلوها فى حللِ الإبانة ووشى البلاغة دلّة ذلك على تمكّنِ القوةِ المميزةِ وجودة تحصيلها ، وصحة تمييزها . وإن كانت ألفاظاً مُعقَّدةً دالةً عليها دلالةً لا تحصّل حقيقتها من أول وهلة ، ولا توضحها إلا فى زمانٍ طويلٍ ومهلة دلّ ذلك على ضعف القوة المميزة ، ورداءة تحصيلها ، وفسادِ تمييزها واختلاط الصّور التى فيها ، وعجزها عن تفصيلها . واحْكم عليها من العادة بما يوضّحها .

فهذه الصناعة أخصُّ الصناعات بالقوة الناطقة ، لأنها المفردة باستعمال الأشياء الخاصة بها التى هى تأليف الكلام المنثور وتقييده بالخطّ الحافظ له على تعاقب الدُّهور ، وعقد الحساب ، وحصر المعدودات به .

وقد كان حكماء اليونان يسمون علم البلاغة العلم المحيط ، وذلك لحاجة جميع الناس إليه . وإنما فُضِّلَ الإنسان على سائر الحيوان بالمنطق ، فأحق الناسِ بالرئاسة أبلغهم فى منطقِه وأوصلهم للعبارة بذات نفسه ، وأوضعهم لقوله فى موضعه ، وأحسنهم اختياراً لأوجزه وأغربه .

وكما أنَّ الحكمة أشرفُ الأشياء ، فكذلك ينبغى أن تكون العبارةُ عنها بأحكم المنطق ، وأوجز اللفظ ، وأبعده من الزّلل . وإن سماجة المنطق واللكنة والعىّ تُذهبُ نور الحكمة ، وتفسدُ المعانى ، وتورث الشبهة ، فتعسّر عند الحاجة ، وتلتبس على المُستمع .

وأما العمليُّ فهو الخط ، وهو لاحق بالمنطق فى إيضاح المعانى وإبانة الأغراض ، والدلالة على المقاصد . وهو معبّر صامتٌ ، ومخاطبٌ مُسيرٌ ، وهو مع ذلك يفعل فعل الناطق

المفصح ، والمُعرِبِ الموضِّح ، لأنه يدل على المعنى برسمه ، كما يدل عليه المتكلم بلفظه . وكما أن أوهام الإنسان تدلّه على الصور القائمة فى نفسه ، وألفاظه تدلُّ من يخاطبه على أوهامه ، فكذلك الخط يدل من بعد عن سماع لفظه دلالة الألفاظ .

واللفظ يفضُلُ الخطّ بأنه دليلٌ طبيعيٌّ ، وآلته طبيعية ، وهى اللسان . والخط دليلٌ صناعيٌّ ، وآلته صناعية وهى القلم . ولمّا كان اللفظ فى السَّيلانِ لا يلبثُ إلا ريث ما يقرعُ الأسماع ثم ينحلُّ عن المكان ، وكان حفظ المسموعاتِ كالشيء العرضىّ إنما يحتاج إليه فى حراسةِ صور المحفوظات من مداومةِ الدَّرسِ . ومطالعةُ المحفوظ وتعهّده بالذكر والقراءة . فكأنَّ النِّسيانَ كالأمرَ الطبيعىُ،لما نجده من رجوع الإنسان إليه عند إهماله ماحفظه. ألهمَ الله تعالى الإنسان اقتضاء الخط ،وأقدره على استكمال معنى النطق الذى خصه بفضله واستتمام قوته ، وأوجده بما هداه إليه من ذلك السبيل إلى التفهم والإفهام على تغاير الأحوال عن قربٍ وبعد ، وغيبةٍ وحضور ، ولولا ذلك لما تمت منفعة المنطق ، لأنه لو عدم الخطّ لم يتوصل بالنطق إلا إلى إفهام المخاطب القريب من الصوتِ المنفصل عن الإنسان القائلِ إلى أذن السامع دون غيره ممن بُعُد عن سَماعِ اللفظ ، ولتعذَّر على الأذنين الاطلاعُ على أنباء السَّالِفين ، وآثار عقولهم فى الفضائلِ والآداب ، ولم يصل إليهم منها إلّا نذرٌ يسيرٌ مما تتحمَله الصدور ، ويُؤدّيه الحفظَ . ولم يكن وصولُه أيضاً على نصوصه لما يدخلُ عليه من التغير والتبديل باضمحلال الشيء فالشيء منه عن الأوهام التى تحضره ،والقوى الحافظة له . فلما أنعم الله تعالى على الإنسان بالحاجة إلى تقييد ألفاظه بالرسوم التخطيطية شمل نفع هذه النعمة ، وعمّ جميع مميّزى الأزمنة ، وذلك أن العبارة التى يتوصل بها إلى الفهم والإفهام حروف يركبها اللفظ فى حال المقاربَة ، ويركّبها الرسمُ فى حالِ المباعدة . وبهذا يرتبط جميعُ ما يدخلُ تحتها من المعانى للإنسان ومعاصريه ، واللاحقين به .

وإذا انقرض أهل عصرٍ نابتْ هذه الصُّوَرْ فى إيصال الفضائل التى استنبطوها ، والمعانى التى استخرجوها ،والمعانى التى سهَّلوا سبيلها إذا قُيِّدتْ بها ، وأُودِعتْ فيها منابَ التَّشافه والملافظَة ، وأغنت مغناها . وهذه فضيلةٌ عامةٌ شاملة تامّةٌ كاملَة لا مزيد لفضيلةٍ عليها . ولهذا قال بعض المنطقيين فى تحديد الإنسان : إنه الحىُّ الناطق المائت الكاتب . وإنَّ الكتابة متى لم تدخل فى حده لم يُقْضَ له بالنطقِ التام لعجزه عن إفهام من بَعُد عن سماع صوته . ولولا أن من لا يحسنُ الكتابة يخدم محسنها لنقص عن معنى الإنسانية نقصاً بيِّناً .

فإن اعترض معترض بأنّ هذه الصناعة ، وإن كانت فى المنزلة اللطيفة ، والرتبة الشريفة ، وكانت نعمة الله بها جايلة الخَطر ، عظيمة القدر ، فإنها موهبةٌ مشتركةٌ لكلّ من عبَّر عن ضميره بلسانه ، وخط يده ، وعقد أصابعه ، فقد تنكَّبَ عن سنَنِ الصواب فى أغراضه ، وذلك أنه وإن كان لكلٍّ من وصفَ حاله نصيبٌ من تأليف الكلام ورسم الخط ، وعقد الحساب فإن شرف الصناعة وفضيلتها إنما تحصل للكتّاب الذين يحوزون هذه الأوصاف على التمام ، وإنما تقع فى الحقيقة على الكاتب الجامع لآلات الصناعة وأدواتها المستقل بعمل التفصيل والترسيل دون غيره ممن يشارك الكتاب فى استعمال بعض أجزاء الصناعة .

وليس هؤلاء فقط يجب أن يُسمُّوا كتَّاباً بل وغيرهم ممن هو أقربُ منهم إلى الكتابة من الشعراء والخطباء والورّاقين ، وممّنْ يجاريهم ، لأن لكل طبقة من هذه الطبقات صناعة قد تفرَّدَ بها ووقع أسمها عليه .

فصل فى فضائلها المستنبطة من كتاب الله عز وجل

فأما فضائلها المستنبطة من كتاب الله عز وجل ، فإن الله تعالى شرفها بإضافتها إلى نفسه وإن كان فى حكم إضافتها إليه سبحانه على غير الحكم فى إضافتها إلى خلقه ، فقال جلَّ وعزَّ ﴿ وكتبْنا لهُ فى الألواح من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيء ﴾ . وقال ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ . وقال : ﴿ ورهبانيَّةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ .

ونسب تعليمها إلى نفسه فقال تعالى : ﴿ إقرأ بإسم ربّك الذى خلق ، خلَق الإنسان من علق ، اقرأ وربُّك الأكرم الذى علم بالقلم علمّ الإنسان مالم يعلَمْ ﴾ . وجاء فى التفسير أن هذه السورة مفتتح الوحى ، وأول آية أنزلها الله تعالى من كتابه على رسوله ﷺ .

وفى ابتداء الله تعالى فيما عدَّده من نعمه على الإنسان يذكر القلم وتعليمه إياه به مالم يعلم من قبل أظهر دليل على عظم رتبةِ الخط .

وقال فى عيسى عليه السلام : ﴿ ونعلّمه الكتاب والحكمة ﴾ . وأقسمَ تعالى بالقلم

فقال : ﴿ ن . والقلم ، وما يسطرون ﴾ ، وبالكتاب فقال : ﴿ والطور ، وكتاب مسطور فى رقٍّ منشور ﴾ . والأقسامُ لا تقع منهُ سبحانه إلا بشريف ما أبدع كالشمس والقمر ، والنجوم ، وما أشبهها بما لها من نظام الخلق واتّساق التدبير .

وإلحاقه القلم والخط بهما فى إقسامه بهما . واجراؤه إياه مجراها فى ذلك منبىءٌ عن شرف رتبة الخطّ وأنه أصلٌ عظيم من أصول منافع الخلق . وسمّى — عز اسمه ما يكتب كِتاباً فقال : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ وقال ﴿ أم تحسبون أنا لا نسمعُ سرّهم ونجواهم ، بلى ورسُلنا لديهم يكتبون ﴾ .

وعظّم تعالى شأن الصحف والكتب ، فقال سبحانه : ﴿ كلا أنها تذكرة ، فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة ، مرفوعةٍ مُطهَّرة ، بايدى سَفَرةْ ، كرام بررة ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إن هذا لفى الصحف الأُولى ، صحفِ إبراهيم وَموسى ﴾ ، وقال : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخُ ما كنتم تعملون ﴾ . وقال : ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ ونظائر هذا كثير .

وسمّى سبحانه ما أوحاه إلى رُسله الكرام كتباً ، فقال فى موسى وهارون : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين ﴾ . وقال : ﴿ ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكمَ والنبوة ﴾ . وقال : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدًى للناس ﴾ . وقال فيما أنزله على نبينا محمد ﷺ : ﴿ الم ذلك الكتاب .. ﴾ و ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناهُ مبارك ﴾ والوحى لم ينزل كتابا . ولكنه لما نزل أشار سبحانه إلى تمامه وغايته ، لأن الأشياء إنما تؤخذ بتمامها وغاياتها .

* * * *

فصلٌ : من فضائلها المأخوذة من أهلها ومنازل أربابها

فأما مراتب أهلها ومنازل أربابها ، فقد عُرف أن الذين وضعوها ، ورسموا رسومها هم الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام . وفيما نقله نقلةُ الآثار أنّ أول من كتب بالقلم واقتضب الخط آدم عليه السلام . وأنه وضع حسب ما علّمه الله تعالى لأهل كلّ ملة قلماً . وقيل

إن أول من خط بالقلم إدريس عليه السلام ، وأنه إنما سمّى إدريس لدراسته الكتب المنزلة فكان يسمّى الكاتب . وقيل إن إسماعيل عليه السلام اخترع القلم العربى وكتب به ، ولم يُسبق إليه .

فأما من تحلّى بها فى الأيام الخالية ، والأعصر الماضية من ذوى الأخطار العاليه فى الدين والدنيا فكثيرٌ لا نحصيهم ، إلا أن أصحاب التاريخ ذكروا أن منهم يوسف بن يعقوب عليه السلام ، وكان عزيز مصر استوزره ، وهو أول من اتخذ القراطيس (الورق) وهارون بن عمران ، ويوشع بن نون ، وكانا يكتبان لموسى عليه السلام . وسليمان بن داود وكان يكتبُ لأبيه .

وقد ذكر الله تعالى صناعته فى كتابه : ﴿ إنه من سُليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ .

* * * *

فأما من وقع عليه اسم الكتابة فى المِلّةِ الإسلامية ، وبلغ إلى المنزلة العالية من الخلافة والرتبة السنية من الإمارة فكثير أيضاً ، ومنهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو ذو القرابة والصهر ، وله الشرف والسابقة . ومنهم عمر بن الخطاب ، ومعاوية بن أبى سفيان وكانا يكتبان للنبى ﷺ ، ومنهم عثمان بن عفان ، وكان يكتب لأبى بكر ، وانتقل الأمر إليه ، ومروان بن الحكم ، وكان يكتب لعثمان بن عفان ، وانتقل الأمر إليه .

وفى كون واضعى هذه الصناعة من الأنبياء ، والمعتزين إليها من العظماء والخلفاء والسادات والرؤساء مايدل على علوّ خطرها وارتفاع قدرها . وأما من قرع الذروة العالية من السيادة والسنامَ الباذخ من الرئاسة من أصل هذه الصناعة على تغاير الدول وتنقلها بين العرب والعجم واشتهار آثارهم وانتشار أخبارهم يغنى عن النص على أسمائهم ، وذكر ما تهيّأ لهم من المنازل التى نالوها بالاستيجاب والاستحقاق ، لا بالحظّ والاتفاق ، والسعادات التى قضت لهم ملوكا فاضلين فدلوّهم فى دولهم على ما تقتضيه الكتاباتُ ، لا على ما تقتضيه الأحاظىّ .

قيل : تسقُطُ الحظُوظ فى زمن المَلِك الفاضل ، فلا يتسنَّمُ الرُّتبةَ العاليةَ إلَّا موصوفٌ بالفضيلة ، فسمَوا بالعلوم التى حَلَّقَتْ خواطرهم إلى أعنانها ، وجالت أفهامُهم فى ميدانِها ، وأثاروا غوامضها وفائقِها . وغيروا مذاهبها وطرائقها ، وما اقتضوه من بليغ

المكاتبات ، وارتجلوه من بديع السجلّات فى العقودِ والتقاليد والعهود المشتملةِ على تمثيل الرسوم والأعمال ، والأمر والنهى ، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب ، والحمد والذم — إلى الرتب الجليلة الشريفة ، والمنازل النبيلة اللطيفة ، وحلولهم فى أعلا طبقات الإكرام ، وأبعد غايات الإنعام ، وفوزهم بموفور المنح الجسام التى أقدرتهم على تطويق الأعناقِ بالمنن ، وادخار الفعلِ الحسن .

ولعلم الملوكِ الحزَمةِ بخطرِ هذه الصناعةِ وأهلها ، وعائدتِها فى أمور السلطان ، صرفوا العناية إلى الكتبة ، وخصوهم بالحُظوة ، وعرفوا لهم فضل ما جمعوه من الرأى والصناعة . وكانت ملوك الفرس ، وهم أسوسُ ملوكِ الأمم ، وأعرفُهم بالرُّتب تقول : الكتَّاب نظام الأمور ، وجمالُ المُلْك ، وبهاءُ السلطان ، والألسِنةُ الناطقةُ عنه . وخُزَّانُ أموالِه ، والأمناءُ على رعيّتِهِ وبلاده . وهم أغنى الناسِ عن الملوك والرعية ، وأولاهم بالحياءِ والكرامة ، وأحقُّهم بمحبة السلامة . وأعظمُ الناسِ حقاً على جميع الطبقاتِ من ولِىَ أسرارَ الملُوك وأمورهم الخاصة . وقالوا : للكاتب على الصاحب ثلاث خصال : رفع الحجاب عنه ، واتهام الوشاةِ عليه ، وإفشاء السرّ إليه .

وكانوا يجمعون أحداثَ الكتّاب ، وناشئيهم ، المتعرضين لأعمال الملْك ويتقدمون لرؤساءِ الكتابِ بامتحانِهم ، والفحص عن عقولهم ، فمن رُضِىَ عنه أُقِرّ بالباب يستعانُ به . ثم يأمر الملكُ بضمّهم إلى العمال ، وتنقلهم فى الخدَم . من حال إلى حال حتى ينتهى كل واحد منهم إلى ما يستحقه من المنزلة .

* * * *

ويقول : إعلم أن جميع الصنائع وسائل إلى إدراك المطالب ، ونيل الرغائب ، وأن عوائدها تتفاضل فى الكثرة والقلة بحسب تفاضُلها فى الرِّفعةِ والضِّعة ؛ إذ كان منها ما لا يفى بالبُلغةِ من قِوام العيشِ نحو الصَّنائع المهينةِ السوقية الداخلة فى المرافق العاميّة . ومنها ما يوصّل إلى الثروةِ ويتجاوز حدَّ الكفايةِ ، ويحظى بالمال الوافر والنعم الخطيرة ، وهى الصنائع الخاصة .

وإذا تُؤمِّل ما هذه صفته منها عُلِمَ أنه ليس منها ما يلحقُ بصناعة الكتابة ، ولا يساويها فى هذا النوع ، ولا يكسبُ ما تكسبُه من الفوائد والعوائد ، مع حصول الرفاهية ومجانبة التبذل ، والتنزه عن دنايا المكاسب ، ولا يُوصِلُ إلى ما تُوصِلُ إليه من الحظوة ورفاهية

العيش ، ومشاركة الملوك المستعبدين للكافة فى المساكن الفسيحةِ والملابس الرقيقة ، والمراكب الجميلة ، والدوابّ الفارهة ، والخدم والحَشم . وغير ذلك من الآلات والأدوات الملوكية .

ومن العجب أن صاحب هذه الصناعة ينتهى إلى الحال التى ذكرنا ، وتحصيل الفوائد التى عدَّدنا على أكثر الأحوال فى أقرب المدىِ ، وأقل الأزمنة . فإن كان ما يصل إليه من ذلك أمراً يتحمله رئيسه له لعلمه بخطر صناعته ، وعنايته فى خدمته ، واستحقاقه لنيل ما نوَّله بكفاءته . فناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشرفها .

وإن كان ما نخلص إليه من الاكتساب والمرافق أمراً يوصّله إليه استقلاله بصناعته ويُقدِرُه عليه تبريزُه فى معرفته حتى ينتهى إلى الحال التى وصفناها من غير خيانةٍ للسلطان ولا أشطاط للرعية ، ولا تطرقٍ لبيعةٍ فى دِينٍ ولا دُنيا ، فإن اعترض بمن يتعثَّرُ به الجدُّ وينخلفُ عنه الحظ من أهلها .

ولسنا نقول إن ما وصفنا به هؤلاء القوم مطَّردٌ فى حقّهم ، ولا لازمٌ فى كافَّتِهم ، وكيف ذلك والأقدارُ تعترض دون الأوطار ، وتجرى بحرمانَ الكافى المشمِّر ، وتنويل العاجز المقصِّر . ولكن الذى جرت العادة به أن يؤخذ بالاعتبار ما يكثُر وقوعه على المبرِّزِ فى هذه الصناعة إن قعدت به الأيام فى مرة ، فلا بد أن تنهض به فى أخرى ، لأن دولة الفاضل من الواجبات ، ودولة الجاهل من الممكنات ، ولا نسبة بين الواجب والممكن .

ومما يتصل بالقول على هذا الفضل أنه ما مِن أحدٍ يتوسَّل إلى السلاطين والملوك بالأدب ، ويمتُّ إليهم من العلم بسبب ، إلا وهو بأقله ، لا يُنوِّل ما يُنوِّله إلا على وجه الإرفاق ، خلا الكاتب فإنه ينوَّل الرَّغائب العظيمة من طريق الاستحقاق لموضع الافتقار إليه ، والحاجة الحادثِة عليه .

وهذا كافٍ للدلالة على منفعة هذه الصناعة ، وجلالة عائدها .

* * * *

ويقول : والصنائع كلها إن كانت مفتقرةً فى كمالها إلى وجود المادة ، والآلة ، والغرض والغاية ، فليست هذه الأربعة فيها بمتكافئة فى الشرف والفضيلة ، لأن من الصنائع ما يشرُف بمادته . وآلته ، وغرضه ، وغايته كصناعة الطب فإن مادَّتها أجسامُ البشر الذين هم أفضل

الجنس الحيوانى ، وآلتها الأغذية والأدويةُ الحافظةُ للصحة الحاسمة للمرض ، وغرضها الصحةُ للبدن ، وغايتها حِفْظُهُ على حال الصحة .

ومن الصنائع ما يشرف ببعضها دون بعض ، وصناعةُ الكتابة تشْرُف من كلّ وجه .

أمّا مادتُها فقد قلنا إن لها مادتين : وهما اللفظ والخط ، وهاتان المادتان من الشرف والفضيلة كما تقدم لتقاسمهما البيان ، وتشاطرهما الدلالة على المعانى ، وخدمة النطق الذى هو خاصية الإنسان .

وأما آلتها التى هى القلم ، فقد أنبأ الله تعالى عن جلالتها ، وشرّفها بإقسامه بها وإضافته تعليم ما تَخطُّه إلى نفسه . ومالقائلٍ أن يقول إن القلم يَراعةٌ لا تستحق هذا التفخيم ، لأنّ اللّسانَ مُضْغَةٌ من اللحم ، وقد جعله الله تعالى أداة لتقديسه وتمجيده . وتوحيده ، وإبرازِ مافى الأفهام بالقوة إلى الفعل ، وتكميلِ فضيلة المنطق . والأشياءُ إنما تقدرُ بغاياتها لا بجواهرها .

وأما غرضها الذى هو تقييد ماتبرزُه الخواطر من أوهامها حتى يتساوى فى عملها من حضر وغاب ، وبعُد وقرُب ، فغرضٌ شريفٌ جليل الفائدة ، نبيل العائدة .

وأما غايتها المجتباةُ منها فهى تعدُّ أشرف موقعاً وألطف موضعًا لانتظامها متعاظم المعادن والمرافق التى لا تستقيم أمور الملك والسُّوقةِ إلا بها ، فغرضٌ يُبرزُ الصناعةَ من أنفس الأغراض ، وغايَتها من أجلّ الغايات .

القـــولُ فى القســـمة

هذه الصناعة تنقسم أقساماً كثيرة ، وترجع إلى أصلين : أوّلُهما أوْلا هُمُا بالتقديم والتفضيل وهو الإنشاء والترسيلُ ، والثانى الحسابُ والتفصيل .

وإنما يميَّز الأصل الأولَ على الثانى لما تفيده الزيادة من قوة التمييز وجودة الروّية وثبوت الفطنة ، واشتماله على التبيان الدال على المعانى .

* * * *

وكاتب الترسيل يحتاج إلى التصرف فى المعانى المتداولة ، والعبارة عنها بألفاظ غير

الألفاظ التى عبر بها من سبق إلى استعمالها ، ويحفظ صورها ويؤديها على حقائقها . وفى هذا من المشقة مالاخفاءَ به على من مارس الصناعة ، ولاسيّما إذا طلب الزيادة والإبراز على من تقدمه فى استعمال تلك المعانى ، أو حذَا حَذْوَ رسوم بعض المبّرزين الذين يتنخّلون الكلام ، ويوقعونه فى مواقعه فى غاية من الرشاقة والحلَاوة ، ومناسبة المعنى ، ويحتاج أيضاً إلى اختراع معانى أبكاراً فى الأمور الحادثةِ التى لم يقع لغيره مثلها ولا سبقه سابق إلى المكاتبة فيها ، لأن الحوادث السلطانية لا تتناهى ولا تقف عند حد ولاختصاص متولى هذا العمل بالسلطان ، وقرب منزلته منه ، واعظام قدره له ، واعتماده فى المهمات ونيل الأمل وبلوغ الأوطار عليه . ولأنه متى صان نفسه ولزم الطريقة المشاكِلةَ لمنزلته كان أجدر بالسلامة من سائر أرباب الأقلام الذين يتصرفون فى الأموال والأمور .

* * * *

واعلم أن صناعة تأليف الكلام تنقسم على ثلاثة أنواع هى :

الكتابة ، والخطابة ، والشعر

ومن ها هنا وقع التناسب بينها ، ولكل منها رتبةٌ من الشرف والفضل . إلّا أن صناعة الكتابة تروِّس صناعة الخطابة ، وصناعة الخطابة تروِّس صناعة الشعر . وإن عددنا جميع الأشياء التى تتميز بها الكتابة على هاتين الصناعتين لطال الكتاب ، وأفضينا إلى الإسهاب ، غير انَّا نأتى من ذلك بما تقع عليه إبانته من تقدمها عليه بالقول الموجز .

فنقول إن صناعتى الخطابة والشعر ، وإن كانتا متوفرتَىْ الحظ من الفضل والشرف ، غيرُ بالغتىْ مدى صناعةِ الكتابة ، ولا محاديتين لها فى دوام الحاجة إليها ، وقدر الانتفاع بها ، وكثرة غنائها فى أسباب الملكِ والسلطان . وذلك أن الخطيب إنما يحتاجُ إليه فى الأحيان المتباعدة مرةً ليَقوم على رءوس الأشهاد فى المجالس الحافلة [متحدثا] بما يقضى به حق المشهد ، ولا يتجاوز مايودعه خطبته فنًّا واحداً من فنونِ الكلام ، ومن الدعاءِ والثناء والوعظ والحضّ على لزوم الطاعة ، والتحذير من المعصية .

والشاعرُ إنما يُحتاجُ إليه أيضاً لتزيين مثل هذه المجامع بما يورده من كلام موزون مقصورٍ على المدح والإطراء ، ونحوهما . ومجاله أضيقُ من مجال الخطيب لحاجته إلى إقامة الوزن .

وأين يقع هذان النوعان من الرسائل التى ينشئها الكاتب فى أنواع المعانى الصادرة عن الملوك والسلاطين ؟ فى سياسة الملك ، ومخاطبة الخاصة والعامة ، ككتب البيعة التى بها تنعقدُ إمامةُ الأئمة ، وتستقر خلافة الخلفاء . وهم عمادُ الدين والدنيا ، وسياسة العباد والبلاد ، وبوقوع الإجماع عليهم يُمْضِى الأحكامَ فى النقض والإبرام ، وكتب العهود المشتملةِ على الشروط القاضية بحقن الدماءِ وسكون الدهماء ؛ وصلاح ذات البين ، واتصال العمارة ، واستمرارِ المُرافق والمَعاون التى يستعان بها على مصالح الدولة والمِلّة ، من الأسلحة والعُددِ ، وآلات الحرب ، وغيرها مما يرهف الشعور .

وكتب التقاليد للوزراء والقضاةِ والعمّال ، وجباة الأموال الذين هم أركانُ الدول وقواعدها ، وبهم تنتظم عقودها ، ثم إنا نجد الحاجب والكاتب فى كل وقت من ساعات النهار وآناء الليل وافيا فى الحركة والاستنفار ، فى السلم والحرب ، وهى رتبة ضرورية وليست داخلة فى باب الرتبة التى يقع الغَناءُ عنها كالخطيب والشاعر اللذين إنما يُعدان ليزيّنا وقتا بعينه . وان اعتبر فضل مابين هذه الصناعة والصناعتين الأخريين من طريق المرافقِ والجدوى ظهرَ أنه لا نسبة بين مايحصل عليه الكاتب من الحظ ، وبين مايحصل عليه الخطيب والشاعر ، لأنَّ الذى يَنوّله الكاتب من طريق الاستحقاق ، والذى ينوله الخطيب والشاعر من طريق البرّ والصلة ، والرغبة إلى حبر سمعه . هذا على استمرار مايجنى به الكاتب وانقطاع مايجنى به الخطيب والشاعر . وإن اعتبر ايضا فضل مابين صناعة الكتابة وصناعتى الشعر والخطابة برتب أهلها عُلم أنّ الكتّاب هم أهل التقدمة أو ذوو الحظوة والرتبة ، والمنزلة العالية ، وأن مفالق الشعراء خُدّامُهم ، ومتعرضون لصلاتهم . وبين من يعطى ومن يأخذ ومن يصل ومن يوصَل بونٌ بعدٌ وفرقٌ واضحٌ ، وإن اعْتُبر عناءُ الترسيل والشعر فى الأمر ، وكلٌّ منهما كلامٌ مؤلّف ، عُلِمَ أن الشعر لا يُغْنى فيما يُغنِى فيه الترسيل لأنه لايُغنى فى حادث من الحوادث السلطانية إلى صنف من أصناف الرعية التى يتضمنها الغرض الذى يقتضيه ذلك الحادثة قصيدة تشتمل على مايناسب ذلك المعنى ، ولا يحسن فى رسوم السلطان — ولو شاء — أن يودع مايودعه قصيدة من قصائد الشعر . ولو شاء أن يودع فى رسالة من جميع وسائر أنواع الشعر لما قبح ذلك ، فالترسيل يشارك الشعر وجوهه من مدح وهجاء ، وشكوى واحتذاء ، وشكر وثناء ، وهناء ، ورثاء ، فله الحظُّ الأوفى .

وفيما أوردناه كفاية فى الدلالة على استحقاق صناعة الكتابة على الصناعتين الأخريين

اللتين يقاسمانها استعمال الكلام المؤلف .

وأما فضل صناعة الخطابة على صناعة الشعر فإن الخطابة من الصنائع الخطيرة فى باب الدين والسلطان إذ الخطبة شطر الصلاة المشتملة على المواعظ [الهامة] والذكرى النافعة ، المنبهة للساهى الغافل ، الموقظة للّاهى الذاهل ، الفاتحة للقلوب وكشف ماغشيَهَا من رَيْنِ الاغترار ، والإخلادِ إلى هذه الدار ، والاستعداد لمنزل القرار ، وغير هذا مما كانت الخلفاء تتخوَّل به لِسُنَنِ رسول الله ﷺ ؛ فإن خطبه كانت تنوب مناب ....[1]

وإذا اعتبر فضلُ مابين الخطابة والشعر بفضل مابين الخطباء والشعراء عُلم أنَّ التقدم للخطباء على الشعراء . قال لأن رسول الله ﷺ أول من يُعزى إلى الخطابة ، وخطبه أفضل الخطب . وقد حاز رتبة الخطابة على أكمل حدودها ، وأتم رسومها ؛ فأما الشعر فإن الله تعالى نزَّهه عن نظمه بل عن إنشاده ، فقال : ﴿ وما علَّمناهُ الشِّعر ، وما ينْبغَى لهُ ﴾ ، وقال : ﴿ وما هُوَ بقولِ شاعِرٍ قليلاً ماتؤمنون ﴾ ، ثم إن أمير المؤمنين عليٌّ ابن أبى طالب وهو بعد الرسول الخطيب المِصْقَع ، وخطبُه أجزل الخطب وأجمعها للفوائد والمواعظ ، ثم الخلفاءُ الذين خَلَفُوا فى الإسلام ، فإنهم كانوا يوصفون بالخطابة ، ولا يوصفون بالشعر لترفعهم عن الاتّسام بسمته .

ومما تفضل به الخطبُ الشعرَ أيضاً أن الخُطبَ كلامٌ مبنيٌّ على الصّدق ، والإرشاد إلى الخير ، وأما الخطب الجاهلية التى كان خطباءُ العرب يقومون بها فى الأندية والمحافل فمقصورةٌ على الأمر بالإصلاح والصلاح ، والتحضيض على التَّبارّ او التعاطُف ، ورفض التباغض والتقاطع . وصلة الرحم ، ورعاية الذمم ، ونحو هذا .

أما الخطبُ الاسلاميةُ فلا حاجة بنا إلى ذكر ماتشتمل عليه من وجوه الخيرات ، وما تتضمنه من تمجيد الله تعالى وتوحيده والثناءِ عليه ، والصلاةِ على رسوله ﷺ والترغيب فى الآخرة ، والتزهيد فى الدنيا ، وقدح الهمم فى طلب الثواب ، والورع عن اجتناب مايوجب العتاب .

والشعر إنما بنى على معانٍ أكثرها مستحيل ، وأقوال جلُّها كذب ، لاسيما الشعر الجاهلى الذى هو أفحل الأشعار ، فإنه يشتمل على قول البهتان ، وشهادة الزور ، وسبّ الأعراض وقذف المحصنات ، والقدح فى الأنساب الصريحة ، وقبيح الهجاء ، ومايجارى

(١) مطموس فى الأصل بمقدار . . . تحت كلمة « الشعر »

هذا مما يجبُ التنزهُ عن الخوض فيه ، والتصون عن إطلاق اللسان به .

وهذا كاف فيما رمنا إبانته من فضل الخطب على الأشعار .

وأما ما يشرُفُ به الشعر عن غيره من الكلام فبوزن الأجزاء وتساوى الحروف ، وطول بقائه على أفواه الرواة . فإنه لاشيء أبقى على الدهر من الشعر ، لتمكن القوة الحافظةِ بارتباط أجزائه ، وتعلق بعضها ببعض من تقييده ، لأنهم يجمعون على أن أبقى سيرهم وأخبارهم مااشتملت عليه الأشعار . وهذه فضيلةٌ جليلةُ الخطر ، لأن بقاء الشيءِ وطول مدته من أشرف فضائلهِ .

ومنها اشتهاره ، واستفاضتُه ، لأنه لا أشهر من المعنى الجيد وهو جار مجرى المثل . وقد قيل : لاشيءَ أسبق إلى الأسماع من بيت نادر ، ومثلٍ سائر .

ومنهاتزيينه لمجالس الملوك الحافلة بالثناءِ عليهم ، وتعديد محاسنهم . ومنها مايحصل عليه الشاعر المجيدُ من الجداء الجسيم الذى يستحقه بحسن موقع ألفاظه ومعانيه من النفوس ، ومايحدثه فيها من الأريحية .

ومنها عمارتهُ لمجالس الأنس التى لاتعمُرُ إلا بإنشاد الأشعار ، ورواية لأخبار ، ومنها قبوله لما يُركَّبُ عليه من الألحان المطربة ، المؤثرةِ فى الأنفسِ اللطيفة ، والطباع الرقيقة .

ومنها أن الألفاظ العربية ، وشواهِدَ القرآن ، وغيره من الكلام العالى ككلام النبى ﷺ إنما يستنبطُ منه .

ومنها معرفة أمثال العرب ، وحكمها ، وعلم تواريخ أيامها ووقائعها .

فقد وضح بذلك غاية رتبتها من الفضل ، وأنّ المجلّى السابق صناعة الرسائل ، والمصلّى اللاحق صناعةُ الخطب . والتالى التابع صناعة الشعر .

وذهب قومٌ لما عددنا من محاسن فضائل الشعر إلى تفضيله على الرسائل ، وتابعهم على ذلك من أصغى هواه إلى أهويتهم ، وضعُف نقده عن إعطاء الأشياء حقَّها من التأمُّلِ واستعمال النظر الشاف فى المباينة والتمييز ، واستعملوا المغالطة فى تقديم المذلم . فنقول — وبالله التوفيق :

إنَّ الشعرَ وإن كان فى المنزلة التى أشرنا إليها ، فإنه هابط عن درجة الرسائل هبوطاً

بيناً لا يخفى عن ذوى المعارف المميِّزين . ويدلُّ على ذلك خبر امرىء القيس مع أبيه حُجْر حين همَّ بقتله لما سمِعَهُ بعد أن نهاه عن قول الشعر ترنَّم فى مجلس شرابه بقوله :

اسقيا حجراً على عِلاّتِه من كُميتٍ لونُها لونُ العَلَقْ

وما رواه الرواة من حديث النابغة الجعدى ، وأنه كان سيداً فى قومه لايقطعون أمراً دونه وأنَّ قول الشعر حطٌّ من قدره ورتبته .

ولاتضاع الشعر فى نفوس سادات العرب وملوكهم نزَّه الله رسوله عنه ، ومنعه منه . وليس إعدامه الشعرَ كإعدامه الخطَّ ، لأن الذى جاء به ليس بشعرٍ يقع الارتياب فيه إذا كان يقول الشعر ، لأنه لايجوز أن يبعث الله تعالى رسولاً يريد أن ينقاد الناس إليه بما يُنقِصُ من قدرِه فى أنفسِهم . ولو كان الشعرُ أعلى رتبة من النثر لم يُجَزْ أن يتحدّى الله تعالى العباد إلا به ، لئلا يكون قد تحداهم بما يُوجد أبلغ منه ، ولكنه سبحانه لعلمه بفضل الكلام المنثور أنزل كتابه العزيز منثوراً ذا مقاطعٍ وفواصل ، ولم ينزله قصائد ذواتِ قوافٍ وأوزان ، وعرَّاه من حلية النظام الذى يَصْقِلُ صفحةَ الكلام ليظهر المعجز من غير طريق القوم الذين أنزله بلسانهم .

ولو كان النظم أيضا أفضل من النثر لوجب أن يجيءَ مانقله الشعراء من معانى الكلام المنثور إلى النظم فى صورة من البلاغة . وهذا مستحيل ، لأننا إذا أعرنا ما نُقِلَ من معانى النثر إلى النظم وجدناه قد انحطَّ عن درجته فى النثر . ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ يحسبُونَ كلَّ صيحة عليهم ، همُ العدو ﴾ ، فإن جريراً نقله إلى قوله :

حمَلَتْ عليكَ حُماةُ قيس خيْلَها شُعثاً عوابِسَ تحملُ الأبطالا
مازلتَ تحسب كلَّ شىءٍ بعدهم خيلاً تكرُّ عليكمُ ورجَالا

والفرق بين الكلامين ظاهر لمن كان ذوقه مستقيماً ، وطبعه سليماً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كمثلِ الحمارِ يحملُ أسْفارا ﴾ نقله الشاعر إلى قوله :

زوامِلُ للأشعار لاعِلْمَ عندهمُ بجيِّدِها إلّا كعلم الأباعرِ
لعمرُكَ مايدرِى البعيرُ إذا غدا بأوساقه أو راح ما فى الغرائرِ

وبيان هذين الكلامين بيّن واضحٌ أيضاً . فإن قيل إنه يجب أن نوقع المقايسةَ بين النظم والنثر من كلام المخلوقين دون كلام الخالقِ عزَّ سلطانه لتفرُّده بالمعجز ، وحلوله فى

الدرجة العالية من البلاغة التى لا يصل إليها البشر ، سلّمنا ذلك ، وأوقعنا المقايسة بين كلام البشر ، وأتينا فى التمثيل بأبلغ النوعين ، أعنى المنظوم والمنثور .

فمن ذلك قول النبى ﷺ للأنصار رضى الله عنهم : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلّون عند الطمع . » ، وقال عنترةُ بن شدّاد :

يُخبــرْك من شَــهِدَ الوقيعـةَ أنّنى   أغشَـى الوغـى وأعِـفُّ عند المغنـمَ

يشتمل هذا البيتُ على معنى كلام رسول الله ﷺ ، ويوازنهُ فى عذوبة اللفظ فقد ساواه كلام النبى ﷺ بنفسه لا بسبب آخر هو معرضٌ له . وهذا موجبُ الفضيلة للنثر ، لأنها حَصُلَتْ له بنفسِه لا لسبب من خارجه . والنظم إنما يتمُّ حسنُه بالمعرض الذى هو لابسُه من الوزن والقافية . وذلك أن الشعر حالٍ من الأوزان والقوافى وقيام كلِّ بيتٍ بنفسه ، وانفصاله عن غيره بما النثر عاطِلٌ منه . وهذه الأسباب تزيد فى رونقه وجوهره ، وتقضى بتقبُّل الأنفس له ، ولذلك يعجبُ به كثيرٌ ممن لايفهم معنى الشعر ويحفظه ، وإن كان ملحوناً مستحيل المعنى . والنثر فإنما يحليه بلاغتهُ ، فإذا ساوى وهو عاطلٌ بنفسه ما هو حالٍ ، فقد زاد عليه لا مجادلة ، لأنه لو كانت له حليةٌ لفضل بها على سوَاه بنفسه لا غير . ومثال ذلك أنّا لو استعرضْنا شخصينْ أحدهما حالٍ كاسٍ ، والآخرُ عاطلٌ عارٍ ، فتوازنا فى الوضاءة والصباحة لحكمنا للعاطل العارى بالإرباء والإبراز على الكاسى الحالى ، لأن الحالى الكاسى لو نزع حُلاهُ وكُساهُ ، وقَايسَ العاطِل العارِىَ لما ساواه .

وأما وجازةُ البيت فلأنه معبر عن حالٍ يَخُصُّ قائلِه ولا يعدُوه ، وفى كلام النبى ﷺ زيادةٌ فى المعنى أوجبت زيادةً فى اللفظ ، وهىَ العمومُ فى الحال المعبرة عنها ، وخطابُ الجماعة بقوله : تكثُرون وتقِلُون ، وقوله : عند الفزع بجمع الجنس الذى من أنواعه الوغى وغيرها . وكذلك الطمع ، فقد يكون مغنماً ، وغير مغنم ، ففى الكلام فوائد ليست فى البيت ومطابقة لفظه ، وهى ذكر القلة والكثرة .

ومع هذا فإن صاحب النثر مطالب بطَبْق معانيه على ألفاظه ، وغير مسامح بضرورةٍ ولا مجاز فيها باستعمال كلمة مرفوضة ، وليس كذلك الشعر ، لأنه يتبع الوزن ، وينقاد إلى ماتقتضيه القافية . وصاحبُه متساهِلٌ فيما خالف القياسَ ، مُسامَحٌ بما لا يُسمحُ به مترسّلٍ ولا خطيب . فإن قيل : إذا كان النثر فى أعْلَى طَبقة من البلاغة خلوّه من سبب

يحسنه ، واكتفائه ببلاغته وتأليفه المخصوص ، فما يمنع أن يكون الشعرُ أفضل من أجل أنه لو قدِّر أنَّ كلاماً منثوراً بلغ الغاية من البلاغة بنفسه وتأليفه ، ونقل على صورته إلى الموزون لصار أفضل من حالته الأولى ، لجمعه بين بلاغته ، وهو نثر ، ومااكتسبه من تحسين الوزن ، لاسيَّما ، ولا منزلةَ من البلاغة فى غير الشعر إلا ونقْلها إلى الشعر ممكن .

قلنا : هذا صحيحٌ لا يصحُّ ؛ لأن الكلامَ البليغَ نمطٌ من التأليف ، وضربٌ من الترتيب ونَقَل الشاعر قول على بن أبى طالب رضى الله عنه : « قيمةُ كلِّ امرىءٍ ما يحسِنُ » ، فقال :

فيالائمى دعْنى أغالى بقيمتى ... فقيمةُ كلِّ الناسِ مايُحسنونه

والنقل فإنه وإن كان قد أورد المعنى فى نصف بيت على سبيل التضمين والاهتدام ، لم يأتِ بما يُنسبُ إليه إلَّا لفظاً بدَّله وزاده لإقامة الوزن ، والذى طبعه سليم ، وحسُّه مستقيم لا يفتقر إلى تعريفه فرق مابين الكلامين ، إلا أن هذا الشاعر زاد فاءً فى قوله : « فقيمة » وهى مستكرهة ثقيلة فى هذا الموضع ، وأبدلَ بلفظة امرىءٍ لفْظَةَ «الناس» ، وامرؤ أعذبُ وألطف ، ونقلةَ قوله : « مايحسن » إلى قوله : « مايُحسنونُه » . والجمع بين هذين النونين وليس بينهما إلا حرفٌ ساكن ، والساكنُ لا يُعتَدُّ به مُستوْخَمٌ .

وفى هذا دلالةٌ على بطلان نقل المنثور إذا علت طبقتهُ فى البلاغة إلى المنظوم ، وهو على الصورة التى كان عليها فى المنثور . وهذا فى الوجيز اليسير ، فكيف بالمسهب الكبير الذى يُحتاج فيه إلى التبديل والتغيير . ولولا خوفُ التطويل لأتينا بأمثلةٍ من النثر والنظم . والذى أوردناه كفايةٌ فى مناقضةِ من ذهبَ إلى تفضيل النظم على النثر .

وأما المراتب التى تنقسم إليها صناعة الكتابة فخمس عشرة مرتبة وهى :
الوزارة ، والتوقيع ، والرسائل ، والخراجُ ، والضِّياعُ ، وبيتُ المال ، والخزائنُ والنفقاتُ ، والجيش ، والزمام ، والبريد ، والمظالم ، وكتابة القضاء ، والقصُّ ، وكتابة القواد والأمراء ، وكتابة المعادِن .

وقلنا فيما سلف إن اسم الكاتب إنما يقع فى الحقيقة على الكاتب المستقل بجميع آلاتها المحيط بكلِّية أدواتها ، لا من تعلَّق منها بالسَّببِ المنصرم ، واستند إلى الركن المتهدِّم .

وينبغى لمن تمسَّكَ بحبلها وأحبَّ أن يكون من صَرحاءِ أهلها ان يتحلى بحلية فضلها ، وصبرَ عَلى المشقة فى اجتياز مدَاها ، ولم يقتصِرْ على اسمها دون معناها لتحصل له حقيقةُ ماانتسب إليه ، ولا يكونُ دعيًّا مُلصقاً ، ويفوز بمعنى ما يُسمَّى به ، ولا يكونَ صفراً منه مُمْلقاً . فإن عجز عن استتمامها ، وقصَّر عن استيفاء أقسامها ، فلا يقِفْ فى الفن الذى يعتزى إليه من فنونها دون غايتها ، ولا يرضى بالخروج من خاصته إلى عامتها .

وقد مثلتْ الحكماءُ الملكَ وأعوانه بالنفس والأعضاء ، فقالوا : مثالُ الملكِ مثالُ النَّفس التى تسوسُ جميع الجسَدِ ، ومثال الخدم مثل الأعضاءِ التى تخدُمُ النفس .

وقَسموا الخدَم بحسب انقسام الأعضاء . فقالوا : إن منهم من يخدم الملك خدمة القلب للنفس التى هى التفكير ، وإجالة الرأى ، وهذا عملُ وزير السلطان الذى يستعين بآرائه فى مصالحَ المُلْك ومنهم من يخدم الملك خدمة اللسانِ للنفس التى هى عبارة عن الضمائر ، وإخراج الصُور الذهنية إلى المخاطبين . وهذا عمل كاتب الملك ، الذى يأمُرُ عنه ، وينهى ، ويخاطبُ . ومنهم من يخدم الملك خدمة اليد للنفس التى هى تُناوِلُ الحاجاتِ ، وتقرّبُ مايحتاج إلى تقريبه ، وتدفع الأذى عن الجسم ، والمغالبة ، والمباطشة إذا احتيج إليهما ، وهذا عمل أجناد الملك وأنصاره ، وخدامه الذين يقومون بمرافق الملك . ومنهم من يخدم الملك خدمة الرِّجل للنفس التى هى السَّعى والحركة إلى المواضع التى تستدعى حاجاته ومهماته . وهذا كرسل الملك . ومنهم من يخدم الملك خدمة البصر للنفس التى تلحظ له الأشياء وتحفظها ، وتشاهدها كأمناء الملك وعماله . ومنهم من يخدم الملك خدمة السمع للنفس التى هى آتيةٌ بالأصواتِ والأخبار على حقائقها ، وهذا عملُ أصحاب البريد الذين يفحصون ما غاب عن الملك ويطالعونه به .

وهذا دالٌ على أن أهل هذه الصناعة هم المتحمّلونَ لمعاظم شئون الملك ، والقائمون بجمهور أموره ، ولا ينبغى لأحد منهم أن يتعرض لنوع من أنواع خدمته إلا بعد مهارته فى هذا النوع ، وارتياضه به ، وثقته بنفاذه فيه . » [1] .

ويعرض لرتبة الوزارة فيقول :

« هى الرئاسة ، وصاحبُها يجب أنه يكون قيِّماً بجميع أنواع الكتابة ، وأقسامها ، عالماً بشروطها وأحكامها ، لأن كل ناظر فى فن من فنونها إليه يرفع ما ينظر فيه ، فلا

(١) ص ٢٢ أ من المخطوط .

يجوزُ أن يكون جاهلاً بشيء منه . وأن يكون نافذاً فى علوم الدين ، لأن الدين أساسُ الملك ،[والـذى يُبْنى عليه أمرُه . وأن يكون فاضِلَ العقل ، أصيل الرأيِ جيِّد الرُّويَّة ، ثاقِبَ البديهة ، جميل الصفح ، مترفعاً عن المباهاةِ برئاستهِ ، والمطاولةِ بمنزلته ، عفيفَ القلب] ، شريف النفس وقورا ، نصوحاً ، صموتاً عن الخوض فيما لايعنيه ، كثير الأناةِ ، منتهزاً للفرصةِ متصرّفا لبلاغتى المنطق واليد ، وفاضل الطبع ، مجبولاً على العدل ، عاليَ الهمة ، صادق اللهجة متأنياً فى وعيده ، يُلاينُ أهلَ الطاعة والانقياد ، ويغلظُ على ذَوِى المعصية والعناد ، لا يُسرِعُ إلى العقاب متهوّراً ، ولا يطمعُ فى إغفاله مُضّجعاً ، آخذاً بالتقوى عادلاً عن الهَوى ، لا يشقَى به المحقُّ ولو كان عدوًّا ، ولا يسعد به المبطلْ وإن كان وليًّا . سهل الحجاب ، مفتوح الباب ، لطيفاً باللّهيف المظلوم ، عَسوفاً على الغشوم الظلوم ، ومحباً للخير ، مستكملاً شروط المروءة وأقسامها فى سعة المنزلِ والطعام ، وجودَة الفرش والثياب ، وعطر الرائحة ، وفراهة الدّواب ، وكثرة الأصحاب ، من غير مبالغةٍ تطغَى وتزد هى ، ولا تقصير يَغُضُّ ويُغمض ، منتجنبا الغضب ، قليل اللهو والطرب ، مدارِساً للتجارب ، مُلابساً للنوائب ، عارفاً بتصرُّفِ الأحوال ، عارفاً بوجوه الأقوال ، ومصالح الأعمال ، مستوفياً لحقوقِ السلطانِ من غِير حيف على معامليه ، ورعيته ، معتمداً الإنصاف لهم ، والانتصاف منهم مقدماً أهل الفضيلة والدين والغناء ، مستكفيا للكفاةِ ، عَارفاً لذوى البيوتات والرتب أقدارهم ومنازلهم ، مُنزِلاً لهم بحيثُ يستحقُّون منها ، بصيراً بمكايد الحروب ومهاجمةِ الخطوب ، وتدبير الدولة ، وسياسة الرعية ، عارفاً بما يعتمد كل طبقة منها من عَسْفٍ ولطف ، وخشونةٍ ولين ، وما يصلحُ عليه من السيِّر المتضادَّة ، لا يشغَلُهُ كبيرُ أمر عن صغيره ، مقدّماً للحزم ، عامِلاً بالعزْمِ ، ناظراً فى العواقب ، مخلص النية ، صَحيح الطويَّة حارساً .

وسنذكر فى الباب العاشر مايحتاج إليه كافة الكتاب من الاعتقاد والتخلف والعمل إن شاء الله تعالى .

التوقيع : صاحب التوقيع هو يدُ الوزير ونائبه ، ومتولى العرض على الخليفة إذا غاب ، أو إذا لم يكن للسلطان وزير منصوب ؛ فالموقع يدخُلُ مدخله ، وينبغى أن يكون مستقلاً بكل مايستقل به الوزراء ، ماضياً فى جميع علوم الدواوين على اختلافها ، عارفا بأوضاعها وبوجوه الأموال وتثميرها ، وصلاح الرجال وسياستها .

* * * *

فأما صاحب التوقيع فلا يحتمل تقصيرهُ فى شيء بالجملة لأنه يدُ السلطانِ ولسانُه ، إذا علمَ منه أصحابُ الدواوين غباوَةً ، وتخلفاً وجهلاً بما يُخرجونه أوْغَلوا فى المؤامرات وورُّوا عما يؤديهم إلى الارتفاق .

وينبغي أن يكون مع تحصيل هذه الأدوات كلها حسنَ الخطّ ، سريعَ البديهةِ ، ديِّناً أميناً ، نزِهَ النفسِ ، لا يخرجُ عما يُؤْمَرُ به ، ولا يتعدَّاهُ لغرضٍ من الأغراضِ كلّها .

الرسائل : صاحبُ هذه الرتبة هو لسانُ المَلك الناطِقُ بحجَّتِه ، المترجَمُ عن عقلِهِ ومقالته . وهو حليةُ المملكةِ وزينتُها ، يَرفَعُ ذكرها ، ويعلى قدرها ، ويعظم خطرها ويدُلّ على فضل ملكها ورئيسها . وهو المتصرف عن السلطانَ فى الوعدِ والوعيد ، والترهيب والترغيب ، والاعماد والإذمام ، واقتضاء المعانى التى تُقِرُّ الولىَّ على ولائِه وطاعته وتبعِدُ العدوَّ العاصى عن عداوته ومعصيته .

وينبغي أن يكون قيِّمًا بكل مايشتمل عليه كتابُنا هذا من الآداب الأُخرى التى تؤخذ من مواضعها .

ومتولى الرسائل [ينوب مناب الوزير] إذا لم يكن للسلطان صاحبُ توقيع ينوب منابه ، ويكفى فيما يتولاه .

ويجب أن يكون موجزاً فى موضع الإيجاز ، مطنبا فى موضع الإطناب ، حتى إذا وقَّع جمع المعانى وأجملها ، وإذا كتب بسطها وفصَّلها .

وهو يدرس طبقات الكتاب ، ويتقدمهم بالفضائل التى ذكرنا فى الباب الأُول من هذا الكتاب . وبما خص به من وقارِ العلم ، وفصل الحكم ، ورجاحة الفهم ، وصواب المنطق ، والتمييز عما فى الطبقات الأُخر من الطيش ، وخفة الأَحلام ، وزلل اللسان .

وقالت الحكماء : « الكتَّابُ كالجوارح ، كلُّ جارحةٍ منها ترفُد الأُخرى فى عملها . وكاتب الرسائل بمنزلة الروح المشاركةِ للبدن المدبِّرةِ لجميع جوارحه وحواسِّه . » . وهذا تمثيلٌ صحيح ، لأن هذا الكاتب هو الذى يمثل لكل عامل فى تقليده مايعمل عليه ، ويتصفح مايرد منه ، ويصرِّفه بالأمر والنهى على مايؤدى إلى استقامة ماعلق به .

وهو يحتاج إلى أن يكون بين يديه كُتَّابٌ يُعينُونَهُ فى الإنشاء ، وآدابُهم كآدابه .

وأما آداب الصناعة والسياسة (التى يفتقر إليها كاتب الرسائل) ، فقد استوفينا القول عليها فى البابين التاسع والعاشر من هذا الكتاب . والله الموفق للصواب . بحقه وكرمه .

* * * *

الباب الثانى
فى البلاغة وأقسامها

البلاغة : هى عبارة عن الصور القائمة فى النفس بمعان جامعة لتلك الصور ، تُحدُّ بها وألفاظ مطابقة لتلك المعانى مساوية لها .

ولصعوبة المَرام فى تركيب الكلام من ألفاظ ومعان مشتملة على الصنعة التى وصفناها قلَّ البلغاءُ ، وصارت البلاغة صناعة تخصُّ قوماً دون قوم . ولو كانت البلاغة ، إنما هى العبارةُ عن هذه الصور بحصرِ كل مُعبِّر تساوَى الناسُ فى حيازة فضيلتها ، ولم يكن لأحدهم مزية على الآخر فيها ، ولكن أكثرهم يَعدلُ عن طريقها من وجهين . أحدهما أن يأتى بألفاظ عامية مبتذلةٍ ، سخيفة النسج ، لا تدل على المعانى فى أول وهلة ، والأخرى أن تكون الألفاظ مكررة بأعيانها ، أو مترادفة ينوبُ بعضُها عن بعض فى الدلالة عن المعنى المراد . ويؤخذ الطريق إلى الإبانة عنه بجزء منها . على أن استعمال الألفاظ المترادفة أيسر قبحاً من استعمال الألفاظ المكررة لما تفيده المترادفة من توكيد المعنى . وفى التنزيل العزيز : ﴿ ومن الجبال جددٌ بيضٌ ، وحمرٌ مختلفٌ ألوانها ، وغرابيبُ سود ﴾ والغربيبُ هو الأسودُ . وقال ذو الرمة :

لمياءُ فى شفتيها حوَّةٌ لَعَسٌ   وفى اللِّثاةِ وفى أنيابها شَنَبُ

ولعسٌ وحوةٌ مترادفة ، لكن اختلف اللفظان . ويجوز أن يكون لمَّا ذكر الحوَّة خشى أن يتوهم السامع مُراداً قبيحاً ، فبيَّنَ أنه لعسٌ . واللَّعَسُ حسنٌ فى الشفَاةِ . وأمثال هذا كثير . وإنما يجبُ تجنُّبُ الألفاظ المترادفة فى المواضع التى تقتضى الإيجاز والاختصار ، ولا يحسنُ فيها الإطالة والإكثار كمخاطبة الأعيان من الرؤساء الذين لا يجوز أن تشغل

أسماعُهم بما يقطعُهم عن أمورهم المهمة ، ولا أن ينفق زمانهم فيما هممهم مصروفةٌ إلى مطالعةِ غيره .

وهذه الطبقة من الناس لا يجوز الإقدام عليهم بمخاطبة ولا مكاتبة إلا بعد المعرفة برتب الألفاظ والمعانى ، ليخصها منها بما تقتضيه منزلتها . ومخاطبة أهل الذكاء والفطنة الذين يستدلون بصدور الأمور على أعجازها ، ويتطرق فكرهم من أوائلها إلى أواخرها ، ويكونُ الإيجاز عندهم أوقعَ من الإطناب ، والاختصارُ أنجع من الإسهاب .

فأما مواقف الخطباء بين العامة وفى الأندية الحافلة ، والعهود السلطانية والمكاتبات فى [الأمور] والمخاطبات المبنية على إيصال المعانى إلى من لا يتصورها بأدنى إشارة ، وما جرى هذا المجرى ، فإن الإطالة فيها وترديد الألفاظَ المترادفةِ داخلٌ فى عقد البلاغة ، وغير خارج عنه .

فأما البلاغة عند العرب فهى الإشارةُ إلى المعنى بلمحةٍ تدلُّ عليه ، لأنهم يستحبُّون أن تكون الألفاظُ أقلَّ منَ المعانى فى المقدار والكثرة . قال بعضهم يصف كلاماً : كأنَّ ألفاظه قوالبُ لمعانيه . يريد أنها مطابقةٌ لها غيرُ زائدةٍ عليها ، ولا ناقصةٍ عنها . وهذا هو الطريق القاصدُ إلى البلاغة ، وعليه يجبُ أن يعتمد ، إلا فى الأماكن التى يحسن بها الاطناب .

وحكى عن جعفر بن يحيى البرمكى ، وكان من بلغاء عصره أنه قال : إذا كان الايجازُ كافيا كان الإطنابُ عيّاً ، وإذا كان التطويل واجباً كان التقصير عجزا .

وعلى هذا الترتيب تنقسم البلاغة إلى ثلاثة أقسام :
إشارةٌ دالةٌ ، ومساواةُ لفظٍ بمعنى ، واسهابٌ تقتضيه الحال .

وبين البلاغة والإبانةِ فرقٌ ذكره أفلاطونُ وهو أن الإبانة وصف الشىء بأخص الألفاظ وأوجزها ، وترتيبها فى القولِ على مراتبها فيه ، واعتماد المتكلم أن يكون كلامه كالقالب لمعناه .

والبلاغة وصف الشىء بالغاية مما يليقُ به ، وتوخّى حسنَ مافى اللغة من اللفظ وأقربه إلى إفهام المستمعين .

ولفضيلةٌ البلاغة إنما يحوزها ويفوز بها من بَعُد خاطره فى تأليف الكلام مخاطبا ،

ومكاتباً . لأن فى المخاطبة والمكاتبة موضعاً تكون الحاجةُ فيه إلى البلاغة بوزن الحاجة إليها فى الآخر ؛ فأما من استقلّ بإحدى الحالين وعجز عن الأخرى فهابطٌ عن الدرجة العالية التى توجبُ حيازة الفضيلة .

وقد حُدِّدت البلاغة بحدود ، ورسمت برسوم رأينا أن نورد بعضها على سبيل التحلية والترصيع :

فمنها قولهم : البلاغةُ إيصال المعنى إلى النفس فى أحسن صورة من اللفظ . والبلاغةُ حسنُ اللفظ مع صحة المعنى . والبلاغة حسنُ العبارة مع صحةِ الدلالة . والبلاغةُ أن يبلغ السَّامعَ أقصىَ نهاية المعنى بالإبانة له والإفصاح عنه . والبلاغة الإيجاز مع الإفهام ، والتصرُّف من غير إضْجار . والبلاغة القوةُ على البيان مع حسن النظام . والبلاغة إدراك المطالب ، وإقناعُ السامع .

وقال اليونانى : البلاغةتصحيحالأقسام ، واختيار الكلام .
وقال الرومى : البلاغه حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارةُ يوم الإطالة .
وقال الهندى : البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسنُ الإشارة .
وقال الفارسىُّ : البلاغة أن تعرف الفصل من الوصل .
وقال العربى : البلاغة أن يكون اللفظ محيطاً بمعناك ، مجليًا عن مَغْزاك .
وقال معاوية لصُحارٍ العبدى : ماهذه البلاغةُ التى فيكم ؟. قال : شىء تجيش به صدورنا ثم تقذفهُ على ألسنتِنا .
وقال الأصمعى : البليغ من طبّق المفْصَلَ وأغْنَاكَ عن المفَسَّر .
وقال الجرجانى : البلاغة الايجاز والاطناب .
وقال ارسطاليس : الزيادة فى المنطق بعض منها .
وقال خالد بن صفوان : أحسنُ الكلام ماقلت ألفاظه وكثرت معانيه .
وقيـــل : أحسنُ الكلام ماشوّق أوّلُ استماعٍ آخره .

وكلمَ رجلٌ سُقراط بكلامٍ طويل ، فقال : أنسانى أول كلامه بُعد العهدِ به ، وفارقَ وهمى .

وقيل : قليلٌ يُشتَهى خيرٌ من كثيرٍ يُحتَوى .

وروى عن النبى ﷺ : « رحم الله عبداً أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته .

وقيل : لا يستحقُّ كلامٌ اسم البلاغة حتى يسبقَ لفظه معناه ، ومعناهُ لفظِه ، فلا يكونَن لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك .

ولما كانت البلاغةُ كما قلنا فيما سلف إنما هي : العبارةُ المركّبةُ من الألفاظِ والمعانى وجبَ أن نتكلم على الألفاظ البسيطة الجارية مجرى الموضوع لها بمفردها . ومايلزم من تصحيحها على شرائط اللغة . وما ينبغى من تخيّر ما يقع منها فى الصناعة ، وعلى المعانى الدالة ، والحالة منها محلّها ، بمجردها . ومنزلتها من الألفاظ ، وما يتعين من تهذيبها وتحريرها . وعلى الألفاظ المركبة منها التى هى ذات البلاغة . وتعرُّف الطريق الأقصد إلى تركيب المعنى التركيب الذى ينظم فى سِلْكِ البلاغة . ونحن قائلون فى ذلك بحسب الاختصار إن شاء الله .

قول فى الألفاظ البسيطة :

الكلام فى الألفاظ البسيطة ينقسم إلى قسمين :

أحدهما — أحكامها واستعمالها على أحكام اللغة .

والثانى — تخير مايقع منها فى صناعة الكتابة .

فأما أحكامها واستعمالها على أقسام اللغة ، فإنه ينقسم إلى قسمين :
أحدهما يحلُّ من الصناعة محلّ المادة ، والآخر يحلُّ منها محل الأداة . فأما الذى يحلُّ منها محلَّ المادة فهو بسائط اللغة من الأسماء والأفعال والحروف . والكاتب يحتاج إلى التوسع فيها ، والمعرفة بسهلها ووعرها ، ومن تناولها من العلماء بها ، والكتب الموضوعة فيها الصحيحة النقل حتى يسلَمَ من الذَّلل والتصحيف وتقليد العامة فيما وضعته على غير موضعه ، والمهارة فى معرفة مشترك الألفاظ ومتواطئها ومشتقها ، ومتباينها .

فأما المشتركة فهى التي تدلُّ على أسماء متباينة الذوات كلفظة « العين » التى تدل على العين المبصرة ، وعين الماء ، وعين الذهب وغير ذلك .

وأما المتواطئة فهى التى تدلُّ على أشياء متفقة الذوات كلفظة الحيوان الدالة على الإنسان والفرس ، وكلّ حيٌّ .

وأما المشتقة فهى التى اشتقت من معانيها كفصيح من الفصاحة ، وعالم من العلم . وحكيم من الحكمة .. ونحوها .

وأما المتباينة فهى التى يدلُّ كلٌّ منها على خلاف مايدُل عليه الآخر .

وأما المترادفة : فهى التى يدلُّ لك واحدٌ منها على مثل مايدلُ الآخر نحو|قطْر، وغَيْث ، ومطر »[1] .

وبعد حديثه|عن الألفاظ يتحدث عن آلات الكاتب ، وأدائه من معرفة علم النحو وغيره من العلوم كعلم البيان والبلاغة ، ويعرض لأقسام البلاغة فيعقد الباب الثالث فى أقسامها الفرعية ، يتحدث فيه عن المجاز ، والاستعارة والتشبيه ، وأبواب البديع كالسجع ، والجناس ، والتآلف ، والتتميم ، والبيان .

ويبدو أنه يحتذى أو يتأثر كثيرا بما كتبه الرمانى فى « النكت » عن أبواب البلاغة العشرة ، بالاضافة إلى حديث الحاتمى فى حلية المحاضرة والحالى والعاطل .

هذا وقد عقد الرمّانى باباً فى حسن البيان ، وجاء ابن خلف بمجمل كلام الرمانى وأضاف إليه تعريفات ، فى تحديد المصطلح[2] .

والاشارة ، إلى غير ذلك من الأبواب التى تناقلها علماء البديع منذ القرن الرابع وحتى عصره .

ولاشك أنه متأثر بالجو العام للدراسات البلاغية فى القرن الرابع ، فهو يسلك فى حديثه عن البلاغة مسلك كثير منهم ، ولا يدخل فى تقسيمات وتفريعات من جاءوا بعد ذلك فى أخريات القرن الخامس وفى القرن السادس من المشارقة خاصة .

ويعقد باباً فى النظم ، يتحدث فيه حديثاً مخالفا لحديث عبد القاهر . يقول :

« قولٌ فى النظم »[3]

« نظم الكلام هو تأليفه على وضع الاتساق وتساوى الأقسام واعتدال الفصول والأجزاء ، لأن الكلام قد يُؤَلَّف مخلَّطاً غير متناسب ولا مقسَّم ، فلا يستحق أسم النظم ، وإنما يستحق هذا الاسم إذا كان مرصوفاً مرتَّباً ، ذاهباً فى مذهب الانتظام وموازنة الأقسام والنظم على خمسة أضرب : نقلٌ ، وفصلٌ ، ووزنٌ ، وقلبٌ ومثلٌ .

---

(١) المخطوط ص ٣٢ ب .

(٢) المخطوط ص ٧٢ أ ــ ب .

(٣) المخطوط ص ٧٥ .

فالنقل فى الكلام بالتقديم والتأخير . وهو يحسنُ من ستةِ وجوه :
الأول أن تكون الحاجةُ إلى ذكره أشدّ ، والعلم به أهم كقولك : قطع اللصُّ الأمير .
والثانى أن يكون التأخير أليق بما اتصل به من الكلام ، كقوله تعالى : ﴿ وتغشىَ وجوهَهُم النارُ ﴾ فهذا أليق بما أخذه وهو قوله : ﴿ إن الله سَريعُ الحساب ﴾ . وهو أيضا أشكل بما قبله لأن قبله مقرنين فى الأصفاد .
والثالث أن يكون الأول أعرف من الثانى وذلك فى الإخبار والصفات .

وأما الإخبار فكقولك : زيدٌ قائمٌ معى . إذ بدأ بذكر زيد ليطلع النَّفس بذكر مايعرف إلى الأخبار عنه بما لا يُعرف ... إلخ » .

ويذكر أشياء أخرى تعطى اقناعاً بأن الرجل ينطلق من تصور شـ ـ لتصور عبد القاهر فى نظرية النظم وإن كانا يشتركان فى بعض الظواهر الأسلوبيه .

وأورد ابن خلف فى آخر أبواب الكتاب نماذج من المراسلات المختلفة ، والكتب والعهود الصادرة عن الخلفاء الفاطميين ، مكتوبة بقلمه ، وصادرة بأسلوبه وقد بدأها بالافتتاحية من البسملة والحمد ، والصلاة والسلام على رسول الله وعترةِ واختصاص أمير المؤمنين على بن أبى طالب والإفاضة فى الثناء عليه ، وأظهار مآثره فى الدين ثم الدعاء للخليفة الفاطمى والنص على أن جده على بن أبى طالب إلى غير ذلك مما اختصت به المكاتبات الفاطمية لتثبيث دعواهم ، واقامة نسبهم إلى علي بن أبى طالب وزوجه فاطمة الزهراء ابنة النبى ﷺ والنص كذلك على الوصية والولاية وانتقالها فى الأصلاب حتى خلفاء الفاطميين :

والكتاب عظيم الفائدة جليل القدر بما حوى من نماذج لكتابة العصر ، ورسوم الكتَّاب وطرائقهم فى الكتابة ، مع بعض نماذج ووثائق تلقى أضواء كثيرة على النظم الادارية فى الدولة الفاطمية . فضلاً عما جاء به من أبواب متعلقة بالبيان والبلاغة .

وقد أفاد من الكتاب جماعة ممن تناولوا الموضوع من بعده ، ونقلوا عنه ولم يشيروا أو نقلوا كثيرا وأشاروا كثيراً ، وأهملوا الاشارة أيضاً كثيراً مثل القلقشندى فى صبح الأعشى الذى حفظ لنا كثيرا من فصول « مواد البيان » وأبوابه ، ينقل عنه فيقول قال علي بن خلف ، أو قال على بن خلف فى مواد البيان ، أو قال فى مواد البيان ... إلخ ، وينقل أحياناً دون إشارة ، وبمقارنة الكلام بما جاء فى مخطوط كتاب مواد البيان نجده

كلام ابن خلف نفسه يكاد لا يتغير إلا فى بعض اللفظ ، وقد يأتى بمضمون أقواله دون لفظه .

وهكذا تستطيع أن تقول إن مواد البيان كان دعامة هامة لصبح الأعشى وكان منهجه سبيلاً هاديًا سار عليه القلقشندى فى كتابه الكبير .

قانون ديوان الرسائل [1]

لعلي بن منجب الصيرفي

وهذا الكتاب لعلى بن منجب يعد رسالة صغيرة تلخص مابسطه ابن خلف فى كتابه السابق عرضه .

يقول فى مقدمته بعد الديباجة :

« ولما رأيت أن أولى الفطر الصحيحة ، والعقول الرجيحة قد سبقوا إلى النظر فى سائر العلوم ، ووضعوا فيها المصنفات ، ونظمّوا ذكرها فى الكتب المؤلفات ، ثم انتقلوا عن ذلك إلى قوانين الأشياء فقرروا فى كل منها ماكان أصلاً يعتمد عليه ، ونبهوا عمّا كان فساداً لنظامها أو أدّى إليه . وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات ، لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات . فوجدتهم قد صنفوا فى كتابة الخراج كتبا كثيرة ، وعنوا بكتابة الجيش عناية كبيرة فألف كل من العراقيين والمصريين فى ذلك ما وصلت إليه طاقته ، واقتضاه ماأوجبه وقته ، والبلد الذى يحتله .

فأما صناعة الشعر وذكر بديعه ، وسائر أنواعه وتناسبه فقد أكثر كل منهم فيه المقالَ ، وتوسع فى تصنيفه وأطال .

ورأيتهم أهملوا الكلام فى الكتابة الجليلة قدرا ، النبيهة ذكرا ، الرفيعة شأنا ، العلية مكانا ، التى هى كتابة حضرة الملك المشتملة على الإنشاء إلى ملوك الدول ، والمكاتبة عنه إلى من قل من الأمم وجلّ . وكيف يجب أن يكون متوليها وماتخصه من الأخلاق والأدوات وما يجب أن يكون فيه من الفضائل ، وأن يجتنبه من القبائح والرذائل ، وكيف ينبغى أن تكون أمور أتباعه ومُعينيه ، وأى الحالات ينبغى أن يكون عليها ديوان الرسائل الذى يتولاه وينظر فيه . فلم يذكروا من ذلك دقيقاً ولا جليلا [2] ، ولا شرحوا منه كثيرا ولا قليلا . ومن ألم منهم بصناعة الكتابة فإنما تكلم على قوانين بعض

(١) نشر الكتاب بعناية وتحقيق علي بهجت بمصر سنة ١٩٠٥ م

(٢) يدور فى ذهنى سؤال : هل يصح أن يكون ابن الصيرفى أحق [illegible] وكيف [illegible] ؟؟

أمورها ، ولم يلم بشيء مما تركوا . وأكثرهم حشا كتبه الموضوعة لذلك باللغة والنحو والتصريف فخرجت عن الغرض المقصود ، لأن لكل نوع من هذه الأنواع كتبا مفردة تستغرق مايؤتى به فى هذه المؤلفات ، وتشتمل على أضعافه فالتماسها من هناك أولى ، وطلبها من معدنها أجدرُ وأحرى .

ولما وجدتُ المتقدمين قد تركوا ذلك وأهملوه ، وأضاعوه على مر السنين وأغفلوه ، علمت أن الله تعالى قد ذكر فضيلةً تصنيفه وإظهاره ، ومغبة بروزه إلى الوجود واشتهاره لهذه الأيام الزاهرة ، العادلة المضيئة السيدية الأجليّة الأفضلية ، التى رفعت الجور عن الأمم ، وملكت فضيلتى السيف والقلم . واستولت على غايات المفاخر ، واستبدّتْ بغررِ المناقب والمآثر . ووجب أن تنتج فيها الأفكار العقيمة ، وتظهر لها أسرارُ الفضل المكتومة ، فاستخرت الله تعالى وتوكلت عليه ، وعوَّلت على تصنيف هذا الكتاب وإيداعه ما تصلُ القدرة إليه من أنواع الترتيبات وفنون الفضائل وسميته بـ « قانون الرسائل » وجعلته أبواباً وفصولاً ، وبينت الأمر فيه على مايقتضيه حكم البلاد المصرية ، والأمر المتعارف فيها الآن وغيره من الأوقات . والله المستعان ، وهو حسبى ونعم الوكيل . » [١]

فصل فى الغرض المقصود بهذا الكتاب

الغرض بهذا الكتاب أن يكون قانونا يعرف به من يجب أن يولى رياسة ديوان الرسائل وتقدمته ، ومن يجب أن يكون تلوه فى المنزلة من المستخدمين فيه من الكتاب واحداً واحداً من الخدّام الذين لا غنىً عنهم ، والصفات التى ينبغى أن يكون عليها كل واحد منهم ، والطرق التى إذا سُلكت فى هذا الديوان أدَّتْ إلى ضبط أموره وأمن معها اختلال شيءٍ منها ، وفسادٍ يدخل عليها ، وسهل وجوده مايلقى من علم أمورٍ تقادم عهدها وبعدت أزمنتها . ويجب أن يكون هذا الكتاب مخلداً فى ديوان الرسائِل يقتدِى به كل من يخدم فيه ، ويستضيءُ بهدايته ، ويحتذى أمثلته ، وأن يؤخذ المستخدمُون فى الديوان بفهمه وبحفظه .



(١) قانون الرسائل ص

فصل « فى الأحوال التى يجب أن يكون عليها رئيس هذا الديوان وما ينبغى أن يكون حاصلاً عنده من العلوم والمعارف والأخلاق وما يرجى من الانتفاع بالمصالح ويخشى من ضرر عنده »[1]

أول مايجب أن يكون رئيس ديوان الرسائل ومتولى الكتابة عن حضرة الملك ذا دين وورع وأمانة ، فإنه بمنزلة كبيرة ، ورتبة خطيرة يتحكم بها فى أرواح الناس وأموالهم لأنه لو زاد أدنى كلمة أو حذف أيسر حرف ، أو كتم شيئاً قد علمه ، أو تأول لفظاً بغير معناه أو حرّفه عن جهته أدى إلى ضرر من لا يستوجب الضرر ، ونفع من لا يستوجب النفع ، بل ربما ضرّ من يجبُ نفعه ، ونفع من يجبُ الإضرارُ به ، وموّه على الملك حتى يشكر المذموم ويذم المشكور ، فمتى لم يكن له دينٌ يحجزه عن ارتكاب المآثم ، وورع يزعُه عن احتقاب المحارم . وأمانة لا تمدُّ يده مبها إلى رشوة تُحسّنُ له الدخول فى المسالك المذمومة ، ونزاهة نفس تصدُفه عن الشهوات المُوردة له إلى الموارد المكروهة . وقعت الدولة منه فى ورطة شنعاء ، وداهية دهياء . وكان الضررُ بمكانة أكثر من الانتفاع ، ولم يكن إلا وبالاً على الملك ، لأنه يحسّن له غير الحسن ، ويقبحّ له غير القبيح ، ويزكّى من لا خير فيه ، ويذمُّ من لاتُذمُّ مساعيه . ويضع الأشياء فى غير مواضعها ، فيهدّ بقلمه مالا تبنيه السيوف والرماح فى السنين المتطاولة .

ويجب أن يكون دينه الإسلام لأنه من الملك بمنزلة الوزير ، والوزير مشتقٌّ من المؤازرة والمؤازرة هى المساعدة والمعاونة والمظاهرة ، ولا يجب أن يتخذ لهذا الأمر من يخرج عن دين الإسلام لقول الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهمُ أولياءُ بعض ، ومن يتولّه منكم فإنه منهم ، إنّ الله لا يهدى القوم الظالمين » . فأول ما يتجنب الملك من نهى الله جل جلاله ، وتقدست أسماؤه عن اتخاذه وليا ، بل الواجب على الإطلاق ، وخاصة بحكم الوقت الحاضر أن لا يُطْلِع على أسراره من يخالف شريعة الإسلام لقرب دار العدو ، خذله الله وأباده .

وإن من الفطرة التى جُبل كلُّ أحدٍ عليها حينَ تَنَّ شخصٌ من الناس إلى من يرى رأيه ويدين بدينه . وهذا أمرٌ يجده كل أحدٍ فى نفسه .

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٤ .

ومع ذلك فإن كاتب الرسائل أحوج الناس إلى الاستشهادِ بكلام الله تعالى فى أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتمثُّل بنواهيه وأوامره ، والذكر لقوارعه وزواجره . وهو حلية الرسائل وزينة الانشاءات ، والذى يشُدُّ قوى الكلام ، ويثبت صحته فى الأفهام ، فمتى خلتْ منه كانت عاطلةً من المحاسن ، عاريةً من الفضائل ، لأنه الحجة التى لا تدحض ، والحقيقة التى لا ترفض . فإذا كان الكاتب من الذمة لم يكن لديه من ذلك شيء ، وأتت كتبه مغسولةً من أفضل الكلام ، وخاليةً مما يتبرك به أصل الإيمان والاسلام ، ومقصّرة عن رتبةِ الكمال ، ومنسوبةً إلى العجز والإخذال . فإن تعاطى الكاتب الذمىُّ حفظ شيء منه وكتبه ، فقد أُبيحت حرمةُ كتاب الله تعالى وانتهكت ، وأمكنَ منه من يتخذه هزواً ولعبا . والله سبحانه يقول : ﴿ فى كتاب مكنون لا يمسُّه إلا المطهَّرون ﴾ . فقد وضح أنه لايجوزُ أن يرقى إلى هذه الرتبة إلَّا مسلمٌ . ومع ذلك فيجب أن يكون متمذهباً بالمذهب الذى عليه الملك ليكون أنقى جيباً وأفصح غيباً . فإن المسلمين ، وإن جمعتهم كلمة الإسلام فقد اختص كل واحد منهم بمذهب يباين به بعضهم بعضاً حتى حدث بذلك بينهم من التباعد والتنافر . قريبٌ مما بين المسلمين والمشركين . فكما وجب أن يكون المؤهل لهذه الرتبةِ مسلماً كذلك يجب أن يكون على مذهب الملك الذى اختص به من بين مذاهب المسلمين ليكون مجتهدا فى خدمته ، مبالغاً فى نصيحته ، يمحضهُ الرأىَ عن صفو نيّةٍ ، لا يخالطه كدرٌ ، وخلوصِ محبةٍ لا يشوبهُ مَذقٌ . ويكون الملكُ قد أحسن لنفسه الاختيار ، وأجَادَ لدولته النظر ، وأراح نفسه من كلفة التحفظ منه والحذر له .

ويجب أن يكون من يختار لهذه الرتبة ممكَّناً من عقله ، فإن العقلَ أسُّ الفضائل وأصل المناقب ، ومن لا عقل له فلا انتفاع به . وكيف لا يكون كذلك وهو المستشار فى كبار الأمور ، والمشارك فى النظر فى سداد الثغور . وإنما كلام المرء ورأيه على قدر عقله . فإذا كان تام العقل كامل الرأى وضع الأشياء فى مكاتَباته ومخاطباته مواضعها ، وأتى بالكلام من وجهته، وخاطب كلَّ أحدٍ عن السلطان بما تقتضيه الحال التى يكون عليها ، فيشتدُّ ماكانت الشدَّةُ نافعة ، ويلين حين يكون إلى اللين محتاجا ويوبخ من لا يقتضى فعله أكثر من التوبيخ ، ويذمُّ من تعدّى إلى مايستوجُب الذم ويأتى بأصناف المكاتبات التى يقتضيها اختلاف الحالات واقعة مواقعها ، صائبة مراميها .

ويجب أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسنى منزلة ، وبحيث لا يوجد

أحد فى عصره يفوقه فى هذا الفن ، فإنه لسان السلطان الذى ينطق به ، ويده التى بها يكتب . وربَّ كاتب بليغ أصاب الغرض فى كتابته فأغنى صاحبه عن الكتائب ، وأعمل القلم فكفاه إعمالَ البيضِ القواضبِ . فإذا كان جيّدَ الفطرة صائِبَ الرأى ، حسن الألفاظَ تتأتى له المعانى الجزلة ، فيجلوها فى الألفاظ السهلة ، ويختصر بحيث يكون الاختصار كافياً ، ويطيل حين لا يجد من الإطالة بُدًّا ، ويُهَدِّدُ فيملأ القلوب روعة ، ويشكر فيلقى على النفوس جَذَلاً ومسرَّة . ثم إن كتبَ إلى ملكٍ كبير وذى رتبةٍ خطير عظمٌ مملكة صاحبه ،وفَخَّمَهَا فى معاريض كلامه من غير أن يوحى أن ذلك قصدُه ، واستصفى نية المكاتب ، واستجابَ مودّته فى أثناء الخطاب ، وإن لم يَظْهرْ أن ذلكَ مطلبهُ ، بل يريد أنّ الحظَّ والنصيبَ الأوفى إذا تم ذلك معه .

وينبغى أن يكون مضطلعاً بفنون الكتابة ، عالماً بأصولها وفصولها ، مستقلاً بأعبائها يفوق فى النهضةِ جميع المستخدمين معه والمعنيين له ، لأنه الأصلُ الذى هم فروعه والمقدم الذى تعرض عليه كتبهم وتأليفاتهم .

وهذا المقدم يجب أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى أو قيِّماً بقراءته إذا قرأه فإنه شديد الحاجةِ إليه كما تقدم بيانه ، ويكون حافظاً لأخبار الرسول ، والأئمة من ذريته صلى الله عليهم أجمعين ، قيِّماً بها أو بأكثرها ، راوياً لأخبار الملوك ، وأيام العرب ، ووقائعهم ، وأخبار العجم وسائر الأمم ، وما جرى فى أيام الملوك الماضين ، وما حدث من وزرائهم وكتابهم ، وقوادهم وأخبارهم ، فإنه أحوج الناس إلى ذلك ، وربما دفعته مضايق الكتاب إلى الاستشهاد بشيءٍ منه ، فمتى لم يكنّ لديه ملكة له ومحفوظاً عنده وقف وقوف المحجم ، ولجلج لجلجة المجمجم .

ويجب أن يكون لديه شيءٌ من معرفة الحلال والحرام ، ليكون واجداً له متى دُفع إلى أن يسأل عنه .

ويجب أن يكون حافظاً للأشعار ، راويا للكثير منها ، يستشهدُ بما عناهُ يحسن الاستشهاد به فى بعض المواضع ، فإن للمنظوم من البهجة فى النفس ، والواقع فى القلب ما ليس للمنثور ، وربما حلَّ منه ما يحتاج إليه ، فأتى به منثوراً فى أثناء رسائله وطىّ إنشاءاته ، فكم من معنى بديع ، رائع قد حظِىَ به المنظوم دون المنثور .

وإن كمل لأن يكون محسناً لنظم الشعر مجيداً فيه كان أجمل لصفاته ، وأكمل

دواته . ويجب أن يكون قد قرأ من العربية والتصريف واللغةِ أكثرها ، فإنه أحوج لناس إلى هذه العلوم . »

ونكتفى بهذا الجزء من كتاب ابن الصيرفى ، وهو كما قلنا تلخيص شديد لما جاء فى كتب السابقين عن الكتابة والكتّاب ، وأحسب أنه اطلع على كتاب ابن خلف ولكنه كتم ذلك ، لأنه سار على نهجه وإن جاء مخلصاً ، ويعيب عليه الاطالة والافاضة فيما يتصل بأدوات الكاتب ، وما ينبغى أن يحصله من المعارف والعلوم حتى يكون جديراً بالكتابة للملوك والسلاطين .

ومهما يكن أمر هذه الكتب التى أُلِّفتْ فى الكتابةِ والكُتَّاب ، وصنعة الكتابة فإن الحديث عنها يؤدى إلى التعرف على أشياء كثيرة ، كما ألمحنا فى كلامنا عن « مواد البيان .» .

والمهم أن هذه الكتب ورسوم ديوان الانشاء ، وقوانينه أثرت بعد ذلك فيما ألف من مؤلفات تتناول الموضوع نفسه فى العصور التالية ، وعلى سبيل المثال فى القرن السادس ؛ والسابع ، والثامن أمثال كتب ضياء الدين بن الأثير ، وشهاب الدين محمود ، وعماد الدين بن الأثير .

والجدير بالذكر تلك المنافسة الشديدة بين الكُتَّاب والشعراء ، والمناظرات العديدة التى استهدفت بيان صنعة كل من الفئتين ، وميزة كل من الفنيين ، ولعل أكثر تلك المناظرات ، وأعمقها ، وأكثرها بسطاً ، وإيراداً للعديد من الجوانب للاحتجاج للكتابة على غيرها من سائر صناعات الكلام وفنونه كالخطابة والشعر ماأوردناه من قول على بن خلف .

ولعل دفاع ابن رشيق فى كتاب العمدة عن الشعر كان كذلك ضَرْباً من الرد على أمثال ابن خلف ممن يفضلون الكتابة والكُتَّاب على الشعر والشعراء .

ســـر الفصاحـــة

لابن ســـنان الخفاجـــي

قد يكون هذا الكتاب خارجاً عن موضوع الكتابين السابقين ، وهو الحديث عن الكتابة والكتاب ، لكنه لاشك قريب الصلة ، لأنه يعرض لصميم صناعة البيان وفصاحة التعبير التي يحرص كتاب الإنشاء عليها ، ويفردون لها الفصول فى كتب صنعة الكتابة .

وربما كان الأجدر بالحديث عن هذا الكتاب تناوله من ناحية البلاغة ، أو عند الحديث عن البلاغة والنقد ، إذ الفصاحة شقٌّ من البلاغة ، أو تتبدل وإياها وتتنازعان مضموناً واحداً ، ومعنى متقاربا .

وعلى أية حال فإن ابن سنان حين ألف كتابه أطلق اسم الفصاحة على كل جوانب علم البلاغة أو معظمها .

يقول مقدماً للكتاب : « أما بعد فإنى لما رأيت الناس مختلفين فى ماهية الفصاحة وحقيقتها « أودعت كتابى هذا طرفاً من شأنها . وجملةً من بيانها ، وقرّبت ذلك على الناظر وأوضحته للمتأمل . ولم أقل بالاختصار إلى الإخلال ، ولا مع الإسهاب إلى الإحلال . ومن الله أستمد المعونة والتوفيق .

إعلم أن الغرض من هذا الكتاب معرفةُ حقيقة الفصاحة ، والعلم بسرّها ، فمن الواجب أن نبين ثمرة ذلك وفائدته ، لتقع الرغبةُ فيه . فنقول :

أما العلوم الأدبيةُ فالأمر فى تأثير هذا العلم فيها واضحٌ ، لأن الزبدة منها والنكتة نظم الكلام على اختلاف تأليفه . ونقده ومعرفة مايختار منه مما يكره . وكلا الأمرين متعلقٌ بالفصاحة ، بل هو مقصورٌ على المعرفة بها ، فلا غنى للمنتحل الأدب عما نوضحه ونشرحه فى هذا الباب .» .

ويجعل المدخل إلى معرفة أسرار الفصاحة ضرورة شرعية هى التعرف على حقيقة اعجاز كتاب الله « القرآن » . ويرى ضرورة أن يعرف الباحث فى شأن الفصاحة شيئاً عن الأصوات ، وكنهها ، وجوهرها ، وطبيعتها ، باعتبارها ناتجة عن حركة عضوية فى

جسم الانسان كما تصدر الأصوات عن تحرك واصطدام فى غيره من الأجسام . والصوت هو جوهر الكلمة التى تعبرّ ، أو يعبر بها الانسان عن مراده . فيعقد فصلاً فى الأصوات وفلسفتها [1]، والفرق بينها وبين الألوان ، أو التضاد فى طبيعة كل منهما حيث أن الصوت عرضٌ غير ثابت بينما اللون عرض ثابت .. ويتنبه إلى أن سرعة انتقال الضوء الذى به يدرك اللون أسرع من انتقال الصوت » ثم يسمع الصوت بعد مهلة ، فيسبق النظر السمع » . والصوت لا يدرك على استمرار عكس اللون الذى يتوفر فيه الاستمرار وعليه ، فاحتاج الصوت إلى التقييد بالرسم وهو الكتابة .

ويعرض بعد هذه الفلسفة العامة فى حديث الصوت والضوء ، والعلاقة بين الكلمة المنطوقة ، والرسم فى الكتابة . إلى حديث عن الحروف والكلمات فى اللغة ، وأقوال العلماء فى ذلك ، فيحدثنا عن معنى « الحرف » العام الذى تتكون منه الكلمات ، والحرف بالمعنى الاصطلاحى فى علم النحو ، أى حرف الأداة . فيقول :

« أما تسمية أهل العربية أدوات المعانى نحو من ، وقد حروفاً فإنهم زعموا أنهم سموها بذلك لأنها تأتى فى أول الكلام وآخره ، فصارت كالحروف أى الحدود له . وقد قال بعضهم إنما سميت حروفا لانحرافها عن الأسماء والأفعال . وهى عندنا نحن كلامٌ ، لأنها منتظمةٌ من حرفين فصاعداً . » .

ويقول : « والحروف تختلف باختلاف مقاطع الصوت ، حتى شبَّه بعضهُم الحلق والفمَ بالنَّاى ، لأن الصوت يخرج منه مستطيلاً ساذجاً ، فإذا وضعت الأنامل على خروقه ووقعت المزاوجة بينها سُمع لكل حرفٍ منها صوتٌ لا يشبهُ صاحبه ، فكذلك إذا وقع الصوت فى الحلق والفم بالاعتماد على جهات مختلفة ، سمعت الأصواتُ المختلفةُ التى هى حروف . وهذا لا يوجد فى صوت الحجر وغيره ، لأنه لا مقاطع فيه للصوت . وليس يحتاج إلى حصر الحروف التى يتعلق بها . وإنما الغرض ذكر ما فى اللغة العربية التى كلامنا عليها ، لأن فى غيرها من اللغات حروفاً ليست فيها ، كلغة الأرْمَن وما جرى مجراها .

فحروف العربية تسعةٌ وعشرون حرفاً وهى :

الهمزة ، والألف والهاء والعين والحاء ، والغين والخاء ، والقاف ، والكاف

---

(١) سر الفصاحة ص ١٥ طبع دار الكتب العلمية ببيروت .

والضاد والجيم والشين واللام والراء ، والنون والطاء والدال والفاء والصاد والزاى والسين والظاء والذال و الثاء ، والفاء والباء والميم والواو .

وهذا ترتيبها فى المخارج .

وكان أبو العباس بن المبرد لايعتد بالهمزة ، ويجعل الحروف ثمانية وعشرين حرفاً . وقوله هذا عند النحويين مرفوضٌ . » [1]

* * * *

« ويلحق بهذه الحروف التى ذكرناها حروفٌ بعضها يحسن استعماله فى الفصيح من الكلام وبعضها لا يحسن . فالتى تحسن ستة حروف وهى : النون الخفيفة التى تخرج من الخيشوم والهمزة الخفيفة ، وألف الإمالة ، وألف لتفخيم ، وهى التى بها يُنحى نحو الواو وذلك كقولهم فى الزكاة — الزكاوة — والصاد التى كالزّاى ، نحو قولهم فى مصدر — مَزْدر والشين التى كالجيم نحو قولهم فى أشدق : أجْدَقْ .

والحروف التى لا تستحسنُ ثمانيةٌ وهى : التى بين الجيم والكاف نحو قولهم فى جلهم — كلهم — والجيم التى كالكاف نحو قولهم للرجل : ركُل ، والجيم التى كالشين نحو قولهم فى خرجت : خرشْتُ ، والطاء التى كالتاء كقولهم فى طلب : تلبْ والضاد الضعيفةُ كقولهم أشرد فى أضرد ، والصاد التى كالسين كقولهم سدَق فى صدق ، والطاء التى كالتاء كقولهم ثلم فى ظلَمَ ، والفاء التى كالباء كقولهم برند فى فِرنْد .

ومخارج هذه الحروف ستة عشر مخرجاً : ثلاثةٌ فى الحلق . فأولها من أقصاهُ مخرج الهمزة ، والألف والهاء ، وهذا على ترتيب سيبويه .

وزعم أبو الحسن الأخفش أن الهاء مع الألف لا قبلها ولا بعدها . ثم يليه من وسط الحلق مخرج العين والحاء . ثم من فوق ذلك مع أول الفم مخرج الغين والخاء . ثم من أقصى اللسان مخرج القاف . ومن أسفل ذلك وأدنى إلى مقدم الفم مخرج الكاف ومن وَسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء .

ومن أول حافة اللسان ومايليها من الأضراس مخرج الضاد . ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرفهِ بينها وبين مايليها من الحنك الأعلى مخرج اللام . ومن طرف اللسان

---

(1) سر الفصاحة ص ٢٦ — ٢٧ .

بينه وبين مافوق الثنايا مخرج النون . » [1].

وهكذا يفصل الحديث فى مخارج الحروف وأصواتها ، ويخرج منه إلى القول فى الكلام عامة ، وهو المركب من تلك الحروف فيعقد فصلاً يتحدث فيه عن المصطلح ، ومعناه ، واستخدام اللفظ فيقول : [2] .

« والكلام عندنا ماانتظم من هذه الحروف التى ذكرناها أو غيرها على مابينّاهُ من أننا لا نذكرُ إلا حروف اللغة العربية دون غيرها من اللغات وحدها ، ما انتظم من حرفين فصاعداً من الحروف المعقولة إذا وقع جملة تصح عنه أو من قَبيلهِ الإفادةُ .

وإنما شرطنا الانتظام لأنه لو أتى بحرفٍ ومضى زمانٌ وأتى بحرفٍ آخر لم يصحَّ وصف فعله بأنه كلام ، وذكرنا الحروف المعقولة لأن أصوات بعض الجمادات ربما تقطعت على وجهٍ يلتبسُ بالحروف ، ولكنها لا تتميز وتتفصَّلُ كتفصيل الحروف التى ذكرناها ، واشترطنا وقوع ذلك ممن يصح منه أو من قبيله الإفادة لئلا يلزم عليه أن يكون ما يُسمع من بعض الطيور كالببغاء وغيرها كلاماً . وقلنا القبيل دون الشخص ، لأن ما يسمع من المجنون يوصف بأنه كلامٌ ، وان لم يَصحَّ منه الفائدة وهو بحاله ، لكنها تصحُّ من قبيله . وليس كذلك الطائر . »

ويفصِّلُ القول فى حدّ الكلام وحقيقته على ماذكر العلماء ، كما يعرض للمتكلم بمثل ما عرض له فى الكلام فيقول : [3]

« وإذا كُنَّاقد بينَّا حد الكلام وحقيقته ، فينبغى أن نذكر حقيقة المتكلم فنقول : إن المتكلم من وقع الكلام الذى بينا حقيقته بحسب أحواله من قصده وإرادته واعتقاده ، وغير ذلك من الأمور الراجعة إليه حقيقة أو تقديراً .

والذى يدل على ذلك أن أهل اللغة متى علموا أو اعتقدوا وقوع الكلام بحسب أحوال أحدنا وصفوه بأنه متكلم ، ومتى لم يعلموا ذلك أو يعتقدوه لم يصفوه . فمجرى هذا الوصف فى معناه مجرى وصفهم لأحدنا بأنه ضاربٌ ومحركٌ ومسكنٌ ، وما أشبه ذلك من الأفعال ... » .

(١) سر الفصاحة ص ٢٩ ـــ ٣١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢ .

(٣) سر الفصاحة ٤٤ .

ويمضى فى الحديث عن هذا المتكلم حتى ينتهى إلى القول فى الحكاية والمحكىّ [1] ويعقد بعد هذا فصلاً فى اللغة . فيقول :

« اللغة عبارةٌ عمَّا يتواضع القوم عليه من الكلام ، أو يكون توقيفاً ... والصحيح أنَّ أصل اللغات مواضعةٌ ، وليس بتوقيف ، وإنما أوجب ذلك لأن توقيفه تعالى يفتقر إلى الاضطرار إلى قصره . والتكليف يمنع من ذلك . وإنما اقتصر إلى الاضطرار إلى قصده لأنه إن أحدث كلاماً لم يُعلم أنه قد أراد بعض المسميات دون بعض ، ولو اقترن بهذا الكلام إشارةٌ إلى مسمًّى دون غيره ، لأنا لا نعلمْ تَوَجُّه الكلام إلى ما توجهت الاشارةُ إليه ، وإنما يعلم ذلك بعضنا من بعض بالاضطرار إلى قصده وتخصص الإشارة بجهة المشار إليه لا يعلم بها هل الاسم للجسم أو للونه ، أو لغير ذلك من أحواله .

وأما إذا تقدمت المواصفة بيننا ، وخاطبنا القديم تعالى بها ، علمنا مراده ، لمطابقة تلك اللغة .

وأخذ ابن سنان بالرأى القائل بأن اللغة توقيف نتيجة اقتناعة العقلى باستحالة كونها توقيفاً للحجج التى أشار إليها . وهذا القول إذا ما اضفناه إلى أخذه فى القول بالمعرفة فى اعجاز القرآن يتضح الموقف العقلى لابن سنان ، ونحن نعلم أن بعض المعتزلة ممن أخذوا بمناهج العقل كالنظام إبراهيم بن سيار أول من نادى بهذا الرأى فى القرن الثانى للهجرة وأوائل القرن الثالث .

ويعرض بعد ذلك لبعض ميزات اللغة العربية على غيرها من اللغات ، ويقارنها ببعض ما ترامى إلى سمعه أو علمه من اللغات بحكم المكان والملاصقة ، وربما التعامل كذلك ، وأعنى اللغة الأرمنية وهى قريبة من بلدة بحلب ، واللغة الرومية وهى كذلك أيضا . ونعلم ماكان لتأثيرها على مناطق الشام منذ قديم الزمان ، وقد ظلت تحت سيطرة بيزنطة دهراً قبل الاسلام كما لم تنقطع علاقات الروم الوثيقة بالشام زمن الحرب والسلم طوال القرون الاسلامية فى عصور الأمويين والعباسيين والحروب الصليبية فى القرنين الخامس والسادس .

---

(١) سر الفصاحة ص ٤٦ — ٤٨ .

ويرى أن اللغة العربية تفضل كثيراً من اللغات بميزتين :
الأولى : سعة المسميات للمسمى الواحد .
والثانية : القدرة على الإيجاز .

يقول : [1]« فأما ما نحن بصدده عن ذكر اللغة العربية فلا خفاء بميزاتها على سائر اللغات ، وفضلها . أما السعةُ فالأمر فيها واضحٌ . ومن تتبع جميع اللغات لم يجد فيها — على ما سمعته — لغةً تضاهى اللغة العربية فى كثرة الأسماءِ للمسمَّى الواحد .

على أن اللغة الرومية بالضد ، فإن الاسم الواحد يوجد فيها للمسميات المختلفة كثيراً . وقد كان بعض اللغويين حصر أسماء السيف والأسد فى لغة العرب ، فكانت أوراقا عدة .

وهى مع السعة والكثرة أخصرُ اللغات فى إيصال المعانى . وفى النقل إليها يبينُ ذلك فليس كلامٌ ينقلُ إلى لغة العرب إلّا ويجيءُ الثانى أخصر من الأول مع سلامة المعانى وبقائها على حالها . وهذه بلا شك فضيلةٌ مشهورةٌ ، وميزةٌ كبيرةٌ . » .

قال : « وقد حُكِيَ أن بعض ملوك الروم — وأظنه نقفور [2]— سأل عن شعر المتنبى فأنشد له :

كـأن العيـسَ كانـتْ فـوق جفنـى مُنَاخـاتٍ ، فلما ثُـرْنَ سَـالا

وفُسِّرَ له معناه بالرومية ، فلم يعجبه ، وقال كلاماً معناه : ما أكذب هذا الرجل ! . كيف يمكن أن يُناخَ جملٌ على عين إنسان ! . » [3] .

كذلك أشار إلى فضيلتين أُخْرَيَيْن إحداهما تتصل بحسن الأصوات فى كلمات اللغة ، وعدم تكلفها الوعر المتعب ، وإنها تلفظ دائماً وتهمل كل ما خشن وقبح . وهذه قاعدة عامة فى كل اللغات .

والعلة الأخرى ليست مضافة إلى اللغة بل إلى أصحابها والمتكلمين بها وهذه الأخرى ليست فى بناء اللغة ولا هى خاصة من خواصها بل علة مضافة .

(١) سر الفصاحة ص ٤٩ .
(٢) هذا الملك كان معاصراً لسيف الدولة والمتنبى وكانت له وقائع كثيرة بالشام احتل فيها عدة مدن من بينها حلب وبعض مدن الشمال والساحل فى منتصف القرن الرابع .
(٣) سر الفصاحة ٥٠ .

يقول : [1] « ومما يدلُّ على فضل هذه اللغة العربية أيضا وتقدمها على جميع اللغات أن أربابها وأصحابها هم العربُ الذين لا أمة من الأمم تنازعهم فضائلهم ، ولا تباريهم فى مناقبهم ومحاسنهم . »

ثم يفصل بعد هذا فصلاً فى مناقب العرب التى اكتسبت بسببها لغتهم فضلاً على غيرها من اللغات .

الكـــلام فى الفصاحـــة

ويشير إلى الفصاحة وأصل استخدام اللفظ فيرى أنها الدلالة الواضحة على المعنى ، « وسُمِّىَ الكلام فصيحاً ، كما أنهم سمُّوه بَياناً لإعرابه عما عبّر عنه ، وإظهاره له إظهاراً جَليًّاً .

روى عن النبى ﷺ أنه قال : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش » .

والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورةٌ على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعانى . لا يقال فى كلمة واحدة لا تدلُّ على معنى يفضل عن مثلها بليغة ، وإن قيل فيها فصيحة ، وكل كلامٍ بليغ فصيح ، وليس كُلّ كلام فصيح بليغاً ، كالذى يقع فيه الإسهاب فى غير موضعه . »

ويستطرد استطرادات فى الحديث عن البلاغة وأقوال العلماء فيها ، وفضل الانسان على الجماد والحيوان بالكلام ، لكنه يراه الكلام المفيد الدال على العقل وليس مجرد الكلام .

ويعود إلى حديث الفصاحة فيقول : « ونبتدىء الآن بالكلام فيما أجرينا القول إليه ونقول : إن الفصاحة ـــ على ماقدمنا ـــ نعتٌ للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة . ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف ، وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم . وتلك الشروط تنقسم قسمين :

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٢ .

فالأول منها يوجدُ فى اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن يَنضَمَّ إليها شيءٌ من الألفاظ ، وتؤلف معه . والقسم الثانى يوجد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض .

وفى حديثه عن هذين القسمين يلمح إلى الانسجام والتعادل والتناسق ، فى نظام بعينه بين درجات الصوت ومخارجه ، ويقرن بين الصوت والسمع أداته ، واللون أو الشكل والعين أداته ، فكل ما تسترِيح له الأذن على النظم المخصوص من الحروف واصواتها مستعذبٌ مستحب ، وكل ما لا تستريح له من ذلك النظم مستقبحٌ منبوذ .

ويعلل جمال التأليف المتباعد المخارج أحيانا بقوله :

« وعلة هذا واضحةٌ ، وهى أن الحروف التى هى أصواتٌ تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ولا شكَّ فى أن الألوان المتباينة إذا جُمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة . لقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود . وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة ، لا يحسن النزاع فيه ، كانت العلة فى حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هى العلة فى حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة . وقد قال الشاعر :

فالوجـــهُ مثلُ الصبــحِ مبيـــضٌ والفرعُ مثـلُ الليــلِ مُسْـــودُّ
ضدان لما اســـتجمعا حسُـنا والضـــدُّ يُظهـر حُسْـنَهُ الضـــدُّ

* * * *

والثانى ـــ أن تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسناً ومزيةً على غيرها وإن تساويا فى التأليف من الحروف المتباعدة . كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يُتصَوَّرُ فى النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه .» .

ولا مراء فى أن ابن سنان توصل إلى هذا التذوق لجمال الصوت فى اللفظ ومقارنته بجمال اللون فى الصنعة الممثلة فى الثوب والآلة ، والصورة ، أو فى الفن المرئى عادة ما لم يمارس الاستماع للموسيقى والغناء ، والاستمتاع بمفاتن الجمال كل مشاهد جميل الصنعة من عناصر الفن فى الحياة ، وقد أشرنا إلى اهتمام الناس بالفن سماعاً فى الموسيقى والغناء ؛ ومشاهدة وممارسة مما ابدعه الفنان العربى المسلم من أدوات فنية جميلة وصفت لنا أو ادركتنا بعض نماذجها فدلتنا على جمال فى الذوق ، وبراعة فى الفن .

ولو كان الفن غير مباح أو محظور فى المسموع والمرئى لتوقفت ينابيع الفن فى كل مقروء ومنظوم أو منثور ، ولجفت مياه الحياة نفسها ، واصبحت بلقعاً كأن لم تغن بالأمس . ولكن الشواهد تؤكد تجدد الحياة ، وتطور الفن الاسلامى وإصرار المجتمع الإسلامى فى كل مرحلة من مراحل حياته على أن يمارس فنون السمع والبصر .

واستعان ابن سنان بكلام سابقيه ومعاصريه من البلغاء فى تأكيد أقواله ، كاستعانته بشعر المتنبى ونثر أبى القاسم والحسين المغربى (الوزير المغربى) فى بعض رسائله :

« وَرعَوْا هشيماً تأنفت روضة »

فإن تأنفت كلمةٌ لاخفاء بحسنها لوقوعها الموقع الذى ذكرته . وكذلك قول أبى الطيب المتنبى :

إذا سارت الأحداج فوق نباته ... تفاوح مسك الغانيات ورنده

فإن كلمة تفاوح فى غاية من الحسن . »

ويعدد بعد هذا شروط الفصاحة فى اللفظة المفردة فيجعلها ثمانية ، تتصل بالبناء الصوتى والتركيب للحروف من حيث الطول والقصر . والبناء الدلالى أو الاشتقاق كالتصغير .

وكذلك الحال فى الألفاظ المركبة أو الكلام المؤلف [1] وعنده الكلام المؤلف صناعةٌ كغيره من الصناعات ، وفناً كغيره من الفنون ، وتكمل كل صناعة بخمسة أشياء : الموضوع ، والصانع ، والصورة ، والآلة ، والغرض .

« فأما الموضوع فهو الكلام المؤلف من الأصوات على ماقدمته » ..

وأما الصانع المؤلف فهو الذى ينظم الكلام بعضه مع بعض ، كالشاعر والكاتب وغيرهما

وأما الصورة فهى كالفصل للكاتب والبيت للشاعر وما جرى مجراهما .

وأما الآلة فأقرب ماقيل فيها أنها الطبع ، والعلوم التى اكتسبتها بعد ذلك .

وأما الغرض فبحسب الكلام المؤلف . فإن كان مدحاً كان الغرض به قولاً ينبىء عن عظم حال الممدوح ، وإن كان هجواً فبالضد .

---

(١) ص ٩٢ .

ويقــول [1]

« ... ومع هذا البيان كله ، فالفصاحة عبارةٌ عن حسن التأليف فى الموضوع المختار فإذا كنت قد ذكرت الموضوعَ والوجه فى اختياره ، وعلى أى صفة يكون المرضىَّ منه والمكروه بما فيه مقنعٌ أو كفاية ، ثم شرعتهُ الآن فى الكلام على التأليف بحسب ذلك ، وبنيتُ منه الوجوه التى بها يحسنُ أو يقبحُ كان الكلام فى معرفة الفصاحة وحقيقتها واضحاً جلياً ... وكانت منزلة هذا الكتاب لمن لا يعرفُ البلاغة وطلاوة الكلام منزلة العروض لمن لا ذوقَ له يميزُ به بين صحيح النظم وفاسدهِ ، والنحو لمن لا يعرف طبعاً وعادة . وإنما يتكلف ويتصنع . وليس يمكن إيضاح الفصاحة لمن يجهلها إلا بهذا السبب وعلى هذا النحو ، لأن من له بها معرفةٌ وسابق علم إنما حصل له ذلك بالمخالطة والمناشدةِ وتأمل الاشعار الكثيرة ، والكلام المؤلف على طول الوقت وتراخى الأزمنة .

وليس يمكنه أن يحصر لمن أراد تعليمه كلّ بيت سمعه ، وفصل تأمله ، ولفظةٍ كرهها أو معنى حكم بفساده أو بصحته ، لأن هذا يحتاج إلى الزمان الطويل والأيام الكثيرة ، بل ولا يمكن حصوله البتة . » .

ويعدد شروط حسن التأليف وفصاحة النظم فى الكلام ، ومنها مايتفق مع شروط فصاحة اللفظة المفردة ، ومنها مايختلف .

فما يتفق عدم تكرار الحروف المتقاربة المخارج ، أو المتباعدة المخارج جداً ، ويدخل هذا فى باب التلاؤم الذى أشار إليه الرمانى فى « النكت » بين وجوه البلاغة العشرة .

كذلك استخدام الكلمة فيما يكره ذكره ، وهو ماسمى بالالتباس فى الدلالة يقبّح التأليف إذا أضيف إلى غيرها .

ومن هذه الشروط مالا علاقة له بالتأليف كالتصغير .

هناك أقسام خاصة بالتأليف ، مثل وضع الألفاظ فى مواضعها التى يقتضيها تسلسل المعنى دون تقديم أو تأخير يخلّان بسياق المعنى وهو ماسمى فى بعض كتب البلاغة بالمعاظلة من مثل قول الفرزدق :

---

(1) سر الفصاحة ص ٩٦ .

وما مثلـه فى الناسِ إلا مملكـــا أبو أمـة حىٌّ أبـوه يُقاربُـــهُ

وأن يجرى على عادة التراكيب فى اللغة دون إخلال بمواضع التوابع أو الضمائر ، فلا يفصل بين الصفة والموصوف ، أو بين المضاف والمضاف إليه ، والمقلوب من الكلام [1] .

وأدخل بعض عناصر علم البيان كالاستعارة فى التأليف الفصيح ، وجعل من وضع الالفاظ مواضعها حسن الاستعارة .

ومن وضع الألفاظ مواضعها أن لاتقع الكلمة حشواً . « وأصل الحشو أن يكون القصد به إصلاح الوزن أو تناسب القوافى وحرف الروى إن كان الكلام منظوماً ، وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان منثوراً ، من غير معنى تفيده أكثر من ذلك .» [1].

ومن وضع الألفاظ مواضعها تجنب ما اسماه المعاظلة، وهى غير التركيب المخلّ ، بل هى أن يركب اللفظ بعضه بعضاً ، وجعل منه الدلالة بلفظٍ غير مناسب للمدلول أو تتابع الأفعال على صيغة واحدة مثل قول أبى تمام .

خان الصفـاء أخٌ خان الزمان أخـاً عنه فلم يتخـــون جســمه الكمـد

وكقولـه :

يايوم شـردَ يـومَ لهـوى لهـــوه بصبابتـــى وأذلّ عــزَّ تجلـــدى

فقوله : يايوم شـردَ يـومَ لهـوى لهـــوَه

شديد التعاظل حتى كأنه سلسلة

ومنه أيضاً قول أبى تمام :

يوم أفاضَ جـوًى أغاضَ تعزيـاً خاضَ الهوى بحرَىْ حجاه المُـــزْبِد

ومن تأمل هذا النظم ، وماجاء فيه من تتابع الأفعال يجدْ أن هذا التتابع أفسد العاملَ ، أو داخل بين العواملِ فى الجملة ، فهو شبيه بالقول السابق الخاص باضطراب التركيب .

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٤ ـــ ١١٥ .

(٢) سر الفصاحة ص ١٤٦ .

وضد هذا التعاظل وتداخل العوامل مما يُبْهِمُ الكلام ، ويغشّى على المعنى فيه البناء السهل المتتابع الذى يدل فيه صدر اللفظ أو العبارة على عجزها وهو البناء الفصيح من مثل قول زهير بن أبى سلمى :

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يعشْ ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

لأنه لما قال فى أول البيت ـ سئمت ـ وقال ومن يعش ثمانين حولاً ـ اقتضى الكلام أن يكون فى آخره يسأم .» .

ورغم أن ابن سنان جعل هذا اللون من فصاحة بناء العبارة أو من شروط فصاحتها فى تصور اجمالى للفصاحة فى الجملة أو العبارة إلا أن علماء البديع من بعد لغرامهم بالتجزئة والتصنيف والتكاثر بالأبواب والأنواع جعلوا من هذا الضرب ، أو الشرط بابا من أنواع البديع وأسموه أسماء شتى كما فعلوا فى غيره مما جاء به ابن سنان فى شروط التأليف الفصيح ومواضع ما يستحسن من الحشو ، فقد فرعوا منه التتميم والإيغال ، وما إلى ذلك .

ويجعل من الفصاحة موافقة السجع ، واقامة البناء الصرفى ومراعاة التناسب بين الالفاظ ، ووقوع القوافى مواقعها ، ويفصل حتى فى شروط القوافى ومتى تحسن ومتى تصبح .

ومن فصاحة التأليف حمل اللفظ على اللفظ فى الترتيب ، ليكون ما يرجع إلى المقدم مقدما وما يرجع إلى المؤخر مؤخراً . ومثال ذلك قول الشريف الرضى :

قلبى وطرفى منك ، هذا فى حمى قيظ ، وهذا فى رياض ربيع

وجعل من التناسب فى التأليف المؤدى إلى فصاحته التجانس ، وهو ماكان بعض اللفظ مشتقاً من بعض أو كان معناهما واحداً أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفاً أو تتوافر صيغتا اللفظين مع اختلاف المعنى .

وكذلك المطابق ، المطابقة ، والإيجاز والمساواة والتذييل .

ويذكر بعد ذلك ضروباً من الافتنان فى التعبير .

ويعقد باباً فى المعانى المفردة ، فيجعل من فصاحة القول وضوح المعنى وعدم استحالته ، أو امتناعه ، أو تناقضه مع غيره مما يجاوره .

ومنه صحة التشبيه ، وصحة الأوصاف والأغراض ، وصحة النسق والنظم « وهو أن يستمر فى المعنى الواحد ، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقاً بالأول ، وغير منقطع عنه . ومن هذا خروج الشعراء من النسيب إلى المدح ، فإن المحدثين أجادوا التخلص .. »

ومنها حسن الابتداء ، بأن يكون الابتداء دالاً على المعنى المقصود فى الكلام .

ومنها ــ الفصاحة ــ صحة التفسير ، ومنها كمال المعنى دون غلو أو تفريط .

يعقد فى آخر الكتاب فصلاً فى « ذكر الأقوال الفاسدة فى نقد الكلام » وهو باب هام يتعقب فيه بعض الآراء التى وقف عليها فى كتب النقاد السابقين من أصحاب الطبقات ، وأصحاب كتب نقد الشعر والشعراء ، أو أصحاب البديع ، والبلاغة ، من أمثال الحاتمى فى حلية المحاضرة والحالى والعاطل وإنْ لم يذكره فى كل كتابه كما ذكره غيره وكرر ذكره كقدامة بن جعفر ، والآمدى ، وأبي علي الرماني ، والقاضي الجرجاني .

ويناقش قضية القدماء والمحدثين وتفضيل بعضهم للقدماء، مفنداً تلك الآراء مبيناً أن الشعر لا تتعلق جودته ولا جماله بشخص أو زمان أو مكان ، كما أن القولَ بأن المعاني قد سبق إليها القدماء قول غير صحيح[1] ، وكذلك الألفاظ والقول بصحة لفظ القدماء وفصاحته دون ألفاظ المحدثين أيضاً قول فيه نظر ... إلى غير ذلك مما يراه الأقوال الصادرة عن الهوى .

ويتبع ذلك الفصل بالقول فى التفضيل بين المنظوم والمنثور ، ومايقال فى تفضيل أحدهما على الآخر .

وهى القضية التى أثرناها عند الحديث عن ابن خلف وكتاب « مواد البيان » وقد أوردنا هنا إفاضته فى الاحتجاج لفضل النثر والكتابة على الشعر . وهاهو ابن سنان معاصره يخوض فى الموضوع نفسه كما خاض معهما أيضا ابن رشيق .

ويذهب ابن سنان إلى تفضيل النثر على الشعر مع أنه شاعر مجيد ، وهو مع ذلك لاينكر فضل الشعر فيورد أقوال من فضّلوه أولا لكنه يتبعها بقوله[2] :

---

(١) راجع ص ٢٨٢ .

(٢) سر الفصاحة ص ٨٨ .

« وأما الذى نقوله من تفضيل النثر على النظم فهو أن النثر يعلمُ فيه أمورٌ لاتُعلمُ فى النظم . كالمعرفة بالمخاطبات ، وبينة الكتب والعهود ، والتقليدات ، وأمور تقع بين الرؤساء والملوك يعرف بها الكاتب أمورهم ، ويطلع على خفي أسرارهم . وأن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة ، والانتفاع بها فى الأغراض ظاهرة . والشعر فضلٌ يستغنى عنه ، ولاتقودُ ضرورة إليه ، وأن منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل منها قدراً عاليا ، ولاذكراً جميلاً . والكاتب ينال بالكتابة الوزارة فمادونها من رُتب الرياسة ، وصناعةٌ تَبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعةٍ لاتوصل صاحبها إلى ذلك . وإن أكثر النظم إذا وجد لايُعبِّر عن جد ، ولا يترجمُ عن حق ، وإنما الحذق فيه الإفراط فى الكذب ، والغلوُّ فى المبالغة . وأكثر النثر شرح أمور متيقنة ، وأحوال مشاهدة . وماكثُر فيه الجدُّ والتحقيق أفضلُ مما كثر فيه الهزل والتغريب .

وقد يتسع الكلام فيما يخرج عن هذا المعنى ، وهذه الجملة كافية فى مثل هذا الموضع .»

وينتقل إلى الحديث عما ينبغى أن يزود به مؤلف الكلام نفسه من أدوات مما أشرنا إليه من قبل عند ابن خلف وابن الصيرفى من علم اللغة ورواية الشعر ومعرفة العروض بالنسبة للشاعر ، والمعرفة بأخبار العرب وأحاديثها وأنسابها وأمثالها ومنازلها وسيرها وصفة الحروب التى كانت لها .

ويحتاج الكاتب إلى معرفة المخاطبات وفنون المكاتبات والتوقيعات ، ورسوم التقليدات من الاطلاع على كتاب الله تعالى وشريعته وحديث رسول الله ﷺ وسنته . فإنه مدفوع إلى تقليد الولاة وعهود القضاة ، والتوقيعات فى المظالم ، والمكاتبة فى ضروب الحوادث .

« وبالجملة إن مؤلف الكلام لو عرف حقيقة كلّ علم . واطّلع على كل صناعة لأثّر ذلك فى تأليفه ومعانيه وألفاظه ، لأنه يدفع إلى أشياء يصفها ، فإذا خبر كل شيء وتحققه ، كان وصفه له أسهل ، ونعته أمكن . إلا أن المقصود فى هذا الموضع بيان مالا يسعه جهله دون ما إذا علمه أثر عنده علمه . فإن ذلك لا يقف على غاية .

والوصية لهما ترك التكلف ، والاسترسالُ مع الطبع ، وفرط التحرز وسوء الظن بالنفس ومشاورة أهل المعرفة ، وبغض الإكثار والإطالة ، وتجنب الإسهاب فى فن واحد

من فنون الصناعة ، فإن كلام الإنسان ترجمان عقله ، ومعيار فهمه ، وعنوان حسّه ، والدليل على كل أمر لولاه لخفى منه ، وبحسب ذلك يحتاج إلى فضل التثقيف.واجتماع اللب عند النظم والتأليف . » [1]

وبعد فابن سنان فى هذا الكتاب يكشف عن عالم أديب شاعر ، لا يتكلف فى أسلوبه السجع ككثير من أدباء عصره ، ومنهم أستاذه أبو العلاء المعرى نفسه الذى رأيناه فى رسائله إلى داعى الدعاة يتكلف السجع ولزوم مايلزم مما اضطر داعى الدعاة إلى أن يطلب إليه مخاطبته والكتابة إليه نازعا من كلامه تكلف هذين الحليتين .

وهو جرىء الرأى ، يأخذ بأسباب العقل مع الحفاظ على أصول الاسلام الحنيف وسنة النبى الصحيحة ، مع اعتداد باللغة والعروبة ، والأدب العربى شعره ونثره واعتبارهما مع كل ما يتصل بالثقافة العربية أساساً من اسس الثقافة الضرورية للأديب .

وهو على علم بالفلسفة والعلوم العقلية لا ينكر فائدتها فى تنمية العقل ، وإذكاء ناره ، وقدح زناده .

وله مواقف تتسم باعتزازه بشخصيته لا يتبع ما قيل من رأى ، ولا يخضعه للرأى جلال صاحبه ولا سبق زمانه ، بل يعرض للحقيقة ، فيبسطها أمام فكره ويناقش جوانبها حتى يصل إلى اقتناع فيتبع ما توصل إليه ويدعو له .

وتراه من هذا المنطلق يعارض كبار العلماء والأدباء أحيانا ويوافقهم أحيانا ، بل إنه كثيرا ما وقف من شيخه أبى العلاء نفسه موقف المعارضة والنقض لآرائه وشعره أو كتابته ولم يعترف برسائل أبى العلاء ، وقال إنه ليس كاتبا ولا يجيد صنعة الكتابة . مع كثرة ما لأبى العلاء من الرسائل التى قد تقول ما قال من الشعر .

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠ .

الباب الخامس
مشاهير الكتاب والأدباء

١ ــ الوزير المغربى [1]

أبو القاسم الحسين بن علي (٣٧٠ ــ ٤١٨ هـ)

وهو الحسين بن علي بن محمد المغربى ، لقب بالمغربى واشتهر بذلك فى كتب الأدب التى نقلت شعره وأخباره ، وكذلك فى كتب التاريخ . ولم يكن الرجل مغربيا ، بل كان مشرقيا ينتمى بنسبه إلى الملك الفارسى بهرام جور ، ولعل نسبته إلى المغرب بسبب عمل أحد أجداده فى ديوان المغرب ببغداد . قال : « وكان جد أبى وهو أبو الحسن علي بن محمد يخلف على ديوان المغرب ، فنسب به إلى المغربى » .

وانتقلت أسرة المغربى إلى بغداد من البصرة بعد ثورة البريديين ، وأقام جده الأعلى بأحد أحياء بغداد ، وبها رزق بالحسين الجد الأدنى للمترجم له .

وانتقل هذا الجد الحسين من بغداد إلى حلب ، والتحق ببلاط سيف الدولة كاتباً له .

وفى بلاط سيف الدولة التقى الجدُّ الكاتب بكثير من الأدباء والشعراء وكانت بينه وبين بعضهم صداقات ، كابن نباته الشاعر الذى مدحه . وترقى فى بلاط حلب حتى بلغ منزلة الوزارة وظل الجدُّ فى خدمة سيف الدولة حتى سنة ٣٥٤ هـ . (وكان هذا الجد قد ترك أبناءه ببغداد ، ولم يلحقهم به فى حلب ، وظلوا هناك فى عاصمة الخلافة) .

حتى نشأ ابناه : علىٌّ والد الوزير أبى القاسم ، وعمُّه . ويبدو أنهما بلغا من المنزلة فى الكتابة والأدب مبلغا جعل الإخشيد فى مصر يدعوهما .

(١) جمع الدكتور احسان عباس ، أخباره وبقايا شعره وترجم له ترجمة وافية فى كتاب أصدره باسمه « الوزير المغربى » طبع دار الشروق ــ ١٩٨٠ ــ عمان الأردن .

ويقول الدكتور إحسان [1]: « أما لماذا يفعل الإخشيد ذلك ، فأمرٌ يشبه اللغز . نعم كان أبوهما قد تعرف إلى الاخشيد أثناء وجوده فى الشام أول انتقاله إليها من بغدا . ولكن ماهى المكانة التى بلغها الأخوان فى بغداد حتى تحمل الإخشيد على إرسال فاتك بالمجنون ـــ ممدوح المتنبى ـــ من بعد ليجىء بهما إلى مصر عن طريق الرحبة ؟ » .

ويبدو أن إقامتهما بمصر لم تطل فقد رأينا الابن علياً والد أبى القاسم يخلف أباه فى خدمة سيف الدولة (ت ٣٥٦ هـ) بحلب ، وتزوج هنا من ولدت له ابنه ابا القاسم وكانت أم هذه الزوجة شيعية عراقية الموطن ، وكانت من أهل اليسار بالنعمانية ـــ بلدة بين واسط وبغداد .

وظل علي بن الحسين والد أبى القاسم بحلب بعد وفاة سيف الدولة فى خدمة ابنه سعد الدولة أبى المعالى . وكانت الدولة الفاطمية قد بدأت تستقر فى مصر ، وكان بينها وبين بنى حمدان علاقات متقلبة ، بين حرب وسلام ، ومنافسة على حكم الشام والسيطرة على بعض أجزائه .

وبلغ والد أبى القاسم فى دولة سعد الدولة منزلة رفيعة ، وصار ممدحاً من شعراء البلاط . ومنهم الشاعر عبد المحسن الصورى (٣٣٩ ـــ ٤١٩ هـ) الذى قال فيه:

أسرى بشأرٍ أم بدين ... علقت محاسنها بعينى

ويقول

كانت كذلك قبل أن ... يأتى على بنُ الحسين
فاليوم حال الشعر ثا ... لثة لحال الشعرين
أغنى وأغفى مدحُه الـ ... ـعالين عن كذب ومين

وظل الأب مع أبنائه فى حلب ينعمون فى دولة سعد الدولة حتى تقلبت الاحوال بالأمير وتغير قلبه على الوزير ، وحدثت بين الرجلين جفوة انتقل بعدها على بن الحسين الأب عن حلب ، ملا بصحب أهله .

---

(١) المصدر نفسه ص ١١ .

وذهب بعيداً عن سعد الدولة هرباً بنفسه ، واستقر بالكوفة لاجئا إلى مشهد الامام علي رضى الله عنه . وكاتب من هناك الخليفة العزيز بالله فى مصر فى الحضور إلى القاهرة فرحب بمقدمه .

وحلّ بالقاهرة ، فبعث باستقدام أهله وأبنائه من حلب .

وكان دخوله مصر فى النصف من جمادى الأولى سنة ٣٨١ ، وحل فى قصر العزيز كاتبا واستقر وأسرته بالقاهرة أو بالفسطاط (مصر) حيث كان بعض رجال الدولة يحلون .

وحدثت بالشام أمورٌ استدعت العزيز أن يبعث بعلى بن المغربى الكاتب إلى الشام لينصر غلاماً لسعد الدولة يكجور على سيده ، فلم يفلح ، وقتل يكجور وفرّ على بن المغربى إلى الرقة .

وتوفى سعد الدولة ، وكان على بن المغربى بالرقة فكاتب العزيز بالله يسهّل له أمر حلب فبعث العزيز بقائده منجوكتين على أن يلحق به ابن المغربى . وزحف جيش الفاطميين وعلى رأسه منجوكتين ومعه ابن المغربى « على » ، فتحرك ابن سعد الدولة للاستنجاد بالروم وملكهم باسيل ، والتقى جيش الروم وجيش الفاطميين ، وانتصر منجوكتين الفاطمي وكسر باسيل وجنوده . وسهل الطريق بعدها إلى حلب ، إلّا أن الصلح تم بين الحلبيين والفاطميين فلم يدخل الجيش الفاطمى حلب .

وغضب العزيز لهذا الصلح وبعث يؤنب قائده والكاتب علياً ابن المغربى .

وتوفى العزيز وتولى الحاكم بأمر الله ، وكان الوزير على قد عاد إلى مصر ، وحلّ فى مكانه بقصر الخلافة . وكان من المقربين من الحاكم « الذين يصحبون الخليفة حين يبرز للناس أو يجلس فى العشايا فى قصره . وكان يجلس خمسة عن يمينه وخمسة عن يساره وابن المغربى وأخوه بين الخمسة الذين على يساره .

وظلت الأحوال على ذلك حتى أمر الحاكم بقتل الوزير ابن المغربى على وأخيه ، وابناء علىّ ولم يكن أبو القاسم بين من أدركه سيف الحاكم .

وهكذا نجد حياة أبى القاسم متقلبةً ، غير مستقرة ، ولد فى عزّ سعد الدولة ودولته ، ثم لم يلبث الصبىُّ أن وجد نفسه أسيراً فى حلب مع أمه وإخوته ، ووجد أباه مغضوباً

عليه من أمير حلب فارا من غضبه إلى العراق ، وملتجئاً إلى الكوفة ثم إلى القاهرة . ويخرج أبو القاسم مع أسرته للحاق بأبيه فى مصر وهو آنذاك لم يتعد مرحلة الصبا إلى الشباب . جاء الصبى إذا إلى مصر وأقام بها وتلقى علومه فى القاهرة والفسطاط العامرتين آنذاك بالعلم والعلماء .

ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره كان « يستظهر القرآن وعدة من الكتب المحررة فى اللغة والنحو ، ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم » كذلك كان قادرا فى تلك السن المبكرة على نظم الشعر ، والتصرف فى النثر ، ويبلغ فى الخط مايقصّرُ عنه زملاؤه ونظراؤه ، وكذلك فى الحساب والجبر والمقابلة مايزيد عما يحتاج إليه الكاتب .

ويبدو أن والده كان يعدّه ليخلفه فى الكتابة والوزارة ، ويرقى رتبة جده وأبيه ومكانتهما فى هذه الصناعة . وقد كان للكتابة منزلتها الرفيعة لأنها كانت تمهد لمنزلة الوزارة على ما بيناه فيما عرضنا له من أحاديث الكتاب من قبل .

ووجد الشاب الحسين فى مجالات العلم ومجالسه بالقاهرة والفسطاط بُغيته ، فقد كانت دار العلم أو دار الحكمة التى بناها الحاكم موئلاً للعلماء من كل جنس ومذهب ، عامرة بالكتب والمجالس والمناظرات ، كذلك كانت مكتبة القصر الفاطمى ، متاحة لناشدى القراءة والتزود بالمعرفة من مصنفاتها العديدة ، وكانت العناية بها وتمرتاديها على مابينا من الخلفاء والقائمين عليها.وقرأ الحسين ، وتزود من المصحف براد عميم ، كما جلس إلى العلماء فى دار الحكمة أو صحب مجلس والده ، ومن كان يجتمع إليه .

وملأ السمع والبصر بكل هذا ، وتعرف على علماء العصر بمصر ، ممن علت كعبه وقل نظيره، وهم كُثرٌ فى كل علم وفنّ من أمثال خُشْدة بن محمد الغربى اللغوى ، والحافظ عبد الغنى بن سعيد المصرى حافظ مصر فى عصره ، والمقرىء الأنطاكى أبى على الحسن بن سليمان أحفظ أهل زمانه للقراءات . ومحمد بن الحسين الجمى النحوى .

وكان لهؤلاء الشيوخ اللغويين والنحويين أثرهم فى ثقافة أبى القاسم ، واهتمامه بعلوم اللغة والنحو فى مطلع حياته .

وكان يجلس إلى غير هؤلاء الشيوخ ، من شيوخ الحديث والفقه .

وتعرف فى مصر كذلك إلى الوزير أبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف

بابن حنزابه وحدّث عنه وروى كتاب « إصلاح المنطق » لابن السكيت .

وذكر أنه كان يجلس إلى ابن حنزابة ويحاوره فى شعر المتنبى ، وعرف أن هذا العلامة الوزير حرّض ابن وكيع التنيسى على تأليف كتابه فى سرقات المتنبى ، والذى سماه « المنصف » .

وصحبه كذلك فى مصر بعيد رحيله من الشام ، وعمل استاذا له على بن منصور الحلبى المعروف [1] بابن القارح صاحب الرسالة المشهورة إلى أبى العلاء ، والذى عمل عليها رسالة الغفران .

ولكن صحبته لابن القارح لم تلبث أن انقلبت إلى عداء ومناوأة . وقد ألمح إلى ذلك ابن القارح فى رسالته إلى أبى العلاء على مامرَّ بنا .

وبدأ أبو القاسم عطاءه العلمى باختصار كتاب « إصلاح المنطق » ، ووصف العلاء هذا المختصر بقوله : « تناهى باختصاره ، وأوفى على جميع فوائده ، حتي لم يفته شيء من لفظه ، وغير من أبوابه ما أوجب التدبيرُ تغييرَه للحاجةِ إلى الاختصار وجمع كلّ نوع إلى ما يليق به . » ، وسمى هذا الاختصار بـ « المنخّل » .

وكان عملُ ابن المغربى فى اختصار اصلاح المنطق مدعاةً لاعجاب بعض علماء عصره كأبى العلاء المعرّى [2] ، ودليلاً على ذكاء أبى القاسم ، ومقدرته ، وتعمقه فى علوم اللغة فى تلك السنّ المبكرة . وأكد هذا قول ابن بسام بعد أن اطلع على الكتاب : « فإنه غايةٌ لا يتعاطاها إلا من بَهر عتِقُه ، واشتهر سبقُه » [3].

وظلَّ أبو القاسم مقيما بمصر طوال أربعة عشر عاماً أو تزيد قليلاً حتى بلغ مبلغ الرجولة،ولعله شارك أباه وعمه فى ديوان الإنشاء للحاكم بأمر الله . ولم ينقطع طوال هذه السنين عن تحصيل العلم ، ومجالسة العلماء ، إذ يقول عن نفسه :

« فإنى نشأت وغُديتُ بكتب الحديث وحفظ القرآن ، ومثافنة الفقهاء ، ومجالسة العلماء ، ووالله ما رأيت فى تلك البلاد ـــ يعنى مصر ـــ مأدبة ولا وليمة إلا

---

(١) يستبعد احسان عباس تأديب ابن القارح للحسين ص ٢٣ .

(٢) أشاد بهذا الكتاب فى رسالته « الإغريضية » ، وراجع ابن المغربى لإحسان ص ٢٦ .

(٣) الذخيرة ٤/٤٧٦

لمقرئين ، ولا كنتُ متشاغِلاً إلا بعلم أو دين » .

وربما ألف كتابه « أدب الخواص [1] في تلك المرحلة من حياته ، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين وفى حدود سنة ٣٩٥ هـ . كما ألف فى هذه المرحلة كذلك معظم كتبه كالإيناس فى الأنساب ، وكتاب النساء .

وتمر الأيام تباعاً ، ويعيش ابن المغربى مع والده وعمه واخوته فى ظل دولة الحاكم بأمر الله منعمين بالغين من الجاه مبلغاً ، ومن الثراء مبلغا ، حتى إن الحاكم كان يجرى عليهم كل سنةٍ ستة آلاف دينار ، وهو مبلغ ليس بالهيِّن فى ذلك الزمان إذا عرف أن ديناراً واحداً كان يمكن أن يعيش عليه إنسانٌ طوالَ الشهر .

وكان على بن الحسين والد أبى القاسم من شيوخ الدول ، معظماً مكرماً .

ولكن الأيام جرت على غير هوى آل المغربى ، فتغيرت الريح ، ودارت فى الخفاء المؤامرات ، لعب فيها خصوم آل المغربى ومنافسوهم فى قصر الخلافة دوراً ليوغروا صدر الحاكم عليهم . ووجدت هذه المؤامرات صدًى لما فيما كان يجرى على لسان الحسين الشاب الطموح من عبارات تؤخذ على أنها رغبة فى السلطان ، وعدم رِضىً بما هو عليه من مكانة فى خدمة الخليفة .

فقد روى ابن القارح أن الحسين قال له ذات يوم : ما نرضى بالخمول الذى نحن فيه فقال ابن القارح : وأى خمولٍ هنا ؟ تأخذون من مولانا ـــ خلد الله ملكه فى كل سنة ستة آلاف دينار ، وأبوك من شيوخ الدولة ، وهو معظم مكرم . فقال الحسين : أريد أن تُصارَ إلى أبوابنا الكتائب والمواكب والمقانب ، ولا أرضى بأن يُجرى علينا كالولدان والنسوان .

ولعل هذا الموقف يعطى صورة لشخصية أبى القاسم ، الذكاء والاندفاع ، وعدم الرضا بالأقل ، بل طموح دائماً إلى الأعلى والأكثر . وهو فى هذا القلق الطامح يذكرنا بشخصيه أبى الطيب المتنبى على ماتبدت لنا فى شعره . وربما ساعد أبا القاسم على هذا الطموح ما شاهده فى عصره من انتفاضات بعض الولايات ، وصعود بعض الأمراء إلى الامارة بعد مغامرات ، وانقلابات . لعله حدَّث نفسه يوماً بأن ينقلب على الحاكم ،

---

(١) أدب الخواص للوزير المغربى تحقيق الشيخ حمد الجاسر ، طبع الرياض سنة ١٩٨٠ ص ٨٦ .

ويدبر له من الأعوان ما يُمكِّنه من هذا الغرض . وقد اشار إحسان عباس إلى شواهد تشير إلى تلك الرغبة ، والتى لم تظل حبيسه صدره ، بل لعله سعى ومهَّد ، واتصل بمن يرى فيه معيناً .. فتناقلت الرواة أخبار ما يفعله الحسين إلى والده الشيخ على بن الحسين فأوجس من ذلك خيفة .

أبلغ ابن القارح ما أحسَّه من تصرفات الحسين إلى والده فقال له : « ما أخوفنى أن يخضبَ أبو القاسم هذه من هذه — وقبض على لحيته وهامته . ». وقال أبوه مرة أخرى : « أنا أخاف همة أبى القاسم أن تنْزو به إلى أن يوردنا وِرْداً لا صدَر عنه . » .

وبلغت أسماع الحاكم ما يدور فى الخفاء ، ولعله صبر حتى تأكد مما يدبره القاسم ويسعى إليه ، وانتظر الفرصة للبطش فى تكتم كعادته ، يبطش والعدو فى غرة ، غير آخذ حذره ، بل لعله يبطش وقد أوهم من يبطش به بالأمان والاطمئنان .

وهكذا لم يصبر الحاكم طويلاً على مايدور فى الخفاء ، ويدبره أبو القاسم ويغرى به بعض رءوس الدولة ، ليوغر صدورهم على الحاكم ، فأنزل بآل المغربى النازلة ، وأوقع بهم الواقعة ، فأمر سيافه بأن يقتلهم : الوالد على بن الحسين وأخاه محمداً ، وابناءهما . فنفّذ القتل وقطعت الرءوس .

وكانت وقعةٌ برمكيةٌ أخرى . بسيف الحاكم ، ولكن هذا السيف لم ينل رأس أبى القاسم ، اذ استطاع بدهائه أن يفلت منه ، وليس ذلك بالأمر السهل . واختفى أياماً ، ولعله غادر الفسطاط مشرِّقاً ، متنكراً على هيأة جمَّالٍ أو حمَّال كما تروى بعض الروايات ليلحق بقافلة تغادر مصر عبر صحراء الشرقية وسيناء إلى فلسطين فالرملة حيث آل الجراح .

وكانت مذبحة آل المغربى يوم الثالث من ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ ، وظل أبو القاسم مختفياً منذ اليوم حتى يوم الثانى عشر من الشهر الذى خرج فيه إلى الرملة .

وفى الرملة استجار بحسّان بن المفرج بن دغفل بن الجراح الطائى — وكانوا من أعداء الفاطميين التقليديين ، فأجاره من الحاكم فأنشده قصيدة يثنى فيها عليه وعلى قبيلته يقول فيها :

يا طيّئَ الخيراتِ بين جلالِكُم أمنُ الشريدِ وهمَّةُ الطلّاب

فهش حسّان له ، وطمأنه وسكنّ من روعه .

وفى صحبة حسّان بن المفرج أعدّ أبو القاسم للانتقام من الحاكم معتمداً على قبيلة طيء ومن والاهامن الأعراب ، ونفوذ آل الجراح على فلسطين وجنوب الشام . واتخذ من العداوة القديمة بين الفاطميين وبنى الجراح منطلقاً لتنفيذ مؤامرته للانتقام .

وحدث أن بعث الحاكم أحد قادته الاتراك يارختكين على رأس قوة إلى الشام لاعادة الأمن إليها ، فانتهز أبو القاسم الفرصة لتحريض حسّان بن المفرج على قائد الفاطميين ، فانقض عليه وهو فى الطريق إلى الشام وتم أسره وتعذيبه ثم قتله .

ونهبت حامية الرملة العسكرية من قبل الفاطميين ، كل ذلك بتدبير من الوزير أبى القاسم وتحريضه . ولم يكتف بذلك ، بل أطمع حساناً فى الاستقلال عن الفاطميين وحرضه على أن يبحث عن خليفة جديد ليكتسب الشرعية يدين له بالولاء ظاهرا وأغراه بأن يستميل أحد أشراف مكة من العلويين ، وهو أبو الفتوح الحسن بن جعفر صاحب مكة . وقال : إنه لا مطعن ولا مغمز فى نسبه . أى إلى الإمام على وكانت هناك مطاعن وشكوك قد أثيرت حول نسب الفاطميين .

وذهب أبو القاسم سفيراً من حسّان بن المفرج إلى أبى الفتوح فى مكة ليستميله إلى مايدبره من خطة تولى الخلافة معارضاً للفاطميين . وأحجم أبو الفتوح أول الأمر متعللاً بقلة المال فى الظاهر ، وهيبة للفاطميين وخشية من انتقام الحاكم فى الحقيقة ولكن الداهية أبا القاسم استطاع أن يذلل عقباته ، وأن يُفرخ من روعه ، وأن يهوّن له الأمر بما يَبسُه ، ويفتله من قول حتى لانت عريكة أبى الفتوح ، وشرع فى تنفيذ ما اتفق عليه . أن يكون خليفة ، وإن ارتكب فى سبيل ذلك المحرمات التى سهّل له أبو القاسم اقترافها فى سبيل غايته ـــ الخلافة ـــ ، وهى غاية عزيزة تهون فى سبيلها وترخص كل المحرمات حتى لو كانت استار الكعبة وحليتها التى تؤخذ وتسكُّ دنانيراً تسمّى الكعبة !! . حتى ولو سلب الناس أموالهم واتخذها مدداً لشراء الأعوان والسلاح .

وهكذا تمكن أبو القاسم من تنصيب أبى الفتوح العلوى خليفة ، ولقّب بالرّاشد بالله على عادة ما يتخذه الخلفاء من ألقاب .

وعاد أبو القاسم بعد اطمئنانه إلى نجاح خطته فى مقابلة خلافة الحاكم بخلافة أخرى

تناجزه ، وتتخذ من مكة العاصمة الدينية للمسلمين مقرًّا له . ولهذا ما له من أثر فى الدعوة للخليفة الجديد . عاد أبو القاسم إذا إلى الرملة ، وكله أمل فى أن يبلغ غايته التى صورها له حقده ورغبته فى الانتقام .

عاد إلى الرملة وقد حقق ما سفر من أجله ، وجاء الخليفة الجديد لزيارة الرملة مقر مؤيديه من آل الجراح ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، ودُشّن للمنصب الجديد وخطب الخطباء بين يديه بالتأييد والدعاء .

وكان أبو الحسن التهامى الشاعر قد اتخذ من الرملة دار إقامة ، ومدح آل المفرج بن الجراح ، وتقلد بالرملة الخطابة ، وجمعت بينه وبين أبى القاسم الحسين بن على صلة وثيقة ، واتصل شعره به ، وظهرت تلك الصلة فى أربع من قصائده .

ومعلوم أن الشاعر التهامى ، جاء إلى مصر فى مهمة سرّية ، هى على مايذكر المؤرخون لدعوة عرب بنى قرة شرق البلاد للخروج والثورة على الحاكم ، لصالح أصحاب الرملة من آل المفرج بن الجراح والاحتمال كبير أن للوزير المغربى يداً فى هذه البعثة السريّة للشاعر .

ولم يتح لخطة أبى القاسم وتدبيره النجاح ، فقد علم الحاكم بما يدبّر بالرملة والحجاز وكان داهية كذلك ، فأمهل للأمر ، وأملى للمدبرين حتى ينتهز فرصة ، ولم يبادر بالمجابهة بالقوة . وحاول الإغراء بالمال ، ولوّح بالعفو إذا رجع الخارجون عن غيهم ، خاصة وأن الخطة لم يكتمل لها النجاح .

وبدأ الخوف يَدُبُّ فى صدور الخلفاء المتآمرين ، وفشلت مهمة التهامى فى مصر ، فاعتقل وتردد آل المفرج فى المضى قُدماً ، ورأى أبو الفتوح الأمر ، وقد أخذ يتفلت من بين يديه وأن هذه الخلافة المزعومة لم تكن إلا سرابا ، فنكص على عقبيه

واستجاب حسّانُ بن المفرج لما لوّح به الحاكم من المال والعفو :

« وأرسل أمَّةَ إلى مصر ومعها تذكرة بما يريده من حوائج ، وفى جملتها أن تُهدَى إليه جاريةٌ من إماءِ القصر ، وأن ينال إقطاعاً وتقريرا . فتكفل له الحاكم بكل ما طلب ، وكتب له أمانا بخطه ، وجهز له جاريةً تحمل كميةً طائِلةً من المال ، ولأبيه كذلك » [1].

(1) الوزير المغربى لاحسان عباس ص ٤٩ .

ورأى أبو الفتوح ما يجرى ، وأيقن أن الأمر خرج من يده ، وأن ابن المغربى قد خدعه فقال لأبى القاسم : « أغويتنى وأخرجتنى من بلدى ، ونعمتى وإمارتى ، وجعلتنى فى أيدى هؤلاء ينفقون سُوقَهم بى عند الحاكم ، ويبيعونى بيعاً بالدَّراهم ، فيجب عليك أن تخلصنى كما أوقعتنى ، وتسهّل سبيلى بالعودة إلى الحجاز ، فإنى راضٍ من الغنيمة بالاياب ، ومتى لم تفعل اضطررت أن أركب فرسى ، وأركب التغرير فى طلب النجاة . » .

وهكذا انتهت هذه المسرحية نهاية لا ترضى مؤلفها أبا القاسم ، بل جرت عليه وبالاً وضيقت أمامه السُّبل ، وأوقعته فى حبائل ما كاد ودبّر . وذهب إلى الشيخ المفرّج والد حسّان ، وكبير القوم فى الرملة يستنجده . وقال له ضارعاً :

« إنى فارقت نعمتى ، وكاشفت الحاكم ، وذلك لركونى إلى ذمامكم ، وسكونى إلى مقامكم ، ولى فى عنقك مواثيق ، وأنت أحق من وفى لمكانك من قومك ورياستهم ، وإن خير ماورّثه الإنسان ولده مايكون له به الحمدُ والشكر وحسنُ الذكر . وأرى حسّاناً ولدك قد أصلح نفسه مع الحاكم ، واتبعه أكثر أصحابه ، وأنا خائف من غدره بى ، وما أريد إلا العود إلى الوطن » .

وهكذا عاد بنو الجراح إلى طاعة الفاطميين والخضوع للحاكم ، وعاد أبو الفتوح إلى مقره بمكة وطلب الصفح من الحاكم فعفا عنه ، وعاد الخليفة المخدوع إلى طاعة الحاكم ، « وكما بدأنا أول خلق نعيده » .

وفرَّ أبو القاسم الحسين إلى العراق خوفاً ، وهرباً بنفسه أن يغدر به حسّان ويسلمه للحاكم بعد أن عادت الأحوال بينهما إلى مستقرها .

ذهب الحسين إذا إلى بغداد والخليفة العباسى هو القادر بالله ، والبويهيون يسيطرون على الدولة ، ويتقاسم العراق فى شماله وجنوبه أمراء من العرب ذوى النفوذ . ففى الموصل كان الحاكم قرواش بن المقلّد العقيلى (ت ٤٤٣ هـ) وفى ديار بكر نصر الدولة أحمد بن مروان الذى حكم احدى وخمسين سنة (ت ٤٥٣ هـ) .

وهكذا وصل ابن المغربى إلى العراق ، وهذا حاله ، وعاش متنقلاً من مكان إلى مكان بقية عمره من عام ٤٠٢ إلى ٤١٨ ، يتصل ببلاط خليفة ليغادره إلى أمير من

هؤلاء الأمراء ، فيرضى فيستقر به الحال حيناً ، ثم لا يلبث أن تقلق رواحله ، فيغادر هذا ليلحق بذاك .

اتصلت أسبابه ببغداد بالوزير فخر الملك أبي غالب محمد بن علي بن خلف وزير بهاء الدول وسلطان الدولة ، إلا أن الخليفة القادر لم يرض عنه ، لأنه توجس منه وهو المصرى أو الذى ينتهى إلى الفاطميين بمصر وإن غادرهم ، وكانت الحرب السرّية والاعلامية قائمة بين الفاطميين والعباسيين . فاعتقد القادر أنه مبعوث سرّى ، ولم يرض عن بقائه ببغداد ، فاضطر الوزير فخر الملك إلى اخراجه مكرماً من بغداد .

وبعدها زار قرواش واتصل به ، وصحبه زمناً بالموصل ، ثم غادره إلى الأمير نصر الله أمير ديار بكر ، ووزر له زمناً ، وخرج فى مهمة إلى بدليس ، ومرض بها مرضاً شديداً ، وهنت فيه قوته ، واستشفى بأحد أديرة النصارى .

وفى هذه المرحلة التقى بالمطران إيليا مطران نصيبين ، وحدثت بينهما محاورة حول حقيقة العقيدة النصرانية .

وظل الحسين متقلبا فى الوزارة بين قرواش ونصر حتى حطّت رِحاله ببغداد ، وكان يطمع فى وزارة بغداد لمشرف الدولة البويهى ، وظل مترقبا حتى خلت له فأمكنه مشرف الدولة منها .

« فلما تربّع على دست الوزارة البغدادية ، وكان ذلك حلماً طالماً هجست به نفسه أصبح مقصداً للشعراء ، فمدحه عددٌ منهم من أشهرهم مهيار الديلمى . ومن مدائحه فيه قصيدة له مطلعها :

عسَى مُعرض وجْهُهُ يقبِلُ ... فيوهبَ للآخرِ الأوّلُ

يقول فيها :

فداك وتفعَلُ ما لا تقولُ ... ممَنْ يقولُ ولا يفعَلُ
سلَلْتَ على المالِ سيفَ العطاء ... فلا حيك فى الجَزْدِ مُستَقْبِلُ »[1]

ولمهيار مدائح أخرى فيه نال عليها عطاء جزلاً من الوزير .

---

(١) الوزير المغربى ص ٧٠ .

وكانت ولايته للوزارة فى بغداد سنه ٤١٤ ولمدة عشرة أشهر وخمسة أيام ، وغادر بغداد هرباً من ثورة جند الأتراك ، لأمر شجر بينهم وبين البويهى مشرف الدولة ووزيره الحسينى.

عاد اذا أبو القاسم الحسين إلى أمير العرب قرواش بالموصل مرة أخرى ، وحدث أن قامت فتنة بالكوفة بين صهر أبى القاسم وبعض العباسيين تدخل فيها أبو القاسم ، فحدثت بينه وبين الخليفة القادر بنوةٌ ، وأراد أبو القاسم أن يعتدى على بعض أرحاء للخليفة فى سُرَّ من رأى ، وهو فى جوار قرواش ، فلما علم القادر بالله بما جناه أبو القاسم بعث إلى قرواش يطلب إليه إبعاد الحسين فأبعده .

فلجأ إلى نصر الدولة بديار بكر الذى كان قد فارقه متخفيا ، فتلقاه نصر الدولة مرحباً ، على الرغم مما فعله معه من قبل . يقول إحسان :

« فبأى وجه يلقاه الوزير — المغربى — ، وبأى وجه يتلقاه الأمير ؟ . إن عودته إلى ديار بكر — إن كان قد عاد لتسلم الوزارة — لتؤكد شيئاً واحداً ، وهو أنه على الرغم مما كان يؤخذ عليه من تخيُّل وكيد ، وشرّ ، كان يتمتع بكفاية تؤهله لمنصب الوزارة وكان من يعمل معهم يتجاوزون عن سيئاته بشفاعة فضائله . ولكن يبدو أنه فى بادىء الأمر طرح نفسه على نصر الدولة لاجئاً أو ضيفاً . وقد تلقاه هذا بالإكرام . وأقطعه ضياعاً جليلة تكفيه وتكفى من وصل معه من الحاشية والأتباع . ولكن لم يلبث إلا قليلاً حتى تأكدت الحاجة إليه . ففى سنة ٤١٦ هـ توفى وزير نصر الدولة ... فاستوزر أبا القاسم المغربى وردَّ الأموال إليه .» [١].

وأقام الحسين ثلاث سنوات ، تردد خلالها على نصيبين ، ولقيه بها مطرانها إيليا ، وجلس إليه جلسات دار بينهما فيها حوار سأل فيها الوزير مرة أخرى عن عقيدة النصارى فى الأقانيم الثلاثة ، وكيف يمكن وصف ذلك بالتوحيد . وكيف يمكن للنصارى دفع قول الله فيهم : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ . وعن علة الناس فى محبة أديانهم ، وهل يتحقق المرءُ صحة دينه أو مذهبه من جهة المعجزة ...

ويدور الحوار بينهما كذلك عن نحو السريان ونحو العرب ، وعلم اللغة عند

---

(١) الوزير المغربى ص ٧٥ .

الفريقين ، واستعمال المجاز عندهما ، والمفاضلة بين الخط السريانى والخط العربى ، وبين علم الكلام هنا وهناك وعن اعتقاد النصارى فى أحكام النجوم وعن اعتقادهم فى المسلمين ، وعن اعتقاد النصارى فى النفس .

« .. وبما أن مطران نصيبين هو الذى كان يتولى الإجابة ، فإنه أعطى نفسه دوراً كبيراً فى الشرح والتوضيح ، مما يجعل الوزير يسلّم معجباً . وفى بعض الأحيان نجده أعلم من الوزير بشئون الإسلام . ويكاد فى معرفته بالقرآن أن يبلغ درجة لم يبلغها الوزير نفسه . فأما ما يتعلق بالأقانيم الثلاثة وما يتصل بها ، فمن الواضح أنه يشرح عقيدة النساطرة . وهى قريبة الشبه بما عند المسلمين .» .

وفى زيارة أخرى لنصيبين أقام خمسة وعشرين يوماً ، ولقى صاحبه المطران إيليا ، وباحثه فى مسائل عدة تتناول اعتقاد اليهود ، وتاريخ آدم وغيره من التواريخ وتغيير اليهود لها . وعن الآثار العلوية .[1].

وظل الوزير يتردد بين ميافارقين ونصيبين حتى اعتلّ ، واشتدّ به المرض ، ويبدو أن القولنج عاوده وحاول التداوى منه على يد الراهب النسطورى أخى المطران كما حدث منذ سنين ، إلّا أن المرض اشتد عليه هذه النوبة فلم يقو جسده على احتماله فوافته منيته فى الحادى من رمضان عام ٤١٨ هـ عن عمر بلغ ستة وأربعين سنة [2] .

واختلف بعض المؤرخين فى سبب وفاته ، فقيل إن أبا نصر سقاه السمّ خوفاً منه عندما عرف قبيل وفاته أنه فى طريقه إلى بغداد .

يقول إحسان : « ومهما يكن سبب وفاته فقد سكن هذا القلقُ الطويلُ ، وهمدتْ تلك الحيوية المتفجرة : شقشقةٌ هدَرَتْ ثمَّ قَرَّتْ . وذهب الوزير الكاملُ ذو الجلالتين بعد أن شغل الناسّ ، وأصبحوا فى النظر إليه شيعا » .

تلك كانت حياةُ هذا الرجل الغريب المغامر فى هذا العصر الغريب الحافل بالمتناقضات والعجائب .

ونحن وإن عرضنا لحياة الرجل عرضاً قد تبدو فيه الإطالة إلا أنا أردنا من خلال هذا

(١) الوزير المغربى ٧٧

(٢) المصدر نفسه ص ٧٨ .

العرض أن نلقى ضوءاً على شخصيته ، وجرأته ، وذكائه ودهائه ، ومقدرته على الإفلات من المآزق ، والتماس الأعذار والحيل ، ومقدرته على اقناع محاوره والتسلل فى دهاء إلى نفس من يريد اقناعه بما يريد ، والهرب حيثما يريد إذا أحس بأن الريح بدأت تعدّل من مسارها ، أو أن الأمور أخذت طريقا غير ما كان يحب ، أو بدت له من الأفق البعيد أطماع تلمع ، قد تكون ضوء مجد جديد أو برقا خلباً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

فالرجل ذكى ، والرجل طموح ، وهو لا يعبأ بعد هذا أن يلقى مايجهده فى سبيل تحقيق مأربه من شقاء الجسد الذى تحمله النفس الطموح ، أو شقاء الناس من حوله والرجل بعد هذا كله عالمٌ فى اللغة أديب شاعر ، مفكّر ، يستخدم علمه فى تسخير من حوله لنفعه ، أو التقرب إلى من يبغى من ذوى الجاه والسلطان ويعقد صداقات مع أدباء عصره ، ومفكريه ، وقد تنقلب تلك الصداقات إلى عداوة كما حدث بينه وابن القارح .

لقد كان أدبه صورة لنفسه وحياته ، وإن لم تكن صورة كاملة ، لأنه لم يصلنا كاملاً ، إنما وصلتنا منه إجزاء ونتف استطعنا من خلالها أن نُطابق بينها وبين أخباره فى مصادرها ، وأن نستفتى من سبقنا إلى التعرف عليه لنلقى ضوءاً على هذه الشخصية الغريبة النادرة فى التاريخ العربى والأدبى جميعا .

حاول إحسان أن يرسم صورة للرجل من خلال سيرته وما بقى من أدبه فقال : [1]

« .. وتصفه المصادر بالجرأة والدهاءِ معاً ، وكلتا الخصلتين تشيرانِ إلى دوره فى الحياة السياسية العملية ، والجرأة تؤدى إلى التهور ، وذلك يعنى حسبان النتائج . وإذا حكمنا على المغربى بنتائج أعماله قلنا أنه كان متهوراً ، لا جريئاً وحسب إذمنى كلُّ ما خططه بالإخفاق ، فأما الدهاء فهو موصولٌ لدى من يستعملون هذه الصفة بالحلية القائمة على الذكاء ، وإخفاق النتائج لدى المتهور بنقض خطة من الحيلة البارعة ، وذلك فى الأعمال الكبيرة ، أما فى الأمور اليومية الصغيرة فلعل الوزير المغربى كان سيد من دبرّ « المقالب » وضحك على زملائه ، وضحك منهم . ومن حقّ من تصدُّوا لترجمتّه أن يقولوا إنه كان داهية ، لأنه كان دائما يدبّر الخطط ، حتى لم ينس كيف يدبّر أن ينتقل

---

(١) الوزير المغربى ص ٨٨ .

إلى مشهد عليّ متخذا فى ذلك احتياطات أكثر مما يتطلبه الموقف .

ورغم العقل المسيطر فى توجيه خططه نجده امرءاً « عاطفيا » ، بل يمكن أن يقال فيه أنه يُوقد الشمعة من طرفيها ؛ كان كثير الانقياد لشهوته ، حتى إذا أمعن فيها تذكر ثقل الآثام والذنوب ، وما يترتب عليها من حساب ، ولذلك فإن شعره يتراوح بين هاتين المنطقتين على نحو متكافىء . أعطى ريعان الصّبا من المجون ما أحب كما قال : [1].

الليلُ ميدان الهوى والكأسِ مجموع الأرَبْ
يارَبّ ليلٍ قد قصر نا طولَهُ فيما نُحِبْ
لما هززناه تلا قَي طرفاهُ بالطربْ
يلعبُ فى الخُسرانِ والطا عةِ ساعاتِ اللّعِبِ
تحكى ثريّاهُ لمن يرنو إليه من كَثَبْ
خريطةً من أبيض الد يباج ما فيها عَذَبْ
والدَّبرانِ خلفَها كفتح ـ بركارٍ ذهَبْ

ويمضى فى وصف السماء بنجومها طويلاً حتى ينتهى إلى قوله :

أعطيتُ رَيعانَ الصِّبا من المجونِ ما أحبّ
ثم رجعتُ سائلاً لذى المعالى والحجب
لمن يجيب من دعا فضلاً ويعطى من طلب
إذا استنيل لمْ يَهَبْ من الكثير ما يهبْ
سألته مغفرةً ... لما اجتنيتَ فى الحِقَبْ
وكنتُ جهدى شر عبـ ـدٍ فليكن لى خيرَ أبْ

ولكنه فى قرارة نفسه يبغض الإثم . كما قال : [2]

اللهُ يعلَمُ ما إثمٌ هممت به إلا وَبُغْضَةُ خوْفى من النّار
وأن نفسى ما هامت بمعصيةٍ إلا وقلبى عليها عاتبٌ زارِ

وهو مع هذا كله ألوفٌ يذوب شوقاً على إلف يغادره ، ويموت الإلف الذى يهجره

(١) المصدر نفسه ص ١١٢ .

(٢) الوزير المغربي ص ١٣٥ .

وهما متهاجـران فيحس بالندم ويبكى فى حرقه ! [1]

تركتُ بشـطِّ النيل لى سكناً فرداً حبَسـتُ الدّمعَ عليه أن يطـأ الخدّا
غزالٌ طـواه الموتُ من بعد هَجرةٍ أطعنا فلا كنابهـا الأسد الوَرْدَا
فسقياً لمهجورِ الفِناءِ كأنّنـي أعدُّ له ذَنبـاً، وأطْـوِى له حقـدا
أسمّيه من فرط الصبابـةِ مَضجعـاً ولولا وعـتُ نفسى لسمّيته لحْـداً

* * * *

وزوّدنـى يوم الفـراقِ صحيفـةً ولِبْـىَ شـعارٍ لا جديداً ولا جَرْدا
أداوِى به خفـاق قلبى كأننـى أضـمُّ إليه صاحبَ البُردِ لا البُرْدا
وقد كنـتُ بالتقبيـلِ أمحُو رُقاعَـهُ فصرت بماءِ الدّمع أغسلهُ وجْـدا

* * * *

بكيـتُ دفينـاً ليته كانَ باكيـاً عليَّ فقاسَى دَونِى الثُّكْلَ والفقْدا
منحتَ الثّرى تلك المحاسِنَ أم تُرى غَصِبْتَ عليها ، أم سمحْتَ بها عَمْـدا
أبحْـتَ الرُّضابَ العذْبَ بعد تمَنُّـعٍ وأبرزتَ ذاك الجيدَ والفاحِمَ الجَعْـدا
طوت بعدكَ الدُّنيا رداءَ جمالهـا فلا روضُها يُجْلَى ، ولا تُربُهَا يندَى

وكان الوزير مسلماً ديناً ، متمسكاً بمذهبه الشيعى ، مؤمناً بأن علياً خير الصحابة لأنه الوصىّ وزوج بنت النبى . يقول :

عَرفْـتُ عليّـا بطيـب النجّـار وفصـل الخطابِ وحسـن المخيلة
تطلع كالشمس رأد الضحـى بفضل عميـم وأيـدٍ جزيلَـة
فكـان المقدّم بعد النبـىِّ على كـلِّ نفـرٍ بكـلِّ قبيـلة

ويرثى من هواه معهم من آل النبى كالشريف الرضىّ . يقول من قصيدة مطلعها :

رُزْءٌ أغـارَ به التّهـىُ وأنجـدا

أذكرتنـا يابـن النّبـىِّ محمـد يومـاً طـوَى عنّا أبـالكِ مُحَمَّـدا
ولقد عرفْـتُ الدّهر قبلَكَ سـالياً إلّا عليكَ فما أطاقَ تجلُّـدا

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

ويذكر الأنصار لأنهم كانوا شيعة على فيفضلهم على المهاجرين .

قال ابن أبي الحديد : [1]

يقول إنه لولا الأنصارُ لم تستقم لدعوته ـ ﷺ ـ دعامة ، ولا أرسيت له قاعدة

ويهجو بنى أمية لكراهة الشيعة لهم فيقول ذاكراً الخلافة : [2]

ثم امتطاهـا عبدُ شمس فاغتـدتْ هـزواً ، وبُدِّلَ ربحُها بخِسَـارِ

وتنقَّلَـتْ فى عصبـةٍ أمويَّـةٍ ليسُـوا بإظهـارٍ ، ولا أبـرار

مابينَ مأفـونٍ إلى مُتَزنـدِقٍ ومُداهـنٍ ، ومضاعـفٍ ، وحمارِ

وشعر ابن المغربى يجرى فى موضوعات كثيرة كغيره من الشعراء ، ويكشف ما جمع منه من مختلف المصادر قوله فى عدة اغراضٍ ، أكثرها مما اعتاد الشعراء القول فيه كالمدح ، والغزل ، والفخر ، والوصف ، والرثاء ، والشكوى .

ومديحة عادىٌّ يجرى على عادة المديح العربى ، وفى المجموع من شعره قصيدة يمدح بها الأمير حسَّان بن المفرج حين لجأ إليه بعد هروبه من مصر يقول :

أمَا وقد خيَّمْتُ وسط الغـابِ فَلْيَقْسُوَنَّ علي الزمـانِ عتابِـي

يترنَّـم الفولاذُ دون مُخيَّمِـي وتزغـرَغُ الخرصَان دون قِبابِـي

وإذا بنيـتُ على الثنيَّةِ خيمـةً شُـدَّتْ إلى كِسـرِ القَنا أطنابِـي

وتقومُ دونى فتيةٌ من طـيِّءٍ لم تلْبـسْ أثوابهم بالغَـابِ

يتثاثرون على الصريـخ كأنهـمُ يُدْعَوْنَ نحـو غنائـم ونهـابِ

من كلِّ أهرَتَ يَرْتمي جِمْلاقُـهُ بالجَمْـر يوم تسـايفٍ وضِـرَابَ

يهديهـمُ حسَّـانُ يحمـلُ بـزَّهُ جـرداءُ تعليـه جنـاح عقـابَ

مقدمةٌ ليست تقليدية فى غزلها ونسبها لكنها حديث العزّةِ والاعتزاز والمنعةِ فى قوم ذوى أيْدٍ ومهابة .

وبناءٌ جزلٌ ، لفظٌ غريب ، يميلُ فيه إلى الإغراب قصداً ، مستعيناً بمعرفته اللغوية الواسعة ، وبناء صلدٌ ، يتمشى مع طبيعة الموضوع ، وبدَويَّةِ المقام ، فهو بين جماعة من

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٧/٦ .

(٢) الوزير المغربي ص ١٣٧ .

العرب ، يطربهم سماع مثل هذا القول ، الغريب القريب إلى نفوسهم . وهو يدلّ به ، فهو شعر مصنوعٌ لا مِراء ، لكنه يبث فيه لوعته وينفث فيه كربته ، ويتقرب إلى ذوى منعة ليمهّد الجوّ لإيوائه ، وأن يحلّ بينهم فى حماهم . فيقول :

ياطيّءَ الخيراتِ بين حِلالِكم ... أمنُ الشريدِ ، وهمةُ الطُّلّاب

سمكتْ خيامكم بأسنِمةِ الرُّبَى ... مرفوعةً للطارقِ المُنتاب

وتدلُّ ضيفَكُمُ عليكُمْ أنؤُرٌ ... شُبَّتْ بأجذالٍ فهُنَّ صِعاب

* * * *

جاوَرْتكُمْ فملأتُمُ عَيْنى الكرى ... وجوانحى لغرائب الإطراب

من بعْدِ ذُعرٍ كاد أخفزَ أضلعى ... حتى لضاق بها علىَّ إهابى

وهكذا يمضى فى المديح المصنوع ، إلّا أنّ هذا التكلفُ يَقلُّ ، وترقُّ عاطفتُه ، ويسهُلُ لفظه فى غير المديح من موضوعات تتصل بلذاته ، وهواه ، كالغزل ، والوصف وفى هواه لآل على وشيعته .

كأن يقول وقد كتب بها إلى إلف له :

يامَنْ لقلبٍ هائم لم يستطعْ ... ذكْر اسم من يهواهُ من إشفاقِهِ

ولعاشقٍ غلبتْ عليه خجلةٌ ... فكأنه المعشوقُ فى إطراقِه

ينْهى عن البثُّ المريح لسانُه ... فيموتُ مطويًّا على أشواقِه

ويقول متغزلا فى ديباجة بدويّة :

وما ظبيةٌ أدماءُ تحنو على طلا ... ترى الإنسَ وَحْشاً ، وهى تأنسُ بالوحش

غدتْ فارتعتْ ثم انثنت لرضاعِهِ ... فلم تُلْفِ شيئاً من قوائمه الحُمْش

فطافت بذاك القاعِ ولْهى فصادفتْ ... سباعَ الفلا ينهشْنه أيّما نهْشَ

بأوجعَ مِنّى يوم ظلّت أناملٌ ... تودّعُنى باللدِّرِّ من شبكِ النقْشِ

وأجمالُهم تُحدَى وقد خُيِّل الهَوَى ... كأن مطاياهم على ناظرى تمشى

وأعجبُ ما فى الأمر ان عِشْتُ بعدهم ... على أنهم ما خلّفوا فىَّ من بطْشِ

ويقول متغزلاً غزلاً حضرياً على نهج الظرفاء :

مرضٌ بقلبك ما يُعادُ ... وطويلُ حبٍّ ما يُقادُ

يا آخر العُشّاق مـــا أبصرتَ أوّلها يُعــادُ
يقضي المتيَّمُ منهـــمُ نحباً ولو رُدّوا لَعادوا
ملكوا النفوس فهـــل لها من بعدهـا ما يستعادُ
ما خلِقتْ غزلانُ اللّوى كظباءِ مكّةَ لا تصادُ
بالعذل توقـدُ لوعتي وبقدحِهِ يُورَى الزنادُ
لا أشكوَنّ جرحي فلِلْ عُذّالِ ألسنةٌ حدادُ

وفي الوصف والحنين إلى حلب ونهر قويق بها يقول :

أما قويقُ فلا عدتْهُ مزنةٌ من جِذرِها برَز الغَمَامُ الصيّبُ
نهرٌ لأبناءِ الصبابةِ مُعْشَقٌ فيه وللصادِي الملوّحِ مَشربُ

* * * *

فردُ الرّبابِ يقولُ شائمُ بَرْقِهِ من أينَ رقّعَ ذا الفريقُ المُهَذَّبُ
والبدرُ في كِلَلِ السّحابِ كأنّه ملكٌ بقاصيةِ الرواقِ محجَّبُ
والأرض حاسرةٌ تودُّ لو انّها مما يحبّرهُ الرّبيعُ تُجَلْبَبُ

ويقول متشوقاً إلى حلب :

ياصاحبيَّ إذا أعياكما سَقَمي فلقّياني نسيم الريح من حلبِ
من الديارِ التي كان الصِّبا وطرى فيها وكان الهوى العذريُّ مِنْ أربي

وقال في ظرف البغداديين :

يومُ الكُسوف جَلا على بَصيرى قمراً أصارَ الجنَّ بالإنْعَسا
قامتْ وأرخت من ذوائبِها وتجلّلت عن شعرها والإلْسا
فسألتُها لم قد لَبِسْتِ دجىً قالت أساعِدُ أختي الشمسا

وقال في بابل من حلب :

حنَّ قلبي إلى معالمِ با بلا حنين المولَهِ المشغوفِ
مطلبُ اللهو والهوى وكناسُ الخُـ ـرّدِ العينِ والظباءِ الهيفِ
حيث شطّا قويقَ مسرحُ طرفي والأماني مؤانسي وأليفي
ليس من يَسْلُ حنيناً إلى الأو طانِ إنْ شفّتْ النوى بظريفِ

ذاك من شيمة الكرام ومن عهد — الوفاء المحبب الموصوف

وقال فى تقلب الأيام به بعد هجرته من مصر :

قطعت الأرضَ فى شهرى ربيع — إلى مصر وعدتُ إلى العراق
فقال لى الحبيبُ وقد رآنى — سبوقاً للمضمَّرة العتاق
ركبتَ على البراقِ ؟ فقلت : كلَّا — ولكنى ركبتُ على اشتياقى

وقال :

طيفٌ ألمَّ ثنى عزيمَ النُّسك — وجلا صوابَ الحبِّ بعد تشكُّك
أكرمْ به يجفو وحشوُ وسائدى — وزدٌ ويعطفُ إذ وسادى مُوركى
عجبتْ أنيسةُ بيتنا إذْ أبصرتْ — طغيان جودٍ للشتاء ممسِّك
قالت : فهبْكَ بمصر كنتَ مغازلاً — وجهاً من الدُّنيا أنيقَ المضحك
فالآنَ قد أصبحتَ جارَ أباعدٍ — حُدْبٌ شوائلها خِفافِ المبرك
قلت اربعى فضمين رزقى واحدٌ — فى يوم اقتارٍ ويوم تملّك
فليهانئى بالأريحية سكرةٌ — تهتزُّ بى فى لِسروةٍ وتنسُّك

وفى تشيعه لعلى وآله يقول فى على بن أبى طالب :

صلى عليك الله يامنْ دنا — من قاب قوسيْن مقام النبيه
أخوكَ قد خولفتَ فيه كما — خولف فى هارون موسى أخيه
هل برسول اللهِ من أسوةٍ — لم يقتد الله بما سنَّ فيه

ويشكو الزمن والشيب ، وما يلقاهُ فى دهره من عَنتٍ وعناد وتقلب أحوال . يقول :

أرى الناسَ فى الدنيا كراع تنكرتْ — مراعية حتى ليس فيهنَّ مرتعُ
فماءٌ بلا مرْعى ،ومَرْعىً بغير ما — وحيثُ ترى ماءً ومرعىً فمسْبعُ

ويقول :

مالى أرى قلبى تنازعهُ — وطنانِ من حلب ومن مصر
لا عيش إلا كوزُ ناجيةٍ — لا ظلَّ غير ذوائبِ السُّمْر

ويقول :

إذا ما الفتى ضاقتْ عليه بلادُهُ — وأيقن أن الأرض واسعةُ القُطْر

ودام على ضيق المعيشة صابراً — على الذل والحال الدنية والفقرِ
ولم يحترم للنفس عِزّا يصونُها — فلا فرق بين العَبد والرّجلِ الحرّ

وقال فى المشيب :

خاف المشيبُ تعتُّبي فاجارهُ — طلُّ الهموم وعزَّ ذاك مُجيرَا
فمضى الشبابُ مَظلَّماً مُتعسّفاً — وأتى المشيب مجاملاً مَعْذُورا

وقال :

عجبت هند من تسرُّع شيبي — قلت هذا عُقبى فِطام السُّرورِ
عوضتني يدُ الثلاثين من مسـ — ـك عِذارى رشًا من الكافور
كان لى فى انتظار شيبى حسابٌ — غالطتنى فيه صروف الدهور

وتعوده فتراتٌ من الزهادة والنسك ، لا يلبث بعدها أن ينفضها عن قلبه ليعود إلى روح الحياة ، ولهوها .. فيعبر عن هذا كله فى أبيات ، ومقطعات ، وترى فيما تبقى من شعره آثار نفسه الجموح ، وكبرياءه وتعاليه ، وعدم رضوخه للاحداث ، بل معاندتها ، ومكابرتها ، ومحاولة التغلب عليها ، كما تراه أحيانا وقد عاودته لحظات الندم ، فينظر إلى ما تقضى من حياته فى اللهو ومغالبة الأيام وكأنها صورة من صور الاعتزاز بالدنيا ، ويمدّ يديه متضرعاً إلى الخالق فى كلمات من التوبة ، فيقول :

كنتُ فى سَفْرة البطالةِ والغيّ — زماناً ، فحانَ منّي قُدومُ
تُبتُ عن كلّ مأثم فعسى يمحى — بهذا الحديثِ ذاك القديمُ
بعد خمسٍ وأربعين لقدما — طلْتُ ، إلّا أن الغريمَ كريمُ

ويقول وقد استشعر نهاية الحياة فى القبر :

إلى أبثك من حديـ — ـثى والحديث له شجون
فارقت موضع مرقدى — ليلاً ففارقنى السكونُ
قل لى فأوّل ليلةٍ — فى القبرِ كيفَ تُرى تكونُ

وشعر الوزير المغربى كما أشرنا يجمع بين جانبين ، جزالةً ، وغرابة ، أو ميل إلى الإغراب فى عبارة تعسُر أحياناً ، ولفظ يشقُ على السامع والقارىء معاً .

وجانب آخر يلطف فيه ويَسْهُلُ ، ويتصرّفُ أحياناً ، ويمجنُ أحياناً أخرى ورغم أنه

فى مجونه يتحدث عن المرأة ومحاسنها الجسدية ، وعن الغلمان أحياناً إلا أنه لا يصرح بعلاقة آثمة ، ولا يذكر الخمر على ماجاءنا من شعره وليس علينا مع هذا أن نطلق الحكم على كل شعره . فلعل من اختار له تحسب ذكر كثير من شعر اللهو أو الخمريات .

وشعره من حيث التعبير ، والالفاظ ، واستخدام البديع ، لا يميل فيه كثيرا إلى الصنعة ، وإذا ما اعتبرنا شعر العصر ، وتمثل أمامنا كبار شعرائه أمثال المتنبى وأبى العلاء المعرى ، وابن وكيع التنيسى ، وابن حيوس ، وابن الخياط وجدنا معظم هؤلاء يميلون إلى البديع ، واستخدام صوره المختلفة ، من جناس وطباق ، ومقابلة ، ولزوم ما لا يلزم ، لكن الوزير المغربى يخرج على تقليد العصر وطراز شعره إلى هذا الشعر الذى رأيناه ، وإن كان يجيد فى التشبيه والاستعارة وبعض الصور الشعرية ، لكن دون إسراف . كقوله فى وصف سوداء :

يارُبَّ سوداءَ تيمتنى بحسنٍ فى مثلها الغرامُ
كالليل تُستَسْهَلُ المعاصى فيه ويستعذبُ الحرامُ

وكقوله فى وصف المعرة :

أينا تلتفت تجد ظلَّ طُوبى وتجد كوثراً أغرَّ صقيلا
تربُها طيبُ الشباب فما يصحب السرورُ فيها خليلا
فترى اللهو إن أردت طليقاً والتقى إن أردته مغلولاً

وفى قوله :

ولقد يميل بناظرى عن مسجد غصنٌ من الرُّمان أكملُ ينعَهُ
متبرِّجٌ نهداهُ ، يكتُمُ حُسنَهُ خفراً ، فطبْعُهما يخالف طبْعَهُ
أبدا يَشُقُّ عِذارَهُ بنهودهِ ولو انَّنى صيَّرتُ درعى درْعَهُ

وبعد فإن شعره بعد هذا لا يأتى فى الصدارة من شعر العصر ، إلا أنه مع ذلك لا ينزل عن قدر مقبول ، فهو جيد فى معظمه ، وقد أغرم به بعض معاصريه ، ومن جاءوا بعده من الأدباء ، ومن ألفوا فى المجموعات والبلاغة ، لغرابة معانيه ، وصوره أحيانا ، فأكثروا من النقل عنه . كما أن بعضهم لم يغرم بشعْره غرام هؤلاء فلم ينبه إليه ، ولم يكثر التمثيل به .

كتابات ابن المغربي ومؤلفاته :

وكما سبق أن عرضنا في سيرة الوزير المغربي فقد كانت له كتب ومؤلفات ألفها على مدى مراحل حياته ، ومنها بل لعل أولها كتابه « مختصر اصلاح المنطق » لابن السكيت الذى أسماه « المنخّل »

وكان كتاب « إصلاح المنطق » قد اختصر أكثر من مرة ، وكان ابن السكيت نفسه قد اختصره كذلك فاسقط منه أبواباً ، لعله وجدها غير ضرورية لمن يرجعون إلى كتابه ، واختصره آخرون ، وأخل بعضهم بنهج الكتاب ومادته . وكان مختصر أبي القاسم الحسين بن على جديداً في بابه لأنه رد النظائر إلى بعضها فجعله ثلاثة أقسام : أمثلة الأسماء ، وأمثلة الأفعال واللفيف .

« واضطره هذا التفريع إلى ماتجاوز حدّ الاختصار ، وذلك بإضافة أبواب جديدة إلى الكتاب ». ووضع أسماء لأبوابه الأصلية مثل باب ليس ، وباب المذكر والمؤنث ، وباب العدد .. وجعل الأبواب الطويلة منه مرتبة على حروف المعجم ، فجاءت أبواب الكتاب الأصلى ٢١٨ باباً ، والأبواب المزيدة ١٠٧ بابا .

وبهذا يكون عمل أبي القاسم أقرب إلى التأليف الجديد منه إلى الاختصار . ولم يمكن له هذا العمل إلا قدر كبير من العلم باللغة وأسرارها .

وعرض أبو القاسم كتابه على صديقه العلامة المعرى ، وكان لا يزال في عنفوان رجولته ، وعلمه قبل أن تتقدم به السن . ومعروف أن أبا العلاء كان حجة في اللغة ، والعلم الواسع بها، الأمر الذى مكنه من استغلال تلك المعرفة في نظمه ونثره ، وما كانت اللزوميات تبدو في صورتها البارعة إلا باقتدار ناظمها والمامه الواسع باللغة وألفاظها .

وقد أعجب أبو العلاء بالكتاب وصاحبه مما حفزه على كتابة رسالته الإغريضية للاشادة بهذا الكتاب وبما بلغه من شعر صاحبه ، فخص القسم الأول من الرسالة بشعر أبي القاسم ، وخص القسم الثانى بكتاب إصلاح المنطق .

يقول أبو العلاء [1]: وقفت على مختصر إصلاح المنطق الذى كادّ بسماتِ الأبواب

---

(١) رسائل أبي العلاء ص ١٤ طبع كسعورد

يغني عن سائر الكتاب .. ودلّ على جوامع اللغة بالإيماء كما دلّ المختصر على ما عاب من الأسماء .. وقد تأملت شواهد إصلاح المنطق فوجدتها عشرة أنواع فى عدة اخوة الصدّيق [1] لما تظاهروا على غير حقيق ، وتزيد على عشرة بواحد ، كأخ يوسف لم يكن بالشاهد .» .

ويقول عن كتاب ابن السّكّيت : كان الكتابُ تبرًا فى تراب معدنٍ ... فاستخرجه سيدنا واستوشاهُ ، وصقله فِكْرُهُ ووشّاهُ ... قد ناب فى كلام العرب الصميم مناب مرآة المنجمّ فى علم التنجيم ، شخصُها ضئيل ملمومٌ ، وفيها القمرانِ والنجوم . » .

وهذا فإن هذا الكتاب كان بداية طيبةً لشابٍّ طموحٍ فى العلم والأدب كما كان طموحاً فى السياسة والتدبير .

وقد لقى الكتاب بعد ذلك من العلماء تقديراً ، ولم يقتصر الإعجاب على أهل عصره ولا على معارفه وأصدقائه ، بل تعداهُم إلى مابعد ذلك من العصور ، ومن تلا ممّنْ لهم بالأدب علاقة ، وباللغة ودفائنها اهتمام ودراية .

فقد أثنى عليه ابن بسّام فى الذخيرة بقوله : « فإنه غايةٌ لا يتعاطاها إلّا من بهر غبْقُه واشتهر سبقُه ، وطريقةٌ لا يتوخاها إلا من رسختْ فى العلم قدمُه ، وترامت به إلى معالى الأمور همُمه . » .

وصنّف فى الأدب والأخبار كتاب « أدب الخواص » . يقول أنه وضعه وسُنّه خمس وعشرون سنة ، أى فى حدود سنة ٣٩٥ هـ فى أثناء إقامته بمصر .

ويدل هذا الكتاب على تمكنه من رواية الشعر القديم ، ومعرفة الأخبار والأنساب وعلو الكعب فى اللغة . وكان باعثه على تأليفه الدلالة على معجز القرآن . « إذْ كان يتبحُّرِ ألفاظ هؤلاء القوم (العرب) والمعرفة بمعادن ألفاظهم ، وبمنازع أغراضهم يعلم معجزُ القرآن علماً جسّيّاً ذاتياً . وأنا أرى أن علم العالِم أنّ القرآن معجزٌ من طريق القياس والاستدلال ، ومن طريق الحس والإدراك أشرف وأعلى من علم العالم بإعجازه عن طريق القياس بالتقليد لغيره ، والاعتبار بالفصحاءِ الذين تقدموه ، وكانوا حُجّةً عليه » .

---

(1) يعنى يوسف عليه السلام .

والكتاب فى صورته العامة جمعٌ للمختار من أشعار العرب ، وأنساب الشعراء ، وقبائلهم وأخبارهم ، وما يتصل بهذا مما يناسب المقام . وقد اهتم بصفة خاصة بأربعة من شعراء الجاهلية الكبار أصحاب المطولاتِ أو المعلقات ، وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى،واستطرد من هؤلاء إلى مايتصل بكل منهم ، فتحدث عن المداقِسةِ عند ذكر امرىء القيس ، وعن النوابغ مع النابغة الذبيانى ، وعن كل من اسمه زهير مع زهير بن أبى سلمى ، وعن العشى مع الأعشى ميمون بن قيس . مع الاهتمام بقبيلة كل شاعر واشهر ما جاء من أشعارها ، ذلك كله إلى حديث هنا وهناك عن غريب اللغة ، يعود عليه بالشرح ، ويعقب أحياناً على بعض معانى الشعراء متتبعا لها عند غيره ، ويشير إلى ما بين المعانى من تقارب أو تفاوت .

ومن أمثلة ماجاء فى الكتاب عن امرىء القيس الشاعر :

قال : « أول ما سمع حجر من شعر ابنه امرىء القيس قوله :

اسقيا حجرا على علاته من كُمَيْتٍ لونُها لونُ العَلَقْ

وإنى لا ستقبح أن يقول قائل لأبيه : « على علاته » ، وأظن ذلك هو الذى غاظ حجراً ، فلما سمعه أمر الساقى بلطم وجهه ، وإخراجه . ونهاه عن قول الشِّعر . ثم سمعه يوماً وهو يشربُ من فضْلَةِ أبيه وهو يقول :

وهرٌّ تصيدُ قُلوبَ الرِّجالِ وأفْلَتَ منها ابنُ عمرٍو حجر

يعنى هرّ بنت سلامة بن عبد الله بن عليم من بنى كلب ، وابنها الحارثُ ، وهى الملقبة بالخرساء . وقيل إن هرًّا جاريةٌ كانت لأبيه . والأول أصحُّ ، فوثب إليه أبوه فضربه ، وأمر مولىً له أن يقتله فلم يقتُلْه ، وأظهر قتله ، ثم ندم على ذلك .

وقيل إنه لَّما قتل حجر تنازع امرؤ القيس ابنهُ وثعلبةَ بنَ مالك أحد بنى عمرو بن معاوية ابن الحارث بن معاوية بن كندة فى الملك بعده ، فأجمعا للحرب ، فأكمن امرؤ القيس أصحابه وبرز إلى ثعلبة وحده ، وطعن فيهم فحملوا عليه ، فولَّى هارباً وهم فى طلبه ، فخرج عليهم أصحاب امرىء القيس فكسروهم ، وأُسِرَ ثعلبةَ وقتله صبراً . وقال :

لا وأبيك ابنةَ العَامِرىّ لا يدَّعى القومُ أنى أفِرّ

وبعض الناس يظن أن وِفادة امرىءِ القيس إلى الروم كانت للاستعانة على بنى أسد . وليس كذلك . وإنما سببها أن المنذر بن ماء السماء اللخمى لمَّا عاد إلى المُلْكِ أيام أنو شروان أنفذ فى طلبِ بنى آكل المرار جيشاً من بكرٍ وتغلب ، فأسر منهم ستة عشر رجلاً ، وقيل اثنى عشر فضربَ أعناقهم بالحيرة فى دور بني مرينا ، وهى تسمَّى لذلك تلّ الأملاك . ولذلك قال عمرو بن كلثوم :

فآبـــوا بالنهـــابِ وبالسَّـــبَايا وأبنـا بالملوكِ مُصَفَّدِينــــــا

ونجا امرؤ القيس بالهرب ، ولجأ إلى هانىء بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبى ربيعة بن ذُهْل بن شيبان فاستجاره ، فلمْ يجِرْهُ ، فأتى سعد الضباب الإيادى ، وكان سيد قومه فى وقته فأجازه زمناً ، فمدحه وهجا هانىء . وقيل إن أم سعد كانت تحت حجر فطلَّقها وهى حاملٌ فتزوجها الضباب ، فولدت عنده سعداً ، فنسبَ إليه ، ثم تنقَّل فى الأحياء فى طىء .

وله كتابٌ فى الأخبار أسماه : « المأثور فى ملح الخدور »[1] . جاء فيه :

« كان أبو العلاء سعيد بن حمدان ملازماً ببغداد وخاصاً بحضرة المقتدر . قالوا : فكانت أكثر مواقفه على بابه ، وكان أمر الرجالة قد عظم ، وكانوا فى بعض الأوقات ساروا إلى قصر المقتدر مشغبين عليه فهزموا محمد بن ياقوت والحجرية والساجية ، وكان أبو العلاء فى دار المقتدر على غير أهبةٍ ، فأمره بالخروج إليهم ، ودفع إليه جوشنَ المعتضد بالله ، ودرع وصيف الخادم ، فظاهر بينهما وخرج مع من حضر من غلمانه ، فضرب فيهم بالسيْف ، وغشوهُ من كل باب ، وأثخنوه بالجراح ، فثبت لهم حتى هزمهم فقال هوبر الكنانى من ولد هوبر صاحب تغلب فى حرب قيس وتغلب قصيدة يمدحهُ بها ، منها :

يبرزون الوجــوه تحت ظلال المــو تِ والمـــوتُ منهـم يسْـــتظِلُّ
كرمـــاءٌ إذا الظُبــا واجهتهــــم منعتهــم أحســابُهم أن يذلُّــوا

وكان أبو العلاء شاعراً يعد من شعراء بن حمدان ، وكان أوقع ببنى عقيل بموضع يقال له شرج من أرض العالية ، وراء نجد ، فظفر بهم بعد قتال شديد ، وقال :

---

(١) الدانير المغرو. ص ٢٣١ .

نبئتُها تسأل عن موقفي   بأرضِ شرجٍ والقنا شُرَّعُ
وعن عقيل إذْ صبحناهُمْ   وقد تلاقَى الحُسَّر والدُّرَّعُ
وقد أتانا منهمُ فيلقٌ   حام جماةُ مالَهُ مَدْفَعُ
شددْتُ فيهم شدَّ ذي صولةٍ   قد جربته الحربُ لا يَخدَعُ
إذا فُلِّقت هام أسودِ الوغى   وقُطِّتْ الأسْوُقُ والأذرُعُ

ووجدتُ في هذه الأبيات زيادةً قرأتها بخط الوزير أبي غالب عبد الواحد بن مسعود ابن الحصين . وهي بعد البيت الثالث :

حتى إذا ما كشَّرَتْ نابَها   وعيفَ كأسُ الموتِ لا يُكْرَعُ
تجنى نفوساً بين سمر القنا   فهيَ ككرِّ الطرفِ أو أسرعُ

وبعد بقية الأبيات ختمها بقوله :

لا تزْجُريني عن طلاب العُلا   ما إن ينالُ العزُّ من يَضْرَعُ
أنا سعيدٌ وأبي أحمدٌ   بالسَّيْفِ ضرِّي وبه أنْفَعُ

أراد بقوله : وأبي أحمدُ (حمدان) لأن اشتقاقهما واحد .

وغزا أبو العلاء سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، فأوغل في بلاد الروم ، وقتل ، وسَبَى وغنم ، وكان معه خمسةُ آلاف فارس من العرب ، كلُّ ألِفٍ بلونٍ من الرَّايات والعَذَبِ على أرماحهم . وهذا منظرٌ عجبٌ إذا تصورته ؛ وأبو العلاءِ فيما قالوا ضمن عن البريديِّ ستمائة ألف دينار ثم أمرهم بالهرب ، وداری السلطانَ عنهم حتى أصلح أمرهم وأقرهَم على أعمالهم ، فما دخلوا مدينة السلام إلا مالكيها . وأهدوا إلى أبي العلاءِ هدية بألف ألف درهم .» .

ومن كتاب الإيناس بعلم الأنساب [1]. قال في المقدمة :

« قال الوزير الإمام العالم الأوحدُ أبو القاسم الحسينُ بنُ على بن الحسين بن على ابن محمد ، المعروف بابن المغربي رحمه الله تعالى :

«نكتب إن شاء الله في هذا الكتابَ ما يحضرنا ذكره من الأسماء التي تشاكلتْ بعض

(١) بتحقيق ابراهيم الأبيارى وطبع ونشر دار الكتب الاسلامية ، ودار الكتاب المصرى بالقاهرة سنة ١٩٨٠ م .

التشاكُل ، وبقى بينهما من الفرق ما يرتفع الالتباس بإيضاحنا إيَّاهُ مثل فَهمْ وقَهْم .

ومن الأسماءِ التى ألفاظُها لذاتٌ لا تختلف ، وأشكالٌ لا تفترق ، فنعتمد بإيرادها الدلالةَ على اتفاقها ، وإيمانَ القارِىء من ذُعرِ الشّكِّ فيها مع ما نظنُّه من حسنِ موقع اجتماعِها ، مثل بكر بن وائل من عدنان ، وبكر بن وائل من قحطان .

ومن الأسماء الأفراد التى وضعتْ وضعاً مشكلاً ، فيخافُ على القارىء تصحيفُها ، ما لم يكُنْ فى علم النَّسب مبرِّزاً ، مثل : شمس ، ومثل بنى خلْدة ، ومثل شهل بن شيبان .

ونوردُ ذلك على حروف المعجم ، ليقربَ متناوله ، ويذلَّ مجتناهُ . ونحن نرى أن الأديب المتوسط الرُّتبةِ فى الأدب إذا صرف إلى هذا التعليق جانبا من عنايته أمنِ التصحيفَ فى جميع الأنساب العربيةِ بتوفيق الله .

ولم يخْلُ مع ذلك من لمُعةٍ ثاقبةٍ ، وأبياتِ شعرٍ حسنةٍ ، نتصيَّدُ له ذكرها بالأسماءِ المتصلةِ بها .

وحملنا على إثبات هذا التعليق استحسانُنا صنيع أبى جعفر محمد بن حبيب فى كتابه المؤتلف والمختلف [1]، فإنه لحَبَ لنا هذه السبيل التى كان عليه استفتاحها وعلينا إكمالها وإيضاحُها . وحسبُ المبتدىءِ أن يستقصىَ مجهود رأيه فى استثارة ذلك الشىء المعدوم من مدافنه ، وفتقِ أكمام الفكر عنه ، وابرازه لعيان طالبه . ثم على المتعقب تتميمُ ما صنعَهُ ، والاقتفاءُ به فيما ابتدعه .

والله الموفق والمعينُ ، وله الحمدُ ربُّ العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله الطاهرين . » .

ويظهر من المقدمة أن الكتاب فى دقيق الأنساب ، وما يأتلف منها وما يختلف فى الاسم ويكثر فيه التصحيف ، فتختلط المعارف ، ويحدث الاضطراب حول أخبار القبائل وبعض رجالها ممن تتشابه أسماؤهم ، أو تتشابه أسماءُ قبائلهم على بعد الانتماء واختلاف الزمان والمكان .

---

(١) طبع فى اوروبا بعنوان « المختلف والمؤتلف فى اسماء القبائل » .

والكتاب — كما يقول — ذو فائدة كبيرة للأديب والكاتب الذى عليه أن يعرف قدرا من أخبار العرب وأنسابهم .

وهو يدل على سعة أطّلاعه فى علم الانساب ، ذلك العلم الذى علا قدره فيه كعلم اللغة وأفاد منه كثيرا فيما كتب ، كما أفاده فى تقلبه بين إمارات العرب ورجالاتها فى الشام والعراق . وظهرت أثآر معرفته بالأنساب واللغة فى كتبه ورسائله وشعره ، وظهرت أمثلة لتلك المعرفة فيما عرضنا من كتبه .

وجدير بالذكر أن معظم هذه الكتب أو جلِّها قد ألفها وهو بمصر قبل هروبه إلى الشام والعراق .

رســـــائله :

وللوزير المغربى عدة رسائل فى موضوعات وأغراض شتَّى ، بين علم وإخوانياتٍ ، ووصفٍ ، وحوارٍ حول جوانب من العقيدة والدين ... إلى غير ذلك .

قال فى الرد على كتاب وصله (١):

« وقفتُ على كتابك ، ولم أزلْ ألثمه ، كأنّى قد ظفرتُ باليدِ التى بعثتْهُ ، وأضمُّه كأنى أضمُّ الجوانحَ التى نَفَثَتْهُ . وكأنّى كلَّما أدنيتُه إلى الكبدِ المعذبةِ ببعدِكَ وأمررْتُه على العين المطروفةَ بفقْدكِ سحبتُ على النارِ ذيلَ السحاب ، وسقيتَ عطشَ الحبِّ كأس الرِّضاب ، وأعرتُ أخا سبعين ظِلَّ الشبَّاب ، فأرَّختُ يومَ قدُومِهِ لأجعَلَهُ موسماً للسرور ، وعيداً باقيا على الدُّهور ، أرتقبُ السَّعْدَ عنده كلَّ عام ، وانتظر الفرجَ منه من كلّ غرام . واتفّق ورودُهُ فى أشرفِ فصولِ الدهر حَسَبًا ، وأكرم مفاخر الأيام نسباً ، حين ابتدأ الربيع يزخرف بُروده والروضُ ينظمُ عقوده . وكنتُ أعرفُ هذا الفضلَ باعتدال منهاجه ، وصِحَّةِ مزاجه ، وأنّه لو كانَ الزَّمنُ شخصاً لكانَ له مقبَّلاً ، ولو أنَّ الأيامَ غوانٍ لكانَ لها حُليًّا وحُلَالَا ، لأن الشمس تخلُصَ فيه من ظُلماتِ صوتِ السماءِ ، خلاصَ يونس من ظلماتِ حوتِ الماءِ ، فإذا وردت الحملَ وافتْ أحبَّ أوطانِها إليها ، وأعزَّ مساكنها عليها .

---

(١) الذخيرة لابن بسام ص ٤٩٦ طبع إحسان عباس .

« فيا حُسْنَ تلك الصحيفة ، وشذادها ينتهبُ بالأفواه ، ويزيد بالتقبيل لعساً فى الشِّفاه . وياعجباً كيف حفظ مع بعد العهد نشرَ عرْفِك ، وكيف عِلقَ مع تراخى الأيام طيب كفّك . وكيفَ جاءَ كأنكَ كتبتهُ من أمم ، وأنفذتهُ وبيننا خُطوةُ قدم . وكيف لم يُغيِّرهُ ما قطع من مهاوِلَ قِفار ، وليل ونهار ، وعدوٌّ كاشح ، ورقيب لامحٌ . فأنعم به من ريحانةِ ألفاظٍ دامتْ لُدونَتُها ، وباكورةِ وِصالٍ سلمت غضوضتُها ، ومسحةِ يدٍ يقى أثرها أرجًا ، وروضة كلِمٍ دام على الصيف بهجتُها . ... فأما سؤالُك عنى فما يشبهُ سيرتَك الحُسنَى ، ولا يليقُ بطريقتك لمثلى. كيف تسألنى والإجابةُ معك ؟ . وكيف تستخبرنى ومحلُّ الخبر والاستخبار عندك؟، ومتى سمعتَ بجواب جسدٍ رهينة ؟ . وأين رأيت طماح عينٍ لواحظُها مقيدةٌ كليلة ؟. ألمْ أفارقْك ، وقلبى عندك أعشارٌ ، وأضلعى منه قفار . ؟

ومن فصل له يصف الموصِلَ حين ورودها :

« وردتُ الموْصِلَ التى خالفَ اسمُها معناها ، وكانتْ مقطعاً بيننا لولا خُدعُ الأمانى ، وفصلاً لولا المرجوُّ من عفْو الليالى ، فوجدتُ هواءَها يعطِّلُ سوقَ بُقراطَ اعتدالاً وطيبة ، وماءَها يُسْلِي عن مُجاج النَّحل استمراءً وعُذوبة ، وصقعُها قد تبغدَدَ رقةً ولطْفاً ، وجوُّها قد تزندقَ تنعُّما وَظرفا ، تكادُ تثقِلُهُ عقودُ الغانياتِ ويخجلهُ تتابُع اللحظِات ، كلُّ شمألِهِ نسيم ، وكلُّ جنوبه حياً عميمٌ ، ورأيت أرْضها أطيب الأرض خِيما ، وأزينَها أدِيما ، تُنسَجُ بالسُّنْدُسِ الأخضر ، وتفترُّ عن الأقحوانِ الأحمر ، ورأيتُ بُنْيانَها هو الذى حمدَه اللهُ فى تنزيله ، وأحبَّه لنا أن يكون مثلهُ جهاداً فى سبيله ، مرصوصًا بوقاحِ الجلْمَدْ ، مُلاءَماً بينه بالشَّيد الممَرَّدْ . قد حصّنَ ظاهرُهُ على باطِنه عن تداخُل الإبَرْ ، ومساكن الذرّ ، يزلُّ عنه ظفرُ الطَّائر وتتدحرجُ عليه أحداقُ النَّاظر ، وتغْنَى به العَروسُ عن الماوىّ المنير [1]، وتتبيَّنُ به العيونُ منابتَ الشكر من أهدابها والغمر ، متلاقيةً أقطارُها على رجالٍ كأنهم أنسلاءُ عاد ، وثاقةَ أجسامٍ وصلابة أحلام ، وبُعد مرام ، لطفُوا عن بدويَّةِ الشامِ وغلظته ، وخمدوا عن ذَرْبِ العراب ، وصلابتهِ قد عُقِدتْ ألسنتهُم بالصّدق ، فما ينتشِرُ الباطلُ من عذباتها . وصحتْ غرائِسُهم فى المودَّةِ ، فما يُجتنَىَ الغدرُ من ثمراتِها ، إن سلْماً فسلماً ، وإن حرباً فحرباً . لا يعرفُونَ تدليسَ

(١) الماوىُّ : حجر البلُّور أو المرآة .

الأخلاق ، ولا تمويه النفاق وشعراؤهم ملءُ اليدين ، وكُتّابُهم أثرٌ بعد عين . أدبَهُمْ حسنٌ على قِلَّةِ الملوكيِّ فيه . وعلمُهم متقنٌ لمن تأمل أدقَّ مسربٍ فى فِتَنِ معانيه . قد محَّصَ تهذيبُ المحنِ شِرارَهم ، وأوهن خيارَهم . بلدُهم أطلالٌ ، وأحوالهُم آلٌ . قويُّهُمْ يئنُّ ضعفاً ، وضعيفُهم يماطِلُ حتفاً ، بقيت عليهم أسمالُ النعم ، وذهبَ الدهر بأجسامها . وانجلت عنهمُ ظُلَلُ المحن ، وهم يتأوّهون من غير آلامها ؛ إلّا أن فيهم بقيَّةً نقيَّة ، وفيهم موضع تدارِكٍ إنْ رُزِقُوا سِيرةً مُرضِيةً . فلولا ما أرجوه من مداواةِ أسقامهم ، وإعادةِ صالح أيامهم ، لقضانى الانتماء بمعايشتهم قَبل معاناتِهم ، وبملاحظتهمْ قبل مُقاساتهم ، لكنّى أعلمُ أن من يحيى العظامَ وهى رميم ، ويبعث الروضَ وهو هشيم ، وينشىءُ الدَّوَّ بعد أن كانت قِفارا ، ويجعل من الشجر الأُخضرِ نارا قادرٌ على أن يجعل ثوابَ نيَّتى فيهم معونتى على ماأنويه لهم ، وجزاء تأمُّلى بهم بلوغَ الغرضِ فى تدارُكِ رفقِهم .

فصلٌ من رسالةٍ بعث بها إلى ذى السعادتين الوزير الحسن بن منصور وزير بهاء الدولة البويهى

« للرياسةِ كُلَفٌ لا يستقِلُّ بها إلاَّ المهذَّبُ الكاملُ ، ولايخطو تحت أثقالها إلا الأوحدُ الفاضِلُ ، ولايبلغُ ذوائِبَ أعاليها إلا من شرِبَ الأجاج من ماء واديها ولا يلذّ بملكها إلا من أغلى المهرَ من كريم مساعيه ، ولا يفضُّ ختامها إلا من جعل مازلة الخطوب سلكا لعقودِ إيامه ولياليه . ولذلك قيل ماانشدْتُه استبصاراً ، وأنا إلى إيراده أبين إصرارا :

لا تحسبْ المجدَ تمراً أنت آكلُهُ　　　لنْ تبْلُغ المجْدَ حتى تلعق الصَّبرا

* * * *

وإنَّ سياسة الأقوام فاعلَمْ　　　لها صَعْداءُ مطلعها طويلُ

* * * *

ويظلموا فترى الألوان مسفرةً　　　لا خوفَ ذُلٍّ ولكن فضلُ أحلام

ويحتاج الرئيسُ إلى أعوان يظهر بهم كمية مكارمه ، ويُمضى فيهم وبهم ماضِىَ عزائمه ، فلولا الطالبُ لعاشَ الكريم مطوياً على حسرات أوطاره ، ولولا الخاطىءُ لما وجد الحليمُ لذّة حِلمِه ووقاره . وكلَّما كان التابعُ أبعد مذهباً فى معناه كان المتبوعُ أشدَّ جذلاً بظهورِ مناقبه وعلاه .

وله فى بازٍ طار كان يتصيد به أحدُ الأشراف :

« بلغنى خبرُ الغادر المادِق، و الباشِق الآبق ، فشاركتُه فى الاستيحاش من فراقِه لما كان يبدعُ من مصايدِه، ويقرِّبُ من مطارده، ورأيته قد شابَ فضائلهُ بهذا الغدر الذى يُسْلِى عن تذْكارِهِ ، والإباقِ الذى يُنْسِي محاسنَ آثاره ، والنكثُ الذى ختِمَ به عواقبَ عهده ، وبغَّضَ إلينا ، بل إلى سيدنا استخدام أمثاله من بعده ، لأن أحقَّ الناس بكراهة الغدرِ من كان الوفاءُ رضيعَ لُبانِه ، والحفاظُ منبت أصُوله ، ومنشأه أغصانه ، وكأنى بفقده ، وهو عند الدرّاج[1] ، من أنعم الأعراس ، ومن الوحشة منه وهو بين سراب الطير من ألذّ

(١) نوع من الصيد ، وهو دجاج البرّ

الإيناس ، لأنها أريحتْ بعدَهُ من حتفها العاجِل ، وسُمِّها القاتِل ، واجدها القاصر . ووجلها الحاضَر ، وعقْلَةِ قوادمها وخوافيها ، وهشَةِ نواظرها ومآقيها ، والكوكب المنقضُّ على مسارِحها ، والسهم القاصِدِ الى مذابحها ، والآفةِ التى كانت بها حُرِمَتْ حُسْنَ الرياضِ المونقة ، وثكلتْ بردَ الغدرانِ المغدقةِ ، وتَنَغَّصَتْ مشاهدةَ هذا الجوّ الرقيق الشمائل ، اللازوردىّ الغلائل ، حتى صارتْ لا تكتز بوكرٍ تبنيه ولا بفرخ تغذيه ، علماً بأن لها منه مفرِّقَ العدَد ، وفاجعَ الوالدِ بالولد . ولو علمتْ هذه الأطيار الشَّامتةُ بنفاده السالكةُ سبيلَ الأسرّ ، بافتقاده ، بما يعدّه سيدنا لها من ذى ظفرٍ مظفرٍ ، ومنسرٍ للطيرُ ميَسَّر ، وخليفٍ صالح ، وجارح جارح ، أسدّ لها منه اصطلاماً ، وأسَدّ الى مقاتلهَا سهاماً ، لعلمت أن كثرتها استجماع له ، وأن وفورها توفيرٌ عليه .

وفى فصل منها :

« وما ألومُ هذا المارقَ على ملله وانحياشِهِ ، لأنه كان قد تعوّدَ أن يصيد بمقدار قوّته ومعاشِه فصار سيّدنا يستخدمه بهمَّةٍ تطلبُ الغَاية البعيدة ، وتستهل المشقة الشديدة ، التى هزلهُا جدٌّ ،وجورَهاقصد ، ولعبها ارتياضٌ ، يتصيَّرُ من لم ينقد إليها سريعاً ، ذا ضراوةٍ على اقتناص من لم ينته الى أوامرها مُطِيعًا ، فلم يُطقْ على ذلك جلداً ، ولم يجد بهذا الأمر الفادح يداً ، فما أشدَّ بسذى لعُذرِه ، ومعرفتى بسبب عذره ، وآمل أن يتذكر ماكان له لغنائه من نعيم ، خياله بين عينيه وطيب عيشٍ تذكُّره أجدَى له من حماقيه ، فتدعوه عواطفُ التربيةِ والإيثار ، وتزول عنه عوارضُ السَّهوِ والاغترارْ ، فيعود الى رسمه ، ويعوذُ من جُرمِهِ ، ويرجعُ وقد أدّبته النكبةُ ، وهذبته الغُربة .

وكتب الى رئيس نصرانىٌ اعتنق الإسلام[1]
وكان فى ذلك الأوان بمدينة تكريت .

« .. ويعلمُ اللهُ ماورد علىَّ وعلى كافة من حضر من المسلمين من السرور بما أبان الله من آيةٍ قطعت عذرَ الجاحدين ، وحجةٍ استهلكت شُبه العاندين الجاهلين ، لا أن هذا الدين ــ بحمد الله ــ مفتقرٌ من بعض حواشيه إلى بيّنةٍ تزيدُ فيه، ولا أنَّ الاستدلال

(١) وهو المطران الكبير رئيس اليعاقبة أبو مسلم مشرّف بن عبيد الله . وكان اسلامه سنة ٤٠٧ هـ وأرسل هذه الرسالة إليه من ميارفاقين .

الصادق كانَ تركَ شُبْهةً إلا فضحها ولا معجزةً الا أوضحها ، وزائغاً إلا قوَّمه ، وجاهلاً إلاَّ علَّمه ، وركنا للباطِل إلا خفضه وعقداً للشركِ إلا نقضنه . إلا أنَّ المخالفين قد شغلت الدنيا أكثرهم عن التأمل ، وحجبت العادات خواطرهم عن التأول ، فبعد بالحجج السالفةِ ذكرهم ، واشتدَّ إلى البراهين المستحدثةِ فقرهم ، فكان أبلغ برهان إقبالُ مثله الى المحجة عن غير رغبةٍ استفزَّته ، ولا رهبةٍ هزَّته ، ولا محاسدةٍ أغرته ، ولا مُناظرةٍ عزَّته ، بل أطلق عنانَ عقله ، ومدَّ به راشداً حتى وقفه على الصراط المستقيم ، واستتلاه قاصداً حتى أورده الى المنهج السليم ، فوردت النعمةُ بتخيُّرهِ صافيةً غير مكدَّرة ، والمنحةُ فى استثمانهِ وافيةً غير مقصرَّة ، فهنَّأ الله الإسلامَ مالا يزال يتولاه به من إيضاح مناره ، وتبلج أنواره ، وإدامة صبحه ، ضاحكاً ، تتصدَّعُ عنه دياجيرُ الشبهات ، وتنجلى منه ملابسُ الضَلالات . وهنأ الله الشيخ مارآه له أهلا من هذا السناء ، الذى تقف دونه همم المعالى ، وتغنىءُ به ظلَمُ الليالى . وغرس عنده التوفيق الذى يسترهِنُ لواءَ النعمة ، ويضمنُ بقاءَ العصمة .

وقــال من رقعــةٍ فى فتح[1]

« ولما تقاربتِ الفئتانِ إذا بِعَدُوِّنا فى عُدَّةٍ قد اشتملَتْ منهم على كلِّ سهم فى كنانتهم ، قد استكثروا من علوج لا يخشُونَ حومةَ اللقاءِ ، ولا يثبتون على مقارعةِ الأكفاء . فلما اجتمعَ أعداءُ الله ، وقلوبهم بالذعرِ متفرقة ، وأقدموا وأقدامُهمْ القهقراءَ راجعة ، وكانت لنا عيونٌ تجثمُ على مدارج أنفاسهم ، وطلائع تقبضُ على مسارح ألحاظهم . »

ويقــول :

« وبادرتهم فرسانٌ من بنى عامر على الجردِ الصَّلادم ، قد بزُّوا الجُبُنَ تعجُلاً للطِراد ، وتخففوا من الرماح تقصيراً للبعاد ، فوكزوهم بالرماح وكزاً ترك الدُّروعَ منهم غلائلَ ، وأمانىَّ الحياةِ فيهم قلائلَ فلم يترك القتل فيهم إلا أنفساً عافتْها كرامُ السّيوف ، أو آخرين عزين تكفكفُ عنهم الرّحمُ العطوف يتمسكون بأنفسهم حوزا ، ويعتدُّون ذلَّ الضرارِ عزاً . وافترقوا إلى أوطانهم يرقبون الليلَ كما يُرتقبُ الصباحُ ، ويدلجونَ بكلِّ ماشٍ من الخيل بجناح . وكان أميرهم فى بُلهنيةِ الاستهامَة بهم ، وقلة الفكر فيهم ، قد بات يُعمل كاسه ، ويُلهى

(١) الذخيرة ٤ / ٥٠٦ .

جلّاسه . وغدا سكرانَ على فرسٍ جموحُ يبادرُ النهاب وهى أنفسهم ، ويحاولُ الغنائمَ وهى مهجهم ، فرقصتْ به الفرسُ ، فصادف ذلك الأجل المكتوب له . فجزى الله هذا الحىَّ من آل عامر أهنأ الجزاءِ عاجلاً ، وأدومَهُ آجلاً ، وثنّى ببنى عمنا الأقربين وعشيرتنا المستخلصين ، خفاجةَ ، وكذلك الجيران ، وأهل البلد والأعيان . وألفاف كانت سماؤهم نكرةً ، فعرَّفتها المواقفُ الحميدةُ ، وطوائف عاطلة حلَّتها الخطى البعيدةُ ، وخاملة نبَّه عليها شكر السيوفِ لأيد منهم وصلت قصارها ، وأوصلت فى زحام الورْدِ حوارَها » .

رسالته إلى أبى العلاء المعرىّ وأخيه[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذه ـــ أطال الله لسيّدىّ الشيخين فى سبوغ النعمة البقاء ، وأدامَ لهما فى ذروة المجد الارتقاء ، وجعلنى لهما من كل سوءٍ الفداءَ والوقاء ـــ نفثةُ مصدُورٍ ، وضجرةُ مأسورٍ بعثتها صبابةُ الهَوى ، تذكيها نارُ الغرام ، فى صُبابَةِ لقاءٍ تقلّها أيدى السلام :

بقيّةُ شِلْوٍ كسَّرَ البينُ عظمهُ ومزَّقَ جِلداً كانَ يسترُ ما بَقِى
أقامَ فلا تلكَ الخوافى تطيعُهُ نهوضاً ، ولا تلكَ القوادمُ ترتقى

ولابدَّ للمصدورِ أن ينفث ، ولا غرو للمأسورِ أن يتلهَّثَ ، وجمُلتها أنى كتبتُ وما لى جارحةٌ إلا وهى جريحةُ حبّهمَا ، ولا جانحةٌ إلاَّ وهى جانحة الى قربهما ، ولا قلب الا وهو كيفما تردَّدَ وتقلّب ففى مرضا لهما ، ولا نفَسَ إلا وهو كيفما تصعَّدَ وتصوَّبَ ففى موالاتهما ، فالله يحرسُ على مُوقَدَىْ جزلِ الغضَا بين جنبىّ ، وموفدَىْ جيش الصبابة كلَّ يومٍ إلىّ ، اللذين ان واجهتُ بهما المروءَة أسفَر مربدُّها ، وسرَّ مكمدّها ، وإن قابلت بهما الفتوّة طلع سعدها وأورى زندها :

أردّدُ فيهما فكرى فترجعُ حُسراً فِكَرى
كذاك الشمسُ تثنى العيْنَ معشاةً عن النّظر

فإذا هاجت بلابلى ذكراهما ، وإن كنتُ لا أنساهما ، واشتقتُ أن أراهما ، ولم أجِدْ عوضاً عمَّنْ سواهما :

(1) مجموع رسائل أبي العلاء .

أرومُ بالذكرِ شفاءَ الذى يقلقُنى من روعةِ الذكْرِ
ولستُ بالحاملِ إلاّ على إطفاءِ جمرٍ بلظى جمْرِ
وعلّةُ الكونِ إذا طُولبتْ بالجرى فى الإفسادِ لم تجْرِ

مثَّلْتُ نفسى لديهما ، وقرَّرْتُ مكانَهما بين أيديهما :

وخلوْتُ أجتلبُ الرُّقادَ لعلَّنى ألقى خيالاً منهما فأراهما
فإذا عدمتُ النومَ لذْتُ بفكرتى فانجابَ لى من ليلتى فجراهما
وإذا سُئِلتُ بمن تهيمُ صبابةً قلتُ اللذان هما اللذان هُما هُما

وفيان بعهدى بالغيب ، والساترانِ لما فىَّ من العيب ، والمحسنانِ إلىَّ إن أسأْت ، والمصيبانِ
ى أمرى إذا أخطأْت .

دليلاىَ ان جارَ بى مهتدٍ وعونَاى إن خذلَ الناصرُ
ولولا تردُّدُ فكريهما لما كان لى فى الدُّجى سامِرُ

من اجتلى غُررَ محاسنهما من جبهاتِ الدهر ، وأقرأ فضائلهمامن صحائف العصر
طالعُ طلعتيهما فى مرآةِ التخيُّل ، وأشاهدُ سمتيهما بعينِ التفكرُّ والتأمُّل ، ولاغرو وإن بَعُدَ
مهدُ ، إذا قربَ الودّ ، ولاضيرَ إن تناءتْ الأشباحُ فقد تدانتْ الأرْواح :

ولكنْ إذا حاسبتُ نفسى تأمّلتْ فلمْ تر إلا فكرةً قلّ مائجدى
فلا العينُ ترعى غير ما كان من نوىً ولا القلبُ يلقى غير ماكان من وجْدِ
وإنى لجانى البعدِ والبعدُ قاتِلى وشاحذُ حدِّ البينِ والبينُ لى مُرْدِى
فوا أسفاً من ذا ألومُ على النوَى وَمنْ قبلُ كان الفراقُ ومنْ عِنْدى
وكم قد أقلتُ الدهرَ من خطا ثُنى فهلاً أقال الدّهرُ من خطا فرْدِ
فنفَّسَ من كربٍ ، وفرَّج من أسىً وجمَّع من شتٌّ وقرَّبَ من بُعْدِ

هيهات ، هو الدهر الذى يسر نادراً ، ويسوء مبادراً ، ويحسنُ مبتدئاً ، ويسر آخراً :

ويجودُ لم يُجِدْ أخذ صلاتِه مُستدركاً خطأ الجميل فمدركا

فإلى الزّمانِ أذمّ ما ألقاهُ من ... غير الزّمانِ واستيمُ إلى البُكا
وإذا شكوتُ إلى سواهُ صنيعةً ... لم يُشكِني ، فإليه منه المُشتكى

فلعله أن يغلط باجتماع ، لا يكَدّرهُ انقطاع ، أو تلاقٍ لا ينغّصُه افتراق ، وهو المرجوُّ من طَوْلِ الله تعالى . ولولا ما أرجُوهُ من عوْدِه الى ما عوّدَ من جمع الفريقين ، ولمّ ذاتِ البين لَمتُّ كمدا ، ولم أجدْ على ما أقاسيه جلدا . فأما حالى وما أنا عليه فجملتها أنى أصبحُ وأمسي فى غِلِّ التدبير ، وأروحُ وأغدو فى سجْن المقادير ، هدفاً لسهامِ الليالى والأيام ، غرضاً لأسنّةِ الأحْوال والأعوام ، أجدُ مالا أريد ، وأريدُ مالا أجد :

وليتني من زماني ... خرجتُ رأساً برأسْ
فلم يَنَلْني بخير ... ولم يُصِبْني ببأسِ
وكنتُ أصبحُ حُرًّا ... بين ارتجاءٍ ويأسِ

وهما يريانِ ذلك فى اضطراب خَطّى ، ورُجُوع ألفاظِى شَيْئاً فشيئاً إلى خُطًى ، فإذا هما صَرَفَا التأمُّلَ إلىّ ، وأقبلا بكلّيّةِ فهمهما علىَّ ، وجدانى :

وقد استحالَ الهمُّ بى فتخالُني ... من طولِ ما أجدُ الجوَى مسرورا
وقد انطوَتْ منّى الضلوعُ على أسىً ... لو كان محسوساً لكان سَعِيراً

وأخلق بمن كانت هذه صفته ، أن تتساوى عنده الصحةُ والسُّقْمُ . وأحر بمن كان هذا نعتهُ أن يتماثل لديه الرّاحةُ والألَمْ .

بأىّ فؤادٍ أقاسِى الهمومَ ... وفى أىِّ جفنٍ أحسُّ السُّهَاداَ
وما ترك الدّمعُ لى مُقْلَةً ... ولا خلّفَ البيْنُ عندى فؤادا

وأنا مع كالِ هذه الأحوال ، أُحاشِينُ الحجرَ ، وأُحَاسِنُ القَمر ، وأفاضِلُ الهِجانَ بالهجَن ، وأفضّلُ الغثاثةَ على السِّمَنْ .

أتعاطى نزح الرّكىّ وقد قَصُـ ... ـرَ عنْ أن ينَالَ ماءَ رشَاءُ
ولعهدى بفكرتى وهى تنجا ... بُ بها ، عن صباحها الظلْماءُ
غير أنى وإن تعاورنى الهمُّ ... وشَاءَ الزمانُ مالا أشاءُ
ورمانى مستيقناً أنَّ قلباً ... بين جنبىَّ صَخرةٌ صمّاءُ

لا أبـالى بالليـل طـال أم اليـو	م ، كـلا الرّتبتين عنـدى سـواءْ
والمغادِى هـو المراوح من همّـ	ـى فهـذا الصّباحُ ذاك المسـاءْ
وإذا العيـنُ لم تعاينْ سِوى السُّـو	ء فسيّان ظلمـةٌ وضيـاءْ
وابْنِىَ الهـمُّ لا ابنـه أنا إذ كـلُّ	ابـن هـمٌّ بليّـةٌ عميـاءْ

وبعد ــ فهذا أدام الله عزّ سيّدتىَّ الشيخين ــ قولٌ استغفرُ الله منه ، وأسأله التجاوز عنه ، وأسلم للمحتوم فى أمره ، وأرضى بقدره خيره وشره ، وأسأله الجمع بينى وبينهما على حالٍ تسرُّ الولىَّ وتسُوءُ العدُوَّ بحوله وطوله ، إنه ولىُّ الإجابة والقادرُ عليها إن شاء الله تعالى . » .

ونال ابن المغربى التقدير من معاصريه وممن تبعه من الأدباء والعلماء فى العصور التالية . وممن أعجب به ابن بسام ، فقد ترجم له فى الذخيرة وأثنى عليه وعلى أدبه قائلا :[1]

« كان أبو القاسم نجماً مطالعُه الدُّول ، وبحراً عُبابُه القولُ والعمل ، وروضةً تفوتُ القُلوبَ نفحاتُها ، وتفيدُ الأبصارَ صفاتُها وموصوفاتُها ، أمّا العلماءُ فعيالٌ عليه ، وأما العظماءُ فلعبٌ بين يديه ، وأما الأقلام فبعض شيعه وأنصاره ، وأما الأقاليمُ فبين إيراده وإصداره ، وأما مكانه من العلم الحديث والقديم ، وسبقهُ إلى غايتى المنثور والمنظوم ، وإقدامُه على المهالِك ، وتلاعُبُه بالأملاكِ والممالك فأشهرُ من الصباح ، وأسيرُ من الرياح . »

ويقول :

« ومن أوابد أخباره ، وخالدِ آثاره كتابُه المترجَمْ بـ « المُنخل » فى اختصار « إصلاح المنطق » لابن السكّيت. فإنه غايةٌ لايتعاطاها إلا من بهرَ عتقُه ، واشتهرَ سبقُه ، وطريقةٌ لايتواخاها الا من رسختْ فى العلمِ قدمه ، وترامت به إلى مَعالى الأمور همَمُه . ومما يعجبُ من أمره ويرفع الصوتَ بجلالةِ قدرِهِ أنه استظهر القرآن وعدّةً من الكتب المجرَّدةِ فى اللغةِ ونحو خمسة عشر ألف بيتٍ من مختار الشعر القديمِ ، ونظم الشعر وتصرَّف فى النثر ، وبلغ من الخطِّ الى مايقصرُ عنه نظراؤه ، ومن علم الحساب وجميع الأدوات الى مايستقل بدونه الكاتب وذلك كله قبل استكماله أربع عشرة سنةً ، واختصر ذلك الكتاب فتناهى فى اختصاره ، وأوفى على جميع فوائده حتى لم يفته شيءٌ من ألفاظه ، وغيَّر من أبوابه ماأوجب التدبيرُ تغييرهُ للحاجة الى الاختصار ، وجمع كلّ نوع إلى مايليقُ به » .

---

(١) الذخيرة ــ تحقيق إحسان عباس ــ ج ٨ ص ٤٧٥ ــ طبع دار الثقافة بيروت

وقد وقفنا على نماذج من نثره وشعره ، وعرفنا مكانة الرجل فى الشعر وهو فى رأينا فى النثر أمكنُ وأقدر ، وهو صائغ ماهرٌ ، وإن لم يعتمد البديع صبغاً يزيّن به لفظه وإن كان يميل أحيانا الى السجع ، والمزاوجة ، ويحرص على مراعاة النظير ، والتوازن بين العبارات فى الإيقاع ، مع ميل احيانا الى الإغراب فى اللفظ ، وهو أكثر ميلاً الى الاستعارة والاكثار من المجاز ، وذلك يكسب عبارته قدراً من الحسن ، ووشيا من الجمال .

وقد يضمن قوله الشعر من محفوظه أو منظومه ، وفى رسالته الى أبى العلاء صورة لتلك المراوحة بين منظومه ومنثوره ، يعادل بينهما .

وابن المغربى بعد هذا كله علمٌ بارز من أعلام العصر ، ترك أثره فى الحياة ، وأحداث التاريخ فى تلك الفترة الغربية من الدولة الاسلامية ، وترك أثراً كبيراً وواضحاً فى الفكر والادب .

ابن خـــيران

أبو محمد أحمد بن علي ــ ولىّ الدولة[1]

(توفى ٤٣٢ هـ)

وهو من كتاب الإنشاء المعروفين فى دولة الظاهر ابن الحاكم بأمر الله ، وكان أبوه قد تولى ديوان الانشاء للحاكم ، وتربى ابنه أحمد فى ظلّ والده ، حتى شب عن الطوق ، ورأى أباه فى تلك المنزلة الرفيعة من القصر ، ولا نستبعد أنه شاركه فى مجالسه بديوان الانشاء بل ربما ولى بعض الوظائف فيه حتى إن من ترجموا لحياته ذكروا إنه تولى الإنشاء بعد وفاة والده ، ولو لم يكن مدرباً على ذلك معروفا للخليفة ما جعله مكان أبيه . وذكرت بعض الأخبار أنه تولى الكتابة فى عصر الحاكم .

وتروى أخباره أنه كان حسن الوجه ، جميل المروءة ، واسع النعمة ، جيّد العارضة وكان أعظم قدراً من أبيه ، وأكثر علماً[2]

وحفظ ابن خيران كثيرا من الشعر ، ودرّب نفسه على الكتابة على طريقة كتاب العصر ولعل والده كان قدوته الأول فى ذلك ، ثم استقل بعد ذلك بنفسه ، وان كانت لم تصلنا رسائل لوالده .

والمؤكد من أخباره كما تواترت فى مصادر ترجمته أنه تولى ديوان الإنشاء للظاهر بن الحاكم بعد سنة ٤١٢ ، وكان سنة ٤١٤ هـ من رجال الدولة الكبار المذكورين مع قاضى القضاة وداعى الدعاة . وكان فيما يبدو وثيق الصلة بالأمير معضاد شمس الدولة الخادم الأسود الذى استولى على الظاهر ، وكان المتصرف فى دولته . وظل حتى عصر المستنصر بعد سنة ٤١٦ هـ .

---

(١) راجع ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت ٤ / ٥ــ١٣ ، وابن الصيرفى فى الاشارة إلى من نال الوزارة ٣٤ ــ ٣٥ ، وتاريخ مصر للمسبحى عن عامي ٤١٤ / ٤١٥ طبع النويد ، وعوالي المرتفعات لابن سعيد ص ١٠ ، والنجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة لابن سعيد و ذيل تاريخ دمشق ص ٨٠ ، ووفيات ابن خلكان ٣٨٢/٣ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٤٤/٨ وأعيان الشيعة ٧٦/٥٤ والوافى للصفدى ٢٣٤/٧ ، ومجموعة الوثائق الفاطمية للدكتور الشيال ١٦/١ ــ ١٣٨ ، وفى أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ٣٣١ ــ ٣٣٤ .

(٢) ذكرت بعض المصادر أن أباه كان أكثر منه علماً .

وكان ابن خيران جريئاً ، ذكياً ، معتداً بنفسه ، وتروى عنه حادثتان إحداهما يرويها ياقوت . يقول :

« كان ابن خيران قد خرج الى الجيزة متنزهاً ، ومعه من أصحابه المتقدمين فى الأدب والشعر والكتابة قد احتفُّوا به يميناً وشمالاً ، فأدى بهم السير الى مخاضة مخوفة ، فلما رأى إحجام الجماعة من الفرسان عنها وظهور جزعهم منها قنع بغلته فولجها حتى قطعها ، وانثنى قائلاً مرتجلاً :

ومخاضةٍ يلقى الرَّدى من خاضها ... كنتُ الفداةَ إلى العداخوّاضها
وبذلت نفسى فى مهاوِل خوضها ... حتى تنال من العدا أغراضها »

وربما كان المسبحى من جملة أصحابه ، فقد أورد كثيرا من شعره فى كتابه . وروى له ابن ظافر فى « البدائع والبدائة » حكاية تدلُّ على ستهتاره ، وتبذله ، قال ابن ظافر[1] :

« ذكر الفرج بن ابراهيم الكاتب فى « سريرة الألباب وذخيرة الكتّاب قال : دخلتُ يوماً ديوان الانشاء بمصر ومتوليه ولىُّ الدولة ابن خيران ، فلم أجده فى الديوان الا أنى وجدتُ الكُتَّابَ على رسمهم ، والناسُ على جارى عاداتهم ، وإذا سراويلهُ ملقاةُ على طراحةٍ ، فجلستُ أنتظره ، فلم أشعر الا وقد فتح خزانةً وخرج وقدامه غلامٌ صقلبىٌّ كأنَّ الشمس على صفحته والغصن فى قامته ، منكسر الأجفان ، مطرقها مورّد الوجنةِ عَرِقها ، وحين وصلَ الى الطراحة لبس ابن خيران السراويل وارتجل :

أنا ممن لايرى للنفسِ إلا بالصلاحْ
لاتداوى حِكّةُ الإنعاظِ إلاَّ بالنكاحْ

فعلم الحاضرون أنه كانَ يفسق به (بالغلام) ، فاطبقوا عند الخروج على لعنه . »

ويروى ابن خلكان له حادثة ثالثة تدلُ على مروءة وعطف على فقراء الأدباء والشعراء يقول إن الشاعر أبا الحسن علي بن أحمد بن نوبخت توفى بمصر فى شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة وهو على حالة من الضرورة ، وشدة الفاقة ، وكفله ولىُّ الدولة أبو محمد أحمد بن على المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر . »[2]

---

(١) بدائع البدائه بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ص ٣٦٠

(٢) وفيات الأعيان ٣٥٨/١ ، وترجم له ترجمة مختصرة فى عرض ترجمة الظاهر ٤٦٣/١

ولابن خيران شعر ، ونثر ، وان لم يصلنا منهما غير نتف منثورة . مع انه فيما يبدو كان غزير الشعر والنثر ، فقد جاء أنه أرسل شعره ورسائله الى الشريف المرتضى يعرضه عليه فى جزئين . وقد ورد بعض شعره ورسائله فى تاريخ المسبحى ، وياقوت ، والنجوم الزاهرة لابن سعيد .

وانتقد ابن سعيد كتابته وشعره قائلا : « ووقفت على رسائله فى مجلدين واكثرها من طبقة المغسول المسبوع ، لاتقف منها على غريبة ، ولا تظفر بنادرة ويكفى منها عنواناً عن طبقته قوله فى كتاب يحضُّ فيه على الجهاد :

« من عبد الله ووليّه أبى الحسن الإمام الظاهر لاعزاز دين الله أمير المؤمنين إلى كافة أولياء الدولةِ وطوائفِ رجالها ، وقبائل عربها ، والمطوّعة من رعاياها بالحضرة وسائر أعمالها .

سلام عليكم ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمد اليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلّى على محمدٍ جده خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمةِ المهديين ، وسلّم تسليما .

أما بعد فالحمد لله جبّار الجبابرةِ ، وقهّارِ الملوكِ القاهرةِ ، ومنّاح النعم السابغة المتظاهرة وفتّاح أبواب الخير على المخصوصين به فى الدنيا والآخرة ، كافي عظائم الأمور ، وشافى وحاوج الصدور ، وقاهِر الباطلِ اذا تسلطت منه الخطوب وناصر الحق اذا ضعف الطالب والمطلوب ، الذى أعز الملّةَ بالسيف ، وحاطها من عوادِى الضيّم والحيف . وأثنى على من له فى الجهادِ فضلٌ مخصوصٌ فقال : ﴿ إنّ الله يحبُّ الذين يقاتلونَ فى سبيله صفاً كأنهم بنيانٌ مرصوص ﴾ .

وأحسن ما وجدته من نثره مانقلته من خط الصاحب كمال الدين بن أبى جرادة فى فصل يخاطب فه الدّزْبَرى صاحب دمشق عن الحضرة :

« وكان قلمك يوجفُ ولا يجفّ ، وسيفُك من ذوى العنادِ يكف ولا يكُفّ ووزنك فى سدّ ثلمِ الفسادِ يرجحُ ولا يخفّ . »

وقال عنه القرطىُّ :[1] « إمامُ أئمة كتّاب الديوان الإمامىّ بالديار المصرية . الذى نسج

---

(١) النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ص ٢٤٤

كلٌّ على منواله ، وسلّم له فى المرتبة العلية . كتب عن الإمام الحاكم والإمام الظاهر ، وعن الإمام المستنصر . ونظمه ونثره قد دُوِّنا إذ هما أعلى مايدوّن » .

وأما شعره فقد أورد له المسبحى جملة منه ، كما أورد ابن سعيد كذلك بعض مقطوعات منه . ويقول الدكتور محمد كامل حسين(٢) : « وعلى الرغم من أن شعره فقد ولم يبق منه الا عدة مقطوعات قصيرة ، فإننا نستطيع أن نقول ان ابن خيران كان معجباً بنفسه يكثر الإشادة بشعره ، وبنثره . انظر اليه يقول :

ولقد سموتُ على الأنام بخاطر ... الله أجرى منه بحراً زاخرا
فإذا نظمتُ نظمتُ روضاً حالياً ... وإذا نثرتُ نثرتُ دراً فاخراً

ويقول مرة أخرى :

خُلِقتْ يدى للمكرمات ومنطقى ... للمعجزات ، وَمفرقى للتاج
وسموتُ للعلياءِ أطلبُ غايةً ... يشقىَ بها الغادى ويخطى الرَّاجى

وهو القائل أيضاً :

قد علمَ السيفُ وحدُّ القنا ... أن لسانى منهما أقطعُ
والقلم الأشرف لى شاهدٌ ... بأننىَ فارسُه المِصْقَعُ

من هذه المقطوعات نستدل على ان ابن خيران قد فَتن بشعره وبنثره الى درجة أن وصف نفسه بأن منطقه يأتى بالمعجزات »

ومن جملة ماذكره المسبحى من أشعاره قوله متغزلاً :

أمرُّ بالقمر الغربىّ مطلعُه ... فيعترينى إذا أبصرتُه صرعُ
وكم هممت بترك الافتتان به ... فلم يدعنى جنونُ العشقِ والطمع
أشكو إلى الله قلباً عنّ مطلبه ... ما إن له عن سوى الغاياتِ مرتدعُ

---

(٢) فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٣٢

وقوله أيضا :

يا من إذا أبصرنى أعرضا ... إذ ليس فعلى عندهُ مرتضى
قد كان ما كان بجهلِ الصّبا ... فلا تؤاخذنى بما قد مضى
لى حرمةُ الإخلاصِ لا غيرهُ ... وهى التى تطمعنى فى الرضا

وقال :

من حرَّضَ النوم على هجرى ... غيرك يامستحسن البحر
ومن حمانى برَّ أهل الوفا ... سِواك إذ قصَّرت عن برّى
أسألُ من أعدمنى الصبر أن ... يمدّنى فى الحب بالصّبرِ

وقال :

واحربى من ظالم مهجتى ... فى يده ، هو بأوصابِها
رام مداواتِى على رقبةٍ ... بقبلةٍ منه فأودى بها

وقال :

يا بديعاً تكادُ أنوارُهُ ... تحجبُ القمَرْ
وغريراً مازلت منـ ... ـه معنّى على غررَه
إنَّ قلبى إذا خطَرْ ... ت على غايةِ الخطرْ
أوما آن أن تليـ ... ـنَ وأن تقضى الوطرْ
كيف استجلبُ الرُّقا ... دَ ، واستدفِعُ السَّهرْ
والذى ارتجيه مِنـ ... ـكَ بعيدٌ من الظفرْ

وقال :

ياقمرَ الروشنِ ياطلعةً ... أنوارُها تحجبُ ضوءَ القمَرْ
رفقاً بمن غادرته فى الهوى ... مشتهراً كاسمك بين البشر
أما اتقيت الله فى عابرٍ ... وقفته للحتف لمَّا عَبرْ
قل لى لم عرَّضت ـ لمَّا بدا ... له ، ولم أعرضت لمَّا نظرْ
أوطراً قضيت فى قتله ... اعطفْ عليه ، قد قضيت الوطرْ

وقال في مثله :

بدرٌ بدا طارقاً ومبتكراً فكاد يُزرى بالبدرِ والشمسِ
يدعو إلى حكمه وطاعتهِ فلا ترى عاصياً من الإنسِ
وكم دعاني إلى الهوى فأبتُ لي ذلة الحبّ عِزّةُ النفسِ
لا خير في العشقِ للأريب إذا قضى على العاشقين بالوكسِ

وقال :

يا قضيباً مهفهفاً : أترى قتل من هفا ؟
قد مضى من مشقة البُعـ ـدِ والصدّ ما كفى
فارْثِ للمدنفِ الذي ذابَ في طاعةِ الوفا
إنما يُجزَلُ الثوا بُ لمنْ عفَّ أو عفا

وقال :

أنا منهاض الجناح بين واشٍ ينثني ولاحِ
وهوى أسهل منه في الحشى وخزُ الرماحِ
أنا لولا الجبن ما اتبعتُ فساداً بصلاحِ
هكذا تصنع بالعشاقِ ألحاظ المِلاحِ

وقال :

إذا خطرتم ببالي هزّني أسفاً شوق إليكم كهزّ الريح للغصنِ
وما انتفعتُ بعيشي بعد فرقتكُمْ ولا ربعتُ على ربعٍ ولا سكنِ

وقال في الفخر :

أيها المبتغي مساماةَ مثلي في المعالي ضاقت بك الأسبابُ
هل يضاهي بدر الظلام سراجٌ أو يباهي شمس النهار شهابُ

وقال مفتخراً :

قومي رعاةُ الخلقِ كلّهمُ وأساةُ كَلْم نوائبِ الدهرِ
أحسابهم غُرٌّ محجّلةٌ ووجوهُهم كالأنجم الزُّهرِ

نُطقٌ ببذلِ ندى وكفُّ أذًى   خرسٌ عن الفحشاءِ والهُجْرِ

وقال أيضاً مفتخرا :

قضَتْ لى بنيلِ العلا همَّةٌ   شموسٌ مفاخِرُها بازغَة
إذا جُدتُ ألرى جميعُ العُفاةِ   وجادوا من النعمِ السابغَة
وإن صُلْتُ صالتْ صُرُوف الزمانِ   وأجلتْ عن النقمِ الدامِغَة
فإن قلتُ برَّزتُ فيما أقولُ   على قائلِ الحكمِ البالِغَه

وقال فى الأدب :

أمران مستقطعان عندى   فقرُ جوادٍ الى بخيلِ
وبارعٌ فى جمالِه لا   يعرفُ شيئاً من الجميلِ

وقال فى الأدب :

أسنى العطايا العقلُ مقترناً   بغنىً يكفُّ وصحةُ البَدنِ
وأشد ما فجع الزمانُ بهِ   فقدُ الصِّبا والإلفِ والوطنِ

وقال :

إذا لسانُ المعالى كان يمدحُنى   فما أبالى بمن قد ظلَّ يهجونى

وقال :

والتننى الدنيا تجرُّ ذيولَها   فرفضتُها وعصيتُ طاعتَها لِيى
وحلمتُ عن جهلِ الجهولِ تنزها   والحلم يخرسُ ألسن الجُهالِ
وأمدَّنى صنع الإله بخاطرٍ   كالسيفِ مصقولٍ بغير صقالِ
أهدى الى الآفاقِ كلُّ بديعةٍ   وأفادَ عنى الملكَ كلَّ جمالِ
وصنعتُ من غُرَرِ الكلامِ قلائدا   منظومةً بمفاخرٍ ومعالِى
ونشرتُ فى الدنيا محاسنَ حجَّةً   تبقى على الأيامِ من أقوالِى
وطلعتُ فى سنِّ الصبوَةِ للورَى   بالفضلِ والحسنى طلوعَ هلالِ

وقال :

خلقت يدى للمكرماتِ ومنطقى   للمعجزاتِ ومفرقى للتاجِ

وسموتُ للعلياء أطلب غايةً ‏ يشقى بها العادى ويحظى الراجى

وقال :

ولقد بلوتُ الناسَ مختبراً ‏ فوجدتُ سادتهم ذوى الكرم

لو انَّ روحَ الجودِ فى صنمٍ ‏ عكفَتْ عليه بصائرُ الأمم

وقال :

إنى لاعذر حاسدى كرماً ‏ منى وأرحَمُهُ على كمدِهْ

من شرَّف الدنيا بمنطقهِ ‏ ايلامُ حاسدهُ على حَسَدِهْ

وقال :

دعينى أذُدْ بالشرّ عنّى أهلَهُ ‏ وإن كان طبعى لايميلُ إلى الشرّ

فإنّى أرى الشرّيرَ تقضى حقُوقُه ‏ ويُهمَلُ حقُّ الماجدِ الخيِّر الحُرّ

وعرف بكثرة مدائحه ومراثيه لخلفاء الفاطميين ، والعلويين ، وراسل الشريف المرتضى وبعث بديوان شعره ورسائله صحبة أحد العراقيين لابداء رأيه فيه . وكان شيعيا يتعصب لشيعيته ، وقال فى مخاطبة العباسيين على ألسنة العلويين :

بنى عمِّنا والقولُ شتى فنولُه ‏ ولله فيما قد حبانا به الشُكْرُ

غصبتُمْ ذوى غصب قضيباً وبُردةً ‏ بنا شرفا قِدْماً ، وقلتم : لنا الفخرُ

ونحن ورثنا عن أبينا مقامه الـ ‏ لَـذى نصَّهُ خيْرُ الورى جَدُّنا الطُّهْرُ

وكان ظلامُ الظلم قد طال ليلهُ ‏ فلما . أتانا حَقُّنا طلعَ الفجرُ

وينطقنا فضلُ البدارِ عليكمُ ‏ ويخرسُكُمْ عن ذكرِ فضلٍ لكمْ بَدرُ

ومن طوْلنا أنا اصطنعنا أباكمُ ‏ وأعمامكم برًا ، وعادتنا البرُّ

وقد كانت الشورى علينا غضاضةً ‏ ولو كنتم فيها استطارَكمِ الكِبرُ

ونطق بشيعيته فقال :

أنا شيعىٌّ لآلِ المصطفى ‏ غير أنّى لا أرى سبَّ السَلفْ

وشعره كما ترى فى معظم ماذكرناه هنا من طبقة شعر الكتاب الذين عرفوا فى عصر العباسيين فى القرنين الثالث والرابع ، ومعظمه من الطبقة الوسطى لايرقى الى شعر الفحول ،

ويغلب عليه سهولة اللفظ ، وهو هنا لايكثر من الصنعة اللفظية ، وبخاصة صنعة البديع ومعانيه حضرّيةٌ ، لابداوة فيها ، وكذلك لفظه وصوره .

العميدى[1]

أبو سعد محمد بن أحمد (توفى سنة ٤٤٣ هـ)

وهو أديب نحوى ، مصنف ، سكن مصر ، وعمل فى ديوان الترتيب فى أخريات عصر الحاكم ثم عزل عنه فى عصر ابنه الظاهر سنة ٤١٣ هـ ، ووليه بعده ابن معشر ، ثم تولى ديوان الإنشاء بعد ابن خيران الكاتب سنة ٤٣٢ هـ .

ولا نجد له أخباراً كثيرة رغم ما ذكر له ياقوت من مؤلفات هامة فى الأدب والبلاغة منها :

١ – الإبانة عن سرقات المتنبى[2] .
٢ – تنقيح البلاغة فى عشرة مجلدات .
٣ – كتاب الارشاد الى حل المنظوم ، والهداية الى نظم المنثور
٤ – وكتاب انتزاعات القرآن .
٥ – وكتاب العروض .
٦ – وكتاب القوافى .

وأورد له ياقوت بيتين من الشعر على شكل المجانس فى القافية اذ يقول :

إذا ماتناق صدرى لم أجد لى ... مقرّ عبادةٍ إلاَّ القرافة
لئن لم يرحم المولى اجتهادى ... وقلة ناصرى لم ألق رافة

---

(١) معجم الأدباء ٢١٢/١٧

(٢) حققه وقدم له وشرحه ابراهيم الدسوقى البساطى ونشر ضمن مجموعة الذخائر (٣١) بدار المعارف بمصر سنة ١٩٦١

نموذج من كتابة العميدى
من مقدمة كتابه « الإبانة »[1]

« الحمد لله الذى أجرانا على عادة تفضله ، وهدانا فى جميع أحوالنا الى طرق الخير وسبله وخصّنا باحسانه المتقادم ، ورزقنا من العقل ما ميزنا به منْ البهائم .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير بريته ، وعلى الطاهرين من أهل بيته وذريته . إعجاب المرء بنفسه يشرع اليه ألسنة الطاعنين ، وتطاوله على ابناء جنسه يجمع عليه ألسنة الشانئين ، فلا نقيصة عندى أقبح سِمةً من اغترار الإنسان بجهله ، ولا رذيلة أبلغ وصمة من إنكار فضيلةِ من يقع الإجماع على فضله ، ولا منقبة أجلب للشرفِ من الاعتراف بالحق إذا وضحت دلائله ، ومن الانحراف عن الباطل اذا استقبحت مجاهله ، ولادلالة على الحلم أبينُ من التوقف عن الشبهات حتى ينجلى ظلامُها . والتصرُّف على أحكام النصفة حتى تهديك أعلامُها . وما أحسن أثر القاضى إذا عَدلَ فى الحكم وأنصف ، وأقبحَ ذكرهُ إذَا مال عن الحق وجنف . والظُّلْمُ قبيح ، وهو من الحكام أقبح وأشْنَعُ ، وجحود الفضل سخفٌ وهو من الفضلاءِ أسخف وأفظع .

ومن لم يتميّزْ من العوامْ بمزيةٍ تقدُّم وتخصُّص سلَقَ المحسنين بلسانٍ ذمٍّ أو تنقُّصْ . ومن عَدِمَ محاسنَ التمييز والتحصيل نظر الى المميّزينَ بعين التقصير والتجهيل .

وأكثر آفات كتّاب زمَانِنا وشعرائه أنهم لايهتدونَ لتقليل الكلام وتشقيقه ، ويتبعون الهوى فيضلهم عن منهج الحق وطريقه . فإذا سمعوا فصلاً من كتاب أو بيتاً من شعر ، ممن لايكادُ يجيلُ فى الأدبِ قِدْحا ، ولا يعرف هجاءً ولا مدحا ، فهو يحكم على قائله بالسَّبْق والتفخيم والإجلال والتعظيم ، وليسْ يدرى إن سألته : هل ماروَاهُ سليم اللفظ أو مُختَلَّة ؟! صحيح المعنى أو معتلَّة ؟ وهل ترتيبهُ مستحسنٌ أو مستهجن ، وتقسيمه مطبوعٌ أو مصنوع ونظامه مستعملٌ أو مسترذل ، وكلامه مستعذبٌ أو مستصعب ؟! . وهل سبقه إلى ذلك المعنى أحدٌ قبله ، أو هو مبتدعٌ ، أو أورد نظيره سواه ، أو هو مخترعٌ استبدعوا كلامه ، واتبعوا أحكامه ، واعتمدوا علَى الاعتقاد دون الانتقاد ، وقبلوه بالتقليد لا بالاختيار ، وقابلوه بالامتثال دون الاعتبار والاختبار .

---

(١) الإبانة عن سرقات المتنبى بتحقيق ابراهيم الدسوقى البساطى وطبع دار المعارف من سلسلة الذخائر

ثم إن بيّنتَ لهم عوارَ ما رووْهُ وزلّله ، وخطأ مـ حَكَوْه وخطّله التزموا نُصْرَةَ خطئِه واقفين مواقف الاعتذار ، ومائلين عن طريقة الانتصاف إلى الانتصار . وليست هذه الخصلة من خصال الأدباء الذين هذبتهم الآداب فصاروا قدوةً وأعلاماً ، ودَرَّبَتْهُم العلوم ، فأصبحوا بين الناس قضاةً وحكاماً . إنما يذهب فى مدح الكتاب والشعراء مذهب التقليد من يكون فى علومه خفيف البضاعة ، قليل الصناعة ، صفر وطاب الأدب . ضيق مجال الفضل ، قصير باع الفهم ، جديبَ رباع العقل . فأما من رزق من المعرفة مايستطيع أن يُمَيِّزَ به بين غَثّ الكلام وسمينه ، ويفرق بين سخيفه ومتينه . وأُوتى من الفضلِ ما يُحسن أن يعدلَ به فى القضية ، غير عادلٍ عن الإنصاف . ويحكم بالسوِّية ، غير مائلٍ الى الإسراف والإجحاف . فالأولى به ألا ينظر الى أحد الا بعين الاستحقاق والاستحباب. ولا يجُلّ أحدا من رُتب الجلالِة الا بقدرِ محله من الآداب ، ولا يعظّمُ الجاهليَّة لتقدمهم اذا أخرتْهم معايبُ أشعارهم ، ولا يستحقر المحدثين لتأخرهم إذا قدّمتهم محاسنُ آثارهم ، ويطرح الاحتجاج بالمحال طرحاً ، ويضرب عن استشعار الباطلِ صفحاً ، ويجِلُّ من يَشْهَدُ بفضائلهِ شهودٌ عُدُول ، ويُنزلُ من كلامُهُ عند التأمل منحولٌ ، معلول .

ولقد جرى يوماً حديث المتنبى فى بعض مجالس أحد الرؤساء ، فقال أحد جاملى عرشِه : سبحان من ختم بهذا الفاضل الفحول من الشعراء ، وأكرمه ، وجمع له من المحاسن ما بعثره فى كل من تقدمه . ولو أُنصف لعُلّق شعره كالسَّبع المعلقاتِ من الكعبة ، ولقدّم على جميع شعراء الجاهلية فى الرتبة ، ولكن حرفة الأدب لحقته ، وقلة الانصافِ محت اسمه من جرائد المتقدمين ومحقته ، وإلا فهاتوا لأى شاعر شئتم جاهلى أو اسلامى مثل قوله فى صفة الفرس :

رِجْـــلاهُ فى الركـــضِ رجلٌ واليدانِ يـدٌ وفعـله ما تريد الكفُ والقــدمُ

أليس هذا أبلغ من قول القائل :

دبير كخُـــذروف الوليدِ أمـرُهُ تتابُعُ كفَّيـهِ بخيطٍ مـوصَّـــلِ

لقد أبدع المتنبى ما شاءَ وأغرب ، وأفصح عن الغرض وأعرب . فقلت : للأقيشر مايقارب هذا المعنى فى نعت فرسه ، وهو قوله :

يجـرى كما اختــاره لـكاًنــه بجميــع ما أبغيــه منه عــالمُ

رجلاهُ رجلٌ واليدان يدٌ إذا   أحضرته والمتنُ منه سَالِمُ

فصاح وقال : ياقوم أهذا شعر إنسان له مسكةٌ من عقلٍ أو بُلَغةٌ من فضلٍ ؟ والله إن للمتنبى غلمانا وأتباعا أجلُّ من هذا البليد المجهول — من أى قبيلة هذا العاجز الذى تكلم بمثل هذا الفضول ؟ فقلت : عافاك الله . حديثنا فى الإبداع لا فى الاتباع ، و الآداب ، لا فى الانساب .

ليس يغنى المتنبى جلالة نسبه مع ضعيف أدبه ، ولا يضرُّه خلاف دهره مع اشتهار ذكره ، ولقد تأملتُ أشعارَه كلها فوجدتُ الأبيات التى يفتخر بها أصحابهُ ، وتعتبر بها آدابه من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم المخترعة مسلوخة . وإنى لأعجبُ والله من جماعة يُغلُونَ فى ذكر المتنبى وأمره ، ويدّعون الإعجاز فى شعره ، ويزعمون أن الأبيات المعروفة هو مبتدعُها ومخترعها ، ومحدثها ومضترعها لم يَسبِقْ إلى معناها شاعرٌ ولم ينطق بأمثالها بادٍ ولا حاضر . وهؤلاء المتعصبون له المفتخرون باللمَع التى يزعمون أنه استنبطها وأثارها . والمعتدون بالفَقِر التى يدَّعون أنّه افتضَّ أبكارها . والمترنّمون بأبياتٍ سائرةٍ يذكرونَ أنه انفرد بألفاظها ومعانيها ، وأغرب فى أمثلتها ومبانيها . والمتمثلون لها فى نواديهم ومجالسهم ، والمستعملون لها فى خلواتهم وأغانيهم ، كيف بنفوسهم ، ويستحسنون فى عقولهم أن يشهدوا شهادةً قاطعةً ، ويحكموا حكما جزماً بأنها له غير مأخوذة ولا مسروقة ، وأن طرائقها هو الذى ابتدأ بتوطئتها غير مسلوكة لغيره ولا مطروقة ؟ فليت شعري هل أحاطوا علماً بنصيف دواوين الشعراء للجاهلية والمخضرمين حتى يطلقوا القولَ غير محتشمين بأن المتنبى من بين أولئك الشعراء أبدعَ معانى لم يفطنْ لها سواهُ ، ولم يعثر بها أحدٌ غيره ممن يجرى مجراه .

وقد قال المرزبانى فيما حكى عنه أنه صنف كتاباً على حروف المعجم بأسامى الشعراء جمع دواوين قريب من ألف شاعر حتى اختار من عيونها ما أراد ، واختارَ من متونها ما ارتاد .

وذكر القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى أن البحترى على مابلغه أحرق خمسمائة ديوان للشعراء فى أيامه حسداً لهم لئلا تشتهر أشعارهم ، ولا تنشر فى الناس محاسنهم وأخبارهم ، فمن أين لهؤلاء المتعصبين للمتنبى أنه سبق جماعتهم فى مضماره ، ولم يقتبس من بعضها محاسن أشعاره ؟

وهل الذين يتدينون بنصرته بصائر بحسن المأخذ ولطف المتناول ، وجودة السرقة ، ووجوه النقل ، واخفاء طرق السلب ، وتغميض مواضع القلب ، وتغيير الصيغة والترتيب ، وإبدال البعيد بالقريب ، وإتعاب الخاطر فى التثقيف والتهذيب حتى يدّعوا علم الغيب فى تنزيهه عن السرقات التى لاتخفى صورتها على ناقد ، وتبرئته من المعايب التى شهد عليه بها ألف شاهد ؟

ولست ــ يعلمُ الله ــ أجحد فضل المتنبى وجودة شعره ، وصفاء طبعه ، وحلاوة كلامه ، وعذوبة ألفاظه ، ورشاقة نظمه ، ولا أنكر اهتداءه لاستكمال شروط الأخذ إذا لحظ المعنى البديع لحظا ، واستيفاءه حدود الحذق إذا سلخ المعنى فكساه من عنده لفظاً . ولا أشك فى حسن معرفته بحفظ[1] التقسيم الذى يعلق بالقلب موقعُه ، وإيراد التجنيس الذى يملك النفسَ مسمعُه ، ولحاقة فى إحكام الصنعةِ ببعض من سبقه ، وغوصه ما يستصفى ماءَه ، ورونقه ، وسلامة كثير من أشعاره من الخطل والزلل والدَّخل ، والنظام الفاحش الفاسد والكلام الجامد البارد ، والزحاف القبيح المستشنع ، واللحن الظاهر المستبشع ، وأشهد أنه عن درجة أمثاله غير نازل ولا واقع . وأعرف أنه مليح الشعر غير مدافع . غير أنى مع هذه الأوصاف الجميلة لا أبرئه من نهب وسرقة . ولا أرى أن أجعله وأبا تمام الذىَ كان رب المعانى ، ومسلم بن الوليد وأشباههما فى طبقة ، ولا ألحقهُ فى عذوبة الألفاظ وسهولتها . ورشاقة المعرض ، ومجانبة التصنع والتكلف بالبحترى ، ولا أقيسه فى امتداد النفس ، وعلم اللغة والاقتدار على ضروب الكلام ، وتصور المعانى العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم البارعة ، والآداب الواسعة بابن الرومى ، ولا أتهالك فى مدحه تهالك من يتعصب له تقليداً ، ويغلو فلا يجعل بينه وبين هؤلاء الفضلاء أمداً بعيداً . ولا أطعن أيضاً فى دينه ونسبه ، ولا أذمه لاعتقاده ومذهبه ، وكيف يسوغ لى أن أثلبه لالحاده ، أو عيبه لسقوط آبائه وأجداده ، وأنا أتحقق أن أكثر من يستشهد بأشعارهم المشركون والكفار والمنافقون والفجّار ، ومنهم اللكنُ والفصحاء ، والهجناءُ والصُرحاء .

والأدب يجعل الوضيع فى نسبه رفيعا ، كما أن الجهل يصيّر الرفيع فى منصبه وضيعا ، والمتنبى كان يفخر بأدبه لا بنسبه ، ويعتد بفضله لا بأهله ، ويتطاول على أهل زمانه بفصاحة لسانه ، وبضربه وطعانه ، لا بتوحيده وايمانه . ولو أنه كان يجحد فضل من تقدمه

---

(١) لعله حسن التقسيم .

من الشعراء ، وينكر حتى أسماءهم فى محافل الرؤساء ، ويزعم أنه لايعرف الطائيين ، وهو على ديوانيهما يغير ، ولم يسمع بابن الرومى وهو من بعض أشعاره يمير ، ويسبهم ونظراءهم إذا قيل فى أشعارهم إبداع ، ويعيبهم ففى ما أنشد لهم مصراع ، لكان الناس يُغْضون عن معايبه ، ويغطون على مساويه ومثالبه ، ويعدُّونه كسائر الشعراء الذين لاينبش عظامهم إنسان ، ولايجرى بذمهم وذامهم لسان .

وقد حدَّثنى من أثق به أنه لما قتل المتنبى فى طريق الأهواز وجد فى خرج كان معه ديوانا الطائيين بخطه ، وعلى حواشى الأوراق علامة على كل بيت أخذ معناه وسلخه . فهل يجمل به أن ينكر أسماء الشعراء وكناهم ويجحد فضل أولاهم وأخراهم .

عَلِيُّ بن خَلَف ، أبو سعد

من رجال عصر الظاهر والمستنصر فى القرن الخامس الهجرى ، عراق النشأة ، ومن رجالات البويهيين فى بغداد . عرف بين كتاب بهاء الدولة العظام ورجالها المقربين حتى غضب عليه ، لأمر لا تكشفه وثائق التاريخ فارتحل الى مصر ، واستقر به المقام فى القاهرة فلقى من خلفائها الفاطميين قبولاً حتى عده القلقشندى من كبار رجال دولتهم .

قال الصيرفى فى معرض الحديث عن نظم النثر ونثر النظم :[1]

« ومن أعلى رتب البلاغة نثر المنظوم، ونظم المنثور ، وقل من يجيد فيهما إلا من أعانته دربته ، وساعده طبعه وفطرته ، وقد كان أبو سعد على بن خلف صنف لبهاء الدولة ابى نصر بن عضد الدولة كتاباً فى حل المنظوم ، ولقبه بالمنثور البهائى ، واعتمد فيه على الحماسة ، للالف لها ، والأنس بها ، كما فعل أبو على الفارسى فى كتاب الايضاح الذى عمل لأبيه عضد الدولة فناخسرو »

ونقل الصيرفى من كلام ابن خلف فى كتابه المذكور فقال :[2]

« فمن فصول المنثور البهائى المتقدم ذكره :

ومتى استنهضتنا لخطب ، أو استنجدتنا فى حرب أنجدك منّا رجالٌ بأيديهم آجالٌ ، إذا أبدى البأس ناجذيه طاروا جماعات ووحدانا إليه ، وإن صرّح الشرُّ لهم وهو عريان عَدَوا اليه عدوة الليث وهو غضبان ، يرون بالقتل حياةً ، وفي الشرّ نجاةً ، لايصدُّون عن الحرب الزبون فراراً ، ولا يزدادون عليها إلا اصرارا ولا تبلى بسالتهم وإن صُلُوا بها أطوارا ، إذا أَجْلَيْتَ عليه العدُوّ الباسلَ اقتسمته الأسنةُ والسلاسلُ ، وإن سمالهم الجاهِلُ المتطاولُ . فما العمرُ منه بباقٍ ولا المدى متطاول . » .

قال ابن الصيرفى : وهذا الفصل جلُّ أوائل الحماسة .

---

(١) الأفضليات ص ٢٥٣

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٥

ابن أبى الشـــخباء[1]

الحســـن بن عبـد الصمـــد (ت سنة ٤٨٦ هـ)

أصله من عسقلان . وكان يلقب بالمجيد ذى الفضيلتين .

جاء الى مصر والتحق بديوان الإنشاء ، وصار من كبار كتابه

ولم يتيسر لنا قدر من أخباره ، مع أن ابن الصيرفى أشاد به ، ونقل عنه فى كتاب الافضليات كثيرا من شعره . ويبدو أنه عمل كاتبا لناصر الدولة الحمدانى ثم لبدر الجمالى وولده الأفضل وذكره العماد الأصبهانى بين شعراء عسقـلان وأوجز فى الحديث عنه كعادته فى ترجماته فقال : « مجيد كنيتِه ، قادرٌ على ابتداع الكلام ونحتِهِ له الخطبُ البديعة ، والملح الصنيعة » .

وأورد له ابن بسام مجموعة من رسائله ، ولكن ترجمته له سقطت من مخطوطة الأصل .[2]

ويقال إن القاضى الفاضل استمدمن رسائله .

أورد له ابن بسام قوله من رسالة :

« المودَّاتُ إذا كانت متينة العقود ، صادقة المشهودِ ، موضوعةً على أصل عريق ، وأساس وثيق ، لم تُجْزعها الشبَهةُ المُرْمضَةُ ، ولم تزلزلها الأباطيل المعترضّة وإن تناقلتها ألسنٌ مختلفةٌ ، وعلتها برودٌ من اللفظ مفوّفة .

ولما رأيت زيارة مولاى قد صارت مُرقعّةً ، وجنوبَ مودته قد عادتْ مروّعة ، وصرتُ أرى قوله متناقضا ، وماءَ البِشرِ من وجهه غائضاً من بعد ماعهدته :

لُبى طلالَـةُ وجهـه عن وجـهـه   فـتكاد تلقى النجـح قبل لقائِـه
وضيَـاءُ وجهِ لو تـأمـله امـرؤ   صـادى الجـوانـح لا رتـوى من مائِـه

---

(١) راجع فى ترجمته : معجم البلدان لياقوت ١٥٢/٩ وابن خلكان فى الوفيات ٨٩/٢ ، ويذكر أنه توفى قتيلا فى حبسه خزانة البنود سنة ٤٨٢ هـ .

(٢) راجع الذخيرة بتحقيق إحسان عباس جـ ٨ ص ٦٢٧ .

لم أتجاسرْ على سؤالِهِ عن العلة خوفاً أن يعيب عليَّ الارتياب بودّه ، وتطرُّق سوءَ الظن على عهده ، فسألتُ من يعلمُ دفائنِه ، ويخبرُ ظاهِرهُ وباطِنه ، فأخبرنى أن بعض الناس — ولم يسمّه — نقل اليه عنى ، فشنَّ الغارة على وفائه ، وزلزل أواخى وده وإخائه ، فقلتُ : عتبٌ والله ولاذنب ، وشكايةٌ بِلانكاية ، وأنا أحاكِمُ مولاى الى إنصافه لا إسعافه ، وعدله لا فضله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل ، وتغليب الحق على الباطل ، ولايرى نفسه بصورةِ من تستخفُّ حصاته الريح الخافقة وتشعث من مودته الأقوال الماذقة ، ولو انتقضت عندى المعاقد ، وقامت عليَّ — وأعوذ بالله — الشواهد . لكان مولاىَ حَرِّيا أن يجرى فى كرم اللقاء على العادة ، ويتأدب بقول أبى عبادة :

أبيتُ على الخِلانِ إلا تَثَنِّياً يَلينُ لهم قلبى ويصفو لهم شِرْبى
وإنى لأستبقى الصديقَ إذا نبا علىَّ وأهنا من خلائقِهِ الجرْبِ

والآن فقد أوضعتُ وأوجفتُ ، وتألفت مولاى واستعطفت ، فإن عادَتْ ظلالُ ودِّه مديدة ، وحبالُ كرمه مَحصُوفةً[1] جديدة . فحسنٌ بتلك الشمائِل أن تجمعَ شملَ الفضائل ، وإن تمادى على هذه الهجرة ، ولم يصحُ من نشواتِ تلكَ السكرة .

فمازال من ذنبٍ عليَّ اجترمته إليه فيجزينى به حيث أعلمُ
ولكنَّ إنساناً إذا ملَّ صاحباً وحاولَ صَرْماً لم يزلْ يتجرَّمُ

والله جَلت قدرتهُ يجعل حفظ المودةِ عنده أوجب الحقين ، وأنفع العِلْقَيْنْ ويرفعه عن السِّمةِ بنقضِ المرائر ، وحليةِ الجائِر الغادِر .

★ ★ ★ ★

وسافر بعض إخوانه فشُغِل عن وداعه ، فكتب إليه :

« ما أخرَّنى عن خدمة مولاىَ بالوداع أنى متأخّرٌ فى حلْبةِ ولائه ، ولا عادٍ من ملابسى إخائه وآلائِه ، ولودِدْتُ لوصَحِبتُ ركابَه السعيدَ إلى الصعيد ، وقطعتُ معه عُرضَ المهمهِ البعيد ، وزوَّدْتُ من مُجاورتِهِ قلباً مغموراً بودّه ، ومن مشاهدتِهِ طرفاً لا صبْرَ له من بعدِه ،

(١) الحبلُ المحصوف المحكمُ الفتل

وإنما حجزنى أمران ، كلُّ منهما يمَهِّدُ العُذْرَ ويبْسطُه ، ويمحو الذَّنبَ ويحْبطُه . وهو شُغِلى فى إنشاءِ التقليدِ العلىّ وتحريره ، وفعلُ ما أمرت به الحضرةُ الساميةُ وتقريرُه ، ثم خوف أن أرى مولاىَ وقد حلَّ انطلاقهُ ، وأسمعَ أن قد حان فراقه ، ونعق غُرابُ بينهِ ، فقَضٌّ أضلُعاً ، وأفاض نفوساً وأدْمُعَا ، فضعفتُ عن مشاهدةِ ذلك المقام وقصَّرْتُ من تحمُّلِ ذلك الداءِ العُقَام . وظللتُ أنشِدُ ، والدموعُ همَّعٌ ، والفؤادُ مصدَّع :

وأخرَّنى يوم انطلاقِك أن أرى ... على جمراتِ البيْن قلبى يُلَذَّعُ
فؤادٌ إذا قيلَ الفراقُ تساقطتْ ... خُفوقاً أواخى صبرِه تتقطعُ
وإنى صَليبُ العودِ فى كلِّ حادثٍ ... ولكنَّ أعوادى نأيك خروعُ [خُنَّعُ]

وإذا استنقذَ البينُ هذه النوبة . وخفقتْ بمشيئة الله رياحُ الأوبة ، وهبت وجهى للشحوبْ ، وجسْمِى للنَّصَبِ واللُّغوب ، وهَتَمتُ ثنايا الأرضِ إيضاعاً وإرقالاً ، وجعلتُ مافة اللقاءِ لمسافةِ الوداعِ أميالاً ، وأطلتُ شُكرَ الزمانَ على مايجدّدُه لى من مسرَّة قد خلعتُ بُرْدَهَا ، واستطَلْتُ عهدهَا ، وأنشدْتُ :

طربتُ وقد جَاءَ البشيرُ بقربكُمْ ... وذو الشَّوْقِ عند اسم الحبيب طَرُوبُ
وقمتُ إليه راشفـاً من تُرابِـه ... ثَرَى لك يحلو رشْفُهُ ، ويطيبُ

وما يبعُدُ ذلك فى قُدرةِ الله الذى يخرج من الشجرِ الأخضرِ جذوة نار ، ويهبُ القمرَ كمالاً بعد نقصٍ وسِرار . »

* * * *

وله من أخرى يعاتبُ بعض القواد :

« رأيتُ فلاناً عند نظرته لى بالأمس قد قطَّبَ حاجبه ، وزعزَعَ مناكبه ... فقلتُ : ماله ؟ . أأنْزِلَ إليه وحىٌ ، أم عُصبَ به أمرٌ ونهى ، أم حَصُلَ من الخلافةِ على وعْد ، أم أُنسِىءَ له الأجلُ مدَّةَ العهدْ . أم قلَّ عقلُه فعقَّ نفسهُ وظلمَها ، وجهلَ مقاديرَ الأشياءِ وقيمَها ، واعتقدَ أنَّ الدُّنيا طوعُ حُكْمِه ، والفطرَ صائِبُ فهمِهِ أمْ رأى الملائِكةَ المقرَّبين تتشَفَّعُ به ، والحورَ العينَ تشكُو لاعجَ حُبِّه . وثمارَ الجنَّةِ تدلَّتْ إلى يده . ونارَ جَهَنَّم تقتبَسُ من زَنْدِهِ ، والكوثرَ يمدُّ من معينهِ ، والسماواتِ مطوِّياتٍ بيمينهِ ، والبُراق قد امتَطِى

لحضرته ... فأجبْتُ بأن شيطانَ ظنى ماردٌ ، وتصوُّرى فيه ـــ أعزَّهُ اللهُ ـــ فاسدٌ . ولا حقيقة لشيءٍ مما توهَمتُهُ ، وسدَّدْتُه من الأمرِ وأقمتُه ، فقلتُ إذا لم يكنْ ذاك فما ذلك ؟ . قيلَ : سفةٌ فى الرأيِ وأفنٌ ، وتغيُّر فى الطينةِ وعفَن . ظنَّ أن الأحرارَ ملْكُ عُهدتهِ والعالَمَ مجموعٌ فى بُردتِهِ ، فحينَ سمعْتُ ذلِك أخذتْنى لمولاىَ الحمِّيةُ ، وهزَّتْ رأسى الأريحيَّةُ ، وقلتُ : معاذ الله . إنَّ دونَه فى الحصاةِ والكَيْسِ بطليموس ، وفى الحكمةِ أرِسطاليس . وإن الحكمةَ تستنجَحُ من ظنه ، والغيثَ يرشَحُ من شنّه . (من ذا الذى يشفعُ عنده الا بإذنه) . وإنه بحمد الله كما قيل :

خــرقٌ إذا أفضَــى السمـاط بــهِ   كـثُر العثـارُ وطُبّـقَ الزَّلَــلُ
وإذا السَّــريرُ ســمَا بقعـدَتـهِ   غربَـتْ بظاهِـرِ كفـهِ القُبـلُ

فهناكَ سكنت الألسنُ الهادِرَةُ ، ووقفتْ المَرادَةُ[1] الغادِرةُ ، وعادَ من حضَر يُثني على مولاىَ ويقرِّظُهُ ، ويحمل من شُكرِهِ ما يؤُودُهُ ويُبهظُه . فإن كانت هذه الوكالةُ واقعةً منه بالوفاق ، فيجعَلُ ثوابى عليها انحلال العقدةِ من جبينهِ ، وزوال التمارضِ من جفونِه وخفضَ الإصبعِ من سُلامه ، وترك الثروة على غُلامهِ .

وقال فى العِتاب كذلك :

« أرى روض سيدى قد تقاصَرَ طويلُه ، وروضَ جوِّه قد زادَ ذُبولُه ، وماءَ بشرِه قد غاضت بحورُه ، ونشاطَ لقائِه قد استمرَّ فُتورُه . وما عَهِدْتُه أعزَّهُ الله تزدهيه الشبهةُ وتستخفه ، وتصدُّهُ عن كرم العهد وتَلُفُّهُ ، وينزلُ المينُ من سمعِهِ بالمكان المهيب ، ومن قلبِهِ بالقابلِ المستجيب ، بل هو يرحُبُ إذا حرجَ المضيق ، ويرطبُ وقد عصبَ الريق وتمرُّ به المحِفظَاتُ وهو راضٍ ، وتوقِظُهُ المغايظ وهو مُتغاضٍ

إذا أمرتْــهُ مِــرَّةٌ من حِفاظِــه   بسُــوءٍ نهـاهُ خُلقُه البـارِدُ العذْبُ

فما الذى أعادَ فلقه غاسِقا ، وصريحه ماذِقا ، فإن يَكُ عنْ مَللٍ فؤادِه وتشعُّبِ ودادِه :

فكم أخٍ غيَّــرهُ يومِــىَ المقــ   ــبلُ عن أمسِــىَ الذَّاهــــبِ
ملَّ فلم يعطــفْ لحـبِّ الصِّبـا الــ   خالى ، ولا حــقِّ العُــلا الواجِــبِ

* * * *

---

(١) المرادة : من مرَّد عتا وعبر

واستقرت الوزارة لبعض أصحابه ثم توقف الأمرُ بعد فيها ، فكتبَ إليه :

« الخيرةُ ــ أطالَ الله بقاءَ سيّدنا ــ تجيءُ من غير الأمر المختار ، وهي مخبوءَةٌ تحتَ أستارِ الأقدار ، فكم سببٍ اجتمعتْ فيه شواردُ الآمال ، ولبسَ ظاهرهُ مسحةً من الجمال ، كانَ المكروهُ منظوماً فى تاجه ، منطوياً فى أثنائه وأدراجه . وآخر ظهر للناس بلونٍ شاحب ، ووجه قاطب ، كان ضامناً لابتسام الزمن ، وكافلاً بالأجمل الأحسن . وبهذا أدّبَ تعالى عباده ، وقال فى الكتاب المكنون : « وعسَى أن تكرهـوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسَى أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌ لكم ، والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون » . فلمح أبو عبادة هذا الأسلوب فقال فى معناه :

والشـيءُ تُمنَعُه يكونُ بِفَـوْتِـهِ　　　أحـظى من الشـيءِ الذى تُعـطَاهُ

وإذا تصفحتْ الأمورُ بعين البصيرة ، ونُظِرَتْ بالخواطِر المستنيرة ، ونُقِدَتْ بالألبابِ الصَّيْرَفِيَّةِ[1] لا الزائفية . عُلمَ أن هذه الرّتبة زليقَةُ الصراط ، سريعةُ الانحطاط . يعلـو الإنسان صهوتَها ، ثم هو بَعدُ راجل ، ويتحلّى بها وقتاً ثم هو مسلوبٌ عاطل . ومالم يوسمْ بها فالخطط تعتقبهُ ، والمنازلُ ترتقبُه : أجلْ ، وهذه الدرجةُ كلمّا خبرتْ الأقوام ، وتمادت الأيام غاض معينُها ، وزادَ حنينُها ، فمنها الكمدُ ، ومن سيدنا الصَّيدَ ، ومنها الكَلَفُ ومنه التيهُ والصَّلَفُ ، حتى إذا تَعلَ الأديمُ ، ورُعِيَ الهشيمُ ، وتشاقّت الخطط ، وجارَ الحكمُ وقسط رُعِيَ سيدنا لِشِعْبِ المتصدِّع ، ووصلِ المنقطِع ، وإيجاد الممتنع ، فهنالكَ يقومُ بالأمر ، ويسهلُ الحزْنُ والوعر :

مبـاركٌ تطـرُدُ اللأواءَ رؤيتُـــهُ　　　طـردَ الـظلام فِرِنْـدُ البُلْجـةِ الـواري
وزيرُ مُلْكٍ خلتْ فى عـدْلِ سيرتِهِ　　　صحيفـةُ الملكِ من إثـمٍ وأوزارِ
يـذبُّ عنهُ وقد ريعتْ جوانبـــه　　　برأيه المكتِسى أو سيفهِ العارى[1]

وكتب الى صديق له :

لمَّا هجر مولاىَ مجالسنَا فى الجامع وأوْحشَها ، وأطالَ إليه ظمأ النفوسِ وعطّشَها ، وأخلَى مكانه من طلعتهِ التى تطلعُ علينا من السرور ما عزب ، وتؤنسنا بغرائبِ الأنس

(١) اشارته هذه قد توحى بأن صاحبه هذا قد يكون علىَّ بن منجب الصيرفى ، ومعلومٌ أنه كان من رجال الأفضل المقربين ، وأنه ربما وعده بأن يخلّه منه محل ابن أبى أسامة صاحب ديوان الانشاء ، والذى كان بمثابة الوزير للملك الأفضل .

الطرب ، وتصرّف فكرى فى ما اقتضى ذلك ، فلم أعثر على أمرٍ عادرٍ ، ولا ظفرتُ بسبب صر . ذهب وهمى الى أنه استحدث ودودا ، واستطرف خِلاً جديدا ، فترك هذا الأنام حتى ينقع أوامهُ ، ويبرُذ عرامُه ، وحين ثوتْ هذه الظنّة فى نفسِى أنفذتُ فلاناً لاستيضاح الخبر ، فحكى أنه ألفى مولاىَ فى الطبقة الدهيشية ، فدهش لمَّا رآه فى مجلسٍ حسنٍ ، مقامِ صبوةٍ وفتن ، وأمورٍ بديعةٍ ، وأهوالٍ وسيعةٍ ، وفاكهة لامقطوعةٍ ولا ممنوعة ، وظبيٍ قد كحلَ بالسّحرِ لحاظه ، وأطلقَ العقارب على وجناتِه ، ونظم الدرر فى ثغره ، وأنبت ثمر الصبا فى صدره . يدير على مولاى كأساً :

إذا أخـذتْ أطرافُـه من بحـورها   رأيـتَ اللجيْنَ بالمدامُ يذهّـبُ
كأنَّ لجـديه الذى جـاء حامـلاً   بكفَّيـهِ من ناجـودها بات يقطبُ

فطفِقْتُ متعجباً لما وصفه المخبر ، وحمدتُ الله على صدقِ الحسّ والتقدير ، وعذرتُ مولاىَ فى التخلّفِ عن الجامع ، واستيفاءَ النهاةِ من هذه المشارع ، وأوسعته ملاماً على لتفرُّد بهذه الحسنةِ والفاحشة المبيّنة دون الشيخ أبى الحسن الذى ينحازُ فى فعله الحسن ، ويضلُّ فى ذلك السُّنن . اللهمَّ الا أن يكون خافَ أن يجرى هذا الصديق على طاعةِ شيطانِه ، والبذاءِ على إخوانه ، والتدحرج عن موضعه ومكانه ، ليتأبَّط فى الليل شرَّاً ، ويسير الى حيث تسكنُ الغزلان سرَّاً ، وقد قرَّت أعضاؤُهُم نوماً وسُكرا ، ومع هذا فأُوثِرُ من مولاىَ أن يقبَل على شأنِهِ ويخفض قليلاً من عنانه ، فإنَّ الجاه صدعُه لايجبر ، والملقِى بيدهِ الى التهلكةِ لايُعذَر . وقد شببنا عن هذه الحال ، فيحسنُ المتابُ ، ويسمحُ بردِّ الجواب .» .

* * * *

وكتب عن الوزير الناصرى ـــ ولعله ناصر الدولة بن حمدان الذى كانت له مكانة فى دولة الخليفة المستنصر ، وحدثت بسببه أحداث شارك فيها حتى قتل وبعده جاء بدر الجمالى باستدعاء من القصر فأقر النظام بعد الفوضى بين جند الخلافة والاعراب .

كتب ابن أبى الشخباء عنه الى بعض القبائل :

« معلومٌ أن الله تعالى قد يأذنُ للنعم إذا خُصَّتْ بالشكر أن تستدنى البعيدَ القصيَّ ،

وتستأنِسَ النافِرَ الوحشىَّ ، وإذا قرنت بالكفران يرحلُ منها القاطنُ ، وتستوحشُ المعاطن
ووصلَ إلىَّ ما كان منكم من الانحراف عن الحضرة السامية ، والتظاهر بالخلاف عليها ،
فتحققتُ أن الشيطان قد أعمل فيكم كيدهُ ، واستنفد فى إخلالكم قوَّته وأيْدَه ، وأوضع
بكم فى مراعىَ وبيَّه ، ودبَّ اليكم من طريق خفية ، فزيَّن لكم غير الحسن ، وأوطأكم الجانب
الأخشن . ووسمكم من أحياء العرب بإخفارِ الذّمم ، وكفرانِ النعم . وأقرب مايجب أن
يُفهم : ألم تضلوا إلى هذه البلاد فتعرفوا بها العيش الوحشىَّ ، وتحلُّوا فيها محلَّ الغريب
الأجنبىّ ، وتعيشوا عيش الغرثانِ الخميصِ ، وتخطفكم العربُ تخطّف الأجدلِ للقليص ،
فجمعتْ الحضرةُ شتيتكُم ووصلت مبتوتكم ، فليت شعرى ماالذى سولته لكم أوهامكُم ،
وحدَّثتكم به أحلامكم . وأيمُ الله لئِن انقلبتمُ على الجناب الناصرى ، وانحرفتم عن اللواءِ
الحمدانى لتصبِحُنَّ أُكْلةَ العرب ، يخطونَ أعلامكم ، ويزلزلون أقدامكم ، ويحمونكم ورود
الماءِ المباحَ ، ويمنعونكم حلاوةَ النّعم المراح . فراجعوا حلومكم العازبة ، وتجافوا عن ذنوبكم
اللازبة . وارجعوا إلى من امتد عليكم ظِلُّهِ والزمن هجير . وَصَفَا لكُم وردُهُ والعيشُ كدير ،
فلو فارقتم جنابه الفسيح لتفرقتُم فى الأرض شيعا ، ونبتْ بكم مقرًّا ومضجعاً ، وعثرتُم عثرةً
لايقال لها لعا . وقد قلتُ ونصحت ، وبنيتُ وأوضحتُ . وسلكت سلكَ الحدِب الشفيق
وبقىَ أن يمنحَ الله حسنَ التوفيق .

وقال فى الأفضل بن أمير الجيوش[1] [يهنيه بالإبلالة من مرضه]

« .. خلَّد الله أيام الحضرة الأفضلية ، مافضلت الأسماءُ حروفا ، وتقدمت واو العطف
معطوفا ، ولزمت الأفعالُ اشتقاقاً وتصريفا :

يُلقَى عليها الحمدُ موقوفاً وفى ... عرصاتها شمُّ الملوك وقوفا
وتعيد سطوتُها سماءَ عِداتها ... كِسَفاً ، وبدر سعودهم مكسوفاً

ولج سمعَ العبيدِ فى هذه الساعةِ نبأٌ جمع فى أقماعِه ، وتصامم عن استماعه ، تعاشياً عن
صبحه المبين ، وتغليباً للشك على اليقين ، وخوفاً على العز الشامخ أن يصحب شمُوسُه ،
والمجد الباذخ أن تكوِّر شُموسُه ، والمحامدُ أن تنثر كواكِبها ، والمناقب أن تتزلزل مناكُبها ، ولما

(١) وهذا يعنى أنه لحق بزمانه وقد تولى بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٧ وقتل ٥١٥ هـ وقد ذكر أن ابن أبى الشخباء توفى سنة ٤٨٦ هـ فى زمان بدر الجمالى والد الأفضل

تلاهُ الخبر بما أصمت ناعقه ، وكذّب بارقه ، ونطق بأن الجسم الشريف قد النقعَ شَملةَ الإبلال ، وعاد مزاجه الى الاعتدال أطال العبدُ فى الترب تعفير خدّه . وبالغ فى شكر الله وحمده ، فيالها نعمةٌ عدلتْ بها أحكامِ الزمانِ الجائرة ، واهتدت رَكاب الآمال الحائرة ، وأصبح المُلْكُ المستنصرىُّ سائلَ الغُرَّةِ ، ضاحك الأسِّرة ، والحضرة قد تمكنت فى خطابها ، وما نَزَعِتْ بُردَ شبابها ، وامتدت بعد القلوصِ أفياؤها وأضاءتْ فى ظلمات الخطوب آناؤها .

والله أكرمُ أن يعذّب مهجةً غُذيتْ بأخلاط العُلَا أعضاؤها
فإذا طمتْ حُسْمُ الخطوب عرامةً أربى على فيض الحَياءِ حيَاؤُها
لو كان ينكرُ مِلْكَها رتبَ العُلا أحدٌ لكانَ شهودَها أعداؤها
ثابتْ بك الأيام عن جهلاتِها وتوفَّرت من أهلها سفهاؤها
وبعدلِ حكمك زال عنا ظلمها وبنورِ مَجْدِك أشرقتْ ظلماؤها
نارُ اعتزامِك ما يُسوغُ ذَكاؤها وسماءُ عِزِّكَ ماتغيبُ ذُكاؤُها
وعراضُ فضلِك لم تضِقْ أرجاؤها وعفاةُ جودِكَ ما يخيبُ رجاؤها

فالحمد لله الذى منح الأمة من نعمةٍ أصبحت النوائبُ بها قد درجت أيامُها ،وهَوَتْ من المخاوفِ أعلامُها ، والبخلُ قد هدمَ بنيانه المرصوص ، والكرمُ قد ريش جناحه المقصوص ، ولم يبق سحابٌ الا وهو يغدق ويهمعُ ، ولا مناديً ألا وهو يلَبِّى ويسمَع :

يا ماجداً نصر الشريعة حيث لا بيضٌ تشامُ ولا ذوابلُ تُشرَعُ
والنَّصبُ منصوبُ اللواءِ وشائِعٌ فى أهله بُغضُ الذى يتشيَّعُ
عَمَّتْ عوارفُه فما من موضع الا ونائِلُه إليهِ مُوضِعُ
سائل به ودمُ الفوارس سائلٌ يسقاهُ ظمآن التراب فينقعُ
واليوم قد كتبت سنابِكُ خيله نقعاً جبينُ الأفْقِ منهُ مقنّعُ
فهناك تلقى العَذْرَ لا متطابقٌ والرَوعَ لا تخبَ الضلوع مروَعُ
والشمسُ تهوى أن تقبلَ كفَّهُ فتذادُ بالسُّمُر اللّدانِ وتمنعُ
فاقنعْ بما ملكتْ يداك من العُلا إن كنتَ بالشُّهبِ الثواقِبِ تقنعُ

فأمّا حالُ العبدِ فعلى الحالةِ التى يؤمّلُ من الحضرةِ العليّة كشفُ ضَبابها ، وانتكاثُ

أسبابها ، وكأنه من العبوديّة يقْتَضِي ألا يُغِبَّهُ حزنُ مكارمها ، ولا تتجاوزُ عنه جفُونُ مراحمها ، فيصبحُ وقَد حفت به الشدائد وضاقت عنه المصادر والموارد .

أتتركني يادهـرُ فى البـؤس مفرداً ... ومالكُ رقى مفـردٌ فيـك واجِـدُ

إذا هـممُ الأقـوام شابتْ وأظلمـت ... فهـمَّاته بيضُ الـوجـوهِ خرائـدُ

فياقاضَىَ الدين الـذى قـام حـافظاً ... حمَـاهُ ، وكَـلُّ واهـنُ العـزم قاعِـدُ

ومن سَادَ أهـل العصـر طرًّا وألقيتْ ... لـه فى عراصِ الفـرقدين وسـائِـدُ

أنـاديـك فى نـادٍ يحفُّ بى الرَّدَى ... وتـنزلُ فيـه النـازلاتُ الشـدائـدُ

تخـاطبنى فيه الخطـوبُ فصيحـةً ... ويُسْهـرُ عينـى ضيّق العين بـاردُ

يطارحـنى صـوتاً ، سـرورى ناقـصٌ ... إذا هــو غـنالى وهَمّىَ زائـدُ

وللحضرة العلية الأفضلية الرأى العالى فى انتياش العبد عن هذه الغَمَّاء ، وكأنَّ ما تهبُ له من العناية زكاةٌ عمَّا ملأها الله من رزق الزمان ، ومكنه لها من قواعد العزّ والسلطان ، وتقرباً إليه جـلَّ اسمه إذا انشقت السماءُ فكانت وردةً كالدهان » .

وهذه الرسالة التى وجهها الى الأفضل غريبة فى أسلوبها ، فالضراعة فيها واضحـة المعالم والرجل فيها متهالك ، متعلق بمراحـم الأفضل ليشكو إليه محنةً ، لاتبدو من كلماته ، ولا يكشف عنها صراحةً ، ولكنا نستشعر من قوله فى هذه الرسالة أنها ربما كانت رسالة بعث إليها فى محنة حبسه فى آخر حياته والذى لاندرى ماجرمه فيه . ويبدو كذلك أن هذه الضراعة لم تثمر ، فالأخبار تقول إنه قتل فى السجن .

وكتب من رسالة فى شهر رمضان[1]

« .. شهرُ الصيام ذو فضلٍ مشهور ، ورُتبةٍ عَلتْ جميع الأيام والشهور ، فما تنتهَكُ للشرع فيه حُرماتٌ ، ولا تسمَعُ للأوتارِ نغمات ، ولا تنطِقُ باللغو أفواهٌ ، ولا ترشفُ رُضَابَ الكئوس شفاه . وإذا اعتبرتْ أوقاتُ الحضرةِ المنصورة ، وُجَدَ أكثرها على هذه الصفة المذْكورة ، الا أن الشهر اختصَّه الله بشرفِ القضية ، وفرض صيامه على جميع البرّية ، فلا زال على الحضرةِ العاليةِ عائداً ، ولها للأعمالِ الصالحةِ شاهدا ، تطلع فى لياليهِ الحسناتُ شموساً ، وتجمع بين الشَّفقِ والفَلقِ تسبيحاً وتقديساً ، خاطرةٌ فى جلابيب عِزٍّ

(١) الذخيرة لابن بسام ٨ ص ٦٤٦ .

يعتلقُ الدهرُ بأسبابه ، وكرم يغرقُ البحرُ فى عبابه ، ومجدٍ تعشو النيرّاتُ إلى أنواره . وتعتصم الملوك الخائفة بجواره ، وتترب بمكارمها الأيدى التربة ، وتثبتُ بسعدها بُرُوجهم المنقلبة ، ويجدون تُرابها فى أفواهم عسلًا ، وفى أجفانِهم كحلًا ، ويرونَ وظائِفَ النُّوب عنهم ترفعُ ، وأنف الحوادثِ تُجدَع :

قد ودَّ هذا الشهرُ أن هلالَهُ أضحى على غرر الشهور يُرفَعُ

وقال فى وليمة دُعى إليها :

« ... فولجتُ منزلاً قد استعاد من قلبِ العاشقِ حرًّا ورهَجًا ، ومن أخلاقِ مالكهِ ضيقاً وحرجاً ، كأنما زفرتَ فيه النارُ ، ونقّطَ على جُدرانه الفَاء . فجلستُ طويلاً إلى أن حضرَ الإخوان ، وقُدّم الخِوانْ ، فرأيتُ أرغفةً قد أُحكمتْ فى الصِّغرِ والإلطاف ، ولم تتعوَّدْ قطُّ من الأضياف . فقد مرَّتْ عليها أيام ، وعنيت بقول ابن بسَّام :

أتانا بخبز له يابس كمثلِ الدراهم فى خلقتِهِ
إذا تنفَّستُ عند الخوانِ تطايرَ فى البيت من خِفَّتِهْ

وثلاثة صِحاف ، واسعةِ الأكنافِ ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جُعل فى قرارة كلٍّ منها مالا يدفع السَّغبَ ، ولا تجده اليدُ إلا بالتَّعبُ ، فجلنا جولةً وعينهُ تطرفُ علينا شمالاً ويمينا ، وتتفقدُ منا حركة وسكونا . وقمناً ولم نقارب الكفافِ ، وقد ظَنَّ بنّا الإسراف . فحضرنَا مجلس المعاقرةِ ، فأديرت علينا قهوةٌ قد خصَّتْ باللونِ الكدِرْ ، وكثرَتْ بالماءِ الخَضِرْ .

كالمُهل تغلي فى البُطُونِ لسوانُها يوماً تُعدُّ لكافرٍ لم تُخرَم

فحسوْنَا أولاً وآخراً ، وكرعنا منها حميماً آنيا ، وقلنا لعلَّ ما يحضرُ عن الملهياتِ يُصْلح فاسدَها وينفقُ كاسِدها ، ولم يكن بأسرعَ من أن افتتحت قينة يحرُم لها السَّماع ، وتستَلِذُّ الصَّمَمَ الأسماعُ :

تكدِّرُ صفوَ الراح فى شدوِها وتنفِرُ الأنفارُ من ضَرْبِها
لم تكنْ العِلجةُ مطبُوعةً بل كانَ مطبوعاً على قَلبْها

فسمعنا ولأمر الله سلّمنا ، فحين جرَّ الظلام علينا الذيلَ ، وغشىَّ النهارَ الليلُ ، زُفَّتْ

إلينا خريدةٌ رأسُها مقطوع ، ووسطها مشعوبٌ مرقوع ، قد حفظت من عادٍ عهده ، واستعارتْ من يأجوجَ قَدَّه ، تبصُّ كعيون الجنادب ، وتضيء فى الظلماءِ كنارِ الحباحِب ، فقوَّضنا خيامًا ، وسكرنا هَمًّا لامدُاماً ، فالحمد لله الذى صدَّ مولاى عن هذا المقام ومنعه ، وحمَى عمَّا حضرناهُ مستمعَه . »[1]

(١) الذخيرة ٨/٦٥٤ .

ومن شعر ابن أبي الشخباء[1]

لا زلت مخفوض العِدا ... ما عشت مرفوع البُنا
تُفدى بنا إذا كان يُرْ ... ضِي المجد أن تفدى بنا

قال ابن الصيرفي : ومن أجود ما في هذه القصيدة :

ما أحسنَ المالَ إذا ... صاحبُ ذكراً حَسنا

ومنها :

لنا الثناءُ خالصاً ... منه وما يحوى لنا
شاءَ الذى بنى له ... أبناؤه ومكّنَا
عممت بالإحسانِ منـْ ... ـك مضَراً واليمَنا
يَنقادُ . صعبُ اللفظِ لى ... سهْلَ القيادِ مُذْعنا
كأنَّ فى خواطِرى ... لكلِّ معنى رسنا

ومنه قوله .[2]

تمر سفيهات الرياح بأرضه ... فترصنُ إجلالاً له وتُوقَّرُ
وتشتاق عيناه الكرى وتخافه ... فيأتى إلى الأجفان وهو مُغرَّرُ

ومنه قوله :

عَفَّرتَ فى سهلِ التراب خدودهم ... حتى ظَنَنَّا أنها تتشيَّعُ
وتركت فى عفر الترابِ رُءوسَهُمْ ... فى الأرض تسجدُ عن سيوفٍ تركعُ

وقوله أيضا :

جعلت رءوس القوم غرسٍ سيوفنا ... تعصْفَرُ من أوداجهم وتطيَّبُ
إذا وعدتها البِيَضُ صادقَ وعدها ... بعثْتُ لها البيض الرقاق تكذَّبُ

---

(١) راجع معجم الأدباء ٩/١٥٢ – ١٨٤ و الأعلام ٢/٢١٠
(٢) الأفضليات ٦٣

ومن قوله :

إذا سلبتْهُ عزمةٌ منك غِمدَهُ كستْهُ نجيعاً ، فهو يُكسى ويُسْلَبُ

وقال :[1]

فلم أرَ ماءً قبله مترقرقاً يخالطُه ذاك اللّظى المتلهّبُ

وعلق عليه ابن الصيرفى بقوله : إنه حسناً استعمله فى الغزل (أى المعنى) وهو يصلح صفةً للسيف .

وقال :[2]

يجودُ بالماءِ غيثُ الأفقِ منقطعاً وغيث كفّك بالأموال متّصلُ
جارَى نداك فلم يظفرْ ببغيته فذلك البرقُ فى حافاتِهِ خجَلُ

ثم أتى بزيادة على ذلك ، فقال من أخرى :

منعت مكارمه رويّتهُ فنداه طولَ الدهرِ مرتجلُ
جارتْ نداهُ السحبُ فانبعثتْ عنه ووابلُ ودقِها وَشَلُ
فالرعدُ فى أثنائِها ضجرٌ والبرقُ فى أرجائِها خجلُ

وقال :

قد قلتُ إن قالوا : يداهُ سحابةٌ سحبتْ ذيولَ مجلجلٍ هطّالِ
لا تضربُوا مثلاً له فى جودِهِ فحقيقةُ الأمثالِ للأمثالِ

وقال :

إذا هو ذاقَ الظُلْمَ عنّا بعدله غدا مالُهُ فى كفّه متظلّماً
يرى الذنبَ أن تسطو يداهُ بمذنبٍ ويعتدُّ جُرْماً أن يعاقبَ مجرماً

وقوله أيضا :

تظلّمَ ما تحويه فيك فلم يُغثْ وقد جُعلتْ فى راحتيك المظالمُ

---

(١) الأنصليات ٦٦

(٢) الأنصليات ٦٧

ومن عجبٍ أن تظلمَ المالَ وحدهُ ... ولم يبق فى أيامكَ الغرُّ ظالمُ

وقوله أيضا :

يا عادلاً فى كل ما هو فاعلُ ... ما بالُ كفّكَ فى النُّهىَ لا تعدِلُ
تبقى أحاديث القتيل بسيفهِ ... فكأنما يحيى به من يقتلُ

وقال :

كأن النسورَ نافستْ فيهم الثَّرى ... فقد حصَّلتْ أجسامَهُمْ فى الحواصِلِ

وقال :

وتطايرت فى الجو زُرْقُ أجادلٍ ... طلبتْ مطاعمها وزرقُ نصالِ

وقال :

عتادهُم خطيةٌ قد تكفَّلتْ ... برزقِ نسورٍ حوَّمٍ وخوامِعِ

وقال أيضا :

فإنْ تكُ أسْرَى عفَّتْ البيضُ عنهم ... فمِنْ بعدِ أنْ عافتْ ضباعٌ وأنسُرُ

وقال ابن الصيرفى[1] : « ومن المدح الذى قلت أمثاله ، وعزَّت أشباهه ، وعُدمت له النظائر ، وعقمت عنه الخواطر قول حسن بن عبد الصمد :

سبَقتْ مكارمُه مواعدهُ فلمْ ... يوسم بإنجازٍ ولا بمطالِ

وقوله :

ضنَّتْ أكفُّهُمُ غُلاً وسخت ... مالاً ، فما كرُمُوا ولا بخِلُوا

وقال ابن أبى الشخباء :

يغرفُ الأمرَ فى الآفاقِ خاتمُه ... ويصبحُ الدهرُ طوعاً وهو خادِمُهُ

قال ابن الصيرفى[2] : فقوله طوعاً مما تطوع به فأغرب ، وأتى منه بما أعجب به وأطرب .

---

(١) الأفضليات ١٦٧

(٢) الأفضليات ٢١٦

وله :

تعطى وسمعُك بالملام مشنفُ فكأنّ راحتك الكريمة تسمَعُ

ابن الصَّـيرفى[1]

أبو القاسم على بن سُليمان بن مُنْجب

(ولد بمصر سنة ٤٦٣ هـ ـ وتوفى سنة ٥٤٢ هـ)

علم الرؤساء ـ كاتب إمامهم الآمر وغيره من خلفاء المصريين .

قال ابن سعيد : وقعت على ترسله فى مجلدات عدة ، فوجدتُ الفاضل البيسانى ينسج على منواله وينزع منزعه ، ولكنه زاد رشاقة ولطافة وغوصاً ، وإن فى الخمر معنى ليس فى العنب .

وقد تقدم من مختار ترسله فى صدْر كتاب المغرب مايدل على علو طبقته . وله تصانيف مشهورة صغار ظرافٌ منها :

١ - منائح القرائح صنفه للأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش وأورد فى هذا الكتاب أمداحاً فى خلفائهم .

٢ - وله كتاب الاشارة الى من نال الوزراة ، ذكر منها وزراء مصر الى عصره .

٣ - ومنها كتاب « ملح الملح » أورد فيه من نثره قوله : جرت العادة فى الغطاس بإعمال الكاس والطاس . وهذه الآلة اذا فقدت الراح بمنزلة أجسام عدمت الأرواح فداو باحيائها قلبا لى قريحا ، وإذا كانت عازر فكن لها مسيحا »

وذكر السيوطى أن ابن الصيرفى ـ وكان يعمل فى خدمة الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش والوزير الخطير للخليفة المستعلى ـ هو الذى كتب السجل بانتقال المستعلى وولاية الآمر وقرىء على رءوس كافة الأجناد .

وبدأ على بن منجب يعرف فى أوساط كتاب الدولة منذ سنة ٤٧٨ هـ ، وقد تولى ديوان الانشاء على عهد الآمر باحكام الله سنة ٤٩٥ هـ وكتب أول سجل بتوليته واشتهر على عمله به حتى سنة ٥٣٦ هـ ، وكان أول سجل كتبه سنة ٤٩٧ هـ بسبب تحويل السنة

---

(١) ترجمته فى ابن ميسر ٨٧ ـ معجم الأدباء ٧٩/١٥

ومقدمة كتاب الإشارة ـ صبـ الأعشى ٩١/١

ومقدمة قانون ديوان الرسائل للصيرفى التى كتبها على بك بهجت الأثرى ونشر ١٩٠٥ م

الخراجية القبطية الى السنة الهلالية العربية[1]

وقد عاش تسعين عاماً أو مايناهزها .

وجاء فى ترجمة ياقوت له : « على بن منجب بن سليمان الصيرفى أبو القاسم ، أحد فضلاء المصريين وبلغائهم ، مسلم له ذلك غير منازع فيه ، وكان أبوه صيرفيا ، واشتهر هو بالكتابة فمهر فيها . مات فى أيام الصالح بن رزيك بعد سنة ٥٥٠ هـ ، وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة والشعر والخط ، فإنه كتب خطاً مليحاً ، وسلك فيه طريقة غريبة . واشتغل بكتابة الجيش والخراج مدة ، ثم استخدمه الأفضل ابن امير الجيوش وزير المصريين فى ديوان المكاتبات ورفع من قدره ، وشهره . ثم اراد أن يعزل الشيخ ابن أسامة عن ديوان الإنشاء ويفرد ابن الصيرفى به ، واستشار فى ذلك بعض خواصه ، ومن يأنس به فقال له : ان قدرت أن تفدى ابن أبى أسامة من الموت يوماً واحداً بنصف مملكتك فافعل ذلك ، ولا تخل الدولة منه ، فإنه جمالها فأضرب عن ابن الصيرفى .

ومات الأفضل ، وخدم ابن الصيرفى الحافظ المسمى بالخلافة بمصر .

ولابن الصيرفى من التصانيف : كتاب الاشارة فيمن نال الوزارة ، وكتاب عمدة المحادثة ، وكتاب عقال الفضائل ، وكتاب استنزال الرحمة ، وكتاب منائح القرائح ، وكتاب رد المظالم ، وكتاب لمح الملح ، وكتاب فى السكر .

وله غير ذلك من التصانيف .

وله اختيارات كثيرة من دواويـن الشعراء كديوان ابن السراج ، وأبى العلاء المعرى وغيرهما .

ومن شعره قوله :

لما غدوت مليك الأرض أفضل من	جلت مفاخره عن كل إطراء
تغايرت أدوات النطق فيك على	ما يصنع الناس من نظم وانشاء

ولـه :

لا يبلغ الغاية القصوى بهمته	إلا أخو الحرب والجرد السلاهيبُ

(١) ويرى عبد مخلص ناشر الإشارة خلاف ذلك ص ١٠٧

يطوى حشاه إذا ما الليل عانقه على وشيج من الخطى مخضوب

وله :

هٰذى مناقب قد أغناه أيسرها عن الذى شرعت آباؤه الأُوَلُ
قد جاوزتْ مطلع الجوزاءِ وارتفعت بحيث ينحط عنها الحوت والحملُ

ولابن الصيرف رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات .

ويقول ابن ميسر فى ترجمته : (فى حوادث سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٧ م)

« وفى يوم الأحد لعشر بقين من صفر توفى الشيخ الفاضل أبو القاسم على ابن منجب ابن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفى المنعوت بتاج الرياسة صاحب الرسائل .

أخذ صناعة الرسائل عن ثقة الملك أبى العلاء صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش . ثم انتقل منه الى ديوان الانشاء ، وبه الشريف سناء الملك أبو محمد الحسين الزيدى . ثم تفرد بالديوان ، فصار فيه بمفرده .

وكان أبوه صيرفيا وجده كاتبا . ومولده بمصر يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة ٤٦٣ هـ . وله تصانيف فى الأدب والتاريخ والترسل .

وجرّد منه للمصالح مرهفاً تساوى فى المضاء حدّاه ، وأطلع منه كوكب سعد علا واشرف سناؤه. الأجلُّ المأمون . عز الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة أمير المؤمنين أبا عبد الله محمداً الآمرى ، أعانه الله على مصالح المسلمين ووفقه فى خدمة أمير المؤمنين ، وأدام له العلو والبسطة والتمكين .

اللهم اجعل كوكب سعده أبداً عاليا مشرقاً ، وافتح للدولة على يديه مغرباً ومشرقاً وأقرن بالتوفيق آراءه وعزائمه ، وأمْضِي فى نُحورِ الأعداء أسنته وصوارمه ، وثبت اسمه ونعته على طراز ما يُعمل فى أعمال المملكة من الملابس والفُرش والأنية .

فلما تبوأت الأمورُ منازلها ، وأخذت الشؤون مآخذها لم يقدم هذا السيّد شيئاً على الالتفات الى بيوت العبادات ، فما أخلى جامعاً ولا مسجداً من فعل حسن وأثر جميل إعلاء لمنار الملّة ، وابتغاء لمرضاه الله حتى إنه أقام منبراً فى المسجد الذى كان السيّد الأجل

الأفضل أنشأهُ مطلاً على بركة الحبش ، وكان هذا المسجدُ مغلقاً لايُفتح ، ومهجوراً لايُقصد ، فلما أمر بعمل المنبر . وتقدم بالصدقة على من يُحضر كلّ من يتأخر صار الناس يجتمعون به ويسعون إلى ذكر الله فيه . فنال بذلك في العاجلة كبير الثناء وسينال عليه في الآجلة جزيل الجزاء . ثم استمر على عادته في الصدقات التي اغنى تبرعه بعطاياها عن الوسائل ، ومنع التذاذه بها أن يتبرم بإلحاح سائل . واتبع ذلك بالصلات السنيّة ، والهبات الهنيّة . وانتصب لقضاء الحوائج والنظر في المصالح انتصابا حازه الأجر وحواه . واجتهد في ذلك اجتهاداً ما رأى أحد مثله ، ولا رماه . فما أحدٌ يشكو تريث حاجةٍ ، ولا توقف طِلابَةٍ ، ولا إهمال ظلامة . وكشف حقوق الدواوين فوجد بقايا عظيمة قديمة قد بعد عهدها ، وطال ورودها في الأعمال وترددها والذين تلزمهم عاجزون عن أقلها فضلاً عن كلها ، وهم في دركها وتحت خطرها .ولاسبيل الى استخدامهم لأجلها ومنهم من مات وورثته خائفون من المطالبة بها ، واعتسافهم بسببها ، فنظر لهم فيها نظر راحم رءوف ، وجدّد سؤال أمير المؤمنين في المسامحة بها على أنها ألوف ألوف . وكتب السجلّ بذلك مشتملاً على تفصيلها بأسماء أربابها وتعيين سِنيّها وثبت فيه .

نماذج من كتابات ابن الصيرفى

أولا : فى التاريخ : قال من كتاب الاشارة فى ترجمة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى[1] :

« .. وتولى هذا السيد الأجل أخذ البيعة الآمرية فى يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، واستمر على عادته فى النظر والتدبير . ومازال يجتهد فى جهاد الافرنج نيفاً وعشرين سنة الى أن اغتيل سلخ رمضان من سنة خمس عشرة وخمسمائة (٥١٥ هـ) . فمضى شهيداً الى رحمة الله ورضوانه ، واستقر بجوار ربه فى دار عفوه وغفرانه . وخرج من الدنيا والعدوُّ باق بالشام مستولٍ على معظم ثغوره . وعمله منصرف فى سهله وجبله . والله عز وجل يجعل عزمات المقام الأعظم المأمونى ــ خلد الله سلطانه ماضية بجواره ، ومعفية على آثاره ، ومطهّرة لبلاد الاسلام من رجسه وعاره أخذاً للدين بطوائله منه ، وثاره ، محكمة فيه مواضى الذوابل والمناصل ، مرسلة عليه حَبيبَ نكال مبيد له مستأصل ، فيكون ذلك ماعده الله لهذا المقام الأشرف ، وذخره ، وحسَّن الجزاء عليه ــ مما ضاعفه الله تعالى عنده ، ووفره .

وقد كان السيد الأجل الأفضل لتوفيق الله إياه ، ورأفته برعاياه قد ألقى مقاليده وسياسته الخاصة والعامة الى الأجل المأمون ــ خلد الله أيامه ــ فقوَّم كل معوج مائد ، وأصلح كل مختل فاسد ، وحرص على الخيرات حرصاً شهد له بقوة الدين وصحة اليقين ، ونال به الرضى من الخالق تبارك وتعالى ، ومن المخلوقين .

فلما توفى السيد الأجل الأفضل ، وانتقل الى دار الخلد ومحل القدس غدا الناس هاجمين كأنهم لم يفقدوه ، وجرى أمرهم على مالم يظنوه ولم يتعقدوه ، ولم يكن عندهم لعدمه الا الحزن على مصابه والجزع على فراقه ، والعجب من عدوى النَّقدِ[2] على الأسَدْ ، والغلق الذى فتح معه مستحسن الصبر ، والجلد ؛ لأن أحوالهم مافسدت ، ولاسوق صلاحهم كسدت ولاريح المضرة عليهم هبت ، ولاعقارب الأذية بينهم دبَّت ، ولامضاجع سكونهم أقضَّتْ بهم ونبتْ ، ولا أطراف أعمالهم تشعثت ولا اضطربت ، لأن سيدهم الذى عمهم بكرمه وغمرتهم السعادة بحسن نظره السيد الأجل المأمون ــ سدَّ الله ظلَّه ــ باق لم يزل .

(١) على كتاب الإشارة ٥٣١

(٢) النقد ولد الشاة ، أو نوع من الغنم قصير الأرجل .

وحالهم بتدبيره وسياسته لم تتغير ، ولم تُحلْ . والله عز وجلّ يثبت وطأته ، ويجيب من كل مسلم فيه دعوته بفضله وطَوْلِهِ ، وقوّته وحوْلِهِ » .

وقال فى ترجمة المأمون البطائحى وزير الآمر :[١]

« .. هذا السيّد أكملُ من نصح خليفةً ، وأفضلُ من نَصر شريعةً ، وأرحم من حاط رعيةً ، وأنصف من أمضى قضيّةً . وأسمح من أجزل عطاء إذا بخلت الملوك وشحت . وأحكم الحاكمين على المحجة البيضاء إذا ثبتت عنده القصص وصحت . لايهتك ستراً ، ولايخذل حقاً ، ولايتخذ ظلما ، ولا يقطع رزقا .

ولا يزال إنعامه مُقصياً للهمم مبعدا ، ولا ينفك اصطناعه معيناً على الدهر مُسْعِدا. اذا عددت مناقبه أبانت عجز الواصف المثنى ، واذا وحّد فى الفضائل أمن استظهار المستدرك المستثنى . فلا تقع الا منه على كثرة طلابه ، ولا ضرر يستكشف ويستدفع إلا به . فأبقاه الله ركناً للدين القيّم الحنيف ، وأدام سلطانه ظلاً ممتداً على القوى والضعيف . وأجرى الكافة من ذلك على عادتهم الجميلة من فضله الجزيل ، وصنعه اللطيف .

وهذا السيّد الأجل ربيبُ الدولة العلوية ــ خلد الله ملكها ــ ولأسلافه الكرام فيها أفضل المقامات ، وأجلّ الكرامات . وقد أوصلتهم الثقة بهم رتبة القرب والدنوّ ، وبلغتهم الطمأنينة اليهم أعلى درجات الرفعة والسموّ .

ولما تعلّق هو ــ أدام الله أيامه ــ بصحبته السيد الأجل الأفضل ــ كرم الله مثواه ــ رأى منه ما لايوجد فى ولد ، ولايطمع به من أحد ، شرف أخلاق ، وكرم طباع ، وحسن طويَّة ، ونقاء سريرة ، ومبالغة فى النصيحة ، ومثابرة على المولاة الصريحة ، ومتاجرة لله تعالى فيما بذل له من ماله وجاهِهِ ، ومخالصة فى الطاعة لخالقه وإلهه . استكفاه أمر المملكة ، وعمله أوقها[٢] ، وعذق به أحكام السياسة وطوقه طوقها فدبّر الأمور تدبيرا ، لاعهد للناس بمثله ، وعاملهم معاملة تشهد بعناية الله به فى قوله وفعله .

فلما توفى السيّد الأجلُّ الأفضل ــ شرف الله ضريحه ظهر مالله تعالى فيه من السر ، وخرج ماكان له فى الغيب من الخبء ، ورفعه استحقاقه الى أعلى المنزلة التى كانت

(١) الإشارة ص ٥١ .

(٢) الأوق : الثقل .

تنتظره ، ورقاه استحثاثه الى المرتبة التى كانت ترتقبه فغدا سفير الخلافة وسلطان الكافة ، وكفيل الأمة وحامل أعباء الدولة ، والمرجو لاجتثاث أعداء المملكة ، والمؤجل لافتتاح البلاد المستغلقة ، وخلع عليه فى اليوم الثانى من ذى الحجة من سنة خمس عشرة وخمسمائة من الملابس الخاصة ، وطوق بطوق ذهب مرصع — وقلد سيفاً كذلك ، وتفرد بالنظر ، ودعى له على كل منبر بما خرجت تستحقه من حضرة امير المؤمنين . اللهم انصر من اصطفاه أمير المؤمنين لدولته ، وارتضاه ، وانتخبه لتدبير أحوال مملكته ، واجتباه ، وولّى اليه الأمور ، فساسها أحسن سياسة يقظة وجداً وحزماً ، واستكفاه فى المهمات ، فكفى فيها مضاء واستقلالاً ، وعزماً .

نسخة من السجل الذى كتبه ابن الصيرف لما توفى المستعلى

« من عبد الله ووليه أبى على الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين ابن الامام المستعلى بالله الى كافة أولياء الدولة وأمرائها وقوادها وأجنادها ورعاياها ، شريفهم ومشروفهم ، وآمرهم ومأمورهم ، مغربيهم ومشرقيهم ، أحمرهم وأسودهم ، كبيرهم وصغيرهم ، بارك الله فيهم .

سلام الله عليكم .

فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله الا هو ، ويسأله أن يصلّى على جده محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين . وسلم تسليما .

أما بعد ، فالحمد لله المنفرد بالثبات والدوام ، والباقى على تصرم الليالى والأيام ، القاضى على أعمار خلقه بالتقضّى والانصرام ، الجاعل نقض الأمور معقودا بكلام الاتمام ، جاعل الموت حكماً يستوفى فيه جميع الأنام ، ومنهلا لايعتصم من ورده كرامة نبىّ ، ولا إمام والقائل معزياً لنبيّه ، ولكافة أمته : (كلُّ من عليها فانٍ ، ويبقَى وجهُ ربِّك ذِى الجلالِ والإكرام) الذى استرعى الأئمة لهذه الأمة ، ولم تخل الأرض من أنوارهم ، لطفا بعباده ونعمة ، وجعلهم مصابيح الشُّبه إذا غدت داجيةً مدلهِّمةً لتضىء للمؤمنين سبل الهداية ، ولايكون أمرهم عليهم نعمة يحمده أمير المؤمنين حمد شاكرٍ على ما نقله فيه من درج الإنافة ، ونقله إليه من ميراث الخلافة ، صابر على الرزية التى أطار هجومها الألباب ، والفجيعة التى أثار طروقها الأسف والاكتئاب . ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم أنبيائه وسيد رسله وأمنائه ، ومجلى غياهب الكفر ومكشف غمائه الذى قام بما استودعه الله من أمانته ، وحمله من أعباء رسالته ، ولم يزل هاديا إلى الإيمان ، داعيا الى الرحمن حتى أذعن المعاندون ، وأقر الجاحدون . وجاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فحينئذ أنزل

---

(١) نقلا عن حسن المحاضرة للسيوطى ١٦/٢

الله عليه إتماماً لحكمته التى لا يعترضها المعترضون ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى أكرمه الله بالمنزلة العالية ، وانتخبه للإمامة رأفة بالبرية ، وخصه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مَبَرَّة التعظيم ، ومزية التفضيل ، وقطع بسيفه دابر من زلَّ عن القصد ، وضل سواء السبيل . وعلى الأئمة من ذريتهما العترة الهادية من سلالتهما آبائنا الأبرار المصطفين الأخيار ، ماتصرفت الأقدار وتوالى الليل والنهار .

وإلى الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه كان من أكرمه الله بالاصطفاء ، وخصه بشرف الاجتباء ، ومكن له فى بلاده ، فامتدت أفياء عدله ، واستخلفه فى أرضه كما استخلف أباه من قبله ، وأيده بما استرعاه إياه بهدايته وإرشاده ، وأمده بما استحفظه عليه بمواد توفيقه وإسعاده ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده . فلم يزل لأعلام الدين رافعاً ، ولشُبهِ المضلّين دافعا ، ولراية العدل ناشرا ، وبالندى غامراً ، وللعدوّ قاهرا الى أن استوفى المدة المحسوبةُ وبلغ الغاية الموهوبة ، فلو كانت الفضائل تزيد فى الأعمار ، أأو تحمى من ضروب الأقدار ، وتؤخر ماسبق تقديمه فى علم الواحد القهار لحمى نفسه النفيسة كريم مجدهـا وشريف سمتها ، وكفاها خطير منصبها وعظيم هيبتها ، ووقتها أفعالها التى تستقى من منبع الرسالة ، وصانتها خلالها التى ترتقى الى مطلع الجلالة.لكن الأعمار محررة مقسومة ، والآجال مقدرة معلومة ، والله تعالى يقول ، وبقوله يهدى المهتدون ﴿ ولكلِّ أمةٍ أجلٌ فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾

فأمير المؤمنين يحتسب عند الله هذه الرزِّية التى عظم أمرها وفدح ، وجرح خطبُها وقدحْ ، وغدت لها القلوبُ واجفةً ، والآمالُ كاسفةً ، ومضاجع السكون منقضة ، ومدامع العيون مرفضّه ، فإنا لله وإنا اليه راجعون . صبراً على بلائه وتسليما لأمره وقضائه ، واقتداء بمن أثنى عليه فى الكتاب (إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد إنه أوّاب) .

وقد كان الإمام المستعلي بالله قدس الله روحه عند نقلته جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ماحازه من أبيه عن جـدّه ، وعهد الى أن أخلفه فى العالم ، وأجرى الكافة فى العدل والإحسان ، على منهجه المتعالم ، وأطلعنى من العلوم على السرّ المكنون ، وأفضى إلىّ من الحكمة بالغامض المصون ، وأوصانى بالعطف على البرية ، والعمل فيهم بسيرتهم المرضيّة ، على علمى بما جبلنى الله عليه من الفضل ، وخصنى به من إيثار العدل ، وإننى

فيما استرعيته مالك منهاجه ، عامل بموجب الشرف الذى عصب الله فىّ تاجه . وكان مما ألقاه إلىّ ، وأوجبه علىّ ان أعلى محلّ السيّد الأجل الأفضل من قلبه الكريم ، وما يجب له من التبجيل والتكريم . وان الامام المستنصر بالله كان عند ما عهد اليه ، ونصّ بالخلافة عليه أوصاه أن هذا السيد الأجلّ خليفة وخليلاً ، ويجعله للإمامة زعيما وكفيلا ، ويعذق به أمر النظر والتقرير ويفوض اليه تدبير ما وراء السرير . وأنه عمل بهذه الوصية ، وحذا على تلك الأمثلة النبوية ، وأسند إليه أحوال العساكر والرعيّة ، وناظر أمر الكافة بعزمته الماضية ، وهمته العَلِيَّة ، فكان قلمه بالسداد يرجف ، ولا يجف ، وسيفه من دماء ذوى العناد يكف ولا يكفّ ، ورأيه فى جسم مواد الفساد يرجح ولا يخفّ ، فأوصانى أن أجعله لى كما كان له صفيا وظهيرا ، وأن لا أستر عنه فى الأمور صغيراً ولا كبيرا ، وأن أقتدى به فى ردّ الأحوال الى تكلف ، وإسناد الأسباب الى تدبيره الناهِطِ مايطَ[1] الخطب ، ومنتقله إلى غير ذلك مما استودعنى إياه ، وألقاه إلىّ من النص الذى يتضوّع نشره وريّاه ، نعمة من الله ، قضت لى بالسّعد العميم ، ومنة شهدت بالفضل المتين والحظ الجسيم . والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم .

فتعزوا معاشر الأولياء والأمراء والقواد والأجناد ، والرعايا والخدام حاضركم وغائبكم ، ودانيكم وقاصيكم عن الإمام المنقول الى جنات الخلود ، واستبشروا بإمامكم هذا الإمام الحاضر الموجود ، وابتهجوا بتكريم نظره ، المطلع لكم كواكب السعود . ولكُمْ من أمير المؤمنين أن لايغمض جفنا عن مصالحكم ، وأن يتوخىّ ما عاد بميامنكم ومناجحكم ، وأن يحسن السيرة فيكم ، ويرفع أذى من يعاديكم ، ويتفقد مصلحة حاضركم وباديكم ولأمير المؤمنين عليكم أن تعتقدوا مولاته بخالص الطوية ، وتجمعوا له فى الطاعة بين العمل والنية ، وتدخلوا فى البيعة بصدور منشرحة ، وآمال منفسحة ، وضمائر يقينية ، وبصائر فى الولاء قوية . وأن تقوموا بشروط بيعته ، وتنهضوا بفروض نعمته وتبذلوا الطارف والتالد فى حقوق خدمته ، وتتقربوا الى الله سبحانه بالمناصحة لدولته ، وأمير المؤمنين يسأل الله أن تكون خلافته كافلة بالإقبال ، ضامنة ببلوغ الأمانى والآمال . وأن يجعل ديمها دائمة بالخيرات ، وقسمتها نامية على الأوقات . إن شاء الله تعالى » .

(١) مايط جائر ، والناهط : الطاعن .

رســـالة العفـــو

قـال :[1]

« الحمد لله راحم خلْقهِ وإن عظمتْ ذنوبُهم ، وكاشِف ضُرّهم فيما يطرقهم وينوبُهم ، والمتفضل عليهم بنعمه وهم غافلون ، والقّائل فى محكم كتابه (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون) . وصلى الله على سيدنا محمد ، نبيه الذى شرفه بالقرآن الكريم ، ووصفه بالخلق العظيم ، وفضله على كافة الأنبياء الذين بعثهم وأرسلهم ، وأمره فى أصحابه بقوله ــ عزَّ من قائل : (فاعف عنهم واستغفر لهم). وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، الذى أجاب الى الإيمان مسارعاً ، مبادراً ، وصفح عن عدوه ، وكان عليه قادرا ، وأعرب شيمه عن الشرف الصريح ، ومنعه كرمه أن يجهز على جريح ، وعلى آلهما الطاهرين الذين طهرَّ بهم من الأدناس ، صلاةً دائمة الاتصال ، مستمرةً فى الغدوّ والآصال ، وسلّم ومجدَّ وكرَّم وعظمَّ .

أجمعت البريَّة على اختلاف السنتها وألوانها ، وتغاير عصورها وأزمانها ، وتباين عقولها وآرائها ، وتفاوت أغراضها وأهوائها ، أن أفضل ما اكتسبه المرءُ فى وجوده ، وأشرفَ ما مُنحهُ من كرم الله تعالى وجوده ما يوفق له من إصلاح أخلاق النفس وتهذيبها ، وتبليغها غايةً تجودُ الخواطر فيها وتهذى بها . وإنَّ من أدركَ ذلك فقد نال الرُّتبة العلّية ، وحاز السعادة الحقيقية ، لأنه حصل على فضيلة الذَّات ، ووصل بها الى أعظم اللذَّات . وهذه قضية لاتنتقض ، ومقدمة لايخالفُ أحدٌ فيها ولا يعترض . فأما النتيجة عنها فهى فعل الحسَنِ والمثابرةُ عليه . والتنزُّهُ عن القبيح وإن دعت المكافأة إليه . وأفضل الحسَن مابقىً ذِكرَ المرءِ بعده . وجعله بالوصف قريباً ، وإن أطالت الأيام عهده ، إذا كان بقاءُ ذكر الإنسان عمراً يستجدُّه ، وكنزا يدخَرُه لوارثه ويُعدُّه . ومن أمثالهم : « البِشْرُ أحدُ الجودين ، والذكرُ أحد الخلودين ، والبيان أحدُ السّحرَيْن ، والثناء أحد العمرين ، وما أحسن قول أبى الطيب :

كفـلِ الثنـاءُ لـه بردَ حياتـه لمَّا انطـوى فـكأنـه منشـورُ

(۱) الأفضليات ص ۳/٤ طبع دمشق ۱۹۸۲

ولـه من رسـالة « لمـح الملـح »[1]

فصـل

من المحدثين المجيدين محمد بن شرف . وذكر فى بعض تصانيفه أنه كتب بشرح حال حاجٌ أصابه فى الطريق حرٌّ شديد ، فنزل بئرا ليشرب ، فسقطت فيه صاعقة ، فسلم منها ، ثم ركب وسار ، فنزل بَردٌ أصابت رأسه منه واحدة فقتلته . وكتابه فى ذلك مشهور .

وقد كتب المملوك فى هذا المعنى :

« إن من نوادر العِبَر ، وبوادر الغِيَر ، ما اتُّفِق لفلانٍ عند توجهه من الطائف ، وتركه اصطحاب الماء توكلا على اللطائف ، فإنه لِقىَ يوماً متلَهِّبَ الأوار ، مُتضرِّمَ النار ، قد فُقِدَ نعيمُه ، وعُدِمَ نسيمهُ ، واستُعيرَ من لفح جهنَّم حرُّه وسَمُومُه ، فاستندَ إلى صبره ، وأوى الى جلده . ظاناً سُرعةَ ذلك على ما وقعَ فى خلدِهْ ، فلما اشتدَّ القيظ ، وخِيفَ على النفُوسِ الغيظ[2] . وتزايد به الأُوَامُ ، وتشخَّصَ له المَوتُ الزُّؤام جعل يتماسَكُ ويسير ، وقد تيقَّنَ أنَّ باقى عمرِهِ قليلٌ يسير . فبينَا هو على تلك الحال ، يغور تارةً وينجد ، وقد أعوزه من يعين وأعجزه من ينْجِدُ ، إذا هو ببئرٍ ساقَتْهُ إليها مهلةُ الأَجَلْ وهدتْه ، وقادته نحوها فسحةُ المدةِ وأدته ، فلعدَم الرِّشاءِ وتعذُّرِه ، ولإعجالِ الأمرِ له عن تشبثهِ وتصبُّره نزلها كارِعاً فى مائِها ، وناعشاً به نفساً لم يبق غيراً ذِمائها . وإنه لكذلك إذ وقعت عليه صاعقـةٌ حُبيُّها يُصْعِق ، ومسُّهَا يُهلك ويربق ، فلقَيِـب البئر حِدَّتها دونه ، وحالت للمشيئة بين مضرَّتها وبينه . ثم صعِد منها بعد أن نقعَ غُلَّته ، وبلغ أمنيَّته . فسما بطرفه ، واستولى على طِرفه ، وأعجب بحظه ، وتوهم أن القدر لا يغفل عن حفظِه ، وتحقق أن قصُود المنايا له مُخطِئه ، وضروبَ الرَّزايا عن الوصُولِ إليه مبطئه . فما مضت ساعةٌ حتى نشأت غمامة جرَّ اليوم منها ستارتَه ، ونسخَ بها ذلك التوهجَ ومحا آيته . وحبل جامِدُ السماءِ يذوب ، وماءِ المزنِ يهطِلُ ويصُوب .

---

[1] الأفضليات ص ١٢٦

[2] الغيظ : الموت

وأخذتْ الأقضيةُ تحلّل من الدِّيَم العُقَد ، وتُفوِّق إلى مقاتِل المقتولِ سِهامَ البَرد ، فلم يزلْ يأتيه أرسالاً ، ويتناثر عليه يميناً وشمالاً إلى أن أصَابتْ إحداهُنَّ منه الهَامَة ، فأذهبت نفسهُ ، وعجَّلَتْ له القيامَة . فسبحان منْ قَرَّبَ له المسافةَ بينَ منْهَل الاغترار ومصرَع الاعتبار ، ومن نجَّاه مما اهلكهُ بمثلة معتادَه ، وأهلكه بما يحيى به أرضه ويرحمُ عبادَه ، وهو المسئولُ إن يُسبِغ علينا فضلَه ، ولايجعلنا بين عبادِهِ مُثْلَةْ ، إنه جَوادٌ يجيبُ داعِيَهْ ، ولا يُخيِّبُ راجيَهْ .

وقال فى وفاء النيـــل

رسالة من إنشاء تاج الرياسة أبى القاسم على بن منجب بن سليمان الصيرفى .[1]

« أما بعدُ . فإن أحق ما وجبتْ به التهنئة بالبُشرى ، وغدتْ المسارُّ منتشرةً تتوالى وتترىَ ، وكان من اللطائفِ التى غمرت بالمنة العظمى ، والنعمة الجسيمة الكبرى ما استدعى الشكر لموحد العالم وخالقه . وظلت النعمة به عامة لصامت الحيوانِ وناطقه .

تلـك الموهبة بوفاء النيل المبارك الذى يسَّرهُ الله تعالى وله الحمدُ يوم كذا ، فإن هذه العطيةَ تؤدى الى خصنب البلاد ، وعمارتها ، وشمول المصالح وغزارتِها ، وتفضى بتضاعُفِ المنافِع والخيرات ، وتكاثر الأرزاقِ والأقوات . ويتساهَمُ الفائدةَ فيها جميعَ العباد ، وتنتهى البركة بها الى كل دانٍ وناء ، وكل حاضرٍ وبادٍ . فأذِعْ هذه النعمة قِبلَك ، وانشرها فى كل من يتدبرّ عملك . وحثّهم على مواصلةِ الشكر لهذه الألطاف الشامِلة لهم ولك ، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله » .

وقـال :

« إن أول ما تضاعف به الابتهاج والجذل ، وانفتح فيه الرجاءُ واتسـع الأمل ما عمَّ نفعه صامت الحيوان وناطقه ، وأحدث لكل أحد اغتباطا لزمه وآلى أن لايفارقه ، وذلك ما منَّ الله به من وفاء النيل المبارك الذى تحيى به كلُّ أرض موات ، وتكتسى بعد اقشِعْرارِها حُلَّةُ النبات ، ويكون سببا لتوافرِ الأقوات فإنه وفىّ المقدار الذى يحتاج إليه . فلندع هذه المنّةَ فى القاصى والداني لتستعمِلَ الكافةُ بينهم ضروبُ البشائرِ والتهانى إن شاء الله تعالى . »

(١) الخطط المقريزى ٤٧٩/١

وكتب أيضا :

« من لطف الله الواجب حمدهُ ، اللازم شكرُه ، وفضله الذى لايملّ بشْرُه ولا يُسْأَمُ ذكرهُ ، ومنّه الذى استبشر به الأنام ، وتضاعف فيه الإنآم ومثّل الله الحياة به فى قوله تعالى : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض مما تأكل الناسُ والأنعام) أمرُ النيل المبارك الذى يعمُّ النجودَ والتهائِم ، وتنتفعُ به الخلائِق ، وترتع فيما يظهرهُ البهائم . وقد توجه اليك بهذا الكتاب بهذه البشرىَ فلانٌ فأَجْرِهِ على رسمه فى إظهاره مجملاً ، وإيصاله الى رسمِهِ مكمَّلاً ، وإذاعة هذه النعمة على الكافة ليتساهموا الاغتباط بها ، ويبالغوا فى الشكرِ لله سبحانه وتعالى بمقتضاها ، وعلى حسبها ، فاعلم ذلك واعمل به » .

وأشاد ابن سعيد به وبكتابته ، وقد نعته بعلم الرؤساء ، وقال[1] :

« كاتب إمامهم الآمر وغيره من خلفاء المصريين ، وقعت على تَرَسُّلِهِ فى مجلدات عِدة ، فوجدتُ الفاضِلَ البيسانيَّ ينسجُ على منواله وينزع منزعه ولكنه زاد رشاقةً ولطافةً وغوصاً » .

---

(١) النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ص ٢٥٢

الأنصـــارى[1]

أبو على حسن بن زيد بن إسماعيل (توفى فى حدود ٤٢٦ هـ)

قال عنه العماد : « كان من المقدمين فى ديوان المكاتبات بمصر . وصفه القاضى الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله » .

وقال ابن سعيد : « أبو على حسن بن زيد بن اسماعيل المعروف بابن الأنصارى . وبيت بنى الأنصارى معروف الى الآن ـــ زمن ابن سعيد فى القرن السابع ـــ بالديار المصرية . وأبو على هذا كنيته . ذكره صاحب الجنان (ابن الزبير) . وقال : هو عريق النسب فى صناعة الأدب يمت اليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأخوال وأعمام ، جدُّه لأبيه المعتمد الأنصارى[2] ، ولأمه المجيد بن أبى الشخباء[3] العسقلانى . » .

وكان طموح النظر الى الرتب العلية ، والمنازل السنية ، تُريه همته أنه بعبء الرئاسة مستقل ، فهو لكل ما ناله مستقل ، ولو فسح العمر له بامتداحه ، وسمح له الدهر بمراده ، بلغ بما ظهر من أدبه الى غاية مطالبه ، إلا أن الزمان دفع فى صدر أمله ، وقصرَّ خطا أجله فترامت به الأحوال الى أن قتل فى الاعتقال السلطانى لأمر نما عنه إليه وهجاءٍ زوّرَ عليه . وكأنما عبَّر عن حاله بمقاله :

من لـى بعـودِ زمانٍ كنـت أكـرهـه وكيـف لِلميْـتِ بالرُّجعـى إلـى الألـمِ

وكان الأنصارى من شعراء الأفضل بن بدر الجمالى ، وقد مدحه واختص بعد مقتله بابنه أحمد ، وبعد مقتله ، سعى بعض رجال الدولة بينه وبين الحسن بن الحافظ الذى استولى على أمور الحكم دون أبيه ، فقتله الحسن بن الحافظ ، وكان متهوراً مستبداً حتى أن أباه ضاق به فدس له السم فمات .

يقول العماد : « طرقهُ حادث الزمان الغائظ ، فأحفظ عليه حسناً ولد المنبوذ بالحافظ

---

(١) الخريدة للعماد قسم شعراء مصر ٦٧/٢ والنجوم الزاهرة من المغرب ص ٢٣٧ .

(٢) معتمد الدولة الأنصارى ، ولى قضاء الاردن ، وله شعر فائق وقتله بدر الجمالى .

(٣) سبقت ترجمته .

وتقلّد حوبته ، وضربَ رقبته ، وذلك بسبب ابن قادوس ، عمل بيتين هجا بهما حسن بن الحافظ ودسَّهما فى رقاع هذا الأنصارى ، ثم سعى به إلى المذكور فأخذ فوجدا معه وقتل »[1]

يقول العماد[2] : « ومن نثره مما يدلُّ حسنه على رونق فرنده وأُثرهِ ما التقطته من ترسُّل صنفه أبواباً ، وألفه اقتضابا . »

وله من تهنئة بولاية :

« من هُنّىءَ بمنزلة يرتقيها ، أو مرتبةٍ يعتليها ، فالخدم تُهنِّىءُ بالحضرة لما يكسوها من جميل السيرة ، والإنصاف الذى يتعادلُ فيه الجهرُ والسريرة ، فخلَّد الله ملك المجلس العالى المالكىّ ، وثبتَ أيامه ، ونصر أعلامه ــ فإنه منظورٌ فيها بناظر البصيرة التى تمدُّه القوة الملكية ــ وسلك بتقديمها نهج السعادة التى توضحه المادة الالهية ، فأصاب الضريبة ، ووقع العقد فى التربية ، وأرهف الحسامُ القاطع ، وأضرم الشّهابَ الساطع . »

ومن تهنئة بالعافية إلى السلطان

« الحمدُ لله الذى أقرَّ القُلوبَ بعد وجيبها ، وأضحك الأيام بعد قطوبها ، وقوّى المتنَ بعد انخزالها ، وشدَّ عُرى الإسلام بعد انحلالها ، بما أتاحه من البرّ الذى أقرَّ عيون الأولياء وأكمد قلوبَ الأعداء ، وأصبحت الدنيا متعلّيةً بعقودها ، مائسةً فى برودها باسمة عن المضحكِ الأنيق ، لاجئة إلى الركن الوثيق . وغدا الدين عزيز الجانب ، رفيع المناكب ، محمىَّ الكواكب ، فملوكُ الدولةِ أحقُّ الأولياء أن يستفزَّهُ الجذلُ ويستطيرَهُ ، وتتضاعف مسدَّتهبهذه المنحة الخطيرة ؛ إذ هو بيمنها مشمولٌ ، وعلى موالاتِها مجبول . وقد جذبت بباعه من الحضيضِ الأوهد ، وسمقت به إلى المحلّ الأمجد ، فهو يتأزرُ بإنعامها ويرتدى ، ويروُح إلى إحسانِها ويغتدى .

الحمدُ لله الذى أبقى المجلسَ السامى شهاباً لايخبوُ فى اللّأزاءِ ثاقِبُه ، وحسام لاتنبوُ عن الأعداء مضاربهَ ، وركناً تلوذُ بهِ الأمم ، وسحاباً يهطُل بأنواءِ الكرم .

---

(١) الجريدة ص ٦٨

(٢) الجريدة ص ٧٣

ومن قوله فى تهنئة بظفر[1] :

« الحمد لله الذى فضّل دولة أمير المؤمنين على سائر الدُّول ، كما فضَّل ملة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الملل ، وجعل أيامه واضحة الحجُولِ والغُرر ، مخصوصةً بالفتوح والظفر ، يخفق النصر على بنودِهِ ، وتسير السعادةُ أمام جنودِهِ ، ويقابل الأقدار فى جحافلها وتصبح الملائكة الأبرار من قبائلها ، فما يتوجه من جيوشه جيشٌ إلا والتأييد يقدُمُهُ ، والقدرة تخدمه ، والدهرُ يؤازره والنصرةُ تضافِرهُ ، نهنىء بهذا الفتح الذى ضحكت به الدنيا عن مباسمها ، وتجلت به شموس النصر عن غمائِمها . ونسأل الله أن يجعل الأرض قبضة يده ، والأفلاك الجارية من أعوانه وغدده وكلَّ يوم من أيامه موفياً على أمسهِ ، مقصِّراً عن غدِه ، الفتح الذى نكِستْ به رُءُوس ذوى الشقاق وقطع به دوابرَ أهل الخلافِ والنفاق ، ورجفت به أكبادُ الأعداءِ رهبا وجزعاً ، وتضعضعت به أركانُ الباطِلِ خوفاً وهلعا . وأصبح الإسلام به عزيز الجناب ، فسيح الرحاب ، منصور الأعوانِ والأحزاب ، والدولةُ فاخرةً على الدول ، بالغةً أقصى الأمل ، يخفُق النصرُ فى أعلامها ويحفُّها الظفرُ من ورائِها وأمامها »

ومن تهنئةٍ بفتح[2] :

« أعزَّ الله سلطانَ الحضرة ، وهنأها ما منحها من الشرفِ الأثير ، والذكر النابه الخطير ، من الظفر بالفلانيين على اشتداد أسرهم ، واستفحال أمرهم ، وانبساط يدهم ، وتكاثر عددهم وتناكصَ المُقْدمينَ عنهم ، وجزع الناسِ منهم . لا جرمَ أنَّ المجلس العالى لمَّا رأى شأنهم يتفاقم ، وخطبهم يتعاظم نقد رؤساءَ دولته نقد الصَّيْرف الخبير ، وقلَّب مقدَّمِى مملكته بطرفِ العارفِ البصير ولم يُر كفلان ألَمَّ ولا أدفع للخطب ، ولا أسدَّ للخرقِ ، ولا أرتَقَ للفتقِ ، ولا أخبر بتدبير الجحافل ، ولا أهجم على شفاءِ المناصل ، ولا أثبتَ فى صدور الأعداء ، ولا آثر ، فى نفوس الأولياء ولا أعرف بمجارى أمور الحرب ، ولا أثبت جأشاً عند اختلاف الطعن والضرب ، ولا أكثر اجتهاداً وتشميرا ، ولا أمضى رأيا وتدبيرا ، ولا أيسر على الأبطالِ ، ولا أحقَّ بالتقدم على سائر الرجال ، ولا أثبت فى مواقف النزال ، ولا أسرع إجابة حين تدعى نزالِ ، رأوا فى عجاجهاسحابة موتٍ تهطلُ بالنكال ،

---

(١) الخريدة ٢/٧٦

(٢) الخريدة ص ٧٧

وتمطرُ نوافذ النصال ، وتومض عن بوارقَ تشعشعُ بالصّقال ، وتقطعُ عُرى الآجال . ونارَ بأسٍ تافحُ القلوبَ ، وتُضرِمُ الخطوبَ ، وتُدنِى الأجَلَ المكتوبَ ، فأصبحوا بين ناكصٍ على العقب ، ومجدَّلٍ فى الأرضِ تَرِب ، ومزمَّلٍ بدمائهِ ، ومجرَّع غُصصَ ذَمائهِ ، وهاربٍ والأرض تحصِبُه ، والآفاتُ تطلبهُ ، يَخافُ من ظلِّ طِرفهِ[1] ، ويرىَ المنيةَ نُصْبَ طَرْفهِ ، وأقشعتْ الحومةُ والدهر إليها باسم ، والنصر عليها قادمٌ ، والظفر مسطورٌ بجنبيها ، والسعادةَ مخيمةٌ عن يمينها ، والاسلام لسعيها شاكرٌ .

وللأنصارى شعرٌ أقوى أسراً من نثره ، متفوقٌ فيه على كتابته ، وربما سلكه فى عداد شعراء العصر المقدَّمين ، وقد قصر ابن سعيد مختاره على شعره[2] ، ولم يعرض شيئاً من نثره ، فلعله رأى فيه ما رأينا ، وأما العماد فقد أكثر من مختار نثره وشعره جميعاً ، وأعجب كلٌّ من ابن الصيرفى ، والعماد ، وابن سعيد بوصفه لخيمة الفرج للأفضل بن بدر الجمالى .

قال ابن الصيرفى : ومن مليح ما قال فى الخيمة المنصورة قولُ ابن زيد الأنصارى[3] :

أخيمةٌ ما نصبْتَ اليومَ أم فلكٌ ... ويقظةٌ ما نراهُ منكَ أم حلُمُ

ويورد ثمانية أبيات .

ويقول العماد : « وله قصيدةٌ فى مدح أفضلهم يصف خيمة الفرج يدلُّ إحسانُه فيها على أن بحره طامى اللجج ، ودُرَّهُ نامى البَهَج [4]» ويورد واحداً وعشرين بيتاً من القصيدة .

أما ابن سعيد المغربى فيقول : وقوله يمدحُ الأفضَلَ ويصف خيمةً له تسمَّى بخيمة الفرج ، وهو من بدائعه »[5] ويورد خمسة عشر بيتا .

وفى هذه القصيدة يقول الأنصارى :

---

(١) الطِّرف : الكريم من الخيل .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٣٨ - ٢٤١

(٣) الأفضليات ٢١٦

(٤) الخريدة ٦٨/٢

(٥) (النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة) ص ٢٣٩

مجداً فقد قصّرت عن مجدك[1] الأممُ وأبدت العجز منها هذه الهِمَمُ
أخيمةٌ ما نصبتَ الآنَ أم فلكٌ ويقظةٌ مانراهُ منك أم حُلُمُ
ما كان يخطرُ فى الأفكارِ قبلك أنْ تسمُو علوًّا على أفقِ السُّها الخيمُ
حتّى أتيتَ بها شمّاءَ شاهقةً فى مارن الدّهرِ من تيهٍ بها شَمَمُ
إنَّ الدليل على تكوينها فلكاً أن احتوتْك وأنت الناسُ كلُّهم
يمدُّ من فى بلاد الصينِ ناظِرَهُ حتّى ليبصرَ علماً أنّها علَمُ
ترى الكناسَ وآرامَ الظّباءِ بها أضحتْ تجاورها الآسادُ والأجمُ
والطيرُ قد لزمتْ فيها مواضِعَها لما تحقّقْنَ منها أنّها حرَمُ
لديك جيشٌ وجيشٌ فى جوانبها مصوَّرٌ ، وكلاَ الجيشينِ مزدحِمُ
إذا الصّبا حرّكتها ماج موكبها فمقدمٌ منهم فيها ومُنهزِمُ
أخيلُها خيلك اللاتى تغيرُ بها فليسَ تنزعُ عنها الحزْمُ واللجمُ
علّمتَ أبطالها أن يقدموا أبداً فكلّهم بغمارِ الحربِ مقتحمُ
أمّنتهمْ أن يخافوا سَطوةً لردًى قد تسالمت الأسيافُ والقمم
كأنها جنَّةٌ فالقاطِنون بها لا يستطيلُ على أعمارهم هِرَمُ
[تغدو القُماريُّ والبازىُّ يحفظُها كأنّما بينهم فى جوّها رَحِمُ]
علت فخِلْنا لها سراً تحدِّثه للفرقدين ، وفى سمعيهما صَمَمُ
إن أنبتتْ أرضُها زهراً فلا عجبٌ وقد همتْ فوقها من كفك الديمُ
يا خيمةَ الفرج الميمونِ طائرها أصبحتِ فألاً به تستبشرُ الأممُ

ومنها :

ما قال لا قطّ مذ شدّتْ تمائمهُ وكم له نِعَمٌ فى طيِّها نعمُ
لو كنتَ شاهد شعرى حين أنظِمهُ إذن رأيت المعالى فيك تختصِمُ
أزرتْك اليومَ من فكرى مُحبَّرةً فى ناظرِ الشمسِ من لألائِها سَقَمُ
ترى النجومَ لَفظى فيك حاسدةً تودُّ لو أنّها فى المدح تنتظِمُ

ومن شعره قصيدة تعكس حال العصر ورجاله ، وما كان يحدث به كلّ نفسه من بلوغ مكانة فى غفلةٍ من غيره أو غصباً ، أو دساً وتآمراً .

---

(١) فى النجوم « من أشأوك »

يقـــول[1] :

منالُ الثريا دون ما أنا طالـبُ	فلا لومَ إن عاصــت عليَّ المطالبُ
وإنى إذا لم يسمحْ الدهرُ بالمنـى	فلى فى كفالاتِ الرماح مآربُ
تقرّبُ لى مُستَبْعَـداتِ مآربـى	جيادِي وعزمى والقناً والقواضِبُ
فما أنا ممن يقبضُ الفخرُ خطوَهُ	وتعمى عليه فى البلادِ المذاهِبُ
لقيتُ من الأيام كلَّ عجيبـةٍ	فلم أر شيئاً أبدعتـهُ التجاربُ
وكلُّ خليل أرتجيـه ممـاذِقٌ	وكـلُّ صديقٍ أصطفيهِ مواربُ
إذا ما كساكَ الدهرُ ثوباً من الغنى	فعجّـلْ بلاهُ فالليالى سوالبُ
وإياك سمَّ الأصدقاءِ إذا سَرى	فأكـثِر خِـلّانِ الزمانِ عقاربُ
ولا تغترِرْ ممَنْ صفا لك عهدُهُ	فكمْ غصَّ بالماءِ المصفَّق شارِبُ
نلومُ على الغـدرِ الزمان ضلالةً	وقد سنّهُ أصحابُنا والحَبائِبُ[2]

وذكر له العماد قصيدة تنهج منهج الشعر القديم رصينة اللفظ بدوية الصور فى استهلالها . يقول فى مطلعها :

مغانِى اللِّوَى حيَّاكِ غادٍ من الوَبْلِ	وطلَّتْ دموعُ الطلِّ فيكِ دمَ المحْلِ
فلازال هطالُ الغمام إذا بَكَى	تبسَّمَ عن ألمى من الروضِ مخضلِّ
فكم لى فى أطلالِ دوّحِك ليلةً	غدتْ سِمةً فى جبهةِ الزمنِ الغُفْلِ

ويقول وقد ذكر الطيف :

أطارِقُ طيفٍ أم خيالٌ مُرجَّمُ	أراكَ به مرأى اليقين التوهُّمُ
سرَى وكأنَّ الأفقَ صفحةُ لجةٍ	كواكبهُ فيها سفائِنُ عُـوَّمُ
وكَمْ للكرى من منةٍ قبلَ هـذهِ	أضـاءَ بها وجهُ الدُّجى وهو أسحمُ
وما شيمِ الأيامِ أن تمنحَ المنى	ويبسِمَ منها الكالحُ المتجهِّمُ
ولكن رأت نعمى شهنشاة فى الـورى	فقـد أصبحت من جوده تتعلّمُ[3]

(1) النجوم الزاهرة ص ٢٣٨

(2) البيت زيادة فى الخريدة ٦٩/٢

(3) وشاهنشاه لقب الأفضل بن بدر الجمالى وهو لقب فارسى معناه ملك الملوك

وله من قصيدة يصفُ الطيف فى مطلعها :[1]

سرى واصلاً طيفُ الكرى بعد ما صدّا فهل خطأً أهدى الزيارةَ أم عمْداً
ولمّا أتى عُطلاً من الدرِّ جيدُهُ نظمتُ دموعى فوقَ لَبّاتِهِ عِقْدا

ومن نسيجه البدوى أبياتٌ نظمها فى مدح أبى محمد بن أبى أسامة من كبار كتاب الانشاء ووجهاء الدولة فى عصره . وكان يكتب للأفضل قبل ابن الصيرفى . يقول الأنصارى :

لعلَّ سنا البارقِ المنجدِ يُخبِّرُ عن ساكِنِى ثَهْمَدِ
ويا حبّذا خطرةٌ للنسيمَ تُجدِّدُ من لوعةِ المكمَدِ
وفى ذلك الحىّ خمصانةٌ لها عنقُ الشادِنِ الأغيدِ
تتيهِ بغرَّةِ بدر التمام وسالفةِ الرَّشا الأغيدِ
وتلحِفُ عِطفَ قضيبِ الأراكِ رداءً من الأسْحَم الأجْعَدِ
أعاذِلُ أنحيتِ لوماً علىَّ يروحُ بعذلِك أو يغتدى
تلوم زمانِى على صمته وصوتِى من ضربه المغمدِ
ففضلىَ يبكى على نفسِهِ بُكاءَ لبيدٍ على أربَدِ[2]
ولو كان حظّى لونُ الشبابِ لما حالَ عن صبغِهِ الأسودِ
فلا تأيسنَّ لمطلِ الزمانِ فإنّىَ منه على موعِدِ
ولاتشكُ دهركَ إلا إليكَ فما فى البريّةِ من مُسْعِدِ
ولا تغترِرْ بعطايا اللئام فقد ينضحُ الماءُ من جَلْمَدِ[3]

وقال فى الشراب والغزل :

وندمانى بدورُ التّم تبدو بأغصانٍ تميسُ على رَوابى
والمثانِىَ المثالث والمثانى رفاقاً فى اصطحابِ واصطخاب
فحيثُ والدُّجى يحكى الحسَاراً نصولَ الشيبِ من تحتِ الخضابِ
براح خِلْتُ كفُّ المزج جادَتْ لمفرقها بتاجٍ من حبابِ
صفت وصفتْ زجاجتها وأضحتْ كأخلاقِ الأجلِّ أبى ترابِ

(١) الخريدة ٢/٧٢
(٢) أربد أخ للبيد الشاعر بكاه فى شعره كثيرا
(٣) القصيدة فى الخريدة ٢/٧٣

ابن الخـــلاَّل

موفَّـقُ الدين أبو الحجـاج يوسـف الكاتـب (توفى ٥٦٦ هـ)

كاتب الخليفة الحافظ لدين الله وصاحب ديوان الانشاء فى عصره

قال عنه العماد الأصبهانى : « هو صاحب ديوان الانشاء فى مصر ، وإنسان ناظره ، وجامع مفاخره وله قوةٌ على الترسل ، يكتب كما شاءَ ، عاش كثيراً ، وعطلَ فى آخر عمره ، وأضرَّ ، ولزم بيته الى أن تعوّض منه القبر . وتوفى بعد ملك الناصر (صلاح الدين) مصر بثلاث أو أربع سنين فى ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسمائة .[1]

وروى عنه على بن ظافر فى بدائع البدائه خبراً قال[2] :

هجاهُ ابن هانىء المحدث هجاء اتصل به فأضمر له الحقِد بسببه مع فرطِ جلالةِ الرجل ، وفرط رياسته وحسن مباشرته للناس ، وسياسته . واتفق بعض المواسم التى جرت عادة ملوك مصر بالجلوس فيها لاستماع المدائح وبذل المنائح ، وزفّ بنات القرائح ، فجلس الحافظ الخليفة ، وحضر خواصه فى ظاهر الرواق على مراتبهم ، فانتهت النوبة فى الانشاد الى القاسم بن هانىء ، فانشد ما اهتزت له المعاطف ، وفضَّ ختام روضةٍ ليس لها الا القلب والسمع جانٍ وقاطف ، فمال الحافظ الى القاضى الموفّق متعجباً ، وقال له متعجباً : كيف تسمع ! فاستحسن واستجاد حتى نسبه الى الاعجاز أو كاد ، وهو فى خلال ذلك يصنعُ صُنْعَ المخامل ، ويحاولُ قرطسة المقاتِل . فسأله الحافظ عن الرجل ، فأثنى على أدبه ، وثنى بحسبه حتى أوهمه الاعتناء به . ثم قال : ولو لم يكن له مما يمت به الا انتسابه الى أبى القاسم ابن هانىء شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها لكفى ، فكيف وفيه هذا الأدب الغضُّ النضير ، والشعر الذى لا ندَّ له ولا نظير ، لولا بيتٌ أظهر منه الضجرَ عند دخوله هذه البلاد . فقال له الحافظ : ما هو ؟ فتحرج من إنشاده ، وامتنع من إيراده ، فأبى الحافظ إلا أنْ يوردّه ، ففى أثناء ذلك صنع هذا البيت وأنشده :

---

(١) خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ٢٣٦ [؟] — [المطبوع: «كت اصحاب ٣١٦»]

(٢) بدائع البدائه ٣٩٠

تبًّا لمصـر فقـد صـارت خـلافتُها　　عطنـاء تُنقـلُ من كلْـبٍ إلى كلْبِ

فعظم ذلك على الحافظ ، وأمر بقطع صلته ، وكاد أن يفرط فى عقوبته ، ولم يحصل له انتعاشٌ من جهته طوال مدته .

وقد أخذ عنه القاضى الفاضل فن الكتابة . وكان الفاضلُ قد سيَّرهُ أبوه ، وهو قاضى عسقلان إلى ابن الخـلّال ليتخرج عليه فى فن الكتابة ، ويتدرب به . فلما وصل إليه قال له : ما الذى أعددتَ لفنْ الكتابة منَ آلات . فقال : ليس عندى شيء سوَى حفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة . فقال : فى هذا بلاغ . ثم أمرهُ بملازمته ، فلازمه وتدرب بين يديه ثم أمره بعد ذلك أن يحلَّ شعر الحماسة ، فحلَّه من أوله إلى آخره ، ثم أمره به فحلَّه ثانيةً ، ويقال إن الموفق ابن الخلال كان يكتبُ الى القاضى الفاضل وهو عاطلٌ فى بيته : « خادمه يوسف » . وكان الفاضل يقول : إلى متى يُخبأ الألف واللام يعنى يقول الخادم .

ولم يزل ابن الخلال بالديوان الى أن طعن فى السنّ ، وعجز عن الحركة ، فانقطع فى بيته . وكان الفاضلُ يرعى له حقّ الصحبةِ والتعليم ، ويجرى عليه مايحتاج إليه إلى أن مات رحمه الله تعالى .

وقال الصفدى[1] : وكان الموفقُ بن الخلّال خال القاضى الجليس بن الحبّاب فحصل لابن الخلّالِ نكبةٌ ، وحصل لابن الحبّاب بسبب خاله ابن الخلال صداع فكتب ابن الحبّاب الى القاضى الرشيد بن الزبير :

تسمَّعْ مقالِىَ يا ابن الزبـير　　فأنـت خـليـقٌ بأن تسمعَـهْ
بُليـنَا بـذى نسـبٍ شـابـكٍ　　قـليل الجـدَى فى زمانِ الدَّعـهْ
إذا نـاله الخـير كـم نرْجـه　　وان صفعـوه صفعـنا معَـهْ

وجـاء عن ابن حجـة الحمـوى فى ثمـرات الأوراق[2] .

« قلت : الذى ثبت وتقرر عند المؤرخين وعلماء هذا الفن أن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى أخذ علم الانشاء وحكمه عن موفّق الدين ابن الخلال منشىء الخليفة الحافظ

---

(١) نكت الهميان ٣١٦

(٢) ثمرات الأوراق بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ص ١٣٨

العلوىّ . ورتبته فى الإنشاء معلومة ، ولكن جنحتُ الى الوقوف على شيء من نظمه لأنظر فى الرتبتين كما قررت ذلك فى نظم القاضى الفاضل ونثره ، فوجدت قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان رحمه الله قد أورد له فى تاريخه نظما ونثراً دلنى على أن نظمه ونثره رضيعا لُبَانٍ ، وفرسا رهان » .

ابن قَادُوس[1]

أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن حميد الدمياطى (ت ٥٥٣ هـ)

وقيل توفى سنة ٥٥١ هـ

من كتاب الدولة الفاطمية فى عصر الحافظ ، وعاصر القاضى الجليس ابن الحباب ، ولقب بالمفضّل كافى الكفاة . وكان القاضى الفاضل يسميه ذا البلاغتين : الشعر والنثر .

ونقل العماد فى الخريدة[2] عن ابن الزبير فى نعته : كان يأخذ ثغور مصر رجلٌ يعرف باسماعيل بن حميد المنبوذ بابن قادوس ، وكان يهتم بالجمع والادخار ويدين بعباءة الدرهم والدينار ، ولاتندى حصاته ، ولا يظفر بغير الخيبة عُفاته ، ولا يرشح له كف ، ولايعرف له عرفٌ ، إلا أن له رواءً وجِدَة وبنين وحفدة ، يطمع الغرُّ فى نواله ، ومنال النجم دون مناله » .

ولعل محموداً الكاتب هو ابن هذا الذى أشار إليه ابن الزبير . وعايش ابن قادوس كثيرا من شعراء بلاط الصالح بن رزيك وكتابه .

ولقبه ابن شاكر بالكاتب المصرى صاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية[3] وأصله من دمياط . قيل ان القاضى الفاضل كان ممن اشتغل عليه ، وكان يعظمه ويسميه ذا البلاغتين .

قال ابن شاكر : « وكان لايتمكن من اقتباس فرائده غالباً الا فى ركوبه من القصر إلى منزله ، ومن منزله الى القصر ، فيسايره ويجاريه فى فنون الانشاء والأدب .

وكانت بينه وبين القاضى الرشيد بن الزبير مهاجاة ذكر ابن ظافر فى البدائع[4] أنه نبذه بسواده فقال فيه :

---

(١) ترجمته فى ابن ميسر ٩٧ والروضتين ١٠٣/١ ، الدواداري ٥٩٦ ومجموعة الوثائق الفاطمية ١٤٢

(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب ٢١٤/١

(٣) ١٠١/٤ فوات الوفيات -

(٤) بدائع البدائه ص ٤٠٤

إن قلت من نار خلقت ... وفُقت كلَّ الناس فهما
قلنا صدقت فما الذى ... أطفاكَ حتى صرت فحما

وكان الرشيد كثيرا مايدعى الذكاء وأن خاطره من نار .

وكان ابن قادوس كثيرا مايجالس ابن رزيك ومعه فى المجلس جماعة من كتاب مصر وشعرائها[1]

القاضى الجليس بن الجبَّاب (توفى سنة ٥٦١ هـ)[2]

هو عبد العزيز بن الحسين بن الجبَّاب . قال ابن شاكر : بالجيم والباء الواحدة المشددة وبعد الألف باء .

الأغلبى السعدىّ الصقلىّ المعروف بالقاضى الجليس أبو المعالى قال ابن نقطة : سُمّى بالجليس لأنه كان يعلم الظافر وأخويه أولاد الحافظ القرآن الكريم ، والأدب ، وكانت عادتهم يسمون مؤدبهم الجليس .

تولى ديوان الإنشاء للفائز مع الموفق ابن الخلال . وكان من جلساء الوزير الصالح ابن رزيك . قال عمارة اليمنى[3] « ووجدت بحضرته — ابن رزيك — من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالى ابن الجبّاب ، والموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا الفتح محمود بن قادوس ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير . وما من هذه الحلبة أحدٌ الا ويضربُ فى الفضائل النفسانية ، والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب ، ويرمى شاكلة الأشكال فيصيب » .

قال ابن ظافر[4] : « كان الصالح طلائع بن رزّيك الوزير لايزال يحضر مجلسه فى ليالى الجمع جلساؤه وبعض أمرائه لسماع قراءة مسلم والبخارى وأمثالهما من كتب الحديث ،

---

(١) النكت العصرية ص ٣٥

(٢) ترجمته فى فوات الوفيات ٢/٣٣٢ ، الخريدة قسم شعراء مصر ١/١٨٩ والنكت لعمارة ص ٣٥ والنجوم الزاهرة ٥/٢٩٢

(٣) النكت ص ٣٤

(٤) قد أتى هذا «صورة الركاتنى» فى بعض المصادر والخبر بدائع البدائه ص ٢٤٩

وكان الذى يقرأ رجلاً أبخر ، فعلَّلـه . به وقد حضر المجلس مع الأمير أبو على بن الزبير والقاضى الجليس أبي محمد عبد العزيز بن الجباب ، وقد أمال وجهه الى القاضى المهذب بن الزبير وقال له :

وأبْخرَ قلتُ : لاتجلسْ بجنبى

فقال الأمير :

إذا قابلت بالليل البخارى

فقال الجليس : ولم ؟ ، فبدره المهذب فقال:

فقلتُ وقد سئلتُ بلا احتشامٍ   لأنك دائماً من فيك خارِى

وروى ابن ظافر قال : وأخبرنى بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التى يسميها المصريون « الزركالش » ، ويسميها العراقيون كان وكان :

النارُ بين ضلوعى   ونا غريق فى دمُوعىَ
كَنىْ فتيلة قنديلْ   أموت غريق وحريق .

وكان عنده القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحبّاب ، والقاضى المهذب ابن الزبير ، فتقدم إليهما بنظم معناه . فصنعا بَديها ، فكان مما صنعه الجليس :

هلْ عاذِرٌ إن رُمْتُ خلْع عَذارى   فى شمّ سالفةٍ ولثمْ عِذارِ
متألف الأضداد فيه ولم تزل   فى سالف الأيام ذات نفار
وله من الزفرات نفحُ صواعقٍ   وله من العبراتِ لجُّ بحارِ
كذبالة القنديل قدر هلكها   ما بين ماءٍ فى الزجاج ونارِ

تولى ديوان الانشاء للفائز مع الموفق ابن الخلال .

قال العماد إن القاضىْ الجليس مات سنة إحدى وستين وخمسمائة وقد نيف على لسبعين قال ابن شاكر . وكان القاضى الجليس ابن الجباب كبير الأنف ، وكان الخطيب بو القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد مولعاً بأنفه وهجائه . وذكر أنفه فى أكثر ن ألف مقطوع . فانتصر له ـــ للجليس ـــ أبو الفتح ابن قادوس الشاعر فقال :

يامــــن يَعيــيبُ أنــوفنــا الشُــمَّ التي ليـست تعـابْ
الأنف خلقـــــةُ ربنــــا وقــرونك الشـمُّ اكتسـابْ

ويروى العماد وابن شاكر له مقطعات من الشعر ومنها قوله :

حيـــاً بتفاحـــةٍ مخضَّبـةٍ من شفَّني حبُّه وتيمـــنى
فقلتُ ما ان رأيت مشـبهها فاحمـرّ من خجـلةٍ فكذّبنى

ومنه [1]

وأصـلُ بليّتي من قـد غـزانى من السُّقْم المليح بعسكرين

وشعره عامة كشعر غيره من الكتاب من طبقته ومن معاصريه .

وإن لم يصلنا شيء من كتابته حتى نقارن بين نظمه ونثره لنتعرف كيف كانا فرسَىْ رهان . وجدير بالتنويه أن كتاب مصر فى هذا العصر كانوا يهتمون بالكتابة والنظم ، وكانت كتاباتهم تحفل بكثير من منظومهم على ماشاهدنا فى الفصول السابقة . ولعل ذلك النمط الذى تفشى فى كتابات العصر كان ظاهرة واضحة عمّت وغلبت .

(١) من ابيات فى ذم ضب ــ حـ ٢٣٣،٢

الرقيق القيروانى (توفى فى حدود ٤٣٥ هـ)[١]

والرقيق لقب اشتهر به كما عرف بالنديم ، وهو أبو إسحاق ابراهيم بن القاسم . ترجم له ابن رشيق فى كتاب الأنموذج بين شعراء القيروان وقال عنه : « شاعر سهل الكلام ، لطيف الطبع . غلب عليه اسم الكتابة ، وعلم التاريخ ، وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق الناس » .

وتثقف كغيره من أبناء عصره من علماء المسلمين والعرب فحفظ القرآن ، وكثيرا من الشعر ، واطلع على الآداب العربية ، وما صنف من الكتب فيها ، وتعلم الأنساب والأيام وعلوم الدين والفقه وعلوم اللغة والعلوم العقلية .

وربما ألم كذلك ببعض الثقافات غير العربية ، وعرف لغات غير العربية كاللغة اليونانية لغة الروم البيزنطيين ، والتى كان يتقنها بعض العلماء والأدباء وكتاب الدولة ورؤسائها بحكم صلاتهم وعلاقاتهم بالروم .

واستهل عمله بالاشتغال فى ديوان الرسائل بالقيروان فى بلاط أمراء الصنهاجيين أيام تبعيتهم للدولة الفاطمية بالقاهرة ، فعاصر من بنى زيرى المنصور بن باديس ، والمعز بن باديس ، ولعله أمضى فى ديوانهم ما يقرب من عشرين عاماً .

وجاء فى مقدمة « تاريخ افريقية »

« ولا شك أن اشتغاله بديوان الرسائل مدة نيف وعشرين سنة كان له تأثير فيما وصلنا عنه من التصانيف الكثيرة فى فنون مختلفة »

وكان لاشتغاله بالكتابة فى قصر الصنهاجيين بالقيروان أثره فى إلمامه بكثير من وثائق الدولة ، كما أنه كان قريبا من مصادر الأحداث ، مما جعل ما دونه فى تاريخه موضع الثقة ، بل إن كثيرا مما أورده لا نجده فى غيره من مصادر أخرى مما دفع المؤرخين الذين جاءوا من بعده إلى الاعتماد عليه والنقل عنه .

وقد اوفده باديس فى سفارة إلى القاهرة سنة ٣٨٨ هـ لتهنئة الخليفة الحاكم بأمر الله متولى الخلافة ، وقد اصطحب معه هدية جليلة وانشد قصيدة بين يديه يذكر ولاء ابن باديس وهى

---

(١) راجع ترجمته فى فوات الوفيات نشر شاكر ٤١/١

قصيدة جيدة يقول فيها :

إذا ما ابن شهر قد لبسنا شبابه ... بدا آخرُ من جانب الأفق يطلعُ
إلى أن أقرت جيزة النيل أعيناً ... كما قرَّ عيناً ظاعن حين يرجع

ويقول :

هدية مأمون السريرة ناصح ... أمين إذا خانَ الأمينُ المضيِّعُ
وما مثل باديس ظهيرَ خلافةٍ ... إذا اختير يوماً للظهيرة موضعُ
فصير لها من دولة حتمية ... إذا نابَ خطبٌ أو تفاقم مَطمع
حسام أمير المؤمنين وسهمُه ... وسمّ زُعافٌ فى أعاديه منقعُ

ومعروف أن الصنهاجيين كانوا نواب الفاطميين على أفريقيا يحكمون بتفويض منهم ، ويخطبون لهم ويدينون لهم بالولاء حتى عهد المعز بن باديس الذى مال إلى قطع خطبتهم فى عهد الخليفة المستنصر والوزير اليازورى .

وظل الرقيق فى رحلته إلى مصر والقاهرة ردحاً من الزمن يرتاد بعض أماكنها ومنازهها ، وكان طبيعا أن ينتهز الرقيق فرصة وجوده بعاصمة الفاطميين ، بما تزخر به آنذاك من صور الحضارة والرفاهية ، لينهل من ملاهيها ومنازهها ، ويشبع نهمه إلى اللذات ، فيقضى مع شلة ممن أنس إليهم من رفاق وقته فى مجالس أنس وشراب ، ومتعة سماع وطعام ، ليملأ حاسة السمع والبصر والبطن . وأرتاد بمصر ما ارتاد من منازه أشرنا إلى بعضها كدير القصير بالقرب من الفسطاط ، وكان مشهوراً يقصده علية القوم للفرجة .

وسجل الرقيق تلك الأيام بما تحمله من ذكر جميلة فى أبياتٍ له مطبوعة بعاطفة الشوق فقال :

هل الريحُ إن سارت مُشرّقةً تَسْرِى ... تؤدّى تحيّاتى إلى ساكنى مصر
فما خطرت الا بكيْتُ صبابَةً ... وحمّلتُها ما ضاق عن حمله صدرى
ترانى إذا هبّتْ قبولاً بنشْرهم ... شممْتُ نسيم المسْك من ذلك النَّشْر
وما أنسَ من شىءٍ خلا العهدُ دونه ... فليس بخالٍ من ضميرى ولا فكرى
ليالٍ أنسناها على غرةِ الصّبا ... فطابت لنا إذ وافقت غرّة الدهر
لعمرى لئن كانت قِصَاراً أعدّها ... فلستُ بمعتدٍّ سواها من العُمْر

أخــادعُ دهْرِى أن يعــودَ بفُرصةٍ   فينقذ روحَ الوصلِ من راحةِ الهجْرِ
وترجعَ أيامٌ خلتْ بمعَاهــــــــدٍ   من اللهو لا تنفكُّ منى على ذكْرِ
فكم لى بالأهرام أو ديــــر نهيــة   مصــائدُ غــزلان المكابد والقفْــرِ
إلى الجــيزة الدنيا وما قد تضمنت   جزيرتُــها ذاتُ المواخِرِ والجِسْرِ
وبالمَقْسِ والبستانِ للعيـن منظــرٌ   أنيــقٌ إلى شاطى الخليج إلى العَصْرِ
وفى مسريقوس مستزادٌ وملعبٌ   إلى دير مرحنَّا إلى ساحِلِ البحْــرِ
وكَمْ بين بســتان الأمير وقصــرِهِ   إلى البركة الـزهراءِ من زهــرِ نضْــرِ
تراها كمرآةٍ بدتْ فـى زَفَــارِفٍ   من السُّنْدُس الموشـىِّ يُنْشرُ للتجْــرِ
وكَمْ بتُّ فى ديــر القصيــرِ مواصــلاً   نهارى بليـلى لا أُفيقُ من السُكْرِ
تُبادِرُنى بالــرَّاحِ بكْرٌ غريــرَةٌ   إذ هــتف الناقوسُ فى غُرَّةِ الفَجْــرِ
مسيحيَّةٌ خــوطيَّةٌ كُلَّــما انثنتْ   تشكَّتْ أذى الزُنّارِ من دقَّةِ الخصْرِ
وكَمْ ليلةٍ لى بالقــرافةِ خِلتُهــا   لما نلــتُ من لــذَّاتِها لَيلــةَ القدْرِ
. ســقى الله صوبَ القصرِ تلك مغانياً   وإن غنيتْ بالنِّيل عن سبَل القطْرِ

وتشهد هذه القصيدة على ما نعته ابن رشيق بقوله : « شاعرٌ سهلَ الكلامَ ، محكمه لطيف الطبع قويّه » ، ونوه عن اسلوبه الشعرى بقوله : « تَلُوحُ الكتابة على ألفاظه » .

وللرقيق من كتب الأدب التى وصلنا ذكرها ، وعرفنا مختاره كتاب « قطب السرور فى أوصاف الأنبذة والخمور » . قال عنه ابن شاكر : الذى فضح العالمين فيه . وعندى منه نسخة .

ولعله يقصد بفضح العالمين ذكره أخبار من كانوا يشربون الأنبذة والخمور من الخلفاء ، وقادة المسلمين ، وما عرضه من ملاهيهم ، وصور متعتهم[1] .

وترك ابن الرقيق عدة مؤلفات منها :

١ ــ كتاب تاريخ أفريقية والمغرب ويقع فى عدة مجلدات لا يُعلم حصرها يتناول فيه تاريخ أفريقية والمغرب منذ الفتح الإسلامى وحتى القرن الخامس . وينقل عنه جماعة منهم ابن الأثير وابن عذارى وابن خلدون[2] . وابن فضل الله العمرى ... وغيرهم .

---

(١) سبق أن عرضنا نموذجا من هذا الكتاب . والكتاب بتمامه نشره المجمع العلمى بدمشق .
(٢) لم يصلنا من هذا الكتاب سوى قطعة صغيرة قام بنشرها بتونس المنجى الكعبى .

٢ ــ كتاب النساء . وقيل إنه كبير الحجم .

٣ ــ كتاب الراح والارتياح .

٤ ــ كتاب قطب السرور فى الأنبذة والخمور[١] .

٥ ــ كتاب نظم السلوك فى مسامرة الملوك فى أربع مجلدات .

---

(١) نشر مختار له بتونس ، وتحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بنسخة فريدة منه وقد نشر بمجمع دمشق .

التجيبي

اسماعيل بن أحمد بن زُبادة البرقي

(من رجال القرن الخامس)

من أهل القيروان وسكن بالمهدية ، ويكنّى أبا طاهر ، أخذ عن أبي إسحاق ابراهيم الحصرى تآليفه .

ذكر ابن الأبار أنه سمع من أبي القاسم سعيد بن أبي مخلد الأزدى العثمانى وأبي القاسم عمار بن محمد الاسكندرانى ، وأبي الحسن على بن حبيش الشيبانى الأديب . وروى عن أبي يعقوب النجيرمى أدب الكاتب لابن قتيبة .

وكان عالماً بالآداب مستبحراً شاعراً ، مجوداً من أهل التأليف والتصنيف مع جودة الضبط ، وبراعة الخط . دخل الأندلس بعد الأربعمائة ، ثم صار إلى مصر ، وكان بها فى سنة خمس عشرة وأربعمائة زمن الظاهر ابن الحاكم وكان قد وفد إليها من الأندلس .

وذكر ابن الأبار أنه جاء فى كتابه « الرائق بأزهار الحدائق » أنه كان بمالقة من الأندلس سنة ست وأربعمائة .

وجاء من الأندلس إلى مصر فنزل بالاسكندرية ، ومكث بها زمنا حدّث عن بعض علمائها وأدبائها . وكان قد قصدها فى طريق رحلته للحج كغيره من الأندلسيين والمغاربة .

ربما تردد على مصر أكثر من مرة ، ولعله بقى بها زمناً . فقد ذكر ابن الآبار أنه قد حدث عنه أبو مروان الطبنى وقد لقيه بالاسكندرية فى رحلته لأداء الفريضة « وكان وقوفه فى موسم سنة ثمانٍ وثلاثين وأربعمائة (٤٣٨ هـ) زمن المستنصر الفاطمى .

ورافقه فى رحلته إلى الاسكندرية أبو بكر محمد بن على بن الحسن التميمى ثم الغوثى وعاد معه إلى المهدية سنة ٤١٥ هـ . ويبدو أنه غادر مصر فى زورته الأولى سنة ٤١٥ ، لأنه ذكر ممن أنشده بمصر سنة ٤١٥ أبا الحسن البصرى الشريف العباسى .

ولما عاد إلى مصر مرة ثانية فى موسم ٤٣٨ هـ أو قبلها غادرها إلى صقلية حيث التقى هناك ببعض شعرائها كأبى الحسن على بن محمد الخياط الربعى شاعر صقلية حينئذ وأنشده كثيراً من شعره .

وحياة التجيبى حافلة ، ورحلاته كثيرة ، وعلاقاته بأدباء العصر من رجال القيروان أمثال عبد الكريم النهشلى وابن رشيق وابن شرف ، وبعض أدباء القيروان محتملة ، فقد ذكر هو عبد الكريم ، كما ان ابن رشيق ذكره فى أنموذجه بين شعراء القيروان فى عصره .

وللتجيبى عدة مؤلفات . منها :

١ ـ كتاب الرائق بازهار الحدائق ذكره ابن الأبار
٢ ـ وشرح المختار من شعر بشار[1] .

ونذكر نموذجاً من شرحه لشعر بشار فى تعليق له على أبيات للمتنبى .

قال المتنبى فى وصف جيش :

وربَّ جواب عن كتاب بعثتُهُ ... وعنوانه للناظرين قتامُ
تضيق به البيداءُ من قبل نشرِهِ ... وما فضَّ بالبيداءِ عنه ختامُ
حروفُ هجاء الناس فيه ثلاثةٌ ... جوادٌ ورمحٌ ذابلٌ وحُسَامُ

قال التجيبى[2] :

« ولما جعل المتنبى الجيش جواباً عن الكتاب استعار له ، ما يكونُ للكتاب من العنوان والحروف والختام والنشر ، فجعل عنوانه القتام ، لأن القتام يدل على الجيش كما يدلُّ العنوان على الكتاب ممن هو ، وإلى من هو ، وجعل البيداء تضيق به ، وهو مجتمع ملموم كاجتماع الكتاب فى حال طيه لكبره وعظمه وقوله قبل نشره ، فنشرُه تفرقه وإغارته ، وانبثاث فرسانه . وجعل حروفه الخيل والرماح والسيوف . فأعطى الاستعارة قسطها ، ووفى الصنعة حقها » .

وقال تعليقا على قول الشاعر :[3]

ما بالُ أنجم هذا الليل حائرةً ... أضلَّتِ القصد أم ليسْ على فَلَكِ
عادت سواريه وقفاً لا حِراكَ بِهَا ... كأنها جُثَثٌ صَرْعَى بمعتركِ

وعلى ذكر هذا الشعر الكاف فقد كنتُ بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست

---

(١) طبع الكتاب بعناية السيد محمد بدر الدين العلوى مطبعة لجنة التأليف بالقاهرة ١٩٣٤
(٢) شرح المختار ص ٥ .
(٣) شرح المختار ص ١٤ .

أربعمائة ، فاعتللتُ بها مديدةً انقطعتُ منها عن التصرف ، ولزمت المنزل . وكان يمرّضنى حينئذٍ رفيقان كانا معى يَلْمَّانِ من شعثِى ، ويرفقانِ بى ، وكنتُ إذا جنَّنى الليلُ اشتد سهرى ، وخفقت حولى أوتار العيدان والطنابير والمعازِف من كل ناحية ، واختلطت الأصواتُ بالغناء ، فكان ذلك شديداً علىَّ وزائدا فى قلقى وتألُّمى ، فكانت نفسى تعافُ تلك الضّروب طبعا ، وتكرهُ تلك الأصوات حيلةً ، وأودّ لو أجد مسكنا لا أسمع فيه شيئاً من ذلك . ويتعذّر علىّ وجوده لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية ، وكثرته عندهم وإنى لساهرٌ ليلةً بعد إغفاءة فى أول ليلتى وقد سكنت تلك الألفاظ المكروهة وهدأت تلك الضروبُ المضطربة ، وإذا ضربٌ خفىٌّ معتدلٌ حسنٌ . لا أسمع غيره ، فكأنَّ نفسى أنِستْ به ، وسكنت إليه ، ولم تنفر منه نفارها من غيره . ولم أسمع معه صوتا . وجعل الضَّربُ يرتفعُ شيئاً فشيئاً ، ونفسى تتبعه ، وسمعى يُصغِى إليه إلى أن بلغ فى الارتفاع إلى مالا غاية وراءه ، فارتَحتُ له ، ونسيتُ الألم ، وتداخلنى سرورٌ وطرب ، خيِّل إلىَّ أن أرض المنزل ارتفعت بى ، وأن حيطانه تمور حولى . وأنا فى كل ذلك لا أسمع صوتاً . فقلتُ فى نفسى : أما هذا الضربُ فلا زيادة عليه ، فليت شعرى كيف صوتُ الضارب ، وأين يقع من ضربه . ولم ألبث أن اندفعت جاريةٌ تغنّى فى هذا الشعر بصوتٍ أندى من النوّار غِبَّ القطار ، وأحلى من الباردِ العذبِ على كبِدِ الهائم الصبّ فلم أملك نفسى أن قمتُ ورفيقاىَ نائمان ، ففتحتُ البابَ وتبعتُ الصوتَ ، وكان قَريباً منى فاطّلعتُ من وسط منزلى على دارٍ فسيحةٍ ، وفى وسط الدار بستانٌ كبير ، وفى وسط البستانِ نحوٌ من عشرين رجلاً قد اصطفّوا وبين أيديهم شرابٌ وفاكهةٌ وجوارٍ قيام « بعيدان وطنابير وآلات لهو ، ومزامير لا يحرّكنها ، والجاريةُ جالسةٌ ناحيةً ، وعمودها فى حجرها ، وكلٌّ يرمقها ببصره ويوعيها سمعه ، وهى تغنى وتضربُ ، وأنا قائم بحيث أراهم ولا يرونى . وكلّما غنت بيتاً حفظتهُ ، إلى أن غنت عدة أبيات وقطعتْ . فعدتُ إلى موضعى يشهد الله وكأنما أُنْشِطْتُ من عِقال ، وكأنْ لم يكنْ بى ألم . وقد وعيتُ الأبيات وهى :

ما بالُ أنجم هـذا الليـل حائرةً ... أضلَّتْ القصدَ أم ليست على فَلَكِ

عادت سَوَارِيهِ وقفاً لا حَرَاكَ بها ... كأنما جُثَثٌ صـرعى بمُعْتَـرَكِ

ما تنقضِى ســاعةٌ منه فتطمِعنى ... به ، ولا هو فى وجـهٍ بمُنسَلِك

هل من بشيرٍ بنور الصبح تنقذنى ... بُشراهُ من طولِ وجـدٍ غيرِ متَّرِكِ

فقد أجدَّ التواءُ الدين لى شـجنا ... وأضجعتنى تباريحى على الحَسَك

خذ يا شمولُ كؤوس الراح مُتْرَعةً فسقّنيها ولا تسألْ عن الـدَّركِ
وهج بألحانك الطنبور إن له على شجون المعنّى سطوة الملك

ثم انصرفتُ فى صباح تلك الليلة ، فلقيتُ صديقا من أهل العلم قرطبيًّا سكن مالقة فأخبرته الخبر وأنشدته الشعرَ ، ووصفتُ له الدار فاغرورقت عيناه . وقال الدار للوزير فلان ابن وخشون ، والجاريةُ فلانةُ البغدادية إحدى المحسنات من جوارى المنصور بن أبى عامر ، وصارت إلى هذا الوزير بعد موت المنصور وتمزّق مملكته ، والشعر قاله محمد بن قزمان فى سعيد بن أبى قنديل الطنبورى . وكان ابن قزمان يهواهُ . قلت : فما ذكر شمول فى هذه الأبيات ؟ . فقال : شمولٌ غلام صَقْلَبىٌّ من صقالبةِ المنصور ، وكان جميلاً . فلمّا غُنّىَ المنصورُ بهذا الشعر قال لمن غناه إياه : إجعل مكان سعيد شَمْولا. وكان يُغنّى به كذلك . وجرت الجاريةُ على ماكان أمرَ به مولاها » .

القولُ فى الأُرغن

قال الشريف أبو القاسم الرسّى[١]

إذا التحف الجوُّ بالأدكنِ وغنّى الحمائمُ كالأُرْغُنِ
وهبَّتْ رياحُ الصَّبا بُكرةً بريّا القرنفل والسَّوسَنِ
وحَنَّ إلى القصف ألأفُه فبادر إلى شيخك المنحنى
ففَسْ عن الحنقِ أوْداجه وسقِّ الندامىَ ولا تنثنى

قال : الأرغُنُ للروم خاصة ، وإذا سُمِعَ لن يتمالك سامعه أن يطرب ، ويُقال إنه بقيةٌ من مزامير داود عليه السلام وذكر أن اسماعيل بن الهادى دخل يوماً على المأمون وهو طائش العقل ، مستطار اللب فقال المأمون : مالك ! ويحك يا إسماعيل ؟ ! . فقال : ياأمير المؤمنين كنتُ أُكذِّبُ بأنَّ أُرغُنَ الروم يقتل طرباً . وقد صدّقتُ الآن بذلك . فتبسَّمَ المأمون ، وقال : ليس الأرغن ما سمعت إنما هى عمتك عُليّة تلقى على عمك إبراهيم صوتا من شعرها ، وهى :

ودَّعتُ من أهوى ورحتُ بحسرةٍ عجباً لقلبى كيف لن يتصدّعا
لا وجدَ إلا دونَ وجدٍ نالنى يومَ الفراقِ وقد خرجتُ مودِّعا
فإذا الأحبّةُ قد تولَّتْ عيسُهم وبقيتُ فرداً والهاً متضجّعاً

(١) من شعراء مصريين فى القرن الرابع ، [illegible] . وكان من أصحاب [illegible]

وللتجيبيُّ شعرٌ منه قوله : فى ثقيل مر به[1] :

قالوا تغاضيتَ عنا إذ مررْتَ بنا ... أم أنتَ ذو مقلةٍ إغضاؤُها خُلُقُ
قلتُ اكتحالى بكمْ فى مُقلتى رمَدٌ ... إنَّ الثقيلَ قذًى تشقَى به الحَدَقُ
لا أمنحُ الطرفَ إلاَّ من أسرُّ به ... ولا أرى بِسِوَى ذى الفضْلِ أعتلِقُ

وله فى صديق تخلف عن وعده . وكتب بها إليه :

أبا حسنٍ عِشْ وابقَ واسمُ ولا يزلْ ... مَحلُّكَ مرفوعاً إلى السّبعة الشُّهْبِ
علامَ ، وفيمَ الخلفُ للوعدِ بعدما ... وَفَيْتَ لمصفٍ فى مودَّتكمْ صبٌّ
تثاقلتَ عنه بعد علمك أنــه ... إليك فقيـرٌ فى مقابلة الكُتْبِ
وقد جُدتَ بالإحسـانِ بدءاً ولم تُعِدْ ... فرُحْتَ وقد عرَّضتَ عِرضَكَ للعتْبِ
فلو لمْ تجُدْ يُمناكَ بالغَرْسِ سالفاً ... لأرضَى لم أطْلُبْ سحابكَ بالـربُّ

وكان قد ذهب وهو بمصر إلى جهة أوسيم قُرب الجيزة ـــ بينها وبين الفيوم ، فرأى هناك من نور الأقحوان ما لم يُر مثله قط فى النضارة . وإشراق أصفره وفقوعه فى صفاءِ أبيضه ونصوعه فقال :

كأنَّ الأقحوانَ وقـد تبـدَّتْ ... محاسـنُه فراقـتْ كـلَّ عينِ
عمـادُ زبرجـدٍ وقبابُ تبرٍ ... تحُفُّ بها شُـرافاتُ اللُّجَيْنِ

ومن شعره قوله[2] :

وغيداءَ كالبـدرِ المنير تطلَّعتْ ... أو الشـمسِ بل أبهى من الشمْسِ والبدرِ
تراءتْ وأومت بالسلام وقبَّلتْ ... بناناً وألقتْ بالبنانِ على الصَّدْرِ
فكادت لها نفسى تراجعُ غيَّها ... وتهتِكُ أسرارَ الصيانـةِ والسِّتْرِ
فَنَهْنَهْتُها قسراً وقلت لها اذكرى ... عُمُودَكِ بالبيداءِ فى حـالةِ القُرِّ
وقد شارفت حُمَّاىَ بى شرف الرَّدى ... وظنَّت ظنُونى أنها آخـرُ العُمرِ
وقال رفيقى لا تخـف ودمـوعُه ... على الخـدِّ من جـرًّا مخافته تجرى
فحيـن كفاكِ اللهُ ما تحذرينَهُ ... ولجَّاكِ منه تجنحينَ إلى الغـدرِ

---

(١) شرح المختار ص ٨٣
(٢) المختار ص ١٧٨

عَدِمت إذن لُبي ، وبانت مُروءتى   وأسخطتُ أضياف وبتُّ على غمْرِ
لبِئْسَ التظنّى ما تُظنّنْتِ فايأسى   وبوئى بكفٍّ من مساعدتى صِفْرِ

قال : وأعدتُه أيضاً عند عذلٍ نالنى ممن جهل حقيقة أمرى ، وخفى عنه مكنونُ سِرّى.
لو تكسّبْتَ بالأدبْ ، ولقيتَ الملوكَ لنلتَ كلَّ أرَبِ ، وبلغتَ من الدنيا أعلا الرُّتَبْ .
فقلت :

إلى كمْ أقرُّ النفسَ فى المرتع المخْلِ   وأقنعُ من حدِّ المكاسبِ بالهزْلِ
أكلِّفُ أقلامى مدًى متماحِلاً   ولم أعتمِلْ مُهْرى ورمحى ولا نَصْلى
ومن كلَّف الأقلام لا البيض هَمَّه   أقشْنَ به بين المذلّة والقِلِّ
وقائلةٍ فارقْ سُكونَك واضطرب   فما الرزق إلا بالترحّل والخَلِّ
عَلامَ تجشّمتَ المشقّةَ طالباً   علومَ ذوى الآداب فى الحزن السَّهْلِ
ولم تلْقَ ملكاً يغمُرُ الناسَ فضْلُه   ولا سُوقةً يشْرى المحامدَ بالبذْلِ
إذا لم تنَلْ بالعلم مالاً ولا عُلاً   ولاجاناً م الأجْرِ فالعِلْمُ كالجهلِ
فقلتُ لها! منّيتِ نفسكِ ضَلَّةً   وعِلَّةُ ماضيَنها قلّةُ العقْلِ
إليكِ فما سمْعى بمصغٍ إلى الذى   تقوليه فاقْنىْ من حبائلِك يا تمْلِ[1]
أمِثلِىَ يبغى الرّزقَ من غير ربِّه   وذو العرْشِ رزّاقُ الورَى واسعُ الفضْلِ
إذَنْ لاسعت بى فى الهياج طِمِرّةٌ   وأسخطتُ أضيافى وغمتُ على التَبْلِ
جريتُ على آثارِ أسْرتى الأولى   شأوْا فى مدى العلياءِ بالقولِ والفعلِ
ولا خير فى فرعٍ إذا طاب أصلُه   ولم يكُ ذا طيبٍ يدُلُّ على الأصْلِ

* * * *

(١) تمل مرخم «تملث» اسم امرأة

المصَــادر وَالمَراجــــع

المصادر والمراجع

١ ـــ اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا/للمقريزى

٢ ـــ الإبانة عن سرقات المتنبى/حققه وقدم له وشرحه إبراهيم الدسوقى البساطى ، ونشر ضمن مجموعة الذخائر (٣١) بدار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ م .

٣ ـــ أخبار مصر/للمسبحى تحقيق وليم ج ميلورد ـــ طبع الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

٤ ـــ أخبار مصر فى سنتين/للمحاسبى ـــ طبع المجمع العلمى .

٥ ـــ أدب الخواص للوزير المغربى/تحقيق الشيخ محمد الجاسر ـــ طبع الرياض سنة ١٩٨٠ م .

٦ ـــ الإشارة إلى من نال الوزارة ـــ للصيرفى .

٧ ـــ الاعتبار/تحقيق فيليب حتى طبع ليدن سنة ١٨٨٤ م ، برنستون سنة ١٨٨٦ ، ١٩٣٠ بالولايات المتحدة الأمريكية .

٨ ـــ أعيان الشيعة .

٩ ـــ الأفضليات تحقيق الدكتور/وليد قصاب ، الدكتور/عبد العزيز المانع ـــ طبع دمشق (مطبوعات مجمع اللغة العربية سنة ١٩٨٧ م ، سنة ١٩٨٢ م) .

١٠ ـــ الإيناس بعلم الأنساب تحقيق إبراهيم الإبيارى وطبع ونشر دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصرى بالقاهرة ١٩٨٠ م .

١١ ـــ بدائع البدائة لعلى بن ظافر الأزدى ـــ تحقيق/أبى الفضل إبراهيم .

١٢ ـــ البيان والإعراب للمقريزى دراسة د. عبد المجيد عابدين ـــ طبع عالم الكتب بالقاهرة سنة ١٩٦١ م .

١٣ ـــ تاريخ أفريقيا والمغرب للرقيق القيروانى تحقيق المنجى الكعبى نشر تونس .

١٤ ـــ تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن إبراهيم حسن ـــ طبع مكتبة النهضة سنة ١٩٧٢ م .

١٥ــ تاريخ الفارق (أحمد بن يوسف بن على) تحقيق الدكتور بدوى عبد اللطيف عوض ــ طبع دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٧٤ م .
١٦ــ تاريخ المسبحى طبعة الورد تحقيق د. حسين نصَّار .
١٧ــ تاريخ الموسيقا العربية د.و.ج فارمر ترجمة د. حسين نصار من سلسلة ألف كتاب رقم (٧) ــ طبع مكتبة مصر بالفجالة ١٩٥٦.م .
١٨ــ التصوير عند العرب زكى محمد حسن ١٩٤٢ ك .
١٩ــ تعريف القدماء بأبى العلاء ــ جمع وتحقيق د. مصطفى السقا وبعض الأساتذة ــ طبع الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٤٤ .
٢٠ــ ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى تحقيق/أبى الفضل إبراهيم ط. المطبعة الوهابية ١٣٠٠ هـ .
٢١ــ حسن المحاضرة للسيوطى (جلال الدين) مطبعة الكتبى القاهرة ١٣٢١ هـ .
٢٢ــ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ــ آدم ميتز ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة .
٢٣ــ حياة القيروان د. ياغى ــ طبع المكتبة الإسلامى بدمشق .
٢٤ــ خريدة القصر وجريدة أهل العصر للعماد الأصفهانى ــ طبع مصر (القسم الرابع ــ شعراء المغرب) .
٢٥ــ تحقيق عمر الدسوقى ــ على عبد العظيم ــ طبع دار نهضة مصر بالفجالة ١٩٦٤ م .
٢٦ــ خزانة الأدب لابن حجة الحموى طبع مصر سنة ١٣٠٤ هـ .
٢٧ــ الخطط المقريزية (المواعظ والاعبار بذكر الخطط والآثار) لتقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى ــ مكتبة المثنى ــ بغداد .
٢٨ــ دعائم الإسلام للقاضى النعمان تحقيق آصفى فيضى نشر دار المعارف بمصر .
٣٠ــ الديارات للشابشتى ــ طبع دار الكتاب بمصر .
٣١ــ ديوان تميم بن المعز ــ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة .
٣٢ــ ديوان طلائع بن رزيك جمع/محمد هادى الأمينى ــ طبع المكتبة الأهلية بالنجف ١٩٦٤ م .
٣٣ــ ديوان ظافر الحداد تحقيق/د. حسين نصار ــ طبع مكتبة مصر بالفجالة ١٩٦٩ م .

٣٤ـ الذخيرة لابن بسام تحقيق د. إحسان عباس ـ طبع دار الثقافة ـ بيروت .
٣٥ـ الرسالة المصرية ـ أمية بن أبي الصلت ـ تحقيق عبد السلام هارون جـ ١ (من نوادر المخطوطات) .
٣٦ـ رسائل أبي العلاء ـ طبع اكسفورد .
٣٧ـ رسالة الغفران تحقيق د. عائشة عبد الرحمن ـ ذخائر العرب رقم (٤) دار المعارف ١٩٧٧ م .
٣٨ـ الروضتين لأبي شامة المقدسي ـ مطبعة وادى النيل القاهرة ١٢٨٧ هـ .
٣٩ـ رياض النفوس للمالكي .
٤٠ـ زهر الآداب تحقيق زكي مبارك لأبي إسحق إبراهيم الحصري القيرواني .
٤١ـ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت .
٤٢ـ سفرنامة لناصر خسرو .
٤٣ـ سيرة المؤيد داعي الدعاة تحقيق محمد كامل حسين دار الكتاب المصري ١٩٤٩
٤٤ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد ـ طبع مصر سنة ١٣٥١ هـ .
٤٥ـ شرح المختار من شعر بشار للتجيبي ـ طبع لجنة التأليف والنشر بالقاهرة ١٩٢٤ م .
٤٦ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الهيئة العامة .
٤٧ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد لكمال الدين الأدفوى ـ تحقيق ومراجعة سعد محمد حسن ، د. طه الحاجرى طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .
٤٨ـ ظهر الإسلام أحمد أمين ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٥٠ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ طبع درار الكتب المصرية بالقاهرة .
٥١ـ عنوان المطربات المرقصات لنور الدين علي .
٥٢ـ عيون الأخبار تأليف الداعي المطلق إدريس عماد الدين تحقيق د. مصطفى غالب ـ طبع دار الأندلس ـ بيروت .
٥٣ـ الفن الإسلامي لأرنست كونل ـ ترجمة د. أحمد موسى ـ طبع دار صادر بيروت ١٩٦٦ م .

٥٤ــ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى جزءان تحقيق محى الدين عبد الحميد .
٥٥ــ فى أدب مصر الفاطمية للدكتور/محمد كامل حسين من سلسلة ألف كتاب ــ طبع وزارة الثقافة المصرية .
٥٦ــ قانون ديوان الرسائل لعلى بن منجب الصيرفى تحقيق على بهجت بمصر ١٩٠٥ م .
٥٧ــ القاهرة مدينة ألف ليلة طبع هيئة الكتاب بالقاهرة .
٥٨ــ قطب السرور فى أوصاف الأنبذة والخمور للرقيق القيروانى ــ طبع المجمع اللغوى بدمشق .
٥٩ــ كتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ نشر المكتب الإسلامى للطباعة والنشر بيروت ــ دمشق ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م .
٦٠ــ المؤتلف والمختلف لأبى جعفر محمد بن حبيب ــ طبع أوروبا بعنوان (المختلف والمؤتلف فى أسماء القبائل) .
٦١ــ المؤنس فى أخبار تونس .
٦٢ــ المجالس المؤيدية (المائة الأولى) تحقيق وتقديم د. مصطفى غالب ــ طبع دار الأندلس بيروت ١٩٧٤ م .
٦٣ــ المجالس والمسايرات للقاضى النعمان .
٦٤ــ مجالس الإسلام ــ ترجمة عادل زعيتر .
٦٥ــ مجمل تاريخ الأدب التونسى لحسن حسنى عبد الوهاب ــ طبع مكتبة المنار بتونس .
٦٦ــ مجموعة الوثائق الفاطمية للدكتور الشيال .
٦٧ــ المختار من قطب السرور للرقيق تحقيق عبد الحفيظ منصور طبع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ــ تونس ١٩٧٦ م .
٦٨ــ المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء ــ طبع القاهرة ١٣٢٥ هـ .
٦٩ــ مصادر الموسيقا العربية ترجمة د. حسين نصار .
٧٠ــ معجم الأدباء لياقوت الحموى ــ طبع هندية ١٩٠٧ ، ١٩٢٧ م .
٧١ــ المغرب لابن سعيد المغربى تحقيق د. زكى محمد حسن ود. شوقى ضيف ود. سيد الكاشف جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣ م .

٧٢ــ مقدمة قانون الرسائل للصيرفى كتبها على بك بهجت الأثرى ونشر ١٩٠٥ م .
٧٣ــ مناهج الفكر ومناهج العبر للوطواط تحقيق/عبد العال عبد المنعم الشامى ــ طبع الكويت ١٩٨١ م .
٧٤ــ مواد البيان لعلى بن خلف ــ طبع الجامعة الليبية بطرابلس .
٧٥ــ النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة لابن تغرى بردى تحقيق د.حسين نصار ــ طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٥٦ م .
٧٦ــ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .
٧٧ــ نفخ الطيب للمقرى تحقيق إحسان عباس ــ طبعة صادر بيروت ١٩٦٨ م .
٧٨ــ النكت العصرية فى الوزارة المصرية لعمارة اليمنى .
٧٩ــ نكت الهميان ونكت العميان لصلاح الدين الصفدى ــ طبع أحمد زكى باشا بالقاهرة .
٨٠ــ نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب شرح محمد عبده تحقيق وتعليق محمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم البنا ــ مطبوعات دار الشعب .
٨١ــ الوافى بالوفيات للصفدى ــ طبع المعهد الألمانى .
٨٢ــ ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا لحسن حسنى عبد الوهاب طبع تونس .
٨٣ــ الوزير المغربى تأليف إحسان عباس طبع دار الشروق بعمان ــ الأردن ١٩٨٨ م .
٨٤ــ وفيان الأعيان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس طبع بيروت .

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الباب الثانى

الباب الثالث

الباب الرابع

النثر

الكتابة والكُتّـــاب

الباب الخامس

مشاهير الكتاب والأدباء